الجمهورية الجزائريّة الدّيمقراطيّة الشّعبيّة

وزارة التّعليم العالي والبحث العلميّ

جامعة مولود معمري، تيزي- وزو

كليّة الآداب واللّغات

قسم اللّغة العربيّة وآدابها

التخصّص: لغوي

أطروحة لنيل شهادة الدّكتوراه

إعداد الطّالبة: جميلة راجاح

الموضوع:

إسهامات علماء المغرب الوسيط في تنمية الدَّرس النَّحويِّ

أعضاء لجنة المناقشة:

- أ. د صلاح يوسف عبد القادر، أستاذ التّعليم العالي؛ جامعة مولود معمري، تيزي- وزو...... رئيسًا؛
- أ. د صالح بلعيد، أستاذ التّعليم العالي، جامعة مولود معمري، تيزي- وزو............ مشرفًا ومقرِّرًا؛
- أ. د عبد الجليل مرتاض، أستاذ التّعليم العالي، جامعة مولود معمري، تيزي- وزو.......... مناقشًا؛
- د. حسنيّة عزّاز، أستاذة محاضرة صنف (أ)، جامعة سيدي بلعباس......................... مناقشة؛
- د. يوسف مقران، أستاذ محاضر صنف (أ)، المركز الجامعيّ بتيبازة...................... مناقشًا؛
- د. محمّد الصادق بروان، أستاذ محاضر صنف (أ)، جامعة مولود معمري، تيزي- وزو..... مناقشًا.

تاريخ المُناقشة: 08 نوفمبر 2015م

بسم الله الرّحمن الرّحيم

إهـــداء

أهدي هذه الأطروحة:

إلى والدَيَّ الكريمَيْن برًّا وإحسانًا...

إلى جدّي أحمد وجَدَّتَي الجوهر ووردية ودًّا وحنانًا...

إلى الّذين تربطني بهم صلة الرّحم حبًّا وتقديرًا...

إلى كلِّ مَنْ وسعهم ذِكري، ولم تسعْهم أطروحتي للذّكر من أصدقاء في حياتي، وزملاء في الجامعة؛

إلى قارئ هذه الأطروحة...

ابنتكم وأختكم وصديقتكم وزميلتكم جميلة راجاح.

شكر وعرفان

قال الرّسول ﷺ "مَنْ لم يشكرُ النّاسَ لم يَشكرُ اللّهَ".

أشكر اللّهَ تعالى قبل كلّ شيء...

وأتوجّه بعد ذلك بخالص الدّعاء وأصدق عبارات الشّكر والثّناء إلى أستاذي المشرف الدّكتور صالح بلعيد الّذي أوّلاً كان له الفضل الأوّل في إرشادي للبحث في هذا الموضوع، وثانيًا لكرمه العلميِّ، ونصائحه القيِّمة فجزاه اللّهُ خيرًا عمّا قدَّمه لي، وآمل أنّها آتت ثمارا يانعة؛

وأثني بالشّكر إلى الأستاذ الكريم عبد العلي الودغيري الّذي أفادني كثيرًا، ولم يبخل عليَّ بسديد توجيهه؛

كما أتوجّه بالشُّكر إلى عمّال مكتبة جامع القرويّين بفاس، وكذلك عمّال مكتبة كليّة اللّغة العربيّة بمراكش الّذين قدَّموا لي خدمات جليلة فترة تربصّي؛

ولا يفوتني أنْ أتقدّم بالشُّكر الخاصّ إلى زملائي وزميلاتي طلبة العلم وإلى كاتبة المخبر يمينة. والشُّكر موصولٌ أيضًا إلى اللّجنة الموقّرة الّتي ستُناقشني؛

وإلى كلِّ من أسدى إليَّ نُصحًا وقدَّم لي مساعدةً أو حتّى مجرّد سؤال عن سير البحث، وأسأل اللّهَ أن يهَبَهم من نِعمه مثل ما أسدوا إلَيّ.

مُقَدِّمَة: الحمدُ لله ربّ العالمين الّذي تعالى حَمْدُه، وجلَّ ثناؤُه وذكره، ورَفَعَ المُتَّقين في أعلى الجنان، والصَّلاة والسَّلام على خَير الأنام، سيِّدنا المصطفى محمّد خاتم الأنبياء، وعلى آله الأطهار وصحابته الأبرار ومن سار على نهجهم إلى يوم الدِّين، وبعد؛

كان الفتحُ الإسلاميُّ لبلاد المغرب نقطةَ البداية لتاريخٍ زاخرٍ بِكلِّ مظاهر الازدهار والرّقيِّ الحضاريِّ، وذلك رغم المُواجهات الكثيرة الّتي حدثت بين البربر والعرب الفاتحين، حيث عني هؤلاء منذ وطأت أقدامهم بلاد المغرب عنايةً كبيرةً بِنَشْرِ الدِّين واللّغة العربيّة فبذلوا تحقيقًا لأهدافهم جهودًا مضنية. ومع انتشارهما – أي الدّين واللّغة– بدأ المغاربةُ يشتغلون أكثر فأكثر بالعلوم الدِّينيَّة ثمَّ بالعلوم العربيَّة من أدب ونَظْمٍ ولغة ونحو، فبرَزَ بينهم كبار العلماء الّذين عَلاَ صيتُهم وعظُمَ شأنُهم في مغربِ العالمِ الإسلاميِّ ومشرقه، وبالتّالي لم يعد الاهتمام باللّغة عامّة وبالنَّحو خاصّة مقتصرًا على المشارقة وحسب، بل تلقّفهما المغاربة فأشبعوهما دراسةً وبحثًا وألّفوا فيهما مُصنّفات حسنة نَالَ ما بَقِيَ منها من الإقبال والاهتمام الشَّيء الكثير.

ونظرًا للغموض الّذي يَكْتَنِفُ جهود علماء المغرب في الدَّرس النَّحويِّ طيلة العصر الوسيط، فقد وجدتُ نفسي أمام بحثٍ يتطلّب بَذْلَ الجهد ولا سيما مع عِلْمِي أنَّ هذا الحقل من الدِّراسات لم ينلْ حقَّه من عناية الباحثين مقارنة بالدِّراسات النَّحويَّة في الأقطار الأخرى مثل مصر والشَّام والأندلس، حتَّى إنَّ هناك من لا يُؤْمِن بفكرة أنَّ للمغاربة مشاركةً جيّدة في الدَّرس النِّحويِّ كغيرهم. وفوق هذا كلّه، فإنْ ذَكَرَ الباحثون بعض الأسماء الّتي لها أثرٌ في تنمية هذا الحقل فنجدهم يُنسِبونها إمَّا إلى الأندلس الّتي نالت شهرةً واسعةً في الاشتغال بالنّحو ولصلتها الوثيقة بالمغرب، وإمّا إلى بلاد المشرق بِحكم توافد المغاربة الكثيف عليها واستقرارهم فيها، ممَّا فَتَحَ لهم المجال للإنتاج والنَّشاط حتَّى صاروا من عِلْيَة النّحاة.

وكان ممّا دفعني إلى البحث في موضوع التّراث النّحويِّ المغاربيِّ كونه من الموضوعات الّتي لا تزال في حاجة إلى نفض الغبار عليها لقلَّة الدِّراسات حولها كما ذكرتُ أعلاه، دون أنْ أنسى فضلَ أستاذي المشرف صالح بلعيد الّذي كان أوّل من لفت انتباهي فوجَّهني إلى هذا الموضوع الّذي جاء بعنوان (**إسهامات علماء المغرب الوسيط في تنمية الدَّرس النَّحويِّ**). وقد يتساءل القارئُ أيّ مغرب أقصد، والإجابة هي أنَّ كلمة (المغرب) في هذه الأطروحة تخصُّ قطر المغرب العربيِّ الّذي يَشْمَلُ المغاربَ الثّلاثة فقط (الأدنى والأوسط والأقصى)، ولهذا لم أَقُل (المغرب الإسلاميّ) الّذي يضمُّ سائر المغارب وبلاد الأندلس الّتي كانت تحت الحُكْم المغربيِّ فترة المرابطين والموحّدين، ولهذا السَّبب اكتفيْتُ بِقول (المغرب الوسيط) مستبعدة

(الإسلاميّ) لتجنُّبِ اللّبس. ولكن التّمييز بين الكلمتَيْن لا يستثني ذِكرَ جهود الأندلسيِّين الوافدين على المغرب في الدَّرس النَّحويِّ وفضلَهم في ما بلغه من تقدُّم وازدهار في الفترة المقصودة للدِّراسة. وأمّا كلمة (الوسيط) فيُقصَدُ بها فترة **العصر الوسيط** الّتي كما حدّدها التّحقيبُ المتداول في تاريخ المغرب تمتدُّ من الفتح الإسلاميِّ لهذا القطر في النِّصف الثّاني من القرن الأوّل الهجريِّ (ق8م) إلى أوائل القرن العاشر الهجريِّ (ق16م) أيْ باختصار تناولتُ في هذه الأطروحة جهود المغاربة في تنمية الدَّرس النّحويِّ طيلة العصر الوسيط.

– **إشكالية الأطروحة:** إذا تَمَكَّنَ علماءُ المشرقِ من تركِ بصماتهم في النَّحو العربيِّ منذ القرن الأوّل الهجريِّ، فقد كان لنُحاة المغرب نصيبُهم فيه، حيث تبوّأ بعضُهم مكانة مهمّة بفضل ما قدَّموه من اجتهادات نحويّة ذات أثر فعّال في غيرهم. ولمعالجة هذا الموضوع كان عليَّ أنْ أطرح إشكاليّةً رئيسةً هي: هل حظِيَ الدَّرسُ النّحويُّ بعناية أهل المغرب بِقدرِ عناية العلماء المشارقة والأندلسيِّين؟ وتتفرّع عنها بعض التساؤلات أُلَخِّصها في الآتي:

– أيّ موقع لعلماء المغرب في مسيرة الحركة الثّقافيَّة عامّة واللّغويَّة خاصّة ثمّ النَّحويَّة بِشكل خاصّ الّتي عرفتها البلاد العربيَّة والإسلاميَّة في العصر الوسيط؟

– هل اشتهرَ المغرب في العصر الوسيط ببعض الأسماء النَّحويَّة؟

– إنْ كان هناك اهتمام بالنّحو العربيّ ففيم تتمثّل جهود علماء المغرب؟ وهل للمغاربة من كتب النّحوِ الّتي خلَّدت أسماءهم كما خلَّد (الكتاب) اسم سيبويه و(الجمل) اسم الزَجَّاجي؟

– فيم يتميَّزُ النّحوُ المغاربيُّ عن النّحو المشرقيِّ؟

– كيف هو منهج نُحاة المغرب في دراساتهم النَّحويّة؟ أو بالأحرى هل لنُحاة المغرب منهجهم الخاصّ في تناول قواعد النّحو والصّرف؟ وهل للمغاربة آراء واجتهادات نحويّة اشتهروا بها كما حدث الأمر مع نُظرائهم المشارقة؟ هل أضاف المغاربة شيئًا جديدًا إلى الدَّرس النّحويِّ؟ ما مدى أثر اجتهادات المغاربة في مُصنَّفات الآخرين؟

– باعتبار الأندلس قطرًا انضمّ إلى المغرب لفترة زمنيَّة طويلة حتَّى قال الكثير إنَّه لا مجال للفصل بين المغرب والأندلس علميًّا وثقافيًّا وسياسيًّا وغير ذلك فكيف هي طبيعة العلاقة الّتي جمعت بين علمائهما في الدَّرس النَّحويِّ؟ وما طبيعة التّداخل بين النَّحو المغاربيِّ والأندلسيِّ؟ وهل يُمكن الحديث عن النَّحو في المغرب دون الإشارة إلى فَضْلِ الأندلسيِّين في تَقدُّمِه؟

انطلقتُ في هذه الدِّراسة من **فرضيات** كثيرة، أهمّها أنَّ جهود المغاربة في الدَّرس النّحويِّ طيلة العصر الوسيط لا يُعرف عنها سِوَى القليل، وهي بذلك تبقى في حاجة إلى العناية؛ لأنَّ

ثمّة من الجهود ما يستحقُّ الدِّراسةَ والإشادة، فصحيحٌ أنَّ النّحوَ العربيَّ اكتمل ونضج على أيدي العلماء المشارقة، ولكن ذلك لا يعني أنَّه لا صلة لنُحاة المغرب بهذا الحقل. ولأنَّ نحوَ الأندلسيِّين نَالَ من العناية الكثير مقارنةً بِنَحْوِ المغاربة، فقد ارتأَيْتُ في دراستي هذه التَّركيز على جهود النُّحاة ذوي الأصول المغاربيَّة والتَّعريف بِما قدَّموه. ولكن دون أنْ أستبعدَ فَضْلَ الأندلسيِّين الّذين استقرُّوا في المغرب طلبةً ومدرِّسين ومؤلِّفين.

– **المنهج المتّبع:** تطلَّبَ منِّي موضوع الأطروحة اعتماد **المنهج الوصفيِّ التَّحليليِّ** وهو المناسب لذلك، فهو يقوم على وَصْفِ الظّاهرة فتحليلها، ثمّ نقد الظّاهرة والتّقعيد لها وإصدار الأحكام. وقد تمكَّنْتُ في هذه الدِّراسة من تتبُّع مراحل تقدُّم الدَّرس النّحويِّ في المغرب، وَوَصْفِ جهود النّحاة البارزين، وعرض آرائهم ثمّ تحليلها واستقراء مضامينها وتصنيفها وِفقًا لِمَا تقتضيه طبيعة الموضوع، مستهدفةً إبراز ما للنَّحو المغاربيِّ من خصائص ذات أثر في آراء المتأخّرين ومناهجهم في التّأليف ولا سيما طلبتهم، كما يقوم هذا المنهج على النَّقد بِهدف اكتشاف محاسن تلك الجهود وما قد يتخلَّلُها من مآخذ ونقائص، وقُمْتُ في إطار ذلك بمقارنة آراء النّحاة المغاربة مع بعضهم بعض، ومع غيرهم من النُّحاة المشارقة والأندلسيِّين. واعتَمَدْتُ إلى جانب ذلك المنهجَ التَّاريخيَّ بهدف متابعة الأحداث الّتي شهدها المغرب في العصر الوسيط.

– **بنية الأطروحة:** وللكشف عن جهود المغاربة في الدَّرس النَّحويِّ طيلة العصر الوسيط ارتأيتُ أنْ يأتيَ البحثُ وفْق خطَّةٍ مكوَّنةٍ من مدخل عامّ وأربعة فصول. وأردْتُ الحديثَ في **المدخل** عن الأوضاع السياسيَّة الّتي كان عليها المغرب في الفترة المقصودة للدِّراسة، ثمّ عن الأوضاع الاقتصاديَّة والاجتماعيَّة، فكما هو معلوم خَضَعَ المغرب عامّة في هذه الفترة لِقانون النُّشوء والارتقاء، حيث كان يشهدُ من فترة إلى أخرى قيام دولة وانهيار أخرى، دولة تَنْشَأُ وَتَرْقَى ودولة تَشِيخُ وتضعفُ فتنهار.

وفي **الفصل الأوّل** الّذي جاء بعنوان **(الحركة العلميَّة في المغرب طيلة العصر الوسيط وعوامل ازدهارها)** تتبّعتُ واقعَ النّشاط الفكريّ الّذي شهدته بلاد المغرب، ونظرًا لتداخل العلوم بعضها ببعض فقد تناولت في سياق حديثي عن هذا النَشاط مُجملَ العلوم الّتي اشتغل بها المغاربة غير اللّغة والنّحو من دينيّة وطبيّة وغيرهما. ولأتحدّث بخصوص ذلك عن أهمّ العوامل الّتي أثَّرَت في النُّهوض الفكريِّ بهذا القطر عامّة، والمتمثِّلة في كَثْرةِ المراكز الثّقافيَّة الّتي كان يقصدها الطّلبةُ والعلماء من كلّ ناحية، وكذلك الرَّحلات العلميَّة الّتي كان يَقُومُ بها المغاربةُ منذ

بداية القرن الثّاني الهجريِّ إلى المشرقِ مهد الثّقافة العربيَّة والإسلاميَّة، بالإضافة إلى تشجيع الحكّام على العلم وأهله.

وأمّا **الفصل الثّاني** فقد أردتُ أنْ أتناول فيه أوّلاً **بداية الدَّرس اللّغويِّ في المغرب وتطوّره** وحاولت في ضوء ذلك الحديثَ عن دور العرب الفاتحين في نشر الإسلام واللّغة العربيَّة منذ دخولهم بلاد المغرب، ثمّ عن الظّروف الّتي أحاطت ببدايات الحركة اللّغويَّة في هذا القطر ونموّها، مع الكشف عن أشهر الأسماء الّتي أسهمت في بلورتها وتنشيطها طِيلة العصر الوسيط. وثانيًا عن واقع **الدَّرس النَّحويِّ** الّذي تتبَّعتُه منذ دَخَلَ المغربَ عن طريق الشّيوخ الأوائل الّذين قصدوا المشرق. وبعد ذلك خصَّصتُ عنصُرًا لمراحل تقدُّم الدَّرس النَّحويِّ في بلاد المغرب عامّة، والعوامل الّتي ساعدت على ذلك. وأنهيتُ الفصلَ بالحديثِ عن أشهر كُتبِ اللّغة والنّحو الّتي تداولَها علماءُ المغربِ في هذا العصر.

ثمّ يأتي **الفصل الثّالث** الّذي فصَّلتُ الحديثَ فيه عن أشهر النّحاة المغاربة خلال العصر الوسيط، وقد قدَّمتُ صورةً واضحةً عن نشأتهم وشيوخهم وتلامذتهم، ثمّ عن مُصنَّفاتهم، مع ذِكْرِ بعض من آرائهم وتوجُّهاتهم النَّحويَّة. والبداية كانت مع **أبي موسى الجُزوليّ** (ت607هـ) الّذي كَوَّنَ النّواةَ الأولى للدَّرس النَّحويِّ في المغرب بعد عودته من بلاد المشرق تاركًا وراءه المقدّمة (الجُزوليَّة)، ثمّ أتبعتُه بتلميذه **ابن معط الزواويّ** (ت628هـ) الّذي قَدَّمَ هو كذلك ما يستحقُّ الإشادة في النَّظم النَّحويِّ، وقد حاولت في ضوء ذلك التّعريف بألفيته وكتابه (الفصول الخمسون). وبعدها قدَّمت ترجمةً **لابن آجُرُّوم الصّنهاجيّ** (ت723هـ) من خلال حياته ومقدمته (الآجُرُّوميَّة) مع دراسة مجموعة من آرائه واختياراته بهدف إبراز تَوَجُّهِهِ النَّحويِّ. ورابع أهمّ نُحاة هذه الفترة **عبد الرَّحمن المكُّوديّ** (ت807هـ) الّذي سار على خطى السّلف حيث عُنِيَ بالنّحو كثيرًا، ولكن لقلَّة الدِّراسات حوله لم أتمكّن من الإحاطة بِكُلِّ ما قدَّمه في الميدان تدريسًا وتأليفًا. وكنت قد ذكرتُ إلى جانب هؤلاء أسماء نحويَّة أخرى أسهمت من قريب أو بعيد في رَوَاجِ ما يُمكن تسميتُه بالنَّحو المغاربيِّ أمثال عبد الدّائم القيروانيّ (ت472هـ) والقاضي عيّاض (ت544هـ) ومحمّد بن الحسن بن ميمون القلعي (ت673هـ).

وكان لابدَّ لي في **الفصل الرّابع** الّذي جاء بعنوان **(خصائص النَّحو المغاربيِّ وأثره في مُصنّفات المتأخّرين)** الحديث عن أهمَّ ما تميَّزَ به إنتاجُ علماء المغرب في النَّحو العربيِّ، وقد تحدّثت في إطار ذلك عن اهتمامهم الواضح بِشرح أشهر ما أُلِّفَ من كتب نحويَّة والتَّعليق عليها ككتاب سيبويه (ت180هـ) وجُمل الزَجَّاجي (ت337هـ) وغيرهما، كما تحدَّثْتُ عن موقف

المغاربة من القياس والسّماع. وبِما أنَّ بلاد الأندلس لم تَعِشْ بِمعزل عن المغرب في فترة من فترات العصر الوسيط، فقد وقَفَتْ بي هذه الدِّراسة على موضوع التّداخل النَّحويِّ بين القُطرين الّذي كان ثمرةً من ثِمار المُزاوجَة بين جهود أعلامهما. وفي الأخير تناولتُ آراء العلماء في انتماء المغاربة النَّحويِّ، ثمَّ أثرهم في المتأخِّرين ومصنّفاتهم.

وأَنْهَيْتُ الأطروحةَ **بخاتمة** تَشْمَلُ أَهَمَّ النّتائج الّتي استخلصتها من خلال متابعتي لِنشاط الحياة الثّقافيّة بالمغرب طيلة العصر الوسيط، ولا سيما للجهود الّتي قدَّمَها المغاربةُ في اللّغة عامّة والنّحو خاصّة. ثمّ أتبعتُ الخاتمة بقائمة **المصادر والمراجع** و**فهرس الموضوعات**.

– **الدِّراسات السَّابقة:** ممَّا يُذْكَرُ من الدِّراسات الّتي سلَّطَتِ الضَّوءَ على بعض جهود نُحاة المغرب في فترة من الفترات الّتي تخصُّ العصر الوسيط:

– كتاب **(تاريخ النَّحو العربيِّ في المشرق والمغرب)** لمحمّد المختار ولد أبّاه الّذي أَلَمَّ فيه بأهمّ المراحل الّتي مَرَّ بها النّحو في المشرق ثمّ في بلاد المغرب والأندلس، مع أنَّ اهتمامَ المؤلِّف منصبٌّ أكثر على إبراز جهود الأندلسيِّين متناسيًا فضل أهل المغارب الثّلاثة في الميدان.

– كتاب **(إسهامات علماء المغرب والأندلس في تأصيل الدَّرس النَّحويِّ العربيِّ خلال القرنين السَّادس والسَّابع الهجْرِيَّيْن)** لحفيظة يحياوي، اجتهدت الباحثةُ في رَصْدِ بعض الجهود الّتي قام بها علماء المغرب والأندلس في الفترة الّتي بلغ فيها الدَّرسُ النَّحويُّ أوجَه، وقد توصّلت إلى القول إنَّ جهود نُحاة القطرين متداخل بعضها ببعض.

– البحث الجامعيّ الّذي قامت به خديجة ناور بعنوان **(تطوّر الدَّرس النَّحويِّ في المغرب من العصر المرابطيِّ إلى العصر السَّعديّ)**، وهو دراسةٌ مختصرةٌ قدَّمت صورةً شاملةً عن الحركة النَّحويَّةِ الّتي عَرَفَها المغربُ الأقصى في الفترة الّتي أَرَّخَتْ لها الباحثة.

– أطروحة الدّكتوراه الّتي تقدَّم بها عمّار مصطفاوي بعنوان **(الجهود اللّغويَّة في المغرب الأوسط من القرن السَّادس إلى القرن التَّاسع الهجريَّيْن)** في جامعة تلمسان، وهي كذلك من الدِّراسات الّتي سَلَّطَت الضَّوءَ على جهود نحاة المغرب الأوسط، ولأنَّ عنوانَ هذه الأطروحة يخُصُّ المغرب الأوسط فقد اكتفى الباحثُ بالحديثِ عمَّا انفرد به نَحوُ علماء هذا القطر.

وتتميّز دراستي عمّا سبقها من دراسات في أنَّها لا تقتصر على ما قدَّمه نُحاة أحد المغارب فقط، بل تشمل جميعَ الجهود الّتي بَذَلَها نُحاة المغرب العربيِّ منذ أواخر القرن الثَّاني إلى القرن العاشر الهجريِّ، ولذلك جاء الموضوع عامًّا أوّلاً لاتّساع الرُّقعة الجغرافيَّة، وثانيًا لطول الفترة المقصودة بالدِّراسة، محاولةً في سياق ذلك إبراز خصائص النَّحو المغاربيِّ مع

رَبْطِه بِنَحْوِ الأندلسيِّين الّذي تجمعه به صِلَةٌ وَطيدةٌ، وبيان مدى تأثير النَّحو المشرقيِّ فيه ثُمَّ أثره هو – النّحو المغاربيّ– في آراء الآخرين واختياراتهم، علمًا أنَّ نحاة المغرب يقلُّ ذكرُهم مقارنةً بالأندلسيِّين وآرائهم.

ولقد واجهتني في إنجاز هذا البحث بعض الصّعوبات، أهمُّها طول الفترة الّتي أؤرِّخُ فيها للدَّرس النّحويِّ في المغرب حيث استمرَّت أكثر من ثمانية قرون، ممّا صعَّب عليَّ حصر جميع الأعلام، أضف إلى ذلك أنَّ هذه الفترة مسَّت مساحةً جغرافيّةً واسعةً وبخاصّة في العصرين المرابطيّ والموحّديّ فترة انضمام الأندلس إلى المغارب الثّلاثة. وكذلك قلَّة المراجع ذات الصلة مباشرة بالموضوع. ولكن رغمّ ذلك تحصّلت على مجموعة منها ممّا مكّنني من إنجاز هذا البحث والمواصلة فيه، حيث وجدتُ بعضَ الأبحاث الّتي تناولتْ بِصفة مباشرة واقع الدِّراسات اللّغويَّة والنَّحويَّة عند علماء المغرب في فترة زمنيّة معيَّنة، وأخرى غير مباشرة تَعَرَّضَتْ لهذه الدِّراسات في ضوء حَدِيثِها عن مظاهر الحياة الثَّقافيَّة في هذا القطر عامَّة. وفي ما يتعلّق بالجزء التَّطبيقيِّ من هذه الأطروحة فقد اعتمدتُ على الكتب المعنيَّة بالدِّراسة، وهي (المقدّمة الجُزوليَّة) للجُزولي، (الدرّة الأَلفية) و(الفصول الخمسون) لابن معط، (الآجُرُّوميَّة) لابن آجُرُّوم وشروحها، (شرح المكُوديّ) على (أَلفية ابن مالك).

و**خِتامُ قَوْلِي،** أدعو **الله** أنْ يتجاوز عنِّي أيَّ زلل وخطأ، وأنْ يجعل عَمَلي صالحًا خالِصًا لِوجهه الكريم.

و**الله** أعلم وصلَّى **الله** وسَلَّمَ وبَارَكَ على **النبيّ** محمَّد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

جميلة راجاح أيت أحمد معاتقة تيزي– وزو

الثّلاثاء 21 أفريل 2015م

المدخل

وضع المغرب في العصر الوسيط:

السياسيّ والاقتصاديّ والاجتماعيّ

بعد أنْ تمكّن العرب من فَتْحِ مصر بدأوا يتّجهون نحو بلاد المغرب لحماية حدود مصر الغربيَّة من خطر الرّوم (البيزنطيِّين) الّذين كانوا يحكمون المغرب الأدنى أو ما كان يُعرف باسم (إفريقيا) في تلك الفترة. وعلى هذا هناك من اعتبر الفتحَ الإسلاميّ للمغرب نتيجةً حتميَّةً اقتضتها طبيعة الحركة الإسلاميَّة من أجل القضاء نهائيًا على الإمبراطوريَّة البيزنطيّة المُناهضة للدّين الإسلاميّ، وقد أُرسِل عقبة بن نافع الفهري (ت63هـ) على رأسِ حملة استطلاعيَّة إلى طرابلس، حيث تَقَدَّمَ بخيله وجنوده إليها فَدَخَلَ إقليمَ بَرْقة أوّل بلاد المغرب وفتحَه، واستطاع التّحالفَ مع أهله ثمّ بلَغَ طرابلس وفزّان اللّتين تمكَّن من فَتْحِهما في وقت قصير وبسهولة. وشيئًا فشيئًا تمكّنوا من غَزْوِ ما وراءها من بلاد فَدَخَلوا المغرب الأدنى ثمّ المغربَيْن الأوسط والأقصى، ولكن لم يتم الأمر بِسهولة، بل استغرق فَتْحها مدَّة تَقْرُب من الثّمانين عامًّا، امتدّت من سنة 23هـ إلى نهاية القرن الأوّل الهجريِّ، وهي مُدَّةٌ طويلةٌ نسبيًّا مقارنةً بالفتوحات الإسلاميَّة الأخرى في البلاد الفارسيَّة والبيزنطيَّة، والسّبب الرّئيس في ذلك شدّة مِراس أهالي المغرب وشجاعتهم في القتال والمواجهة، بالإضافة إلى أسباب خارجيَّة أخرى كان لها أثرٌ كبيرٌ في تمديد هذه الفترة، منها انقسام المسلمين العرب في ما بينهم أيَّام الفتنة الكُبرى بعد مقتل عثمان بن عفّان (ت35هـ) ممَّا أدّى إلى توقّف الفتوحات الإسلاميَّة، وكذا نتيجة للغارات البحريَّة الّتي شنَّها البيزنطيُّون على الجيوش العربيَّة لِمَنْعِهِم من التقدُّم في المغرب. كما أنَّ وعُورة أراضي الشَّمال الإفريقيِّ الّتي لم يُصادفوا مثلها في الشَّام ولا في مصر وبلاد الفُرس كانت من ضمن الأسباب الّتي صعّبت عليهم الفتح والاستمرار فيه. وينبغي الذّكر أنَّ فَتْحَ العرب المغرب مَسَّ مختلف جوانب الحياة فيه، فقد جعله يندمج في جسم الدَّولة الإسلاميَّة منذ البداية بخلاف الفتوحات السَّابقة له من قبل الفنيقيِّين والرّومان والبيزنطيِّين، وذلك لأنَّ الفتحَ العربيّ كان أقوى تأثيرًا وأعمق أثرًا من هذه الفتوحات[1] الّتي غيَّرت من مصير المغرب.

وقبل أنْ أتناول الحالة السياسيَّة الّتي مرّت بها بلاد المغرب في العصر الوسيط الّذي يمتدُّ من الفتح الإسلاميِّ لهذه البلاد في النِّصف الثَّاني من القرن الأوّل الهجريِّ (ق8م) إلى القرن العاشر الهجريِّ (ق16م) أيْ منذ قيام الدَّولة الأغلبيَّة إلى غاية دخول العثمانيِّين (915هـ) إلى

[1]– يُنظر: إبراهيم حركات، المغرب عبر التّاريخ، عرض لأحداث المغرب وتطوّراته في الميادين السياسيَّة والدِّينيَّة والاجتماعيّة والعمرانيّة والفكريّة منذ ما قبل الإسلام إلى العصر الحاضر (ق14هـ و20م)، ط1. الدّار البيضاء: د ت دار السلمى للتّأليف والتّرجمة والنّشر والطّباعة والتّوزيع، ص88– 89.

شمال إفريقيا، وآخرون قالوا بأنَّه يمتدُّ من الفتح الإسلاميِّ إلى سقوط الدَّولة المرِّينيَّة[1]، لابدَّ أنْ أُوضِّح أمرًا يتعلّق بالنّاحية الجغرافيّة لهذه البلاد؛ لأنَّ هناك الكثير من الغموض والاختلاف في التَّحديدِ الجغرافيِّ لها، فبعضهم يرى أنَّ المغربَ يضمُّ المغارب الثّلاثة مع الأندلس الّتي انضمّت إليها وأصبحت تحت الحكم المغربيِّ لفترةٍ زمنيَّة، ولذلك كانوا يذكرون المغرب باسم (المغرب الإسلاميّ)، وقسَّمَ الإصطخري (ت346هـ) هذا القطر إلى مغربٍ إفريقيٍّ بمدنه وأقاليمه ومغربٍ أندلسيٍّ[2]، ممّا يدلّ على أنَّ الأندلس لم تَكُنْ ضمن حدود المغرب العربيِّ إلاَّ في ظلِّ الحدود السياسيَّة. وقليلهم يُضيف إليه مصر، وبعضهم الآخر أطلق كلمة (المغرب) على الأراضي الواقعة شمال إفريقيا وهو التَّقسيم الّذي يهمُّني، ولكن دون تجاهل التّداخل السياسيِّ والثّقافيِّ بين هذه المنطقة والأندلس لِما له من أثرٍ كبيرٍ في النَّهضة العلميَّة. ويمتدُّ هذا التّقسيم على طول ساحل البحر الأبيض المتوسِّط بين طرابلس وسواحل المحيط الأطلسي، ولا يُنسى أنَّه قبل الفتح بِقليل أيْ في أواخر الدَّولة البيزنطيَّة يُطلقُ اسمُ (المغرب) على ما يُعرفُ اليوم بتونس، وكان يُسمّى في التَّقسيم الإداريِّ لهذه الدَّولة باسم ولاية إفريقيا. وعند تحديد بعض المُؤرِّخين المغرب قاموا بتقسيمه إلى ثلاث مناطق كبيرة، مع العلم أنَّ هذا التَّقسيم لم يكن محلَّ اتفاق بين جميع المؤرِّخين والجغرافيِّين، ولكن اعتمدته هنا لغرضٍ سيتبيَّن في الفصول اللاحقة وذلك كالآتي:

– **المغرب الأدنى:** ويُسمَّى إفريقيا كما أشَرتُ في عهد الرّومان، وكذلك القيروان الّذي يُطلقه عليه بعض المؤرِّخين والجغرافيِّين، ويمتدُّ هذا القطر من طرابلس غربًا حتَّى الحدود الشَّرقيَّة الجزائريَّة، وسُمِيَ أدنى لأنَّه أدنى إلى بلاد العرب ومركز الخلافة، وقد كانت القيروان قاعدته في عهد بني الأغلب ثمَّ المهديَّة في حُكْمِ الفاطميِّين، وغدت تونس عاصمة لها اعتبارًا من الدَّولة الحفصيَّة، وهي العاصمة المُعتمدة إلى اليوم، وللإشارة كان المغرب الأدنى يَشْمَلُ أيضًا جزءًا من البلاد اللّيبيّة وهي برقة وطرابلس وفزّان، علمًا أنَّ هناك من المؤرِّخين والجغرافيِّين الّذين يُضيفونها إلى مصر.

– **المغرب الأوسط:** يتمثَّل في الأراضي الجزائريَّة الحديثة حتَّى وادي ملوية وجبال تازا الفاصلة بين المغرب الأوسط والمغرب الأقصى، مع أنّهما كثيرًا ما يُشكّلان دولةً سياسيَّة واحدة في فترات معيّنة، وكانت عاصمة الأوسط تختلف بِحسب تولي الدّول فيه، ففي عهد بني رستم

---

[1]– محمّد حجي وآخرون، معلمة المغرب، قاموس مرتّب على حروف الهجاء يُحيطُ بالمعارف المُتعلّقة بِمُختلف الجوانب التّاريخيّة والجغرافيّة والبشريّة والحضاريّة للمغرب الأقصى، د ط. المغرب الأقصى: 1997م، إنتاج الجمعيّة المغربيّة للتّأليف والتّرجمة والنّشر ونشر مطابع سلا، ج7، ص2423.

[2]– إبراهيم الإصطخري، المسالك والممالك، د ط. القاهرة: د ت، الهيئة العامّة لقصور الثّقافة، ص21.

الإباضيّ كانت عاصمته تاهرت (تيارت الآن)، أمّا في عهد بني زيري فقد كانت عاصمته أشير، ولِتصبحَ تلمسان عاصمته في عهد بني عبد الواد، كما لا أنسى بجاية الّتي كانت عاصمته في عهد بني حمّاد، وفي الأخير أصبحت جزائر بني مزغنة عاصمتة إلى الآن.

– **المغرب الأقصى:** يمتدُّ من وادي ملوية وجبال تازا شرقًا الّتي تربطه مع المغرب الأوسط حتَّى المحيط الأطلسيّ غربًا، ويضمّ الأراضي التَّابعة للمملكة المغربيَّة إلى الوقت الحالي، وكانت فاس عاصمته في عهدي الإدريسيَّة والمرِّينيَّة، وأمّا في عهدي المرابطيَّة والموحديّة فعاصمته هي مراكش، كما ضُمَّت بلاد شنقيط إلى هذا القطر.

ولأنَّ من سُنن الحياة أنْ تتأسَّسَ دولة ثمَّ تنهار وتقوم مكانها دولة أخرى، فإنَّ المغربَ شَهِد قيّامَ عدّة دول طيلة فترة الدِّراسة، وهي دول ذات فلسفات تاريخيّة مختلفة، فمنها ما قام على الوازع الدِّينيّ، وغيرها قام على الوازع السياسيِّ والحربيِّ، ما كان يحدث أنَّ كلَّ دولةٍ تقوم خلف أخرى وتستمرّ لزمن معيَّن إلى أنْ تنهار لأسباب ما. والبداية في هذه الفترة كانت مع الدَّولة الأغلبيَّة الّتي تأسَّست سنة 184هـ على يد إبراهيم بن الأغلب (ت196هـ) بالاتفاق السياسيّ مع الخلافة العباسيّة الّتي وافقت عليها بِسبب الاضطرابات الّتي شهدها المغرب ضِدَّ الولاة الّذين كانوا يتداولون على حُكْمِ البلاد بعد حملة موسى بن نصير (ت97هـ). وتأسَّست إلى جانب هذه الدَّولة في فترات متقاربة دول مستقلَّة أخرى، المدراريّة في سجلماسة جنوب المغرب الأقصى (140هـ– 296هـ)، الإدريسيّة في فاس الّتي تأسَّست سنة 172هـ، والرّستميّة في تاهرت (160هـ– 296هـ). ولكن شاء الله لهذه الدّول أنْ تنهار لأسباب كثيرة ولتخلفها الدَّولة الفاطميَّة المعروفة باسم الدَّولة العبيديَّة الّتي ظهرت في أوّل الأمر بالمغرب الأقصى سنة 296هـ بقيادة أبي عبد الله محمّد عبيد الله المهدي (ت322هـ)، وما لبث أنْ بسطت سيطرتَها على كامل بلاد المغرب[1]، بعد أنْ تَمَكَّنَتْ من القضاء على الدُّول المذكورة. وكانت الدَّولة الفاطميَّة إحدى الدّول المتطرّفة ذات النّزعة الدِّينيَّة، تقوم على أساس المذهب الشِّيعيِّ الإسماعيليِّ "وهو العلم الدِّينيّ أو الإلهيّ الموروث عن الرّسول محمّد ﷺ عن طريق علي بن أبي طالب ثمّ أولاده من بعده إلى الفاطميِّين"[2]، وقد تَولَّى عرشَها في البداية عُبيد الله المهدي (296هـ– 322هـ) ثمّ خَلَفَه ابنه القائم بأمر الله (322هـ– 334هـ) وبعده ابنه المنصور

[1]– عبد الله شريط، تاريخ الثّقافة والأدب في المشرق والمغرب، ط3. الجزائر: 1983م، المؤسَّسة الوطنيَّة للكتاب ص109.

[2]– أحمد مختار العبادي، دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، د ط. الإسكندرية: د ت، مؤسَّسة شباب الجامعة للطِّباعة والنَّشر والتَّوزيع، ص53.

(334هـ- 341هـ) وهو أوّل من لُقِّب بالخليفة الّذي توجَّه في تَوَسُّعِه نحو الشّرق. وآخرهم المعز لدين الله (342هـ- 365هـ) وكان عهدُه أزهى عهود الفاطميَّة، حيث امتدّت سيطرته على كافة أنحاء المغرب من برقة شرقًا إلى طنجة غربًا، مع التوسُّع إلى مصر وفتحها على يد قائده سنة 358هـ[1]. ولمّا أراد الفاطميّون التنقّل إلى مصر سنة 362هـ برزت دولةٌ مغربيَّة جديدة وهي الدَّولة الزيريّة الصّنهاجيّة في المغرب الأوسط تمتدُّ من سنة 362هـ إلى سنة 515هـ وكانت هذه الدَّولة في بدايتها مخلصةً للفاطميِّين في الولاء والدِّفاع عن كيان الدَّولة أيّام الخطر. ولكن بعد أن ابتعد بنو زيري عن عاصمتهم للتوَجُّه إلى المنصوريّة تركوا حُكْمَ المغرب الأوسط لسلالة أخرى تفرّعت منهم، وهم بنو حمّاد الّذين اتّخذوا بجاية قاعدةً لهم وكان ذلك منذ سنة 398هـ ولِيَنْتَهِيَ أمرُهم سنة 547هـ على يد عبد المؤمن أحد زعماء الدَّولة الموحديّة.

وتبرُز إلى الوُجودِ دولة المرابطين الّتي ظهرت دولة جديدة سنة 448هـ- 541هـ، تعود أصولها إلى حركة إصلاحٍ دينيٍّ ظهرت قبل منتصف القرن الخامس الهجريِّ في جنوب المغرب الأقصى على يد عبد الله بن ياسين الجُزولي (ت451هـ)، والّذي سمّى أتباعه منذ ذلك الوقت باسم (المرابطين) نِسبة إلى الرِّباط الّذي كان يُعلِّمهم فيه وينشر تعاليم الإسلام والدِّفاع عنها كما يُطلق عليهم اسم **الملثَّمين**؛ لأنَّ الرّجال منهم كانوا يتلثّمون ويلبسون العمامة والغفائر السّوداء. والواقع أنّ تاريخ هذه الدّولة يبدأ من الجانبِ الأيمن من المغرب، وبالضّبط في الصّحراء الغربيّة صحراء شنقيط أو ما يُعرف اليوم بموريتانيا، ففي هذه الصحراء تعيش قبائل صنهاجة الملثّمين البربريّة وأشهرها قبيلة لمتونة في الشَّمال ثمّ تليها مسوفة في الجنوب، وبعدها جدالة بالقرب من نهريْ السّنغال والنّيجر وساحل المحيط الأطلسي، وتُعتبر هذه القبائل امتدادًا لقبائل صنهاجة الشّماليَّة، وكانت تُمثِّل الدَّولة الزيريَّة الصّنهاجيّة في المغربين الأوسط والأدنى.

وترتبطُ حكاية هؤلاء بيحي بن إبراهيم الجدالي (ت446هـ) الّذي خرج من ديار الملثّمين للحجّ، مع رغبته في طلب العلم كما جَرَت العادةُ عندهم، وبعد أدائه هذه الفريضة توجّه إلى بلاد المغرب فَنَزَل القيروان بحثًا عن المدارس الفقهيَّة، وطلبًا للعلم والمعرفة الدِّينيَّة الّتي يجهلها هو وأهله، مع العلم أنَّ الجدالي هذا صعَّب عليه النَّظر في المشهد المأسويِّ الّذي يَعِيشُه أهلُ المغرب، ولذلك ظَلَّ يبحث في الأمر فاختار الرَّحيلَ حتَّى التقى بأبي عمران الفاسي (ت430هـ) الّذي أدرك مدى جهله لأمور الدِّين، ولذلك أراد أنْ يُرسِل معه فقيهًا يعود به إلى قومه وهو عبد

[1]- مرمول محمّد الصّالح، السياسة الدّاخليّة للخلافة الفاطميّة في بلاد المغرب الإسلاميّ، د ط. الجزائر: 1983م ديوان المطبوعات الجامعيّة، ص9- 10.

الله الجزولي، ولكنّ المُشكلة أنَّه واجه صعوبات كثيرة مع المُلثَّمين، فقد وَجَدَ أكثرَهم لا يُصلُّون ولا يعرفون شيئًا عن الإسلام إلاَّ الشَّهادتين أو بالأحرى إلاَّ الاسم، وكانوا يغرقون في الظّلمات والعادات السيِّئة. وبالرّغم من معارضة بعض القوم للجزولي إلاَّ أنَّه استطاع أنْ يُطْلِعَهُم على كثيرٍ من الأمور الّتي وجب عليهم فَهْمُها والقيام بها، ولكن لم يستقر في المغرب، بل انتقل إلى بلاد السّودان فالتقى بأهلها الّذين أسلموا[1]، وقد كان عددهم يزداد شيئًا فشيئًا حتَّى انتشر الدّينُ الإسلاميّ بينهم بِشكلٍ لافت للانتباه.

وبعد وفاة عبد الله بن ياسين الجزولي تولّى أبو بكر يحي بن عمر اللّمتوني (ت448هـ) قيادة المرابطين الرّوحيّة والعسكريّة، حيث قام بتوحيد صفوف جيشه من جديد بعد الكارثة الّتي حلّت به من رحيل زعيمهم المذكور. لكن بعد فترة أصبحت هذه الدّولة في يد يوسف ين تاشفين اللّمتوني المؤسِّس الحقيقيّ لها (480هـ- 500هـ) حتَّى إنَّه لُقِّبَ بأمير المسلمين لحِنكته وشخصيّته الفذّة الّتي تتمتّع بمواهب خاصّة، باعتباره الزّعيم الّذي وطّد أركانها وأعطاها كيانًا دوليًّا ثابتًا ومتينًا فإليه يعود الفضل في إتمام فَتْحِ المغرب، ففي عهده تمّ الاستيلاء على باقي المغرب الأقصى وبنى أسطولاً بحريًّا مَكَّنَهُ من العبور إلى الأندلس في منتصف ربيع الأوّل سنة 479هـ عبر مضيق جبل طارق لمّا استنجد به بعض أمرائها لِتخليصهم من النّصارى، وقد تمّ له ذلك حيث انتصر على ألفونسو السّادس (Alfonso) ملك قشتالة في معركة الزّلاقة. ولِيتمَّ الأمرُ كذلك للمرّة الثانية سنة 481هـ و483هـ حين تمكَّن من إزاحة ملوك الطّوائف وضمِّ الأندلس إلى المغرب، وكذلك ضمّ المغرب الأوسط وتوحيده مع المغرب الأقصى.

وما لمْ يكن في الحُسبان أنْ تعرفَ الدَّولة المرابطيَّة رغم قوَّتها السياسيَّة والدِّينيَّة الضّعف والانهيار بعد وفاة يوسف بن تاشفين، حيث تَولَّى ابنُه علي بن تاشفين (500هـ- 537هـ) الأمور، والّذي إنْ اتّصف بالعدل والتديّن والفضل مثل أبيه وسعى مثله كذلك في لمِّ شَمْلِ المغرب الإسلاميّ، فإنّه لم يكن كذلك في الحنكة السياسيّة والقوّة، فقد كان يُصاحب الفقهاء ويعمل بأقوالهم وآرائهم، ولكنّه لم ينتبِه إلى أهميّة مراقبة الولاة والقُضاة، الأمر الّذي جعله يغفل عن بعض أمور السياسيّة والحكم. وبعد وفاته هو تولّى أبناؤه الحكمَ وأرادوا بِدورهم الحفاظَ على البلاد المغربيَّة واحدة وموحَّدة بِما فيها الأندلس، فقد "استطاع المرابطون على وجه العموم حتّى

[1]- علي بن أبي زرع الفاسي، الأنيس المطرب بروض القرطاس أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، تصحيح ومراجعة وترجمة: كارل يوحن تورنْبِرْغ. مدينة أبسالة: 1823م، دار الطّباعة المدرسيّة، ص78- 81. بتصرّف

أواخر عهدهم الّذي دام بالأندلس زهاء خمسين عامًا، أنْ يُحافِظوا على رقعة الوطن الأندلسيِّ"[1].

ولكن رغم ذلك أراد القدرُ للمرابطين أنْ يضعفوا في كلِّ من المغرب والأندلس، ولِتكونَ البداية وقتها مع الثّورات الّتي كان يشنّها عليهم الموحّدون من وقت لآخر بقيادة محمّد بن تومرت المعروف بالمهديِّ (ت524هـ) مؤسِّس الدّولة الموحّديّة سنة 514هـ وكان ذلك بعد عودته من مصر الّتي انتقَل إليها في أوائل القرن السَّادس الهجريِّ لطلب العلم، ومكّة الّتي قصدها حاجًّا. وفي طريق إيَّابه استقرّ في قرية تينمل حيث التفّت حوله طائفة من الطّلّبة والمُريدين، وقد لقيت دعوتُه القبولَ من أكثرهم. وقبل أن يقوم برحلته هذه تلقَّى العلمَ في البداية بسبتة ثمّ مراكش الّتي كانت تُضاهي عاصمة العبَّاسيِّين في التقدُّم. وكان ابن تومرت أثناء إقامته بالمشرق يُتابِعُ وَضْعَ الخِلافَتَيْن العباسيَّة والفاطميَّة أيضًا الّتي لاَحَظَ فيها معالم السُّقوط والانهيار، كما كان يُلاحظ في الوقت نفسه أنَّ الدّول الأوربيَّة تسعى إلى جَمْعِ شَمَلِ جيوشها وتوحيد رأيِها لإعلان الحرب على المُسلمين وغزو بلادهم. وإنْ دلَّ هذا على شيء فإنّه يدلُّ على أنَّ ابن تومرت أفاد كثيرًا من رحلته المشرقيَّة، وبالأخصّ في أمور الدِّين والسُّنة والسيَّاسة أيضًا.

واستمرّ ابن تومرت في محاربة الدَّولة المرابطيَّة إلى أنْ أدركه الأجل، ولكن دون أنْ يُحقِّقَ الهدفَ ويشهد هذه الدَّولة تنهار نهائيًا. ولذلك آلت تقاليد الأمور بعده إلى تلميذه ورفيقه عبد المؤمن بن علي الكُوْمي (542هـ- 558هـ) الّذي انتصر على المرابطين في معظم معاركه معهم، وآخرها المعركة الّتي تمكّن فيها من دخول العاصمة مراكش، حيث استطاع هو وجيوشه السيطرةَ عليها ولِيتمّ القضاء بِشكلٍ نهائيٍّ على المرابطين بعد قَتْلِ آخر أمرائهم إسحاق بن علي بن يوسف بن تاشفين (540هـ- 542هـ)، ومن حينها بدأ عبد المؤمن بن علي يتوسّع على حساب الأراضي المُجاورة له بالمغرب الأقصى، فاستطاع أنْ يضمَّ المغربيْن الأوسط والأدنى ثمّ الأندلس إلى حكمه[2]، الّتي حارب من أجلها النّصارى إلى غاية سقوط المدن الأندلسيَّة الواحدة تِلْوَ الأخرى خلال السّنوات الخمس بعد الأربعين والخمسمائة، واستظلّت جميعها تقريبًا تحت رايات الموحّدين، إذْ كان لهؤلاء رغبة في "تكوين دولة موحَّدة في المغرب الإسلاميِّ وتحَمُّلِ

[1]- محمّد عبد الله عنان، عصر المرابطين والموحّدين في المغرب والأندلس، ط1. القاهرة: 1964م، مطبعة لجنة التّأليف والتّرجمة والنّشر، القسم1، ص27.

[2]- يُنظر: محمّد بن أبي دينار، المؤنس في أخبار إفريقيا وتونس، ط1. تونس: 1286، مطبعة الدّولة التونسيّة ص110- 113.

مسؤوليَّة الدِّفاع عن الإسلام في هاته [هذه] المنطقة الواسعة"[1]، وعلى هذا توسَّعت خريطة المغرب فأصبحت حدوده الجغرافيَّة والسياسيَّة تشمل المغارب الثَّلاثة والأندلس.

ولمَّا توفي عبد المؤمن بن علي خلفه في الحُكْم ابنُه أبو يعقوب يوسف (558هـ-580هـ)، وهو كذلك مثل أبيه في حكمه، فقد كان عادلاً وصاحب دين وحقّ في أحكامه ومناهضًا لِمختلف أشكال الظّلم والبغض، ومجاهدًا في سبيل الله، يتدبَّرُ أمور بلاده بنفسه. ولكن بعد وفاته هو كذلك خَلفَه ابنُه أبو يوسف يعقوب المنصور (580هـ- 595هـ) الّذي عُدَّت فترة حكمه أزهى الفترات الّتي شهدتها الموحّديّة، حيث كانت في أوجّ أيّامها "وتعدّ السّنوات الخمس عشرة الّتي حَكَمَ فيها أبو يوسف يعقوب المنصور العصر الذَّهبيّ لدولة الموحّدين والذّروة الّتي بلغها التطوّر السياسيّ في بلاد المغرب نحو التواجد"[2]، فقد عرفت هذه الدّولة في عصره أعظم الإنجازات الّتي خلَّدت اسمَه في شتى المجالات، حيث كانت هذه الفترة تُمثِّلُ العهد الذّهبيِّ لبلاد المغرب والأندلس عامّة، حيث حظِيَت بكثير من الاستقرار والهدوء، وتميَّزت بنشاط العمران وازدهار آفاق الفنّ والعلوم والحضارة، أو بالأحرى تَمَتَّعَ الموحّدون في هذين القطرين بحياة آمنة ومستقرّة، بعيدًا عن مسرح الثّورات والحروب.

وبقِيَ الوضعُ على حاله طيلة حُكْمِ الموحّدين من 524هـ إلى 667هـ، ولكن بموت أبي يوسف يعقوب المنصور (ت595هـ) بدأت دولتهم تعرف الاضمحلال والضّعف وبالأخصّ بعد موقعة العقاب المشؤومة الّتي خاضها ابنه المستخلف محمّد النّاصر لدين الله (ت610هـ) سنة 609هـ مع الممالك النّصرانيّة بقيادة ألفونسو الثّامن ملك قشتالة وأخفق فيها، ولِتبقى هذه الموقعة بداية النّهاية في تاريخ الموحّدين ببلاد الأندلس، ففي هذه الموقعة أحرز "القشتاليّون نصرهم السّاحق على جيوش الموحّديّة بقيادة محمّد النّاصر ولد المنصور سنة (ت609هـ)، والّتي كانت ضربةً قاضية لِقِوَى الموحّدين بالأندلس والمغرب"[3]، ولِتنقسمَ بعد ذلك الدّولة الموحّديّة حيث بدأ العصيان يظهر من رؤساء العشائر وأخذوا في الاستبداد بالإدارة؛ لأنَّ الحكّام الّذين جاءوا بعد محمّد النّاصر ملوك ضعفاء لعبت بهم الأهواء، وبالتّالي لم يتمكّنوا من السّيطرة على الوضع وبخاصّة مع اتساع رقعة البلاد الّتي كانت تضمُّ الشَّمال الإفريقيّ والأندلس. فقد عاشت البلاد في هذه المرحلة المتأخِّرة من حياة الموحديّة حالةَ رُعب وخصومات شديدة من أجل سلطة

[1]- محمّد زنبير، "المغرب في العصر الوسيط الدّولة- المدينة- الاقتصاد" مجلّة سلسلة بحوث ودراسات رقم24 منشورات كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة، ط1. الرّباط: 1999م، مطبعة النّجاح الجديدة الدّار البيضاء، ص67.

[2]- حسين مؤنس، معالم تاريخ المغرب والأندلس، د ط. د ب: 2004م، دار الرّشاد، ص223.

[3]- محمّد عبد الله عنان، عصر المرابطين والموحّدين في المغرب والأندلس، القسم1، ص28.

الحكم، والسّيطرة، حتّى إنّ المناصب الحكوميّة أضحت سلعًا تُباعُ وتُشْتَرى بِشتى الطّرق، ومن ذلك الوقت لم تعد الموحديّة مترامية الأطراف كما في طور شبابها، فقد شاء القدر أنْ تنتهي باستيلاء بني مرّين بزعامة يعقوب بن عبد الحق (ت685هـ) سنة 668هـ على مراكش، ولِتبرُزَ بعدها الدّول الثّلاث، أوّلها الحفصيّة بالمغرب الأدنى الّتي تُنسَبُ إلى رجل من خَاصَّةِ ابن تومرت وأحد تابعيه يُكنَّى أبا حفص، وصمدت هذه الدَّولة على عهد أبي محمّد الحسن المتولي إلى أنْ سقطت نهائيًّا سنة 932هـ وهو آخر حُكَّامها. والدّولة الثّانية قادَها بنو زيان أو ما يُسمَّى بدولة بني عبد الواد مقرّها تلمسان بالمغرب الأوسط، وهي قبيلة بني عبد الواد أحد بطون قبيلة زناتة، وأوّل أمرائها يغمراسن بن زيان بن ثابت (ت681هـ) الّذي أعلن استقلاله بإمارة تلمسان سنة 633هـ، وبلغت حدودُ هذه الدَّولة حتّى دلس وبجاية شرقًا وصولاً إلى الآراضي المغربيّة غربًا، واستمرّت دولة بني عبد الواد من فترة حُكْم يغمراسن سنة 633هـ إلى سنة 957هـ، وللعلم كان بنو عبد الواد ولاة للموحّدين قبل أنْ تضعفَ وتسقط نهائيًّا. وأمّا الدّولة الثّالثة فقد قادها بنو مرّين بالمغرب الأقصى، تمّ الإعلان عنها إثر انهيار الموحّديّة وهي دولة لم تصل إلى الحكم بِدافعٍ دينيٍّ كما حدث مع الإدريسيّة والمرابطيّة ثمّ الموحديَّة، بل تأسَّست لأسباب سياسيَّة محضة. وفي ما يخصّ نَسَب بني مرّين فثمّة تضارب بين أقوال المؤرّخين، فبعضهم أرجعه إلى البربر (قبيلة زناتة). وبعضهم الآخر أَكَّدَ عروبَتَهم وغيرهم قالوا إنَّ أصلَهم من أوربا كسائر القبائل البربريَّة، ولكن تبقى هذه الأقوال مجرّد آراء لم تكن في مُجْمَلِها مبنيّةً على أسس علميَّة وأدلَّة موضوعيَّة مستمدَّة من التَّاريخ المغربيِّ[1] وهو الرّأي الأرجح. ونشبت بين المرّينيِّين والموحّدين صراعات وحروب للتزاحم على الحُكْمِ مع أنَّ الانتصار كان حليفًا لبني مرّين في النّهاية، حيث استطاعوا التخلُّصَ من آخر الموحّدين في مراكش، ومن وقتها شرع بنو مرّين في تكوين جيشٍ قويٍّ حفاظًا على المناطق الّتي سيطروا عليها، كما حاولوا بَسْطَ نفوذِهم على كامل البلاد المغربيَّة وتأسيس دولة كبيرة على نمط الدَّولة الموحّديَّة، وقد تمكّنوا من ذلك لِفترةٍ وجيزةٍ حيث أصبحت دولتهم إقليميَّة مقرّها فاس، ولُقِّب سلطانُها بأمير المسلمين، واستطاع بنو مرّين احتلالَ تلمسان مرَّتين ولكن لم يرضخ بنو زيَّان للأمر، حيث جرَت بينهم صراعات شديدة رغبةً في السّيطرة على الشّمال الإفريقيّ لِصالح بني حفص مع أنَّ ذلك لم يدمْ طويلاً بسبب ضعف الدّولتين الزيانيّة والحفصيَّة. ولكن قبل أنْ تضعفَ المرّينيَّة كان الانتصار من نصيبِها دومًا وبخاصّة في عهد أبي الحسن المرّينيِّ (ت737هـ) الّذي قَضَى على الدَّولتين العبد الواديَّة

[1]- محمّد بن شقرون، مظاهر الثّقافة المغربيّة دراسة في الأدب المغربيّ في العصر المرّينيّ، د ط. الدّار البيضاء: 1985م، دار الثّقافة، ص17. بتصرّف

والحفصيّة في أوائل القرن الثّامن الهجريّ واستطاعَ أنْ يُحقِّقَ وحدةَ المغرب مرّة أخرى بِضَمِّ المغارب الثّلاثة وللإشارة كان لبني مرّين أسطولٌ يجول البِحار شرقًا وغربًا واستمرّ حكمُهم إلى غاية سنة 869هـ وبعد أنْ دخلت دولتهم مرحلة الاحتضار ثمّ الانهيار ظهرت الدَّولة الوطاسيَّة وسط اضطرابات شديدة هَزَّتْ أركان البلاد، وحكَم الوطاسيُّون نحو قرن منذ تأسيس دولتهم سنة 869هـ إلى سنة 961هـ، وفي ما يخصُّ الجزء المتبقّي من المغرب فقد بدأ يُسيطر عليه الأتراك منذ سنة 915هـ، وأمّا بالنِّسبة للأندلس فاستقلّت بواسطة أمرائها الحمويِّين، وبالتّالي لم يعد المغرب الإسلاميّ يُمثِّلُ دولةً سياسيَّة واحدة منذ ذلك الوقت.

هكذا أجدُ نفسي أمام سرد لأحداث كثيرة ومختلفة كانت نتيجةً لِقيام دول وسقوط أخرى في بلاد المغرب منذ الفتح الإسلاميّ، وإنْ تَطَرَّقتُ لِمثل هذه الأحداث، فذلك بِهدف كشف حقيقة الأوضاع السياسيّة الّتي كان لها أثر مباشر وغير مباشر في الحياة الثّقافيّة بهذه البلاد خلال العصر الوسيط، فقد تصارعت من أجل الحُكْمِ والسّيطرة أكثر من دولة، وتداول على حُكْمِها أكثر من خليفة أو مسؤول.

وفي ما يخصُّ وضع المغرب الاقتصاديّ فمن المُؤكّد أنّه سيكون مختلفًا من دولة إلى أخرى لاختلاف الأرضيّة السياسيَّة والفكريَّة، فإذا كانت الدّولة الفاطميّة مثلاً ذات وازعٍ دينيٍّ فلِغيرها من الدّول القائمة بعدها مطامع أخرى وأرضيَّات مختلفة. وعرفت بلاد المغرب على عهد هذه الدُّول (الأغلبيّة والرّستميّة والإدريسيّة والمدراريّة) استقرارًا اقتصاديًّا جعل الأهالي يعيشون حياةً راقيةً رغم الأحداث السيّئة الّتي تشهدها البلاد من وقت إلى آخر. وكذلك الأمر في عهد الفاطميِّين حيث ازدهرت الصّنائع من تجارة وحدادة وزركشة وغيرها، ونشطت التّجارة برًّا وبحرًا لاتّساع رقعة هذه الدّولة اتّساعًا عظيمًا، ولا سيما في عهد المعز لدين الله الّذي كان أعظم ملوك الفاطميَّة وأجلّهم خطرًا مع حبِّه للعلم والآداب، حيث بلغت الدّولة أوج أيّامها، وكانت تجارتها مزدهرة مع السّودان والسّاحل "وفي العصر الوسيط شهد المغرب نشاطًا تجاريًّا مُهمًّا بِفعل تنظيمه للمبادلات مع المناطق الواقعة جنوب الصّحراء. ويعود تاريخ العلاقات التّجاريّة ما بين المغرب والسّودان العربيِّ إلى عهود ضاربة في القِدم، غير أنَّ المرحلة المُمتدَّة بين القرن الرَّابع (10م) والقرن الثّامن (14م) تمثّل العهد الذّهبيّ لهذه العلاقات نظرًا لِمَا عرفته من انتظام في عمليّة الاتّصال والتّواصل وما ترتّب عن ذلك من تفاعلٍ حضاريٍّ في مُختلف المجالات"[1]. كما كانت الفلاحة في هذه الفترة وزراعة القمح والشّعير ومختلف أنواع الحبوب مزدهرة ازدهارًا

---

[1]- محمّد حجي وآخرون، معلمة المغرب، ج7، ص2271.

لا مثيل له. لكنّ حال البلاد لم تعدْ كذلك في آخر أيّامها بِسبب كثرة الخلفاء الّذين حكموها، فقد انعكس الأمر على الاقتصاد فساءت الأوضاع بِتعاقب المجاعات والأوبئة وغيرها.

وبِخصوص حديثي عن أوضاع المرابطين الاقتصاديَّة، أَوَدُّ أنْ أتحدّث أيضًا عن الوضع الاقتصاديّ لدولة بني حمّاد بالمغرب الأوسط الّتي تنقلب أوضاعها بين مراحل مختلفة بِسبب تأثير العوامل السياسيّة المحيطة بها. وبعد عودة الاستقرار والأمن إلى المجتمع الّذي شهد اضطرابات قُبيل الإعلان عن قيام الدَّولة تَحقَّقَ الرقيّ الاقتصاديّ نتيجة الاهتمام الكثير بالثَّروة الدّاخليّة بِما فيها من ثروة فلاحيّة وحيوانيّة كزراعة الحبوب وصناعة السّفن وغيرها. ولها اهتمام أيضًا بالتّجارة وبخاصّة الخارجيّة، وساعدها على ذلك عاصمتها بجاية الّتي كانت منطقة عبور بلمختلف القوافل القادمة إلى القلعة من مختلف دول المغرب والمشرق[1]، ولذلك توفّرت للسكّان حاجياتهم الضّروريَّة والثّانويَّة.

وعرف الاقتصادُ المغربيُّ عامّة الانتعاشَ بعد تأسيس الدَّولة المرابطيَّة، حيث تركت الأوضاع الّتي تمخَّضت عن قيامها "آثارًا بارزة في الميدان الاقتصاديِّ، ولا نكون مغالين إذا قلنا إنَّ الأحوال الاقتصاديَّة في البلاد كانت أكثر تأثّرًا بالظّروف الّتي أدّت إلى قيام الدَّولة من أيّة ناحية أخرى من نواحي الحياة في المغرب في القرن الخامس الهجريِّ وأوائل السّادس. وقد كان التّوحيد بين السّودان والمغرب والأندلس ذا نتائج بعيدة الأثر في تاريخ التِّجارة الدَّاخليَّة والخارجيّة"[2]، ممّا حقّق الازدهار الواسع، فقد اهتمّ المرابطون بِمختلف نواحي الاقتصاد، وسعوا من أجل تحقيق الرقيِّ واعتماد أساليب اقتصاديّة متطوّرة وبالأخصّ بعد أنْ صارت الأندلس ولاية تابعة لها حيث تطلّب منها الأمر مدّ جسور التواصل بينها. واستطاع المرابطون حينها توفير حاجيات السكان ومتطلّباتهم في الفلاحة والصِّناعة والملاحة، حتَّى إنَّهم كانوا يصدِّرون الكثير من المنتوجات الزراعيَّة، بالإضافة إلى ما حقّقوه من نشاطٍ صناعيٍّ وتجاريٍّ مهم.

ونظرًا للأوضاع السياسيَّة والاقتصاديَّة والاجتماعيَّة الّتي سادت بلاد المغرب إلى جانب الأندلس طيلة حكم المرابطين ولا سيما في أيّامها الفتيّة، فقد شهدت اضطرابات بعد سقوطها وقيّام الموحديّة، إذْ ما إنْ أرست هذه الأخيرة نظامها وسياستها عادت البلاد إلى سابق عهدها حيث ساد الأمن من جديد، وبدأت الأوضاع تتحسَّنُ وتكون على أفضل حال، حيث عرفت

[1]- عبد الحليم عويس، دولة بني حماد صفحة رائعة من التّاريخ الجزائري، ط2. القاهرة: دار الصّحوة للنّشر والتّوزيع 1991م، ص219-229 .

[2]- حسن أحمد محمود، قيام دولة المرابطين صفحة مشرقة من تاريخ المغرب في العصور الوُسطى، د ط. القاهرة: د ت، دار الفكر العربيِّ، ص399.

ازدهارًا ماليًّا كبيرًا، والبداية في عهد أبي يعقوب يوسف الّذي وَفَّرَ للنَّاس الترفّه، ولكن قبل ذلك كان الوضع متأزّمًا في الفترة الّتي اصطدم فيها المرابطون والموحّدون، حيث غلت الأسعار بِمراكش وعرف المغربُ كلّه الفقرَ المدقع بِسبب الجفاف والاضطرابات السياسيَّة، وحتّى في فترة فَتْحِ علي بن يوسف بن تاشفين الأندلس أُرْهِقَ الاقتصاد المغربيّ نتيجةً للحروب الكثيرة الّتي خاضها. ثمّ في عهد المنصور الّذي نشطت في فترة حُكْمِه مُختلف فروع الصِّناعة فقد كانت فاس وحدها تضمّ اثني عشر مصنعًا لِسبك النّحاس، وأحد عشر مصنعًا لعمل الزجاج ومائة وثماني وثمانين دارًا لِصُنْعِ الفخّار وغيرها من المصانع المُختلفة[1]. هذا وقد عرفت التّجارةُ في عهدها التطوّر والنّشاط أيضًا، حيث "ربط العرب بِقوافلهم التجاريّة بين الجهات الشّماليّة والجنوبيّة، وقوِيَ اتّصال المغرب بالمشرق تجاريًّا برًّا وبحرًا، ونظّمت التِّجارة الأوربيَّة مع المغرب تنظيمًا دوليًّا وكانت في الدّرجة الثّانية بالنّسبة لتجارة المشرق"[2]. وفي جميع الأحوال، كان وضع الاقتصاديّ فترة الموحّدين متطوّرًا، فهناك منتوجات زراعيّة متنوّعة، كما كانت الصِّناعة على جانبٍ كبيرٍ من الازدهار لم تشهده أيّة دولة قبلها.

أمّا بِخصوص الوضع الاقتصاديِّ للدّولة المرِّينيَّة، فتبدو كذلك في حال أفضل، حيث انعكست حالة الاستقرار الّتي سادت البلاد على حركتها التّجاريّة؛ لأنَّ خلفاءها كانوا حريصين دومًا على توفير الأمن والهدوء فذلك كان هدفهم الرّئيس من اضطلاعهم لقيادة زمام الأمور في المغرب الأقصى. كما وفّرت للتِّجارة الأسواق الدَّاخليّة والخارجيَّة لشراء السّلع وبيعها مع توفّر الإنتاج في الصِّناعة والفلاحة باعتبارهما المصدر الأساس والقويّ لازدهار أيِّ نشاطٍ تجاريٍّ. وهذا خير دليل على أنَّ العهد المرِّينيّ تميّز بِقوّة سلطته، ممّا ساعد على تحقيق الثّراء والتقدُّم للدّولة. ولعلّ من أهمّ مظاهر الحياة الاجتماعيّة الّتي ميّزت هذه الفترة هي أنّه كثيرًا ما كانت العلاقة بين الحاكم والمحكوم علاقة مودّة واحترام، فقد جرت العادة عندهم أنْ تُشارك الرّعيّة في استقبال الوفود الّتي تحضر لزيارة حكّام المرّينيّة إظهارًا للحفاوة بتلك الوفود، وتعبيرًا عن الصّداقة الّتي تجمعهم[3]، وكلّ هذا زاد من حضارة هذه الدّولة.

---

[1]- ابن أبي زرع الفاسي، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، ص26.

[2]- مبارك بن محمّد الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، تقديم وتصحيح: محمّد الميلي، د ط. بيروت: د ت، دار الغرب الإسلامي، ج2، ص332.

[3]- محمّد عيسى الحريري، تاريخ المغرب الإسلاميّ والأندلس في العصر المرّينيّ (610هـ/1213م- 869هـ/1465م) ط2. الكويت: 1987م، دار القلم للنّشر والتّوزيع، ص292 وص332.

ولم تختلف أوضاع الدَّولتين الزيانيّة والحفصيّة عن أوضاع المرِّينيَّة، فثمّة نشاط تجاريّ محقّق فيهما معًا، ولكن من الطّبيعيّ أنْ لا تستقرّ أوضاعهما الاقتصاديّة للوهلة الأولى، ولكن بعد عودة الاستقرار إلى البلاد عاد الازدهار من جديد، ففي عهد الحفصيّة عرفت المدن الّتي تحكمها التَقدُّمَ بفضل أسواقها وتجارتها الرّائجة في أنواع الحبوب والتّمور والماشية، واشتهرت تلمسان وقتها بِصُنع النَّسيج الرّفيع من صوف وحرير، واشتهر غيرها من المناطق بِصُنع الزّجاج والسّفن. كما كانت الدّولة الحفصيّة تستورد من الخارج مختلف أصناف الزّجاج والمصوغ وأدوات الحديد الصّناعيَّة وإلخ، ولذلك تحسنّت أوضاع الأهالي بِشكل لافت[1]. وكذلك الأمر في عهد يغمراسن الّذي تغيّرت أوضاع البلاد فيه بعد عودة الأمن والهدوء، حيث استطاع محاربةَ مختلف مظاهر الفساد والفوضى، وفَرْضَ سيطرته على خصومه بالطّاعة، ممّا أَثَّر في اقتصاد الدّولة تأثيرًا إيجابيًّا فازدهرت الصّناعة والفلاحة ونشطت التّجارة وساعد في ذلك حريّة التنقّل للتّجار بِقوافلهم دون أنْ يفتِك بهم أحد[2]، ولكنّ عرف المغرب حياة اقتصاديَّةً متدهورةً لِفترةٍ معيّنة بِسبب الوضع المتردِّي الّذي آلت إليه آراضيها ومنتوجاتها الزراعيّة لانتشار الجراد والقحط الشّديد، ومعاناة الأهالي من الجوع والأوبئة، وقد كان بين الهالكين جماعة من العلماء وكبار الشّيوخ الّذين لهم أثرٌ كبيرٌ في النُّهوض الفكريّ بالمغرب.

والحديث عن الأوضاع الاجتماعيَّة في هذه الفترة ليس بالأمر السَّهل عَلَيَّ؛ لأنَّ الأوضاع تختلف من فترة حكم إلى أخرى، ولكن إنْ تحدَّثتُ عن الأوضاع الاجتماعيّة والعمرانيّة في المغرب عامّة قبل تأسيس الدَّولة الفاطميَّة لقُلت إنَّ للوضع الاقتصاديِّ انعكاسًا عليها فقد مَسَّ التطّور الجانب الاجتماعيّ والعمرانيّ حيث زالت الخلافات العنصريَّة وبخاصّة بين البربر والعرب، وتمكّن الحكّامُ من إنشاء هياكل عمرانيَّة مرموقة. والأمر ذاته في عصر الفاطميِّين الّذي بلَغَت فيه هذه الأوضاع غايةً من النَّشاط واتّساع العمران، حيث انتشر بين سكانها الرّخاءُ والبذخ، وفي عصر المرابطين ثمّة ما جعل الأهالي يتميَّزون وهو اتّخاذهم اللّثام شعارًا يُميّزهم عن غيرهم من القبائل المغربيَّة الأخرى، حيث جعلوا اللّثام سنّة يلازمونه، وبالتّالي لم يكن يُعْرَفُ الشَّيخُ من الشَّاب ولا ينزعونه ليلاً ولا نهارًا، أضف إلى ذلك أنَّ دولتَهم لم تقم على العصبيَّة ولا الدّافع السياسيِّ، بل وُجِدت لِخدمة الإسلام والعروبة. كما ساد فترة المرابطين الأمن والوحدة نتيجة لِصرامة خلفائها والتشدّد في الدِّين والسيّاسة والاقتصاد؛ لأنَّهم عانوا الكثير من

---

[1]- عبد الرَّحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ط4. بيروت: 1980م، دار الثقافة، ج2، ص73- 74. بتصرّف

[2]- محمّد بن عمرو الطمّار، محمد بن عمرو الطمّار، تلمسان عبر العصور، دورها في سياسة وحضارة الجزائر، د ط. الجزائر: 1984م، المؤسَّسة الوطنيَّة للكتاب، ص94.

الفِتَن والثّورات العنيفة الّتي مرَّت عليهم قبل تأسيس دولتهم. ولحرص حُكّام المغرب بِصفة عامّة على سلامة رعيّتهم، ففي فاس مثلاً كانوا يُطالبون بضرورة تحديد سعر اللّحوم ولهذا "قبل أنْ تُحملَ الذّبائح لابدَّ من عرضها على المُحتسِب الّذي يأمرُ بِفحصها ويُسلِّم بطاقةً مكتوبًا عليها السِّعر الّذي يجب أنْ يُباعَ به اللّحم، ويُلْزَمُ الجزّارون بِلصقِ هذه البطاقة على اللّحم بحيث يتمكّن الجميع من رؤيتها وقراءتها"[1]. ولكن لم يَبْقَ الوضعُ على حاله بعد أن انتشر الفساد وانغمس المرابطون في التّرف وشاع بينهم المُنكر، الأمر الّذي جعل ابن تومرت يُعارض ويثور على الأوضاع السّائدة.

ويحدث الأمر ذاته مع الدَّولة الموحديّة الّتي حقّقت للأهالي مثل هذه المظاهر، ففيها ينعمون بالاستقرار والأمن إلى درجة أنّه لن تجد شخصًا يسرق غيره. وكلّ هذا نَتَجَ عن سياسة الحكّام الّذين سعوا إلى تحقيق مثل هذه السّلوكات، والقضاء على مختلف مظاهر الفساد والفقر الّتي كان يتخبّط فيها سكانُها، قبل أنْ تتأسَّس دولتهم ضدّ هذه المظاهر بِشكل عام.

وفي ما يخصّ عصر الدّول الثّلاث الّتي بَرَزَت بعد الدَّولة الموحديّة، فقد عرفَت الحياةُ الاجتماعيَّة في هذه الفترة نوعًا من التدهور واللاستقرار بِسبب النِّزاعات القائمة بينها حول الحكم، وانجرّ عن ذلك خسائر فادحة لحِقت بأوضاع السكّان. ففي بداية حُكْمِ المرِّينيَّة لم تعرف المدن المغربيّة من هذه النّاحية الاستقرار بِسبب الفِتَن والحروب الّتي جرت بينها وبين الدَّولتين الحفصيّة وعبد الواديّة، ممَّا أثَّر في الوضع الاجتماعيِّ عامّة، وأمّا بالنِّسبة للمرحلة الانتقاليّة الّتي شهدها بنو مرّين فقد كانت "أطول المراحل الّتي قطعها المغرب في ظلّ الدّولة المرينيّة وأغناها أحداثًا وأشدّها تركيزًا وأكثرها عمرانًا وتطوّرًا"[2]، وهي الفترة الّتي حَكَمَ فيها أبو عنان المرّيني (ت759هـ) حيث عَرَفَ المغرب بعضَ الاستقرار والهدوء.

وأيًّا ما كان الأمر، أدركُ أنَّ الحالة الاقتصاديَّة والاجتماعيَّة للمغرب الوسيط تارةً يغمرها الأمن والاستقرار والرفاهيّة والرُّقي، وتارةً أخرى تُشكّلها الحروب واللاستقرار والاضطرابات والفساد وغيرها من المظاهر، ممّا يجعل السكّان ينصرفون عن الأمور الماديّة لاهتمامهم بالسياسة وتنظيم الجيش لِمحاربة العدوّ الّذي كانوا يُواجِهونه من حين إلى آخر.

هذا ووجدت المغربَ من النّاحية السكانيّة متنوِّع الأجناس فقد ملأه خليطٌ من العناصر السكانيّة، وفي مقدِّمتها البربر وهم سكانه الأصليُّون منذ العصور الغابرة الّذي انتشر عبر مختلف ربوعه ومدنه، فقد كانوا أهمّ عناصر سكّان المغرب وأوفرها عددًا، وعلى أكتافهم تأسّست

[1]- الحسن الوزّان الفاسي، وصف إفريقيا، ط2. بيروت: 1983م، دار الغرب الإسلامي، ج1، ص237.

[2]- محمّد بن شقرون، مظاهر الثّقافة المغربيّة دراسة في الأدب المغربيِّ في العصر المرّينيّ، ص48.

الدّولة المرابطيّة ثمّ الموحّديّة. ولفظ (البربر) لا علاقة له بلون البشرة أو الطبع كما يعتقد بعضُهم، بل هو لفظ أطلقه اليونان على كلِّ مَنْ لا يتكلّم الإغريقيَّة، وكانوا يُسمُّونهم (بارباروى). وعنهم أخذ اللاتينيّون والعرب هذه التسميّة، مع أنَّ البربر لا يُطلقون عليهم هذه التسمية، فَهُم يُعرِّفون أنفسهم بأسماء شعوبهم وقبائلهم. وينقسم البربر إلى قسميْن كبيريْن بِحسب نمط حياتهم الاجتماعيَّة والطّابع الحضاريّ، أوّلهما البربر البدو يُسمُّون البتر، والثّاني البربر الحضر ويُعرفون بِاسم البرانس[1]، ولا تزال هذه الصّفة ملتصقة بالبربر إلى اليوم.

وأمّا باقي العناصر الأخرى الّتي سكنت بلاد المغرب فكانت بنِسبة قليلة، فمنهم العرب الّذين ليسوا من سكان المغرب الأصليِّين، ومع ذلك احتلّوا المرتبة الثّانية بعد البربر؛ لأنَّ عددَهم (العرب) كان كبيرًا مقارنة بالعناصر السكانيّة الأخرى، مع أنَّ في بداية توافدهم على المغرب كانوا بِعدد قليل جدًّا، ولكن ازداد العدد بقيام دولة الأدارسة الّتي استقطبت الكثير منهم، ثمّ في عصر الفاطميِّين الّذين أرسلوا إلى القيروان قبائل كثيرة من بني هلال ثمّ من بني سليم فاحتلّت المغرب وانتشرت في مختلف الأنحاء. ومن وقتها تضاعف عدد العرب في المدن المغربيَّة فأصبحوا يُمثِّلون نسبةً معقولة. ويليهم اليهود الّذين يُمثِّلون نسبة ضئيلة من سكان المغرب ووجودهم فيه كان قبل الفتح الإسلاميّ؛ لأنّ أوّل مملكة قامت في المغرب هي المملكة اليهوديّة بِمنطقة الرّيف المغربيّة، وكان لأقليَّة اليهود تأثير مباشر وغير مباشر في المجتمع "حَقَّقَ يهودُ المغرب الاستقرار هناك، وحظوا بالأمان في كنفِ تسامح المسلمين، ولم تغمُضْ أعينهم عمّا اعتقدوه في أنفسهم من سموٍّ على غيرهم، فعملوا جادّين لِتحقيق ذلك من خلال جمع الثّروات وحيازة الممتلكات"[2]، بالإضافة إلى تمسُّكهم الشّديد بِعاداتهم وتقاليدهم ومعتقداتهم الدِّينيَّة. وللعلم لم تذكر المصادر بالضَّبط نسبة هذه الأقليَّة، ولكن ما وجدته هو أنَّ نسبتَها ارتفعت في عصر المرِّينيَّة وفي العصور الّتي تَلِيه بِسبب ما حلّ بالمسلمين الأندلسيِّين من تعذيبٍ ونَفْيٍ بعد سقوط غرناطة، ويوجد إلى جانب هذه العناصر السكانيَّة، النّصارى الّذين سكنوا المغرب قبل مجيء العرب إليه، والأندلسيّون الّذين قدموا إليه أيضًا.

وصفوة القول، تراءى لي أنَّ المغربَ في العصر الوسيط عاش مرحلةً انتقاليَّة مهمَّة غيَّرت موازين البلاد شرقًا وغربًا، فهي مرحلةٌ عَرَف فيها هذا القطر أنظمة سياسيّة مختلفة تشكَّلت بسبب المعارضة والاضطرابات، دولة تُحتضر وتنهار، ودولة أخرى تقوم وتثبت على

[1]– حسين مؤنس، معالم تاريخ المغرب العربيِّ والأندلس، ص28.

[2]– عبد الرّحمن بشير، اليهود في المغرب العربيّ 22هـ– 462هـ/ 642م– 1070م، ط1. جامعة الزقازيق: 2001م كليّة الآداب، عين الدّراسات والبحوث الإنسانيّة والاجتماعيّة، ص8.

إيديولوجيّة معيّنة، ممّا جعله يُعاني تارةً الكثير من ويلات الحروب والفِتَن السياسيّة، ويشهد تارةً ثانية وحدةً سياسيّة جعلته يضمّ سائر المغارب الأدنى والأوسط والأقصى ثمّ الأندلس الّتي شملها في فترة حُكْمِ الدَّولتين المرابطيّة والموحّديّة، وتارةً ثالثة يحدث الانقسام والاستقلاليّة في جميع أنحاء البلاد، الأمر الّذي أدّى إلى ظهور الدّول الثّلاث يتصارع بعضها مع بعض للسَّيطرة على سائر المغارب ممّا زادَ الطّين بلّة إنْ صحَّ القول؛ لأنَّه في كلّ فترة تحدث صراعات بين بني حفص وبني مرّين، وكذلك مع بني الواد الّذين يتصارعون مع هؤلاء لِصالح الحفصيِّين وهكذا إلى أن انهارت ثلاثتُها في فترات زمنيّة متفاوتة، وبقِيَ الوضعُ كذلك فتارةً يعمّ الهدوء والاستقرار وتارةً أخرى الفوضى والحروب إلى غاية نهاية العصر الوسيط، وصار وقتها المغرب الأقصى تحت حُكم الوطاسيِّين ثمّ العلويِّين وأمَّا المغربان الأدنى والأوسط فكانا تحت حُكْمِ الدَّولة العثمانيَّة. ويُمكن أنْ أجمِل كلَّ تلك الدّول في الجدول الآتي:

الدّول الّتي حكمت المغرب طيلة العصر الوسيط	فترة الحكم
– الدّولة الأغلبيّة في المغرب الأدنى، وتأسَّست في فترة هذه الأخيرة، الإدريسيَّة في فاس والمدراريّة في سجلماسة، الرّستميّة في تاهرت؛	184هـ ⟵ 296هـ
– الدّولة الفاطميّة في المغرب الأدنى، ثمّ امتدّ صداها إلى المغرب الأوسط؛	296هـ ⟵ 362هـ
– الدّولة الصّنهاجيّة في المغرب الأوسط؛	362هـ ⟵ 515هـ
– الدّولة الحماديّة في بجاية بالمغرب الأوسط؛	398هـ ⟵ 547هـ
– الدّولة المرابطيّة (حكمت المغارب الثّلاث والأندلس)؛	448هـ ⟵ 541هـ
– الدّولة الموحديّة (سيطرت على بلاد المغرب والأندلس لِمدّة زمنيّة)؛	515هـ ⟵ 667هـ
– الدّولة الحفصيّة في المغرب الأدنى؛	627هـ ⟵ 932هـ
– الدّولة الزيانيّة في المغرب الأوسط؛	633هـ ⟵ 957هـ
– الدّولة المرّينيّة في المغرب الأقصى؛	668هـ ⟵ 869هـ
– الدّولة الوطاسيّة في المغرب الأقصى.	869هـ ⟵ 961هـ

الشّكل رقم (01)

وكلُّ هذا يدلُّ على أنَّ لكلّ هذه الأحداث والظّروف الّتي شهدها المغرب طيلة هذه الفترة انعكاسًا واضحًا على الجوانب الاجتماعيّة والاقتصاديّة والعلميّة أيضًا، ففي ظلِّ الوحدةِ السياسيَّة عرَفت البلاد استقرارًا اقتصاديًّا مهمًّا، وتمتَّعت بالرّخاء والعيش الهادئ ممّا يجعل الأجناس الأخرى ترغبُ في التنقّل إليها والاستقرار بها. كما مَسَّ هذا التطوّر الحياة الاجتماعيَّة حيث امتزج البربر مع باقي العناصر السكانيَّة ومع العنصر العربيِّ بِشكل خاصّ الّذي أثَّرَ وجوده في الأهالي تأثيرًا فعّالاً. ولم يكن الجانب العمرانيّ بِمنأى عن التغيُّرات السياسيَّة الّتي كانت تشهدها البلاد من فترة إلى أخرى، فرغم الفتن والحروب الّتي تتعرَّض بِسببها المدن والحواضر للخراب إلاَّ أنَّ ثمّة ما يدعو إلى الدَّهشة والانبهار من المنشآت العمرانيَّة والحضاريَّة الرّاقية الّتي لا تزال آثارها صامدة إلى اليوم.

الفصل الأوّل

الحركة العلميَّة في المغرب طيلة العصر الوسيط وعوامل ازدهارها

مدخل

1- واقع النّشاط الفكريِّ في المغرب طيلة العصر الوسيط.

2- عوامل ازدهار النّشاطِ الفكريِّ في المغرب:

2-1- شيوع المراكز الثّقافيَّة؛

2-2- الرّحلات العلميَّة؛

2-3- توافد الطّلبة والعلماء على بلاد المغرب؛

2-4- تشجيع الأمراء على العلم.

3- وسائط الثّقافة في المغرب.

مدخل: لم تكن الحركةُ العلميَّةُ الّتي شهدها المغربُ طيلة العصر الوسيط وليدةَ الصُّدفة، بل كانت وليدةَ عوامل كثيرة ومختلفة اجتَمَعَ بعضُها مع بعضٍ وتَفَاعَل، فكان لها أبعد الأثر في تغيير مَجْرَى النّشاط الفكريِّ في القطر كلِّه. ولكي أُقدِّمَ صورةً واضحةً وعامَّة عن هذا النّشاط كان عليَّ النّظر في كُتب التّراجم والتّاريخ باعتبارها المرجع الأساس الّذي يُوضِّح طبيعة النَّهضة الثّقافيَّة الّتي كان عليها المغرب، حيث ذَكَرَت هذه الكتب فئةً عريضةً من علماء اللّغة والنَّحو والفقه والحديث والتَّفسير وغيرهم، كما ذكرت أشهر المساجد والمدارس الّتي كانت ذلك المكان الجامِع الّذي تُنظَّمُ فيه حلقات الاستماع والدّرس للطَّلبة.

1- واقع النَّشاط الفكريِّ في المغرب طيلة العصر الوسيط: أوّلُ من قام على النَّشاط الفكريِّ والثّقافيِّ في بلاد المغرب الفاتحون النّاشرون للإسلام، فبمجرّد دخولهم هذه البلاد شرعوا وأسرعوا إلى تحفيظ السُّكان القرآن وتعليمهم العربيّة، علمًا أنَّ العربَ الفاتحين الأوائل كانوا من الصّحابة والتّابعين، وعلى مذهب السّلف وأهل الحديث قبل أنْ تبرُز المذاهب الدِّينيَّة الأخرى وتنتشر في هذا القطر كالصفريَّة والإباضيَّة والأزارقة، فكان للأمر علاقة بازدهار النَّشاطِ الفكريِّ أوّلاً في العلوم الدِّينيَّة، وثانيًا في العلوم الطبيَّة والأدبيَّة واللّغويَّة وغيرها. وبما أنَّ العصرَ الّذي أُؤرِّخُ له مختلفٌ من حيث الأنظمة السياسيَّة الّتي رافقت الدُّول الّتي تأسَّست طيلة هذه الفترة، فمن الطبيعيّ أنْ يعرف حركات فكريَّة مختلفة، وفلسفات علميَّة متعدِّدة ومتعارض بعضها مع بعض لاختلاف أسباب قيام كلِّ دولة.

وأستهلُّ الحديثَ عن الحركة الفكريَّة الّتي اصطبغ بها المغربُ بالدّول المستقلّة الّتي تأسّسَت في المغرب (الأغلبيّة والرّستميّة والإدريسيَّة والمدراريَّة)، حيث شهدت البلاد حركةً علميّةً بارزة، ثمّ تليها الفاطميّة الّتي بعد الإعلان عن قيامها والّتي تأسَّسَت بالدِّعاية الدِّينيَّة نهضت بمختلف العلوم والآداب نهوضًا جعل عواصم البلاد قبلةً للعلم، حيث تقدَّمت الحياة العلميَّة في عهدهم. واتّسعت جوانب النّهضة والحضارة الّتي أسَّسها الأغالبة من قبلهم. وشَجَّعَ على هذا النّشاط الحُكَّام الّذين كان أكثرهم أدباء وعلماء، ممّا جعلهم يُقرِّبون رجال الفكر والشُّعراء إليهم ليأخذوا عنهم ما يُعِينُهم في أمور الحُكْمِ والسيّاسة.

ولقد بدأت الحركةُ الفكريَّة تنمو شيئًا فشيئًا إلى غاية عهد الصّنهاجيَّة الّذي بلغت فيه الحضارةُ والثّقافة أوجَّ رُقيِّهما، حيث امتلأ البلاطُ الصّنهاجيُّ بكثير من كبار العلماء والأدباء ونبهائهم. ويليه عصرُ بني حمّاد بالمغرب الأوسط الّذي عرف بِدوره حركةً فكريّةً واسعةَ النِّطاق ولا سيما بعد انتقال النّاصر الحماديّ سنة 473هـ إلى بجاية عاصمته الجديدة.

واستمرّ ازدهار الحضارة وتَقَدُّم العلوم والآداب في المغرب إلى غاية منتصف القرن الخامس الهجريِّ، وهي الفترة الّتي أَوْشك كلُّ شيء فيها على الانهيار والتوقّف فجأة، بسبب هجرة القبائل الهلاليَّة، وما قامت به من تدميرٍ وخرابٍ، وقد نالت القيروان من جرّاء ذلك النّصيبَ الأكبر، حيث انهار من منشآتها العمرانيَّة الكثير، وقُتِل من علمائها الكثير أيضًا، وأمّا من نَجَا منهم فقد فَرَّ إلى صقلية أو الأندلس، وعليه عَرَفَ المغربُ فترة المرابطين حركةً ثقافيّة نشيطة تأسَّست على دعائم ثابتة، ممّا يعني أنَّ طبيعتهم الصّحراويَّة المتمسّكة بالدِّين لم تمنعهم من التشبّث برجال الأدب والفلسفة.

ولم يكن الموحّدون ممّن خالفوا القاعدةَ، فقد اهتمّوا بِدورهم بنشر العلم والمعرفة بين أهل المغرب، حيث "نهضوا بِما نهض به قبلهم العباسيّون والفاطميّون من نشر العلوم الإسلاميَّة والفلسفيّة تفسيرًا وحديثًا وفقهًا وكلامًا ومنطقًا ورياضة وسياسة مدنيّة ومنزليّة وخلقيّة وغير ذلك من كلّ ما عُرِف ببغداد والقاهرة قبل، وامتاز عصرُهم العلميّ على ما قبله بالاتقان والدقّة وعلى ما بعده بِعدم الجمود والاقتصار على الموجود"[1]. وكان حُكّام الموحديّة من المهتمّين أيضًا بإنشاء بيوت الحكمة، وجَعَلَ الأهالي من رجال ونساء يُقْبِلُون على العلوم والآداب فضلاً عن التّحفيز الّذي يتلقّونه منهم، ممّا ساعد على ظهور مؤلّفين وأطبّاء وفحول الفُقهاء ونوابغ الأدباء والشّعراء، وكذا وضع مؤلّفات في مختلف المجالات المعرفيّة.

وبقيت هذه الحركة مزدهرةً ونشيطةً في بداية عصر الدّولة الموحديّة؛ لأنَّ العوامل الّتي أَثَّرَت في حركة الثّقافة في فترة المرابطين لا تزال نفسها الّتي لها تأثيرها الإيجابيّ في الحركة الّتي شهدها الموحّدون، فقد "بُذِرت بذور النهضة العلميّة الكُبرى الّتي نَمَت وترعرعت على عهد الموحّدين في أيّام المرابطين. وكانت الغاية من حركة عبد الله بن ياسين هي نشر الدّين والتّمكين لتعاليمه السّمحة من النّفوس"[2] أي الأساس الّذي وقع عليه البناء في عهد الموحّديّة كان من وضع المرابطيّة. ولا يُنسى أنَّ الموحّدين ورثوا بني حمّاد أيضًا، وهي في أوجّ رُقَيِّها الحضاريِّ والثّقافيِّ، بِدليل أنَّ أكثر العلماء والأدباء الّذين برزوا في القرن السَّادس الهجريِّ بالمغرب الأوسط كانوا طلبة الحضارة الحماديَّة. علاوة على ذلك أنَّ العوامل السلبيّة النّاتجة عن الصِّراعات العنيفة الّتي جرت بين المرابطين والموحّدين لم تؤثّر في نشاط هذه الحركة لبُعد المراكز العلميَّة عن تلك الصِّراعات. ولكن رغم كلّ ذلك النّشاط الّذي تميَّزت به الحياة

---

[1]– مبارك بن محمّد الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج2، ص335.

[2]– عبد الله كنون، النّبوغ المغربيّ في الأدب العربيِّ، ط3. بيروت: 1975م، مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللّبنانيّ ج1، ص127.

الثّقافيَّة بالمغرب في عصر الموحّدين، إلاَّ أنَّ ثمّة بعض الفتور الّذي عرفته في فترة حُكْمِ عبد المؤمن بداية سنة 535هـ، وذلك لأنَّه نقل تلك الصّراعات والفِتَن إلى الحواضر والمدن حيث يوجد النّشاطُ الثّقافيّ والتّراث العلميّ، ممَّا أدَّى إلى تعطيل هذا النّشاط في بعض المراكز وركوده في بعضها الآخر، وتعرّض عمرانُ غيرها للدَّمار والخراب. وبانتهاء هذه الظّروف السياسيَّة وعودة الأمن الّذي عمَّ البلاد عادت الحركة الثَّقافيَّة للنَّشاطِ من جديد فبرَزَ كِبار العلماء أمثال ابن طفيل (ت581هـ) وابن رشد (ت637هـ). ولتوفّر الظّروف المناسبة للطّلبة والعلماء نتجت أمور إيجابيّة لعلّ أهمّها[1]:

– انتشار ظاهرة التّنافس العلمي بين الطلبة، والاحتفاء بالعلماء القادمين إلى المغرب من المشرق والأندلس؛

– تحرير الفكر المغربيِّ من قيود كثيرة، واقتحامه ميادين معرفيّة جديدة لم يكن علماء المغرب يهتمّون بها من قبل؛

– انفتاح طلبة المغرب على مستويات حضاريّة راقية، واطّلاعهم على بيئات علميَّة مختلفة؛

– ظهور النّزعة إلى التّأليف في سائر العلوم، والاستقلاليّة في البحث.

هكذا يبدو أنَّ شخصية المغرب ظهرت بوضوح في عالم الفكر والثّقافة إبَانَ حُكْمِ الموحّدين ويعود ذلك لظروف خاصّة كنتُ قد ذكرتُ بعضَها، إذْ هناك حياة الاستقرار وانتشار الرّخاء الّذي يَنْعَمُ به الأهالي، وكذلك قوّة الدّولة وبالأخصّ من النّاحيّة الماديّة الّتي مكّنتها من إنشاءِ دور العلم المختلفة.

ونتيجة لانهيار الموحديّة بدأت المدن المغربيَّة تشهد انتكاسات على مستوى مناحي الحياة العامّة ومنها الفكريّة الّتي مسّها بعضُ التّراجع للوهلة الأولى، ولكن مع عودة الاستقرار من جديد بَدَأَ النّشاطُ الثّقافيُّ يشهد حركية نشيطة كالّتي شهدها فترة الموحّدين. وأستهلُّ الحديثَ عن عصر بني زيّان الّذي عرف مرحلةَ إشعاع واسعة، فقد برَزَ فيه عددٌ معتبر من العلماء في شتى العلوم عظُمَ بهم الانتفاع وملأ صيتُهم البِقاع ولا سيما إذا علمنا أنّه أُسندت لهؤلاء مناصب مهمّة من قضاء ووزارة وتدريس وغيرها، كما كان للأمن ولِسياسةِ حكَّام هذه الدَّولة الأثر الكبير في النَّهضة العلميَّة والأدبيَّة الّتي عرفتها البلاد. ثمّ عن عصر

[1]– أحمد الزواوي، أبو موسى الجزولي، عرض لحياته العلميّة ومنهجه في البحث، وتأثيره في حقل النّحو، ثمّ نقد لمنهجه، د ط. المحمديّة: 1984م، مطبعة ماناستير، ص9.

المرِّينيَّة الّذي كانت الحركة الفكريَّة فيه مزدهرة أيضًا، فقد نشطت العلوم ونضُجت بشكلٍ ملحوظٍ حتَّى عُرِف بعصر العلم وبالضّبط في الفترة الأولى من حياة هذه الدَّولة أيّام قوَّتِها وعظمتها، حيث بلغت العلوم أعلى مراتب التقدّم نتيجة عوامل كثيرة، منها أنَّ المرِّينيِّين لم يكونوا من الّذين يفرضون اعتقادًا معيَّنًا أو توجُّهًا فكريًّا ما، فقد أطلق الأمراءُ العنانَ لحرية الفكر، إذْ "لم يفرِضوا على العلماء في دولتهم أنْ يتقيَّدوا بوجهة نظر معيَّنة"[1]، كما اشتهروا بإنشاء المدارس، وفَرْض الرّواتبِ فيها للمدرِّسين والإنفاق على الطّلبة. والأمر ذاته في عصر بني حفص الّذي رغم الفراغ الّذي شهده العطاءُ الثّقافيُّ بالمغرب الأدنى وبِالأخصّ في القرن السَّابع إلاَّ أنَّ هذه الفترة كانت تُمثِّل تطوّرًا كبيرًا في هذا المجال بدليل أنَّها ظلَّت تستقبل الطّلبةَ الوافدين عليها في جامع الزيتونة وفي مختلف مدارسها. مع العلم أنّ المشرق لم يكن بأحسن حال من المغرب في هذه الفترة، فقد كانت مصر تحت حُكم المماليك، وأمّا بلاد الشّام وما حولها فقد تعرضَّت لاجتياح جيوش تيمور لينك وما تبعه من تدمير. أيْ رغم ما عرفته بلاد المغرب في هذه الفترة من نشاطٍ علميٍّ مهمٍّ إلاَّ أنَّ الظّروف واللاأمن يحولان دون الاستمرار في تحقيق نُمُوٍّ أفضل، حيث بدأت موجةُ الجمودِ تعمُّ البلاد منذ سقوط الموحديّة وانهيارها بعد الهزيمة الّتي لحقت بها في موقعة (حصن العقاب) بالأندلس، ولذلك قَلَّ النشاطُ العلميُّ بِسبب اهتمام الأهالي بِالسياسة والحرب قياسًا على الرقيّ الّذي بَلَغَه في العهدين المرابطي والموحّدي.

وبعد ما تَقَدَّمْتُ به عن واقع الحركة الفكريَّة في المغرب عامّة، من المناسبِ القول إنَّ المغاربة اشتغلوا بِمختلف العلوم، ولكن درجة اهتمامهم بها كانت متفاوتة، وتأتي في مقدِّمتها العلوم الدِّينيَّة الّتي نالت من عنايتهم الشَّيءَ الكثير، مع أنَّ التخصُّصَ فيها كان نادرًا جدًّا؛ لأنّ العلماء كانوا على علم بِأكثرها، ولكن قد يشتهر أحدُهم في علمٍ دون آخر وهذا أمرٌ جائزٌ، فالتخصّص بمعناه الحديث لم يكن معروفًا منذ القرون الأولى من بدء الحركة الفكريَّة بأقطار المغرب كلّها، إذْ "تجد الفقيه أديبًا، والشّاعر فيلسوفًا والصوفيّ عالِمًا رياضيًّا وفقيهًا وطبيبًا في نفس الوقت"[2]، ومثال ذلك القاضي عيّاض الّذي كان مُحدِثًا مفسِّرًا فقيهًا أصوليًّا نحويًّا لغويًّا شاعرًا أديبًا خطيبًا بليغًا، أيْ علوم كثيرة تجتمعُ في شخص واحد.

---

[1]- محمّد عيسى الحريري، تاريخ المغرب الإسلاميِّ والأندلس في العصر المرّينيِّ (610هـ/1213م-869هـ/1465م)، ص337.

[2]- محمّد بن شقرون، مظاهر الثّقافة المغربيّة دراسة في الأدب المغربيّ في العصر المرِّينيِّ، ص193.

ومنذ بدأت صلةُ أهل المغرب بالدِّين الإسلاميِّ وجدوا أنفسَهم يعتمدون مذهب مالك بن أنس (ت179هـ) الّذي عرفوه عن طريق كتابه (الموطأ) الّذي أدخله لأوّل مرّة علي بن زياد الطرابلسيّ (ت183هـ) من فقهاء الطّبقة الأولى للمالكيّة. ومن حينها بدأوا يشتغلون بهذا المذهب، مع أنّه في فترة الأدارسة لم يكن مذهبًا فقهيًّا وحسب، بل كان عقيدة أيضًا تقوم على اتباع السنّة ونَبْذِ الرَّأيِ والتّأويل[1]. واستمرّ هذا المذهب في الانتشار حتَّى مع قيام المرابطيّة وطيلة أيّام حُكْمِها، فقد تبوّأ مكانةً خاصّة بحجّة أنَّ الوحدة المذهبيَّة تُسهم في تحقيق وحدة البلاد عامّة، إذْ "تَوَطَّدَ مذهبُ مالك لأنَّ المرابطين لم يعرفوا الدِّين إلاَّ على يد عبد الله بن ياسين المالكيّ، ثمّ ملكوا الأندلس وأهلها مالكيّون. فكان النّاس في المغرب الأقصى وغرب الجزائر حيث بسط المرابطون نفوذهم لا يعرفون في عقائدهم سِوى عقيدة السّلف وفي عبادتهم مقلّدين لمذهب مالك بن أنس"[2]، وكان درّاس بن إسماعيل الفاسيّ (ت375هـ) أوّل من أدخل هذا المذهب إلى فاس فاعتمده أهلها وتعصّبوا له.

وفي المقابل قَلَّ اعتمادُ أهل المغرب على المذاهب السنيّة الأخرى كالشّافعي والحنفيّ الّذي دخل مع علماء المشرق، على أساس أنّ المالكيَّ مذهب أهل الحجاز الّذي كان أقرب إلى بيئتهم وتفكيرهم، ولكن قد لا يصحّ هذا التّعليل لأسباب معيّنة منها شيوع المعتزلة في المغربيْن الأوسط والأقصى، ولكن لم يكن ذلك مهمًّا؛ لأنّه حتَّى وإنْ أخذه بعض من أبناء هذيْن القطريْن إلاَّ أنَّه ظَلَّ مذهبًا طارئًا على حياة السكان، حيث لم يجدْ في المغرب بيئةً مناسبة له حتَّى بدا غريبًا بينهم. كما هناك المذهب الشيعيّ الّذي سعت الفاطميَّة فَوْرَ قيامها إلى نشره وإرساء فلسفته العقائديَّة باستعمال القوّة حينًا، والدّعاية الشيعيّة حينًا آخر إلى درجة أنّهم عرضوا التّشييع على كثيرهم[3]، ولكن لم يلقَ هذا المذهب القبولَ المتوقّع؛ لأنّ هناك من رَفَضَه وامتنع عن اتّباعه وفي مقدّمتهم الفقهاء الّذين تشبّعوا بمذهب مالك. وأمّا الصّنهاجيّون فقد تابعوا هذا المذهب بِسبب ولائهم السياسيِّ والمذهبيِّ للفاطميّين.

وإنْ عرف المذهبُ المالكيّ الازدهار أيّام المرابطين، فالأمر لمْ يعدْ كذلك بعد قيام الدّولة الموحديّة، فما إنْ أخذ الموحّدون بزِمام الأمور حتَّى بدأ المذهبُ الظّاهريّ المنسوب إلى ابن حزم الأندلسيِّ (ت456هـ) يبرُزُ مذهبًا مناهضًا للمالكيّة منذ عهد مؤسِّسها المهديّ ابن تومرت الّذي قصَدَ بغداد حيث التقى بفقهاء الظّاهريّة، إذْ عند إيَّابه من المشرق أخذ

---

[1]- عبد الله كنون، النّبوغ المغربيّ في الأدب العربيّ، ج1، ص54- 55. بتصرّف

[2]- محمّد بن عمرو الطمّار، تلمسان عبر العصور، دورها في سياسة وحضارة الجزائر، ص46.

[3]- أحمد أمين، ظُهر الإسلام، ط1. القاهرة: 2009م، شركة نوابغ الفكر، ج1، ص300. بتصرّف

يدعو رعاياه وذويه في المغرب إلى اتباع هذا المذهب، وتبِعه في البداية خليفتُه عبد المؤمن بن علي الّذي وصل به الأمر إلى حَرْقِ بعض كتب الفروع، ورَدِّ النّاس إلى قراءة كتب الحديث. وبقي الوضعُ كذلك في عهد أبي يعقوب المنصور الّذي أعلن الحربَ على علم الفروع، وأراد إزالةَ مذهب مالك بشكلٍ نهائيٍّ، ممّا فتح المجال لشيوع الظّاهريّة، وبالتّالي أصبح الفقهاء يمتنعون عن الاشتغال بالمالكيِّ، ولا سيما بعد أنْ أَمَرَ أبو يعقوب بإحراق كتبِه بعد أنْ جرَّدَها من الآيات القرآنيَّة والأحاديث النّبويَّة كمدّونة سحنون وكتاب ابن يونس وابن زايد وسِواهما. وكلّ هذا جعل الفقهاء فترة الموحديّة يتوجّهون أكثر إلى الاجتهاد ولذلك ظهر علماء يستنبطون الأحكام الفقهيَّة من الكتاب والسنّة ويفتون بها ويحكمون بها بين النّاس وبهذا تكون النّهضة الموحديّة قد "أثّرت على العقول في الأندلس والمغرب تأثيرًا متشابهًا فأصبح الفكر الإسلاميّ في كلا القطرين محرّرًا من القيود الّتي كانت تجعله يثور لأقلّ بادرة من الخروج عن دائرة المسلّمات والقواعد والرّسوم المتعارفة. فشتان بين عهد المرابطين الّذي كان فقهاؤه في كلّ من الأندلس والمغرب يُحرِّمون (الإحياء) وغيرها من كتب الغزالي ويحكمون بإحراقها؛ وبين هذا العهد الّذي ينبُغُ فيه ابن أبي عربي الحاتمي وينشر كتابه (الفتوحات المكيّة) وغيره"[1]. وعادوا إلى الاشتغال بكتاب (المستصفى) للغزالي فأصبح من الكتب المقرَّرة في التّدريس، ومن مدرِّسيه أحمد المالقي (ت660هـ) بحاضرة بجاية. ولكن في الوقت الّذي ينتشرُ فيه المذهب الظاهري، نظرًا للتّرحيب الّذي لقيَه من خلفاء الموحدّية وأتباعهم، فإنَّ علماء المغرب لم يتخلّوا عن المالكيِّ رغم اضطهادهم، إذْ كانوا رافضين للمذهب الأوّل بِقدر ما كانوا متعصِّبين للثّاني، ونشبت بينهم وبين أتباع المذهب الظّاهريِّ صراعات، ولذلك كان يعدُّ فقهاء المالكيّة الّذين نبغوا في هذا العصر بالعشرات قبل أنْ يبرُزَ بينهم فقيهٌ ظاهريٌّ واحد أو فقيه متحرّر ممّن يميلُون إلى الاجتهاد. ولهذا السّبب ثمّة من لم يأخذ بالآراء الّتي قيلت حول ظاهريّة خلفاء الموحدّية ورعاياهم لأنّها ليست بِأدلّة كافية للحكم عليهم بدعوى أنَّ إمامَهم ومؤسِّس دولتهم لم يعتمد آراء هذا المذهب ولا يُبدي أدنى مَيْلٍ نحوه[2]. ولكن سواء اعتمد الموحّدون مذهب مالك أم لا فالأمر المُؤكّد أنّه عاد إلى النَّشاط عهد المرِّينيَّة، فقد أخذ الحُكّامُ يُشجّعون العلماء والفقهاء على ضرورة النّظر والاجتهاد في علم الفروع كما حدث أيّام المرابطين أو ربّما أكثر بِهدف إحياء المالكيَّة الّذي شهد الفتور في

---

[1]- عبد الله كنون، النّبوغ المغربيّ في الأدب العربيّ، ج1، ص129- 130.

[2]- المرجع نفسه، ص132-135. بتصرّف

العهد الموحّدي. وأمّا بالنِّسبة للحياة الدِّينيَّة فترة حُكْمِ الحفصيِّين فقد تمتَّع الرّعايا في عصرهم بالحريّة الدِّينيَّة والمذهبيَّة إلى حدٍّ كبير، وعاملهم الأمراء مُعاملةً حسنةً، حيث يحقُّ للسكّان الاشتغال بأيِّ مذهبٍ فقهيٍّ والنّظر في آراء العلماء دون تعصّب واعتراض، ويحدث الأمر ذاته مع بني زيّان الّذين منحوا الحريّةَ المذهبيَّة للأهالي والطّبقة المثقّفة.

ومهما يكن من أمر، فإنَّ الخلافات المذهبيَّة أسهمت في نشاط الدِّراسات الفقهيَّة في المغرب عامّة، حيث بَرَزَ فقهاء كثُر وبالأخصّ العلماء الّذين يشتغلون بالمالكيّ، مع العلم أنَّ هذه الدِّراسات في بدايتها بالمغرب الأدنى ارتبطت بِثورات فكريَّة مذهبيَّة بين علماء الشّيعة والسنّة، فظهر فقهاء ومؤلّفات عقديّة وفقهيَّة كثُرَت في بعضها، وقلَّت في البعض الآخر[1]. ولم تكن مراكز المغرب الأقصى بِمنأى عن هذا الانتعاش في الفقه منذ عصر المرابطيّة ثمّ الموحديّة فالمرّينيّة، حيث عرف هذا القطر بِدوره حركةً فقهيّة واسعة كانت نتيجة لجهود الأعلام الّذين اعتنوا بِدراسة الكتب الّتي مثّلت الفقه المالكيّ، وأوّلها الموطأ للإمام مالك وثانيها مدوّنة سحنون (ت240هـ)، ثمّ تليها هذه المؤلّفات[2]: الواضحة لعبد الملك بن حبيب (ت238هـ) والعتبية للعتبي (ت298هـ)، والأسدية لأسد بن فرات (ت213هـ) ومختصر أبي زيد القيروانيّ (ت286هـ)، والتَّهذيب للبراذعي، وللعلم قيل عن مؤلّفات المغاربة في الفقه وغيره من العلوم في عصر المرِّينيَّة إنَّها تميّزت بِطابع الاختصار والشَّرح[3]. وحتّى ابن خلدون أقرّ بأنَّ حظَّ التّأليف عامّة بَلَغَ درجةً ضعيفة في عصره بسبب جهل المغاربة لطرائق التّأليف، وفقدانهم لمؤهّلاته وعدم إحكام أساليبه وغير ذلك. ويوجد إلى جانبهم فقهاء الأندلس الّذين قَصَدوا بلاد المغرب وبِخاصّة المغرب الأقصى لِنَشْر علمهم والتَّدريس. كما كان لأبناء المغرب الأوسط حظٌّ وافرٌ من الفقه الّذي عرفوه منذ القرون الأولى من نشأته بالمشرق، واتّسع نطاق الاشتغال به في عصر الحماديِّين تدريسًا وتأليفًا ولكن في الوقت الّذي كان يشتغل فيه الفقهاء بالمالكيَّة في هذه النَّاحية من المغرب، فقد كان لغيرهم اهتمامٌ بالمذهب الإباضيِّ الّذي عكفوا على دراسته واعتبروه مصدرَ الأحكام الفقهيَّة الّتي

---

[1]- يوسف بن أحمد حواله، الحياة العلميّة في إفريقية (المغرب الأدنى) منذ إتمام الفتح وحتّى منتصف القرن الخامس الهجري (90/ 450هـ)، ط1. جامعة أم القرى، مكّة المُكرّمة: 2000م، سلسلة بحوث الدّراسات الإسلاميّة ج1، ص351.

[2]- عبد الرّحمن بن خلدون، المقدّمة، ط1. القاهرة: 2005م، دار ابن الهيثم، ص364- 367.

[3]- نور الدّين دنياجي، الحركة اللّغويّة ووضع العربيّة في المغرب الأقصى خلال العصر المرّينيِّ، أطروحة الدكتوراه. الدّار البيضاء: 1999- 2000م، كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة بنمسيك، جامعة الحسن الثّاني، ص46.

يفتون بها. ومن فقهاء سائر المغارب عامّة، اللّباد (ت333هـ) الّذي كان من خيرة الفقهاء والمفسِّرين أيضًا بالمغرب الأدنى، من تآليفه (الطّهارة)، (الآثار والفرائد) في عشرة أجزاء)[1]. ويوسف بن إبراهيم الورجلاني (ت570هـ) الّذي اشتغل بالفقه الإباضي كثيرًا، وعُدّ من كِبار فقهاء المغرب إلى درجة أنَّ الأندلسيِّين فترة إقامته بقرطبة كانوا يُلقِّبونه بالجاحظ، وله من الكتب (تفسير القرآن) و(الدّليل لأهل العقول)[2] وكان من أمتع ما ألَّف.

وإن انشغل المغاربة بالفقه كثيرًا كما يبدو، فكذلك الأمر مع علم التّفسير الّذي عُنُوا به عنايةً كبيرة تعكسها الجهود الّتي قدَّموها في التّأليف والتّدريس، فزخرت البلاد بِكبار المُفسِّرين من أبنائها والأندلسيِّين، وبالأخصّ مع بداية عصر المرابطين ثمّ الموحّدين الّذي عرفَ فيه التّفسير تقدّمًا كبيرًا قياسًا إلى ما كان عليه من قبل لكثرة التّأليف؛ لأنَّه في ما مضى كان المغاربة يتعاملون مع الكتب المشرقيَّة. ومن المفسِّرين عبد الجليل القصري (ت608هـ) الّذي قَدَّم تفسيرًا للقرآن الكريم في ستين مجلّدًا، وأحمد بن فرتون السلمي الفاسيّ (ت660هـ)، أخذ عن ابن مصالة (ت611هـ)، له من الكتب (الاستدراك) و(الإتمام) و(السّهيلي: التّعريف والإعلام بما أُبْهِم في القرآن العزيز من الأسماء والأعلام)، وابن البناء العدديّ (ت721هـ) الّذي برع في علوم كثيرة، وهو صاحب مُصنَّفات مليحة ومفيدة مثل (الباء في البسملة وتفسير الاسم فيها) و(تفسير سورة الكوثر) و(متشابه اللّفظ في القرآن).

هذا ويبرز في أواخر فترة الدِّراسة كبير المفسِّرين وهو عبد الرّحمن الثّعالبي (ت875هـ) الّذي عَمَّر طويلاً، وتجوّل بين مدن المغرب قبل أنْ يتنقّل إلى المشرق، صنَّفَ في أكثر العلوم الدِّينيّة، منها (روضة الأنوار ونزهة الأخيار في الفقه)، وكتاب في التّفسير بِعنوان (الجواهر الحسان في تفسير القرآن) اختصر فيه تفسير عبد الحق بن عطية (ت542هـ)[3] المسمّى (المحرّر الوجيز في شرح كتاب الله العزيز)، بالإضافة إلى اعتماده على تفاسير أخرى وهي كثيرة مثل تفسير الطبري (ت310هـ). وابن عطية هذا انتقل إلى المغرب فانتفع به خلقٌ كثيرٌ، قام بتفسير كتاب الله العزيز، وهو أكثر التفاسير شيوعًا بين المغاربة والمشارقة، وقد أكّد ابن خلدون هذا الأمر بِقوله "جاء أبو محمّد بن عطية من المتأخِّرين

---

[1]- القاضي عيّاض، ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، ضبط وتصحيح: محمّد سالم هاشم، ط1. بيروت: 1998م، دار الكتب العلميّة، ج2، ص21. بتصرّف

[2]- عبد الرّحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج1، ص317- 318.

[3]- شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربيّ عصر الدّول والإمارات (الجزائر- المغرب الأقصى- موريتانيا- السّودان) ط1. القاهرة: 1995م، دار المعارف، ص99- 356- 357.

بالمغرب، فلخَّص تلك التّفاسير كلّها، وتَحَرَّى ما هو أقرب إلى الصِّحة منها وَوَضَعَ ذلك في كتاب متداول بين أهل المغرب والأندلس حسنَ المنحى"[1]، ويُعدُّ أضخم كتاب في التّفسير فاق كلَّ من سبقه في الميدان، أضف إلى ذلك أنَّ ابن عطيّة استعان في تفسيره بِكثير من مسائل اللّغة والنَّحو.

ولم يكن المغرب الأدنى بعيدًا عن علم التّفسير، فقد أشادت الكتب بجهود أبنائه الجليلة منذ عهد الفاطميِّين الّذين أرادوا لهذا العلم الانتشار بفضل مصنَّفاتهم ومجالسهم، علمًا أنَّ التّفسيرَ الشّيعيّ كان أكثر انتشارًا بينهم مقارنةً بالمالكيّ الّذي لم يشتغل به إلاَّ القليل. ومن مفسِّري هذا القطر ابن حيون (ت363هـ) الّذي اشتهر بِالتّأليف في عدّة علوم، وأبو محمّد مكيّ بن أبي طالب (ت437هـ) القيروانيّ المولد والنّشأة ثمّ الأندلسيّ السّكنى والوفاة ألَّف الكثير، ومن كتبه (الهداية إلى بلوغ النّهاية في معاني القرآن وتفسيره وأنواع علومه).

ومن العلوم الدِّينيَّة الّتي انشغل بها المغاربة أيضًا، علم الكلام الّذي حظِيَ بِكثير من العناية، وكان ذلك مع بداية عصر المرابطين ثمّ الموحّدين، وبالأخصّ في عهد ابن تومرت الّذي كان يُلزم النّاس بدراسة هذا العلم إلزامًا، وأمّا قبل هذه الفترة فلم تكن جهود العلماء فيه سِوى محاولات لم يشتهر بها أصحابها، أو بالأحرى بدأت في أوّلها نُتفًا في القرن الثّاني ثمّ نضجت وازدهرت في القرن الرّابع ومنتصف الخامس الهجريَّيْن، ومن علماء الكلام في المغرب، أبو القاسم المعافري (ت502هـ)، وأبو الحسن الأنصاريّ الفاسي (ت620هـ). وحتّى في عهد المرِّينيَّة برز عليةُ علماء الكلام، منهم أبو الحسن الطنجي (ت734هـ) الّذي برع وأجاد، له مُصنَّفٌ[2] باسم (المباحث العقليّة في شرح معاني العقيدة البرهانيّة).

ولا يُنسى علم القراءات الّذي لم يتجاوز اشتغال المغاربة به في القرون الأولى من دخوله إلى بلادهم دائرةَ الأخذ والاستزداة من مصنّفات المشارقة والأندلسيِّين خاصّة، وأهمّها (التَّسيير) لأبي عمرو الداني (ت444هـ) و(الشَّاطبيّة) للشَّاطبي (ت590هـ)، وكان لِهذيْن الكتابيْن أثرٌ كبيرٌ في تطوّر علوم القرآن بالمغرب الإسلاميّ وازدهارها. ولكن برز لاحقًا مقرئون كثيرون انتفع بهم النّاس فَبَاتَ يقصدهم الطّلبة والعلماء من كلِّ ناحية. مع العلم أنَّ للأندلسيِّين دورًا عظيمًا في تقدُّم القراءات بالمغرب فترة المرابطين والموحّدين بِشكل خاصّ حيث ظلّ مقرئو الأندلس يُشكِّلون العمودَ الفقريَّ للنّهوض بهذا الحقل وفي مقدّمتهم أبو عمرو

[1]- ابن خلدون، المقدّمة، ص358.

[2]- شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربيّ عصر الدّول والإمارات (الجزائر- المغرب الأقصى- موريتانيا- السّودان) ص367.

الدّاني. ويُفهم ممّا تقدَّم أنَّ المغرب عرف هذا العلم عن طريق الأندلس الّتي كان لِعلمائها الأسبقيّة فيه، وكان أبناء المغرب الأقصى أكثر اشتغالاً بالقراءات من أهل المغربَيْن الأوسط والأدنى. ومن أشهر المقرئين مروان بن سمجون (ت491هـ) وابن خَيْر (ت575هـ) الّذي دخل الأندلس فحلّ بإشبيلية الّتي استوطنها، له فهرسةٌ مشهورةٌ ومنشورة بالشُّيوخ الّذين لقِيهم وسمع منهم[1] في رحلته العلميَّة. ورغم الصّراعات الّتي كان يشهدها هذا القطر من حين إلى آخر إلاَّ أنَّ علماءه لم يتوقّفوا عن العطاء حتّى في العهد المرّيني حيث ظهر مقرئون كِبار أمثال النّحويّ ابن آجرّوم الصنهاجي الّذي أجاد في الميدان وبرع، وله شرحٌ على حِرز الأماني أو الشّاطبيَّة نسبة إلى صاحبها باسم (فوائد المعاني في شرحِ حِرْز الأماني)، وكتاب آخر بعنوان (البارع في قراءة نافع) ويعدُّ المُصنِّف أوّل ناظم لقراءة نافع في المدارس المغربيَّة الّتي تهتمّ بهذه القراءة.

كما للمغرب الأدنى نصيبٌ في ما بلغه علم القراءات من ازدهار في المغرب عامّة منذ عصر الولاة وصولاً إلى عصر الفاطميِّين الّذي ازدان بِكبار القُرّاء، أمثال محمّد بن النّعمان (ت378هـ)، كانت له رحلة إلى مصر فسمِع من جماعة، ومنها إلى الأندلس الّتي سكَنها. ثمّ يليه عصر بني زيري الّذي برزَ فيه عدد من المُقرئين المجيدين أيضًا، أسهموا في نُضج هذا العلم بِفضل ما قدّموه من مُصنّفات قيّمة، منهم أبو عبد الله القيرواني (ت389هـ) الّذي يقصده الأندلسيُّون للقراءة عليه[2]، وهناك غيره من المقرئين الّذين برزوا في الفترات اللاحقة.

وكان لأبناء المغرب الأوسط اهتمام واضح أيضًا بِالقراءات، منهم عبد الحكم بن إبراهيم نزيل بجاية من القرن الرّابع الهجريّ، كان مقرئًا متميِّزًا، وأبو القاسم الغبريني الزواوي (توفي في القرن الثّامن) الّذي تلقّى القراءات عن جماعة من علماء بجاية ومصر، توجّه إلى المشرق فلقيَ الشُّيوخ، ثمّ عاد فاستقرّ بالمغرب الأدنى وانتصب فيه للتّدريس[3]، وقد برع في القراءات السَّبع حتَّى عُدَّ من كبار المُقرئين في عصره وهناك آخرون.

كما كان علم الحديث من العلوم الّتي اشتغَلَ بها المغاربة كثيرًا لتعلُّقه بأحاديث الرّسول ﷺ، ويُذكَر أنَّهم فضّلوا صحيح مسلم، وعنوا به إلى جانب صحيح البُخاري الّذي يعدّ أعلى

---

[1]- شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربيّ عصر الدّول والإمارات (الجزائر- المغرب الأقصى- موريتانيا- السّودان) ص355.

[2]- يوسف بن أحمد حواله، الحياة العلميّة في إفريقية (المغرب الأدنى) منذ إتمام الفتح وحتّى منتصف القرن الخامس الهجري (90/450هـ)، ج1، ص407- 424 - 432.

[3]- عبد الوهاب بن منصور، أعلام المغرب العربيّ، د ط. الرّباط: 1979م، المطبعة الملكية، ج2، ص130.

المصادر رتبةً، حيث قام أكثرهم بشرحه رغم صعوبة فهمه، ومعرفة جميع أسماء الرّجال والرّواة الواردة فيه[1]. وعليه بدأت صلةُ المغاربة بالحديث تنمو شيئًا فشيئًا حتَّى رموا بِسهمٍ وافرٍ في دراسته وفهمه، وقبل أنْ أتعرّض لبعض المشتغلين به تنبغي الإشارة إلى أنَّ الدَّولة المرابطيَّة لم تكنْ مهتمّةً بالحديث وعلومه بشكلٍ لافت، فقد كان حكّامها وأهلها يتعاملون مع الفقهاء أكثر لا سيما فقهاء المالكيّة، فقد اكتفوا بكتب علم الفروع وتناسوا النّظر في الكتاب والسّنة والاعتناء بهما. ولكن حتّى وإنْ قلَّ اهتمام هؤلاء بالحديث إلاَّ أنَّ هناك من الأعلام الّذين اجتهدوا فيه حفظًا وروايةً وانتفع بهم الطّلبة. ومن أشهر محدثي هذه الفترة، القاضي عياض الّذي أظهر نبوغًا وتفوّقًا على علماء عصره بسبتة في الحديث وروايته حتَّى عُدّ إمامًا فيه، كما كان موفور الحظّ من التفسير وجميع فروعه، وكذلك رائد الحركة الفقهيّة، وله معرفة جيّدة في النّحو والأدب وغيرهما، فقد كان عيّاض "موسوعة في المعارف الإسلاميّة كلّها بل والعربيّة، فهو المحدث الرّاوي، وهو الفقيه القاضي، وهو المؤرّخ، وهو الشَّاعر النّاثر، وهو الأديب والخطيب. وهذا كلّه لا يُستغرب منه، فقد كانت هناك المؤهّلات والظّروف الّتي هيّأها الله لِتجعل من القاضي عيّاض شخصية فذّة"[2]، وبعد تعلّمه الأوّلي بموطنه توجَّه إلى سبتة الّتي نَهَل من حياضها وأسهم في ازدهارها دارسًا ومدرّسًا ومؤلِّفًا، ثمّ إلى الأندلس، ومنها إلى المغرب الأوسط لطلب العلم فالتقى بلفيف من شيوخه، وقد ترك عددًا مهمًّا من المؤلّفات في الحديث والفقه والكلام وحتَّى في التّاريخ والتّراجم، وأشهرها كتاب (إكمال المعلّم في شرح مسلم) ويقصد فيه بالمعلّم شيخه المازري، و(الشفا في التّعريف بحقوق المُصطفى) وهو كتابٌ مفيدٌ لم يُسبق إليه، انتفعَ به النّاس كثيرًا، و(ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك عُرِف بالمدارك)[3] وكان القاضي عيّاض ممّن تصدّروا لتدريس الحديث بفاس فالتفّ حوله خلقٌ كثير وانتفع.

ثمّ يأتي عصر الموحدين الّذي تقدّم فيه الحديث تقدُّمًا لا مثيل له، حيث أولى له الخلفاء عناية خاصّة فطالبوا النَّاس بالعودة إلى القرآن والسّنة في استنباط الأحكام، وإحراق كتب الفروع المتداولة ولا سيما أيّام يعقوب، ونتيجة لكلِّ هذا بَرَزَ علماء خدموا السنَّةَ دراسةً وتدريسًا وتأليفًا، منهم إبراهيم بن الكماد (ت663هـ) من فاس، رَوَى عن شيوخ كثيرين، وقد

[1]– ابن خلدون، المقدّمة، ص360– 362.

[2]– البشير علي حمَد الترابي، القاضي عيّاض وجهوده في علمي الحديث رِوَايَة ودِرَاية، ط1. بيروت: 1997م، دار ابن حزم، ص152.

[3]– عبد الله كنون، النّبوغ المغربيّ في الأدب العربيِّ، ج1، ص95– 96.

كان أحفظ أهل زمانه للحديث، قصَدَ إشبيلية ولكنّه عاد إلى المغرب فسكَن سبتة حتَّى وفاته[1]، وبقي هذا الحقل على حاله حتَّى في عصر بني مرّين، حيث نشط فيه العلماء كثيرًا باعتباره المصدر الثّاني للتّشريع الإسلامي.

واعتنى كذلك بتدريس الحديث طيلة عصر الموحّدين علماء المغرب الأوسط، مع أنَّه لم يحظ بذلك الاهتمام الّذي حظِيَ به فترة المرابطين، وذلك لانشغال النّاس بالدِّراسات الفقهيَّة الفرعيَّة أيضًا كما حدث في بقيّة المدن المغربيَّة. منهم أبو زكرياء الزواوي (ت611هـ) الّذي كان له حظٌّ كبيرٌ من هذا العلم، أخذ صحيح البُخاري عن علماء بجايه، دَرَّسَ علوم الحديث فانتفع النّاسُ على يديه، معتمدًا شرح كتب الحديث كصحيح البُخاري، وكتاب (شهاب الأخبار في الحكم والأمثال والآداب من الأحاديث النبويَّة)[2] وهناك غيره.

وعلى غِرار ما قَدَّمه علماء المغرب الأدنى في الفقه فقد اجتهدوا كذلك في الحديث منذ فترة الفاطميِّين، ويأتي في مقدّمتهم أبو العرب محمّد التميمي (ت333هـ) الّذي برَعَ في الحديث كما في الفقه، له مؤلّفات حسنة أشهرها (مسند حديث مالك). ثمّ يليه عصر بني زيري الّذي ازدهر فيه هذا الحقل أكثر من قبل، حيث ظهر علماء أقطاب نالوا مكانة مهمّة في المغرب وخارجه، كما ظهر فيه الكثير من المؤلّفات الحديثيّة القيِّمة، واشتغل بالحديث في هذه الفترة، أبو الحسن المعافري المعروف بالقابسي (ت403هـ)، بَرَعَ في العلوم الدِّينيَّة ولا سيما الحديث، وتجلّت جهوده في ما صنّفه من كتب برهن فيها عن تفوّقه في الحديث وأهمُّها كتاب (المُلَخَّص)[3]. وهذا بالإضافة إلى علماء الأندلس الوافدين على بلاد المغرب الّذين أغنوا الدِّراسات الحديثيَّة بإبداعاتهم وهم كُثُر.

كما اهتمّ المغاربة بالتصوّف الّذي عرفوه بعد رحلاتهم إلى المشرق، حيث سنحت لهم الفرصة للالتقاء بالمتصوّفة الّذين نشطوا كثيرًا، حتَّى إنَّ حركة الزّهد الّتي رافقت الفتحَ الإسلاميَّ إلى المغرب طيلة القرون الثّلاثة الأولى هي الحجر الأساس الّذي بُنيَ عليه التصوّف في هذا القطر ولِيعرف التطوّر في وقتٍ لاحقٍ. وكان نتيجة ذلك أنْ بَرَزَ متصوّفة

---

[1]- أحمد بن القاضي، جذوة الاقتباس في ذِكر من حلّ من الأعلام مدينة فاس، د ط. الرّباط: 1973م، دار المنصور للطّباعة والوراقة، ج1، ص84- 85.

[2]- أحمد الغبريني، عنوان الدراية في من عُرِف من العلماء في المائة السّابعة ببجاية، تح وتع: عادل نويهض ط2. بيروت: 1979م، منشورات دار الآفاق الجديدة، ص127- 132.

[3]- يوسف بن أحمد حواله، الحياة العلميّة في إفريقية (المغرب الأدنى) منذ إتمام الفتح وحتّى منتصف القرن الخامس الهجري (90/450هـ)، ج1، ص398- 402.

كُثُر، منهم أبناء المغرب الأقصى الّذين اشتغلوا بالتصوّف لا سيما فترة الموحّدين الّتي علا شأنُه فيها وكان أبو الحسن الشاذلي (ت593هـ) أكثر المشتغلين به في سبتة، تلقّى الطّريقة الصّوفيّة على يد شيخه أبي عبد الله محمّد بن حرزهم (ت559هـ) الّذي عُدَّ من العباد والزّهاد البارعين، تجوّل الشّاذلي في مختلف المدن المغربيّة والمشرقيّة لطلب العلم ولقاء الشُّيوخ، حلّ بِتونس والإسكندريّة وغيرهما ثمّ قفل إلى موطنه. ويبرزُ فترة الموحّدين أبو العبّاس السّبتي (ت601هـ) الّذي قصَدَ مراكش ونشط فيها حتّى الوفاة، عُرِف بشدَّة زهده؛ لأنّه كان يأخذ بمذهبٍ غريبٍ في الدِّين، حيث لا يترك لنفسه من المال إلاَّ ما يقوته وعياله في يومه، وأمّا المتبقّي فيتصدّق به للمساكين والفقراء[1]. وحتّى في العهد المرّينيِّ ظهر متصوّفة كبار احتلّوا مكانة مرموقة لدى الحكّام الّذين كانوا يُقدِّرون لهم دورهم الدِّينيّ. ومن متصوّفة هذه الفترة ابن الحاج (ت737هـ) الّذي قصدَ مصر فسمع بها وحَدَّثَ والتقى بكبار شيوخها، والشّيخ زرّوق (ت899هـ)[2] الّذي قصَدَ بِدوره المشرق فَلَقِي من علمائه عدّة، ثمّ عاد إلى فاس الّتي أقام بها للاستزادة من العلوم الدِّينيّة الّتي برع فيها كثيرًا.

وكذلك الأمر بالنِّسبة للمغرب الأوسط الّذي برز فيه أعلام كِبار وبالأخصّ في أواخر القرن الخامس، كان يقصدهم الطّلبة من الأندلس ومن مختلف المدن المغربيّة للأخذ عنهم وسماع الكتب الّتي يجلبونها من المشرق، وأهمّها كتاب (الإحياء) للغزالي (ت505هـ) الّذي أحضروه في القرن السّادس، وكانت الرِّسالة المنسوبة إلى القُشَيْري (ت465هـ) والّتي تُعرف باسم (القُشَيريّة) من الكتب المتداولة كثيرًا بالمغرب في هذه الفترة. وأَسَّس للتصوّف بالمغرب الأوسط رجال الصّلاح والزّهد الّذين امتلأ بهم بدليل أنَّه "حفِظت لنا كتب التّراجم والطّبقات أسماء لزهاد وصلحاء من تلمسان، وطبنة وقلعة بني حمّاد ممّن أسَّسوا لهذا الاتجاه الدِّينيِّ الّذي عرف تطوّرًا ملحوظًا في القرنين الرّابع والخامس"[3]، فبجاية وحدها امتلأت بعدد كبير من رجال التصوّف والزّهد، أمثال أحمد بن نصر المسيلي (ت402هـ)[4]، وكذلك ابن النّحويّ المتقدِّم ذكره من المغرب الأوسط، أخذَ العلمَ ببلده ثمّ قصد القيروان فقرأ على شيوخها، وبعد

---

[1]- عبد الله كنون، النّبوغ المغربيّ في الأدب العربيّ، ج1، ص159- 160.

[2]- ابن القاضي، جذوة الاقتباس في ذكر من حلّ من الأعلام مدينة فاس، ج1، ص128- 130.

[3]- مفتاح خلفات، قبيلة زواوة بالمغرب الأوسط ما بين القرنين (6هـ- 9هـ/12م- 15م) دراسة في دورها السياسيّ والحضاريّ، د ط. تيزي وزو: 2011م، دار الأمل للطّباعة والنّشر والتّوزيع، ص364.

[4]- محمّد الحفناوي، تعريف الخلف برجال السّلف، د ط. الجزائر: 1906م، مطبعة بيير فونتانة الشّرقيّة، ج2 ص95- 96.

ذلك سار إلى المغرب الأقصى فحلّ بسجلماسة ثمّ فاس الّتي أقام بها مدرّسًا لوقتٍ طويلٍ وانتفع به جماعة من أبنائها، وبعد مدّة عاد إلى موطنه، وكان ممَّن يُشار إليهم في الفقه والأصول والكلام، مع مَيْلٍ إلى التصوّف الّذي مَهَرَ فيه واشتهر[1]، مع أنَّ عطاءات أهل بجاية العلميَّة في التصوّف لم تكن وليدةَ البيئة المغربيَّة وحسب، بل تعود لتأثير البيئة المشرقيَّة والأندلسيَّة نظرًا للاحتكاك المباشر بالعلماء والأخذ عنهم.

وقبل أنْ أنهي حديثي عن جهود المغاربة في العلوم الدِّينيّة ثمّة نقطة لفتت انتباهي وهي أنَّ أغلب المشتغلين بهذه العلوم كانوا على معرفة واسعة بالأدب واللّغة، وذلك لأنَّ درس القرآن والحديث ما زال وثيق الصِّلة بالدَّرس اللّغويِّ، إذْ تمكَّن علماء الفقه والحديث من الإلمام باللّغة ومعرفة مختلف الفنون الأدبيَّة، ممّا يعني أنَّ لعلماء المغرب الدَّورَ البارز في خدمة العلوم الدِّينيّة منذ دخل الإسلامُ بلادهم، حيث ألّفوا فيها مصنّفات لا تُحصى وأصبح المعوّل عليها في مختلف الأقطار.

وتأتي الدِّراسات اللّغويَّة والنَّحويَّة في المرتبة الثّانية من حيث عناية المغاربة بها طيلة العصر الوسيط، غير أنَّ اهتمامَهم بها للوهلة الأولى كان لغاية دينيَّة، فكما قلت آنفًا لم يُفكِّروا في أيِّ نشاطٍ علميٍّ سِوى في العلوم الدِّينيَّة الّتي كَرَّسوا لها كلَّ وقتِهِم، ولكن لاحقًا توسَّع نطاقُ إقبالهم على دراسة اللّغة والنّحو ولي حديثٌ عن هذا في موضعه. ثمّ تليها الدِّراسات الأدبيَّة الّتي قَلَّ النّشاط فيها، إذْ "كانت النّهضة الأدبيّة ضعيفة ضئيلة في أوّل الأمر لحداثة العربيّة في هذه البلاد ثمّ انتشرت بعد ذلك شيئًا فشيئًا بواسطة المعلّمين المبعوثين من طرف الخلافة الأمويّة في الشّرق لتعليم العربيّة والدّين والقرآن للبربر"[2]، فأهل المغرب لم يهتمُّوا بالأدب بقدر اهتمامهم بِفهم الدِّين والعربيّة بعد أنْ تعلّقوا بهما تعلّقًا كبيرًا.

ويبقى ذلك كلّه نقطة انطلاق المغاربة في الاشتغال بالأدب العربيِّ عامّة الّذي بدأ يعرف بعض النّشاط، وكان ذلك منذ عصر بني الأغلب الّذي برز فيه أدباء كانوا اللّبنة الأولى الّتي تَأَسَّسَ عليها هذا الحقل، ومن حينها بدأت الحركةُ الأدبيَّةُ تنشط أكثر إلى غاية القرن الرَّابع أواخر أيّام الفاطميِّين حيث بلغت هذه الحركة شأوًا بعيدًا سواء لِكثرة الأدباء أو في ما بلغوه من تفوّق وبراعة في الشِّعر والنّثر، فكان هناك كبار الأدباء من مختلف

---

[1]- حسن حسني عبد الوهاب، كتاب العمر في المُصنّفات والمؤلّفين التونسيِّين، مراجعة وإكمال: محمد العروسي المطوي وبشير البكُوش، ط1. بيروت/ تونس: 1990م، طُبِعَ بالاشتراك بين دار الغرب الإسلاميِّ وبيت الحكمة مج2، ص464- 466.

[2]- عبد الله شريط، تاريخ الثّقافة والأدب في المشرق والمغرب، 128.

الطّبقات، فمنهم الملوك والوزراء ورجال الفكر وعامّة النّاس، يتسابق إليهم خيرة الطّلبة والعلماء لِلقائهم والأخذ عنهم، وللأمر صلةٌ بالاستقرار النِّسبيِّ الّذي عمّ بعض المدن المغربيّة ولذلك أخذ الفاطميّون "ينشطون الحركةَ الثقافيّة والأدبيَّة خاصّة، وكان تنشيطهم للحركة الأدبيّة وإغداقهم للصلات والجوائز الوافرة على الأدباء من كُتّاب وشعراء ليستغلونهم في مناصرة مذهبهم الدِّينيِّ وتدعيم نفوذهم السياسيِّ، وقد اصطنع المهدي وأبناؤه من بعده عليًّا الأيادي وابن هانئ الأندلسيِّ وابن الرقيق..."[1]. أضف إلى ذلك ما للاختلاف المذهبيِّ بين أتباع الشيعة والسنّة من انعكاسٍ إيجابيٍّ على مسار الأدب، حيث حرص الفاطميّون على التّرويج لمبادئ مذهبِهم فظهر أدباء وشعراء يُمجِّدون دولتهم ويمتدِحون مذهبَهم بالقول إنَّه أفضل المذاهب الفقهيّة، ممّا لعب دوره في تَقَدُّمِ هذا الحقل، كما أنَّ رحلات المغاربة إلى المشرق جعلتهم يعتنون بالأدب نظرًا للقاءاتهم الكثيرة مع الأدباء والشُّعراء.

ومنذ عرف المغاربة الأدبَ فإنَّ اهتمامهم به لم يتوقّف، بل استمرّوا في النّشاط حتّى بعد انتهاء عصر الفاطميِّين، والبداية مع عصر بني زيري الّذي بلغ فيه قمّةَ الازدهار أكثر ممّا كان عليه في عهدي الأغلبيّة والفاطميّة؛ لأنَّه إذا كان الاستقرار النِّسبيّ من العوامل المُؤثِّرة في تقدّم الدِّراسات الأدبيَّة فترة الفاطميِّين، فنجدها أكثر تقدّمًا في عهد بني زيري حيث برز فيه كِبار الأدباء والشُّعراء، والأمر ذاته يحدث في العهد الحمّاديِّ الّذي لم يكن بِمنأى عن الأدب، فقد كانت بجاية تموج بحركة أدبيّة نشيطة عرفت أنبغ الأدباء الّذين انتشر ذكرهم وذاع فضلهم في المغرب الأوسط وخارجه، وقد كان لِرغبة بني حمّاد الشَّديدة في تقريب العلماء إليهم ومنافستهم لِبني زيري بالمهدية والقيروان صلةٌ بِذلك الرّواج الّذي بلغته الدِّراسات الأدبيّة، مع العلم أنَّ أغلب الأمراء كانوا من أبرع الكُتّاب شعرًا ونثرًا.

وكان الحال كذلك في عصر الموحّدين، فقد كانت هذه الدّراسات على مستوى عالٍ من التقدّم والازدهار، إذْ إنَّها لم تتراجع بالرّغم من الصّراع السياسيّ الّذي عرفته البلاد في بداية تأسيس الموحديّة، بل تواصل اهتمام المغاربة بها فبرز بينهم أعلام أدباء أبدعوا في الكتابة والشِّعر إبداعًا لا مثيل له "أمّا في هذا العصر فقد اتسعت دائرة انتشارها وتخلّفت لدينا بعض الآثار الّتي تدلّ على أنَّ هناك نهضةً حقيقةً كانت تتدرَّج بهذه العلوم في مدارج التطوّر والتقدّم، تمامًا كما وقع في العلوم الدِّينيَّة وغيرها"[2]. وفوق هذا كلِّه، فقد تميَّز الأدبُ في هذه

[1]– رابح بونار، المغرب العربيّ تاريخه وثقافته، ط2. الجزائر: 1981م، الشّركة الوطنيّة للنّشر والتّوزيع، ص281.

[2]– عبد الله، كنون، النّبوغ المغربيّ في الأدب العربيّ، ج1، ص135.

الفترة بالطّابع الدّينيّ الّذي كانت عليه الموحّديّة، وحتّى بالبساطة والخلوّ من الزّخرف والصّنعة، ومن السفاسف الّتي شاعت في الأدب، وهذا مع العلم أنَّ لأمراء الموحديّة صلةً قويّة بهذا التقدّم حيث منحوا الثّقافة حظّها من العناية، وشجّعوا العلماء والأدباء بالمال لكي يتفرّغوا للإنتاج، حتّى إنَّ مجالسهم كانت مجالس علم وأدب وسياسة في آن واحد، وكانت مراكش وحدها تحتضنُ على العهدين المرابطيّ والموحديّ كثيرًا من الشُّعراء. وظهرت في عصر الموحّدين فنون شعريّة لم يسبق أنْ عرفها أهل المغرب، وهي فنّ التّوشيح، وفنّ الزّجل الّذي بدأ بفاس، حيث وضع له أهلها وزنًا جديدًا أطلقوا عليه اسم (عروض البلد)، وقسّموه إلى أنواع ولكلّ نوع منها اسم خاصّ حسب الغرض الأدبيّ الّذي يتناوله[1]. وهناك كذلك فنّ الرّسائل بمختلف أنواعها الدّيوانيَّة، الرَّسميَّة والإخوانيَّة والعلميَّة الّذي اعتنى به أبناء سائر المغارب، إلى جانب فنّ الخطابة الّذي ازدهر بِدوره وبالأخصّ في عصر الموحّدين لأسباب كثيرة. وفي ما يخصُّ الرّسائل الدّيوانيّة فقد عرفت الازدهار أيضًا فترة يوسف بن تاشفين الّذي طلب أبا بكر بن القصيرة (ت508هـ) لرئاسة ديوان المعتمد بن عباد بمراكش. وحتَّى مع سقوط الموحديّة وظهور الدّول الثّلاث الّتي تقاسمت المغرب، بقيت الدِّراسات الأدبيَّة على حالها؛ لأنَّ المغاربة لم يتوقّفوا عن الاشتغال بالأدب رغم الفِتَن الّتي كانت تمُرُّ بها البلاد من وقت إلى آخر، فقد استطاع بنو زيّان أنْ يُنتجوا في الأدب إلى آخر أيّام دولتهم "فالأدب كانت سوقه نافقة (بتلمسان) وبقيت هكذا حتّى في المرحلة الّتي بدأ الضّعفُ يَدُبُّ في مفاصل الدّولة المؤمنيّة"[2]. ويحدث الأمر ذاته مع بني حفص وبني مرّين الّذين أهدوا للمغرب أسماءً أدبيّة لامعة.

ومن خلال ما تقَدَّمْتُ به عن واقع الحركة الأدبيَّة في المغرب يجدر ذكر بعض الأسماء الّتي برزت فيه، ولكن قد يضيق بي الحال لو مَضَيْتُ أُترجِم لكلِّ الأدباء، وعلى هذا أَكتفي بالقول إنَّ العدد كثير جدًّا وذِكْر بعضهم فقط تجنّبًا للإطالة، مع العلم أنَّه "ما تَبَقَّى من تراثٍ أدبيٍّ مغاربيٍّ باللّغة العربيَّة أقلّ بكثير ممّا ضاع وتبدّد، بحيث يتعذّر إصدار أحكام نهائيّة بالنِّسبة للمرحلة الإسلاميَّة حتَّى نهاية القرن 9هـ/15م"[3]، فهذا يَدلُّ على كثرة الإنتاج الأدبيّ، ولكنّ المشكل أنّه لم يبق منه سِوى القليل مقارنةً بما ضاع. فمن أدباء المغرب

---

[1]- عبد الله، كنون، النّبوغ المغربيّ في الأدب العربيّ، ج1، ص138- 139.

[2]- محمد بن عمرو الطمّار، تلمسان عبر العصور، دورها في سياسة وحضارة الجزائر، ص74.

[3]- إبراهيم حركات، مدخل إلى تاريخ العلوم بالمغرب المسلم حتّى القرن 15/9م، ط1. الدّار البيضاء: 2000م، دار الرّشاد، ج1، ص177.

وشعرائها الّذين أُوتُوا قدرًا كبيرًا من الخصوبة الشّعريَّة القزّاز القيروانيّ (ت418هـ) الّذي كان غزير العطاء، له فضلٌ في علوم أخرى غير الشّعر كالنّحو والنّقد الأدبي.

ولن يكون الحديثُ عن أدباء المغرب شيِّقًا إذا تغاضيتُ عن ذكر أشهرهم، وهو ابن رشيق (ت463هـ) المسيليّ منشأً ودراسة أوليّة والقيروانيّ مهجرًا، فقد أخذ علومه الأولى عن مشايخ بلده، وفي الوقت نفسه كان يتعلّم صناعة الصّباغة عن والده، ولمّا بلغ إحدى وعشرين سنة من عمره قصَدَ القيروان حيث تلقّى الأدب الّذي يميل إليه كثيرًا وكذلك التّاريخ. وحظِيَ بلقاء كبار علمائها وأدبائها[1] أمثال القزّاز القيرواني، وإبراهيم الحصري (ت413هـ) حتَّى صار من جلّة الأدباء الّذين عرفهم المغربُ الإسلاميُّ عامّة، ويُذكر أنّه أقام بالقيروان إلى غاية الحملة الهلاليَّة الّتي أجبرته على الهجرة إلى صقلية الّتي استوطنها. وفكرتي عن صعوبة التّمييز بين أبناء المغرب في تحديد الإنتاجِ الأدبيِّ تنطبق على ابن رشيق وأمثاله ممّن انتقلوا من المدن المغربيَّة إلى مكان آخر حيث الظّروف أرغمتهم على ذلك، فقد وجدتُ أنَّ هذا الأخير يتقاسمه أكثر من قطر، فهو أوّلاً من المغرب الأوسط مولدًا، وثانيًا قيروانيّ من حيث النّشأة والإبداع الأدبيّ، وثالثًا أندلسيّ من حيث الوفاة، ولهذا السّبب ثمّة من كُتُب السير والتراجم الّتي تضعه في مصاف قائمة أدباء موطنه الأصلي، وغيرها في قائمة الأدباء القيروانيّين لطول مدّة إقامته بالقيروان وأخرى تُضيفه إلى أدباء الأندلس وشعرائها، وعلى هذا ظلّ "المؤرِّخون يردُّون نَسَبَ الأديب تارةً إلى البيئة الّتي عاش فيها وطورًا إلى مسقط رأسه ولو لم يقضِ فيه سِوى بضعة أيّام، وطورًا إلى المكان الّذي هاجر إليه ومات فيه رغم أنّ آخر أيّامه فيه لم تتعدّ بضعة أشهر"[2]. وكان ابن رشيق من المعروفين بكثرة التّصنيف والتميّز فيه، ودليل ذلك ما تركه من كتب أدبيّة انتفع بها النّاس وأجلّها نفعًا كتاب (العمدة) في محاسن الشّعر وآدابه ونقده الّذي شَاعَ ذِكْرُه لا في القيروان وحدها، بل في مختلف المدن المغربيَّة والمشرقيَّة. ويقع هذا الكتاب في جزأين، ويشتمل على عدّة أبواب وفصول تتناول قضايا صناعة الشّعر وما يُؤدِّيه من دَورٍ وأثرٍ في حياة العرب والشُّعراء خاصّة. أضف إلى كتابه الشّهير في النّقد الأدبيّ (أنموذج الزمان في شعراء القيروان) و(الرّوضة الموشيّة في شعراء القيروان) وله ديوان يشتمل على 214 قصيدة، منها رثاء القيروان ورثاء قاضي بلده

---

[1]- الشّاذلي بويحي، الحياة الأدبيّة بإفريقية في عهد بني زيري الدّولة الصّنهاجيّة (362-555/ 972- 1160م) نقله إلى العربيّة: محمد العربي عبد الرزّاق، د ط. تونس: 1999م، المجمع التّونسي لعلوم الآداب والفنون بيت الحكمة، مج1، ص191- 206.

[2]- محمّد بن شقرون، مظاهر الثّقافة المغربيّة دراسة في الأدب المغربيّ في العصر المرّينيّ، ص57.

الأصلي (المسيلة) وغيرها. وقبله ذاع فضلُ أديب آخر من المغرب الأوسط قدِم إلى القيروان وهو عبد الكريم النّهشلي (ت403هـ) الّذي كان أديبًا شاعرًا ناقدًا مجيدًا، له من المؤلّفات (أهمّها الممتع في علم الشّعر وعمله) [1] وهو أوّلُ كتاب يُقدّم في هذا المجال بالمغرب.

وبرز بالمغرب الأقصى أديبٌ بلغ شأوًا عظيمًا هو ضياء الديّن الخزرجي السّبتي، له نظمٌ في نحو مائة بيت ذاعت شهرتها شرقًا وغربًا بِعنوان (الخزرجيّة) نسبة إليه ولكن أهل المشرق أطلقوا عليها اسم (الرّامزة). وللإشارة هناك من الباحثين المعاصرين من يُنسِبُها خطأ لابن أبي الجيش، ولشهرة هذه القصيدة وقيمتها الأدبيّة تناولها الكثير من المغاربة بالشّرح.

ومن الأدباء الّذين عرفهم المغرب الأوسط في عهد بني زيان، أبو عبد الله الثّغري توفي في أواخر القرن الثّامن، كان ذا حظّ وافر في الأدب والشّعر والكتابة، فقد نَظَمَ قصائد في مدح الأمراء الزيانيّين، كما كان من كُتّاب الأمير أبي حمو موسى[2] الّذي خدمه كثيرًا. وفي الوقت الّذي أبدى فيه بنو زيان عنايتَهم بالأدب وفنونه، فبنو مرّين بالمغرب الأقصى أيضًا قدّموا الكثير حتّى أضحت الحركة الأدبيَّة مزدهرة وواسعة النّشاط، حيث كثُرَ الكُتّاب والشُّعراء مع تشجيع الأمراء لهم لكونهم من أهل العلم والأدب، فقد حظِيَ أكثر الأدباء بِمكانة مهمّة في بلاطهم والمناصب السّامية الّتي تولوها، منهم أبو الحسن المرّيني الّذي كان شاعرًا بارعًا ومُبدعًا. وممّن اشتهر في هذه الفترة من الأدباء، أبو الحسن التادلي (ت731هـ) الشّهير بابن بري، مَهَرَ في أكثر من علم كالقراءات والعلوم العربيّة، له نظمٌ جيِّدٌ ومصنّفات حسنة منها (الدّرر اللّوامع في قراءة نافع)[3]. والواقع أنَّ الدَّرسَ الأدبيَّ ازدهر وتَطوَّرَ بفضل حلقات الدّرس أيضًا الّتي كان يُنظِّمها شيوخ عُرفوا بالإبداع والعطاء فيه، ومنها الحلقات الّتي كان يعقدها مالك بن المرحّل (ت699هـ) الأندلسيّ الأصل، فقد كان جميع ما يعرضه لطلبته والتجيبي واحد منهم يتعلّق بأعماله الأدبيّة مثل (المعشرات اللّزوميّة في مدح محمّد رسول الله

[1]- شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربيّ عصر الدّول والإمارات (الجزائر- المغرب الأقصى- موريتانيا- السّودان) ص94.

[2]- محمّد بن مريم التلمساني، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بِتلمسان، مراجعة: محمّد بن أبي شنب. الجزائر: 1908م، المطبعة الثعالبيّة، ص222- 223.

[3]- عبد الله كنون، النّبوغ المغربيّ في الأدب العربيّ، ج1، ص219.

المصطفى من البريّة) وأرجوزة نَظَمَ فيها كتاب (الفصيح) لثعلب، مع كتاب آخر باسم (الموطأة)[1] وإلى غير ذلك من الأسماء الّتي أبدعت في الدّرس الأدبيّ ونَظْمِ الشّعر.

وتكفي هذه الأسماء لِأقول إنَّ للمغاربة دورًا مهمًّا في دفع الحركة الأدبيَّة إلى الأمام فقد ساهموا في إثرائها وازدهارها فضلاً عمّا قدّموه من مُصنّفات قيّمة، ومجالس ثريّة كانت تتزيّن بِإبداعتهم وأشعارهم المتنوّعة، وبالرّغم من تأخّر ظهور الأدب في سائر المغارب مقارنة بالأندلس، وما حجبته الغيوم التّاريخيّة من أسماء لم تتعرّض لها المصادر، فقد تركوا أكثر من ذلك ولكنّه ضاع بِسبب الإهمال والنّكبات الّتي توالت على المدن المغربيّة، وعلى هذا مهما كان العددُ الّذي أحصته المصادر، فإنّه يبقى ضئيلاً جدًّا مُقارنة بالضّائع، ففي المغرب الأوسط لوحده ظهر عدد معتبر من الشّعراء، ولكن للأسف لم يتمكّن التّاريخ من تسجيل جميع آثارهم والتّعريف بإنتاجهم، فقد ضاع أكثره ولم يصلْنا ممّا تركوه إلاَّ القليل مبعثرٌ في مصادر مختلفة موضوع هنا وآخر هناك.

وكانت العلوم الطبيّة مزدهرةً بِدورها في فترة المرابطين والموحّدين خاصّة، نظرًا لِقدوم علماء الأندلس إلى بلاد المغرب ثمّ استقرّوا فيها لخدمة النّاس وعِلاجهم؛ لأنَّ خلفاء الموحديّة كانوا مهتمّين اهتمامًا بالِغًا بهذا الحقل، مع أنَّ البداية الحقيقيّة لهذه العلوم كانت في عصر الأغلبيّة الّذي توافد فيه أطباء مشارقة، وهو الأمر الّذي جعل الحكّام يُنشئون مستشفيات للمرضى. ولكن لم يتقدَّم الطِّبُ في هذه الفترة بقدر تَقدُّمِه فترة الموحديّة، فقد عرفت بجاية وحدها نهضةً علميَّة رائدة في هذه الفترة ممّا جعلها قبلةً تهوي إليها أفئدة الطّلبة الرَّاغبين في هذا العلم والالتقاء بالأندلسيِّين الّذين استقرّوا فيها، إلى جانب جلبهم لِمصنّفاتهم بهدف نشْرِ علمهم وتدريسها. وأمّا في العصور الّتي تلتْ فلم تكنْ هذه العلوم على وتيرة التقدّم نفسها فقد عرفت الرُّكود وقِيل ذلك قيّاسًا على أوضاع المشرق والأندلس المُتدهورة وهذا غير صحيح؛ لأنَّ الطبّ في عهد المرِّينيَّة كان مزدهِرًا ويرجع ذلك أوّلا إلى كثرة الأطباء وإنتاجهم، وثانيًا إلى عناية الحكّام بصحّة السكان وإنشاء المارستانات. فرغم ما عرفه هذه العلوم من تَقدُّمٍ، إلاَّ أنَّها كانت أشدّ العلوم ضياعًا في هذا القطر عامّة مقارنة بالدِّينيّة واللّغويَّة. ولهذا السّبب رغب الخلفاء في جلب الأطباء من الأندلس لِخدمتهم، ممّا يدلُّ على أنَّ المغرب يخضع للأندلس من النَّاحية العلميّة بقدر ما تخضع له الأندلس من النّاحية

[1]- القاسم التجيبي، برنامج التجيبي، تح وإعداد: عبد الحفيظ منصور، د ط. ليبيا/ تونس: 1981م، الدّار العربيّة للكتاب ص283 وص288.

السياسيّة. والمهمّ أنَّ المغرب في العصر الوسيط عرف أطباء ذاعت شهرتُهم، منهم ابن الجزّار (ت369هـ) الّذي كان طبيبًا ماهرًا وصيدليًّا بارعًا، مع مشاركته الجيِّدة في علوم أخرى وبالأخصّ الدِّينيَّة كالفقه والحديث، له مصنّفات في الطب وأجلّها كتاب (زاد المسافر وقوت الحاضر في علاج الأمراض) الّذي تُرجِم إلى عدّة لُغات كاللاتينيّة والعبريّة واليونانيّة. وأحمد الجزنائي الفاسي (ت749هـ) الّذي يتقاسمه المغربان الأقصى والأدنى فالأوّل وُلِد ونشأ فيه فهو من قبيلة جزناية الرّيفيّة، وأمّا الثّاني فقد دَرَسَ فيه حتّى اشتهر في الطّب، ولكن بعد مدّة من مكوثه بفاس طالبًا العلم من شيوخها سارَ إلى المغرب الأدنى لتلقي العلوم الطبيّة والطبيعيّة والفلسفيّة الّتي أتقنها عن جلّة علمائها[1]، وهذا إلى جانب براعته في حفظ الشّعر.

وعُرِفَ عن المغاربة كذلك اشتغالهم بالتّاريخ والجغرافيا، ولكن اللافت للانتباه أنَّ درجة الاهتمام بهذيْن الحقليْن مختلفة من فترة إلى أخرى ومن دولة إلى أخرى، ولهذا من الصّعوبة إعطاء حُكْمٍ يشمل سائر المغارب في فترة الدِّراسة، ففي عصر الفاطميِّين بالقيروان برز بعض العلماء الّذين نشطوا في هذه العلوم، حيث ألّفوا كُتُبًا هامّة في المسالك والممالك ولكنّها للأسف فُقدت لأسباب معيّنة[2]. ويليه عصر بني زيري الّذي ازدان بعدد من العلماء في التّاريخ، ثمّ عصر بني حمّاد بالمغرب الأوسط الّذي لم يحظ فيه هذا الحقل بِكثير من العناية الّتي أولوها للدِّين واللّغة اللّذين قام عليهما تعريب بلاد المغرب. ولهذا لم يكن بوسعهم النّظر في أمور أخرى حيث قلَّ اهتمامهم بالتّاريخ والجغرافيا أيضًا، علمًا أنَّ الحمّاديِّين كانوا على دراية بالميدان بِحكم الرَّحلات الدِّينيّة والعلميَّة والتّجاريّة التّي كانوا يقومون بها إلى المشرق والأندلس، فالأمر يُحتِّمُ عليهم معرفة الطرق الّتي يسلكونها. وأذكر من المؤرِّخين المغاربة من فترات مختلفة، محمّد بن أسد الخشني (ت366هـ) الّذي أَرَّخَ للعلوم الدِّينيَّة منها الحديث والفقه المالكيّ، ومن الكتب الّتي ألّفها (تاريخ الأندلس) و(التّعريف). ومثله العلاّمة المؤرِّخ الأديب أبو عبد الله الصّنهاجي (ت628هـ) الّذي تنقَّل بين المُدن المغربيّة والأندلسيّة أيضًا للطّلب ورواية الكتب الّتي كُثر عددها، وله من الكتب (في أخبار ملوك بني عبيد

---

[1]– محمود محمود الحاج قاسم، الموجز لِما أضافه العربُ في الطبّ والعلوم المتعلّقة به، د ط. بغداد: 1974م مطبعة الإرشاد، ص49– 50. ومحمّد بن شقرون، مظاهر الثّقافة المغربيّة دراسة في الأدب المغربيِّ في العصر المرّيني، ص227. بتصرّف

[2]– محمّد محمّد زيتون، القيروان ودورها في الحضارة الإسلاميّة، ط1. القاهرة : 1988م، دار المنار للطّبع والنّشر والتّوزيع، ص374.

الفاطميِّين) و(النّبذ المحتاجة في أخبار صنهاجة)[1]. وكذلك ابن خلدون الّذي عُدّ من كبار المؤرِّخين وأكثرهم شهرةً، تجوّل وطاف بمختلف المدن المغربيّة الّتي ترأس فيها مناصب هامّة قرّبته من أولي الأمر والطّبقة العليا حتَّى قيل إنَّه لم يكن أشهر المؤرِّخين وحسب، بل كان أعظم سياسيّ ومفكِّر عرفه المغرب الإسلاميّ في زمانه، كما كان يتجاذبه أكثر من ميدان فهو موسوعة علميّة أحاط بمختلف علوم عصره من فقه وتاريخ واقتصاد وأدب ولغة وأسّس لكلّ علم أصوله ومبادئه الخاصَّة به، ولهذا السّبب اختلف الدَّارسون في انتمائه الفكريِّ، إذْ يرى عالم الاجتماع أنّه مختصٌّ في الاجتماع، والمؤرِّخ يعتبره من علماء التّاريخ، وعالم الاقتصاد يجعله من خبراء علم الاقتصاد وإلى غير ذلك. ثمّ رحل إلى المشرق فحلّ بمصر وجلس للتّدريس بها في جامع الأزهر واجتمعَ حوله الطّلبة للاستزادة منه في الحديث والفقه المالكيِّ وفَهْمِ مقدِّمته، له في هذا الحقل مؤلَّفٌ ضخمٌ جدًّا بعنوان (كتاب العِبر وديوان المبتدأ والخبر في أيّام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السّلطان الأكبر).

ولا أنسى أدب الرّحلات الّذي اشتهر به المغاربة أكثر من غيرهم، فقد عُرِفوا بواسع الرّحلة مع طولها، ولا سيما أنّهم كانوا ينتهزون فرصة ذهابهم إلى مكّة للحجّ، وزيارة الأماكن المُقدّسة في ارتياد المراكز الثّقافيّة المشرقيّة والتجوّل فيها كالقاهرة وغيرها لِيَسْتَسْقوا من ثقافتها ويَنْهلُوا من جلّة علمائها، وعلى هذا أصبحت الرِّحلة في طلب العلم ولقاء الشُّيوخ إثراءً ومواصلة للدّراسة. وكان المغاربة في رحلاتهم تلك يُدوِّنون أسماء شيوخهم وأسانيدهم ومرويّاتهم وما يتحصّلون عليه من مصنّفات قيِّمةٍ وإجازات علميّة، كما يوردون في رحلاتهم وصفًا لِلمساجد والخزائن والمكتبات وما تتوفّر عليه من مصنّفات ثمينة، هذا إلى جانب ذكرهم حلقات الدّروس الّتي تُعقد للطّلبة. فكلّما قصد علماء المغرب الحجاز للحجّ تجدهم يتعرّضون في تدوين رحلاتهم لِمختلف جوانب الحياة الاجتماعيّة والظّروف السياسيّة الّتي تمرّ بها تلك البلاد كعلاقتها بما يُجاورها من بلاد، وعلاوة على ذلك أنَّ هناك من يهتمّ بِذِكر سلبيّات الحجاز ومحاسنها بالتّفصيل، وغيرهم كانوا يكتفون بذكر الجانب الايجابيِّ فيها لا أكثر. ففضل الرِّحلات لم يقتصر على استفادة المغاربة منها فقط، بل كان لها الأثر الفعّال في التَّعريف بالبلاد الّتي حلّوا بها ونقل أخبار أهلها وحكّامها وعلومها وسِواها. ومن الرحّالة المغاربة، ابن رشيد (ت721هـ) الّذي قَصدَ المشرق للحجّ فأدرك جلّةً من مشايخ الحجاز

[1]- يحي بوعزيز، أعلام الفكر والثّقافة في الجزائر المحروسة، ط1. بيروت: 1995م، دار الغرب الإسلاميّ، ج1 ص33- 34.

والشّام ومصر[1]، استطاع أنْ يُقدِّمَ رحلتَه هذه في مؤلَّف ذي شهرة عريضة سمَّاه (ملء العيْبة في ما جُمِعَ بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى المعوّل عليه لدى علماء المشرق والمغرب في أواخر القرن السَّابع الهجريِّ). ويأتي بعده الرّحالة الشَّهير ابن بطوطة (ت779هـ) الّذي كان رُحَلَة وقته، حيث جال وطاف في المغرب والمشرق وحتّى في بلاد إفريقيا من السّودان إلى النّيجر.

ولم يكن المغربُ لِيتجاهل العلوم الرِّياضيَّة والفلكيَّة فقد اشتغل بها أهله ولكن لم يتوسَّع هذا الاشتغال إلاَّ في عهد بني مرِّين بالمغرب الأقصى الّذي امتاز بنشاط منقطع النَّظير في ما يرجع للرّياضيّات والعلوم المرتبطة بها كعلم التّوقيت والفرائض وسِواهما، فقد نبغت في هذا العصر شخصيّات كثيرة لامعة، تقدّمت في هذه العلوم تقدّمًا باهرًا جعلها تتفوّق على أهل زمانه. كما حظيت هذه العلوم بعناية أهل المغرب الأوسط، وبالضّبط في حاضرة بجاية الّتي تعدُّ أكثر الحواضر المغربيّة اهتمامًا بها. ومن علماء العصر الوسيط عامّة، ابن البنّاء العدديّ الّذي امتدّت شهرته إلى الآفاق حتّى صار اسمه مقرونًا بالعلوم الرّياضيَّة، ولتفوّقه وعلمه الغزير فيها علا ذكرُه بين النّاس فصاروا ينثالون عليه من كلِّ ناحية للانتفاع به، كما له مؤلّفات جيّدة في الحساب والجبر.

وأمّا عن العلوم الفلسفيَّة فلا حرج في القول إنَّها لم تصل لدى المغاربة إلى مستوى عنايتهم بالعلوم الدِّينيّة أو بِغيرها منذ العهد الفاطميّ، فقد كانت كما تذكر بعض المصادر أقلّ انتشارًا منها؛ لأنَّ الفلاسفة يتعرّضون لتهجّمات الفقهاء ورجال الدّين على أساس أنَّ التّفكير الفلسفيِّ معارضٌ للدِّين، الأمر الّذي كان يمنعهم من البحث في الفلسفة دون أيّة عوائق، ولذلك لم يكن حظُّها مرموقًا بين العلوم العقليّة الأخرى، فقلّة الاهتمام بالفلسفة يبقى "كردّ فعل للتطرّف الجدليِّ الّذي عانوا منه كثيرًا طيلة خضوعهم للفاطميِّين. كما أنّ مذهب مالك الّذي ساد المغرب يعتمد على المأثور بالدَّرجة الأولى، وكان لمنهجه هذا تأثيرٌ على النّاحية الفلسفيّة"[2]. وفوق هذا، لم يكن يُرحَّب بالفلاسفة في بلاط الأمراء والحُكّام، إلى درجة أنَّ بعض الفلاسفة كانوا يعرضون علمَهم على الطّلبة بعيدًا عن المساجد والجوامع، ومثلها جامع القرويِّين الّذي لا تُلقى فيه الدّروس الفلسفيَّة باعتباره المكان المقدّس الّذي يبقى حكرًا على العلوم الدِّينيّة الّتي تستحقّ كلَّ التّقدير.

---

[1]- عبد الله كنون، ذكريات مشاهير رجال المغرب في العلم والأدب والسياسة، ط1. بيروت/ الدّار البيضاء: 2010م ج1، دار ابن حزم ومركز التّراث الثّقافيّ المغربي، ص385.

[2]- عبد الحليم عويس، دولة بني حمّاد صفحة رائعة من التّاريخ الجزائري، ص268.

ويبقى حظُّ الفلاسفة وعلمهم عثرًا في سائر المغارب، ففي المغرب الأدنى لم تحظ الفلسفة بما يجب من العناية الّتي منحوها للعلوم الدِّينيَّة والعربيَّة، ولهذا فإنَّ كُتبهم كثيرًا ما كانت تعدُّ فقهيَّة في المقام الأوّل وليست كُتُبًا فلسفيَّة محضة. وكذلك الأمر بالنِّسبة للفلسفة فترة الحمّاديِّين بالمغرب الأوسط، فلم تذكر المصادر سِوى بعض الأعلام، وكان للأمر صلةٌ بالعوامل الدِّينيَّة كما ذكرت. والوضع ذاته حدث بالمغرب الأقصى فقد كان وضعُ الفلاسفة "أقسى وأمرّ، بل لم يجِدوا مكانًا لهم فيه؛ لأنّ الأبواب كانت مغلقة والميدان شائكًا لا يسمح ولو حتّى بالظّهور. ذلك أنّ سلطة الفقهاء – العدو اللّدود– كانت قويّة إلى درجة الطغيان والجبروت"[1]. كما لم يهتم المرابطون – مثلما سبق الذِّكر– بالفلسفة كونها مقترنة بالزّندقة والمروق من الدِّين، ولهذا تجاهلها العامّة من النّاس، ولكن بخلاف رجال الفكر الّذين انشغلوا بها رغم المتاعب والمعارضة الّتي يتلقّونها. وحتّى وإنْ كان الأمر كذلك فقد وَفَدَ على المغرب في هذه الفترة من الأندلسيِّين ابن باجة (ت529هـ) الّذي اشتغل بالفلسفة وبرعَ فيها.

وما كان يحدث فترة الموحديّة عكس ما حدث للعلوم الفلسفيّة في العصر الّذي سبق وبالأخصّ عهد يوسف بن عبد المؤمن الّذي رغب في دراستها، ولذلك أَمَرَ بجمع الكُتُب الّتي تخصّه، وواصل خلفاء الموحديّة عنايتهم بالفلسفة فقد عُدَّت أيّام حكم أبي يعقوب يوسف وابنه يعقوب المنصور أزهى فتراتها، ويتجّلى ذلك في بروز الفيلسوفيْن الشَّهيرين ابن طفيل وابن رشد اللّذين لم يتعرَّضا لِما تعرَّض له غيرهم من العلماء الفلاسفة، فقد نالوا من الهدوء والتَّشجيع ما يكفي، ممَّا جعلهما يُتابعان نشاطَهما الفلسفيّ. ولكن بالرّغم من تَعَرُّضِ الفلاسفة للمضايقة، إلاَّ أنَّ ذلك لم يُنقِص من عزيمتهم ورغبتهم في الاشتغال، وأذكر منهم أبا العباس الجزنائي المارّ ذكره الّذي اشتغل بالفلسفة كثيرًا، ولكنّه لم يتلقّ التّرحيب من الحكّام، إنّما لقِي العكسَ تمامًا، فقد كان يمقته أبو الحسن المرّينيّ بالرّغم من إخلاصه له[2] والأمر كذلك مع غيره من الفلاسفة.

وأُلحِق علم المنطق بالعلوم العقليَّة الّذي قدّم فيه المغاربة جهودًا متواضعة، حيث برز بينهم علماء بلغوا شأوًا عظيمًا لا سيما بالمغرب الأقصى فترة المرِّينيَّة الّتي عرف فيها هذا العلم ازدهارًا ملحوظًا؛ لأنَّ المشتغلين به لم يلقوا المعارضةَ الّتي كان يلقاها الفلاسفة من قبل، وتَقَدُّمُ علم المنطق تجلّى في بروز بعض الأعلام ومؤلّفاتهم، مع أنَّ أكثرهم كانوا من

[1]– محمّد بن شقرون، مظاهر الثّقافة المغربيّة دراسة في الأدب المغربيّ في العصر المرّيني، ص212.

[2]– ابن القاضي، جذوة الاقتباس في ذكر من حلّ من الأعلام مدينة فاس، ج1، ص119– 121. بتصرّف

المشتغلين بالفلك والرِّياضيّات أيضًا، أمثال ابن البنّاء الّذي ترك تآليف مفيدة في المنطق بالإضافة إلى ما ألّفه في الرِّياضيّات مثل (الكليّات في المنطق) و(القوانين) وسِواهما.

هذه إلمامةٌ سريعةٌ بالأعلام الّذين أثروا هذه العلوم من طب وتاريخ وفلك وفلسفة في المغرب طيلة فترة الدِّراسة، وقد تبيَّن من خلالها أنَّ للعلماء المغاربة الدَّورَ الجليل في دَفْعِ الحركة العلميَّة عبر مُختلف الحواضر المغربيَّة إلى الأمام، وهذا الدَّور لا يُمكن أنْ تمحوه القرون ولا الأحداث والاضطرابات السياسيَّة الّتي شهدتها البلاد.

وخلاصة ما تقدّم، بالرّغم من كثرة الفِتَن وقلَّة الاستقرار في المجتمع المغربيِّ من فترة إلى أخرى، إلاَّ أنَّ الجانبَ العلميَّ فيه لم يتأثَّر بالشَّكلِ الّذي يُؤدِّي به إلى الجمود والتّقاعس المُستمر، وصحيح أنّه يعرف بعض الانكماش والتدهور والتأخّر أيضًا، ولا سيما في مرحلة الإعلان عن انهيار دولة وقيام أخرى؛ لأنَّ الأهالي في أغلب الأحيان بمن فيهم العلماء والفقهاء لم يكونوا ينشغلون سِوى بالحروب والسيّاسة، ممّا انعكس سلبًا على هذا الجانب إلى حدٍّ ما. ولكن ما إنْ يعود الهدوءُ يعود الأهالي بِدَورهم إلى حياتهم العاديّة. والأمر كذلك بالنِّسبة للعلماء الّذين كان لهم دورٌ عظيمٌ في تأطير الحركة الفكريَّة ببلادهم وخارجها. والبداية مع العلوم الدِّينيَّة الّتي نالت حظَّها من العناية حتّى بلغوا فيها الغايةَ من الإتقان اطِّلاعًا وتدريسًا ثمّ تأليفًا. وينبغي أنْ أذكر في هذا المقام أنَّ لرحلات علماء المغرب أثرًا ملحوظًا في تمحيص العلوم وتثبيتها في أذهانهم ثمّ التفرّغ لنشرها بين الطّلبة وعامّة النّاس.

2- عوامل ازدهار النّشاط الفكريِّ في المغرب: إنَّ الحديثَ عن عوامل ازدهار الحياة الفكريَّة في بلاد المغرب منذ أواخر القرن الثّاني إلى غاية أوائل القرن العاشر الهجريِّ لَمِن الموضوعات الّتي تتطّلب منّا النظر فيها بعناية واهتمام، فمعلوم أنَّ هذه البلاد أَدَّت دورًا كبيرًا في خدمة الفكر العربيِّ والإسلاميِّ عامّة منذ دخول العرب الأوائل إلى الآراضي المغربيّة، حيث أَرَادَ البربر نَشْرَ الإسلام واللّغة العربيَّة رغم وجود القلَّة الرّافضة لهما. وللسّؤال عن العوامل الّتي أسهمت في تنشيط الحركة العلميَّة في المغرب لَتَبَيَّنَ أنَّها كثيرةٌ ومختلفةٌ أيضًا. وسأتطرّق إلى بعضها في الآتي:

2-1- شُيُوع المراكز الثّقافيّة: إنَّ انتشار المراكز الثّقافيَّة في المغرب وكثرتها في العصر الوسيط من العوامل الّتي ساعدت على نَشْرِ العلوم والمعرفة في البلاد، حيث أراد معظم حُكّام الدّول المغربيّة بعد أنْ استتبت أمورهم وعَمَّ الاستقرارُ السياسيّ والرّفاهيّة بين

الأهالي تشييدَ المنشآت العمرانيَّة، وتأسيس مراكز حضاريَّة وثقافيَّة تضمن نموَّ السكَّان ورُقَي الحياة الاجتماعيَّة واتّساع التِّجارة فيها، وتحقيق الازدهار العلميِّ والفكريِّ خاصّة.

والحديث عن المراكز الثّقافيَّة الّتي تضمُّها المدن المغربيَّة فترة الدِّراسة لا يعني التعرّض لجميع المُدن والعواصم الّتي أسهمت في نَشْرِ العلم والثّقافة، وإنّما أكتفي بِذِكر المراكز الّتي كانت أهمّ المصادر للنّهوض العلميِّ الّذي عرفه المغرب عامّة. وعليه أجد أنَّ المغرب يضمُّ الكثير من المراكز، تتوزَّع على جميع أنحاء المغرب الشّاسعة الّتي امتدّت حدودها من سواحل المغرب الأقصى مرورًا بالأوسط ووصولاً إلى برقة اللِّيبيَّة، وهي مراكز ذات أثر عميق في نشاط الحياة العلميّة الّتي عرفتها فترة العصر الوسيط، ولا تقلّ أهميَّة عن المراكز الّتي تأسَّست في المشرق "قامت بالإقليم مراكز حضاريَّة هامّة لا تقلّ مكانةً ورقيًّا عن مراكز الشَّرق الإسلاميِّ، مثل: القيروان وفاس، تيهرت والمسيلة وأشير وقلعة بني حمّاد وبجاية، ومراكش، وتلمسان وقسنطينة، إلى جانب حواضر الأندلس الكُبرى وصقلية الإسلاميَّة الّتي تُعتبر جزءًا من هذا الإقليم المغاربيّ، ومن صُنعه وإبداعه"[1]. وقد تمكّنت هذه المراكز من رفع لواء الثّقافة العربيَّة والإسلاميَّة، حيث قصدها العلماء من شرق العالم الإسلاميِّ وغربه، إذْ كان لها الدَّور الفعَّال في نقل التُّراث والحفاظ عليه ونشره، الأمر الّذي جَعَلَ المغرب قبلةً للطَّلبة والعلماء والمفكِّرين المشارقة والأندلسيِّين. ورغم ما شهده هذا القطر من أحداث تراوحت بين الحروب والاستقرار والهدوء، وبين المعاهدات ونقضها والمؤامرات وغيرها، إلاَّ أنَّ العلاقات الثّقافيّة بين الحواضر المغربيّة لم تتأثّر بذلك. ولإعطاء صورة عامّة وواضحة عن الحياة الفكريّة بالمغرب ارتأيتُ الحديثَ عن أهمِّ المراكز الثّقافيّة لِما لها من دورٍ كبيرٍ في تنشيطها وتقدّمها وهي:

– **تاهرت:** تأسَّست هذه المدينة ما بين سنتي 150هـ و161هـ على يد عبد الرّحمن بن رُستم الفارسي الإباضي (ت168هـ)، إذْ بعد أنْ بُويع بالإمامة أراد أنْ يتّخذ لنفسه مكانًا استراتيجيًّا يُباشر منه مهام الحُكْم فوقع اختياره على موضع تاهرت الّذي أصبح عاصمة الرّستميِّين. ونظرًا لمِا تتمتّعُ به من حركة علميّة منذ أيّام الإباضيّة في القرن الثّالث؛ لأنّها كانت منطقة عبورٍ للأندلسيِّين إلى المشرق فقد كان يتنقّل إليها العلماء والطّلبة من جميع الأنحاء وبالأخصّ من الأندلس؛ حتّى إنّها كانت تُسمّى (عراق المغرب)[2] تشبيهًا لها بالعراق

---

[1]– يحي بوعزيز، أعلام الفكر والثّقافة في الجزائر المحروسة، ج1، ص11.

[2]– ياقوت الحموي، معجم البلدان، ط 2. بيروت: 1995م، دار صادر، ج2، ص7– 9.

المشرقيّة من حيث ازدهار العلم والثّقافة فيها. ولكن لم تنل تاهرت ما يكفي من العناية ولا سيما من الدّول الّتي تتالت على الحُكْمِ بالمغرب الأوسط باعتبار أنَّها تأسَّست من طرف الخوارج. ولكن رغم ما أصاب هذه الحاضرة من خرابٍ ودمارٍ، إلاَّ أنَّها عادت إلى النّشاط من جديد أيّام الموحدين وظلّت حاضرة علميّة مهمّة، حيث عمل عبد المؤمن بن علي وخلفاؤه عن طريقه أوّلاً على نشر مبادئ دولتهم وأفكارها السياسيَّة، وثانيًا على نشر تعاليم الدّين وتعميمها.

– **بجاية:** وهي كذلك من أهمّ الحواضر المغربيّة وبخاصّة في عصر بني حماد، حيث بلغت درجةً مهمَّة من التقدّم، وتبوّأت مكانة مرموقة بين المعاقل العلميَّة في المغرب والمشرق، واحتفظت بهذه المكانة حتّى مع نهاية دولة بني حمّاد، فقد تميّز تاريخ هذه المدينة السياسيِّ والعلميِّ والعمرانيِّ في ظلِّ حُكْمِ هؤلاء بالنّشاط والتقدّم، حيث أصبحت منارة إشعاع للعلم والمعرفة، ولذلك استهوت مشاهير العلماء والفقهاء والقضاة والمفتين من الأندلس والمغرب الأدنى وغيرهما فرحلوا إليها واستقرّوا فيها. إذْ دامت "في حضارتها وازدهارها إلى أن احتلّها الإسبان سنة 915هـ فتدهورت أحوالُها وتَرَاجَعَ عمرانُها"[1]، وساعدها على ذلك موقعُها الجغرافيّ، حيث كانت ملتقى لِمفترق الطّرق الّتي تأتي من بلاد الصّحراء والمشرق ومن الأندلس عبر المغرب الأقصى. كما كان الطلبة يتزاحمون في القدوم إليها للطّلب ولقاء العلماء المقيمين بها. ويُذكر أنَّ الإيطاليِّين أيضًا تلقوا العلمَ في مدينة بجاية، وتعلّموا من مصانعها صُنعَ الشَّمع الّذي لا يزال محتفظًا باسم Boujie في لغتهم، وقد كان الرّياضيُّ والمهندس ليوناردو فينشي (Leonardo Vinchy) (ت1180م) ممّن درس العلوم الرِّياضيَّة فيها. وإذا اشتهرت كلُّ مدينة بلون من العلوم فقد كانت بجاية عاصمة الرِّياضيّات، بدليل أنَّ الأوربيِّين أخذوا منها الأرقام العربيَّة والجبر وهندسة إقليدس المشهورة. ولمكانة بجاية العلميَّة إذًا قال أحدُ الشّعراء عنها[2]:

دع العراق وبغدادًا وشامها فالنّاصريَّة مَا إنّ مثلها بلَد
برّ وبحر ومرج للعُيون بِه مسَارِح بان عنها الهمُّ والنَّكد

أضف إلى ذلك أنَّها تمتلئ بالمساجد والزوايا والمدارس، حتّى إنَّ مساجدها كانت تزدحمُ بعِلْية العلماء الّذين أنجبتهم القلعة والمسيلة وطبنة وأشير، كما تزخر بِمشاهير الأدباء

[1]– رابح بونار، المغرب العربيّ تاريخه وثقافته، ص286.

[2]– عبد الرّحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج2، ص27.

الّذين كانوا يتقرّبون إلى حكّام الحماديِّين لِمدحهم رغبة في الأموال والهدايا. وإنْ دلَّ هذا على شيء فإنّما يدلّ على أنَّ لهذه المدينة وزنًا كبيرًا في جميع النَواحي وبالأخصّ العلميَّة منها وللعلم لم تَنَلْ بجاية هذه الشّهرة بعلمائها المحليِّين فقط، بل بعلمائها الأجانب الّذين كانوا يقصدونها من كلِّ حدب وصوب.

– **تلمسان:** تعدّ تلمسان أهمّ المراكز الثّقافيّة الّتي شهدها المغرب الأوسط، وكانت تُمثِّل مدينتين أحدهما قديمة تُعرف باسم (أقادير) أسَّسها بنو يفرن من بطون زناتة، والثّانية تُعرف بتلمسان الجديدة أسّسها يوسف بن تاشفين سنة 473هـ، وقد عرفت الحركة الفكريّة بها نشاطًا هامًّا وأصبحت عاصمة للمرابطين في المغرب الأوسط، وقد ساعد على نشاط هذه الحركة المسجد الأعظم أو الجامع الكبير الّذي تأسَّس سنة 530هـ، وعلى هذا بلغت تلمسان مرحلة مُتقدِّمة من النّضج الثّقافيّ ممّا جعلها تفرض نفسها بين الحواضر الأخرى، فقد كانت منارةً علميّة امتدّ شعاعُها إلى جميع الأقطار الإسلاميَّة، ولذلك رغب الطّلبة في الأخذ من ينابيعها الثّقافيّة، منهم أبو عبد الله محمّد المقري (ت759هـ) الّذي أخذ عن كِبار شيوخها لِقوله "تفرّغت بحول الله عزّ وجلّ للقراءة، فاستوعبت أهل البلد لقاءً وأخذت عن بعضهم عرضًا ولقاءً سواء المقيم القاطن أو الوارد الظاعن"[1]، وعيسى بن أحمد الماساوي (ت896هـ) الّذي كان شديدَ الولع بالعلم، وكثير الأخذ عن شيوخ عصره[2] وهناك غيرهما. ويُذكرُ أنّه في فترة المرابطين كثُر الاهتمام في هذه المدينة بالعلوم الدِّينيَّة، وبخاصّة الفقه لحاجة الحُكّام إلى الشّريعة للحكم العادل بين النّاس ولحاجتهم إلى معرفة تعاليم الدِّين وفهمها أيضًا.

واحتفظت تلمسان بهذه المكانة حتّى في عصر الموحّدين، فقد حظيت بعنايتهم، وأبقوا عليها مقرًّا لحُكمهم ومركز إشعاع للعلم والمعرفة، حيث اعتبرها عبد المؤمن أهمَّ المراكز الثّقافيَّة بفضل المجالس العلميَّة والمناظرات الّتي كانت تتِمُّ بين العلماء والأدباء وغيرهم. وظلّت تستقطب المشاهير من مختلف البلاد العربيَّة والإسلاميَّة حتَّى في عهد الدَّولة الزيانيَّة الّذي يُعَدُّ أخصب حقبها خلال القرنين السَّابع والتّاسع الهجريَّيْن، حيث ازدهرت فيها عدّة علوم وبالأخصّ الفقه والأصول والمنطق والتعاليم[3] وبَرَز كِبار الشّيوخ الّذين نشطوا كثيرًا.

[1]– محمّد بن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، تح وتقديم: محمّد عبد الله عنان، ط1. القاهرة: 1994م مكتبة الخانجي، ج2، ص194.

[2]– أحمد المنجور، فهرس أحمد المنجور، تح: محمّد حجي، د ط. الرّباط: 1976م، دار المغرب للتّأليف والتّرجمة والنّشر، ص18.

[3]– إبراهيم حركات، مدخل إلى تاريخ العلوم بالمغرب المُسلم حتّى القرن 15/9م، ج1، ص33.

– **سبتة:** تعدّ هي الأخرى من أهمّ مراكز الإشعاع الثّقافيّ في المغرب خلال العهد الإسلاميّ، إذْ تُمثِّل إحدى أشهر الحواضر الشّماليّة بالمغرب الأقصى الّتي أسهم أبناؤها بنصيبٍ وافرٍ في نشر الإسلام والثّقافة العربيّة في المدن والقرى المجاورة لها لا سيما أيّام المرابطين الّذين أولوها اهتمامًا كبيرًا، ممّا زادها نشاطًا وحضارةً "كانت سبتة منذ فترة مبكّرة من حياة المغرب العقليَّة والعلميَّة أحد المراكز الّتي نشطت بمنازلها شتى ألوان المعرفة. وازدهرت بنواديها مختلف أضراب الثّقافة، وظلّت هذه وتلك تؤتي أكلها على مدار أعصار المدينة في ظلِّ الحكم الإسلاميِّ"[1]. ولموقع سبتة الجغرافيِّ المتميّز أبلغ الأثر في ما عرفته من نهضة وازدهار ثقافيّ، فقد كانت نقطةَ تواصل بين المغرب الأقصى والأندلس، الأمر الّذي جعلها محطّ الرّحال ومقصد الرّجال طيلة المدّة الّتي حَكَمَ فيها المسلمون شبه الجزيرة الإيبيريّة، فمنها الصّادر وإليها الوارد[2]؛ لأنَّ كلَّ قادم إلى المغرب من الأندلس يحطّ الرّحالَ بها أوّلاً بعد خروجه من البحر وقد يمكث فيها أيّامًا معدودة أو يستقرّ بها، والعكس يحدث كذلك، فكان كلُّ قاصدٍ للأندلس من المغرب يحطّ رحالَه بسبتة قبل دخوله البحر ولقُربِها من الأندلس فإنَّ أبناءها من الطّلبة لا يجدون أيّة مشقّة في الرِّحلة إليها للطّلب. كما كانت سبتة ملتقى القادمين من المشرق إلى المغرب والأندلس فكانوا يمكثون فيها فترة تطول حينًا وتقصر آخر، مع ذلك كانوا يهتمّون بِنَشْرِ علمهم في الحلقات. ونتيجة لكلِّ هذه العوامل نمت الحركة العلميّة بِهذه الحاضرة وتطوّرت، وبالأخصّ في القرن السَّادس الهجريِّ الّذي شهد بُروز علماء كثيرين[3]، وقد كان للقادمين إليها الأثر الفعّال في ما بلغته من نُضجٍ علميٍّ، ولا سيما علماء الأندلس في الوقت الّذي بدأت فيه العواصم الأندلسيَّة تسقط في أيدي النصارى الواحدة تِلْوَ الأخرى. كلّ هذا إذًا جعل سبتة ملتقى للثّقافة والعلم في المغرب، ممّا أتاح للكثير من أبنائها فرصةَ لقاء الأساتذة والعلماء المارّين بها وتلقّي العلوم عنهم.

---

[1]– حسين الوراكلي، شيوخ العلم وكتب الدّرس في سبتة، ط1. تطوان: 1984م، مطبعة النّور ومنشورات جمعية البعث الإسلاميّ، ص9.

[2]– محمّد بن القاسم الأنصاري السّبتي، اختصار الأخبار عمّا كان بثغر سبتة من سنيّ الآثار، تح: عبد الوهاب بن منصور مؤرّخ المملكة، ط2. الرّباط: 1983م، ص5.

[3]– إسماعيل الخطيب "الحياة الثّقافيّة بسبتة في القرن السّابع الهجريّ" سبتة ودورها في إثراء الفكر الإسلاميّ محاضرات المهرجان الثّقافيّ الثّالث (26– 27– 28 أبريل 1979م)، جمعية الثّقافة الإسلاميّة. المغرب: 1984م مطابع الشويخ، ص100.

- **فاس:** تأسَّست فترة الإدريسيِّين بالمغرب الأقصى على يد الإمام إدريس الثّاني (ت213هـ) سنة 192هـ، ثمّ اكتملت في عهد ابنه محمّد (ت221هـ) الّذي قام بتقسيم دولتهم بين أخوته، واستقرّ هو بفاس حتّى الوفاة. ولقد كانت هذه المدينة منذ نشأتها من أهمّ المراكز العلميّة الّتي أدَّت دورًا عظيمًا في نَشْرِ الإسلام بين الأهالي، وفي تنشيط الحركة الفكريَّة بالمغرب الأقصى وبلاد المغرب عامّة. كما كان لِموقع فاس الجغرافيِّ الأثر الكبير في مجرى التطوّرات السياسيَّة الهامّة الّتي شهدها المغرب والأندلس في فترة المرابطين والموحّدين وقد استطاع يوسف بن تاشفين دخولها سنة 462هـ لمّا انتبه إليها على أساس أنّها إقليم مهمّ إذا سيطر عليه فَاتِحٌ فبإمكانه السّيطرة على جميع المغرب الأقصى بسهولة تامّة. ومن حينها بدأ يبرزُ فيها الازدهار والرقيّ الحضاريّ، ومن ثمّة أصبحت العاصمة الثّانية للدّولة المرابطيّة بعد مراكش، حتَّى إنَّ مؤسِّسَ المرابطيّة كان شديد الحرص على بناء المعاهد بِما فيها المساجد والكتاتيب والرّباطات وغيرها في شوارع فاس وأَزِقَّتِها، وقيل إنَّ تلك "المساجد على كثرتها كانت مركزًا للعلم تُلقى فيها في غالبية أوقات اليوم دروس في شتى أصناف المعرفة لا نستثني منها الطب والهندسة"[1]، وعلى هذا ازدانت فاس بكثير من العلماء والفقهاء والقضاة، حيث ازدهر النّشاط الفكريّ وتطوّر بشكلٍ واضحٍ؛ لأنَّ قبل هذه الفترة لم تكن تنعم بالاستقرار، إذْ"عاشت مدينة فاس قرنًا ونصف من الاضطرابات السياسيَّة والخمول قبل دخول المرابطين المدينة، حيث تناحر للسّيطرة عليها الأمويّون والفاطميّون وقبائل زناتة، وقد تخلّصت المدينة من الفوضى الّتي عاشتها بسيطرة المرابطين على مقاليد الأمور، وتوحيدهم المدينة في ظلّ حكومة مركزيّة واحدة. ثمّ جاء الموحّدون في أعقابهم، وقد أحكموا سيطرتهم على المدينة أيضًا، وفي مناخ الاستقرار السياسيِّ الّذي شهدته فاس في هذين العصرين نمت الحركةُ العلميَّةُ وازدهرت"[2]. وما زاد هذه المدينة شهرةً جامع القروِيِّين ومعاهدها، حيث أصبحت عاصمة العالم الإسلاميِّ فكريًّا وعلميًّا ودينيًّا. وبِحكم مركزها العلميِّ والسياسيِّ والاقتصاديّ أيضًا فقد قَصَدَهَا الطّلبة والعلماء من داخل المغرب الأقصى ومن مختلف المدن المغربيّة والإسلاميّة كالأندلس والمغرب الأدنى، واتّخذوها مقرًّا لهم ولا سيما في القرن الثّامن، حيث بلغت هذه الحاضرة أوجّها الثّقافي وكانت دار علم وأدب وموطن نشاط فكريّ

[1]- إسماعيل الخطيب "الحياة الثّقافيّة بسبتة في القرن السّابع الهجريّ" سبتة ودورها في إثراء الفكر الإسلاميّ محاضرات المهرجان الثّقافيّ الثّالث (26- 27- 28 أبريل 1979م)، ص110.

[2]- جمال أحمد طه، مدينة فاس في عصري المرابطين والموحّدين 448هـ/1056م إلى 668هـ/1269م دراسة سياسيّة وحضاريّة، د ط. الإسكندرية: 2001م، دار الوفاء لدنيا الطّباعة والنّشر، ص269.

مهمّ، حتَّى إنَّ هناك من وصفها بـ (بغداد المغرب)، فقد كانت بمنزلة أهمّ المراكز الثّقافيّة كبجاية وتلمسان وتونس وأشهرها، فقد كان قيّام فاس الخطوة الحاسمة في قيام المغرب الأقصى، حيث أصبحت مركزًا مهمًّا للثّقافة الإسلاميَّة، وأخذت تثبت مكانتُها وتعلو إلى جانب مراكز العلوم الدِّينيَّة في مختلف الأقطار، وكان يقول التجيبي (ت730هـ) إنَّها "دار فقه المغرب"[1]. فكلّ هذا يدلّ على أنَّه برزت في فاس نهضةٌ علميّةٌ وحضاريّةٌ وازدهرت فيها مختلف العلوم من طبّ وفلسفة ولغة وأدب وغيرها.

– **القيروان:** الواقع أنّه لن يكتمل الحديث عن المراكز الثّقافيّة في المغرب إنْ تجاهلت القيروان، تلك المدينة الّتي أشرقت فيها الثّقافة إشراقًا، وأَشَعَّ فيها الفكر إشعاعًا واسع المدى. فالقيروان كما يشهد لها التّاريخ كانت من أشهر المراكز في المغرب الأدنى قبل أنْ تُنازعها في ذلك مراكز أخرى كفاس وبجاية وتلمسان وغيرها، فقد كانت القيروان بلا مُنازع مدينة العلوم والثّقافة والحضارة، إذْ منذ أنْ تأسَّست أراد مؤسِّسُها عقبة بن نافع أنْ تمتلئ بالعلم والصّلاح وذلك بكثرة العلماء والرّجال الصّالحين فيها. وقيل إنَّ القيروان كانت أكثر مدن المغرب بشرًا وأتقنها عمرانًا وأربحها تجارة وأوفرها علمًا ومعرفةً، إذْ كان لها إسهام كبير في بناء صَرْحِ الحضارة العربيّة بالمغرب، ولا سيما أنَّها كانت أقدم المدن الّتي تأسّست منذ بداية الفتح الإسلاميِّ، فهي– القيروان– أولى المراكز الثّقافيّة الّتي شهدها المغربُ الإسلاميُّ عامّة بعد قرطبة في الأندلس وفاس في المغرب الأقصى. وقيل إنَّ السَّبب الرَّئيس الّذي دفع عقبة بن نافع إلى تأسيس القيروان هو أنّه أراد إنشاء قاعدة عسكريّة في هذه البلاد بهدف توطيد سيطرة المسلمين في شمال إفريقيا، وعلى هذا اختطّ هذه المدينة واختار لها مكانًا استراتيجيًّا هامًّا، حيث أرادها أنْ تكون بعيدة عن السّواحل خوفًا من غارات البيزنطيِّين، وبعيدة عن جوف الصّحراء خوفًا من غارات البربر، وذكرت الرِّوايات أنَّ عقبة دعا لهذه المدينة خيرًا بقوله: "اللّهم املأها عِلمًا وفقهًا واعمرها بالمطيعين والعابدين، واجعلها عزًّا لدينك، وذلاًّ على من كفر، وأعزّ بها الإسلام، وامنعها من جبابرة الأرض"[2]. وظلَّت مدينة القيروان أكثر من أربعة قرون عاصمة الإسلام الأولى للمغرب، ونقطة الانطلاق لانتشار اللّغة العربيَّة، كما كانت مركزًا ثقافيًّا مهمًّا استقطب كِبار العلماء والأدباء منذ أواخر القرن الثَّاني إلى منتصف

[1]– التجيبي، برنامج التجيبي، ص268.

[2]– عبد الله المالكي، رياض النّفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية وَزهادهم ونسّاكهم وسِيَرٌ من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم، تح: بشير البَكّوش، مراجعة: محمّد العروسي المطوي، ط2. بيروت: 1994م، دار الغرب الإسلاميّ، ج1، ص10.

القرن الخامس الهجريِّ بعد أنْ تعرَّضت للحروب والدّمار. فقد كانت القيروان عامّة مدينة علميّة مهمّة تجذب الطّلبة الّذين يستقرّون فيها، حتّى إنَّ أهلها من التُّجار والعلماء الزّراعيِّين كانوا يُحلِّقون بدورهم للطّلبة الّذين يأتون من كلّ ناحية.

وتوجد حواضر ثقافيّة أخرى نشأت في المغرب مع مرور الزّمن، منها المهديّة وهي مدينة بالمغرب الأدنى أسّسها الخليفة الأوّل عبيد الله الشيعي سنة 300هـ وانتهى منها سنة 305هـ، تقع على ساحل البحر المتوسّط داخلة فيه كهيئة كفّ متّصلة بِزند[1]، وسُميت كذلك نسبة إلى مؤسِّسها، وقد اتّخذها هذا الأخير عاصمةً له في بداية القرن الرّابع، وكانت هذه المدينة كغيرها من المدن تمتلئ بالعلماء والفقهاء منذ تأسيسها. وأدّت إلى جانبها دور إثراء النَّهضة العلميَّة بالمغرب الأدنى، مدينة تونس الّتي لم تبرُزْ علميًّا ولا سياسيًّا واقتصاديًّا إلاّ بعد سقوط القيروان في العهد الزيريِّ في منتصف القرن الخامس على يد بني هلال، وحتّى مع سقوط المهديّة في منتصف القرن السّادس على يدي النّورمانديِّين، ولكن لم ترثْ تونس هاتين الحاضرتين إلاَّ في منتصف السّابع فترة ظهور الدّولة الحفصيّة الّتي قدّر لها أنْ تُؤسَّسَ في تونس، ومن وقتها أصبحت مركزًا من المراكز الثّقافيَّة الّتي ذاع صِيتُها في العالم الإسلاميّ فضلاً عمّا تزخر به من طائفة مُعتبرة من العلماء والأدباء وغيرهم[2]. وليس بعيدًا عن تونس لتبرُز حاضرة أخرى أدَّت دورًا عظيمًا في ازدهار الحركة الثّقافيّة ببلاد المغرب وهي طرابلس أو أطرابلس كما يلفظها معظم الجغرافيِّين والمؤرِّخين العرب القدامى. وطرابلس إقليم ليبيّ يُكَوِّنُ مع إقليميْ برقة وفزّان دولة ليبيا الحالية، وجعلها موقعها الجغرافيُّ المُمّيز الّذي يتوسَّط المشرق والمغرب محطَّة عبور المغاربة والأندلسيِّين إلى بلاد الحجاز ومصر والشّام "أمَّا طرابلس فكانت تحظى بِمقام مؤقّت لِعدد كبير من المُثقَّفين والأساتذة الذَّاهبين إلى الحجّ، والعائدين منه في طريقهم إلى باقي المغارب وهذا يُتيحُ للطُّلاب والرَّاغبين في التّواصل الثّقافيِّ المباشر من أهل المنطقة، أن يُسايِروا بشكل مقبول وربّما أكثر ثراءً في بعض الحالات، الحركة العلميَّة والثّقافيَّة من خلال هذه اللّقاءات مع هؤلاء الأساتذة الزّائرين والمتنوّعين التّكوين والاتّجاهات"[3]، فقد استطاعت طرابلس أنْ تُفيدَ من علوم المشرق وأدبها من جهة، ومن جهة أخرى أنْ تنهل من علوم وآداب حواضر المغرب الثّقافيّة مثل القيروان

[1]- أحمد أمين، ظُهر الإسلام، ج1، ص305.

[2]- يوسف بن أحمد حواله، الحياة العلميّة في إفريقية (المغرب الأدنى) منذ إتمام الفتح وحتّى منتصف القرن الخامس الهجري (90/ 450هـ)، ج1، ص168- 169.

[3]- إبراهيم حركات، مدخل إلى تاريخ العلوم بالمغرب المسلم حتّى القرن 15/9م، ج1، ص90.

وتلمسان وفاس وسِواها، الأمر الّذي جعل أبناءها يلتقون بالعلماء الّذين يجتازونها مؤقّتًا للحجِّ وأخذ العلوم عنهم.

وهناك أيضًا حاضرة طُبْنَة بالمغرب الأوسط الّتي عُدّت من ألمع المراكز الثّقافيّة والحضاريّة في منطقة الزاب ومن أكبر المدن فيها وليس بين القيروان إلى سجلماسة مدينة أكبر منها، واشتهر الكثير من أبنائها ممّن طارت شهرتهم في الآفاق فسُمِعَ بهم في المغرب الإسلاميِّ ومشرقه. وآزرها في نَشْرِ العلم بالمغرب الأوسط قلعة بني حمّاد الّتي حظيت بالازدهار الثقافي وخصوصًا في الفترة الّتي وَفَدَ عليها علماء القيروان بسبب الهجرات الهلاليَّة. وقد أنشأ فيها بنو حمّاد المدارس والمساجد وأحضروا إليها الأدباء والعلماء، وعقدوا فيها المجالس والحلقات العلميَّة الّتي كان يحضرها أساتذة وطلبة من كلِّ ناحية. وكانت إلى جانبها بسكرة من نواحي الزاب، بينها وبين قلعة بني حمّاد مرحلتان، وبينها وبين طُبنة مرحلة[1]، فهي كذلك من الحواضر الثّقافيّة الّتي لعبت دورًا لا يقلُّ عظمةً ولا أهميّة عمّا قدّمته الحواضر الأخرى بالمغرب الأوسط، حيث أسهمت في نَشْرِ الثّقافة العربيّة والإسلاميّة بالمنطقة الصّحراويّة المُتاخمة لها.

ولا أنسى مراكش بالمغرب الأقصى الّتي تمّ تجديدها في عهد المرابطيَّة أيّام حُكْمِ يوسف بن تاشفين، إذْ لمّا عظُم شأنُه في البلاد المغربيَّة أَمَرَ باختطاط هذه المدينة جنوب المغرب الأقصى سنة 454هـ لتكون مركزًا له ولولايته وسياسته. وعلى هذا عُدَّت هي أيضًا من أهمّ المراكز العلميَّة وأشهرها، فقد كانت كعبة القُصّاد من الطّلبة والعلماء في المغرب كلّه، فما لبثت مراكش "أنْ فرضت نفسها عاصمة لأمبراطوريَّة كبيرة فتحوّلت شيئًا فشيئًا من مُخيّم يستقرّ به فئات من الرّحل إلى حاضرة تتوفّر على قصبة فيها مقرّ السّلطان ودواوينه وعلى مسجد، وعلى بيوت مبنيَّة وأسوار... وسرعان ما نشطت فيها التّجارة..."[2]، فقد أسهمت بفعالية في النّهوض الفكريِّ بالمغرب وبخاصّة أيّام الموحّدين نظرًا لِما خلّفوه فيها من آثار عمرانيّة وثقافيّة فأسّسوا الكثير من المساجد والمدارس والمعاهد التّعليميَّة الّتي وفد عليها العلماء والطّلبة من كلِّ جانب. وما زاد من أهميّة مراكش أنّها كانت الحاضرة الّتي حصل فيها التّأثير المحليّ والأندلسيّ، الأمر الّذي ساعد على ازدهار علوم كثيرة، وقد بَرَزَ دورُها أكثر فأكثر في القرن السّادس والنِّصف الأوّل من القرن السّابع الهجريِّ، فقد كانت هذه الفترة

[1]– ياقوت الحموي، معجم البلدان، الأجزاء: 1 و4، ص422 وص21.

[2]– محمد زنيبر، المغرب الوسيط، الدّولة– المدينة– الاقتصاد، مجلّة سلسلة بحوث ودراسات رقم24، ص73.

أهمّ فترات رقيّ مراكش الحضاريّ والعلميّ. توجد إلى جانب هذه الحاضرة، سلا الشّماليّة الّتي ظلّت كذلك من أشهر الحواضر أيّام المرابطيّة والموحّديّة فقد امتلأت بالكثير من الفقهاء والقُضاة والمُحدثين والزّهاد وغيرهم[1]، وازدهرت فيها علوم كثيرة ولا سيما مع بداية القرن السّادس إلى الثّامن الهجريّ حيث عرفت أزهى أيّامها. كما هناك صقلية الأندلسيَّة الّتي عُدَّت من أهمِّ المراكز الثّقافيَّة فترة انضمام الأندلس إلى الحكم المغربيِّ، حيث كانت ذات نشاط ثقافيٍّ بارزٍ وقد دلَّ على ذلك لائحة العلماء ذات الإشعاع الفكريِّ الواسع فيها.

2-2- **الرّحلات العلميّة:** من العوامل الّتي ساعدت في نشاط الحركة الثّقافيّة في المغرب الوسيط، الرّحلات العلميَّة الّتي كان يقوم بها العلماء والطّلبة بِشكلٍ مُكثَّفٍ إلى المشرق، مع أنّ أكثر الرّحلات مقرون بِأداء فريضة الحجّ. وعن أهميّة الرّحلة تحدَّث ابن خلدون في مقدِّمته مُشيرًا إلى الأثر البالغ الّذي تترُكه الرّحلات في مرحلة تعلّم الطّلبة والعلماء "إنَّ الرِّحلةَ في طلب العلم ولقاء المشيخة مزيد كمال في التعلّم والسّبب في ذلك أنَّ البشر يأخذون معارفهم وأخلاقهم وما ينتحلون به من المذاهب والفضائل: تارةً علمًا وتعليمًا وإلقاءً، وتارةً محاكاةً وتلقينًا بالمباشرة. إلاَّ أنَّ حصولَ الملكات عن المباشرة والتّلقين أشدّ استحكامًا وأقوى رُسوخًا فعلى قدر كثرة الشّيوخ يكون حصول الملكات ورسوخها"[2]، فقد كانت الرّحلة في طلب العلم ولقاء الشّيوخ من المسائل المحمودة عند أهل المغرب، حيث نتج عنها تبادل الآراء والمعلومات، وزيادة التنافس على تنظيم حلقات الدّرس الّتي يلتقي فيها الطّالب بالشّيخ أو العالم العائد من الرّحلة. علاوة على ذلك أنَّ أبناء هذه البلاد لم يشعروا بأنَّ الفضاء الّذي يعيشون فيه كافيًا لإرضاء شغفهم بالعلم لا سيما أولئك الّذين يرغبون في التبحّر والاختصاص بالرّغم ممّا كانت تحتضنه المراكز من مجالس وحلقات الدَّرس، فكما قال ابن خلدون بكثرة لقاء المشايخ المباشر يتمُّ حصول الملكات ورسوخها، ولهذا كانت الرِّحلة بالنِّسبة إليهم وللأندلسيِّين أيضًا أمرًا محتومًا معتبرين المشرق مهد الثّقافة العربيَّة الإسلاميَّة، وبالأخصّ الحجاز تلك المحطّة الرّئيسة الّتي يتوقّف فيها الرحّالة للحج، مع ما كانت تشهده من نهضة دينيَّة بارزة.

وتليها بلاد العراق الّتي بالرّغم ممّا عرفته من أحداث سياسيّة، وما جرى فيها من فتن وصراعات كثيرة إلاَّ أنَّها شهدت حركة علميَّة ودينيَّة نشيطة، فقد نشأت فيها مذاهب فقهيَّة

---

[1]- حمدي عبد المُنعم محمّد حسين، مدينة سلا في العصر الإسلاميِّ دراسة في التّاريخ السياسيِّ والحضاريِّ الإسكندرية: 1993م، مؤسّسة شباب الجامعة، ص79.

[2]- ابن خلدون، المقدّمة، ص478.

مختلفة كالمعتزلة والشّيعة وغيرهما[1]، وهذا مع ظهور المدرستين البصريّة والكوفيّة اللّتين تأسّستا موضع تنازع في زعامة اللّغة والنّحو لِزمن طويل. فكلّ هذه الدّواعي، جعلت المغاربة يضربون في باب الارتحال بسهمٍ وافرٍ، إذْ كلّما سمعوا ببروز شيخ في هذه البلاد رغبوا في الرِّحلة طمعًا في لقائه وسماع المُصنّف منه؛ لأنّهم لا يكتفون بقراءة المؤلّفات الّتي تصلهم، بل رأوا أهميّة أنْ يقرأها عليهم الشُّيوخ ويسمعونها منهم حتَّى يُصبِحوا ثقةً في مادّتهم. ولكن مع الوقت قَلَّ قاصدو العراق بِسبب الظّروف الّتي تعيشها، ممّا انعكس إيجابًا على بلاد الشّام وفي مقدِّمتها دمشق الّتي أصبحت تحظى بالمركز الأوّل؛ لأنّها نَجَتْ من الدّمار والهجوم هذا من جهة، ومن جهة ثانية نتيجة لاتِّساع أوقافها وحَرص حكَّامها على الاهتمام بأبناء المغرب ورعايتهم، واستمرَّ قدوم هؤلاء إليها حتَّى أواخر العصر الوسيط. وهناك مصر الّتي استهوت بِدورها المغاربة كثيرًا، وكانت الاسكندرية أكثر مُدُنها حظًّا منهم بحكم موقعها الاستراتيجيِّ، فهي تقع على طريق البقاع المقدَّسة، الأمر الّذي جعل الرّحالة والحجّاج يتوقّفون فيها ذهابًا وإيَّابًا لأداء غرض ما. وعلى هذا أصبح للرِّحلة هدفان، أوّلهما الأخذ من ينابيع الثّقافة الإسلاميّة والاحتكاك بالعلماء والطّلبة، وثانيهما الحجّ إلى بيت الله ﷻ. ومن المغاربة الأوائل الّذين رحلوا إلى المدينة المنوّرة لِسماع الإمام مالك، البهلول بن راشد من القيروان (ت176هـ) وابن فروخ (ت176هـ) الّذي كان ثقةً مجتهدًا، وعبد الله بن غانم (ت196هـ)[2] وغير هؤلاء كثير.

وتجدر الإشارة إلى أنّ الرّحلات كانت عاملاً هامًّا في تمتين الصّلات والروابط الثقافيّة الّتي تربط بين أبناء المغرب خاصّة والمشرق عامّة، فقد أسهمت في استمرار الحركة العلميّة الّتي كانت تشهدها مختلف المراكز الثّقافيّة مغربيّة كانت أم مشرقيّة، وكذلك في مدّ جسور التّواصل الفكريّ بين علماء القطرين، ولعلّ من أبرز مظاهر هذا التّواصل تدفّق عدد ضخم من نفائس الكتب والمخطوطات إلى المغرب، فهناك من الرّحالة الّذين قصدوا المشرق للتّحصيل العلميّ ثمّ عادوا إلى موطنهم حاملين معهم الكتب والإجازات لِنَشْرِ معارفهم، ومنهم الفقيه محمّد بن الفتوح التلمساني (ت818هـ) الّذي أدخل إلى المغرب مختصر خليل بن إسحاق. كما كان المغاربة الرّحالة يحملون معهم كُتُبهم وكتب غيرهم من علماء المغرب إلى البلاد الّتي يقصدونها، إمّا لإهدائها للأساتذة والعلماء الّذين يُلاقونهم، أو وضعها في خزانات

---

[1]- أحمد أمين، فجر الإسلام، د ط. القاهرة: 2012م، مؤسّسة هنداوي للتّعليم والثّقافة، ص202- 204. بتصرّف

[2]- البشير علي حمَد الترابي، القاضي عياض وجهوده في علمي الحديث رِوَايَة ودِرَاية، ص53- 54 والهوامش.

المساجد والمدارس حتّى يستفيد منها عامّة النّاس فضلاً عن الكتب الّتي يحملها التُّجار ضمن بضائعهم من المغرب دائما إلى المشرق، فكثير من المؤلّفات الّتي نُقِلت في هذا الإطار، مثل كتب القاضي عياض وابن خلدون وكتب الرحالة. فالمغاربة لم يكونوا يكتفون بالاستماع إلى المشايخ وأخذ العلم عنهم عن قرب، بل كانوا يستفيدون أيضًا ممّا تحتوي عليه المكتبات من المؤلّفات في شتى العلوم، وذلك بحملها إلى موطنهم إمّا باستنساخها أو شرائها إذا كانوا ميسوري الحال وإذا لم يكن الأمر كذلك فيُمكنُ الحصول عليها كهدايا من شيوخهم.

وفوق هذا كلّه، فإنَّ أهمّ نتيجة تحقَّقت من الرِّحلات المتبادلة بين المغاربة والمشارقة هي أنَّ العلماء استطاعوا أنْ يُوحِّدوا الأمّة الإسلاميّة من مشرقها إلى مغربها، فلا أحد منهم اهتمّ بالحدود الّتي تَرسُمها السيّاسة، فقد اهتموا باللّغة والدِّين فقط. كما أنّه لكثرة رحلات هؤلاء كانوا يقضون شطرًا من حياتهم في هذا البلد وشطرًا في بلد آخر، فشطرٌ في المغرب مثلاً وشطر في الأندلس، شطر في تلمسان وشطر في فاس، ولهذا يصعب في كثير من الأحيان عدّ أحدهم مغربيًّا أو أندلسيًّا، فاسيًّا أو قيروانيًّا. ولا سيما مع الاستقبال الكبير الّذي كانوا يتلقونه من الحكّام الّذين رغبوا في استجلابِ العلماء والأدباء وتقريبِهم من مجالسهم وإنزالهم أحسن المنازل، وأكثر من هذا حرصوا على توفير أماكن للإقامة والتكفّل بحاجياتهم الضَّروريَّة وإجراء الأرزاق عليهم "إنَّ حكّام المغرب لم يضعوا أمام حركة العلماء في دولتهم أيّة عوائق، كما سمحوا للوافدين من العلماء الإقامة في ربوع دولتهم والتمتّع بكلِّ المميّزات الّتي يتمتّع بها أقرانهم من أهل العلم في المغرب"[1]، كما هناك من العلماء القادمين إلى المغرب الذين شغلوا مناصب مهمّة في الدَّولة والأمثلة على ذلك لا تُعد ولا تُحصى، ودليل ذلك ابن خلدون الّذي قصَدَ المشرق حاجًّا، وفي طريقه دخل مصر فحلَّ بالقاهرة الّتي أبهرته بامتداد عمرانها واتّساع نشاطها الاقتصاديِّ، ولذلك أقام بها مدَّة فانقطع للتّدريس بالجامع الأزهر وانثال عليه الطّلبة، مع تولّيه القضاء أكثر من خمس مرّات. وكذلك المقري الّذي تنقَّل إلى تونس فأخذ العلوم عن شيوخها، ثمّ قَصَدَ المغرب الأقصى فحلّ بفاس وفيها كذلك التقى بِعلماء كثيرين، وبعد عودته إلى تلمسان شَدَّ رحاله مرّة أخرى إلى المشرق فنزل مصر ثمّ مكّة والشّام، وبعد مدّة عاد إلى فاس فاستقرّ بها حتّى الوفاة[2]، تاركًا وراءه تصانيف في الفقه والتصوّف وغيرهما.

---

[1]– محمّد عادل عبد العزيز، التّربية الإسلاميَّة في المغرب أصولها المشرقيَّة وتأثيراتها الأندلسيَّة، د ط. مصر: 1987م، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، ص31.

[2]– ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ج2، ص203.

ولم تتوقّف رحلات المغاربة على المشرق والأندلس فقط، بل كانت لهم تنقّلات ما بين المدن المغربيّة مثل مراكش وفاس وتلمسان والقيروان وغيرها رغبةً في لقاء المشايخ المُقيمين بها وتوسيع معارفهم، فإنْ كان من تلمسان مثلاً يرغب في الرّحلة إلى فاس أو مراكش والعكس بالمثل، وأذكر في هذا الشأن تلك الرّحلات المتكرّرة والكثيرة لأبناء تلمسان إلى الحاضرة تونس للتّحصيل، وكذلك إلى فاس للإجازة على مشايخ جامع القرويِّين وغيرها من حواضر المغرب. والأمثلة كثيرة عن العلماء والفقهاء والأدباء الّذين كانوا يتنقّلون بين هذه الحواضر، منهم محمّد الغسّاني (ت663هـ) الّذي كان ذا معرفة واسعة في الأدب والتّاريخ والفقه، قَصَدَ تلمسان وتعلّم فيها، وبعد مدّة عاد إلى موطنه لِيأخذ العلوم عن شيوخه ويتثقّف فيه. كما هناك من العلماء الّذين استقدمهم حكّام الموحديّة إلى المغرب الأقصى كأبي عبد الله بن اللّحام التلمساني (ت614هـ)[1] من كِبار العلماء، سارَ إلى فاس فسكنها لطلب العلم ونشره، ولكن لِمكانته العلميّة جَلَبَهُ المنصور بن يعقوب بن يوسف إلى مراكش فاستقرّ بها نهائيًّا. وممّن قصد المغرب الأدنى من أبناء المغرب الأوسط أحمد الغبريني[2] (ت707هـ) أخذ عن شيوخها معارف عصره، رَحَلَ إلى تونس ومكث بها فترة، كان من علماء الحديث والتّفسير والعربيّة والمنطق، ومن فقهاء المالكيّة أيضًا. واستمرّت الهجرات ما بين المُدن المغربيّة إلى غاية القرن التّاسع الهجريِّ ولكن ليست بالحجم الّذي كانت عليه في القرون السّابقة، ولا سيما بالنِّسبة للمغرب الأقصى فترة الحفصيِّين. وإلى هنا، يبدو لي أنَّ المغاربة تفوّقوا عن غيرهم في أدب الرّحلة الحجازيّة ووُفِّقوا فيها كذلك، حيث إنَّ أكثر الرّحالة الّذين يُغادرون إلى مكّة ينتهزون الفرصةَ في التجوّل بين أشهر المراكز للطّلب ولقاء المشايخ.

وفي الفترة الّتي كان المغاربة يتنقّلون فيها بين المدن المغربيّة ويقصدون المشرق كانت لهم وجهة أخرى، وهي مراكز الأندلس الثّقافيَّة الّتي كان لهم فيها إشعاع فكريّ كبير، فقد تدفّق عليها الكثير من أبناء المغرب وبِخاصّة من المغرب الأقصى، وكان على رأس هذه الرّحلات أبناء الأمراء من المُرابطين والموحّدين، وكان إلى جانبهم الطّلبة والمدرّسون والأدباء والموظّفون والتُجّار وغيرهم بصفات اجتماعيّة مختلفة، مع أنّ نِطاق الرّحلات اتّسع بشكل ملحوظ منذ القرن الرّابع الهجريِّ. ولكن لم يكن الأمر بمحض الصّدفة، بل أراد الأمراء تشجيع الرّحالة الطّلبة والأساتذة على المجيء إلى الأندلس.

1- محمّد الحفناوي، تعريف الخلف برجال السّلف، ج2، ص352.

2- المرجع نفسه، ج1، ص21.

هذا ويُذكَرُ أنّ رحلات المغاربة إلى هذه النّاحية عامّة بدأت في وقت مبكّر، حيث قصدتها فئات من طبقات اجتماعيّة مختلفة لأسباب معيَّنة، منها أنَّ المغاربة كانوا يبحثون عن الاستقرار والهدوء بسبب الأوضاع السياسيَّة الّتي تمرُّ بها بلاد المغرب، أضف إلى ذلك أنَّ أكثرهم انتقل إلى الأندلس إمَّا لمُتابعة الدِّراسة أو للتَّدريس والرّغبة في نشر علمهم وتقديم مصنّفاتهم وسماع مروياتهم أو الحصول على وظائف يقتاتون منها، غير أنَّ رحلاتهم في بداية أمرها كانت بنسبة ضئيلة ثمّ أصبحت تتسّع شيئًا فشيئًا منذ القرن الرّابع، وبالأخصّ طيلة القرن الخامس حيث تزايد عدد الوافدين عليها بسبب الزّحف الهلاليِّ إلى المغربين الأدنى والأوسط، والصّراعات القائمة بين الإمارات الزناتيّة بالمغرب الأقصى. ولعلّ ما زاد كذلك من رغبة المغاربة في شدّ الرّحيل إلى الأندلس والاستقرار بها هو ما كانوا يتلقّونه من عناية خاصّة من طرف الأمراء. وفوق هذا أرى أنّ لازدهار الحياة الاقتصاديّة ونشاطها دورًا في استقطاب المغاربة للبقاء في هذه البلاد. ولكن من الأهميّة القول إنَّ العدد الأكبر من القادمين إلى الأندلس كانوا من المغرب الأقصى بالقياس مع عدد الوافدين من المغربين الأوسط والأدنى بِحُكم عامل الجوار وتبعية الأندلس السياسيّة للسّلطة المغربيّة. ولكن لم تعد الأندلس لِبعض الوقت مقصدًا للطلبة والعلماء المغاربة بقدر ما كان المغرب قبلة الأندلسيِّين لا بل مأوى للعلماء وعامّة النّاس، إذْ لمْ يرغب أبناء المغرب في الأندلس بسبب أوضاعها السياسيَّة والدِّينيَّة وحسب، إنّما لِطلب العلم ونشره أيضًا، ولهذا كانت الرّحلات العلميَّة وغيرها تتمّ بكيفيّة عكسيَّة بين القطرين. ويُذْكَرُ أنَّ هذه الرَّحلات استمرّت إلى غاية القرن الثّامن الّذي عرفت فيه بعض التّراجع، وذلك بعد ما شهده تلك البلاد من نشاطٍ ثقافيٍّ طيلة هذه الفترة في كلّ من تونس وبجاية وتلمسان وسبتة وفاس نظرًا لِتَوَفُّر المدارس والأساتذة وتنوّع العلوم والمعارف، ممّا اقتضى الاستغناء إلى حدٍّ ما عن الرّغبة في لقاء شيوخ الأندلس، وقد كان هناك مَنْ يتردّد عليها من الزّائرين ومَنْ لهم مهمّات، مع أنَّ بقاءهم فيها كان يدفعهم أحيانًا إلى إلقاء محاضرات قد تترك أثرًا عظيمًا[1]. وقيل إنَّ الكثيرَ من قُضاة المغرب وعلمائه كانوا ممّن تلقوا علومهم في مراكزها الثّقافيَّة. وممّن قَصَدَ غرناطة في هذه الفترة، المقري المتقدِّم ذكره الّذي وفد عليها مبعوثًا من البلاط المرّينيِّ لأداء مهمّته[2]. وللعلم كان أبناء المغرب يعودون بمؤلَّفات الأندلسيِّين إلى ديارهم في شتى أنواع العلوم.

[1]– إبراهيم حركات، مدخل إلى تاريخ العلوم بالمغرب المسلم حتّى القرن 15/9م، ج1، ص95– 99 وص103. بتصرّف

[2]– ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ج2، ص196.

وهكذا يبدو أنَّ ظروف الأندلس المُناسبة وَفَّرَتْ لأبناء المغرب فرصةَ التنقُّلِ إليها والاستقرار بها، ومنهم العلماء والطّلبة الّذين حلّوا بِحواضرها العلميَّة كقرطبة وإشبيلية وصقلية ثمّ التجوّل فيها والتأثُّر بثقافتها، فصاروا من كبار الأعلام. كما كانت التّجارة من العوامل الهامّة الّتي أدّت دورًا كبيرًا في دفع أبناء المغرب إلى شدِّ الرّحيل، ولهذا فأكثر القادمين الّذين كانوا يتكسّبون بالتّدريس كانوا تُجارًا أيضًا، فقد كانوا يمارسون المِهْنَتيْن معًا دون أيّ اعتراض بينهما، وقد ازداد عدد الوافدين على الأندلس في القرن الخامس بسبب الزَّحف الهلاليِّ إلى المغربين الأدنى ثمّ الأوسط. ولكن اللافت للانتباه أنَّ القادمين من المغرب الأقصى كانوا أكثر عددًا بحكم قربه من الأندلس والتبعية السياسيّة للحكم المغربيِّ ولا سيما في القرن السَّادس الهجريِّ. ومن علماء المغرب الّذين قصدوا الأندلس في هذه الفترة محمّد بن أحمد التجيبي (ت549هـ)[1]، من أهل سبتة تلقّى تعليمه الأوّل على كِبار شيوخ بلده، وبعد ذلك انتقل إلى فاس ثمّ إلى إشبيلية الّتي سكنها حتَّى الوفاة. ومحمّد بن خميس التلمساني (708هـ)[2] الّذي شدّ الرّحال إليها أيضًا، برع في الأدب والعربيّة، وعُرِف عنه التفوّق في العلوم الدِّينيّة والعقليّة. ولمّا نزل غرناطة كان يُدرِّسُ العلوم العربيّة فارتفع بها صيتُه، كما هناك الكثير ممّن قصدوا الأندلس من النّحاة وسأُشير إلى بعضهم في موضعه.

ومن البلاد الّتي لفتت أنظار المغاربة أيضًا، نجد إفريقية الغربيّة أو بلاد السودان الغربيّ كما يُسمِّيها العرب، والّتي تنقّل إليها عددٌ كبيرٌ من طلبة وعلماء المغرب في الفترة المقصودة للدِّراسة، وكان قدومهم إلى هذه البلاد لأسباب مختلفة دينيَّة وعلميَّة وتجاريَّة وعسكريَّة، بالإضافة إلى القرب الجغرافيِّ الّذي ساعدهم على التنقُّل إليها بِسهولة، حيث رغبوا في نَشْرِ الإسلام وعِلمِهم بين الأهالي السّود وقد تَمَّ لهم ذلك، فكان لهم الأثر العظيم في إرساء هذا الدّين كونهم الطَّرف الّذي يتوسَّط بين القطريْن المشرقيّ والإفريقيّ. كما ساهم المغاربة في نشر العربيَّة للأهالي وتعليمها لهم، وكان نتيجة ذلك أن احتلّت إلى جانب اللّغات المتداولة مكانةً مرموقةً باعتبارها لغة القرآن الكريم، حتّى أضحت وسيلة هامّة لأداء مهامهم الدِّينيَّة والثّقافيَّة والعلميَّة والإداريَّة طيلة العصر الوسيط.

وإنّ الصِّلة الّتي كانت تجمع بين المغاربة وأبناء الغرب الإفريقيِّ تعود إلى زمن بعيد وإنْ كانت في البداية ذات طابعٍ دينيٍّ وتجاريٍّ، فقد أصبحت تقوم على مبدأ التبادل الثقّافيِّ

---

[1]- عبد الله بن الآبار، التكملة لكتاب الصّلة، تح: عبد السّلام الهراس، د ط. بيروت: 1995م، دار الفكر، ج2 ص164- 302- 303.

[2]- عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج2، ص169- 171.

حيث ظلَّت حركة التنقّل بين الطَّرفين متبادلة، بِدليل أنَّ السّود كانوا يشدّون الرِّحال إلى المغرب لطلب العلم ومواصلة الدِّراسة. علاوة على ذلك أنّه بعد انتشار الإسلام بين الأهالي أصبح لديهم غاية أخرى لدخول المغرب ذهابًا وإيّابًا حينما يقصدون المشرق لفريضة الحجّ الّتي أصبحت سنّة راسخة بِصفتهم مسلمين، فقد حرصوا على التنقّل رغم المتاعب الناتجة عن بُعد المسافة وانتشار الأمراض وقُطاع الطّرق.

والأمر ذاته بالنِّسبة لأبناء المغرب الّذين وفدوا على بلاد السّودان من مختلف الحواضر العلميّة للجلوس مع أقرانهم من شيوخ هذه البلاد، ممّا جعل علاقات الشّمال الإفريقيِّ مع السّودان الغربيِّ منذ القرن الثّاني الهجريِّ أبعد عمقًا وأثرًا في المجالات العلميّة والديبلوماسيّة[1] وسِواها، حيث حظِيَ هذا القطر بقدوم عدد مُعتبر من المغاربة الّذين أظهروا تفوّقًا ملحوظًا في مراكزها الثّقافيّة، وقد ساعد ذلك على توطيد العلاقات بين الطّرفين، وحتّى مع المشارقة والأندلسيِّين الّذين يُلاقونهم في البلاد الّتي حلُّوا بها.

وعلى أيّة حال، أقول إنَّه مهما كانت دوافع رحلات المغاربة إلى بلاد المشرق والأندلس، فإنَّ الغاية العلميَّة كانت أكثرها حدوثًا وشيوعًا، حيث كان علماء المغرب وطلبته يشدُّون الرِّحال وهم غير مبالين بمشقّة التنقّل في سبيل التّحصيل والتعمّق في دراسة العلوم النّقليّة منها والعقليّة، فقد تغذوا بروافد المشرق والأندلس، ممّا ساعد على بروز علماء تميّزوا بغزارة العلم فصاروا حجّةً في كثير من هذه العلوم، فكان لهم دورٌ عظيمٌ في إثراء الحضارة العربيّة الإسلاميَّة وتقدُّمِها، وشاركوا في نهضتها علمًا وتدريسًا وتأليفًا، كما تمكّنوا من جلب نفيس الكتب، وعقد المجالس فالتفَّ حولهم الطّلبة وتكاثروا. وكلّ هذا يدلُّ على الأثر الواضح الّذي تركته رحلات المغاربة إلى المشرق والأندلس فترة الدِّراسة، فقد استطاعوا الاحتكاك بنظرائهم الطّلبة والعلماء، وربط علاقات علميّة طيِّبة.

2-3- **توافد الطَّلبة والعلماء على بلاد المغرب:** إذا كانت الرّحلات الّتي قام بها أبناء المغرب من العوامل الهامَّة الّتي أسهمت في تنشيط الحركة الثّقافيّة بِبلادهم، فهناك عامل آخر أدّى دورًا بارزًا في الدَّفع بهذه الحركة إلى الأمام، وهو قُدوم أهل العلم إلى المغرب من مختلف الأصقاع. وإنْ كان من أبناء المغرب الكثير ممَّن رحلوا إلى المشرق للحجّ أو للقاء الشُّيوخ، فإنَّ هناك من أهل المشرق الّذين شدّوا الرَّحيلَ إلى أشهر المدن المغربيّة مثل فاس وتلمسان والقيروان ومراكش وغيرها، مع أنَّ وجود المشارقة الأوائل في هذه البلاد يعود إلى

[1]- إبراهيم حركات، مدخل إلى تاريخ العلوم بالمغرب المسلم حتّى القرن 15/9م، ج1، ص114- 116.

الفتح الإسلاميِّ، حيث كان أغلب الرّحالة من المدرِّسين والدَّارسين وكذلك من التُجار المثقّفين فهناك أساتذة وأدباء مارسوا التّجارةَ موردًا للعيش. ويبدو أنّ عدد الرّحالة في تزايد منذ القرن الثّاني، ولكن أكثر القرون الّتي شهدت وفود طائفة من المشارقة هي القرن السّادس والسّابع الهجريَّين فترة الموحديّة، علمًا أنَّ رحلات المشارقة نحو المغرب كانت بِنسبة أقلّ بالقياس إلى رحلات المغاربة الّذين كانوا يقصدون المشرق أكثر للحجّ أوّلاً، ثمّ للطّلب أو لأغراض أخرى كالتّجارة. وأمّا أسباب رحلات المشارقة فقد كانت مختلفة من شخص إلى آخر؛ لأنَّ منهم من تَنَقَّلَ إلى المغرب لِرغبتهم الخاصّة ولأغراض ثقافيّة، حيث يرغبون في نشر علمهم وأدبهم بين الأهالي، وغيرهم قصدُوا المغربَ بطلب من الحكّام من أجل أنْ يُفيد أبناءهم وأبناء العامّة من علمهم وخبراتهم عن كثب. كما أنَّ هناك من المشارقة من حضر إلى المغرب رغبة في هبات الحُكّام، وذلك ما حصل فعلاً فقد استفاد العديد من الأندلسيِّين الوافدين عليه من التّشجيعات الماديّة الّتي تلقوّها منهم[1]. وممّن قَصَدَ المغرب من الأندلسيِّين عن رغبة، أبو الفرج الفاسيّ الإشبيليّ (توفي قبل 630هـ) الّذي تَقَدَّم في الفقه والأصول والنّحو، دَرَسَ كتاب سيبويه بفاس حتَّى أدرك مسائله، ثمّ تَوَجَّهَ إلى الأندلس فاستقرّ بإشبيلية مدرِّسًا هذه العلوم حتّى وفاته[2]. ومثله محمّد بن عبد الكافي الدّمشقي الّذي حلّ بالمغرب الأقصى فدخل سبتة سنة 651هـ وقد مَكَثَ بها مدّة، وكان يُلقي دروسه في الجامع العتيق[3] وغير هؤلاء كثير.

أضف إلى ذلك أنَّ هناك من الأندلسيِّين الّذين يفدون على المغرب للقاء الشّيوخ والأخذ عنهم أيضًا، وقد كانت هجراتهم بأعداد كبيرة، نتيجةً للتدهور الّذي أصاب بلادهم إثر سقوط الدّولة الأمويّة 430هـ وضمِّها إلى الدّولة المرابطيّة. وقصد الأندلسيّون المغرب لأسباب كثيرة، فقد كانوا يمرُّون عليه في طريقهم إلى المشرق للحج أو للقاء الشّيوخ وإمّا للإقامة به نهائيًّا مع الاشتغال بوظيفة ما، وخلال كلّ تلك الرّحلات كان التبادل الثّقافيّ ساريًّا بين القطرين، مع أنَّ أكثرهم يستقرُّون بالمغرب الأقصى حين بدأت أهميّةُ سبتة وفاس ومراكش تبرُز بشكلٍ لافتٍ. ولأنّ المغاربة لم يشتغلوا بالطبّ كما فعل الأندلسيّون فإنّ حكّامَ المغرب

1- إبراهيم حركات، مدخل إلى تاريخ العلوم بالمغرب المسلم حتّى القرن 15/9م، ج1، ص146- 148.

2- جلال الدِّين السيوطي، بغية الوُعاة في طبقات اللّغويّين والنّحاة، تح: محمّد أبو الفضل إبراهيم، د ط. صيدا: د ت، المكتبة العصريّة للطِّباعة والنّشر والتّوزيع، مج2، ص244.

3- إسماعيل الخطيب، "الحياة الثّقافيّة بِسبتة في القرن السّابع الهجريّ" سبتة ودورها في إثراء الفكر الإسلاميّ محاضرات المهرجان الثّقافيّ الثّالث (26- 27- 28 أبريل 1979م)، ص110- 111.

وأمرائه حرصوا على استقطاب أشهرهم بهدف العلاج والتّداوي، وتلبيّة للطّلب قدم عدد من العلماء أمثال ابن الطّفيل الّذي قصدَ المغرب الأقصى للعمل طبيبًا في البلاط الموحّدي. كما كان من الوافدين الكثير ممّن اشتغلوا بالعلوم الدِّينيَّة، منهم أبو مدين شعيب (ت599هـ) نزيل بجاية ودفين تلمسان، وهو من جهابذة هذه العلوم مع ميلٍ كبيرٍ إلى التصوّف، سَارَ إلى طنجة ثمّ إلى مراكش مرورًا بسبتة لطلب العلم، وبعدها قصَدَ المشرق للحجّ والاستزادة من المعرفة الصّوفيّة[1]. ومن المشتغلين كذلك بالأدب، ابن الحاج الّذي خدم أبا الحسن المرِّينيِّ وخليفته أبي عنان[2]. بالإضافة إلى علماء اللّغة والنَّحو الّذين قَصَدوا المغربَ واستقرّوا فيه فتصدّوا للتّدريس والتّأليف، والقائمة طويلة من أمثال هؤلاء وسأذكر بعضًا منهم في موضعه.

2-4- **تشجيع الأمراء على العلم:** عُرِف عن الحكّام والأمراء الّذين توالوا على حُكْمِ المغرب الوسيط بتشجيع العلم وأهله، إذْ رغم الصِّراع الّذي كان ينشب بينهم من فترة إلى أخرى إلاَّ أنّهم لمْ يتجاهلوا الجانبَ العلميّ في دولتهم، فأكثرهم رغبوا رغبة كبيرةً في تنشيط العلم والأدب بُمختلف الوسائل، وكانوا من المهتمّين بالعلم وتشجيع أهله، وحثّ الطّلبة على التعلّم ومتابعة الدّروس في مختلف المؤسَّسات الثّقافيَّة المُعتمدة حينذاك "إذْ ليس خافيًا أنَّ الحياةَ العلميَّة وخصُوصًا النّواحي الأدبيَّة منها كانت تسير في رُكاب الأمراء والحُكّام أينما ساروا وحيثما حلّوا، فمسيرة الحياة العلميَّة كانت تزهو وتتقدَّم غالِبًا في ظلّ الأمراء والحُكّام الّذين يُشجِّعون العلم والعلماء والأدب والأدباء، فكانوا يُحيطونهم بِرعايتهم وتشجيعهم وعطاياهم وأحيانًا بإيجاد روح التنافس بين الأدباء والشّعراء وغيرهم وكانوا ينطلقون في هذا من حبّ الكثيرين منهم للعلم والأدب أوّلاً، ولِرغبتهم ثانيًا في إضفاء جوّ من الأبهة والذّكر الخالد لبلاطاتهم"[3] وللأمر أثرٌ عظيمٌ في نشاط الحركة العلميّة.

وكانت البداية مع أمراء المرابطيّة الّذين شجّعوا الأهالي على العلم والتّعليم، وعُنُوا بتقريب العلماء إلى مجالسهم، منهم يوسف بن تاشفين الّذي اشتهر بتقديره العظيم للفقهاء والعلماء، وأَخْذ مَشُورَتِهِم في حَلِّ أمور الحُكم والشّعب. مع العلم أنَّ لنهضة المغرب العلميَّة

---

[1]- ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ج2، ص192. وإبراهيم حركات، مدخل إلى تاريخ العلوم بالمغرب المسلم حتّى القرن 15/9م، ج1، ص88- 135- 138.

[2]- المقري، نفح الطّيب من غصن الأندلس الرّطيب، تح: إحسان عباس، د ط. بيروت: 1968م، دار صادر، ج7 ص108- 109.

[3]- يوسف بن أحمد حواله، الحياة العلميّة في إفريقية (المغرب الأدنى) منذ إتمام الفتح وحتّى منتصف القرن الخامس الهجريّ (90/ 450هـ)، ج1، ص157.

والحضاريّة علاقةً بالظّروف المواتية في فترة هذا الخليفة، وأوّلها وجود الأمن واستقرار الأمور السياسيَّة والاجتماعيَّة في المدن المغربيَّة، وثانيها العلاقات العلميَّة الّتي كانت تربط بين مختلف جهات المغرب لوقوعها تحت حُكْمِ دولة واحدة، ممّا ساعد على تنقُّل العلماء بينها، وتبادل الرَّحلات العلميَّة والخبرات الثَّقافيَّة، ومن ثمّ على رغبة الأهالي في طلب العلم. وهذا بالإضافة إلى تَوَفُّر المراكز الثّقافيّة الّتي كانت أرضًا خصبة للمعرفة، وكثرة المدرّسين فيها والعلماء القادمين إليها من مختلف أنحاء البلاد العربيّة والإسلاميَّة، فقد تنقّل إلى المغرب إبان حُكْمِ يوسف بن تاشفين من أهل كلِّ علم فحوله حتَّى أُشْبِهَت حضرته حضرة العباسيِّين في صدر دولتهم[1] لكثرة الوافدين عليها من العلماء.

ولكن ثمّة من يقول العكس عن الدّولة المرابطيّة بِخصوص هذه الفكرة، بِحجّة أنّ هذه الدّولة كانت مهتمّة بالفقه فقط، فقد حظِيَ الفقهاء بأمر من حكّامها بالعناية والأولويّة عن غيرهم من العلماء ورجال الفكر، ممّا مكّنهم من السّيطرة على جميع المستويات السياسيِّ والإداريِّ والاجتماعيِّ، وهو الأمر الّذي أثار حفيظة الشّعراء الّذين عبّروا عن امتعاضهم من ذلك، فقد فرضوا عليهم رقابة تقتضي السّماح لهم بالنّظم في أغراض شعريَّة دون أخرى. وفوق هذا، عُرِفَ عن حكّام المرابطيّة وأمرائها رفضهم للاشتغال بالفنون والعلوم الفلسفيّة وبالأخصّ تلك الّتي تتعارض مع مبادئ المذهب المالكيِّ[2]، حيث يجدونها ومنهم عامّة النّاس مقترنةً بالزّندقة. ولقد كان للطّبقة الخاصّة من العلماء والمفكِّرين اهتمامات بالفلسفة، وهذا ما يُؤكِّده المقري في قوله "وكلّ العلوم لها عندهم حظّ واعتناء، إلاَّ الفلسفة والتّنجيم، فإنّ لهما حظًّا عظيمًا عند خواصهم، ولا يُتظاهر بهما خوف العامّة، فإنَّه كلّما قيل (فلان يقرأ الفلسفة) أو (يشتغل بالتّنجيم) أطلقت عليه العامّة اسم زنديق، وقيّدت عليه أنفاسه فإنْ زلّ في شُبهة رجَموه بالحجارة أو حرقوه قبل أنْ يصلَ أمرُه للسّلطان، أو يقتله السّلطانُ تقرُّبًا لقلوب العامّة وكثيرًا ما يأمرُ ملوكهم بِإحراق كتب هذا الشَّأن إذا وُجدت"[3]. ولكن بالرّغم من نشاط الفلاسفة في الخفاء إلاَّ أنَّه ذاعت شهرة بعضهم في الميدان كابن باجة. وعلى هذا أقول إنَّه مهما اختلفت الرِّوايات والآراء في تشجيع أمراء المرابطين على العلم والعلماء، فيبقى الاتجاه

---

[1]- عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب من لدن فتح الأندلس إلى آخر عصر الموحدين تح: صلاح الدِّين الهواري، ط. صيدا: 2006م، المكتبة العصرية، ص123.

[2]- ميلود التّوري، الحركة اللّغويّة بالمغرب الأقصى: (عصر المرابطين والموحّدين)، بحث دبلوم الدِّراسات العليا في اللّسانيات. الرّباط: 1992- 1993م، كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة، جامعة أكدال محمّد الخامس، ص19- 20.

[3]- المقري، نفح الطّيب من غصن الأندلس الرّطيب، ج1، ص221.

الغالب هو أنّهم كانوا يدعون إلى العلم وأهله، بدليل أنّهم كانوا متشدِّدين في تعليم أبنائهم العلوم الفقهيّة وغير الفقهيّة.

وإنْ كانت الدّولة المرابطيَّة قد شجّعت على العلم والثّقافة، فقد سارت الدّولة الصّنهاجيّة على المنوال نفسه، ولا سيما أيّام حُكْمِ المعز بن باديس (ت454هـ) الّذي اعتنى كثيرًا بنشر العلم وتشجيع العلماء والأدباء، ووضعهم في المكانة الّتي يستحقُّونها، فقد تلقّوا منه الكثير من التَّقدير والكرم في العطاء، الأمر الّذي ساعد على تقدُّمِ العلوم والآداب وجعل أهل العلم والفكر يتقرّبون إلى الحكّام ، ويقصدون عاصمة الصّنهاجيِّين من كلّ ناحية حتّى ينالوا ما ناله غيرهم من التفاتة واهتمام كبيرين "كانت القيروان في عهده وجهة العلماء والأدباء تُشدُّ إليها الرّحال من كلّ فجّ لِما يرونه من إقبال المعز على أهل العلم والأدب وعنايته بهم"[1]. فقد كان سلاطين هذه الدّولة يتنافسون على استجلاب العلماء وتكريمهم، وتقريب الأدباء والشّعراء، وعلى ما يتطلّبه كلّ ذلك من إنشاء المدارس والمكتبات ودور التّرجمة الّتي تعمل على نقل الإنتاج العالميِّ إلى العربيّة وإلى غير ذلك.

كما كان حُكّام الموحّدين من أهل العلم والأدب قبل غيرهم من عامّة الناس، فقد اهتمّوا بدورهم اهتمامًا كبيرًا بشتى أنواع العلوم والمعارف، ممّا انعكس على حياة الأهالي الفكريَّة وما شهده المغرب من نهضة حضاريّة يشهد لها التّاريخ "إذا نظرنا إلى نشاط ملوك هذه الدّولة وما كانوا عليه من التضلّع والتعمّق في فنون العلم والأدب والحكمة والفلسفة أدركنا حياة الشّعب العلميّة، وما بلغه المغرب العربيّ الكبير يومئذ من العرفان والتقدّم"[2]، فكلُّ هذا ترك أثرًا واضحًا في سير الحركة العلميَّة بالمغرب، وكان على رأس هؤلاء ابن تومرت، وعبد المؤمن بن علي وأبو يعقوب المنصور الّذين كانوا قمّةً في العلم والمعرفة، حيث كان لتشبّث ابن تومرت بالعلم أثرٌ في نفوس الحُكَّام الّذين تعاقبوا على الحُكْمِ بعده، فقد بلغ بعضهم درجة كبيرة من التفقّه في علوم كثيرة، وأوّلُهم عبد المؤمن الّذي كان من العلماء الأفذاذ ذكرت عنه كتب التراجم أنّه كان يُشجِّعُ على العلم والعلماء، وخيرُ دليلٍ على ذلك جَعْل التّعليم في المراحل الأولى إجباريًّا يفرضه على كلِّ الأهالي. وكان عبد المؤمن فصيح اللّسان، مشاركًا في العلوم الدِّينيَّة، فهو حافظٌ للحديث، وإمامٌ في الأدب واللّغة والنّحو والقراءات، ومتذوّقٌ للشِّعر وناظمٌ له، مع معرفته الواسعة بالعلوم الأخرى. ومن مظاهر شغفه بالعلم أيضًا أنّه

---

[1]- ياقوت الحموي، معجم الأدباء، تح: إحسان عباس، ط1. بيروت: 1993م، دار الغرب الإسلاميّ، ج6 ص2636.

[2]- عبد الرّحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج2، ص24.

كان يُقدِّر العلماء ويُفَضِّلهم[1]، بِدليل أنّه كان مشرّفًا لوفادتهم وملازمتهم أينما نزل ورحل، كما كان يطلب مصاحبتهم له حتَّى في غزواته وحروبه معتبِرًا إيّاهم أهمّ جنوده الّذين يَستحسنُ مُشاورتَهم في أمور الحُكْم. ويوجد إلى جانب هذا الخليفة أبو يعقوب المنصور الّذي سار على خُطَى نَهْجِ أبيه وجَدِّه في حبّه العلم والشَّغف به، فقد كان أبو يعقوب هذا حافظًا للقرآن وعارفًا باللّغة والنّحو، ثمّ الطبّ والفلسفة الّتي أتقنها حتّى أصبح عالِمًا من أعلامها. وإليه يرجع الفضل في نَشْرِ فلسفة أرسطو وشرحها للنّاس شرحًا وافيًّا وواضحًا، وهو كذلك الّذي أراد لابن رشد أنْ يتوجَّه إلى الفلسفة، ويبعث فيه روح النّشاط والعمل عليها بمعيّة ابن طفيل[2]. كما انتشرت في عهد هذه الدَّولة المجالس العلميّة الّتي كثيرًا ما يُديرها الحكّام.

ولم يتوانَ أمراء الدّول الثّلاث بعد حُكّام الموحديّة عن تشجيع العلم وأهله، ومن مظاهر ذلك الشّغف والرّغبة في نشر العلوم والثّقافة بين الأهالي، فقد "ابتنى سلاطين هذه الدّول المدارس ووقفوا عليها الأوقاف، وجعلوا من مجالسهم حظًّا لمناظرة العلماء بين أيديهم واتّخذوا الأطباء والمفاتي والشُّعراء فنهضوا بجميع فنون العلم وظهرت المؤلّفات في مختلف المواضيع"[3]، ولكن قيل عن هذه الدّول الثّلاث إنّها ورثت ذلك الإرث الثّقافيّ والفكريّ الّذي خلّفه الموحدون، واستطاعت أنْ تُحافظَ عليه وتُطَوِّره بفضل سياسة حُكّامها ونظرتهم إلى العلوم العقليّة والنّقلية على السّواء. ولاجتماع كلّ هذه العوامل فمن الطبيعيِّ أنْ يبرُزَ في هذه الفترة عددٌ كبيرٌ من رجال الفكر والأدب بإنتاجهم وإبداعهم في شتى المجالات.

ولا أنسى حكّام المرِّينيَّة الّذين شجّعوا الأدباء على التّفنن في أنواع النَّثر والشِّعر والعلماء على الإبداع في مختلف العلوم، منها علم الفروع الّذي نشطت حركة التّأليف فيه كثيرًا، حيث منح لهم المرّينيّون حريَّةَ التمذهب والاعتقاد للفقهاء، ممّا ساعد على إعادة المالكيّة من جديد إلى الظّهور كما كانت في العهد المرابطيّ أو أكثر. ومعروف عن الدّولة المرّينيّة أنّها لا تضع عوائق أمام علماء المغرب وغيرهم من القادمين إليها، وبالأخصّ من الأندلس، فقد كانوا على قدم المساواة في المكانة والاهتمام، ويرجع الفضل كذلك في ازدهار الحياة الفكريّة في هذه الفترة إلى النّدوات العلميّة رفيعة المستوى الّتي يعقدها الأمراء لِشدَّة شغفهم بالعلم وحبّهم له ولأهله، وشهد البلاط المرّينيّ في عهد أبي الحسن أعظم المجالس الّتي يعقدها كبار العلماء، فقد كان أبو الحسن أعرف أمراء المرِّينيَّة بِقَدْرِ العلماء الّذين

[1]- ابن أبي زرع الفاسي، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب ومدينة فاس، ص133.

[2]- عبد الرّحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج2، ص24.

[3]- مبارك بن محمّد الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج2، ص491.

يحرص على تتبّع أخبارهم. وخير شاهد على ذلك أنّه إذا سمِع عن عالم بارز أرسل في استدعائه وضمّه إلى أهل مجلسه "إذا سمِع بِمن له رسوخ قدم في العلم أقدمه على حضرته وجعله من خواص أهل مجلسه وأجرى عليه الجرايات الّتي تكفيهم حضرًا وسفرًا فاجتمع بحضرته أعلام..."[1]، كما يعدُّ أكثر الأمراء اهتمامًا ببناء المدارس، وقد خَصَّ بنو مرّين عامّة. أضف إلى ذلك أنّهم كانوا يُشجِّعون العلماء على التّأليف والإنتاج، وبالتّالي كلّما قدّموا مؤلّفًا كلّما تحصّلوا على الهدايا والأموال تشجيعًا لهم على النّشاط. وعلى هذا قيل إنَّ أكثر الحُكّام كانوا محبّين للعلم، منهم أبو عنان المرّينيّ الّذي أَدْرَك الفقهَ حتّى اشتهر فيه وأجاد في المنطق والأصول، مع معرفته الواسعة بالعربيّة والحساب، كما كان من حفظة القرآن ومن عارفي ناسخه ومنسوخه.

وعُرِفَ عن حُكَّام الدّولة الزيانيّة أيضًا تعلّقهم الشَّديد بأسباب العلم وحبّهم للثّقافة، ويأتي في طليعتهم يغمراسن الّذي اشتهر بِتشجيعه للعلم ومساندته لأهله، ومن صفاته أنّه كان يبحث عن كِبار العلماء بهدف استقدامهم إلى تلمسان، وتقريبهم إلى مجالسه مع تشجيع الأدباء على الكتابة، وعلى رأسهم يغمراسن الّذي يعدُّ أوّل من قام على تنشيط الحركة الثّقافيّة والتّعليميّة بتلمسان فحرص على استقدام العلماء إلى عاصمته، وشجّعهم على التّدريس والتّأليف مع رفع مراتبهم وإغداقهم بالأموال والهدايا. ولِشِدَّة عناية حكّام بني زيّان بالعلم وأهله كثيرًا ما يُشرِفون على المجالس الّتي تُلقى فيها الدّروس الدِّينيَّة منها والعلميَّة. وممَّا زاد من نشاط الحركة العلميَّة في المغرب عامّة هو حدّة التنافس بين الحكّام على استقطاب أشهر الأدباء والفقهاء وإدراجهم في المجالس، مع أنَّ هناك من الأمراء الّذين لم تلقَ طلباتهم القبول من العلماء، فهذا المستنصر أبو عبد الله الحفصي طَلَبَ من أحد كِبار الكتّاب خِدْمَتَه، ولكنَّه رَفَضَ الأمرَ "وزعموا أنَّ المستنصر أبا عبد الله بن الأمير أبي زكريا استقدمه على عادته في استدعاء الكُتاب المشاهير والعلماء وبعث إليه ألف دينار من الذّهب العَيْن فاعتذر وَرَدَّ عليه المال، وكان أشقّ ما مَرَّ على المستنصر وظهر له شأنه وبعد همّته"[2]. وبالرّغم من الفتور الّذي ظهر في الحركة العلميّة فترة الزيانيِّين بسبب الفتن ومظاهر الصِّراع الّتي تتالت على المغرب الأوسط، إلاَّ أنَّ يغمراس وأبناءه وأحفاده استطاعوا أنْ يقودوا "نهضةً علميّةً وأدبيّةً عظيمة فينشأون المدارس ويُكثِرون في مجالسهم من مناظرات العلماء بين أيديهم، ويتّخذون

[1]– محمّد بن مرزوق التلمساني، المسند الصحيح في مآثر مولانا أبي الحسن، دراسة وتح: ماريا خيسوس بيغرا تقديم: محمود بوعياد. الجزائر: 1981م، الشّركة الوطنيّة للنشر والتوزيع، ص260.

[2]– ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ج2، ص427.

المفتين من كبار الفقهاء كما يتّخذون الأطباء ويتغنّى بمديحهم الشّعراء ويجزلون لهم في العطاء"[1]، ويُذكر أنّهم كانوا يشاركون العامّة في احتفالاتهم ومناسباتهم الخاصّة. أضف إلى ذلك أنَّ لاتّصال بني زيان بأهل الأندلس أثرًا كبيرًا في نُموّ هذه الحركة حيث نزح العديد من الأندلسيِّين إلى المغرب الأوسط، واستقرّ نفرٌ منهم في تلمسان الّتي كانت على صلةٍ متينةٍ بالأندلس من قبل، حاملين إليها مختلف العلوم والآداب والعادات الّتي تميّزوا بها. وحتَّى يتمكَّن الأندلسيّون من نَشْرِ علمِهم بين الزيانيِّين كانوا يُنظِّمون حلقات تعليم بالمدارس والمساجد ولا سيما بالمسجد الجامع الّذي أصبح يؤدِّي وظيفة أخرى غير الوظيفة الدِّينيَّة الّتي يقوم بها قبل هذه الآونة، فقد كان مركزًا من مراكز الثّقافة العربيّة والإسلاميّة منذ عهد المرابطين. ونتيجة لهذا التمازج والاحتكاك برز علماء كُثر[2]، في الأصول واللّغة وغيرها.

ويأتي بعد يغمراسن حفيده حمو موسى الأوّل (701هـ- 718هـ) الّذي عُرف كذلك بشغفه بالعلم وأهله، فكما تقول إحدى الرّوايات عندما وَفَدَ عليه فقيهان أبو زيد وأبو عيسى من السَّاحل الجزائريّ احتفى بهما، وأنشأ لهما مدرسةً سمّاها مدرسة أولاد الإمام فاستطاعا نشر علوم كثيرة[3]. ولأنّ حُكّام الزيانيّة يرغبون في العلم إلى حدٍّ كبيرٍ فقد سعوا إلى تأسيس المدارس في مختلف مدن المغرب الأوسط وجلب العلماء إليها، وبناء مساكن للطلبة الّذين يُزاولون الدّروس فيها بهدف توسيع دائرة التّعليم والثّقافة في دولتهم.

3- وسائط الثّقافة في المغرب: إذا تحدّثْتُ آنفًا عن دور المراكز الثّقافيَّة الكبير في نشاط الحركة العلميَّة بالمغرب طيلة العصر الوسيط، وعن المكانة العلميَّة الّتي حظيت بها بفضل مكانتها السياسيّة والمذهبيّة والعسكريّة، حيث تبيّن لي أنَّ هناك من المراكز الّتي كانت محطّ أنظار العلماء في المشرق والمغرب، فلابدّ من القول إنّ هذه المراكز تمكّنتْ من أداء هذا الدّور عن طريق وسائط ودور العلم المختلفة موزّعة عبر جميع أنحاء البلاد. وقد تمثّلت تلك الوسائط في المساجد والزوايا والرّباطات والكتاتيب والمكتبات وبلاطات الأمراء الّتي انتشرت بواسطتها العلوم والثّقافة الإسلاميَّة وباجتماع هذه الوسائط تشكلّت الحياة العلميّة بالمغرب وكانت على ما هي عليه طيلة فترة الدِّراسة.

---

[1]- شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربيّ عصر الدّول والإمارات (الجزائر- المغرب الأقصى- موريتانيا- السّودان) ص126.

[2]- محمّد بن عمرو الطمّار، تلمسان عبر العصور، دورها في سياسة وحضارة الجزائر، ص221.

[3]- المرجع السّابق، ص83.

3-1- **الكتاتيب:** الكتاتيب جمع كُتّاب، وهي كلمة مشتقّة من التّكتيب الّذي يعني تعلّم الكتابة. والكتاتيب أسبق وأقدم أنواع المؤسَّسات التّعليميَّة الّتي عرفها العالمُ الإسلاميّ بعد المساجد والجوامع، فهي المرحلة الأولى الّتي يتمّ فيها تحفيظ النّاشئة القرآن والحديث النبويّ وتعريفها بما ينبغي أنْ تعرفَه من تعاليم الإسلام، كما تتلقّى فيها مبادئ القراءة والكتابة؛ لأنَّ ظهور الكتاتيب مرتبط في الغالب بتعليم النّاشئة هذه المبادئ[1]، وتُشبه الكتاتيب ما نُسمّيه الآن بالمدارس الابتدائيَّة. وَعَرَفَ أهلُ المغرب الكتاتيب منذ قدوم العرب الفاتحين إلى أراضيهم، مع أنَّه في بداية ظهورها كانت على شكل خِيَم، حيث أراد هؤلاء تعليم أبنائهم وأبناء البربر المسلمين الدِّين والعربيَّة. ويَسْهَر على نشاط الكتاتيب وتجهيزها معلّم أو مؤدّب له معرفة معيَّنة من العلوم الدِّينيَّة؛ لأنّه ليس بالضَّرورة أنْ يكون عالِمًا ذا كفاءة عالية في هذه العلوم وغيرها، بل شرطه الوحيد أنْ يكون حافظًا لكتاب الله ﷻ ومجوّدًا له. وكان المغرب الأدنى أوَّل مكان تأسَّست فيه الكتاتيب ومنه انتقلت إلى باقي البلاد وانتشرت فيها بشكلٍ واسعٍ فظهرت في المغربين الأوسط والأقصى. وكان يوجد في المغرب عامّة عددٌ لا حصر له من الكتاتيب الّتي عرفت بدورها جموعًا غفيرة من المدرِّسين والمؤدِّبين، ولمكانتها التّعليميَّة المهمّة قام بعض علماء المغرب وفقهائه بوضع مؤلّفات تربويّة تناولت موضوع الكتاتيب ومهمّتها وبرامجها وأغراضها، منهم محمّد سحنون صاحب (كتاب آداب المعلّمين) تناول فيه كثيرًا من المسائل التّربويَّة[2]. وعليه أدّت الكتاتيب دورًا مهمًّا في انتشار الدِّين والعربيَّة بين الأهالي، الأمر الّذي جعلها تحظى بِمكانة خاصّة بينهم، حتّى إنَّهم كانوا حريصين جدًّا على تلقّي أبنائهم التّعليم فيها، وتحفيظهم القرآن وأحاديث النبيّ ﷺ.

3-2- **المساجد:** لعبت المساجد دورًا دينيًّا مهمًّا في المغرب منذ الفتح الإسلاميِّ، وقد كانت المساجد في بداية ظهورها أماكن مقدَّسة تُؤَدَّى فيها الصّلوات الخمس، ولاحقًا أصبحت تؤدِّي دورًا تعليميًّا مهمًّا، بحيث تُلقى فيها الدّروس لشرح تعاليم الإسلام وتعليم العربيّة الّتي نزل بها القرآن، كما تُنظَّمُ فيها المجالس الّتي لها أثرٌ في توعية الأهالي وتفصيح لسانهم. وقد أشاد ابن خلدون بِدور المساجد التّعليميِّ والعلميِّ قائلاً إنَّ مختلف العلوم كانت كلّها تُعلَّم في المساجد، وهو نفسه تلقّاها في تلك المساجد الّتي ضمّها المغرب في عصره[3]، ومعنى هذا

[1]- أحمد شلبي، تاريخ التّربية الإسلاميّة، د ط. القاهرة: 1954م، دار الكشّاف، ص25.

[2]- يوسف بن أحمد حواله، الحياة العلميّة في إفريقية (المغرب الأدنى) منذ إتمام الفتح وحتّى منتصف القرن الخامس الهجري (90/ 450هـ)، ج1، ص228 وص233.

[3]- عبد الرّحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج2، ص75.

أنَّ المسجدَ يعدُّ النّواةَ الأولى الّتي يتلقّى فيها الأبناء العلم والمعرفة، فقد أدّت المساجد إلى جانب رسالتها التعبديّة بوظائفها العلميَّة والسياسيَّة والاجتماعيَّة طِيلة فترة الدِّراسة، كما كان المسجد المكان الّذي تُسَوَّى فيه الأمور المتعلِّقة بِسكان القُرى والمدن.

ولِدور المساجد العظيم في دَفْعِ تيَّار العلم والثّقافة في المغرب، فيتوفّر على عدد ضخم من المساجد، وبالأخصّ في العهدين المرابطيّ والموحّديّ حيث اهتمّ الحكّام بِبِناء المساجد في الحواضر والبوادي والقرى. ومثال ذلك مسجد الجامع الأعظم بطرابلس ليبيا الّذي أنشأه بنو عبيد في نهاية القرن الثّالث الهجريِّ[1]، ومسجد الجناوي الّذي يوجد بإحدى قرى جبل نفوسة (الجبل الغربيّ حاليًا) الّذي يعدّ امتدادًا جغرافيًّا لسلسلة جبليّة طويلة تبدأ من جبل درن بالمغرب الأدنى مرورًا بالمغرب الأوسط حيث توجد جبال الأوراس ثمّ جبل دمر ومطماطة بالمغرب الأدنى الّذي ينتهي بجبال طرابلس والمسافة الّتي تقع بين هذه الجبال تُسمّى جبل نفوسة[2]. ومسجد الجناوي تأسَّس في عهد الفاطميِّين، كان كبير الحجم يضمّ مشاهير العلماء الّذين تصدّوا لِنشر العلم والدِّين في المنطقة. وهناك المسجد الّذي بناه يوسف بن تاشفين في مراكش، وكذلك مسجد الكتبيين الّذي أسَّسه عبد المؤمن بن علي وسُمِي كذلك نسبةً إلى باعة الكتب الّذين كانوا يعرضون بضاعتهم بجانب هذا المسجد[3]، ومسجد الجامع الكبير في المغرب الأوسط.

هذا بالإضافة إلى مساجد فاس الّتي كثُرت، وبخاصّة منذ حُكْمِ يوسف بن تاشفين الّذي أراد إنشاءَ مسجد في كلِّ شارعٍ بالمدينة، ومن أشهر تلك المساجد جامع القرويِّين الّذي كان أوّل وأقدم جامعة علميَّة في العالم الإسلاميِّ، تأسَّس في عهد الإدريسيَّة وبالضَّبط في سنة 245هـ وقامت بتشييده سيِّدة فاضلة وفدت من القيروان تُسمَّى أمّ البنين الفهريّة. ويعدُّ هذا الجامع في جميع عهوده كعبةً يَحُجُّ إليها الطّلبة من كلِّ ناحية، وكان يلتقي في رحابه العديد من أعلام فاس والوافدين عليها. كما كان منذ إنشائه مبدأ الارتكاز للنّشاط العلميِّ في المغرب، ومركزًا مُهمًّا للدِّراسات الدِّينيَّة والأدبيَّة أيضًا، رغم وجود مساجد أخرى سابقة له في

[1]- إبراهيم حركات، مدخل إلى تاريخ العلوم بالمغرب المسلم حتّى القرن 15/9م، ج1، ص28.

[2]- يُنظر: محمود حسين كوردي، الحياة العلميّة في جبل نفوسة وتأثيراتها على بلاد السّودان الغربيّ (خلال القرون 2- 8 حتّى 8- 14م)، د ط. طرابلس: مؤسّسة توالت للثّقافة، 2008م.

[3]- ميلود التوري، الحركة اللّغويّة بالمغرب الأقصى: (عصر المرابطين والموحّدين)، بحث لِنيل دبلوم الدّراسات العليا في اللّسانيّات، ص85.

فاس وغيرها، إذْ يوجدُ في فاس وحدها حوالي سبعمائة جامع ومسجد[1]. وقد بلغ هذا المسجد أوج ازدهاره في عصر بني مرّين نتيجة لحرية الفكر الّتي منحها الحُكّام للجميع، فقد كان مركزًا رئيسًا لإشعاع الفقه المالكيّ على يد علماء كِبار. وكلّ هذا إذًا زاد من نشاط الفكر في المساجد عهد المرِّينيَّة، ممّا جعلها تتَّخذُ صورةَ الجامعات الإسلاميَّة وبخاصّة هذا الجامع الّذي قام بأعظم دورٍ في تطوّر هذه الحركة حيث تخرّج فيه علماء كثر، بيّضوا وَجْهَ المغرب في سِجِلِّ الزّمان وخلّدوا النّبوغ المغربيّ مشرقًا ومغربًا. كما يوجد بسبتة الجامعُ العتيق الّذي يقصده الوافدون غالبًا لإلقاء الدّروس، ومسجد القفال الّذي كان له دورٌ ثقافيٌّ بارز، حيث كانت تُدرَّسُ فيه مختلف العلوم[2]، ولذلك كان يُقبِلُ عليه طلبة كثُر.

ومن مساجد المغرب الأدنى، المسجد الجامع بالقيروان أو جامع عقبة بن نافع نسبة لمؤسّسه مثلما يُطلق عليه أيضًا، ولهذا المسجد أهميّةٌ كبيرةٌ ليس في المغرب الأدنى فقط وإنّما في المغرب كلِّه بحكم أقدميته ومكانته العلميَّة، فهو بلا منازع "قلب القيروان النّابض بالحياة، وكان عقلها المفكِّر أيضًا... فإلى جانب دوره الدِّينيِّ العلميِّ الثّقافيِّ، كان دوره السياسيّ والاجتماعيّ خطيرًا وتاريخ مدينة القيروان ارتبط في أدقّه وأعظمه بمسجدها الكبير"[3]. فقد كان له أبلغ الأثر في نفوس العلماء الّذين يحضرون إليه من جميع الأرجاء لقعد المجالس العلميَّة واللّغويَّة مع تلامذتهم إلى جانب أدائهم فيه لواجب العبادات، كما كان مقرًّا وموئلاً للقضاة وبِخاصّة قضاة المالكيّة، ولكن نشاط هذا الجامع العلميّ تعثَّر بسبب الهجرات الهلاليَّة إلى القيروان، فقد ظلَّ هذا الجامع منارة للتّدريس والعلم خلال القرون الأربعة من القرن الأوّل إلى منتصف القرن الخامس الهجريَّيْن بعد دخول بني هلال ومن ثمَّ فَقَدَت القيروان صدارتها. ويوجد إلى جانبه، جامع الزيتونة بتونس الّذي تأسّس ما بين فترة 116هـ و123هـ على يد عبيد الله بن الحبحاب السلوي (توفي بعد 123هـ) على الأرجح؛ لأنَّ هناك من المؤرِّخين من ينسِبه إلى حسان بن النّعمان (ت86هـ) وأمّا الأوّل فقد قام بتجديده فقط وزاد في ضخامته ببعض العمران، كما هناك زيادة الله بن الأغلب الّذي زاد فيه

---

[1]- الحسن الوزّان الفاسي، وصف إفريقيا، ج1، ص223.

[2]- إسماعيل الخطيب، "الحياة الثّقافيّة بسبتة في القرن السّابع الهجريّ" سبتة ودورها في إثراء الفكر الإسلاميّ محاضرات المهرجان الثّقافي الثّالث (26- 27- 28 أبريل 1979م)، ص110- 111.

[3]- يوسف بن أحمد حواله، الحياة العلميّة في إفريقية (المغرب الأدنى) منذ إتمام الفتح وحتّى منتصف القرن الخامس الهجريّ (90/ 450هـ)، ج1، ص202- 203.

وضَخَّمَه[1]. واكتسى هذا المسجد أهميّةً خاصّة بفضل ما يقوم به من دورٍ علميٍّ وإشعاعٍ ثقافيٍّ لمْ يضطلع بهما غيره من المؤسَّسات سِوى جامع القروِيِّين بالمغرب الأقصى، وكالعادة تَنَقَّلَ إلى جامع الزيتونة جمعٌ من العلماء للتَّدريس ونَشْرِ علومهم.

وحَظِيَ المغرب الأوسط بِدورهِ بكثير من المساجد نظرًا لأهميَّتها الكبيرة في نشر العلم ويبدو ذلك بوضوح في العدد الكبير الّذي تأسَّس في عهد بني حمّاد، وأشهرها الجامع الأعظم الّذي أدّى دورًا تعليميًّا مهمًّا في عدَّة علوم وبالأخصّ القراءات. وبصدد ذكري لهذا القطر تتوفّر منطقة زواوة على مساجد كثيرة وهذا ما نَوَّهَ به الغبريني في قوله إنَّه لا يوجد مكانٌ في هذه المنطقة إلاَّ وفيه مسجدٌ ومدرِّس[2]، ومن تلك المساجد؛ المسجد الأعظم ومسجد أبي زكريا يحي الزواوي ومسجد المرجان. وحدث الأمر ذاته أيّام الموحديّة الّتي حرص أمراؤها على إنشاء المساجد، مع أنَّ الموحِّدين في صدر حُكْمِ عبد المؤمن لم يكونوا يهتمّون كثيرًا بالزّخرفة آخِذًا بسياسة ابن تومرت في التقشّف والزّهد بِخلاف عبد المؤمن الّذي أمَرَ ببناء المساجد في مختلف أنحاء البلاد. فالمهمّ أنّ أمراء هذا القطر لم يتوانوا في إنشاء المساجد في كلِّ فترة من حُكْمِ أحدهم، فقد توفّرت تلمسان وحدها على ما يفوق ستِّين مسجدًا[3]، منها مسجد الجامع الكبير الشَّهير الّذي تأسَّس في عصر المرابطين، ومسجد واركلة بالجنوب الّذي أسَّسته الدَّولة الحفصيَّة سنة 636هـ فترة وجودها بالمغرب الأوسط ورُسِمَ على مأذنته اسم الأمير أبي زكريا الأوّل (ت647هـ). ولبني مرّين اهتمام ببناء المساجد الجديدة، منها المسجد الجامع بفاس الجديدة الّذي تمّ إنشاؤه سنة 677هـ، ومسجد العبادة، علاوة على ذلك أنّ المرّينيِّين عُرِفوا باهتمامهم الكبير بترميم المساجد القديمة وإصلاحها حفاظًا على الرَّونق الحضاريِّ لها[4]، وكذا تزويدها باحتياجاتها مثل الإنارة وغيرها. وهذه المساجد وغيرها ممّا لا يسع المجال لِذِكْرِها جميعًا أدَّت دورًا مهمًّا في تعليم العربيّة ونشر الدِّين، فقد استطاعت المساجد فضلاً عن حلقات الشّيوخ أنْ تُكوِّنَ رجالاً طارت شهرتهم في المغربيَّة خاصَّة والعربيَّة عامّة بكتب قيِّمة ومهمّة.

---

[1]– ابن أبي دينار، المُؤنس في أخبار إفريقيا وتونس، ص13.

[2]– الغبريني، عنوان الدراية في من عُرِف من العلماء في المائة السّابعة ببجاية، ص136.

[3]– عبد الرّحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج2، ص252.

[4]– محمّد عيسى الحريري، تاريخ المغرب الإسلاميّ والأندلس في العصر المرّينيّ (610هـ/1213م–869هـ/1465م)، ص322.

3-3- **الزّوايا:** الزّاوية عبارة عن دارٍ واسعة تعدُّ لتحفيظ القرآن وللعبادة، أسَّسها علماء ومُصلحون لأداء مهامها الدِّينيَّة والتّعليميَّة والاجتماعيّة والحضاريّة، فهي أوّلاً مكان لإقامة الصَّلوات، وثانيًا مكان لإلقاء الدّروس الدِّينيَّة واللّغويَّة، وكلُّ زاوية تتوفَّر على مرافق لإيواء الطّلبة والمحتاجين وعابري السَّبيل. وكلمة (زاوية) في الاصطلاح تُطْلَقُ على مجموع القبائل الّتي تهتمُّ بِنَشْرِ العِلم، وكانوا يُسمّون بذلك لملازمتهم الزوايا، فأصبح يُقال لهم (الزواوة) بمعنى أهل الزوايا الّذين عُرِفوا بخدمة الدِّين والعلم في المغرب[1]، والزّوايا كثيرة جدًّا في هذه البلاد ويتراوح حجمها بين كبيرة وصغيرة. وللعلم ظهور الزاوية مرتبطٌ بالتصوّف حيث يعمل المتصوِّفة على نشر أفكارهم عبر الزوايا، الأمر الّذي ساعدها على الانتشار وبالأخصّ فترة الموحّديّة، فقد تأسَّس في هذه الفترة عددٌ لا يُحصى من الزّوايا منها زاوية المهدي بن تومرت بتينمل وهي أُوْلَى الزوايا الّتي شُيِّدَت في المغرب الأقصى. وظهرت بعدها زوايا أخرى واشتهرت مثل زاوية أبي النّور المشترائي، وزاوية تلميذه أبي شعيب بن سعيد. وعلى هذا أدّت الزوايا دورًا مهمًّا في توسيع دائرة التّعريب بين سُكان المغرب، فضلاً عمّا يُقَدَّمُ فيها من دروس نظاميّة باللّغة العربيّة في العلوم الفقهيَّة واللّغويَّة. كما تُردَّدُ فيها الأدعية والابتهالات والصّلوات على الرّسول ﷺ على شكل قوالب شعريَّة ونثريّة من إبداع شيوخ الزّوايا وأقطاب التصوّف[2]، فالزوايا إلى جانب أنَّها تُمثِّلُ دُور عبادة وحفظ للقرآن، فهي كذلك دُور تعليمٍ وعلمٍ "اضطلعت مؤسَّسة الزّاوية بنشر الثّقافة وتنشيط حركة بهذه الرّبوع، إذْ شجّعت على العلم، فمنها ما كان يعمل على تلقين القراءة وتحفيظ القرآن على الألواح، ومنها ما كان يُزوِّد الدّارسين بمُختلف العلوم اللّغويَّة والدِّينيَّة"[3]. وبدأت الزوايا تنتَشِرُ بشكلٍ واسعٍ وبارزٍ منذ القرن الثّامن الهجريِّ في جميع الأنحاء.

3-4- **الرِّباطات:** للرِّباطات دورٌ مهمٌّ في تاريخ الحركة الثّقافيّة بالمغرب، فقد كانت المكان الّذي يتلقّى فيه المقيمون بها تعاليم الدِّين ومبادئه، حيث أسهمت بشكلٍ ما في نشر

---

[1]- Françis Dechassey, La Mauritanie 1975- 1990, L'étrier, La houe et le livre ED. Paris, Antropos, p90. بتصرّف

[2]- ميلود التّوري، الحركة اللّغويّة بالمغرب الأقصى: (عصر المرابطين والموحّدين)، بحث دبلوم الدّراسات العليا في اللّسانيات، ص85.

[3]- محمّد فلاق، "المشهد العلميّ والثّقافيّ في زواوة وتلمسان في القرنين السابع والثّامن للهجرة"سلسة القوافل العلميّة. بجاية/ تيزي وزو: 2011م، منشورات وزارة الشّؤون الدّينيّة والأوقاف الجزائر، دار الأمل للطّباعة والنّشر والتّوزيع ص68- 69.

العلم وتعميمه. واقبست كلمة (الرّباط) من القرآن، وذلك في مثل قوله ﷻ: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: 60] وقوله أيضًا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ﴾ [آل عمران: 200]. وكانت مهمّة الرّباطات في الوهلة الأولى من ظهورها عسكريّةً صرفة، وذلك لأنَّ المغاربة قاموا بإنشائها على السّواحل المُطِلَّة على البحر المتوسِّط لحمايتها من الغارات البحريّة المفاجئة ولا سيما الغارات البيزنطيّة، ممّا دفع حكَّام المغرب إلى إقامة الرّباطات وشحنها بالجنود للدّفاع عنها، وكان المقيمون بها يتدرّبون بشكلٍ مكثّف على الفروسيّة وعلى مختلف التّدريبات العسكريّة الأخرى. وممّا لا شكّ فيه أنَّ الرّباطات في المغرب صمدت أمام أساطيل البيزنطيِّين، فقد كانت أفضل مثال على مواجهة العدوّ والجهاد في سبيل الله أو بالأحرى كانت مثالاً للزّهد والتفاني في خدمة الإسلام. ثمّ ما لبثت أنْ تطوَّرت حتَّى أصبحت تقوم بمهمَّة دينيَّة وعلميَّة أيضًا، حيث تحوَّلت إلى مراكز لنشر الإسلام والعلم. وفضلا عن ذلك، ساعدت الرّباطات في حماية المُسلمين البربر من الفِتَن الّتي شهدها المشرق في تلك الفترة، أيْ إنَّ الرّباطات كانت ملجأ يقصده النَّاسُ إمَّا للحماية فيها والهروب من الوضع أو للعبادة والزّهد.

وأذكر أنَّه لم تتأسَّس في المغرب الرِّباطات البحريَّة على السّواحل فقط، بل الرّباطات الصّحراويَّة أيضًا الّتي تَمَّ إنشاؤُها في المناطق الصّحراويَّة المُتاخِمة لبلاد السّودان من أجل حماية معابر البلاد الإسلاميَّة من الأخطار المحيطة بها[1]، وأقوى دليل على هذا رباط عبد الله بن ياسين الّذي ظهر مع قيام الدَّولة المرابطيَّة ولذلك كانت أوّل دولة رباط في العالم الإسلاميّ كلِّه. وبعد ذلك أُنْشِئَتْ في المغرب رباطات كثيرة وبالأخصّ أيّام الدّولتين المرابطيّة والموحّديّة، منها رباطات المغرب الأقصى كرباط وجّاج بن زلو اللّمطي، ورباط عبد الله بن ياسين الّذي ذكرته، ورباطات أبي إسحاق الأندلسيِّ بفاس، ورباط مولاي بوشعيب قرب آزمور بِمراكش ورباط أبي محمّد صالح في آسفي، وكذلك رباط سلا ورباط الفتح الّذي نزل فيه الفقيه ابن عاشر (ت765هـ)[2] وقد نشط فيه كثيرًا.

3-5- **المدارس:** أدّت المدارس دورًا أساسيًّا في دفع تيار الثّقافة بالمغرب، ولذلك أولى لها الحُكّام عنايةً كبيرة، وحرصوا على بنائها في مختلف المدن والقرى، وكانوا يوكلون

---

[1]- عثمان الكعّاك، محاضرات في مراكز الثّقافة في المغرب (من القرن السّادس عشر إلى القرن التّاسع عشر)، د ط. القاهرة: 1954م، المطبعة الكمالية، ص36- 38.

[2]- ابن القاضي، جذوة الاقتباس في ذِكر من حلّ من الأعلام مدينة فاس، ج1، ص153.

في هذه المدارس مهمّة التّدريس لكبار العلماء والفقهاء، كما للطّلبة فيها نظم وتراتيب خاصّة تجمعهم على حسب اختلاف اتّجاهاتهم العلميَّة وتَنَوُّعِ غاياتهم في طلب العلم[1]. مع العلم أنَّ ظهور المدارس بالمفهوم الخاصّ في المغرب لا يزال يكتنفه بعض الغموض لقلَّة المعلومات الّتي يُمكن أنْ تُوضِّحَ الأمرَ، وقد أدّى ذلك إلى انقسام المؤرِّخين إلى فريقين، حيث يرى الفريق الأوّل أنَّ تأسيسَ المدارس في المغرب يعود إلى عصر الموحّدين، حيث عُنِيَ حكّامها بِتأسيس المدارس في المغرب والأندلس، وأمّا الفريق الثّاني فيقول إنَّ المدارس لم تظهر إلاَّ بعد انهيار الموحديّة معتبرًا أنَّ تأسيسَها من مظاهر التقدُّم العلميِّ للمرِّينيِّين. وليس هذا وحسب، بل ثمّة روايات أخرى تُشير إلى أنَّ المغرب لم يعرف المدارس إلاَّ في القرن السَّابع الهجريِّ، فإليه يرْجِع الفضل في تأسيسه أوّل مدرسة بالمغرب الأدنى عُرِفت بمدرسة الشّماعين تأسَّست سنة 633هـ بقرب الجامع الأعظم بتونس، ثمّ انتقلت فكرة بناء المدارس إلى بقيّة بلاد المغرب، منها المغرب الأوسط الّذي لم يعرف المدارس إلاَّ في عهد بني زيان. كما تأسَّست في عهد يعقوب بن عبد الحق المرِّينيِّ بسبتة المدرسة الشاريّة على يد أبي الحسن الغافقي الشاري سنة 635هـ وضمّت طائفة من العلماء المحليِّين وعلى رأسهم الشاري[2]. ولكن يبدو أنَّ الرِّواية الصَّحيحة هي أنَّه توجد في عصر المرابطين بفاس مدرسة كانت من تشييد يوسف بن تاشفين تُعْرف بمدرسة الصابرين، وليس من المُستبعد أنْ يكون هناك غيرها في هذه الفترة[3]، وهي مدرسة ذات شهرة عالية، وكذلك مدرسة المهديَّة الّتي أنشأها يعقوب المنصور في عصر الموحّدين، وقد سار على نَهْجِه النَّاصر الّذي أسَّس حوالي عشرين مدرسة طيلة فترة حُكْمِه، ومدرسة الطّالعة بسلا الّتي أسَّسها المنصور الموحّديّ وقيل عن الموحّدين إنّهم كثيرو الاعتناء بتأسيس المدارس. وأُنشئت في عصر المرِّينيِّين أيضًا مدارس كثيرة، منها مدرسة الصفّارين بمدينة فاس الّتي تأسَّست في عهد يعقوب المنصور، كانت تُسمّى في البداية مدرسة الحلفائيِّين، وفي ما بعد أُطْلِق عليها اسم (الصّفارين)؛ لأنَّها كانت بالقرب من السّوق الّذي تُصنعُ فيه أواني النّحاس الأصفر. وازداد عددُ المدارس في عهد الملك أبي سعيد المرِّينيِّ (ت731هـ) الّذي كان كثير العناية ببنائها

[1]- عبد الرّحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج2، ص249. بتصرّف

[2]- إبراهيم حركات، مدخل إلى تاريخ العلوم بالمغرب المسلم حتّى القرن 15/9م، ج1، ص27. وإسماعيل الخطيب "الحياة الثّقافيّة بسبتة في القرن السّابع الهجريّ" سبتة ودورها في إثراء الفكر الإسلاميّ، محاضرات المهرجان الثّقافي الثّالث (26- 27- 28 أبريل 1979م)، ص114- 115.

[3]- عبد الله كنون، النّبوغ المغربيّ في الأدب العربيّ، ج2، ص82- 83.

ومنها مدرسة العطّارين، ومدرسة المدينة البيضاء بفاس، وضمّت هذه فاس وحدها إحدى عشرة مدرسة وكلّها من تأسيس المرِّينيِّين، وكان ضمن هذه المدارس المدرسة البوعنانيّة الّتي أسّسها أبو عنان وسُمِيت كذلك نسبة إلى مؤسِّسها، وهي فائقة البناء في السِّعة والجمال. كما توجد بليبيا مدارس كثيرة، منها المدرسة الّتي تأسَّست ما بين 655هـ و658هـ، كانت بالقرب من الجامع الأعظم بطرابلس[1]، ممّا زاد من تقدُّم حركة التَّعليم في هذه النّاحية.

ويُضاف إلى ذلك، المدارس الّتي تأسَّست في عهد بني زيان، منها المدرسة التاشفينيَّة الّتي بناها عبد الرَّحمن بن تاشفين الأوّل (718هـ- 731هـ) بالقرب من الجامع الأعظم بتلمسان. وقد كانت هذه المدرسة في عصره تُحفة فنيّة رائعة لها أبلغ الأثر في خدمة العلم وأهله. ومدرسة ابني الإمام الّتي بُنِيَت في فترة أبي حمو موسى الأوّل سنة 710هـ، وسبب بنائِها هو أنَّ ابني الإمام دخلا تلمسان في عهد هذا الحاكم فرغِبَ في الاحتفال بهما ولذلك أراد أنْ يُنشِئ لهما هذه المدرسة فأطلق عليها اسم (ابني الإمام)، ومدرسة العباد الّتي أسَّسها أبو الحسن المرّينيّ. والأهمّ من كلِّ هذا أنَّ التَعليم في المدارس كان مجانيًّا حيث لا يدفع الطلبة أيَّ مقابل لِما يتلقّونه من عِلْمٍ فيها، ممّا يُحفِّزهم أكثر فأكثر على التّحصيل.

3-6- **المكتبات:** لا يُخفى على أحد أنَّ المكتبات العامّة منها والخاصّة كانت من أهمّ الوسائط التَّعليميَّة الّتي أسْهَمت في نَشْرِ الثّقافة والعلوم، وساعدت على النّهضة الفكريَّة في بلاد المغرب عامَّة، حيث كان من ثمرات ازدهار الحياة الثّقافيّة تراكم الكتب والمؤلّفات ووفرتها. وعلى هذا لقيت المكتبات عند أهل المغرب أمراء وعلماء من الحظوة والعناية الكافية، وقد كان أصحابها يفتحون أبوابها للطّلبة ولِعامّة النّاس حتّى يطّلعوا على ما تتوفّر عليه من كتب نادرةٍ وقيّمةٍ في مختلف تخصّصاتهم. وكانت المكتبات العامّة أكثرها أهميّة باعتبارها المكان الّذي يستطيع كلُّ باحث أنْ يرتاده ويستفيد منه، فهي عادة تكون ملك الدّولة ينشأها الحاكم من ميزانيّة الشّعب، وأمّا المكتبات الخاصّة فيُؤسِّسها العالمُ في بيته أو في إحدى الزّوايا والمساجد ويملأها بالكتب في شتى أنواع العلوم والفنون. وعلى هذا عُرِف عن المغاربة أمراء وعلماء حِرْصهم الشَّديد على اقتناء المؤلَّفات النّفيسة ونَسْخِها وجَمْعِها إمَّا بالمكتبات الخاصّة وإمّا بمكتبات المساجد والزّوايا والمدارس العامّة، علاوة على ذلك أنَّ أغلبيّة العلماء كانت لهم مكتبات عامرة بالمؤلَّفات. وعليه يوجد في المغرب مكتبات عامَّة وخاصّة، منها مكتبة جامع القرويِّين الّتي كانت غاية في الكمال فضلاً عمّا كانت تضمُّه من

[1]- الحسن الوزّان الفاسي، وصف إفريقيا، ج2، ص225.

نفائس المخطوطات والكتب الّتي سعى الحكّامُ إلى اقتنائها والحصول عليها، حتَّى إنَّهم كانوا من المهتمِّين بجلب نوادر المُصنّفات من المشرق، وقد كان يقصدها الطّلبة والعلماء من كلّ ناحية، والمكتبة الشاريّة التّابعة للمدرسة الشّارية الّتي كانت أقدم وأعظم مكتبة توفّرت عليها مدينة سبتة، تأسّست في السّنة ذاتها الّتي تَمَّ فيها تأسيسُ هذه المدرسة سنة 635هـ، كما هناك خزانة الجامع العتيق الّتي كانت تزخر بنفائس الكتب في شتى العلوم، فهي الّتي أهَّلت الجامعَ أنْ يكون مركزًا مهمًّا للمطالعة والبحث وبالأخصّ فتح المجال للطَّلبة على غرار المكتبة الشاريّة الّتي خُصِّصت للدَّارسين والمشايخ بالدَّرجة الأولى[1]. وهناك أيضًا بالمغرب الأدنى مكتبة المسجد الجامع بالقيروان الّتي أنشأها الأغالبة وعُرِفَت ببيت الحكمة كونها تحوي مصاحف مخطَّطة بالذّهب المُذاب والمكتوبة بالخطِّ الكوفيِّ، ولكن تراجعت مكانة هذه المكتبة بِسبب التّلف الّذي أصابها في القرن الخامس، ومكتبة جامع الزّيتونة الّتي شمِلت بدورها أنفس المؤلّفات والمخطوطات من مصاحف وكتب الحديث والتّفسير والأصول وسِواها كثيرٌ. وتوجد إلى جانب هذه، مكتبة الأستاذ أبي القاسم بن الملجوم (ت605هـ) الّذي أنشأ غرفةً ضخمةً فكانت مقصدًا لأشهر شخصيات البلاد، كانت تضمُّ الكثيرَ من المصنّفات والدّواوين حتَّى عُدَّت أفضل وأشهر المكتبات في عصره. وجدير بالإشارةُ إلى أنَّ أكثر المصنَّفات المشرقيّة منها والمغاربيّة كان يُصَبُّ في مكتبات كلِّ بلدٍ عربيٍّ فمنها ما جاء من بلاد المشرق عن طريق التّجارة، ومنها ما جاء في إطار حركة التّبادل الثّقافيِّ ما بين القطرين. ومنها المكتبات الّتي حفَل بها المغرب الأوسط، فقد نُقِلت إليها جميع الكتب في القراءات والفقه المالكيِّ والنّحو والأصول وغيرها[2]. ومن المكتبات ذات الأهميَّة كذلك في المغرب الأدنى، المكتبة الّتي أنشأها المعز بن باديس، وهي مكتبةٌ عامرةٌ بَذَلَ هذا الأخير جهدًا كبيرًا في إنشائها، ثمّ في ملئها بالمُؤلّفات القيِّمة والنَّادرة الّتي كانت تُقدَّرُ بالآلاف.

ويُذكرُ أنَّ بني حمّاد بالمغرب الأوسط اهتموا كثيرًا بإنشاء المكتبات، وأشهرها المكتبة المُتواجدة بجامع محمّد النّاصر بالقلعة، وهي كذلك مكتبةٌ مليئةٌ بشتى أنواع الكتب المحمولة من جميع أنحاء المغرب الإسلاميِّ. ولا يُنسى أمراء بني زيّان الّذين كانوا من المهتمّين بإنشاء المكتبات للطّلبة وملئها بأشهر المؤلّفات، ومثال ذلك المكتبة العامّة الّتي أسَّسها أبو

1- إسماعيل الخطيب "الحياة الثّقافيّة بسبتة في القرن السّابع الهجريّ" سبتة ودورها في إثراء الفكر الإسلاميّ محاضرات المهرجان الثّقافي الثّالث (26- 27- 28 أبريل 1979م)، ص117- 119.

2- يوسف بن أحمد حواله، الحياة العلميّة في إفريقية (المغرب الأدنى) منذ إتمام الفتح وحتّى منتصف القرن الخامس الهجري (90/ 450هـ)، ج1، ص252- 253.

حمو موسى الأوّل، وهي مكتبةٌ واسعةٌ ضمَّت أفضل الكتب في مختلف أنواع العلوم[1]. ولكن المُؤْسِف أنّ أكثر المكتبات تعرَّض للتلف وحتَّى للدَّمار بِسبب قُربها من ساحة الحروب الّتي شهدتها بلاد المغرب كلَّما سقطت دولة وتأسَّست أخرى. ولكن مهما يكن، فإنَّ كثرة المكتبات خيرُ شاهد على مدى تقدُّم الحياة الفكريَّة في المغرب طيلة العصر الوسيط، حيث أسهمت المكتبات في الدَّفع بعجلة الثّقافة المغربيَّة خاصّة والإسلاميّة عامّة إلى الأمام وإثرائها فصار هناك من المكتبات الشّهيرة الّتي يقصدها الطّلبة.

خلاصة الفصل: الواقع أنَّ ثمّة عوامل كثيرة مكّنت المغاربة من توفير مناخٍ ثقافيٍّ شجّعهم على النّشاط في علوم كثيرة من فقه وتفسير ولغة ونحو، مع أنَّ إنتاجَهم لم يكنْ متساويًا من حيث التطوّر والضّعف، فقد كان بِدرجات متفاوتة وفي فترات زمنيّة مختلفة؛ لأنّه يُمكن أنْ يزدهر علمٌ في عصر ويتراجع في آخر، وذلك بِحسب الظّروف السياسيّة الّتي يعيشها العلماء، وبِحسب علوم عصرهم، وعلى هذا وجدت الكتب المؤلّفة في العلوم الدِّينيّة كثيرة العدد إذا ما قِيسَت بِغيرها في العلوم الأخرى، علمًا أنَّ النّشاط الفكريّ في المغرب كانت للوهلة الأولى دينيَّةً محضة لرغبة الأهالي في فهم الدّين. ولكن ما أدركته أنّ هناك الكثير من العلماء الّذين اكتفوا بالرّواية، ممّا صَعَّبَ تَتبُّع كلَّ أبعاد وصور الحركة العلميَّة في بلاد المغرب، كما أنَّه ليس من اليسير تحرّي جميع الحقائق بدقَّة حول مدى تَقَدُّم العلوم في هذه الفترة، بِسبب الفِتَن المتتالية والحروب الّتي كانت تحدث كلَّما تأسَّست دولة وانهارت أخرى، الأمر الّذي أدّى إلى إتلافِ الكثير من المؤلّفات فَحُرِمْنا من معرفة كلِّ ما تركه المغاربة من تراثٍ فكريٍّ رائع. ومع ذلك هناك كتب التّراجم والتّاريخ الّتي استقصت عن كثير من العلماء الّذين لهم مشاركةٌ حسنةٌ في التّأليف، وحظٌّ وافرٌ من المجالس وحلقات الدَّرس.

ولا يُنسى كذلك ما للمراكز الثّقافيَّة من دورٍ مهمٍّ في حركيّة النَّشاط الفكريِّ بالمغرب فقد كانت تعُجُّ بكِبار العلماء والشُّيوخ الّذين يقصدهم الطَّلبة من كلِّ ناحية، كما كان لِرحلات المغاربة الأثرُ البالغُ في هذا النّشاط؛ لأنَّ العادة عندهم أنْ يتنقّلوا إلى المشرق للنّهل من علوم المشايخ وسماع مرويَّاتهم والحصول على إجازاتهم، إذْ كلّما سمع أحدُهم بوجود شيخ علم من العلوم إلاَّ وسَارَعَ إليه بِهدف التقرُّب إليه وبلوغه مباشرة، مع العلم فإنَّ أكثر رحلات المغاربة إلى المشرق كانت بدافع الحجّ. وبعد إتمام هذه المهمّات هناك مَن يرغبُ منهم في العودة حتَّى يُفيد الطّلبةَ في بلده، ومنهم من يتطلّع للاستقرار بالبلاد الّتي يطيبُ له المقام

[1]– محمّد بن عمرو الطمّار، تلمسان عبر العصور، دورها في سياسة وحضارة الجزائر، ص207.

فيها، ولهذا الصّنف من الرحّالة ما يُميِّزهم حيث إنَّ بقاءَهم يُثْمِر ويُؤتي بنتائج علميّة جليلة بِما فيها الكتب والمجالس الّتي كانوا يعقدونها. علاوة على الرَّحلات الكثيفة إلى الأندلس الّتي كانت مقصدًا مُهِمًّا لهم فكما سبق الذِّكر هناك من المغاربة الّذين يشدّون الرّحال بحثًا عن الاستقرار والهدوء، ولذلك كانوا يرغبون في الحصول على وظائف يقتاتون منها. وفي المقابل قدوم علماء المشرق والأندلس إلى المغرب أثَّرَ في تقَدُّمِ النّشاط الفكريِّ عامّة.

وجدير بالقول كذلك إنَّ التَّعليمَ في المغرب لم يكن حكرًا على المدارس وحسب، بل كان نطاقُه أوسع، فقد كانت المساجد ومعها الزّوايا والرّباطات والمكتبات الّتي أدّت دورًا بالغ الأهميَّة في تعليم النّاشئة، والتّأسيس للنَّشاط العلميِّ الّذي شهدته البلاد وتنشيطه وبالأخصّ في بدايته حيث حرص العلماء على ترسيخ العقيدة، وتحفيظ القرآن واللّغة العربيّة، ممّا ساعد على نَشْرِ العلم والثّقافة العربيّة والدِّينيَّة عامّة، ولا تزال هذه المؤسَّسات مُكَمِّلة لِمهَمة المدارس التّعليميَّة المعتمدة آنذاك وكان يتصدَّرُ بها للتّدريس والإقراء كبارُ الشّيوخ والعلماء.

الفصل الثّاني

بواكير الدِّراسات اللّغويَّة والنَّحويَّة في المغرب طيلة العصر الوسيط وتطوّرها

مدخل

1- نشر الإسلام واللّغة العربيَّة في المغرب.

2- الدِّراسات اللّغويَّة في المغرب بدايات وتطوّر.

3- الدِّراسات النَّحويَّة في المغرب:

3-1- نشأة النّحو العربيِّ عامّة وتطوّره.

3-2- التَّأسيس للدَّرس النَّحويِّ في المغرب.

3-3- أوائل النُّحاة في المغرب.

3-4- تطوّر الدِّراسات النَّحويَّة في المغرب.

4- أشهر الكتب اللّغويَّة والنَّحويَّة المتداولة في المغرب طيلة العصر الوسيط.

مدخل: بدأ اهتمامُ أهل المغرب باللّغة العربيَّة منذ احتكاكهم بالفاتحين الأوائل الّذين كان لهم الفضلُ الكبير في تعريفهم بالدِّين واللّغة معًا، حيث وجد المغاربة أنفسهم في حاجة إلى تعلّم هذه اللّغة والتعمّق فيها لفهْمِ الكتاب والسنَّة، وأوّل خطوة خطوها اتجاه الأمر هي شَدُّ الرِّحال إلى المشرق للقاء العلماء، وتدارك ما يرونه ضروريًّا للغاية الّتي تنقَّلوا من أجلها واستكمال ما فَاتَهُم من علوم. ومن حينها بدأ تعاملُهم مع القرآن الكريم ثمَّ العربيَّة الّتي كانت تسير معه جنبًا إلى جنبٍ باعتبارها الوسيلة الّتي يُقْرَأُ بها ويُحْفَظ. وشيئًا فشيئًا أصبحت العربيَّة محلَّ اهتمام الكثيرين، فصار هناك طلبة وعلماء يشتغلون بها كما اشتغلوا بالعلوم الدِّينيَّة الّتي كانت اللَّبنة الأولى للنّهوض الثّقافيِّ والعلميِّ في المغرب مثلما حدث الأمر في المشرق.

وإنْ كان الدَّرسُ الدِّينيّ أوّل ما اهتمّ به المغاربة، حيث تلقوه عن طريق الرِّواية كالحديث والكلام وغيرهما، فإنَّ الدَّرسَ اللّغويّ تأخَّر في الوصول إليهم بزمنٍ قصير، حيث لم يصلْهم في الفترة ذاتها الّتي كانوا يشتغلون فيها بالعلوم الدِّينيَّة، علمًا أنَّ غايتَهم من الرَّحلات الأولى كانت ذات طابعٍ دينيٍّ محض، علاوة على ذلك فإنَّ أكثرهم اختصّوا بمُتابعة هذه العلوم.

1- نشر اللّغة العربيّة والإسلام في المغرب: إنَّ المتتبِّع لمسار وجود اللّغة العربيَّة في المغرب منذ الفتح الإسلاميِّ سيلحظ بلا ريب أنَّ هذه اللّغة انتشرت مع انتشار الدِّين؛ لأنَّه ما نزل هؤلاء بلدًا أو فتحوه إلاَّ أنشأوا فيه مسجدًا وأخذوا في الدَّعوة الإسلاميَّة، وتحفيظ أهله القرآن وإقامة الكتاتيب لهم، وتنظيم مجالس وحلقات خاصّة للشّيوخ في المساجد للتَّدريس وتفسير القرآن والحديث والفقه. وعلى هذا وُجِدَت العربيّة إلى جانب اللّهجات المحليّة للسكّان الأصليِّين الّذين – لا شكَّ– اندمجوا مع العرب بفضل هذه اللّغة الّتي صارت تَجْمَعُهم، فأصبح البربر يعتنون بها، ويأتي في مقدّمتهم الحكّام الّذين أدركوا أنّه لا حياة دينيَّة ولا فكريَّة من دونها، فهي لغة الدِّين وعلومه، ولذلك حرصوا على تعليمها للأهالي بِهدف تحسين إسلامهم ومعرفة أمور دينهم إذْ إنَّ "العربيّةَ بأصولها رافقت في مسيرتها العلوم الشَّرعيَّة، فحظيت بِمثل ما حظيت به من عنايةٍ ورعايةٍ لكونها في خدمة الدِّين"[1]. وأوّل مبادرة منهجيّة لاستعمال العربيَّة تلك الّتي قام بها بنو رستم بِمدينة تاهرت وما كان تابعًا لها من أقاليم، فقد رغبوا في استخدامها بالرّغم من أنَّ مؤسِّس دولتهم عبد الرّحمن بن رستم كان فارسيًّا في عرقه وأسّس هذه الدَّولة في بيئة بربريَّة، إلاَّ

[1]– علي بن الحسن أيت علي، ابن العربي ومنهجه في (القبس) مع تحقيق قسم العبادات، أطروحة دكتوراه الدّولة في العلوم الإسلاميّة والحديث. المملكة المغربيّة: 2000– 2001م، جامعة القرويِّين، دار الحديث الحسنيّة، ج2، القسم1 ص170.

أنَّه عربيُّ اللِّسان، وذلك لإدراكه أنَّ الفارسيّة لم تنتشر في المشرق، وبالتّالي لم يأملْ أنْ تثبتَ في المغرب، فجعلوا من العربيّةِ لغةً رسميّةً واعتمدوها إلى جانب لغتهم البربريَّة في حلقات الدَّرس بمختلف الكتاتيب والزّوايا والمساجد لِتسهيل فهم الدِّين الإسلاميِّ الّذي أصبح يدين به أغلب السُكّان، ويُذكرُ في هذا السيّاق أيضًا أنَّ للرّستميِّين كتابات نثريّة مكتوبة بالبربريّة، منها تلك الرَّسائل الّتي بعثها إليهم أمراؤهم، ولكن تمَّت ترجمتُها إلى اللّغة العربيَّة في وقت لاحق.

وإنْ كان هناك الكثير من الأسباب الّتي ساعدت على انتشار العربيَّة، فأذكر من أهمِّها الهجرات المستمرّة إلى المغرب، والّتي كانت تتضخَّم تارةً وتتقلَّص تارةً أخرى بسبب الظّروف الزمانيَّة والمكانيَّة المحيطة بالجيوش منذ الفتوحات. وتستمرُّ الهجرات في كلِّ مرّة مع الفتح فهذا معاوية بن أبي سفيان (ت60هـ) الّذي وَضَعَ خطّةً تَهْدِفُ إلى نشرِ الإسلام والعربيّة معًا. كما وضع غيرُه خُطّةً للسّيطرة على المغرب كلّه وهو موسى بن نصير الّذي أَدْخَلَ الكثيرَ منهم في الإسلام وأَمَر بتعليمهم القرآن والفقه، وهي الفترة الّتي بدأ فيها الإسلامُ يثبت ويتقوّى وجودُه في هذه البلاد. وكان الأمر كذلك مع عبيد الله بن الحبحاب وإسماعيل بن أبي المهاجر دينار (ت132هـ) وغيرهما مِمَّنْ عُيِّنوا وُلاة على المغرب، مع أنَّ الفضلَ راجعٌ إلى أبي المهاجر الّذي فَتَح جميع المغرب الأوسط ونَشَرَ الإسلامَ بين الأهالي لابتعاده عن سياسة العنف والقوّة فاكتسب قلوبهم ثمّ إلى عمر بن عبد العزيز الّذي قيل إنَّه أرسل عشرة من التّابعين يفقهون الأهالي[1]. وللعلم عجّلت الاضطرابات الّتي شهدها المغرب في هذه الفترة في تعريبه، ممّا دفع بالسكَّان إلى التفقّه في العربيّة، كما أنَّ انتشارَ الإسلام انعكس عليها حيث انتشرت هي كذلك بينهم بالتَّدريج. وصحيح أنَّ البربر في البداية قاوموا الإسلامَ بشدَّة، ولكن بعد فهمهم له تغيَّرت نظرتُهم إليه حتَّى إنَّ تحمُّسَهم له لا يقلّ شدَّةً وصدقًا وإخلاصًا عن معارضتهم الأولى له، ممّا أهَّلَهَم لخوض علوم الفقه والحديث واللّغة وغيرها. علاوة على ذلك أنَّه بعد إسلام الأعداد الغفيرة من سكّان المغرب "انضمّت إلى جيوش الإسلام الفاتحة، وأكملت معها فتح المغرب إلى السّوس أيّام موسى بن نصير، وأسهمت بنصيب الأسد في فَتْحِ الأندلس، فأصبحت بذلك أعضاء أصيلة في جماعة الإسلام الكبرى"[2]. أيْ منذ دخول العرب إلى المغرب فالنّظر منْصَبٌّ على ضرورة نشر الإسلام والعربيَّة، واستمرّ الوضعُ كذلك مع بعض الأمراء الّذين توالوا على الحكم، فيُذكرُ أنَّ حكّام الإدريسيَّة كلّفوا الكثيرَ من خاصّتهم بتعليم العربيّة للأهالي وعملوا على نشرها في

1- أحمد أمين، ظُهر الإسلام، ج1، ص302- 303. بتصرّف

2- حسين مؤنس، معالم تاريخ المغرب والأندلس، ص133.

مختلف المناطق الّتي حلّوا بها بواسطة فتح الكتاتيب والرّباطات، حيث اهتمّوا بتحفيظ القرآن للنّاشئة وخصُّوا في المساجد حلقات للمفسِّرين والفقهاء واللّغويِّين. وشيئًا فشيئًا إلى أنْ عرفت العربيَّة انتشارًا واسِعًا في أواخر أيَّام الأغلبيَّة وبِخاصّة مع وجود المراكز الثّقافيّة الّتي يتمّ فيها تعليم هذه اللّغة، وأشهرها مكتبة بيت الحكمة الّتي أنشأها إبراهيم الأصغر سنة 264هـ برقادة على غِرار بيت الحكمة للرّشيد والمأمون ببغداد، وهي أوّل جامعة نشأت في المغرب، ضمّت كِبار العلماء القادمين إليها من المشرق. أضف إلى ما تحتويه من كتب دينيّة وعلميَّة مُتَرْجَمة من عدّة لغات كاليونانيّة والفارسيّة والسّريانيّة ذات الصلة بعلوم الفلسفة والمنطق والحساب والفرائض. ولكن اللافت للانتباه أنَّ انتشارَ العربيَّة لم يُلغِ البربريّة الّتي ظلّت سائدة في الجبال والحقول وعند الأهالي المُقيمين والرُّحل. ولِيكون حالُ العربيّة أفضل في عهد الفاطميّة أيضًا لعودة الأمن والاستقرار النّسبيّ في المغرب، وكذلك الأمر في منتصف القرن الخامس حيث حظيت العربيَّةُ بِعناية خاصّة وبالضّبط فترة المرابطيَّة إذْ بالرّغم من تفضيل حكّامها للثّقافة الدِّينيَّة وَوَلَعِهم الشَّديدِ بالإصلاح الدِّينيِّ، إلاَّ أنَّ ذلك لم يمنعهم من الاهتمام بالعلوم الأخرى والبحث عن سَبِيل لانتشارها[1]، فقد أَخْلَصَ المرابطون بشدّة للإسلام والعربيّة، حتَّى إنَّهم جعلوها لغةً رسميّة طيلة أيّام حكمهم فاعتبروها لغة السيّاسة والدّين والإدارة والأدب. وواضحٌ أنَّ غيرتَهم على الإسلام ولغتهم وثقافتهم من الأمور الّتي تقض مضاجع حكّامها الأوائل منذ البداية، فهذا يحي بن إبراهيم الكدالي يرحلُ إلى المشرق ليس للحجّ وحسب، وإنّما قَصَد من رحلته البحثَ عمّن يُعلّمه وقومَه الدِّين والمعرفة، ولتحقيق غايته هذه عَرَجَ على القيروان معقل المالكيَّة حيث اجتمع بأبي عمران الفاسي وحدَّثه عن حال الملثّمين فاستطاع أنْ يُحيله على أحد تلامذته واجاج بن زلو اللّمطي (ت445هـ) الّذي أرسل معه تلميذه عبد الله بن ياسين[2]. وهكذا تنتشر اللّغة العربيّة مع الإسلام أيّام المرابطيّة بِشكلٍ بارزٍ، حيث لا لغة رسميّة للبربر غيرها، ولا دين مرغوب فيه سِوى هذا الدِّين، كما خدموا العربيّة الّتي تبوَّأت بفضل ذلك مكانةً مهمّةً بين الأهالي. والأمر ذاته مع أمراء الموحديّة الّذين بذلوا جهودًا مهمّة في تركيز دعائم الإسلام والعربيَّة وبالأخصّ ابن تومرت الّذي أقام دعوتَه على أساسٍ دينيٍّ عربيٍّ، شعاره النّهي عن

---

[1]– محمّد صالح الجوه، أثر الأندلسيِّين في الأدب المغربيِّ على عهد الموحّدين، أطروحة دكتوراه الدّولة. جامعة الجزائر، معهد اللّغة والأدب العربيّ: 1987م، ص53.

[2]– ميلود التوري، الحركة اللّغويّة بالمغرب الأقصى: عصر المرابطين والموحّدين، بحث دبلوم الدِّراسات العليا في اللّسانيّات، ص11- 12.

المنكر والأمر بالمعروف، وقد قيل إنَّ له مؤلّفات دينيَّة مدوَّنة بالبربريَّة ولكن لم يصلْنا أيُّ مؤلَّف منها. واتّخذ هذا المبدأ خليفته عبد المؤمن وذريته الّذين اشتهروا بالفصاحة والإحاطة بعلوم العربيّة فعقدوا المجالس الفقهيَّة والفلسفيّة واللّغويّة وأنشأوا المساجد والمدارس العربيَّة متّخذين لها مُدرِّسين أكفاء، وحثّوا النَّاشئةَ على حِفْظِ القرآن[1]، بدليل ذلك أنَّ أبناءهم يبدَأون في حفظه في سنّ مبكرة.

ولم يكن هذا الانسجام والتّمازج عفويًّا، بل كان نتيجةً لِتشابه الطّبائع والأمزجة وتقارب العادات والتّقاليد العربيّة والبربريّة، أضف إلى ذلك أنَّ القرابة القويّة الّتي جمعت بين اللّغَتَيْن كانت من العوامل المساعدة على انتشار العربيّة بين الأهالي، فهما فرعان من مجموعة لغويَّة واحدة. ولكن لن أدلّ بقولي هذا أنَّ البربريّة لم يعدْ لها ناطقون، فبالرّغم من صلاحيّة العربيّة للدِّين من لغة البربر إلاَّ أنَّ أهلها الأصليِّين تمسكُّوا بها، أيْ إنَّ اللّغتين تنتشران في مناطق مبعثرة ومتباعدة، ومن المناطق الّتي تمسَّكت بالبربريَّة هضبة القبائل، وهضبة الأوراس الّتي يكاد يجهل سُكانُها العربيَّة، وكذلك مراكش الّتي احتفظَ بها أهلها، وذلك لعاملين اثنين، أوّلهما أنَّ المناطق الجبليَّة المنعزلة فيها فسيحة المساحة ممّا يصعب اختراقها، أمَّا العامل الثّاني فيتمثّل في أنَّ هذه المنطقة كانت أكثر ميلاً إلى الغرب، وبالتّالي لم تجد إليها العربيَّة الطَّريق الواسع[2]. وقد يُفهم من هذا أنَّ البربريّة لم تُقاومْها إلاَّ في المناطق الدّاخليّة بِخلاف المدن والحواضر الثّقافيّة الّتي لم يمتنع أهلُها عن تعلّم اللّغة الجديدة لتحقيق مختلف مصالحه الاقتصاديَّة والعلميَّة والدِّينيّة وغيرها. ولا يُنسى أنَّ ثمّة من يُؤكِّد على معارضة البربر الشَّديدة في تَقبُّلِهم العربيّة واعتمادها لغة للدِّين والعِلْمِ بينهم، فكما يذكر أصحاب هذا الرَّأي وقعت بين الطَّرفين معارك طاحنة منذ ولاية عقبة بن نافع إلى غاية ولاية روح بن حاتم (ت174هـ) الّذي استطاع إخماد ثورات البربر وبالأخصّ الحروب الّتي شنَّها العرب على البربر بسبب اتّخاذهم من المذاهب الخارجيَّة والشيعيّة مطيّة لإعلان عصيانهم لهم، وجرت بينهم أيضًا حروب أخرى لعدم تقبّلهم تقديم وطنهم للفاتحين بسهولة[3]، واعتماد لغتهم بدل أمازيغيتهم رغم تشابه الشَّعبَيْن

---

[1]– ميلود التوري، الحركة اللّغويّة بالمغرب الأقصى: عصر المرابطين والموحّدين بحث دبلوم الدِّراسات العليا في اللسّانيّات، ص83.

[2]– محمّد عبد المنعم الشّرقاوي ومحمّد محمود الصّياد، ملامح المغرب العربيّ، ط1. الإسكندريّة: 1959م، منشأة المعارف، ص99– 100.

[3]– المرجع السّابق، ص50.

وتقارب عاداتهم وتقاليدهم، ولذلك بَذَلَ العرب الأرواح والأموال في سبيل نَشْرِ الإسلام واللّغة العربيّة، ولم يعتمدوا في مواجهتهم للبربر جنود السِّلاح فقط، بل اتّخذوا للمهمّة جنودًا من نوع آخر كان سلاحهم العلم والعقيدة. وإذا اعتبر العربُ المغاربةَ أندادًا لهم وأشركوهم في جيوشهم وسمحوا لهم بالاشتراك في ما يُقبِل من فتوحاتهم وغنائمهم، فمن الطّبيعيّ أنْ يرغبَ في الإسلام منْ لمْ يسلم منهم بعد؛ لأنَّ الإسلام لم يعدْ مكسبًا روحيًّا لهم فقط، بل أصبح ماديًّا أيضًا، يعود عليهم بالخير الوفير والغنيمة المحقَّقة من الحروب. وعليه إنْ كان هناك من المغاربة الّذين لم يسلموا عن إيمان واقتناع كامل بالدِّين الجديد والرّغبة فيه، فثمّة من تسارع في الإعلان عن إسلامه طمعًا في غنيمة أو فرارًا من جباية أو بدافع العداء للرّوم أو خوفًا من العرب على أنفسهم وأموالهم[1]، فالمهمُّ أنَّ الأسباب الّتي جعلت الأهالي يرغبون في الإسلام والعربيَّة مختلفة وكثيرة. وللعلم يدين البربر قبل إسلامهم بأديان مختلفة، منها الديّانة المسيحيَّة الّتي انتشرت بين الأهالي الّذين يستقرّون في المناطق والمدن السّاحليّة الخاضعة للحكم البيزنطيِّ، واليهوديّة الّتي دخلت مع أصحابها إلى المغرب للتجارة وغيرها. كما توجد الدِّيانة الوثنيّة الّتي انتشرت بين أغلبيّة البربر وبخاصّة في البوادي والجبال والصّحراء الّتي يسكنُها الملثّمون. وحقيقة الأمر أنّ الإسلامَ نال حظَّه الوفير من الانتشار في بلاد المغرب، ثمّ تليه المسيحيَّة الّتي لم تنتشرْ بِقدر انتشاره، فقد آمن به الأهالي وحاربوا من أجله داخل البلاد وخارجها سعيًا لنشره والتَّعريف به. علمًا أنّه حين دخل الإسلامُ المغربَ للوهلة الأولى قاومه المغاربة بقوّة لم يشهد الفاتحون لها مثيلاً في البلاد الّتي دخلوها حتَّى قيل إنَّ اعتناق البربر للإسلام تَمَّ بِشكلٍ واسعٍ وصحيحٍ في عهد حسان بن النّعمان الّذي اهتمّ بِنشره بينهم وتعليمهم العربيّة الّتي أرادها أنْ تكون اللّغة الرّسميّة في جميع الأنحاء، وهكذا أصبح للمغرب وجهٌ آخر ولا سيما مع هجرة بني هلال الّتي ساعدت على تغيير طباع الأهالي وعاداتهم؛ لأنَّ "المغرب القديم اختفى بأديانه ومذاهبه المختلفة وحضاراته الواهنة وحلّ محلّه المغرب الإسلاميّ: أمّة واحدة ذات دينٍ واحدٍ ولغةٍ واحدةٍ وحضارةٍ واحدةٍ ووجهةٍ واحدةٍ، وبدأ هذا القطر المتّحد يأخذُ طريقَه لِيلعبَ دورَه المجيد في تاريخ الإسلام والحضارة العالميَّة، وكان فاتحوه من العرب قد مهّدوا له الطّريق لذلك"[2]، فقد تركَ وجودُ العرب بالمغرب الأثرَ الطيِّب في الأهالي، حيث تغيّرت طباعُهم وعاداتُهم إلى ما يتماشى مع الدِّين الإسلامي.

[1]- حسين مؤنس، فتح العرب للمغرب، د ط. الإسكندرية: د ت، مكتبة الثّقافة الدّينيّة، ص287.

[2]- المرجع نفسه، ص299.

وإذا رغب حكّامُ المرابطيّة والموحّديّة وغيرهم في الدِّين والعربيّة، فكذلك الأمر مع حُكّام المرِّينيَّة الّذين قدّموا خدمات مهمّة في سبيلهما، وبخاصّة بعد أنْ استقرّت أمورهم حيث راحوا يُدافعون عن إخوانهم المسلمين في الأندلس حينما كان الإسلام وجهًا لوجه وفي صراع دائم مع الدِّيّانة المسيحيّة. أضف إلى ذلك أنَّ بناء المساجد وإقامة الزوايا وغيرها من المواقف الإيجابيَّة دليلٌ على تَمَسُّكِ أهل المغرب بالإسلام "فكثرة المساجد والمدارس التّعليميّة وإقامة الزوايا كانت ترمي إلى نفس الغاية، كما أنَّ تنظيمَ وَفْدِ الحجّاج والاعتناء بسفرهم في كلِّ سنة، وإرسال مصاحف قرآنيّة إلى الأماكن المقدَّسة لدلالة على مدى تشبّثهم بروح الإسلام وبتعاليمه، وعملهم لرفع رايته في الظّاهر والباطن، فقد وَرَدَ أنَّ بني مرِّين كانوا لا يشترطون في موظّفيهم كمقياس سِوى إخلاصهم لتعاليم الإسلام بصفة عامّة"[1]. فالمرّينيّون تحمّسوا للإسلام حتَّى وإنْ لم تكنْ لهم أفكار عقائديّة ذات علاقة بسياستهم، ولم يُقصّروا في الدِّفاع عنه في المغرب والأندلس.

وللعلم فإنَّ اللّغة البربريّة لم تكن مستعملةً في أمور السياسة والدّولة باعتبارها لغة شفوية فقط، كما لم ترقَ إلى مستوى اللّغات المكتوبة من حيث إنَّها لم تتأسَّس لها دولة في الماضي تستطيع أنْ تُوَفِّرَ لها الوسائل اللازمة لتقنينها، وإعطائها الصِّيغة الرّسميَّة لتصبح لغة مكتوبة[2]. بمعنى أنَّ البربريّة بقيت سائدة في الجبال والوديان وظلّت لغة الرِّيفيِّين والفلاحين والرّحل، ولذلك لم تكن لغة حضارة، بل كانت لغة شفوية تُكتب قديمًا كالألغاز، وتكفي وسيلةً للتّواصل لِتحقيق متطلبات السكان المحدودة. هذا وتنبغي الإشارة إلى أنَّ اللّغة العربيّة وَجَدَت اللّغة اللاتينيّة الّتي قضت عليها بِفِعْل الدِّين الّذي يتطلَّبُ بالضَّرورة التَّعريب لفهمه وحفظه، وإنْ كانت اللاتينيَّة مرتبطة بالكنيسة الإفريقيَّة فالعربيّة مرتبطة بمصير الإسلام أيضًا. كما أنَّ التبادل الدَّوريّ للأسواق التِّجاريَّة أَجْبَرَ سكّان تلك المناطق على التكلّم بالعربيّة مع احتفاظهم بالبربريّة في اتصالاتهم ومعاملاتهم الخاصّة، في حين لم تحظَ اللاتينيَّة لغة المسيحيّة بالمصير نفسه، إنّما حُكِمَ عليها بالزَّوال، وظلّت تحتفظ بها نخبة المثقّفين البالية الّتي تعتز وتفخر بها[3]، الأمر الّذي جعَلَ العربيّة تتبوّأ مكانة مهمّة في حياة الأهالي العامّة.

---

[1]– محمّد بن شقرون، مظاهر الثّقافة المغربيّة دراسة في الأدب المغربيّ في العصر المرّينيّ، ص52.

[2] - Gautier E.F, Le passé de l'Afrique du nord, Paris: 1952, les éditions de Paris, p169. بتصرف

[3]– محمّد عبد المنعم الشرقاوي ومحمّد محمود الصياد، ملامح المغرب العربيّ، ص101.

وحقيقة الأمر أنّ الإسلام لقِيَ لدى البربر القبولَ منذ مجيء الفاتحين، ولكن لم يحصل الأمر بحرب واحدة، بل بسلسلة من الحروب استمرّت لعدّة سنوات، عكس مع ما حدث للبيزنطيِّين الّذين أقاموا بالمغرب أكثر من ستّة قرون دون جدوى، حيث لم يتمكّنوا من نَقْلِ البربر إلى لغتهم وديانتهم وتقاليدهم، ومع الرّومان الّذين استقرّوا فيه نحو ستّة قرون أخرى ولكن لم يتعَد تأثيرهم المدن الشماليّة، ولم يُقْبِلْ على المسيحيَّة من البربر سِوى العدد القليل فقط.

وعلى كلّ حال، فإنَّ تعريبَ المغرب كان نتيجة من نتائج اندماج العرب بالبربر، واحتكاك اللّغة العربيّة بالبربريّة منذ عصر الفتوحات وطِيلة العصر الوسيط أي منذ ما يزيد على عشرة قرون، حيث أصبحت العربيّة لغة الدِّين والسياسة والتخاطب اليوميّ والكتابة الأدبيَّة وغير الأدبيَّة في المغرب إلى جانب اللّهجات المحليّة الّتي كانت منتشرةً في مناطق معيّنة فيه. وإنْ دَلَّ هذا على شيء فإنّما يدلُّ على أنّ الفتحَ العربيّ لهذا القطر قد مسَّ صميمَ الحياة المغربيَّة ونقلها من حال إلى حال آخر، فقد كان هذا الفتح أقوى تأثيرًا وأعمق أثرًا من الفتوحات السّابقة له، إذْ نشأ عنه انتشار دين جديد ولغة جديدة، فتعرّب بها البربر وأصبحوا من النّاطقين بالعربيّة، واكتسبوا ما تفيده من تفكير وتعبير مع اكتسابهم عاداتٍ جديدةً قائمةً على أساس الإسلام، وظهر بينهم فقهاء وشعراء وخطباء، ومذاهب سياسيَّة ودينيَّة متداولة بين أهل المشرق كالسّنة والمعتزلة والخوارج. بيد أنّه توجد إلى جانب اللّهجات البربريّة بالمغرب لهجات عربيّة دارجة، منتشرة في بعض المناطق الّتي كان يسكنها النّازحون العرب الأوائل، ممّا أدّى إلى الاحتكاك المباشر بين تلك اللّهجات. وقيل بِخصوص هذا إنَّ العربيّة الّتي يتكلّم بها سكان قبيلتي أغمارة وهوارة رديئة وغير سليمة، وحتّى سكان المدن السّاحليّة كانوا يتكلّمون هذه اللّغة بمثل هذا المستوى؛ لأنّهم على اتّصالٍ شفويٍّ مستمرّ مع العرب[1]، وإلى جانب العربيّة الفُصحى الّتي يُتقنها فقهاء وكُتّاب وقُضَاة هذه المنطقة وغيرهم.

ومن العوامل الّتي ساعدت على نشر اللّغة العربيَّة في المغرب أيضًا، هجرات بني هلال وبني سليم الّتي تعدُّ أكبر عامل في تعريب الثّقافة المغاربيّة وبالأخصّ الجزائريّة، إذْ أثَّرت لغة التّخاطب لقبائل بني هلال في الأمازيغيّة الّتي طغت على العربيَّة في الأرياف والمدن أيضًا ولذلك سار التّعريبُ بسير عمليّة المزج والاحتكاك طيلة عدّة قرون، حتّى كادت العربيّة تعمّ المغرب ولا سيما في الوقت الّذي بدأ فيه بنو هلال يبسطون نفوذَهم على المغربين الأدنى والأوسط. فبعد النّجاح الّذي حقّقته الفتوحات الأولى في نَشْرِ الإسلام والعربيَّة بالمغرب جاءت

[1]– الحسن الوزّان الفاسي، وصف إفريقيا، ج1، ص39.

هذه الهجرات لتُضيف إلى الدمِّ العربيِّ الّذي اختلط بالدم المغاربيِّ عن طريق التصاهر وبهذا يكون دخول الهلاليِّين حدثًا عظيمًا ترك آثاره على تكوين المغرب الحضاري.

كما كان لِفتح الأندلس أثرٌ كبيرٌ في المغرب، فقد كان النّصر الأوّل الّذي حقّقه العرب الفاتحون حافزًا أوّلاً بالنّسبة لمن تخلّف من المغاربة إلى عبور البحر والاشتراك في الحروب والغنائم، وثانيًا لِمَنْ أَقْبَلَ على الإسلام حتَّى تُتاح له فرصة الالتحاق بجنود المسلمين، ممّا عَجَّلَ في إسلام البربر رغم سوء بعض الأمراء. ونظرًا لاختلاط جنود البربر بالعرب المسلمين فإنّ ذلك أسهم في تثبيت إسلام أهل المغرب وانفتاحهم على العربيّة، أضف إلى ذلك أنَّ العرب كانوا يقصدون بكثرة بلاد الأندلس للحرب والاستقرار فيها، ولذلك كَثُر مرورهم بين القبائل المغاربيّة واختلاطهم بالبربر ومصاحبتهم لهم، ممّا جعلهم يتعلّمون أصول الإسلام عن العرب. هذا وعمل دعاة حركات الشّيعة والخارجيّة على نَشْرِ الإسلام بين المغاربة، ممّا يعني أنَّ وجودهم كان حافزًا على تعلّم اللّغة العربيّة ومحاولة معرفتها بِقصد التعرّف على ما يدعون إليه وفهمه. وعلى هذا يمكن القول إنَّ انتشار الإسلام والعربيَّة بين البربر لم يتوقَّف على سياسة الخلفاء واهتمامهم بأمور الدّولة بِسبب مشاغلهم وكثرة الحروب، فقد أقبل عليه من دون أنْ يبرزَ أثرُهم في ذلك ولا سيما الّذين اعتبروا الإسلامَ معارضة لمصالح الدّولة وسياستها. ولعّل حِرْص العرب الّذين حلّوا بِالمغرب على تعليم أبنائهم القرآن والحديث واللّغة لَمِنَ الأسباب الرّئيسة والقويّة الّتي جعلت البربر يُقبِلون على التعلّم معهم في المساجد الّتي كانوا يُدرِّسونهم فيها[1]. فكلّ ما في الأمر أنَّ فتحَ العرب المغرب كان فاتحةَ خَيْرٍ بأنْ نشروا الدِّين واللّغة، فتعرّبت البلاد بأكملها إلى جانب تَمَسُّكِ بعض قبائلها بالبربريّة في مدّة قصيرة رغم صعوبة الوضع والظّروف المُواتية في تلك الفترة، وبالتّالي لم يعد الإسلام ولا العربيّة ملك العرب وحدهم، فقد انتشر الاثنان في مختلف البِقاع والأصقاع، وبخاصّة مع انتشار المراكز الثّقافيّة الّتي حرص الحكّامُ على إنشائها.

2- **الدّراسات اللّغويّة في المغرب بدايات وتطوّر:** منذ عرفت اللّغة العربيّة طريقَها إلى المغرب بواسطة الفاتحين الأوائل حين حملوها معهم وسيلة للتّواصل بينهم، ولغة القرآن الّذي يُدينون به، فقد أقبَلَ المغاربة على تعلُّمِ هذه اللّغة وتعليمها، وأولى خطوة فكَّروا في الإقدام عليها هي التنقُّلُ لأخذ العربيَّةِ من أصولها بالمشرق ولقاء الشُّيوخ والجلوس إليهم لِسماعهم، فقد "حصل بالمغارب من إقبال الأمازيغ على الدِّراسات النَّحويَّة واللّغويَّة، ما حصل ببلاد المشرق من إقبال الفُرس وغير العرب على هذه الدِّراسات، مع فارق أنَّ الأمازيغ بدأوا كلَّ شيء من الصِّفر، بينما

[1]- حسين مؤنس، فتح العرب للمغرب، ص294 وص297. بتصرّف

(أعاجم) المشرق لا سيما الفرس، كانوا مهيَّئين بفكرهم العلميِّ ورصيدهم الثقافيِّ الضّخم فتعمَّقوا في المجال اللّغويّ"[1]، وإزاء هذا لم يعدْ غريبًا أنْ يتنقّل المغاربة في طول المشرق وعرضه حتَّى يأخذوا العربيَّةَ من أصولها، ففي الوقت الّذي كانوا يشدُّون الرَّحيلَ إليه لدراسة العلوم الدِّينيّة والتعمّق فيها ورواية الحديث أدركوا أنَّ التنقُّلَ ضروريٌّ أيضًا لغاية أخرى أَلاَ وهي تلقّي العربيّة والتوسّع في دراستها وفهمها، واستمرّ هذا الحال إلى غاية القرن الثّالث أو ربّما أكثر. وبعد فترة وجيزة استطاع هؤلاء أنْ يقطعوا شوطًا مهمًّا في الفكر اللّغويِّ ببروز أعلام لغويِّين وضعوا اللّبنات الأولى لدرسٍ لغويٍّ ذي طابعٍ مغربيٍّ، ممّا حقَّقَ لهم الميلَ إلى الاستقلاليّة والانقطاع عن التبعيّة الثّقافيّة[2]، فكثيرة هي كتب التراجم والطبّقات الّتي تحدّثت عن شخصيّات لغويّة ذات شهرة عريضة حيث كان لها دورٌ عظيمٌ في دفع الحركة الثّقافيَّة بالمغرب عامّة إلى الأمام، مع العلم أنّ الدَّرسَ اللّغويَّ في هذا القطر لم يزدهر في بدايته مُقارنة بِما بلغه من تطوّر في القرن الرّابع الهجري.

وللعلم فإنَّ اللّغة والنّحو فرعان متكاملان تشملهما علوم العربيَّة إلى جانب الأدب، ممّا يُصَعِّبُ عليَّ التّمييز بين إنتاج العلماء في اللّغة والنّحو معًا، فكثيرةٌ هي الكتب الّتي ألّفها أصحابها معتمدين كلا الفرعين، ومثال ذلك كتاب سيبويه، خصائص ابن جنّي (ت392هـ) ومفصّل الزّمخشري (ت538هـ) وغيرها كثير، وفوق هذا، ثمّة من الدّراسات الأدبيَّة التي كثيرًا ما تمتزج باللّغة والنّحو أحيانًا، ويحصل هذا مع المغاربة أيضًا؛ لأنّ كثيرًا من النّحاة كانوا لغويّين في الوقت نفسه وأدباء أيضًا، ولكن قد يطغى على هذا الفريق الجانب النَّحويّ وعلى الفريق الآخر الجانب اللُّغويّ، وعلى غيره الجانب الأدبيّ، وكلُّ هذا يدلّ على أنّه من الصُّعوبة بمكان وضع الحدود الفاصلة بين الإنتاج المغاربيِّ في علوم العربيَّة بصفة عامّة.

وتَعُودُ صلةُ المغاربة بالدَّرس اللُّغويِّ إلى القرن الثّاني الهجريِّ وذلك منذ بَدَأَ احتكاكُهم بالعرب الفاتحين وباللّغة والدّين اللّذين انتقلا معهم، إذْ بعد أن "اتّجه المغاربة إلى المشرق موطن اللّغة العربيّة للاستزادة من اللّغة وتحصيل العلم بها، لم يلبث أنْ ظهر منهم في القرن الثّاني الهجريّ/ الثّامن الميلاديّ جماعات تَكتُبُ بالعربيّة، وتُؤَلِّفُ بها لا بل إنَّ فريقًا منهم أصبح

[1]- إبراهيم حركات، مدخل إلى تاريخ العلوم بالمغرب المسلم حتّى القرن 9هـ/15م، ج1، ص153.

[2]- ميلود التّوري، الحركة اللّغويّة بالمغرب الأقصى: (عصر المرابطين والموحّدين)، بحث دبلوم الدّراسات العليا في اللّسانيات، ص151.

يُنافس أساطين علماء اللّغة العربيّة في المشرق"[1]، حيث برزت طائفة من علماء اللّغة يقصِدها الطّلبةُ للاستزادة منهم، حتّى بدأت تتجلّى في المغرب حركةٌ لغويّةٌ أوليّة رَوَت عنها كتب التّراجم والتّاريخ حتَّى وإنْ لم تكن بِحجم النّشاط الّذي عرفه المشرق وكذلك الأندلس، حيث كان هناك من المغاربة الّذين كانت لهم تجربةٌ في الرِّحلة إلى مَهْدِ العربيَّة أين التقوا بكِبار شيوخ اللّغة فبرزُوا بجهودهم الّتي خلَّدَت أسماءهم. ولكن لم تكن الدِّراسات اللّغويّة لِتبرُزَ بِشكلٍ واسعٍ إلاّ في القرن الثّالث ولا سيما في الوقت الّذي انتشرت فيه ظاهرة الاهتمام بغريب اللّغة وحفظه، حيث ظهر علماء بلغوا شأوًا عظيمًا في الميدان بمُصنّفاتهم القيّمة، وسأذكر بعضَها في موضع كلامي على التّأليفِ المعجميِّ في غريب القرآن والحديث.

وما كاد القرنُ الثّالث الهجريّ يَأْذَنُ بالانتهاء إلاَّ وكانت الدِّراسات اللّغويَّة في وَضْعٍ أحسن من قبل، حيث بدأت معالمُ النَّشاطِ فيها تبرزُ شيئًا فشيئًا بتأثير عوامل النَّهضة الثقافيَّة حسبما أشرتُ أثناء حديثي عن عوامل تطوُّر الحياة الفكريَّة بالمغرب فترة الدِّراسة. ومع بداية القرن الرّابع الهجريِّ كذلك عَظُمَ الاهتمامُ بهذه الدِّراسات حتَّى ازدهرت وتطوّرت، وخصوصًا بالقيروان الّتي شهدت ميلاد علماء كِبار ذَاعَ صِيتُهم وعَلاَ ذِكْرُهم في التّأليف والتّدريس والتّناظر أيضًا.

وكيفما كان الأمر فهناك من أوائل اللّغويِّين الّذين بلغوا شأوًا عظيمًا في عصر الأغالبة بالمغرب الأدنى، حيث تلقُّوا عِلْمَهم على أيدي علماء المشرق سواء بالرِّحلة إليهم أم بِقدوم المشارقة إلى القيروان. ولكن في الوقت الّذي كان الاشتغال باللّغة منحصرًا في هذه المدينة وحدها، أصبح له تابعون حتَّى في المدن الأخرى من المغرب الأدنى هذا من جهة، ومن جهة أخرى تَوَجَّه أكثر العلماء إلى التّأليف، ممّا أسهم في إثراء الدّراسات اللّغويَّة وتقدُّمها ليس على المُستوى المحلّي وحسب، بل على مستوى العالم الإسلاميِّ أيضًا[2]. ويليه عصر الفاطميِّين الّذي نشط فيه الدَّرسُ اللّغويّ أكثر فضلاً عن تَزايُدِ عدد المُشتغلين به، مع أنَّه ليس هناك ما يُميِّز هذا الدَّرس في هذه الفترة عن الدَّرس اللّغويِّ أيّام الأغلبيّة، فأكثر من اشتهر باللّغة والنّحو في هذه الفترة كانوا ممّن عاصروا الدّولتين، ولكن كان علماء الفاطميّة أكثر تصنيفًا من سابقيهم

[1]- إبراهيم حركات، الاتجاهات الثّقافيّة في بلاد المغرب خلال القرن الرّابع الهجريّ/ العاشر الميلادي أطروحة الدكتوراه. الرباط: 1997- 1998م، جامعة محمّد الخامس، كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة، ج1، ص446.

[2]- يوسف بن أحمد حواله، الحياة العلميّة في إفريقية (المغرب الأدنى) منذ إتمام الفتح وحتّى منتصف القرن الخامس الهجري (90/450هـ)، ج2، ص305- 309- 310.

الّذين عاشوا كلّ حياتهم في العصر الأغلبي، والأمر كذلك مع عصر بني زيري الّذي برزت فيه شخصيّات لغويّة لامعة بلغت مكانةً مرموقةً في ميدان تخصُّصّها لِجودة ما قدَّمته فيه ودقّته.

واتّسعت آفاق الدّرس اللّغويّ حتّى بالمغربَيْن الأوسط والأقصى، بعدما استأثر المغرب الأدنى بقصب السّبق في هذا الحقل إلى غاية القرن الرّابع الهجريّ مع الأندلس الّتي لا يزال أثرها واضحًا في تكوين طلبة هذين القُطرين الّذين كانوا يرتحلون للأخذ عن شيوخها. هذا مع العلم أنَّ المغرب الأوسط بدأ اشتغالُه باللّغة منذ القرن الثّالث وذلك منذ أنْ نَزَلَ أبو علي القالي (ت356هـ) ببجاية في طريقه إلى الأندلس فقرأ عليه الطّلبةُ كتابَه (الأمالي) غير أنَّ هذا الكتاب لم يكن من تأليف صاحبه بنفسه، إذْ كان "يُملي أحاديثه على تلاميذه، أو بمعنى آخر كان التلاميذ النابهون يُدوِّنون حفظًا في ذاكرتهم أو كتابة في دفاترهم تلك الدّروس"[1]. وأَخَذَ كتابَ (الأمالي) إلى جانب دروسه اللّغويَّة من تلامذته بالمغرب الأوسط إبراهيم بن عبد الرّحمن التنسي، ومحمّد بن الحسن بن ميمون القلعي الّذي كان يقرأه على الطّلبة، ومع الوقت عرف الدَّرسُ اللّغويُّ بالمغرب الأوسط تقدُّمًا مُهمًّا لا سيما في القرنين السَّادس والسَّابع الهجريَّيْن وحتّى الثّامن ومطلع القرن التّاسع فترة حُكْمِ بني زيان حيث ازدان هذا القطر بكبار اللّغويِّين في التّدريس والتّصنيف.

وأمّا عن عناية أبناء المغرب الأقصى بعلوم العربيَّة واللّغة خاصّة فتعود إلى فترة قيام الدّولة الإدريسيّة، حيث اهتمّوا بها على أساس أنَّها لغة الدِّين الجديد الّذي اعتنقوه، ثمّ مع عصر الفاطميّين الّذي بدأ فيه الدَّرسُ اللّغويّ يحظى بنصيبه على غرار الدِّراسات الدِّينيَّة، وشيئًا فشيئًا إلى أنْ جاء عصر المرابطين الّذي شهد بداية مرحلة النّضج اللّغويِّ، وكان نتيجة ذلك أنَّ حواضره الثّقافيَّة أصبحت تعجُّ بعلماء اللّغة الّذين عكفوا على التّدريس والتّأليف، منها فاس الّتي أولت العربيّة اهتمامًا خاصًّا منذ بداية النّهضة الفكريّة في المغرب على عهد المرابطين عامّة حيث دَرَسَ في مساجدها ولا سيما جامع القرويِّين الكثير من اللّغويِّين الّذين أثروا ميدان تخصّصهم. وإذا تميَّزت هذه الفترة برواج هذا الحقل فكذلك الأمر بالنِّسبة لعصر الموحّدين الّذي نشطت فيه المباحث اللّغويَّة نشاطًا كبيرًا وكثُرت الكتب فيها، فقد برز في إطار ذلك علماء أسهموا في خلق حركةٍ لغويَّةٍ قويَّة بدأت في فترة المرابطيّة ثمّ نضجت في الموحديّة بالبلاد كلّها وبخاصّة إذا علمنا أنَّ الأندلس طيلة هذه الفترة كانت تابعة للمغرب، وبالتّالي ليس من الغرابة أنْ يكون الدَّرس اللّغويّ الّذي شهده هذا القطر امتدادًا للدَّرس اللّغويِّ في الأندلس. ومعنى هذا

[1]- أحمد شوقي، من المصادر الأدبيّة واللّغويّة، د ط. بيروت: 1990م، دار العلوم العربيّة للطّباعة والنّشر، ص97.

أنَّ الأندلس والمغرب لا يرتبطان من الجانب السياسيِّ فقط، بل من الجانب اللّغويِّ أيضًا، وعليه كلّما تقدّم الدَّرسُ اللّغويُّ بالأندلس كلّما تجلّى ذلك في المغرب.

واستمرَّ نشاطُ أهل المغرب الأقصى في الدَّرس اللّغويِّ فترة المرّينيَّة رغم ما تعرفه النَّاحية السياسيّة من حروب وفِتَن كثيرة، مع أنَّ هذا النّشاط كان مواصلةً للجهود الّتي بذلها العلماء في عصر الموحّدين، كما كان على وتيرة التقدّم نفسها الّتي كانت عليها الدِّراسات الدِّينيَّة، إذْ منذ "قيام دولة بني مرّين إلى أنْ أصابها الخلل والانهيار، بذلت في أيَّام عِزّها وعظمتها، الجهود الجبّارة للنّهوض بمستوى اللّغة، ولتبسيطها وجعلها في متناول المتعلِّمين وغيرهم"[1]. إنَّ لتقدّم الدِّراسات اللّغويَّة صلةً بالعوامل الّتي أسهمت مجتمعة في إثرائها وتوسيع دائرتها، فلا يُنسى أنَّ بني مرّين اتّخذوا العربيّة لغةً رسميّة للبلاد في تحرير المراسلات سواء الرّسميّة أم غير الرّسميّة وكذلك القرارات القانونيّة، ممّا جعل الحكّام يهتمّون بها كثيرًا حيث تفرّغوا لتعلّمها فضُرِب بهم المثل في إتقانها، كما شجّعوا الطّلبة وغيرهم على دراستها، بل كانوا يغدقون الأموال والعطايا لكلّ من أتقنها إتقانًا جيِّدًا. وللعلاقة الّتي تجمع بين العلوم الدِّينيَّة والدِّراسات اللّغويّة أثرٌ في ازدهارها، فهما ترتبطان ارتباطًا وثيقًا ومستمرًّا، ولذلك كان من الطّبيعيِّ أنْ تزدهر الدِّراسات اللّغويّة كلّما ازدهرت الأولى. وثمّة عامل آخر كان له فضلٌ كبيرٌ في ما بلغته هذه الدِّراسات وهو الحركة النّشيطة الّتي ميَّزت المالكيَّة في عصر المرِّينيَّة، حيث كثُرت الأبحاث والمؤلّفات حول هذا المذهب والّتي كانت في أغلبها منصبّة على العربيّة الّتي اقتضتها تلك الشّروح والتّعليقات والمُختصرات والحواشي، الأمر الّذي ساعد على تطوير هذه اللّغة وإنمائها بفضل ما يُضيفه إليها الفقهاء. أضف إلى ذلك أنَّ لحركة التّعريب الّتي عرفتها بلاد المغرب في هذه الفترة أبلغ الأثر أيضًا في إغناء الدّراسات اللّغويَّة عامّة.

ولعلماء المغرب عنايةٌ كبيرةٌ بحقل الأصوات الّذي كان أوّل علم لغويّ حظِيَ باهتمام علماء العرب والمسلمين، وهو علمٌ يهتمّ بكيفيّة النّطق بألفاظ القرآن نُطقًا سليمًا ومن ذلك ظهر ما يُسمّى بعلم القراءات الّذي دَخَلَ المغرب عن طريق علماء الأندلس، ومن ثمّة أصبح للمغاربة باعٌ طويلٌ في هذا الحقل حتَّى اشتهر أكثرهم بالقراءات السَّبع، إذْ "تُعتبر القراءات من الأصول الّتي اعتمدها المغاربة في تقعيدهم لقواعد النَّحو والصَّرف واللّغة، وهي بالإضافة إلى طابعها

[1]– محمّد بن شقرون، مظاهر الثّقافة المغربيّة دراسة في الأدب المغربيّ في العصر المرّينيّ، ص203.

الصّوتي متعلّقةٌ إلى حدٍّ كبيرٍ بالمعاني الّتي كثيرًا ما تكون مُحدَّدة وموجَّهة لها"[1]. ولكن ما تنبغي الإشارة إليه هو أنَّ القُرّاء الّذين بلغوا درجةً مهمّةً من النّضج الفكريّ قد يُفيدهم في التّأسيس للدَّرس الصّوتيّ العربيّ انطلاقًا من علم القراءات، ولكن هذا لم يحصل لأنَّ ما حدث هو أنَّ هذا العلم أفاد منه العلماء في تفسير الآيات القرآنيّة[2]، أيْ إنَّ هذا العلم استفاد منه اللّغويّون والنُّحاة في دراساتهم، غير أنَّ أكثرهم كانوا مقرئين ولغويّين في الوقت نفسه، ولذا فإلمامهم بالقراءات مكّنهم من التّأصيل للقواعد النَّحويَّة مع اختلافهم في اعتماد القراءات؛ لأنَّ ثمّة من تحفَّظ في الأخذ بها ولم يعتد بالقراءات الشَّاذة.

وثاني العلوم الدِّينيَّة الّتي أذكرها أثناء حديثي عن الدَّرس اللّغويّ في المغرب، علم التّفسير الّذي تحدّثتُ عنه في الفصل السّابق، حيث اتّضح لي أنَّ للعلماء المغاربة مُشاركةً جيِّدة في هذا الحقل الدِّينيّ واللّغويّ في الوقت نفسه، من حيث اعتماد اللّغة على نصوص الذِّكر الحكيم من جهة، ثمّ اتّخاذ الشُّروح اللّغويّة وسيلةً في بيان هذه النّصوص وتوضيحها وتأويل ما يتطلّب التّأويل وفق ما تقتضيه القواعد النَّحويَّة والصّرفيَّة والبلاغيَّة وحتّى الصّوتيَّة من جهة أخرى، ممَّا يدلُّ على أنَّ ثمّة ارتباطًا وثيقًا بين اللّغة العربيّة وعلم التّفسير بِحُكم الاستعمال المُستمرّ لها كلّما كان المفسّر في حاجة إليها لِتوضيح النّصوص القرآنيّة وشرحها.

ولعلّ من أشهر مؤلّفات التّفسير الّتي اعتمدها علماء المغرب، كتاب (البحر المحيط) لأبي حيّان الأندلسيّ (ت745هـ) موضوعه إعراب القرآن، ويعدُّ من أهمّ كتب التّفسير لاحتوائه العديد من المسائل اللّغويّة والنّحويَّة والقرائيّة أيضًا، ويقع هذا الكتاب بين التّفسير بالرّأي والتّفسير بالمأثور[3]، ولتأثّر المغاربة الكبير به اعتمدوه في مناقشة كثير من المسائل بدليل أنّه لقِيَ رواجًا بين المفسِّرين واللّغويّين، إذْ "أثَّر في مغربنا تأثيرًا مُباشرًا، بل انتشر انتشارًا واسعًا واعتمد في التّدريس من لدن جمهرة العلماء. كما أنَّ المهتمّين بالدَّرس اللّغويّ قد اتّخذوه مرجعًا يعودون إليه سواء في استشهاداتهم، أو في التّأصيل لآرائهم النَّحويّةِ أو التّأريخ لعلوم التّفسير واللّسان العربيّ، ممّا يندرج ضمن إطار إسهامات المغاربة في هذا الخصوص"[4]. بالإضافة إلى

---

[1]- عمّار مصطفاوي، الجهود اللّغويّة في المغرب الأوسط من القرن السّادس إلى القرن التّاسع الهجريَّين، أطروحة دكتوراه في اللّغة. الجزائر: 2007م، جامعة تلمسان، قسم الأدب العربيّ، ص74.

[2]- ميلود التّوري، الحركة اللّغويّة بالمغرب الأقصى: عصر المرابطين والموحّدين)، بحث دبلوم الدِّراسات العليا في اللّسانيات، ص155.

[3]- المرجع السّابق، ص103 وص105.

[4]- المرجع نفسه، ص103- 104.

تفسير ابن عطيّة المارّ ذكره الّذي اعتمدوه كثيرًا في دراساتهم اللّغويّة والنّحويّة. وقد سبق أنْ تحدّثْتُ عن بعض العلماء الّذين برزوا في علم التّفسير ومن ثمّة لا حاجة لي إلى ذكرهم مرّة أخرى، أُريدُ أنْ أُعيدَ فقط ذِكْرَ تفسير الثّعالبي الّذي تعرَّض للجانبين اللُّغويّ والنَّحويّ معتمدًا كتاب الصفاقسي المسمّى (المجيد في إعراب القرآن المجيد). وكان يقوم في إطار ذلك بالموازنة بين آراء الأندلسِيَّيْن ابن عطية وأبي حيّان النَّحويَّة، مع إبداء رأيه الخاصّ دون تحيّز أو تعصُّب لأحدهما، الأمر الّذي جعل كتابَه ينال إقبالاً واسعًا وينتفعَ به خلقٌ كثير.

اهتمّ المغاربةُ بِحقلٍ لغويٍّ آخر وهو حقل المعاجم الّذي عرفوه منذ القرن الرّابع الهجريِّ مع العلماء الأندلسيِّين، فقد اهتمّ به المغاربة اهتمامًا خاصًّا بدليل أنَّهم أسهموا إلى حدود القرن الثّامن الهجريِّ في وَضْعِ قواميس لغويّة شاملة كانت ذات فائدة، فبرز بينهم أعلام كِبار كانت لهم مشاركة في التّأليف المعجميِّ. ولكنْ يبقى إنتاجُ علماء المغرب في هذا الميدان قليلاً مقارنة بِما قدّموه في العلوم الدِّينيَّة. وليس هذا وحسب، بل ثمَّة تساؤلات كثيرة طُرِحت بخصوص عناية هؤلاء بالتّأليف في المعاجم، حيث ظلَّت النّظرةُ السّائدة بين مؤرِّخي المعجم العربيِّ ودارِسِيه عن هذا القطر نظرةً سلبيّة عامّة، لا ترى في ما أنتجه جهابذة علمائها في هذا الحقل اللّغويِّ إلاَّ شيئًا تافهًا لا يستحقّ التوقّف والمبالاة، بالرَّغم من وجود قواميس لغويَّة على جانب كبير من الأهميّة والشّهرة[1]، فقد اعتقد الكثير أنَّ المغاربة لم يُنتِجوا في اللّغة مقارنةً بِعلماء المشرق والأندلس الّذين برعوا أكثر في وضع المعاجم في شتى المجالات، ولكن المتتبّع لِمسار الإنتاجِ اللّغويِّ للمغاربة يجد أنّهم وضعوا مؤلّفات ذات أهميّة وانتفاع كبيرين.

وتذْكُرُ المصادرُ أنَّ البدايات الأولى للتَّأليفِ المعجميِّ في المغرب كانت مع اللّغويِّ عبد الملك بن قطن المهري القيروانيّ (ت253هـ أو ت256هـ) الّذي أدرجه الزُّبيدي (ت379هـ) في الطّبقة الثّانية من لغويِّي القيروان ونُحاتها مع أخيه إبراهيم بن قطن المهري الّذي سبقه إلى النَّحو والعربيَّة ومع أنَّ أخاه ما لبث أنْ فاقه علمًا وصيتًا، فهو أشهر لغويٍّ ونحويٍّ عرفه عصر الأغالبة، وكان من أحفظ النّاس لِكلام العرب وأشعارها ووقائعها وأيّامها، له مصنّفٌ لغويٌّ مرتّبٌ وفق التّرتيب المعجميِّ بعنوان (كتب الألفاظ) مثلما ذَكَرَه الزبيدي أو (كتاب الألفاظ) عند

---

[1]– عبد العلي الودغيري، المعجم في المغرب العربيّ إلى بداية القرن الرّابع عشر الهجريّ، ط1. المغرب: 2008م مطبعة النّجاح الجديدة بالدّار البيضاء، ص7 وص15. بتصرّف

القفطي[1]، حيث قَدَّمَ مواد هذا الكتاب حسب أبواب الموضوعات والحقول المعرفيّة. ولكن للأسف لم يحظَ بالشُّهرة الّتي حظيت بها الكتبُ الّتي اتبَعَت المنهجَ ذاته في ترتيب المواد اللّغويّة مثل كتاب الألفاظ لابن السّكيت (ت243هـ) الّذي عاصره في المشرق[2]، فكتاب عبد الملك المهري لم يُسمع عنه الكثير سِوى ما ذكره عنه مترجموه. وله كذلك مصنَّف (اشتقاق الأسماء) وقال الزُّبيدي إنَّه كتابٌ ممَّا لم يأت به قطرب (ت206هـ) الّذي عُدَّ من الكتب الأولى الّتي عرفتها القيروان في موضوع الاشتقاق[3]، ولكن لم يُعرف عن الكتاب شيء آخر سِوى ما ذكره عنه بعض مترجميه وأشادوا به، فقد يدلّ هذا على أنّ ما أتى به عبد الملك المهري يفوق ما وَرَدَ في كتاب قُطرب المُسمّى (اشتقاق الأسماء).

واستطاع المغاربة أنْ يُقدِّموا مؤلّفات قيّمة في هذا الحقل ولكن كانت من نوع آخر، حيث قاموا بالمقارنة فيها بين اللّغتين العربيّة والبربريّة، ولذلك ظهرت معاجم تضمّ الكثير من مفردات هاتين اللّغتين، وبرز في هذا المجال علماء بلغوا شأوًا عظيمًا أمثال ابن الجزّار وغيره ممّن اعتنوا بإيراد التّسميات البربريَّة في حقول معيَّنة، ثمّ ذِكْر مقابلاتها بالعربيّة، ممّا جعل عامّة المغاربة وخاصَّتهم يُقبِلون على تَعَلُّم العربيَّة والتعمّق في فَهْمِ معانيها بِما فيها هذه المعاجم الّتي يُؤلِّفونها باللّغَتَيْن، ومن علماء المغرب الأدنى الّذين ألّفوا في هذا المجال أيضًا، أبو سهل أدنيم بن تميم المعروف بالشفلجي (ت360هـ) قيروانيّ المولد والوفاة، كان من علماء اللّغة مع معرفته الجيّدة بالطب والفلسفة والفلك، له مؤلَّفٌ بعنوان[4] (المقارنة بين اللّغتين العربيّة والعبريّة).

وهذا بالإضافة إلى براعة المغاربة في وضع كتب للألفاظ الطبيّة والنّباتيّة الّتي رُتِّبَت على التّرتيب المُعجميّ، ومثال ذلك كتاب (الأدوية المفردة) لأبي الصّلت أمية بن عبد العزيز (ت529هـ)، وكتاب (مفيد العلوم ومُبيد الهموم) لأبي جعفر بن الحشّاء التونسيٍّ من علماء أوائل القرن السَّابع الهجريِّ، وخَصَّصَ الكتابَ لألفاظ الطّب وما يتعلّق بها من الأسماء الواردة في كتاب (المنصوري في الطب) لأبي بكر الرّازي (ت313هـ) ذات صلة بالمجال، حيث رتّبها ترتيبًا ألفبائيًّا وفق الطَّريقة المعتمدة عند المغاربة عامّة، فضلاً عن ذلك أنّه كان يقوم بشرح

1- جمال الدِّين القفطي، إنباه الرّواة على أنباه النّحاة، تح: محمّد أبو الفضل إبراهيم، ط1. القاهرة/ بيروت: 1986م دار الفكر العربيّ ومؤسّسة الكتب الثّقافيّة، ج2، ص209.

2- عبد العلي الودغيري، المعجم في المغرب العربيّ إلى بداية القرن الرّابع عشر الهجريّ، ص62. بتصرّف

3- الزُّبيدي، طبقات النّحويّين واللّغويّين، ص230.

4- محمّد محمّد زيتون، القيروان ودورها في الحضارة الإسلاميّة، ص402.

اللّفظ لغةً، ثمّ يُتبِعُه بالشَّرح الاصطلاحيِّ الّذي يعتمده الأطبّاء، كما هناك كتاب (الأدوية المفردة) لأحمد بن عبد السّلام الصّقلي[1] الّذي خصَّه لألفاظ الأدوية والأعشاب.

وبرزَ في حقل التّأليف المعجميِّ عالمٌ مشهور، وهو العلاّمة اللّغويّ الفقيه إبراهيم بن إسماعيل الطرابلسيِّ المغربيِّ المعروف بابن الأجدابي نسبة إلى قرية أجدابية الواقعة بين المغرب وطرابلس وهي موطن أجداده الأصليّ[2]، أمّا مولده فكان بطرابلس الغرب الّتي استقرّ فيها حتَّى الوفاة، ولكن لم يُعثر على تاريخ ولادته ولا تاريخ وفاته، فكلُّ ما ذكره مترجموه أنَّه موجود في المائة الخامسة في ما بين سنة 444هـ وسنة 476هـ، وقيل إنَّه لم يتنقّلْ كغيره من المغاربة لطلب العلم، بل اكتفى بالدّراسة والسَّماع من علماء موطنه والوافدين عليه من المشرق والأندلس خاصّة وحتَّى من مختلف مدن المغرب، ولهذا حين سُئِلَ عن عِلْمِه، قال بأنَّه اكتسبه من بابي هوّارة وزناتة، أيْ أَخَذَه من قاصدي طرابلس من مختلف الأنحاء. وقد عُدَّ من علماء اللّغة وأعيانها البارزين في القرن الخامس فضلاً عن تبحّره في علوم أخرى أهمّها الفلك، مع معرفته الجيِّدة بالعلوم الدِّينيَّة وبالأخصّ الفقه والكلام[3]، ثمّ باللّغة والعروض تاركًا وراءه مؤلّفات مفيدة. وقيل إنَّه نَسَخَ بيده عددًا كبيرًا من الكتب فجاءت جيِّدة الخّط ومحرّرة من الأخطاء ولشُهرته في الأمر كان أمراءُ بني حفص يتنافسون على اقتناء كلِّ كتاب نَسَخَه بيده. ومن كتبه في اللّغة (الردّ على كتاب تثقيف اللّسان) الّذي صنَّفه كما يبدو من التسمية ردًّا على كتاب (تثقيف اللّسان) الّذي يخصُّ أحد علماء اللّغة الأندلسيِّين وهو حفص بن مكي الصقلي. وللأجدابيّ كتابٌ مُهمٌّ في شرح ما آخره ياء مشدَّدة من الأسماء وبيان اعتلال هذه الياء استوفى فيه جميع أحكامها على اختلاف أحوالها من تصغير وتكسير وغير ذلك مُعتمدًا سورة مريم لاحتوائها الكثير من تلك الأحكام[4]، وجاء هذا الكتاب في غاية الأهميّة والتَّحقيق. وله كذلك كتابٌ آخر بعنوان (الأزمنة والأنواء)، أُدرِج ضمن الكتب المعجميَّة المرتَّبة وِفْقَ الموضوعات الجزئيّة، جَمَعَ فيه بين الألفاظ الخاصّة بالنّجوم والكواكب والرّياح والأمطار وغيرها، وهو ثالثُ

---

[1]- إبراهيم بنُ مَراد، دراسات في المعجم العربيّ، ط1. بيروت: 1987م، دار الغرب الإسلاميّ، ص12. وعبد العلي الودغيري، المعجم في المغرب العربيِّ إلى بداية القرن الرّابع عشر الهجريّ، ص142.

[2]- القفطي، إنباه الرّواة على أنباه النُّحاة، ج1، ص193.

[3]- محمّد مسعود جبران، "اللّغوي إبراهيم بن إسماعيل الطرابلسي المعروف بـ (ابن الأجدابي)" بحوث معجميّة 1. طرابلس: 2010م، منشورات مجمع اللّغة العربيّة اللّيبيّ، دار المنار للطِّباعة والنّشر، ع1، ص226.

[4]- أحمد التيجاني، رحلة التيجاني، تقديم: حسن حُسني عبد الوهاب، د ط. ليبيا/ تونس: 1981م، الدّار العربيّة للكتاب، ص262- 263. بتصرّف

كتاب سُمِع به في هذا المجال بعد كتاب (الأنواء) لابن قتيبة (ت267هـ) وكتاب (الأزمنة والأمكنة) للمرزوقي، وتَنَاوُلُ ابن الأجدابيّ في كتابه هذا مختلفُ الجوانب فقد اختلط فيها العلميّ والتّاريخيّ والأدبيّ، وكذلك الجانب اللّغويّ الّذي كان أكثر بروزًا وإيرادًا؛ لأنّه غَرَض الكتاب الأساسيِّ[1]، فغايته الاهتمام أكثر بالمسائل اللّغويّة الّتي يتعرّض لها.

وألّف كتابًا آخر نال حظَّه من الانتشار باسم (كفاية المتحفّظ) أو (كفاية المتحفّظ ونهاية المتلفّظ في اللّغة العربيّة) كما يذكره البعض، بالإضافة إلى تسمية (بغية المُتحفّظ) الّتي انفرد بها الطّاهر الزواوي[2] وهذا غير صحيح؛ لأنّه لم يذكره أحد من مترجميه بهذه التسمية. ويعُدُّ هذا الكتاب أشهر مؤلّفاته في اللّغة وأعظمها نفعًا رغم صغر حجمه، فقد علا ذكرُه حتّى سمِعَ عنه النّاس في المغرب والمشرق فانتفعوا به، وقام بعضهم بِشرحه ونظمه، ويبدو أنَّ لهذا المؤلّف أثرًا في اللّغويين المتأخِّرين، فهذا شهاب الدِّين بن أحمد الخويي (ت693هـ) يضع كتابًا باسم (كفاية المتحفّظ في اللّغة) الّذي أقبل النّاسُ على دراسته وشرحه وحتّى نظمه.

وقد أَوْرَدَ ابن الأجدابي في معجمه هذا مُجمل الألفاظ الّتي يحتاجُ إليها دَارِسُ اللّغةِ بكيفية مختصرة وواضحة لقوله إنَّه كتابٌ مختصرٌ في اللّغة وما يحتاج إليه من غريب الكلام، ضمّنه كثيرًا من الأسماء والصِّفات، وجنّبه حوشي الألفاظ واللّغات، وكان قليل الشَّواهد لِيسهل حفظه وتناوله، ومعينًا لِمن أراد الاتساع فيه. وفي ما يخصُّ طريقة تقديمه الألفاظ فقد صنَّفه في عدّة أبواب جاءت على هذا النّحو: باب في صفات الرِّجال المحمودة، باب في صفات النِّساء، باب في الحب والموصوف فيه باب في أطوار عمر الإنسان، باب في الحلي، باب في الإبل، باب في الخيل، باب في السِّلاح، باب في السّهام، باب في السّباع والوحش، باب في الظباء، باب في البقر الوحشيّة، باب في النّعام، باب في الطّير، باب في السّحاب، باب في السّيول والمياه باب في النّبات، باب في الأطعمة باب في الأشربة، باب في الآنية، باب في اللِّباس، باب في الطّيب وغير ذلك[3]. فالمُلاحظ أنَّ هذا المعجم لم يُرتَّب وفق التَّرتيب الحرفيِّ، بل اعتمد صاحبه التَّرتيب الموضوعيّ الّذي اتّبعه واضعو أشهر المعاجم العربيّة، وقد سبقه إلى هذا المنهج من

---

[1]- عبد العلي الودغيري، المعجم في المغرب العربيّ إلى بداية القرن الرّابع عشر الهجري، ص271.

[2]- كارل بروكلمان، تاريخ الأدب العربيّ، تر: رمضان عبد التواب، ط2. القاهرة: د ت، دار المعارف، ج5، ص348. والطّاهر أحمد الزّاوي، أعلام ليبيا، ط3. ليبيا: 2004م، دار المدار الإسلاميّ، ص50.

[3]- إبراهيم ابن الأجدابي، كفاية المتحفّظ في اللّغة، تح وتع: السائح علي حسين، د ط. طرابلس: 1989م، جمعيّة الدّعوة الإسلاميّة العالميّة، ص36 وما يليها.

اللّغويِّين المغاربة، أبو الوليد عبد الملك بن قَطَن المَهري المتقدِّم ذكره، فقد رتَّبه أوّلاً على طريقة التّرتيب حسب المعاني أو الموضوعات الّتي اعتمدها ابن السكيت، وممّن تابعهم من اللّغويِّين المغاربة في هذا التّرتيب الثّعالبي (ت875هـ) في كتابه (فقه اللّغة). وثانيًاعلى طريقة ابن سيده (ت458هـ) الّذي رَتَّبَ معْجَمَه (المُخصَّص) بحسب الموضوعات، مستعينًا في تأليفه بكلِّ ما أُلِّف قبله تقريبًا من كتب الغريب المُصنَّف، والصّفات والألفاظ والمعاجم اللّغويَّة ومؤلّفات اللّغة المُختلفة، ولذلك جاء أوفى وأشمل معجم من معاجم المعاني في تاريخ العربيَّة. واختلف ابن سيده بمعجمه هذا عمّن سبقوه، منهم الخليل (ت175هـ) صاحب معجم (العين)؛ لأنَّ الأوّل اعتمد منهجًا آخر، حيث قسّم (المخصّص) إلى أبواب رئيسة بحسب الموضوعات وتحت كلِّ باب مجموعة من التَّقسيمات الفرعيَّة، ومن أمثلة ذلك كتاب خلق الإنسان، كتاب اللّباس، كتاب الطّعام وغيرها، ووردَ تحت كتاب خلق الإنسان عدّة أبواب وهي: باب الحمل والولادة، أسماء ما يخرج مع الولد، الرضاع، الفطام والغذاء وسائر ضروب التّربية والغذاء السيّئ للولد وغيرها[1]. وكذلك الأمر بالنِّسبة لابن الأجدابي الّذي قسَّم معجمه إلى أبواب، وخَصَّ كلَّ موضوع بباب من الأبواب وأعتبر هذا نقطة الاتفاق بين المؤلِّفَيْن؛ لأنّهما اعتمدا ترتيبًا بحسب الموضوعات والأغراض، ويُدرج هذا النّوع من المتون المُعجميَّة في موضوع الحُلى والشيات أو السّمات والصّفات المتعلِّقة بالإنسان والحيوان الّذي ألّف فيه العلماء القدامى منذ القرن الثّاني، حيث كانت تلك المعاجم تتضمّن جميعَ الألفاظ الّتي تدور حول صفات الخلق وألوانه ونعوته المُستحسنة والمُستقبحة[2]. وأمّا النّقطة الّتي اختلف فيها المُعجمان فتتمثّل في أنَّ (كفاية المتحفّظ) مقسَّمٌ إلى أبواب فقط، وكلّ باب يشمل مجموع الألفاظ الّذي أصاب المصنِّفُ في اختياره من الشِّعر والنَّثر "تشْهدُ هذه الألفاظ بأنَّه كان صاحب حسٍّ أدبيٍّ وذوق مُرهف وذاكرة لاقطة، ممّا جعله يعرف كيف يختار في كلّ باب من أبواب الكتاب من معاجم اللّغة وممّا حفظه من الشِّعر والنّثر ألفاظًا نقيّة من شوائب الغرابة والإغراب كما قال في مقدّمة الكتاب- ومع تفسيرها بحيث تكون معانيها واضحة تمام الوضوح للشّباب والأدباء حين يستخدمونها ويتلفّظون بها"[3]، وأمّا (المُخصّص) فقد قُسِّمَ إلى كتب، وكلّ كتاب مُقسَّم إلى أبواب.

---

[1]- أحمد مختار عمر، البحث اللّغوي عند العرب، ط6. القاهرة: 1988م، عالم الكتب، ص289- 290.

[2]- عبد العلي الودغيري، المعجم في المغرب العربيّ إلى بداية القرن الرّابع عشر الهجريّ، ص199. بتصرّف

[3]- شوقي ضيف، عصر الدول والإمارات (ليبيا- تونس- صقلية)، د ط. القاهرة: 1992م، تاريخ الأدب العربي9، دار المعارف، ص69.

وإلى هنا أجد أنَّ ابن الأجدابي متميِّزٌ بتقسيمه الكتاب، ولذلك حَظِيَ بإقبال علماء المغرب والمشرق عليه قراءةً وتدريسًا وشرحًا، ولا سيما إذا علمنا أنَّ الكتاب يمتاز بالطَّابع التّعليميِّ الّذي يُسهِّل حِفْظَ القواعد على الطّلبة.

وكان يُعاصره من اللّغويِّين بالقيروان عبد الدّائم بن مرزوق[1]، قيروانيّ الأصل والاشتغال ثمّ طُليطليّ الوفاة، أدْرك الشُّيوخ في أكثر من ناحية، حيث قَصَدَ المشرقَ في سنّ مبكِّرة فحلّ بالعراق وأخذ عن أهل البصرة اللّغةَ والنَّحو، وبعدها دخل مصر فقرأ على شيوخها أيضًا، ومنها سَارَ إلى الأندلس بسبب الفِتَن فَدَرَسَ عليه قومٌ، ولكنَّه قَفَلَ إلى موطنه بعلمٍ وفيرٍ وقد أدخل معه عددًا مهمًّا من مؤلّفات اللّغة والأدب، له معجمٌ في اللّغة سمَّاه (حلى العلي) الّذي ذكره أحمد بن يوسف الفهري اللّبلي (ت691هـ) في شرحه (فصيح) ثعلب (ت291هـ)، كما نَقَلَ عنه أبو حيّان كثيرًا في كتابه (ارتشاف الضَّرب من لسان العرب)، وسأتحدّث عن ذلك في موضعه.

ويأتي بعدهما لغويٌّ آخر اشتهر بمُصنَّف له في موضوع الحُلى والشيات، وهو محمّد بن عيسى بن محمّد بن أصبغ الأزدي الشّهير بابن المناصف (ت620هـ) أندلسيّ الأصل ومهدويّ المولد ثمّ مراكشيّ الوفاة[2]، نَشَأَ بمسقط رأسه المهدية بالمغرب الأدنى فأخذ العلم عن مشاهير شيوخها، ومنها تَنَقَّلَ إلى تلمسان ثمّ قَصَدَ الأندلس، ولكنّه عاد إلى المغرب فسكن مراكش إلى حين وفاته. استطاع ابن المناصف أنْ يجمع بين علوم كثيرة من فقه ولغة وأدب مع توليه قضاء بلنسية الأندلسيّة أثناء وجوده فيها، ويشهد على ذلك مؤلّفاته المتنوّعة، وما يهمّني منها كتابه (المَذهَبة في نظم الصّفات من الحلى والشّيات) الّذي عُدَّ من أمّهات الكُتُب المُتميّزة في هذا الموضوع، قدَّمه في أرجوزتيْن اثنتيْن تسهيلاً للحفظ والفهم، تناول في الأرجوزة الأولى حُلى الإنسان وصفاته، والّتي جاءت في اثنين وثلاثين وأربعمائة بيت، وفي الثَّانية صفات الحيوان بمختلف أنواعه وسمّاها (المعقبة لكتاب المذهبة في الأنعام والظباء وحمر الوحش والنّعام وما يتعلّق بها) وهي تَكْمِلَةٌ للأولى، كما له مُصنَّفٌ لغويٌّ آخر كان شرحًا لِما آخره ياء مشدَّدة من الأسماء[3]. وقام بتقسيم المذهبة إلى مدخل وعدد من الأبواب، مثل باب جامع في خلق الإنسان

---

[1]- السيوطي، بغية الوعاة، مج2، ص75. ومحمّد محفوظ، تراجم المؤلّفين التّونسيّين، ط1. بيروت: 1985م دار الغرب الإسلامي، ج4، ص302- 303.

[2]- العباس بن إبراهيم السّملالي، الإعلام بِمن حلّ مراكش وأغمات من الأعلام، مراجعة: عبد الوهاب بن منصور ط2. الرّباط: 1998م، ج4، المطبعة الملكيّة، ص181- 183.

[3]- إبراهيم حركات، مدخل إلى تاريخ العلوم بالمغرب المُسلم حتّى القرن 9هـ/ 15م، ج1، ص165. بتصرّف

وباب في أقسام الحلى الّتي حصرها في عشرة، وباب في الخيل الّذي قسَّمَه إلى فصول شملت موضوع خلق الخيل وصفاته المتعلّقة بالأسنان والألوان وغيرها من الصّفات وهي كثيرة.

وبرزَ قبل ابن الأجدابيّ وابن المناصف لغويٌّ بارعٌ ومتميّزٌ يُدعى محمّد بن جعفر أبو عبد الله التميمي القزّاز (ت412هـ) الّذي اشتهر بالتّأليف المُعجميِّ في أكثر من موضوع، وُلدَ ونشأ بالقيروان، أخذ العلوم عن مشايخ بلده، عُرِفَ بِرَغبته الجامحة في طلب العلم وبخاصّة في ميدان اللّغة الّذي تفوّق فيه، تصدّر للتّدريس فتخرّج على يديه عددٌ من مشاهير الطّلبة كابن رشيق وابن شرف القيروانيّ وغيرهما ممّن يُذْكَر كثير. وللقزّاز مُصنَّفٌ في اللّغة بِعنوان (الجامع في اللّغة) ولأهميّته قيل عنه "ما علمت أنَّ أحدًا سبق إلى تأليف مثل هذا الكتاب، ولا اهتدى أحدٌ من أهل الصّنعة إلى تقريب البعيد، وتسهيل المأخذ، وجمع المفرّق على مثل هذا المنهاج"[1]، فالجامع أقدم مدوَّنة معجميَّة مغربيَّة مُرتّبة وفق حروف المعجم وكان كبير الحجم يُقارب (التّهذيب) لأبي منصور الأزهري (ت370هـ)، ولا سيما إذا علمنا أنَّ هذا الكتاب ظهر في الفترة الّتي ازدهر فيها التّأليف المعجميّ حين ظهرت سلسلة مهمّة من المعاجم مثل (الصّحاح) و(المحيط) و(مقياس اللّغة). ولكن المُؤسف في الأمر أنَّ كتاب الجامع لم يعدْ موجودًا فقد أصبح من التُّراث المفقود الذّي لم يصلْنا منه سِوى بعض النُّقول بفضل المؤلّفين الّذين اعتمدوا عليه وأشادوا بأهميَّته أمثال ابن منظور[2]. أضف إلى ذلك كتبًا لغويّة أخرى تُعتبر من المتون المعجميّة أيضًا مثل كتاب (العشرات) الّذي تناول فيه اللّفظة ومعانيها المترادفة وكان يذكر لبعض الألفاظ ما يزيد على عشرة من المترادفات[3]، وله كذلك كتاب سمّاه (الحروف في النّحو) أَلَّفَه بطلب من المعز لدين الله الفاطميِّ، وهو كتابٌ كبير الحجم، تناول فيه معاني الحروف بالشَّرح معتمدًا نمط التّرتيب المعجميِّ، قيل إنَّ موضوعَه نادرٌ في المتون المعجميّة في النّحو واللّغة، كما له كتب أخرى مثل (المثلّث)، (الضّاد والظّاء)، (المئات) الّذي قدّمه على نسق كتاب العشرات، (الكلمات المُشاكلة الصور)، وهذا إلى جانب كتب النّحو الّتي أذكرها في محلّها. ولا يُنسى في هذا المقام الثّعالبي المارّ ذكره بين المفسّرين الّذي كانت له معرفة بالتّأليفِ المعجميِّ، حتّى وإنْ لم تكنْ بمستوى غيره وبالأخصّ علماء الأندلس الّذين تفوّقوا فيه أيّما تفوّق في عصره وقبله. ويتجلّى ذلك في الملحق الّذي ختم به كتابه (الجواهر الحسان في تفسير

---

[1]- القفطي، إنباه الرّواة على أنباه النّحاة، ج3، ص87.

[2]- عبد العلي الودغيري، المعجم في المغرب العربيّ إلى بداية القرن الرّابع عشر الهجريّ، ص23- 24.

[3]- عبد العزيز بنعبد الله "اللّغويّون أو علماء العربيّة في المغرب"، مجلّة التّاريخ العربيّ. الرّباط: 1999م، ع9، ص20.

القرآن). وللعلم هناك من يرى أنَّ هذا الملحق منفصل عنه، فقد وضعه بعد أنْ أَتمَّ التّفسير. وما يهمّني في هذا هو أنَّ الملحق عبارة عن قاموسٍ لغويٍّ في شرح اللّفظ الغريب من القرآن مع ألفاظ أخرى من الحديث الشّريف الّتي أخذها من الصّحاح كمسلم والبخاري. بالإضافة إلى شرحه لِكثير من الألفاظ المُتداولة بين عامّة النّاس، اعتمد في ترتيبه على حروف المعجم حيث جعل لكلِّ حرفٍ بابًا من حروفه شاملاً الألفاظ الّتي اختارها للغرض. ومن هنا يكون الثّعالبي قد أسهم بِقِسط هامّ في تنمية الدَّرس اللّغويِّ عامّة من خلال ما قدَّمه في شرح اللّفظ الغريب في القرآن. وله كتابٌ آخر في غريب القرآن بعنوان (الذَّهب الإبريز في غريب القرآن العزيز)[1]، وقد قام في هذا الكتاب بتوضيح ألفاظ القرآن وشرحها، والتّعليق عليها معتمدًا في ذلك المعاجم اللّغويّة والفقهيّة. ولكن الواضح أنَّه لم يحظ بالعناية الّتي حظِيَ بها كتاب التّفسير "حتَّى إنَّه لا يكاد يُذكرُ في الدِّراسات اللّغويَّة مع أنّه يصلح نموذجًا للتَّأليف المعجميِّ في الجزائر في القرن التّاسع الهجريِّ"[2]، فقليل فقط من سمع عن هذا المعجم في شرح الألفاظ الغريبة في القرآن.

وعليه أقول إنَّ للمغاربة اهتمامًا كبيرًا بشرح الألفاظ الغريبة في القرآن، ووضعها في مؤلّفات مُرتّبة ترتيبًا معجميًّا إمّا بحسب الألفاظ وإمّا بحسب الأبواب والموضوعات، ولكن المؤسف أنّ أكثر المؤلّفات معدود ضمن التّراث المفقود، ولذلك لم يُعرف عنها سِوى العناوين. ومن المؤلّفات الّتي سُمِع بها في غريب القرآن أيضًا أذكر كتاب (العمدة) لمكي بن أبي طالب المارّ ذكره بين علماء القراءات، مع أنَّ هناك من شَكا في نسبته إليه؛ لأنَّ مترجميه لم يذكروا هذا الكتاب ضمن مؤلّفاته. والمهمّ أنَّ الكتاب مرتّبٌ بحسب ترتيب السور القرآنيّة بدءًا بالفاتحة وانتهاءً بسورة النَّاس، قام فيه بشرح الألفاظ القرآنيّة شرحًا قاموسيًا بشكلٍ موجزٍ ومختصرٍ دون الخوض في الجوانب الدِّينيَّة والأحكام الشَّرعيَّة لها.

وأمّا في ما يتعلّق بغريب الحديث وتفسيره فثمّة الكثير ممّا ألّفه علماء المغرب مقارنه بِما أنتجوه في غريب القرآن، وأذكر في مقدِّمة الكتبِ المؤلَّفِة في هذا الحقل، كتاب (مشارق الأنوار على صحاح الآثار) للقاضي عيّاض، وهو من أمّهات الكتب الّتي اعتمدها العلماء في حقول معرفيّة مختلفة من حديث وفقه ولغة ومعجم أمثال الفيروز آبادي (ت817هـ) في (القاموس)

---

[1]– محمّد محمّد زيتون، القيروان ودورها في الحضارة الإسلاميّة، ص331. وإبراهيم حركات، مدخل إلى تاريخ العلوم بالمغرب المسلم حتّى القرن 9/ 15م، ج1، ص164.

[2]– محمّد عيسى وموسى، "قراءة في مخطوطات المكتبة الوطنيّة الجزائريّة لِمؤلّفين جزائريّين في مواضيع اللّغة والبلاغة والنّحو" مجلّة المجمع. الجزائر: جوان 2006م، المجمع الجزائري للّغة العربيّة، ع3، ص72.

والزُّبيدي في (تاج العروس). وله (كتاب المشارق) الّذي يضمّ مُجمل ألفاظ الحديث الواردة في الصحاح، حيث تعرَّض عيَّاض لِما يقع فيه الخطأ والوهم والتّصحيف ثمّ جمعه وتصحيحه وضبط نطقه لإزالة لبسِه وإشكالِه، وليقوم بترتيبه ترتيبًا لغويًّا قاموسيًّا اعتمد طريقة الزّمخشري في كتابه (أساس البلاغة) الّتي تراعي الحروف الثّلاثة الأولى للكلمة بعد تجريدها من زوائدها وهي الطّريقةُ الألفبائيّةُ البسيطة الّتي تعتمدها المعاجم الحديثة[1]، فكتاب (المشارق) هذا مرتَّب ترتيبًا معجميًّا بحسب الألفاظ وليس الأبواب.

وممَّن خلَّف أثرًا في هذا الحقل من أبناء المغرب الأوسط، محمّد بن عبد الحق بن سليمان اليفرني التلمساني الكومي (ت625هـ)، وقد طاف وجال في مختلف حواضر المغرب طلبًا للعلم ولقاء أهله، وَلِيَ قضاءَ تلمسان، وله في غريب الحديث مصنَّفٌ سمَّاه (غريب الشهاب) وآخر بعنوان (الاقتضاب في غريب الموطأ وإعرابه)، مع أنَّه يُذكَرُ كثيرًا باسم (مختصر غريب الموطأ)[2]. كما ليوسف بن موسى الهواري (ت649هـ) مؤلَّفٌ من نوع آخر، قام فيه بِنظم أبيات شعريَّة على ترتيب حروف معجم (العين) للخليل، وله أبيات أخرى اعتمد في نَظْمِها التَّرتيبَ الحرفيّ المُتّبع في الصحاح[3] للجوهري (توفي في حدود 400هـ).

ويبرُز في هذا الحقل أيضًا من العلماء الّذين أبدعوا فيه كثيرًا، أبو الفضل جمال الدّين محمّد الإفريقيّ المصريّ المعروف بابن منظور (ت711هـ)، عُرِف بكثرة اختصاره للمؤلّفات العربيّة في الأدب والتَّاريخ، منها كتاب (الأغاني وتاريخ دمشق) وغيرهما. كما له مُصنّفٌ أَجْمعَ النَّاسُ على فضله ومعرفته في المعاجم باسم (لسان العرب) الّذي يعدّ "أوسع المعاجم العربيّة على الإطلاق، وأغزرها مادّة، وأكبرها حجمًا وأكثرها استيعابًا ومن ثمّ أصبح المعجم اللّفظي الأوّل للّغة العربيّة"[4]، ويبدو أنَّ المعجم يُقارب (التّهذيب) للأزهري. وللإشارة اعتمد ابن منظور منهجَ الجوهري في ترتيب مواده اللّغويّة الّذي يأخذ بعين الاعتبار الحرف الأخير من المفردة معتمِدًا الترتيب الأبجديّ أيضًا للحروف الّتي ترِدُ قبل الحرف الأخير. وقام ابن منظور بِتقسيم معجمه إلى ثمانيّة وعشرين بابًا لأواخر الحروف في المواد الأصليّة، وكلّ باب قسَّمه إلى ثمانية

1- عبد العلي الودغيري، المعجم في المغرب العربيّ إلى بداية القرن الرّابع عشر الهجريّ، ص80- 88.

2- عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتّى العصر الحاضر، ص77.

3- شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربيّ عصر الدّول والإمارات (الجزائر- المغرب الأقصى- موريتانيا- السّودان) ص345.

4- أحمد شوقي، من المصادر الأدبيّة واللّغويّة، ص182.

وعشرين فصلاً للحروف الأولى لكلِّ مادَّة لغويَّة. ولكنّه لم يكتفِ بالحديث عن المفردات اللّغويّة واشتقاقها ومعانيها المختلفة، بل تناولها من الجانب الأدبيِّ والتّاريخيِّ أيضًا، ممّا جعل هذا المعجم موسوعةً لغويّة وأدبيّة وتاريخيّة وجغرافيّة وثقافيّة، حيث استطاع صاحبُه أنْ يُوردَ فيه الضَّروريَّ وغير الضَّروريِّ من المواد اللّغويَّة. ولهذا السَّبب ولغيره من الأسباب حظِيَ المعجم بكثير من الإقبال والاستعمال، ولا سيما أنَّه يضمّ مدوَّنةً ضخمةً من الأدب العربيِّ والحديث الشّريف، حتَّى أضحى من أمهّات الكتب الّتي ألَّفها المشارقة والأندلسيّون، ففي جميع الأحوال كان المعجم "أكبر موسوعة لغويَّة، من حيث طريقة تعريفاته، وحشده مختلف الأقوال والرِّوايات والإكثار من الشّواهد الشِّعريَّة والنّثريَّة، وأوّل قاموس لغويّ شامل في العربيَّة يفسح مجالاً واسعًا للاستشهاد بالأحاديث النّبويّة واعتبارها جزءًا من عناصر مدوَّنته الأساسيّة"[1] فقد ضمّ المعجمُ كلَّ ما عرفته العربيَّة من ألفاظ في زمانه وقبله.

واعتمد ابن منظور في تأليف معجمه بعض المصادر المهمَّة، وهي (الصّحاح) للجوهري مع حواشيه، (المحكم) لابن سيده، (النّهاية في غريب الحديث) لابن الأثير (ت606هـ) و(تهذيب الأسماء واللّغات) ليحي النووي (ت676هـ)[2]، وهناك من ذَكَرَ إلى جانبها كتابَ (الجمهرة) لابن دريد (ت321هـ). ولكن أكَّد البعضُ أنَّ هذا الكتاب لم يكن من مصادر معجم اللِّسان؛ لأنَّ ابن منظور لم يذكره في مقدّمة المعجم كتابَ (الجمهرة) كَذِكْرِه للكتب الأخرى.

وإذا ألّف المشارقة كُتُبًا في موضوع اللّحن والتّصويب اللّغويِّ حين بدأ اللّحنُ يظهر على بعض ألسنة العامّة، وكان ذلك منذ نهاية القرن الثّاني الهجريِّ وبداية الثّالث، حيث ظهرت مؤلّفات كثيرة، ومنها كتاب (الفصيح) لثعلب، و(إصلاح المنطق) لابن السكيت، فالأمر كذلك بالنِّسبة لعلماء المغرب الّذين كانوا على علمٍ واسعٍ بهذا الموضوع، إذْ لم تقل عنايتهم عن عناية نظرائهم المشارقة ممّن ألّفوا في اللّفظ العاميِّ والفصيح فكانت لهم مؤلّفاتهم الّتي أثروا بها الدَّرس اللّغويّ بصفة عامّة. ولكن لم يشتهر من اللّغويِّين بالمغرب أكثر من ابن هشام اللّخميّ السّبتيّ (ت575هـ أو 577هـ) من أهل الأندلس، وفَدَ على المغرب فاستقرَّ في سبتة حتَّى الوفاة، ولهذا السَّبب اختلف المؤرِّخون في انتمائه فبعضهم يعتبره أندلسيًّا وبعضهم الآخر يذكره مع علماء المغرب؛ لأنَّه "كان بسبتة أحد الدّعائم الّذين أحيوا الدَّرسَ اللّغويَّ ونشطوه في القرن السّادس

[1]- عبد العلي الودغيري، المعجم في المغرب العربيّ إلى بداية القرن الرّابع عشر الهجريّ، ص32.

[2]- إبراهيم حركات، مدخل إلى تاريخ العلوم بالمغرب المُسلم حتّى القرن 9هـ، ج1، ص166.

الهجريِّ"[1]، فقد كانت له حلقات علميَّة ذات فائدة ومؤلّفات قيِّمة انتفع بها الطّلبة حتَّى انتشر عِلْمُه في جميع الأنحاء، ومن أشهر مؤلَّفاته (المدخل إلى تقويم اللِّسان وتعليم البيان) الّذي يهدف إلى تقويم ألسنة النّاس من اللّحن الّذي يظهر على بعضها. ولكن هناك من يذكره بعنوان (لحن العامّة)؛ لأنّه قَصدَ بهذا الكتاب الردَّ على الزُّبيدي وابن مكي الصّقلي في موضوع اللّحن في اللّغة فَصَحَّحَ ما وهَما فيه، وتعرّض للحن عامّة النّاس في عصره، ممّا يدلّ على تضلّعه واتساع مادّته، وإذا تمكّن الزُّبيدي بواسطة كتابه طبقات اللّغويِّين والنَّحويِّين من إبراز مراحل تطوّر الدِّراسات اللّغويَّة والنَّحويَّة حتّى عصره بالأندلس والمغرب، فقد استطاع ابنُ هشام أنْ يُلِمِّ بمراحل تقدُّم هذه الدِّراسات في الأندلس والمغرب أيضًا. وليس هذا وحسب، بل قام فيه بِمراجعة ما أوردَه الزُّبيدي في كتابه (لحن عامّة زمانه وبيَّن ما وقع فيه من السَّهو والغلط)، مع ذِكْرِ أوهام ابن مكي الصّقلي في كتابه (تثقيف اللِّسان). كما تعرَّضَ لأربع صور من التطوّر اللّغويِّ الّذي عرفته العربيّة الفصحى في هذا القطر، ولِذلك خصَّص لكلِّ صورةٍ بابًا من أبواب الكتاب. ومن مُصنّفاته الأخرى (شرح على فصيح) ثعلب، تناول فيه ما وَرَدَ في كتاب (الفصيح) من الألفاظ ولكن ليس المُبهمة منها فقط، بل قام بِشَرْح مُجمل الألفاظ دون استثناء باعتماد مختلف الشّواهد والآراء مع تخريج أبياته والتّعريف بأصحابها، وشرحٌ آخر على مقصورة ابن دريد، مع قصيدة أخرى ذات 231 بيتًا نَظَمَها على رويِّ الألف المقصورة بِعنوان (الفوائد المحصورة في شرح المقصورة)[2]. ويأتي بعده لغويٌّ لامعٌ في المغرب الأقصى عُنِيَ باللّحن أيضًا، وهو أبو عبد الله بن هانئ اللّخمي السّبتي (ت733هـ) عارفٌ بالعربيَّة مع إلمامٍ كبيرٍ بالتّأليف في الأدب، وله من المُصنَّفات (إنشاد الضَّوال وإرشاد السّؤال) الّذي اكتسى قيمة علميَّة مهمَّة، وذُكِرَ الكتاب في النّبوغ المغربيِّ بعنوان (إنشاد الضّوال وإرشاد السُّؤال في لحن العامّة)[3] تناول فيه جميع الألفاظ الّتي وَرَدَت في كتاب ابن هشام المذكور آنفًا.

وللإشارة اهتمَ علماء المغرب بالألفاظ الّتي يقع فيها اللّبس والتّحريف وقد أدرجوها في مؤلّفات ذات طابع معجميّ، وهي الألفاظ الّتي تشتمل على أصوات وحروف مُتشابهة في النُّطق

[1]- إبراهيم حركات، مدخل إلى تاريخ العلوم بالمغرب المُسلم حتّى القرن 9هـ، ص27- 228- 229. وإسماعيل الخطيب، "الحياة الثقافيّة بسبتة في القرن السّابع الهجريّ" سبتة ودورها في إثراء الفكر الإسلاميّ محاضرات المهرجان الثّقافي الثّالث (26- 27-28 أبريل 1978م)، ص103.

[2]- عبد العلي الودغيري، المعجم في المغرب العربيِّ إلى بداية القرن الرّابع عشر الهجريِّ، ص224- 239.

[3]- عبد الله كنون، النّبوغ المغربيّ في الأدب العربيِّ، ج1، ص221.

والكتابة أمثال الدّال والذّال، السّين والصّاد وغيرها، ويُذكر أنّ للّغويِّ الفذّ أحمد بن إبراهيم اللّؤلئي (ت318هـ) من القيروان كتابًا في هذا الموضوع باسم (الضّاد والظاء)[1]، جمع فيه كلَّ الضّادات والظاءات الواردة في الألفاظ، وهو كتابٌ حسنٌ وكثير الفائدة.

وأجد أنَّ لِعلماء المغرب اهتمامًا بتصنيف الكتب لِغرض رَصْدِ الألفاظ المُعرّبة والدَّخيلة على العربية، ومن تلك الكتب (نظمٌ في المعرّب من الألفاظ العجميَّة) للمكُّودي الّذي برع في الفقه والأدب مع إمامته في النَّحو، تناول في الكتاب أصول الكلمات والبحث في تاريخها والتغيّرات الّتي تطرأ عليها، ونظمٌ آخر في شرح ألفاظ الغريب، ولكن لم يُعرف عنه شيء سِوى العنوان. ويوجد إلى جانب هذيْن الكتابَيْن ممّا ألّفه المكُّودي في اللّغة والأدب مقصورة في مدح الرّسول ﷺ، وهي عبارة عن نَظْمٍ، تحتوي على نحو مائتين وأربعة وتسعين بيتًا، وله (تقييد في أصل لفظ الزّرافة) أو (رسالة في وصف الزرافة) كما يُسمّيه بعضهم، مع أنَّه لا يزال مخطوطا وقيل كذلك (عمدة اللّسان في معرفة فرائض الأعيان) ولكن لم يُعثر عليه بين المخطوطات والمطبوعات[2]، بالإضافة إلى كتب النّحو الّتي أذكرها في موضعها.

هذا ولا يُنسى ما قدَّمه علماء المغرب من كتب ذات صلة بالألفاظ الشَّاذة في اللّغة، منها كتاب (الشّذوذ في اللّغة) لابن رشيق القيروانيّ، قام فيه بِرَصْدِ جميع الألفاظ الشَّاذة والغريبة ورتَّبها وفق نوع من التّرتيب المعجميِّ، مع كتاب آخر اهتمّ فيه بشرح ألفاظ الغريب، ولكن قد يكون الكتاب ضمن مؤلّفاته المفقودة.

وأُضِيف إلى ما تقدَّم بعضَ الأعلام الّذين عثَرتُ عليهم من خلال تصفُّحِي مجموعة من كتب التراجم واللّغة، مشيدة بأثرهم المحمود في تنمية الدَّرس اللّغويِّ في زمانهم، منهم:

– أبو محمّد عبد الله بن محمّد المكفوف (ت308هـ) من أهل سرت السّاحليّة الواقعة بين طرابلس وبرقة، نشأ بالقيروان، تلقّى عن شيوخها اللّغة والنَّحو، كان عارفًا بالغريب والشِّعر وتفسير المشروحات، وبأيّام العرب وأخبارها ووقائعها، التقى بالمهري الّذي أخذَ عنه اللّغة والنّحو، وبعد أنْ بلغ المكفوف الغايةَ فيهما تصدّى لِتدريسهما مدّة، وإليه كانت الرّحلة من سائر

---

[1]– الزُّبيدي، طبقات النّحويّين واللّغويّين، ص243. والسيوطي، بغية الوعاة، مج1، ص293.

[2]– عبد الرّحمن المكُّودي، شرح المكُّودي على ألفية ابن مالك، تح وتع: فاطمة راشد الرّاجحي، د ط. القاهرة: 2004م الدّار المصريّة السّعوديّة للطّباعة والنّشر والتّوزيع، ج1، ص43- 50.

أنحاء المغرب، له مُصنّفٌ ذائع الصّيت في العروض، ومُصنّفات كثيرة أملاها في اللّغة والغريب[1] ولكن لم يُعرف عنها غير هذا.

– أبو محمّد حسن بن محمد التميمي العنبري الدّاروني يُعرف بابن أخت العاهة (ت343هـ) وهو كذلك من القيروان الّتي بها وُلِد ونشأ، أَدْرَكَ جماعة من شيوخها في علوم كثيرة، منها اللّغة الّتي برع فيها أيّما براعة، مع عُلوّ كعبه في الشّعر فهو ناظم مجيد وغزير الشّعر، كان مشغوفًا بديوان ذي الرُّمة وأعلمَ النّاس به، عكف على شرحه وغيره من دواوين الشّعر[2]، قضى حياتَه بين الأخذ والعطاء حتَّى أدركه الأجل بموطنه.

– علي بن عبد الجبّار بن سلامة بن عبدون (ت519هـ) من المغرب الأدنى، كان من أهل العلم، وعارفًا باللّغة الّتي أتقنها وحفظها، مع مشاركة حسنة في نَظْمِ الشّعر، كانت له رحلةٌ إلى صقلية وبها لقي ابن رشيق[3] وغيره من مشايخ اللّغة والأدب.

– محمّد بن يحي العبدري الفاسي المشهور بالصّدفي[4] (ت651هـ) أخذ العربيّة والأدب عن جماعة أمثال ابن خروف الأندلسيّ (ت609هـ)، كان الصّدفي من أئمة العربيّة، حافظًا للّغة والأدب، جيِّد العبارة، مع إلمامٍ واسعٍ بعلوم أخرى كالقراءات والأصول. بالإضافة إلى توليه قضاء فاس وتدريس اللّغة فيها، وقيل إنَّه أكمل (الكتاب) تفقُّهًا وتقييدًا وضبطًا.

– ابن حمّاد الصّنهاجي محمّد بن علي (ت628هـ) الّذي وُلِد ونشأ بقلعة بني حمّاد، وهو من كِبار الشُّيوخ وأعيانهم، أخذ العلم ببلده، وله مُصنَّفٌ في اللّغة عبارة عن شرح لمقصورة ابن دريد[5]، وغيره من المُؤلَّفات الّتي أشارت إلى عناوينها كتب التّراجم والسير.

– محمّد بن يحي بن موسى بن محمد أبو عبد الله اللّخمي المعروف بابن الفراد (ت723هـ)[6] من أهل المغرب الأدنى، نافذٌ في الأدب والعربية، كانت له رحلة إلى المشرق للحجّ وقد لقِيَ أثناء ذلك جماعة من العلماء، ثمّ قفل إلى بلده فأقرأ به وانقطع إلى خدمة العلم.

---

[1]– الزّبيدي، طبقات النّحويّين واللّغويّين، ص236– 237.

[2]– المرجع نفسه، ص245. والسيوطي، بغية الوعاة، مج2، ص41.

[3]– القفطي، إنباه الرُّواة على أنباه النُّحاة، ج2، ص292– 293.

[4]– ابن القاضي، جذوة الاقتباس في ذكر مَنْ حلَّ مِن الأعلام مدينة فاس، ج1، ص221. والسيوطي، بغية الوعاة مج1، ص266.

[5]– الغبريني، عنوان الدراية في من عُرِفَ من العلماء في المائة السّابعة بِبجاية، ص218.

[6]– السيوطي، بغية الوعاة، مج1، ص191.

- محمّد بن أحمد بن محمّد بن عبد الله الشّريف الحسني السّبتي (ت760هـ) وُلِد ونشأ بمدينة سبتة، ومنها انتقل إلى غرناطة الّتي تولّى القضاء فيها، استقرّ فيها حتّى الوفاة، ولذلك كانوا يُلقّبونه بالغرناطي، أَخَذَ العلوم عن شيوخ بلده الكِبار كابن هانئ السّبتي وابن الشاط وأمثالهما. عَرَفَ أبو القاسم الحديثَ والفقه، مع إلمامهِ الواسعِ بعلوم العربيّة من لغة ونحو وأدب، كما ترك مؤلّفات لغويّة حسنة، منها كتابه الشّهير (رفع الحُجُب المستورة في محاسن المقصورة)[1]، وهذه المقصورة لِحازم الأنصاريّ الغرناطيّ (ت684هـ) قام أبو القاسم بشرحها شرحًا لغويًّا دقيقًا، ثمّ بِتحليل المعاني والمقاصد الّتي يريدُ توضيحَها[2] لمُستعمل الكتاب.

- محمّد بن عبد الله بن راشد القفصي (ت736هـ) من شيوخ اللّغة والأدب أيضًا، قَصَدَ المشرق فحلّ بِمصر[3]، والتقى فيها بِكبار العلماء الّذين أخذ عنهم العلوم اللّغويّة والأدبيّة.

- أبو عبد الله ابن القَوبع التونسي (ت738هـ) الّذي تَقَدَّم في اللّغة، مع تَفَوُّقٍ كَبِيرٍ في علوم أخرى، فهو أدبيٌّ فذٌّ وفيلسوفٌ كبيرٌ وطبيبٌ ماهرٌ، تَخصَّص في تدريس الطبّ[4] ببعض مارستانات مصر أثناء استقراره فيها.

- محمّد بن محمّد بن عبد الرّحمن الخطاب الطرابلسي (ت954هـ)[5] من أهل طرابلس، اشتغل بالنّحو واللّغة كثيرًا، له مُصنَّفٌ لغويٌّ في المواضع الّتي غلط فيها الجوهري في (الصحاح) والفيروز آبادي في (القاموس المحيط).

تكفي هذه القائمة للقول إنَّ الدِّراسات اللّغويَّة لم تكن حكرًا على علماء المشرق فقط، بل كان لِعلماء المغرب صلةٌ وثيقةٌ بها أيضًا، حيث كانت لهم من المجالس والمُصنّفات ما يستحقُّ التّقدير والثّناء، وذلك لأهميّة ما قدّموه فيها من آراء دلّت على تفكيرهم العميق واجتهاداتهم، وما زاد من قيمة إنتاجهم أنّه جاء متنوّعًا لِتَنَوُّعِ القضايا اللّغويَّة الّتي تناولوها فمنه ما كان عامًّا شاملاً جوانب لغويّة متعدّدة، ومنه ما كان خاصًّا اكتفى بتناول قضية لغويّة مُعيّنة.

وما زاد هذه الدِّراسات أهميَّةً أنّها تنوّعت أشكالها فأخذت أنماطًا مُختلفة، حيث اهتمّ علماء المغرب بِوضع مُصنّفات تناولوا فيها قضايا أدبيَّة ولغويَّة متنوّعة، ولكن اللافت للانتباه أنَّ ما

---

[1]- السيوطي، بغية الوعاة، مج1، ص39. وابن القاضي، جذوة الاقتباس في ذكر مَن حلّ مِن الأعلام مدينة فاس ج1، ص306.

[2]- إبراهيم حركات، مدخل إلى تاريخ العلوم بالمغرب المُسلم حتّى القرن 9هـ/15م، ج1، ص168.

[3]- أحمد الطويلي، في الحضارة العربيّة التونسيّة، ط1. تونس: 1988م، دار المعارف للطّباعة والنّشر، ص11.

[4]- السيوطي، بغية الوعاة، مج1، ص226.

[5]- شوقي ضيف، عصر الإمارات والدّول (ليبيا- تونس- صقلية)، ص70.

خلَّفوه من تراثٍ فكريٍّ عبارة عن مُصنَّفات ضخمة وكثيرة من الصّعب الإلمام بجوانبها في هذا الحقل. فرغم الفكرة الّتي ظلت سائدة لدى الباحثين والدَّارسين أنَّ علماء المغرب لم ينشطوا في التّأليف اللّغويِّ، إلاَّ أنَّني استطعت قدر الإمكان التوصّلَ إلى بعض العناوين الّتي تُؤكِّد عكس ما اعتقده هؤلاء، فصحيح أنَّ الإنتاجَ المغاربيَّ لم يكن واضحًا في بداياته، ولا كان بِذلك الحجم الّذي كان عليه التّأليف عند المشارقة والأندلسيِّين الّذين قدّموا ما لا يُحصى من الكتب والمعاجم العامّة والمتخصِّصة، مع ذلك ثمّة ما يدعو إلى الاعتراف بصنيع علماء المغرب في هذا الميدان، فالمشكلة أنَّ ما تبقَّى من تراثهم أقلّ بِكثير ممَّا ضاع وتبدّد لأسباب معيّنة، فلو بقي كلّ ما أنتجوه واستطاع الباحثون بلوغَه لكان الإبداع في مغرب العصر الوسيط ضخمًا جدًّا وبالأخصّ منذ عصر المُرابطين فالموحّدين الفترة الّتي نضجت فيها الدّراسات اللّغويّة وازدهرت أكثر، علمًا أنَّ هذه الدِّراسات في هذيْنِ العصريْنِ كانت امتدادًا للحركة اللّغويّة الّتي عرفتها الأندلس في الفترة ذاتها. ولكن رغم ذلك كلّه إلاَّ أنَّه بَرَزَ بعض اللّغويِّين الّذين كانت لهم مشاركةٌ حسنةٌ في تأليف كتب لا تقلّ أهميّة عن كُتُبِ نظرائهم، فقد ألّفوا في لحن الكلام والمشترك اللّفظي واللّفظ الغريب والنّادر والفصيح وغير ذلك، وكان نتيجة ذلك أنّهم زادوا المكتبات العربيّة والإسلاميّة ثراءً، فثمّة من المتون المُعجميَّة الّتي عرفها العامّ قبل الخاصّ فأصبحت هدفًا ساميًا يسعى إليه الطَّلبة كمعجم (لسان العرب) الّذي لا تُخفى أهميّته في أيِّ بحث أو دراسة. فيكفي للمغاربة فخرًا أنْ يكون هذا المعجم أضخم موسوعة لغويَّة، من حيث أسلوب تعريفه الكلمات، ورصده مختلف الأقوال والرّوايات واعتماده على شواهد الشِّعر والنّثر الّتي يحتجُّ بها كثيرًا، وفوق هذا كان أوّل قاموس لغويٍّ شاملٍ في العربيّة يقوم على الاستشهاد بالحديث، واعتباره جزءا مهمًّا من عناصر مدوّنته، وعلى هذا أجد أنَّ صنيعَ ابن منظور في معجمه فريدٌ من نوعه، ممّا جعله يتميّز ويبرُز بين الكتب اللّغويّة الّتي أُلِّفت في عصره وغيره.

وهذا بغضِّ النّظر عن ذلك التُّراث اللّغويِّ الضّخم المفقود من المعاجم، كما قد يكون هناك من احتفظ ببعض منها في خزائن خاصّة، ممّا يمنع الطّلبة والباحثين من الاطّلاع عليها ودراستها وشرحها. أيْ حتَّى وإنْ اشتغل المغاربة بالعلوم المعجميّة إلاّ أنَّ ضياع مؤلّفاتهم جعل الكثير يعتقد بأنّه لا صلة لهم بهذا الحقل. فقد كانت لهم معاجم لغويّة على جانبٍ كبيرٍ من الأهميّة حظِيت بالشُّهرة الّتي حظِيَ بها (العين) و(الصّحاح) و(القاموس المحيط) وسِواها، ولكن لِكثرة اطّلاع علماء المغرب على معاجم غيرهم فقد تأثّروا بأسلوب تأليفهم إلى حدّ ما، بِدليل أنَّ هناك من اللّغويِّين الّذين ساروا على طريقتهم هذا من جهة، ومن جهة أخرى استطاعوا تحقيقَ

بعض التميُّز، حيث نهجوا لأنفسهم أسلوبًا خاصًّا في مؤلّفاتهم، فهذا ابن الأجدابي مثلاً يتّفق ترتيب معجمه (كفاية المتحفّظ) مع التّرتيب الّذي اعتمده ابن سيده في المخصّص، ولكنّ ثمّة اختلاف بينهما وهو أنَّ الأوّل قسَّمه إلى أبواب فقط، وكلُّ باب يضمُّ مجموع الألفاظ، وأمّا الثّاني فقد قسَّمه إلى كتب ثمّ كلّ كتاب إلى أبواب.

كما تأثَّر علماء المغرب بالتَّصنيف المشرقيِّ في الفروق اللّغويَّة، فقد كانت لهم من المؤلّفات الّتي تناولت الكثير من الألفاظ الّتي يقع فيها اللّبس والحروف المتشابهة مثل الضّاد والظاء، الصّاد والسّين، وكان يُصنِّف إلى جانبهم في هذا الموضوع الأندلسيّون الّذين تركوا مُصنّفات كثيرة ومفيدة، أمثال ابن السيِّد (ت521هـ) صاحب كتاب (الفرق بين الحروف الخمسة الظاء والضّاد والذّال والسّين والصّاد).

واللافت للانتباه في هذا العرض أنَّ هناك الكثير من علماء المغرب الّذين لم يتخصَّصوا في علمٍ واحدٍ وحسب، بل كانوا على صلةٍ بأكثر من علم، فقد يكون فقيهًا ومفسّرًا ومُحدثًا ورياضيًّا وفي الوقت نفسه تجده أديبًا ولغويًّا ولكن قد يشتهر أحدهم في علم دون آخر، وعلى هذا ذكرت بعض الأسماء الّتي اشتغلت بعدَّة علوم وصنَّفت فيها، مثل ابن معط الّذي اشتهر في نظم الشِّعر والنَّحو، وكذلك الأمر مع ابن آجُرُّوم الّذي نَشَطَ في القراءات إلى جانب النّحو.

3- الدِّراسات النَّحويَّة في المغرب:

3-1- نشأة النّحو العربيِّ عامّة وتطوّره: منذ بدأ اللّحنُ يعتري اللّغة العربيّةَ في منتصف القرن الأوّل الهجريِّ، فإنّ العرب لم ترض بِما يحدث لِهذه اللّغة الّتي كانت وعاء الدّين الحنيف، حيث أدركت خطورة الوضع ممّا جعلها تبحثُ عن سبيل يُوقف الموجةَ الّتي بدأت تعْصِفُ بكيان العربيّة وسلامتها. مع العلم أنَّ العرب كانت تمقت اللّحنَ أشدّ المَقت باعتباره يُنقِصُ من قيمة الشَّخص المُتحدِّث، فقد نطقت باللّغة العربيّة نُطقًا سليمًا وصحيحًا، ولكن مع تفشي اللّحن رأى المهتمّون ضرورة وضع هذه القواعد الّتي يحتكم إليها النّاطقون بالعربيّة. وكان من دوافع وَضْعِ العرب لقواعد النَّحو أيضًا، الرّغبة في تفسير النّصوص القرآنيّة وبيان معانيها بِهدف استخلاص الأحكام الشَّرعيَّة الّتي تعمل بها في تنظيم حياتهم الاجتماعيَّة والسياسيَّة والدِّينيَّة، وعلى هذا ثمّة حاجة إلى الاهتمام بهذه القواعد، والنّظر فيها على أساس أنَّها عاملٌ مهمٌّ لفهم القرآن والحديث، أضف إلى ذلك أنّها أداة مهمَّة يعتمدها علماء التّفسير والفقه والحديث وغيرهم في دراساتهم. وبِحُكْمِ الصّلة الوثيقة الّتي تجمع بين النَّحو والقرآن فإنَّ معظم مقرئي القرآن كانوا نُحاة أيضًا، ويأتي في مقدّمتهم النُّحاة الأوائل الّذين أسَّسوا للمدرستين

البصريَّة والكوفيَّة. وكذلك الأمر مع النُّحاة المفسِّرين الّذين وجدناهم يمزجون في مصنَّفاتهم بين أكثر من علم، حيث ينتقلون فيها من مسألة إلى أخرى على أساس أنَّ العلوم متداخلةٌ يخدم بعضها بعضًا كخدمة النَّحو لِعلم التّفسير وغيره، ولهذا حينما يُسأل أحدُهم عن مسألة فقهيَّة يفسِّرها بِشواهد نحويّة، والعكس يحدث حيث كانوا يشرحون الظّواهر النَّحويَّة باعتماد المسائل الدِّينيَّة فهذا ابن يعيش (ت643هـ) مثلاً كان يشرح هذه الظّواهر من خلال ربطه بالعلوم الدِّينيَّة[1] وغيره كثير. وخلاصة الأمر في هذا يبقى العامل الدِّينيّ السَّبب الرّئيس الّذي جعل العرب يهتمّون بِلغتهم ولا سيما بعد تفشي ظاهرة اللّحن في قراءة القرآن، ولكن قد يصدق من قال إنَّ النَّحو سينشأ حتّى ولوْ لمْ تبرز هذه الظّاهرة؛ لأنَّ شأنه مثل بقيّة العلوم الدَّينيَّة الأخرى الّتي ظهرت في رِحاب القرآن كالتّفسير والقراءات لحاجة النّاس إليها.

أسهمت اللّبنات الأولى الّتي وضعها أبو الأسود الدّؤلي (ت69هـ) في نشأة المدرسة البصريَّة الّتي تعدُّ بلا مُنازع أوّل مركز للنَّحو العربيِّ يتدارسه علماؤه، ويُضيفون إليه ما اعتبروه ضروريًّا ومكمّلاً لعلم العربيّة، وعُرِفَ عن مؤسِّسي هذه المدرسة وأتباعها الأوائل كثرة التنقّل إلى البوادي لأخذ اللّغة، وتسجيلها من أفواه العرب بدءًا بالدّؤلي وصولاً إلى نُحاة الطَّبقة الثّانية الّتي مثّلها عبد الله بن أبي إسحاق الحضرميّ (ت127هـ) الّذي أرسى قواعد المدرسة البصريّة إكمالاً لِما شَرَعَ الدّؤلي في تنفيذه، ثمّ تبعه أبو عمرو بن العلاء (ت154هـ). أتى بعدهما الخليل الّذي أرسى الدَّرسَ النّحويَّ. ثم يليه تلميذه سيبويه الّذي دَوَّنَ نظريات أستاذِه في كتابه الشَّهير. وفي التّرسيمة الآتية عرضٌ لأشهر النّحاة البصريِّين:

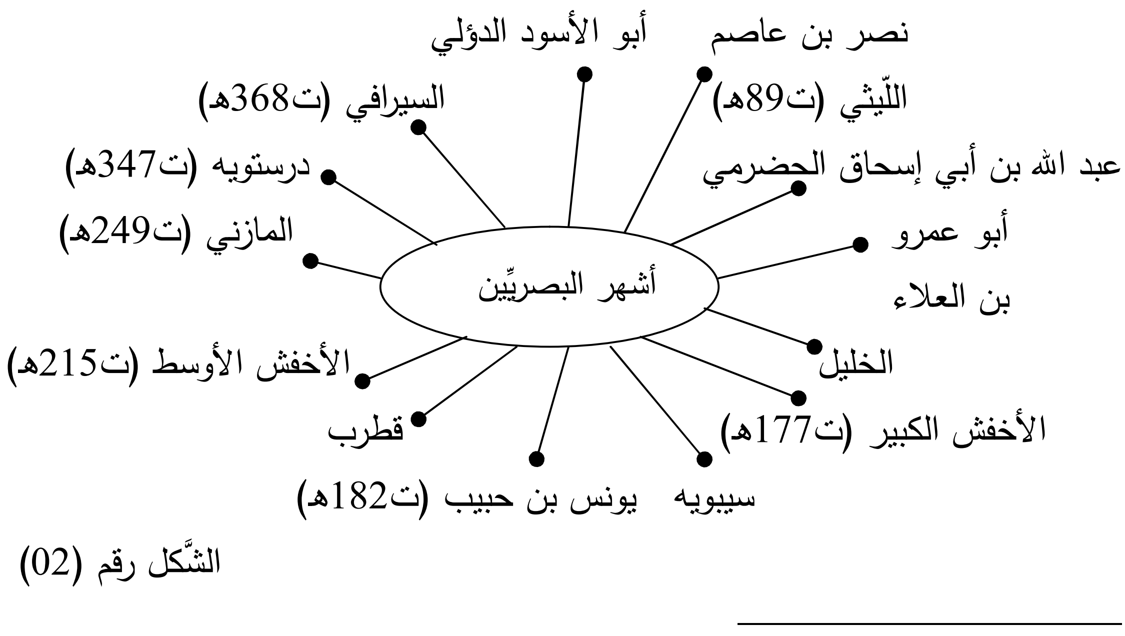

الشّكل رقم (02)

[1]- صالح بلعيد، مقالات لغوية، د ط. الجزائر: 2009م، دار هومه للطّباعة والنشر والتوزيع، ص14.

وتكفي هذه الأسماء للقول إنَّ النّحو العربيّ تأسَّس على أيدي البصريِّين واكتمل ونضُجَ بِشكلٍ واضحٍ، فكوَّنوا أوّلَ مدرسة في تاريخ هذا الحقل وأعلامه، ومنها نَهَلَ النُّحاة قديمًا وحديثًا إلى درجة أنَّ هناك من لم يعترف بسِواها من المدارس.

وتأتي في المرتبة الثّانية المدرسة الكوفيّة الّتي تأخَّرت عن الظّهور بحكم اهتمامها الكبير بالقراءات وروايتها، وكذلك بالدّراسات الفقهيّة ورواية الشِّعر، واستمرّت في الاشتغال بِهذه الأخيرة إلى غاية منتصف القرن الثّاني الهجريِّ حيث التفت أهلها للنَّظر في النَّحو وأصوله. وتعود صلة الكوفيِّين بالنَّحو إلى المقرئ شيبان بن عبد الرَّحمن التميمي البصريِّ (ت164هـ)[1] وعلى يديه تخرّج تلامذة أفذاذ، أشهرهم معاذ بن مسلم الهراء (ت189هـ) أوّل من كان يُنظّم حلقات في النَّحوِ بالمسجد الجامع بالكوفة، وعنه أخذ أبو جعفر الرُّؤاسي (ت190هـ) الّذي اشتهر بحلقاته لتدريس النَّحو بالمسجد المذكور. دَرَسَ النَّحوَ على علماء الطَّبقة الثّانية من المدرسة البصريَّة ومن تلاميذه النّابهين، الكسائي (ت197هـ) الّذي عُدَّ من أئمة القراءات في زمانه، له قراءة خاصّة اشتهر بها، قصد البصرة فالتقى فيها بِكِبار الشّيوخ وأخذ عنهم اللّغةَ والنّحو مثل يونس بن حبيب والخليل، وبعد مدّة عاد إلى الكوفة، ولذلك بدأت تتّضح معالم ثاني مدرسة نحويَّة عَلاَ ذِكْرُها في المشرق إلى جانب البصريَّة، وللكسائي مختصر النَّحو الّذي يُعتبر أوّل ما أُلِّفَ في النَّحوِ الكوفيِّ، أسهم بِفضله في تنمية النَّحوِ العربيِّ عامّة والكوفيّ خاصّة، أضف إلى مؤلّفات أخرى مثل (الحروف)، (النّوادر الكبير)، وكتاب (القراءات)[2] وغيرها. ومن ذلك الوقت بدأ أتباع المدرسة الكوفيَّة في منافسة البصريِّين ومخالفتهم، ولكن حتَّى وإنْ كان الأمر كذلك فتبقى المادّة الخام الّتي تركَّزت عليها هي من صُنع البصرة الّتي تعهّدته في نشأته، بِخلاف الكوفة الّتي انشغلت بالقراءات ورواية الأشعار زهاء قرن، وخيرُ دليلٍ على ذلك أنَّ الكسائيّ تتلمذ على البصريّين قبل أنْ يُؤسِّس لمدرستهم. وليس هذا وحسب، بل ذَهَبَ مذهبَهم في بعض المسائل النَّحويَّة. وفي الآتي أشهر النّحاة الكوفيِّين:

---

[1]- القفطي، إنباه الرّواة على أنباه النُّحاة، ج2، ص72.

[2]- محمّد بن النّديم، الفهرست، د ط. بيروت: د ت، دار المعرفة، ص96- 97.

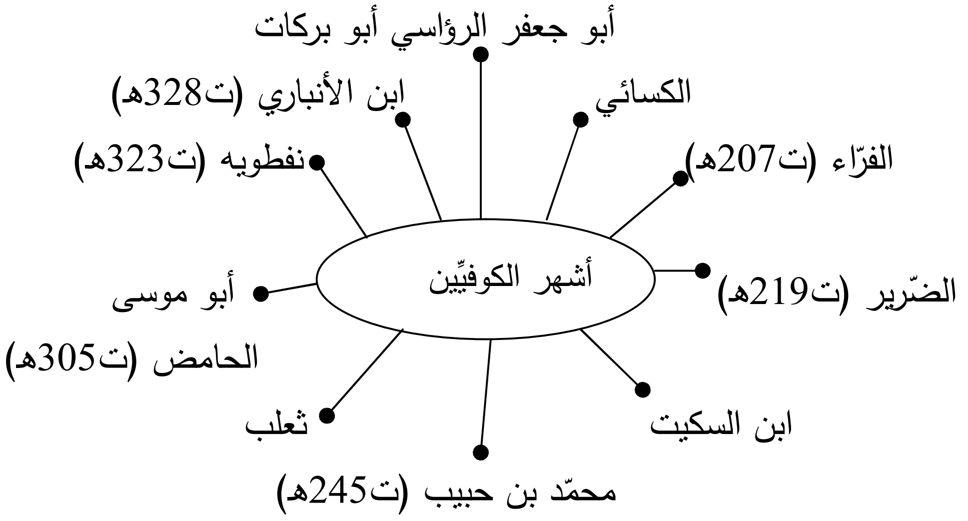

الشَّكل رقم (03)

ولا شكَّ أنَّه مع وجود هذه الأسماء الّتي نَشَطَ بفضلها النَّحوُ في الكوفة فلا مجال لِنُكران المدرسة الكوفيَّة الّتي اعتبرها بعضهم مجرّد حلقة نحويَّة أوجدها أصحابها بهدف مخالفة البصريِّين، مع العلم أنّ معظم الكوفيِّين أخذوا من آراء البصريِّين، ممّا يعني أنّهم لم ينطلقوا من العدم، وفي المقابل امتنع البصريُّون عن مساندة آراء الكوفيِّين. ولكن من المُناسب الإشارة إلى أنَّ المدرسة البصريّة فاقت الكوفيَّة في كثير من الجوانب ولا سيما في التّأليف فقد صُنِّفَ الكثير في النّحو البصريّ، على عكس الكوفيِّ الّذي لم يترك أصحابه سِوى ذلك المختصر في النَّحو للمبتدئين من صُنعِ الكسائي، وكتاب (معاني القرآن) للفرّاء الّذي طغى عليه التّفسير اللّغويّ للآيات القرآنيّة[1]، فكلّ هذا إذًا يدلُّ على أنّ للبصريِّين النَّصيب الأوفر من التّأليف والاهتمام بالنَّحو أكثر من الكوفيِّين.

وفي الوقت الّذي كان ينشطُ فيه الدَّرسُ النَّحويُّ في البصرة والكوفة، هناك من المدارس الّتي بدأت تبرزُ بِبُرُوز أصحابها، وأولى هذه المدارس، المدرسة البغداديّة الّتي ظهرت في مطلع القرن الثّالث، وذلك بتقارب المدرستين البصريَّة والكوفيَّة والمزج بين آرائهما، علمًا أنَّ البدايات الأولى لهذه المدرسة كانت مع الكسائي وتلاميذه الّذين انتقلوا إلى بغداد لِنشر النّحو الكوفيِّ، ثمّ مع الأخفش الّذي شدَّ الرِّحالَ هو كذلك إلى بغداد لِمُنافسة النَّحو الكوفيِّ وأصحابه ثمّ التَّعريف بالنَّحوِ البصريِّ. وبوجود نحو المدرستيْن من الطّبيعيِّ أنْ يختار البغداديّون منهما الآراء الّتي يرون فيها الصَّوابَ بالنِّسبة إليهم، فكانوا يرجّحون آراءً ويرفضون أخرى أيْ إنَّهم تارةً يحتجُّون لهذا المذهب وتارةً أخرى لذاك، ولكن لم يكونوا يكتفون بالاحتجاج على آرائهما مع التّرجيح كثيرًا

[1]– التواتي بن التواتي، المدارس النّحويّة، ط2. الجزائر: 2008م، دار الوعي، ص105.

للمذهب البصريِّ فقط، بل كانت لهم آراء واجتهادات خاصَّة، منهم المبرد (ت286هـ) مُمثِّل النَّحو البصريِّ وإليه انتهت رياسة الدَّرس النّحويِّ[1]. ومن أشهر نُحاة هذه المدرسة:

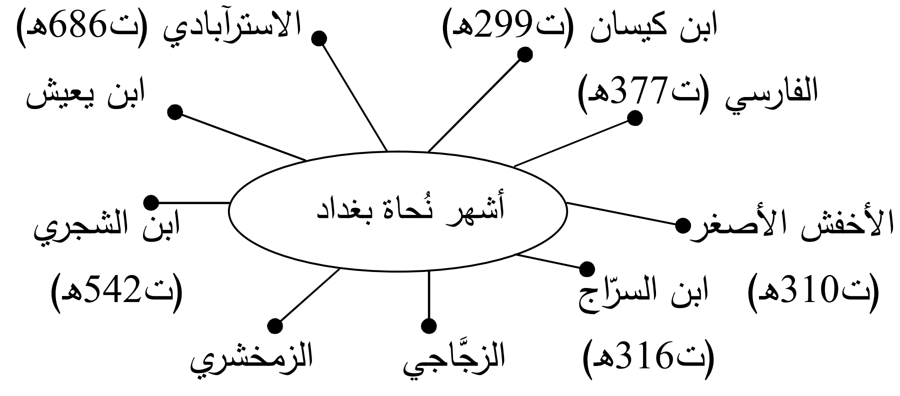

الشّكل رقم (04)

ويصل النَّحوُ زاويةً أخرى في بلاد المشرق وهي الموصل الّتي حظِيت بدخوله إليها في القرن الثّاني عن طريق أئمة النُّحاة، على رأسهم مسلمة بن عبد الله بن سعد بن محارب الفهري الّذي تلقّى النَّحوَ عن خاله ابن أبي إسحاق، وقد عدَّ الفهري من كِبار النُّحاة في عصره الّذين تركوا أثرًا في الميدان، انتقل إلى الموصل فاستوطنها حتّى أدركه الأجل[2]. ثمّ تبعه نُحاة آخرون بلغوا شأوًا عظيمًا، أمثال ابن جنّي الّذي أَخَذَ النَّحوَ عن الفارسي فسار على مذهبه وتوسَّع فيه حتَّى إنَّه فاقه معرفةً في الاشتقاق، فهو الّذي جاء بِمصطلح الاشتقاق الكبير مع اهتمامه بتطوير مفهومي القياس والتّعليل. وكذلك ابن الدهّان (ت569هـ) وابن الخبّاز (ت637هـ) وابن القوّاس (ت696هـ) وسِواهم. وينتقل النّحو من هذا القطر إلى إربل الّتي عُدَّت من أهمّ المراكز النّحويّة، ومن أشهر أعلامها محمّد بن قائد الخطيب (ت585هـ) وابن الدباغ (ت584هـ) ومحمّد بن أبي جابر (ت561هـ).

وثانيتها المدرسة المصريَّة الّتي لم يكن حظّها أقلّ من المدارس النّحويّة المذكورة، حيث نشطت الدّراسات بمصر عن طريق أبنائها الّذين انتقلوا إلى بغداد منذ القرن الثّاني الهجريّ مع الاهتمام بضبط القرآن وقراءاته وأشهرها قراءة ورْش. ومن نُحاة هذه المدرسة، الوليد بن محمّد التميمي المصادري المعروف بابن ولاّد (ت263هـ)، محمّد بن الوليد التميمي عُرِفَ بابن ولاّد نسبةً إلى شهرة أبيه (ت298هـ)، أبو العبّاس بن ولاّد الحفيد (ت332هـ)، أبو جعفر النحّاس (ت337هـ)، ابن بري (ت582هـ)، ابن الرّماح (ت633هـ)، ابن الحاجب (ت646هـ)، ابن هشام

[1]- خديجة حديثي، المدارس النّحويّة، ط3. الأردن: 2002م، دار الأمل للنّشر والتّوزيع، ص198.
[2]- السيوطي، بغية الوعاة، مج2، ص287.

الأنصاري (ت761هـ) والدماميني (ت839هـ) والسيوطي (ت911هـ). وللعلم كان لعلماء الأندلس والمغرب الوافدين على مصر أثر كبير في تقدُّم الدَّرس النّحويّ أمثال ابن معط وابن الحاجب وابن مالك (ت672هـ) وسِواهم.

وتُذكر إلى جانبها المدرسة الشّاميّة الّتي يعود الفضلُ في ظهورها كمدرسة نحويّة إلى الزجَّاجي الّذي انتقل إليها من بغداد، فقد تصدَّر أثناء قامته بها لتدريس النَّحو. ومن وقتها بدأت تعجّ بالنّحاة والمدارس الّتي اهتمّت بتعليم النّحو، مثل جامع دمشق المدرسة النّاصريّة الّتي كان يُعلِّم النّحوَ فيها الأندلسيُّ الأصل والتّونسيُّ المولد ابن قاسم المرسي (ت718هـ)، كما تولّى بِها وبأماكن أخرى مشيخةَ الإقراء وتعليم العربيّة فصار من الكبار الّذين شاع فضلُهم بالبلاد[1]. وللعلم كانت الحركةَ النَّحويَّة الّتي عرفتها الشَّام صورةً للحركة الّتي في مصر ولكنَّها كانت أكثر نشاطًا من الأولى نظرًا لِتشجيع الخلفاء على دراسة النّحو وتدريسه، ولِكثرة الأموال الّتي كانوا يقدِّمونها لتحفيز الدَّارسين على تَعَلُّمِه، فقد جعلوه في مقدِّمة العلوم الّتي يَتلقّاها الطَّلبة النّاشئة لِما له من فضلٍ في تقويم ألسنة العامّة، وإجادة قراءة القرآن والحديث وفهمهما. ومن أشهر نُحاتها مجد الدِّين بن الظّهير (ت602هـ)، ابن يعيش وابن الخطيب المنصورية (ت809هـ).

وفي الوقت الّذي كان يحظى فيه النَّحو بالاهتمام والانتشار شيئًا فشيئًا وبشكلٍ واسعٍ حتَّى شمل الموصل مصر والشَّام وغيرها من المدن المشرقيَّة، هناك الغرب الإسلاميّ الّذي بلغه هذا الحقل أوّلها بلاد الأندلس الّتي حظيت بعددٍ وافرٍ من النّحويّين نالوا شهرة واسعة تفوق التصوّر ليس في موطنهم فقط، بل في المشرق والمغرب أيضًا. ولكن لن أتحدَّث في هذا الموضع عن الأندلسيِّين بحكم تداخل جهودهم مع جهود المغاربة لأسباب ذُكِرَت في محلّها، وثانيتها بلاد المغرب الّتي عرفته في مرحلة النّضج أيضًا.

3-2- التَّأسيس للدَّرس النَّحويِّ في المغرب: بعد أنْ ظهر النّحوُ ونَشَأَ في المشرق مع الدؤلي وأقرانه ثمّ اكتمل ونَضُجَ مع كوكبة من النُّحاة الّتي اجتهدت في تبويبه وإرساء قواعده حتَّى صارت كواكب لامعة في سمائه، أمثال الخليل وتلميذه سيبويه اللّذين أسَّسا للمذهب البصريِّ، وكذلك الرؤاسي وتلميذه الكسائي والفرّاء الّذين قعّدوا النَّحو الكوفيّ. ومن هؤلاء انتقل النّحوُ مع الطّلبة والعلماء إلى مختلف الأنحاء بِما فيها بلاد المغرب ومعها الأندلس الّتي اشتغل أبناؤها بهذا العلم كثيرًا، ممّا زاده إثراءً كغيره من العلوم الّتي تميَّزت بتميُّز جهود المغاربة فيها.

[1]- أحمد بن حجر العسقلاني، الدّرر الكامنة في أعيان المائة الثّامنة، د ط. بيروت: 1993م، دار الجيل، ج1 ص461- 462.

ولا شكَّ أنَّ الحديثَ عن طبيعة الدَّرس النَّحويِّ في المغرب أثار تساؤلات كثيرة، ولقلّة الكتب الّتي أرَّخت للنّحو المغاربيِّ ولأصحابه لم يكن من السَّهل الاعتراف به كمذهبٍ مستقلٍّ له آراؤه واجتهاداته، ولا سيما إذا علمنا أنّ أكثر نُحاة المغرب يعدّونهم من المذاهب الأخرى بسبب تنقّلهم إلى مواطنها، إذْ "من الصّعوبة أنْ نقرَّ بأنَّ هناك مدرسة محضة ونشفي غليل القارئ المتخصِّص عن هذه المدرسة، ولكن ما يُمكن أنْ أصل إليه أنَّ هناك نُحاة مغاربة بِحُكْمِ المولد والترحال"[1]، فظاهرٌ من هذا القول أنَّه حتَّى وإنْ بَرَزَ نُحاة مغاربة فذلك يكون في بلاد أخرى غير المغرب، علاوة على ذلك أنَّ ثمّة من يعتبر جهود المغاربة في هذا الحقل ما هي إلاَّ إعادة عرضٍ للإنتاج المشرقيِّ والأندلسيِّ أيضًا بصيغة أخرى، ومهمّتي في هذه الدِّراسة هي التحقّق من كلِّ هذه الآراء حتَّى يتّضح مسار الحركة النَّحويَّة وطبيعتها في المغرب.

والمهمّ في الأمر أنَّ لعلماء المغرب اهتمامات بالنّحو سواء أكان ذلك في موطنهم أم كان في غير موطنهم منذ بدأت علاقتُهم بهذا العلم، فحتَّى وإن اختلف الباحثون في انتماءاتهم النَّحويَّةِ وقلَّ ذكرُهم على أنّهم اشتغلوا بالنَّحوِ في المغرب فازدهر في بلادهم، إلاَّ أنَّها اتّفقت في معظمها على فكرة مهمّة وهي أنَّ هذا العلم دخل بلاد المغرب في مراحله المتأخِّرة مُقارنة بالبلاد الأخرى لانشغال المغاربة بالعلوم الدِّينيَّة الّتي نالت من اهتمامهم الشَّيءَ الكثير لِعلاقتها بالكتاب والسنّة. وعلى هذا عرفوا النَّحوَ في القرن الثّاني عن طريق الأندلسيِّ جودي بن عثمان النَّحويِّ المورور ي (ت198هـ) نسبة إلى قرية مورور[2]، وقيلَ إنَّه نَشَأَ قرب القيروان، ارتحل إلى المشرق كسابقيه فَحَلَّ بالعراق حيث التقى بِالكسائي وتلميذه الفرّاء من زعماء الكوفيَّة، رَوَى عن الكسائي كتابَه الذي أخذه معه أثناء عودته إلى موطنه غير أنَّه توجَّه إلى الأندلس، وهو بِذلك يكون أوّل من أدخل كتاب الكسائيّ إلى بلاد الأندلس، ولجودي عثمان مُصنَّفٌ نحويٌّ بِعنوان (منبه الحجارة)[3] كان نتيجة لِمَا أخذه عن المذكورين، وفي هذه الفترة أيضًا يكون أهل المغرب قد اطّلعوا على النّحو بفضله. ولكن إذا عرف أهل بغداد ومصر النّحو البصريّ في البداية، فما حدث للمغاربة والأندلسيِّين هو العكس، فقد عرفوا أوّلاً نحوَ المدرسة الكوفيّة قبل أنْ يعرفوا نحوَ

---

[1]– صالح بلعيد، في أصول النّحو، د ط. الجزائر: 2005م، ص46.

[2]– محمّد بن تاويت، "النّحو الأندلسيّ وابن هشام المصريّ" مجلّة المناهل. الرّباط: 1984م، وزارة الشّؤون الثّقافيّة ع31، ص211.

[3]– رجب عبد الجواد إبراهيم، معجم علماء اللّغة والنّحو في الأندلس من الفتح إلى سقوط الخلافة، ط1. القاهرة: 2004م، دار الآفاق العربيّة، ص117.

البصريِّين حيث اشتغل علماء المغرب والأندلس بِنحوِ الكوفيِّين فترة زمنيَّة دون أنْ يتنبّهوا لنحو غيرهم وعملوا على نشره بفضل نحويِّهم الأوّل جودي بن عثمان، وأبي الحسن مُفَرّج بن مالك النّحويِّ الّذي قام بشرح كتاب الكسائي في النّحو[1]. وفي جميع الأحوال، فقد عرف أهل المغرب النّحوَ في الوقت الّذي عرفه الأندلسيّون، كما اطّلعوا على النَّحو الكوفيِّ أوّلاً ثمّ البصري.

وإذا اهتمّ المغاربةُ بالعلوم الإسلاميَّة لسببٍ دينيٍّ صرف غايته فهم القرآن وبيان معانيه وتوضيحها، فالأمر كذلك بالنِّسبة لعلوم العربيّة الّتي أولوها اهتمامًا خاصًّا باعتبارها الأداة الّتي يُنطق بها هذا القرآن وتُؤَدَّى بها الشَّعائر الدِّينيَّة. ولكن الإشكاليّة الّتي أدركها المغاربةُ هي أنَّ نطقَهم للعربيّة لم يكن سليمًا يرقى إلى مستوى لغة القرآن وقول الرّسول ﷺ، ممّا تَوَجَّبَ عليهم الأخذ بالنّحو الّذي سَبَقَ أنْ أرسى قواعده أهل البصرة والكوفة.

ولكن لم تكن ظاهرة اللّحن الّتي تفشَّت بين أهل المغرب السّبب الوحيد والأوحد في جعل المغاربة يرغبون في دراسة النّحو وفهمه ثمّ البحث والتّصنيف فيه، وإنّما أرادوه لغايات أخرى وهي أنَّهم كانوا في حاجة إليه بهدف البحث في العلوم الدِّينيّة الّتي ترتبط ارتباطًا وثيقًا بالنّحو واللّغة أيضًا، وقد نتج عن هذا أنَّ أكثر النُّحاة تفوّقوا في علوم كثيرة غير النّحو، فهناك نُحاة برزوا في التَّفسير وبعضهم في الحديث وبعضهم الآخر في الفقه وغيره؛ لأنَّ النّحويَّ كان "يعتمد في دراسته النَّحويَّة النّصوص اللّغويّة وأهمّها القرآن الكريم والحديث النبويّ الشّريف وغيرهما ومن هذا التّداخل في عمل كلّ من النُّحاة والمشتغلين بالعلوم الإسلاميَّة نتجَ التأثّر والتّأثير بين النّحو وتلك العلوم في طرق التّفكير، ومناهج البحث، ومناهج التّأليف والمصطلحات والأساليب المُتّبعة في مناقشة تلك العلوم"[2]. وإنْ كان الأمر كذلك، فابن آجُرُّوم واحدٌ من هذا الجمّ الغفير من العلماء، حيث أَلَمَّ بالعلوم الدِّينيَّة، ولا سيما القراءات الّذي صَنَّفَ فيه كتابًا مفيدًا ذاعت شهرته بين غيره من الكُتب ليس في المغرب فقط، بل في المشرق أيضًا.

3-3- أوائل النُّحاة في المغرب: لا شكَّ أنَّ هناك من المصادر الّتي تعرَّضَتْ لأوائل النّحاة في المغرب، وأشهرها كتاب (طبقات النّحويِّين واللّغويِّين) للزُّبيدي الّذي كان أوّل من أَرَّخَ لعلماء المغرب والأندلس حتَّى أواخر القرن الرّابع الهجريّ، مع أنَّ هذا الكتاب لم يكن مختصًّا بِترجمة هؤلاء وحسب، إنّما لِعلماء المشرق أيضًا بدءًا بالدّؤلي وانتهاءً بالأندلسيِّ محمّد الرّباحي الجياني (ت358هـ) شيخ الزّبيدي، فقد استهل حديثه عن نُحاة البصرة الّذين أوردهم في عشر

[1]- الزبيدي، طبقات النّحويِّين واللّغويِّين، ص273.

[2]- كريم حسين الخالدي، أصالة النّحو العربيِّ، ط1. عمّان: 2005م، دار صفاء للنَّشر والتَّوزيع، ص69- 70.

طبقات، ثمّ عن نُحاة الكوفة الّذين ذكرهم في ستٍّ طبقات، وواصل الحديثَ عن لغويّ البصرة حيث جعلهم في سبع طبقات، ويليهم لغويو الكوفة في خمس طبقات. لِينتقلَ بعدها إلى النُّحاة واللّغويِّين المصريِّين الّذين ذكرهم في ثلاث طبقات ثمّ إلى علماء النّحو واللّغة بالمغرب الّذين قدّمهم في أربع طبقات، ولِيُنهِيَ حديثَه عن نُحاة الأندلس ولغوييها الّذين ذَكَرَهُم في ستّ طبقات وكان عددهم يفوق المائة. وكتاب (بغية الوُعاة) للسيوطي الّذي أَرَّخَ فيه لِكثير من علماء المغرب والقيروان خاصّة ممّن اشتغلوا بالنّحو إلى حدٍّ ما، مع أنَّ النّشاطَ فيه قليلٌ في بدايته.

وإذا استطاع الزّبيدي أنْ يتحدَّثَ عن علماء المغرب في النَّحو قبل الأندلسيِّين، فقد يدلُّ ذلك على أسبقيّة المغاربة في تلقي النَّحو عن المشارقة، أيْ قبل أنْ يعرفَه أهل الأندلس ويشتغلون به. وذَكَرَ الزّبيدي نُحاة المغرب في أربع طبقات[1] على النّحو الآتي:

نُحاة الطّبقة الأولى:

أبو مالك الطّرماح- عياض بن عوانة

↓

نُحاة الطّبقة الثّانية:

إبراهيم بن قَطَن المهري- أبو الوليد عبد الملك بن قَطَن المهري- محمّد بن صدقة- أبو سعيد بن غورك - أحمد بن أبي الأسود النّحويّ - حسّان الجاحظ

↓

نُحاة الطّبقة الثّالثة:

حمدون النّحويّ- أبو محمّد المكفوف- المدني- خلف الأطرابُلسي- الطّرزي- علي بن الحضرمي- محمّد المعروف بالعقعق- ابن الحداد وغيرهم.

↓

نُحاة الطّبقة الرّابعة:

أبو السميدع- القياس الجهني- ابن أبي عاصم اللّؤلئي - زنجي بن مثنى- الخياري- الدّاروني- ابن الوزّان النّحوي- عامر بن إبراهيم الفزّاري- قاسم بن حبيب وغيرهم.

الشّكل رقم (05)

---

[1]- الزبيدي، طبقات النّحويِّين واللّغويِّين، ص225- 250.

وبالنِّسبة للطَّبقة الأولى مثَّلها نحويان، أوّلهما أبو مالك الطّرماح الّذي اشتغَلَ باللّغة والنَّحو ونَظْمِ الشِّعر وحفظِه، والثَّاني هو عيّاض بن عوانة الّذي أدركَ بِدوره النَّحوَ، وأجادَ في الشِّعر وعنه أخذَ المهري.

وأمّا من أعلام الطّبقة الثّانية فنجد إبراهيم بن قَطَن المهري الّذي سَبق ذِكرُهُ بين اللّغويِّين الّذين كانت لهم مشاركةٌ حسنةٌ في التّأليف المعجميِّ، فهو إلى جانب اشتغاله بِاللّغة اعتنى بالنَّحو، وكان يُعاصرُه أخوه أبو الوليد بن قَطَن المهري الّذي اشتهَرَ بتفوّقه الكبير في النَّحو حتَّى عُدَّ من مؤسِّسِي الدَّرس النَّحويِّ في بلاد المغرب عامّة، فقد كان "شيخ أهل اللّغة والنَّحو والرِّواية، ورئيسهم وعميدهم، والمقدّم في عهده وزمانه عليهم"[1]، وقد قصده الطّلبةُ لدراسة النَّحو وفهمه. وكان يُمثِّلُ هذه الطّبقة أيضًا أبو سعيد بن غورك الّذي أَدْرَكَ حدودَ النَّحو ولذلك جعله الزُّبيدي من أوائل النّحاة في القيروان، ويليه أحمد بن أبي الأسود الّذي تقدّم في النّحو واللّغة حتَّى بَلَغَ التميّزَ فيهما، وله في النّحو واللّفظ الغريب مؤلّفات حسنة اشتهر بها.

ومثلهم أحمد بن أبي الأسود المُلقّب بأبي العبّاس من نُحاة القرن الثّالث بالقيروان أورده الزُّبيدي في الطّبقة الثّانية، كان كثير الاشتغالِ باللّغة والنّحو الّذي صَار غايةً فيه، صَاحَبَ أبا الوليد المهري الّذي لزمه وتخرّج عليه، كما كان يُحلِّقُ للطّلبة بأحد مساجد القيروان قرب منزله في اللّغة والنّحو، وله تآليف حسنة في النَّحو والغريب كما وصفها مترجموه ولكن دون معرفة أسمائها[2]؛ لأنّ معظمَها مفقود حتَّى اليوم.

هذا ويعدُّ أبو عبد الله حمدون بن إسماعيل الملقّب بالنَّعجة من نُحاة الطّبقة الثَّالثة الّذين قعّدوا الدَّرس النَّحويّ في القيروان أيضًا، وهو إمامٌ في النَّحو والغريبِ حتَّى بَلَغَ الغايةَ فيهما الّتي لم يبلغها سابقوه كالمهري، وقيل إنَّ النّعجة من الأوائل الّذين حفظوا كتاب سيبويه في بلاد المغرب، أَلَّفَ في النّحو كتابًا مهمًّا جعله يحظى بِشهرةٍ واسعةٍ في السَّاحة العلميَّة عامّة والنَّحويَّة خاصّة. وكان يُعاصره أبو محمّد المكفوف المتقدِّم ذكره بين اللّغويِّين، كان من شيوخ العربيّة والنّحو الأجلاء الّذين يُعتدُّ بهم. وبَرَزَ في الفترة ذاتها، ابن الحدّاد الّذي لا يقلّ شأنًا عن المكفوف، فقد كان بارعًا في اللّغة وأستاذًا في غير ما فن، له كتب كثيرة، منها (توضيح المُشكل في القرآن) و(المقالات)[3] وغيرهما من الكتب كما أشار البعض من مترجميه.

[1]- الزبيدي، طبقات النّحويِّين واللّغويِّين، ص229.

[2]- المرجع نفسه، ص233.

[3]- السيوطي، بغية الوعاة، مج1، ص56. والزّبيدي، طبقات النّحويّين واللّغويّين، ص236 و239.

ويبرُزُ مغربيٌّ آخر عُدَّ هو كذلك من أوائل النُّحاة في المغرب، يُدعى خلف بن مختار الأطرابُلسي (ت290هـ) الّذي مَهرَ في النَّحو واللّغة كثيرًا، ولكن قيل إنَّه تميَّز بالبُخل[1]. وهناك آخرون ممّن ذكرهم الزّبيدي من النّحاة في الطّبقة الثّالثة والرّابعة كعلي بن الحضرميّ وأبي السميدع وقاسم بن حبيب، وسأتحدّث عن أشهرهم في موضعه.

والمُلاحظُ ممَّا تقدَّم، أنَّ عَدَدَ النُّحاة يزداد في كلِّ طبقة، فإذا مثَّل الطّبقة الأولى نحويان اثنان فقط، فإنَّ الطّبقة الثّانية مثَّلَها عدد أكبر من النُّحاة حيث أصبحوا ستَّة ثمّ تليها الطّبقة الثّالثة الّتي توسَّع نطاقها وهكذا. ويبدو كذلك أنَّ أكثر النّحاة الّذين ذكرهم الزبيدي كانوا من مدينة القيروان الّتي كانت لها الرِّيادة في الدِّراسات اللّغويّة والنَّحويَّة على وجه أخصّ قبل أنْ تشملَ جميع المغرب، واستمرّ الأمر على ذلك الوضع حتَّى مع ما كانت تشهده هذه المدينة من أوضاع سياسيَّة غير مريحة، إذْ "لا تزال تُواصل تأثيرها وحتَّى ريادتها في العربيَّة عن طريق شيوخها على الرّغم من النّكسات الّتي حلَّت بها عند دخول عرب الصّعيد؛ لأنّ معظمهم توزّعوا بين مدن أخرى إفريقيّة ومغاربيّة"[2]، فامتلاء هذه المدينة بِكبار العلماء جعلها تنالُ مكانةً مهمّة بين غيرها من الحواضر. واستطاع بِفضلهم نُحاة المغرب في فترة الدِّراسة مواصلةَ البحث فكان بينهم ممّن بلغ من الصِّيت شأوًا بعيدًا، وبالتّالي لم يَعُد النّحو ولا التّأليف فيه مقتصرًا على المشارقة. والملاحظ أيضًا أنَّ عددَ النّحاة يزداد من طبقة إلى أخرى فإذا مَثَّلَ الطّبقة الأولى نحويّان فقط، فإنَّ الطّبقة الرّابعة ضَمَّت أكثر من عشرة نُحاة، كما أخذ النّحاة بعضهم عن بعض، فهذا أبو الوليد لزم أحمد بن أبي الأسود وأخذ عنه النَّحوَ، ودرس على الأوّل جماعة.

3-4- تطوّر الدِّراسات النَّحويّة في المغرب: بعد أنْ عَرفَ المغاربةُ إلى جانب الأندلسيِّين النَّحوَ الكوفيَّ كما سبق الذِّكر، أُتيحت لهم فرصة التعرُّف على النَّحو البصريِّ الذي عرفوه بالطَّريقة ذاتها الّتي عرفوا بها النَّحوَ الكوفيّ أيْ عبر الكتب الّتي يأخذها الطّلبة والعلماء أثناء رحلاتهم. ومن المرجَّح أنَّ معرفةَ المغاربة للنَّحو البصريِّ تزامنت مع الفترة الّتي تعرّف فيها الأندلسيّون على النّحو الّذي كان في أواخر القرن الثّالث الهجريِّ بِخلاف الكوفيِّ الّذي بلغهم في القرن الثّاني "ويبدو أنَّ الأندلس تأخَّرت في عنايتها بالنَّحو البصريِّ، وأنّها صبّت عنايتَها أوّلاً على النَّحوِ الكوفيِّ حتَّى إذا أصبحْنا في أواخر القرن الثّالث الهجريِّ وجدنا الأُفُشْنيق محمّد بن موسى بن هاشم المتوفّى سنة 307هـ يرحل إلى المشرق، ويلقى بمصر أبا جعفر الدينوري

[1]- الزبيدي، طبقات النّحويِّين واللّغويِّين، ص237.

[2]- إبراهيم حركات، مدخل إلى تاريخ العلوم بالمغرب المسلم حتّى القرن 9هـ/ 15م، ج1، ص156.

ويأخذ عنه كتاب سيبويه روايةً ويقرأه بقرطبة لِطلابه"[1]، من مؤلّفاته (طبقات الكتاب وشواهد الحكم). وانشغل بكتاب سيبويه بعد الأفُشْنيق الكثيرُ، فهناك من النُّحاة الّذين قاموا بشرحه والتّعليق عليه أمثال الرَّباحي (ت353هـ) الّذي أخذه روايةً عن أبي جعفر النّحاس حين التقى به أثناء مكوثه بالمشرق، وبعد عودته إلى الأندلس تفرّغ لقراءته على الطّلبة بقرطبة وشرحه وتفسيره لهم[2]. وعلى هذا يجدر بي القول إنَّ المغاربة والأندلسيِّين لم يعرفوا النّحوَ البصريَّ إلاَّ مع الرَّباحي الّذي رَمَى بمنهجه الجديد بِهدف مخالفة النُّحاة المشارقة إلى "تَدَبُّرِ أصول هذا العلم وعَرْضِ الآراء فيها على محكّ النّقد المتحرّر والحرص على حسن الاختيار"[3]، ومنهم أيضًا الطّلبة الّذين أقبلوا على الكتاب دراسةً وحفظًا، ومن وقتها بدأ النّحو البصريّ ينتشر في بلاد المغرب مع انتشار الكوفيِّ، وأصبح له أتباع من أهل المغرب عامّة يشتغلون بآراء أصحابه.

واطّلعَ المغاربة في القرن الرّابع الهجريِّ على النّحو المصريِّ، وكان ذلك عن طريق العلماء المشارقة الّذين رحلوا إلى الأندلس، حيث حملوا معهم كتاب سيبويه، وغيره من كتب النّحو واللّغة في هذه الفترة، وكذلك على نَحْوِ البغداديِّين وفي مقدّمتهم الفارسيّ، فقد عكف المغاربةُ على دراسة آرائهم من خلال مؤلَّفاتهم الّتي درسوها في موطنها أو حُمِلَت إلى بلادهم فاطّلعوا عليها كما حدث الأمر مع كتاب سيبويه. وتِلكُمُ إذًا الخطوة الأولى الّتي مهّدت الطّريقَ للمغاربة فأسّسوا لنحوٍ مغربيٍّ ممزوج بالنَّحو الأندلسيِّ عُرِفَ باسم النَّحو المغربيِّ الأندلسيِّ انفرد بِبعض الآراء والاجتهادات الّتي جعلت أبرز المنتمين يتميَّزون عن غيرهم من النُّحاة ويكون لهم أتباعٌ ومريدون ومعارضون لآرائهم في الوقت نفسه. ومن علماء المشرق القادمين إلى المغرب وبالضّبط إلى المغرب الأدنى في الفترة الّتي بدأ فيها النّحوُ يبرُز، أبو علي الحسن البصريّ (ت178هـ)، ولكن لمْ يصلْنا شيء ممَّا يخصّه من الآثار اللّغويَّة والنّحويّة سِوى اسمه، فكلّ ما قيل إنَّه كان من النُّحاة النّابهين، ومن كبار المترسِّلين[4]. ومنهم كذلك أبو القالي الّذي أدّت رحلتُه إلى الأندلس دورًا بالغ الأهميّة في تطوّر الدِّراسات اللّغويَّة والنَّحويَّة بهذا القطر، حيث استطاع أنْ يُؤثِّرَ بعلمه الوفير في كثير من الطّلبة والعلماء.

---

[1]- شوقي ضيف، المدارس النّحويّة، ص289.

[2]- المرجع نفسه، ص290.

[3]- محمّد المختار ولد أباه، تاريخ النّحو العربيِّ في المشرق والمغرب، ط2. بيروت: 2008م، دار الكتب العلميّة ص224.

[4]- حسن حسني عبد الوهاب، ورقات عن الحضارة العربيّة بإفريقية التّونسيّة، د ط. تونس: 1972م، منشورات مكتبة المنار، القسم1، ص162.

وهكذا في الوقت الّذي بلغ فيه النّحوُ العربيُّ مرحلةَ النُّضج في كلّ من البصرة والكوفة ومصر والأندلس وغيرها، تبدأ رحلةُ المغاربة مع هذا العلم الجديد، فقد "دخل النّحاة المغاربة هذا الحقل متأخِّرين. ويبدو من المراجع المُتاحة أنّها ظهرت في القرن الخامس، وهي الفترة الّتي كان فيها النّحوُ العربيُّ في المشرق والأندلس قد تَقَوَّت مناهجُه وتحدّدت اتجاهاتُه"[1]. ولكن نظرًا لِمَا شهدته بلاد الأندلس من حروب واضطرابات اتّخذ علماؤها ومنهم النُّحاة المغرب وجهةً لهم قاصدين مراكزه الثّقافيَّة وبالأخصّ أشهرها مثل سبتة ومراكش بالمغرب الأقصى، وكذلك فاس الّتي حظِيت بِجامع القروِيِّين الّذي كان من أهمّ مراكز العلوم الإسلاميّة العربيَّة عامّة، ثمّ بجاية وتلمسان بالمغرب الأوسط، وهناك القيروان والمهديّة بالمغرب الأدنى، وتوجد إلى جانبها طرابلس الغرب، فبوجودهم في مثل هذه الأماكن ازدهرت مُختلف العلوم والمعارف بِما فيها النّحو الّذي بدأ يعرفُ بِدوره الازدهارَ نتيجةً لقدوم الأندلسيِّين إلى المغرب الّذين انتصبوا للتّدريس معتمدين كتب النَّحو الّتي وردت عليهم من المشرق دراسةً وشرحًا وتعليقًا واختصارًا وتدريسًا أيضًا. كما اعتمدوا إلى جانبها مؤلّفاتهم مع مؤلّفات غيرهم من نُحاة الأندلس والمغرب. وعليه يُمكن القول إنَّه لو لا نُحاة الأندلس حين نَشَطَ المغاربة في النَّحو أو بَرَزَ بينهم فطاحل النَّحويِّين الّذين ازدانت بهم حواضر المغرب.

ولا أدلُّ على أنَّه لا وجود لنُحاة مغاربة قبل أنْ يتمّ الاحتكاك بالأندلسيِّين؛ لأنَّ هناك أسماء في النّحو كانت سابقة لغيرها من علماء الأندلس، ودليل ذلك أنَّ الزبيدي في حديثه عن طبقات النَّحويِّين تناول أوّلاً القيروانيِّين الّذين كان لهم السّبق في معرفة هذا العلم ثمّ الأندلسيِّين الّذين أسَّسُوا كذلك للنَّحوِ في بلادهم. فكلُّ ما في الأمر، أنَّ أبناء الأندلس والمغرب اجتمعوا في التَّأسيس للدَّرسِ النّحويِّ في هذا القطر عامّة، ولكن ما حدث أنَّ المغاربة في البداية "اكتفوا في تدريسهم للنَّحو، بإعادة تقديم المادّة النّحويّة التّقليديّة، فلم نجدْ لهم آراء نحويّة تُميِّزُهم كما لم نجدهم يعنون بوضع كتب أو شروح في النّحو، ويبدو أنّهم كانوا مدرّسين وقرّاء تولّوا شؤون الخطبة والقضاء. وهذا هو السَّبب في أنَّهم بقوا أسماء منسيَّة لا تذكرها إلاَّ كُتُب التّراجم والفهارس"[2]، حتَّى وإنْ كانت هناك جهود من صُنعِ المغاربة إلاَّ أنَّ ذلك لم يتعدَّ حدود تدريس النَّحو، وإعادة عَرضِهِم للإنتاج المشرقيِّ وشَرْحِه. وصحيح أنَّ اهتمامَ المغاربة منصبٌ على

[1]- أحمد بلشهاب، "تطوّر الدّراسات النّحويّة في المغرب حتّى القرن الثّامن الهجري" مقال في زهرة الآس في فضائل العبّاس. الرّباط: 1977م، دار المناهل، ج2، ص469.

[2]- المرجع نفسه، ص470.

تدريس هذا العلم، إلاَّ أنَّ لذلك أيضًا أثرًا كبيرًا في ازدهاره، إذْ لعلّ "من الأسباب الّتي أدَّت إلى تَطَوُّرِ المدرسة المغربيَّة جلوس العلماء للإفتاء في مختلف العلوم، وكان نصيبُ النَّحوِ مُعتبرًا"[1] ويعني أنَّ لازدهار الدَّرس النّحويِّ في المغرب صلةً بحلقات الدَّروس الّتي كان يُنظِّمها الشُّيوخ في المساجد والزوايا وغيرها.

وبغضّ النّظر عن الأسباب الّتي اجتمعت في وضع اللّبنات الأولى للدّرس النّحويِّ في بلاد المغرب، فلابدَّ أنْ نعرف أنَّ الأمر لم يبقَ على حالِهِ حين اكتفى النّحاةُ الأساتذة والعلماء بتعليمه وشرحه للطّلبة، فقد عرف بدوره تطوّرًا بارزًا، وكان ذلك منذ منتصف القرن الخامس ومطلع القرن السَّادس الهجريَّيْن، أيْ مع نهاية العهد الفاطميِّ الّذي يَشهدُ بدايةَ نشاط الدِّراسات النَّحويَّة، ممّا مهّد بشكلٍ عامٍّ لِكلّ ما أُنْتِجَ بعُموم المغارب في هذا الحقل، ثمّ يليه عهد بني زيري بالمغرب الأدنى الّذي عرفت فيه هذه الدِّراسات حركةً مهمّةً كغيرها من الدّراسات الّتي ازدهرت في هذه الفترة، مع أنَّ هذا العصر لم يتميّز كثيرًا عن الّذي سبقه؛ لأنَّ أغلب المُشتغلين بالنَّحو كانوا من مُعاصري الدَّولتين الفاطميَّة والزيريَّة مع بعض الاختلاف بطبيعة الحال من حيث تزايد عدد العلماء الّذين برزوا في عهد بني زيري، فضلاً عن تميّز مؤلّفاتهم بنوعٍ من التعمُّق وارتباط أكثرها بالعلوم القرآنيّة[2]، وأقول بخصوص هذا إنَّ الكتب الّتي ألّفوها في علم القراءات يُمكن عدُّها ضمن كتب اللّغة والنَّحو أيضًا؛ لأنَّ كلّ القضايا الّتي تناولوها فيها جعلتهم يتعرَّضون لِمختلف الجوانب اللّغويَّة والنَّحويَّة.

وممّن اشتهر من النّحاة المغاربة فترة الفاطميّة، ابن أبي عاصم اللّؤلئي المذكور بين علماء الطّبقة الرّابعة، اشتهر بعلمه الغزير في النّحو واللّفظ الغريب.

ويليه أبو علي الحسن بن علي السّنجيّ المكفوف (ت342هـ) الّذي تلقّى علوم العربيَّة عن المكفوف المتكرِّر ذكره، ترك ابن علي المكفوف مؤلّفات حسنة في النّحو، وانتفع بِعلمه خلقٌ كثير، منها كتاب (أقيسة الأفعال) الّذي قام بجمعه بعض طلبته[3]، تناول فيه مختلف الأوزان الّتي تردُ عليها الأفعال في اللّغة العربيّة.

---

[1]- عبد العزيز بن هنية، المدرسة المغربيّة في النّحو العربي – متن الآجروميّة عيّنة–، بحث الماجستير. الجزائر: 2009م، جامعة قاصدي مرباح ورقلة، كلية الآداب والعلوم الإنسانيّة، قسم اللّغة العربيّة وآدابها، ص47.

[2]- يوسف بن أحمد حواله، الحياة العلميّة في إفريقية (المغرب الأدنى) منذ إتمام الفتح وحتّى منتصف القرن الخامس الهجري (90/450هـ)، ج2، ص324.

[3]- المالكي، رياض النّفوس، ج2، ص406. وحسن حسني عبد الوهاب، ورقات عن الحضارة العربيّة بإفريقية التّونسيّة القسم1، ص172.

وكان من أعظم النّحاة المغاربة في هذه الفترة أيضًا، أبو القاسم إبراهيم بن عثمان المعروف بابن الوزّان النَّحويِّ (ت346هـ) شيخ النُّحاة بالمغرب عامّة والقيروان خاصّة، نال مكانةً عاليةً بين اللّغويِّين والنّحاة، سمِع من بعض شيوخ بلده، قال الزبيدي إنَّه "انتهى من علم النّحو في حداثته إلى أنْ كان أبو محمّد عبد الله بن محمّد الأمويّ المكفوف، إذْ وردت عليه مسائل في النَّحو سأله الإجابة عنها، وأقرّ له بالتقدُّمِ في ذلك وانتهى من اللّغة العربيّة إلى ما لعلّه لم يبلغه أحدٌ قبله، وأمّا في زمانه فما يُشَكُّ فيه، يحفظ كتاب الخليل بن أحمد في (العين) وكتاب أبي عبيدة في (المصنَّف)، وكتاب ابن السكيت وغيرها من كتب اللّغة، وحفظ قبل ذلك كتاب سيبويه، ثمّ كتب الفرّاء، وكان يميل إلى قول أهل البصرة، مع علمه بِقول الكوفيِّين وكان يُفضِّلُ المازني في النّحو وابن السكيت في اللّغة"[1]. يُفهم من هذا أنَّ ابن الوزّان كان يعمل بآراء البصريِّين مع معرفته الجيّدة بآراء الكوفيّين، ولكن بالرّغم ممّا بلغه من شهرةٍ عريضةٍ في الميدان إلاَّ أنَّه لم يشتهر في التَّصنيف، وربّما اكتفى بالتّدريس والرّواية. ومهما يكنْ من أمر، فإنّ ابن الوزّان أسهم في إثراء النَّحو ببلاد المغرب حتَّى وإنْ لم تكن له مشاركة في التّأليف، فلم يُعرف عنه سِوى الجلوس لتلقين الطّلبة مختلف المسائل اللّغويّة والنَّحويَّة، وللمُناظرة فيها مع كِبار علماء عصره. ومن نُحاة هذه الفترة أيضًا محمّد بن سالم الأطرابلسي المعروف بالعقعق (ت351هـ)[2] الّذي بَرَع في النّحو، مع فهمه العميقِ لِكثير من المسائل اللّغويّة، ونَظْمِ الشِّعر.

وتميَّزَ بين نُحاة عصر بني زيري بالمغرب الأدنى، الأديب واللّغويّ البارع القزاز القيروانيّ الّذي اشتغل بأكثر من علم، ولكن غَلَبَ عليهم الاشتغالُ بالنّحو الّذي أخذه عن علماء موطنه القيروان كابن الوزّان النَّحويِّ وأمثاله، كانت له رحلةٌ إلى المشرق فحلّ بالعراق مدّة ممّا جعله يتلقّى اللّغة والنّحو عن شيوخها الأجلاّء، كما اختلف إلى كثير من اللّغويِّين والنُّحاة الّذين عاصرهم. وإذا تَرك القزّاز مؤلّفات حِسَان في اللّغة والأدب، فقد ألّف في النَّحو أيضًا، وأعظمها كتاب (الحروف) الّذي مَرَّ ذكرُه بين المُتون المعجميَّة، شرحَ فيه الحروف الّتي جاءت بمعنى وكتاب آخر سمّاه (إعراب الدريديّة وشرحها)، وهو شَرحٌ لِمقصورة ابن دريد وإعرابها، وكتُب أخرى مثل (المعترض)، (المفترق) وكتاب (ما يجوز للشّاعر في الضَّرورة)[3] أو الضّرائر كما يذكره بعضهم.

---

[1]- الزَّبيدي، طبقات النّحويّين واللّغويّين، ص247.

[2]- المرجع نفسه، ص239.

[3]- محمّد محمّد زيتون، القيروان ودورها في الحضارة الإسلاميّة، ص331

ويبرُزُ بعده نحويٌّ آخر بَلَغَ من العلم مبلغًا عظيمًا في عصر بني زيري وهو مكيّ بن أبي طالب القيسي الّذي كان من أئمة النَّحو في زمانه، ومن الكُتب النّحويَّة الّتي ألَّفها (الزّاهي في اللّمع الدّالة على أصول مستعمل الإعراب) وهو في أربعة أجزاء، وكتاب (دخول حروف الجرّ بعضها مكان بعض)، وآخر باسم (أصول الظاء في نحو وقراءات القرآن والكلام وذكر مواضعها في القرآن)، (دخول حروف الجرّ بعضها مكان بعض). كما له كتابٌ خصَّه لأصول ابن السرّاج (ت316هـ) بِعنوان (الوصول إلى تذكرة الأصول لابن السرّاج في النّحو)، وكتاب (التّذكرة لأصول العربيّة ومعرفة العوامل)[1]، بالإضافة إلى شرحه بعض الآيات القرآنيّة.

وعبد الله بن مسلم بن عبد الله القيرواني (ت488هـ) من أهل المغرب الأدنى[2]، عارفٌ باللّغة والنَّحو، سار إلى المشرق للتّحصيل العلميِّ فحلّ ببغداد قاصدًا دار الكتب بالنّظاميّة دَرَسَ النَّحو على كِبار الشّيوخ حتَّى بَرَع فيه وأجاد، وبعد أنْ استكمل دراسته قَفَل إلى بلاد المغرب فتصدّى بها لإقراء العربيّة والنّحو، أخذ النّاس عنه وأفادوا منه كثيرًا.

ومن كبار اللّغويِّين والنّحويِّين في المغرب الأدنى أيضًا، عبد الرّزاق بن علي القيروانيّ الّذي تتلمذ على شيوخ بلده، مَالَ إلى علوم اللّغةِ والنَّحوِ فاستطاع أنْ يحصل منها على قسطٍ كبيرٍ، مع معرفة جيِّدة بالشِّعر بدليل أنَّ ابن رشيق ذكره في كتابه (أنموذج الزّمان في شعراء القيروان) وكان يُشير إليه باسم (النّحويّ)[3]، فهذا يعني أنَّه اشتغل بالنَّحوِ وبرع ومهَرَ إلى جانب نَظْمِ الشّعر.

كما تميَّزَ الدَّرسُ النَّحويُّ بالمغرب الأدنى وازدهر حتَّى في عهد بني حفص الّذي زَخَرَ بِعدد مهمّ من النّحاة، وقد صَاحَبَ ذلك كثرة الكتب الّتي راجت رواجًا لا مثيل له، وهذا بغضّ النّظر عن الضّائع منها وسط تلك الحوادث الّتي مُنِيَ بها هذا القطر آنذاك. فقد نَشَطَ هذا الحقل وبالأخصّ مع وجود علماء اللّغة والنّحو الّذين تنقّلوا إلى المغرب الأدنى من الأندلس والمشرق وحتّى من بلاد المغرب، حيث جلس معظمهم للتّدريس في مختلف المؤسّسات التّعليميّة والجوامع وفي طليعتها جامع الزيتونة. وممَّن تميّز بالنّشاط في النّحو من أبناء المغرب الأدنى في هذه الفترة، محمّد بن عبد الجبّار بن محمّد الرُّعيني التّونسي من نُحاة المغرب الأدنى، انتفع

[1]- القفطي، إنباه الرّواة على أنباه النُّحاة، ج3، ص315- 317.

[2]- السيوطي، بغية الوعاة، مج2، ص64.

[3]- المرجع السّابق، ج2، ص174.

بِعلمه جماعة[1] كما أفاد من نَحْوِهِ الكثير، منهم أبو حيّان الأندلسيّ في (ارتشاف الضّرب من لسان العرب)، والسيوطي في (همع الهوامع في شرح جمع الجوامع)، ولي حديثٌ عن ذلك في موضعه. وعبد العزيز بن إبراهيم بن أحمد التّميميّ القرشيّ التّونسي المعروف بابن بزيزة (ت673هـ) نحويٌّ بارعٌ، مع معرفة واسعة بالفقه والحديث والشِّعر والأدب، وله في التّأليف شروح حسنة[2]، مثل (شرح المفصّل للزمخشري)، و(غاية الأمل في شرح الجمل للزّجّاجي) مع العلم أنَّه لم يذكر جميع مترجميه هذا الكتاب، ولكن نسبته إليه مؤكَّدة بدليل ذِكْر اسم ابن بزيزة في مقدّمته، مع ذِكْرِ بعض شيوخه ومؤلّفاته، ولم يتفوّق هذا الأخير في النّحو فحسب، وإنَّما له قدمٌ راسخةٌ في الفقه وأصوله والحديث والتّفسير أيضًا، ويبدو ذلك بِوضوح في شرحه للجُمل الّذي لم يكن نحوًا خالِصًا، بل شمله الكثير من معارفه المتنوّعة في العلوم الإسلاميَّة[3]، وقد انتفع بِعلمه الغزير أهل عصره كثيرًا.

ويليهما اللّغويُّ القفصي ابن راشد الّذي عُرِف بمقدرته الكبيرة في هذا الميدان، أدرك جلّة من الشّيوخ اللّغويِّين والنَّحويِّين المُقيمين ببلده كابن عصفور الإشبيليّ (ت669هـ) وأمثاله، ترك مُؤلَّفات نحويّة حسنة منها كتاب (الموهبة السنيّة في علم العربيّة) ولكنّه مفقود، وكتاب آخر بِعنوان (بغية الآمال في النّطاق بجميع مستقبلات الأفعال)، وقيل إنَّ للقفصيِّ دورًا في وضع مدرسة نحويّة كاملة شمِلت عددًا من النُّحاة مثل أبي الحسن علي بن عبد الله بن محمّد بن علي بن رمان الرّماني التّونسيّ أحد مقرئي المغرب الأدنى ولغويِّيه المشهورين، وقد تلقّى النّحو عن ابن عصفور وآخرين، ويحي بن أبي بكر بن عبد الله بن محمّد بن عبد الله الغماري التّونسي (ت724هـ) الّذي اشتغل بالنَّحو كثيرًا. وبعد أنْ استكمل دراسته على شيوخ بلده أمثال ابن عصفور قَصَدَ المشرق فحلَّ بدمشق والتقى فيها بابن مالك الأندلسيّ الّذي أفاد منه، وبعد مدَّة تنقَّل إلى مصر حيث أَخَذَ النَّحو عن النّحاس[4] وعن غيره وهم كُثُر. وجلَسَ التّونسيّ لتدريس النَّحو فَقَرَأَ عليه من نبهاء الطّلبة المُرادي الآسفي (ت749هـ) الشَّهير بابن أمّ قاسم نسبة إلى

---

[1]- السيوطي، بغية الوعاة، مج1، ص153.

[2]- أحمد بابا التّنبكتي، نيل الابتهاج بتطريز الدّيباج، ص268.

[3]- عبيد الله بن أبي الرّبيع الإشبيليّ السّبتي، البسيط في شرح جمل الزّجّاجي، تح ودراسة: عياد بن عيد الثبيتي، ط1. بيروت: 1986م، دار الغرب الإسلامي، السّفر1، ص84 وص139.

[4]- السيوطي، بغية الوعاة، مج2، ص172 وص331.

جدّته زهراء أمّ أبيه الّتي انتقلت إلى مصر وفيها عُرِفت بالشَّيخة أمّ قاسم، وأصله من مدينة أسفي على ساحل الأطلنطي بالمغرب الأقصى[1] وسِواه من أعلام اللّغة.

وكان يُعاصر هؤلاء برهان الدِّين الصّفاقسي (ت742هـ) صاحب الحظّ الوفير في علوم كثيرة، ارتحل هو كذلك إلى المشرق فنزل مصر وأخذ العلمَ عن علية شيوخها ثمّ برز بين الطّلبة النُّجباء أديبًا ولغويًّا ونحويًّا قديرًا أيضًا حتَّى حَظِيَ بمكانة علميّة مهمَّة بين أقرانه، وله في النَّحوِ مُصنَّفٌ جاء في أربعة مجلَّدات بعنوان (المجيد في إعراب القرآن المجيد)[2]، بالإضافة إلى انشغاله الكبير بالعلوم الدِّينيَّة كالحديث وغيره.

وفوق هذا ثمّة إقبالٌ كبيرٌ على تَعلُّم النّحو وتعليمه في عهد بني حفص، وقد دلَّ على ذلك إقدام الأمراء والحُكّام على إحضار لغويِّين ونحويِّين من الأندلس وتكليفهم بالتّدريس وتعليم الطّلبة، ومن هؤلاء الأمراء أبو زكريا الأوّل الحفصيّ الّذي جلب بِدوره "الأساتذة من الأندلس وصقلية – في القرن الثّامن الهجريِّ– للتّدريس في جامع الزيتونة بتونس، الّذي كان – هو الآخر– مركزًا ثالثًا من مراكز التّعليم الإسلاميِّ العربيِّ في المغرب، ومنه تعليم النَّحو"[3]. فواضح جدًّا أنَّ الدَّرسَ النَّحويَّ في هذا القطر انتعش كثيرًا بفضل كثرة المجالس والحلقات الّتي كان يحضرها الطّلبة من جميع الأنحاء.

وازداد عدد النُّحاة في عصر المرابطين ولا سيما بالمغرب الأقصى، ممّا أثرى الدِّراسات النّحويّة وأغناها فصارت محلّ عناية الطّلبة والعلماء، ودليل ذلك عكف أكثرهم على تدريس النّحو بتنظيم حلقات الدّروس "ونتج عن هذا الإقبال الجادّ للمغاربة على علم النَّحو خاصَّة أنْ ظهر من بينهم متخصِّصون في هذا الشَّأن فتولّوا بدورهم مهام التّدريس بمراكز شمال وجنوب المغرب الأقصى"[4]، وكذلك التوجُّه إلى التَّأليف في هذا الحقل، ومن ثمّ بدأ الأثر الفعليّ لِكِبار علماء المغرب في النَّحو على نطاقٍ واسعٍ ولوقتٍ طويل. ومن النُّحاة الّذين حظِيَ بهم المغرب الأقصى في هذه الفترة، أبو عبد الملك بن سمجون الطّنجي (ت491هـ) الّذي لمع اسمُه ونبُه ذكرُه بين نُظرائه العلماء، كان عارفًا بالنّحو مع فَهْمِهِ لكثير من مسائل الفقه والأدب، تلقَّى

---

[1]- السيوطي، بغية الوعاة، مج1، ص517.

[2]- أحمد الطويلي، في الحضارة العربيّة التونسيّة، ص34.

[3]- عبد الهادي الفضلي، مراكز الدّراسات النّحويّة، ص56.

[4]- ميلود التوري، الحركة اللّغويّة بالمغرب الأقصى (عصر المرابطين والموحّدين)، بحث دبلوم الدِّراسات العليا في اللّسانيات، ص222.

تعليمَه الأوّل بموطنه ثمّ قَصَدَ سبتة الّتي استقرّ فيها، ولكن بعد أنْ جال وطاف بغيرها من المدن في المغرب والمشرق. وقد أشاد مُترجموه ببراعته في اللّغة والنّحو العربيَّيْن[1]، وكان من كبار الشّيوخ الّذين انتفع منهم الطلبة.

وكان يتصدَّر لتدريس النّحو مُعاصر ابن سمجون الطّنجي في سبتة، محمّد بن الفرّاء الجزيري (ت500هـ)، وهو واحدٌ من أعلام النّحو والأدب، وقد انتصب لِتدريسهما فانتفع بعلمه قومٌ من الطّلبة بمن فيهم القاضي عيّاض الّذي قرأ عليه كتاب (الكامل) للمبرّد[2] وغيره.

كما يُعاصرهما بالمغرب الأوسط أبو علي الحسن بن علي بن طريف السّبتي المعروف بالتّاهرتي (ت501هـ)، وهو شيخٌ متمرِّسٌ في النّحو، مع حظٍّ وافرٍ في علوم أخرى كالفقه والحديث والأدب، التقى أثناء رحلته إلى الأندلس برجال العلم فأخذ عنهم كأبي الأصبغ بن سهل وأبي تمام القطيني وغيرهما، عكف على تدريس النّحو العمر كلّه، وقد تَتَلْمَذَ على يديه عددٌ من الطّلبة النُّبهاء أمثال القاضي عياض الّذي قرأ عليه مُصنّفات نحويّة كثيرة[3] وانتفع بها.

وكانت الدِّراسات النّحويَّة على شاكلة ازدهار الدِّراسات اللّغويّة بالمغرب الأقصى فترة الموحّدين، حيث بلغت ذروتَها في القرن السَّابع الهجريِّ الّذي يعدُّ من أزهى العصور الّتي عرفها المغرب الموحّديّ من حيث تقدُّم الحياة الثّقافيّة ونشاطِها، فقد لمعت في هذه الفترة شخصيّات نحويّة ذات شهرةٍ وصيتٍ كَبِيرَيْن في الميدان، تصدَّرت للتّدريس بكُبريات الحواضر مثل مراكش الّتي ازدهرت فيها الدِّراسات النّحويّة ونضُجت بِفضل تَضَافُرِ جهود علماء المغرب والأندلس الّذين كانوا كثيرين في هذه النّاحية والفترة أيضًا. كما كانت فاس في القرنيْن السَّادس والسَّابع الهجريَّيْن من أهمّ مدن المغرب الّتي عرفت حركةً واسعة وعميقة في النَّحو بفضل كِبار شيوخها، وحتّى مدينة طنجة الّتي رغم اعتبارها من المُدن الثّانويّة بالمغرب إلاَّ أنَّها كانت من مراكز الدَّرس النّحويِّ[4] المهمّة طيلة هذه الفترة، حيث وفد عليها كِبار النّحو الّذين قدَّموا الكثير للطَّلبة تدريسًا وتأليفًا.

---

[1]- عيّاض بن موسى اليحصبي القاضي عياض، الغنية (فهرست شيوخ القاضي عيّاض)، تح: ماهر زهير جرار، ط1. بيروت: 1982م، دار الغرب الإسلاميّ، ص197- 198.

[2]- السيوطي، بغية الوعاة، مج1، ص150.

[3]- المرجع نفسه، ص513. والمرجع السّابق، ص140- 141.

[4]- محمّد المنوني، العلوم والآداب والفنون على عهد الموحّدين، ط2. الرّباط: 1977م، دار المغرب للتّأليف والتّرجمة والنّشر، ص62.

وإذا تميَّزَ الدَّرسُ النَّحويُّ في عصر المرابطين بِطابع الجهود الفرديَّة الّتي لم يرقَ أكثرها إلى مستوى الدِّراسات المُتخصِّصة والمُستقلَّة، فإنَّ الدِّراسات الّتي عرفها عصر الموحّدين لم تعدْ كذلك، حيث ازدهرت أكثر بِفضل امتزاج جهود النّحاة الأندلسيِّين الّذين وفدوا على بلاد المغرب منذ العهد المرابطيِّ فاستقرّوا فيها للتّدريس مع جهود النُّحاة المحليِّين ممّا أسهم في تنمية ميدان تخصُّصهم فترة الموحديّة، وهذا بالإضافة إلى كثرة كتب النَّحو الّتي "ما تزال تُعرّف بعُلوِّ قدرهم وتُنبِئُ عن رسوخ قدرهم في هذا العلم"[1]. ولعلّ ما زاد من رواج الدَّرس النَّحويِّ في هذه الفترة هو تشجيع الخلفاء والأمراء على العلم وسبق أنْ تحدَّثْتُ عن هذه الفكرة، والسّبب في ذلك أنّ أكثرهم كانوا من رجال الفكر، فهذا يوسف بن عبد المؤمن "كان من أسرع النّاس نفوذ خاطر في غامض مسائل النّحو وأحفظهم للّغة العربيَّة"[2]. وفوق هذا كلِّه، فإنّ لِعناية الحكّام بالنَّحو الأثر الفعّال في جعل المغاربة يُقبلون عليه ويولونه اهتمامًا كبيرًا، ونتج عن ذلك كلّه ظهور عددٌ مهمٌّ من العلماء الّذين صُنّفوا في قائمة أساطين النِّحو العربيّ عامّة، وقد برزت معهم مدارس نحويّة محليّة هنا وهناك مثلما حدث في المشرق حين ظهرت البصريّة والكوفيّة وغيرهما، وانفردت كلُّ مدرسة بآرائها الخاصَّة فنجد مدرسة فاس الّتي اختلفت عن مدرسة تلمسان في مسألة صرف أبي هريرة، ومدرسة سبتة الّتي خالفت غيرها في مسألة نحويّة أخرى، والأمر ذاته يحدث بالنِّسبة لبقيّة المدارس الّتي انتشرت ببلاد المغرب[3] كمدرستي طنجة والقيروان. وما زاد هذه الدِّراسات ثراءً أيضًا حلقات الدَّروس الّتي كان يُنظِّمها الشُّيوخ في الجوامع والمدارس بمختلف حواضر المغرب لتعليم النَّحو، وكان يقصدها الطّلبةُ من كلِّ ناحية. وإذا كان تأليفُ الكُتب وعقد المجالس من عوامل تقدُّم الدَّرسِ النَّحويِّ في سائر المغارب، فإنّ المُناظرات العلميَّة بين النُّحاة والعلماء كانت مظهرًا من مظاهر الاهتمام بهذا الحقل، وفرصة لإبراز مدى تمكّنهم منها وتحقيق التحرّر الفكريّ.

وكان ابن هانئ اللّخمي السّبتيّ المارّ ذِكره بين اللّغويِّين من النُّحاة الّذين تميَّزوا بجهودهم في الميدان تأليفًا وتدريسًا فترة الموحّدين، ولِشُهرته العريضة أَقْبلَ عليه جمعٌ من الطّلبة، وقيل

---

[1]- عبد الله كنون، النّبوغ المغربيّ في الأدب العربيّ، ج1، ص135.

[2]- عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب من لدن فتح الأندلس إلى آخر عصر الموحّدين ص170.

[3]- المرجع السّابق، ص135.

إنَّه دَرَسَ الكثيرَ من كتب النّحو الشّائعة في عصره دراسةً مستفيضة وأعظمها (الكتاب)، ولابن هانئ مؤلّفات في النّحو، منها (شرح التّسهيل لابن مالك)[1] انتفع به النّاس وتنافسوا فيه كثيرًا.

وإنْ توفَّرت للقاضي عيّاض فرصةُ لقاء نُحاة المغرب وغيرهم من النُّحاة الأندلسيِّين مثل ابن الباذش الغرناطي (ت540هـ) فقد استطاع عيّاض فضلاً عن ذلك الاطّلاع على أشهر المؤلّفات النّحويّة وأعظمها[2]، ممّا أَثَّرَ في تكوين شخصيته النَّحويَّة فصار من الكِبار الّذين لهم دورٌ بارزٌ في تقدّم الدَّرس النّحويّ بالمغرب عامّة إلى جانب عنايته الكبيرة بالفقه والحديث، فهو عارف باللّغة والنّحو ويبدو ذلك في كتابه (بغية الرّائد) الّذي تناول فيه مسائل نحويّة كثيرة[3] مُعتمدًا آراء أشهر النُّحاة، وكان يَنسِبها إليهم في كلِّ موضع، أمثال سيبويه والزَجَّاجي والأخفش والمبرد وابن ولّاد.

ومن أعلام القرن السّابع الّذين اهتمّوا بالنَّحوِ مع اشتغالهم بعلوم أخرى، ابن المناصف إبراهيم بن عيسى الأزدي (ت627هـ) شقيق ابن المناصف محمّد بن عيسى الّذي ترجمتُ له بين علماء اللّغة، تولّى قضاء دانية وسجلماسة وغيرهما، عارفٌ بالنَّحوِ والعربيَّة حتَّى إنَّه صار من الشُّيوخ الكِبار الّذين ازدان بهم المغرب الأقصى[4]، ولا سيما إذا علمنا أنَّ الدَّرسَ النَّحويّ عرف في زمانه نشاطًا مُهمًّا. ومحمّد المحلى الفهري (ت661هـ) صاحب الشّهرة العريضة والمعرفة الجيِّدة بالنّحو الّذي أخذه عن مشايخ بلده أمثال ابن خروف (ت609هـ) وسِواه، ومن مؤلّفاته النَّحويَّة المذكورة (تقييدات في كتاب سيبويه) وقيل إنَّه داوم على تدريس اللّغة والنّحو إلى آخر أيّامه[5] مع توليه قضاء سبتة.

وكان أبو عبد الله محمّد بن قاسم بن منداس بن عبد الله الأشيري من علماء النّحو بالمغرب الأوسط، تلقّى العلمَ عن شيوخ بلده، ثمّ انتقل إلى مدن أخرى بالمغرب لِمواصلة تعليمه كمراكش وسبتة وقابس وسِواها، كما دخل الأندلس فسمع من جماعة علمائها، وبعدها قَصَدَ

---

[1]- عبد الله كنون، النّبوغ المغربيّ في الأدب العربيّ، ج1، ص220- 221.

[2]- خديجة ناور، تطوّر الدّرس النّحويّ في المغرب من العصر المرابطي إلى العصر السّعدي، بحث دبلوم الدِّراسات المُعمّقة، ص17.

[3]- يُنظر في الموضوع: بغية الرّائد لِما تضمّنه حديث أم زرع من الفوائد، تح: صلاح الدّين بن أحمد الإدلبي وآخرون. المملكة المغربيّة: 1975م، وزارة الأوقاف والشّؤون الإسلاميّة.

[4]- إبراهيم حركات، مدخل إلى تاريخ العلوم بالمغرب المسلم حتّى القرن 9هـ/ 15م، ج1، ص101.

[5]- السيوطي، بغية الوعاة، مج1، ص197. إبراهيم حركات، مدخل إلى تاريخ العلوم بالمغرب المسلم حتّى القرن 9هـ/ 15م، ج1، ص160.

البلاد المشرقيّة الّتي أُجيز بها، برع في علوم كثيرة أهمّها الحديث، التقى بِالجزولي عند نزوله بالمغرب الأوسط فأخذ عنه الأدب واللّغة والنَّحو، ولبراعة الأشيري في النَّحو تصدَّر لتدريسه إلى آخر أيّام عمره[1] فانتفع به جماعة. وكان قبله النَّحويّ اللّغويّ يوسف بن يخلف الجزائريّ من بجاية الّذي أجاد في الميدان، كان له مجلسٌ واسع الحضور يأتيه كثيرٌ من الطّلبة، وعني بِمُدارسة كتب النّحو واللّغة والأدب ودواوين الشِّعر مثل شعر أبي تمّام والمتنبّي[2] وغير ذلك.

ويأتي بعده محمّد بن الحسن القلعيّ الّذي بَرَعَ في علوم شتى وبالأخصّ الأدب الّذي كان عميدَ أهله، تصدّر للتّدريس دهرًا من عمره، تتلمذ عليه عددٌ من الشّيوخ الأجلاء كالغبريني، وله من التآليف النَّحويَّة[3] (الموضِّح في علم النّحو) و(حدق العيون في تنقيح القانون) وربّما قَصَدَ بهذا الجزولي، وكتاب آخر تناول فيه كتاب (الإيضاح) للفارسيّ في قواعد العربيَّة بعنوان (نشر الخفيّ في مشكلات أبي علي).

وإنْ تميَّز الدَّرسُ النَّحويُّ بالتقدُّم والرَّواج في العهديْنِ المرابطيّ والموحدي، فهو كذلك في عصر المرِّينيِّين، حيث حافظوا بدورهم على ازدهار هذا الدَّرس ونشاطه فاستطاع من خلال ذلك أنْ يخطوَ خُطوةً مهمَّة إلى الأمام حتَّى قيل "إنَّ هذا هو عصره الذّهبي"[4]، وبالأخصّ إذا علمنا أنَّ أمراء المرِّينيَّة وخلفاءها اشتهروا بِحُبِّهم الكبير للعلم وأهله، فقد كانوا ممّن شجّعوا على طلب العلم، ممّا جعل علماء المغرب يُعنون بمختلف العلوم بِما فيها النّحو الّذي حظِيَ بِكثير من الدِّراسة والتَّدريس. وكانت تقوم بالنّشاط في هذا الحقل أشهر مدن المغرب، وتأتي في طليعتها سبتة الّتي عُدَّت موطن الدِّراسات النَّحويَّة أو بالأحرى بصرة النّحو، فقد كانت المركز الثّقافيّ الّذي احتضن ألمع اللّغويِّين والنُّحاة المحليِّين والقادمين إليها من الأندلس والمشرق أيضًا كابن سمجون الطّنجي وابن طريف والقاضي عيّاض. ولكن إذا تحدَّث بعضُ المؤرِّخين عن نشاط هذا الحقل في عصر المرِّينيِّة فهناك من ذَكَرَ العكسَ، حيث اعتبروه فترة ضُعف الإنتاج وتراكم المنظومات والشُّروح، مقارنة بِما قدَّمه المغاربةُ في عصر المرابطيّة والموحديّة لاتّساع

---

[1]- عبد الرّحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج2، ص90. وخير الدِّين الزركلي، الأعلام، ط15. بيروت: 2002م دار العلم للملايين، ج4، ص234. بتصرّف

[2]- الغبريني، عنوان الدراية في من عُرِفَ من العلماء في المائة السّابعة ببجاية، ص77.

[3]- عبد الرّحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج2، ص91.

[4]- عبد الله كنون، النّبوغ المغربيّ في الأدب العربيّ، ج1، ص205.

رقعة المغرب بعد انضمام الأندلس إليه، علاوة على ذلك أنَّ هذه الفترة كانت تنفرد ببعض الميزات، منها انتشار بعض كتب النَّحو الّتي كانت موضع اهتمام العلماء والطّلبة مثل:

– ألفية ابن مالك وشروحها كشرح ابن عقيل المصريّ (ت769هـ) وشرح المكُّودي؛

– مقدّمة ابن آجرُّوم وشروحها؛

– مُغني اللّبيب عن كتب الأعاريب في النّحو لابن هشام الأنصاري. وجدير بالإشارة إلى أنَّه في هذه الفترة أيضًا ظهرت أوّل دعوة إصلاحيّة بخصوص ميدان النّحو الّتي نادى بها ابن خلدون[1]، بعد أنْ تنبّهَ إلى كثرة الشّروح والمختصرات في زمانه. ولكن مهما يكن من أمر فقد برز في عصر بني مرّين نُحاة نالوا شهرةً عالية في المغرب والمشرق، أشهرهم المكُّودي المارّ ذكره بين اللّغويِّين، وسيكون لي حديثٌ عنه في موضعه. واشتغل قبله بالنَّحو محمّد بن محمّد بن علي بن البقّال (ت778هـ) من فاس، أَخَذَ النَّحوَ عن جماعة من الشُّيوخ المهرة[2]، مع تقدّم كبير في العلوم الفلسفيّة والإسلاميَّة، له تحقيقٌ في النّحو ولكن لم يُعرَف عنه شيء. ومن نُحاة هذه الفترة عبد الرّحمن بن عطيّة المديوني الشّهير بالجاديري (ت818هـ)[3] إلى جانب مشاركته في الفقه والقراءات والتّوقيت والحساب ولهذا ولِيَ التّوقيتَ بجامع القرويِّين، وله من التّآليف النَّحويَّة (المذكَّر والمؤنَّث في النَّحو).

لم يكن المغرب الأوسط بِمنأى عن الدَّرسِ النَّحويِّ فترة الموحدين ثمّ الزيانيّين، فقد لمعت بعض الأسماء الّتي أسهمت بدورها في إغناء هذا الحقل وتنميته، فضلاً عمّا قدَّمته من جهود ذات أثر حتّى نالت حَظَّهَا من الشّهرة، والبداية كانت مع حلقات الدَّرس الّتي كان يعقدها المغاربة للطّلبة وعامّة النّاس، ثمّ مع مُصنَّفاتهم الّتي عرفت صدى كبيرًا داخل المغرب وخارجه. ومن النّحاة، علي بن ناشر بن المبارك الوهراني يُكنّى أبا بكر (ت615هـ) برع في أكثر من علم، فهو مفسّرٌ ونحويٌّ وشاعرٌ وأديبٌ بارعٌ، كانت له رحلةٌ إلى المشرق فحلّ بدمشق الّتي سكنها، له تآليف نحويّة مهمّة[4]، منها شرح شواهد جُمل الزَجَّاجي وشرح المعلّقات السَّبع وإعرابها. وأحمد تقي الدِّين المعروف بأبي العبّاس البوني (ت622هـ) كان من كِبار المُصنِّفين

[1]– إبراهيم حركات، مدخل إلى تاريخ العلوم بالمغرب المُسلم حتّى القرن 9/ 15م، ج1، ص161.

[2]– ابن القاضي، جذوة الاقتباس في ذكر من حلّ من الأعلام مدينة فاس، ج1، ص236.

[3]– أحمد بابا التّنبكتي، نيل الابتهاج بِتطريز الدّيباج، ص254.

[4]– عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتّى العصر الحاضر، ص349.

العرب في العلوم الخفيّة، برع في التصوّف والنّحو، قصَدَ المشرق فاستوطن القاهرة إلى آخر عمره، ترك في النَّحوِ مُصنَّفًا[1] بِعنوان (أسرار الحروف والكلمات).

ويليهما محمّد بن عبد الله بن عمر أبو عبد الله محي الدِّين المُلقَّب بحافي رأسه (ت693هـ) لأنّه أقام مدّة مكشوف الرّأس، وقيل إنَّه وُلِد وحفرة كبيرة في وسط رأسه، وهو من أهل تلمسان، كانت له رحلةٌ كغيره من أبناء المغرب إلى المشرق فحلّ بالإسكندريّة، دَرَسَ النَّحوَ على كبار شيوخها حتّى بلغَ التفوّقَ أمثال ابن منداس تلميذ الجُزولي وصاحبه، وقد كان من حفظة (الإيضاح) للفارسي، وتتلمذ عليه كثيرٌ من الطلبة[2]، ولكن لم يُعْرَف إنْ ألَّف كتبًا أم لا. ويليه أحمد الشهاب البجائيّ الأبديّ المغربيّ[3] الّذي كان له باعٌ طويلٌ في الدِّراسات اللّغويَّة والنّحويَّة في زمانه مع معرفة واسعة بالفقه والعروض والمنطق، اشتغل بالنَّحو كدارسٍ ومدرِّسٍ في بلده ثمّ قدم مصر فحلّ بالقاهرة أين التقى بجماعة من العلماء، وقد تصدّى للتَّدريس بجامع الأزهر ثمّ بالباسطيّة الّتي سكنها حتّى الوفاة، وقد أفاد منه جمعٌ كثير في علوم العربيّة وغيرها.

وكان يُعاصرُهم من النّحاة في هذه الفترة، أبو عبد الله العجيسي التلمساني المعروف بالحفيد أو حفيد ابن مرزوق (ت842هـ) بالمغرب الأوسط الّذي نبُه ذكرُه في علوم كثيرة مثل الفقه والأدب والأصول والحديث، مع اشتغاله الكبير باللّغة، وكان صاحب مؤلّفات حسنة، منها (أرجوزةٌ في شرح ألفية ابن مالك)، وشرحٌ على (التّسهيل) لابن مالك أيضًا، كما له من كتب النّحو الّتي لم يُكملها مثل (إيضاح المسالك في شرح ألفية ابن مالك) انتهى فيه إلى باب اسم الإشارة والموصول، قدّمه في مجلَّدٍ واحد وكان في غاية الإتقان، وشرحُ شواهد شُرَّاحها وانتهى فيه إلى باب كان وأخواتها، وله كذلك شرحٌ على مُختصر الخليل، وشرحٌ آخر على كتاب (الجمل)[4]. ويبدو وفقًا لِما تقدَّم أنَّ ابنَ مرزوق كثيرُ الاهتمام بِنَحْو ابنِ مالك ومؤلّفاته.

ويوجد من النُّحاة المتأخّرين بالمغرب الأوسط أحمد بن حسن القسنطيني (ت811هـ) الذي نال تقديرًا عريضًا في علم الفقه، ولكنّه كان شيخًا متمرّسًا في اللّغة والنَّحو، ومن مؤلَّفاته (الإبراهيميّة في علم العربيّة)، شرحٌ على ألَفيّة ابن مالك بعنوان (آية السَّالك إلى ألفيّة ابن

---

[1]- عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتّى العصر الحاضر، ص47.

[2]- السيوطي، بغية الوعاة، مج1، ص138.

[3]- شمس الدّين السّخاوي، الضّوء اللاّمع لأهل القرن التّاسع، د ط. بيروت: د ت، دار الجيل، ج2، ص180- 181.

[4]- عبد الرّحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج2، ص216. وإميل بديع يعقوب، المعجم المُفصّل في اللّغويّين العرب، ط1. بيروت: 1997م، دار الكتب العلميّة، ج2، ص81.

مالك). ويأتي بعده إبراهيم بن فائد الزواوي (ت857هـ) الّذي بَرعَ في علوم شتى وبالأخص الفقه، له معرفةٌ جيِّدةٌ بالنَّحو، ممّا جعله يقومُ بِشَرْحِ (ألفية ابن مالك) وتقديمه في مجلّد واحد[1]. وكذلك يحي بن عمّار الكندي العجيسي (ت862هـ) من أهل بجاية وفيها نشَأَ وتعلّم، تلقّى علومًا كثيرة كالفقه والتّفسير عن شيوخ مدن كثيرة في المغرب. وفي طريق رحلته إلى المشرق للحجِّ عَرَجَ على طرابلس وسفاقس وقابس بالمغرب الأدنى، ثمّ دمشق وحلب والقاهرة الّتي سكنها حتَّى الوفاة متصدِّيًا للإقراء والتّأليف والمُطالعة حيث أخذَ عن أهلها الّذين أخذوا بدورهم عنه. ومن تآليفه النَّحويَّة[2]، شَرحٌ على ألفية ابن مالك في ثلاثة مجلّدات أو أربعة، وشرحٌ آخر عبارة عن نَظْم. وكان يُعاصره أحمد بن محمّد شهاب الدِّين المعروف بأبي العبّاس (ت899هـ)[3] وهو فاسيُّ الأصل وقسنطينيُّ المولد، توجّه في صباه إلى الحجاز فأقام فيها أربع سنوات، ثمّ قَصَدَ القاهرة الّتي سكنها مدّة أيضًا، ومنها انتقل إلى تونس التي توفي بها، وله من كتب النّحو (جامع الأقوال في صيغ الأفعال)، (أرجوزة في تصريف الأسماء والأفعال) و(نظم المغني في النَّحو).

وهذا إلى جانب الجزولي وابن معط وابن آجرّوم مع المكُّوديّ المذكور أعلاه الّذين سأتعرّض لمؤلّفاتهم ولجهودهم في الفصل الآتي، ولهذا السّبب لم أتحدَّث عنهم بعد.

وإنْ دلّت هذه القائمة من النّحاة على شيء فإنّها تدّل على أنَّ ثمّة أسماء كثيرة لها ذكرها ولمعانها في الدَّرس النَّحويِّ الّذي بدأت تشهده بلاد المغرب منذ أوائل القرن الثّاني إلى أواخر القرن التّاسع الهجريَّيْن، ويبدو أنَّ عدد المُشتغلين بِهذا الحقل تزايدَ بِشكلٍ ملحوظٍ في عصر الموحّدين الّذي بلغ فيه النّحو مستوى النُّضج يُماثل المُستوى الّذي بلغته العلوم الأخرى وبالأخصّ الدِّينيَّة في هذه الفترة، ولكن اللافت للانتباه أنَّ دراسة النَّحو وتدريسه لا يقتصران على عالم مُختصّ فيه فقط، بل تجدُ عالمًا متفوِّقًا في الفقه والتّفسير وغيرهما، مع ذلك يكون بارعًا في النّحو فيتصدّر لتدريسه والتّأليف فيه. فالمهمّ في الأمر أنَّ المغاربة اضطلعوا بعبءٍ كبيرٍ في حركة النّهضة النَّحويَّة خاصّة واللّغويَّة عامّة دراسةً وتدريسًا ومناظرةً وتأليفًا.

4- أشهر الكتب اللّغويّة والنَّحويَّة المُتداولة في المغرب طيلة العصر الوسيط: كان إقبالُ علماء المغرب على دراسة كُتب اللّغة والنّحو وتدريسها خلال فترة الدِّراسة واسعًا جدًّا، وقد بدا الأمر مظهرًا من مظاهر اهتمامهم بعلوم العربيّة عامّة، حيث اهتمّ أكثرهم في البداية بالكُتُب

---

[1]- عبد الرّحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج2، ص138.

[2]- عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتّى العصر الحاضر، ص229- 230.

[3]- المرجع نفسه، ص134.

المشرقيَّةِ الّتي وصلت إليهم، إمّا عن طريق القادمين على المغرب من المشرق وإمّا عن طريق أهل المغرب أنفسهم من طلبة وعلماء ممّن تنقّلوا إلى تلك البلاد لأغراض معيّنة كما مرَّ الحديثُ عنها وبِالتّالي لم يكن كتاب في المشرق إلاَّ وتداولوه بالدِّراسة والتّدريس والشَّرح والتَّعليق، ممّا جعل الكتب المشرقيَّة في معظمها تلقى رواجًا كبيرًا بينهم، حتَّى إنَّ الكتب المشرقيّة وكذلك الأندلسيَّة في وقتٍ لاحقٍ اشتهرت فضلاً عن جهود المغاربة ليس في شرحها واختصارها، وفي تدريسها للطَّلبة أيضًا. ولكن تجدر الإشارة إلى أنَّ هذه الكتب لم تكن حكرًا على المغاربة فحسب، بل قام بِتدريسها نُحاة من الأندلس أيضًا ولذلك ارتأيتُ ذِكْرَ أشهرهم. وفي ما يلي عرضٌ لأهمِّ الكتب النّحويّة واللّغويّة الأكثر تداولاً بسائر المغارب:

- **الكتاب لسيبويه:** كان هذا الكتاب على رأس قائمة الكُتب المشرقيّة الّتي انتفع بها علماء المغرب المحليّون والوافدون من الأندلس، ولذلك أخذوا يتنافسون فيه دراسةً وتدريسًا وحفظًا ووضعوا عليه مختصرات وشروحًا كثيرة أصبحت موضع إشادة وتقدير من العلماء في جميع الأقطار، حتَّى إنَّ ثمّة من اشتهر بالدِّفاع عن (الكتاب) إلى درجة التعصُّب له. وأكثر من ذلك، هناك من حواضر المغرب ما انفرد بالعناية الكبيرة بالكتاب، فقد "كانت سبتة ومعها فاس ومراكش تتميّز ثلاثتها بالالتفات إلى التفقّه في كتاب سيبويه في المستويات العالية، وهو واقع انفرد به الغرب الإسلاميّ"[1]، أيْ إنَّ هذه المدن وغيرها كانت تتوزَّعُ العنايةَ بِهذا الكتاب وبخاصّة سبتة الّتي اعتنى أهلُها بالكتاب اعتناءً لا مثيل له "على أنَّ أهمّ كتاب لمسنا اهتمام السّبتيِّين به أكثر من أيِّ كتاب آخر هو كتاب سيبويه"[2]. وحسبي دليلاً على ذلك أنَّ شيوخَ النّحو في فاس كانوا أقلَّ اهتمامًا به مقارنةً بِعلماء سبتة وطلبتها. وإلى هنا يتبيَّن أنَّ ثمّة الكثير ممّن تعلّقوا بكتاب سيبويه من المغاربة وبرع في مدارسته وحفظه. ومن العلماء الّذين عكفوا على تدريس هذا الكتاب في المغرب:

---

[1]- محمّد المنوني، ورقات عن حضارة المرينيّين، ط3. الرّباط: 2000م، منشورات كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة بالرباط، سلسلة بحوث ودراسات رقم20، مطبعة النّجاح الجديدة للطّباعة، ص313.

[2]- إسماعيل الخطيب، الحركة العلميّة في سبتة خلال القرن السّابع، ط1. تطوان: 1986م، منشورات جمعيّة البعث الإسلامي ومطبعة النّور، ص250.

أشهر مدرّسي كتاب سيبويه	المدن الّتي كانوا يُدرِّسونه فيها
– أحمد بن محمّد بن أحمد الأزدي المعروف بابن الحاج (ت551هـ أو 559هـ) ولِشدَّة تمسكِّه بالكتاب كان يقول إذا مِتُّ يفعل ابن عصفور ما يشاء به، كما قدّم عليه إملاء[1].	– تصدّى لتدريسه في بفاس وسبتة وسلا.
– محمّد بن حكم بن أحمد بن باق الجُزاميّ السّرقسطي أبو جعفر (ت538هـ).	– درَّسه في فاس الّتي استقرّ فيها.
– أبو بكر بن طاهر الخِدَّب (ت580هـ)	– تصدَّى لتدريسه في فاس، بجاية وتونس.
– أبو حفص عمر بن عبد الله السّلمي الأغماتي (ت603هـ).	– كان يُدرِّسُه في الكثير من مدن المغرب كفاس وتلمسان.
– عبد الرَّحيم بن عيسى ابن الملجوم الأزدي الزهراني المعروف بابن الملجوم (ت604هـ).	– بعد أنْ دَرَسَ الكتابَ وأدرك مسائله وفهمها أَكَبَّ على إقرائه في جامع القروِيِّين بفاس لمدّة زمنيّة.
– عبد الرَّحمن بن علي بن يحي بن القاسم الخضرواي (ت605هـ).	– درَّسه في سبتة الّتي أقام بها.
– ابن خروف الإشبيلي.	– من المدن الّتي درَّسه فيها فاس ومراكش.
– محمّد بن الحسن القلعي وكان الغبريني من بين الآخذين عنه، وذكر في كتابه أنَّه قرأ عليه قدر نصف الكتاب تقريبًا[2].	– دَرَّسَه في موطنه بجاية.
– ابن أبي الرّبيع السّبتي (ت688هـ) يأتي في مقدِّمة العلماء الّذين عُنُوا بالكتاب دراسةً وتدريسًا، حتَّى إنَّ له تقييدات عليه، وفوق هذا كان الكتاب في مقدّمة مصادره النَّحويَّة، فقد	– داوم على تدريسه في سبتة.

[1]– السيوطي، بغية الوُعاة، مج1، ص359– 360. ومحمّد حجّي، "كتاب سيبويه في المغرب والأندلس" مجلّة اللّسان العربيّ، مج12، ج1، ص89.

[2]– الغبريني، عنوان الدراية في من عُرِف من العلماء المائة السّابعة ببجاية، ص68.

بلغ من عنايتِه به مبلغًا عظيمًا إذْ لم يكن يُفارقه دارسًا ومُدرِّسًا[1].	
- أبو عبد الله محمّد بن علي الشّريف (ت628هـ) صَرَفَ كلَّ اهتمامه إلى كتاب سيبويه[2] في التّدريس لوقتٍ طويل.	- كان يُدرِّسه في مراكش.
- محمّد بن عبد الله بن العطّار (ت698هـ).	- داوم على تدريسه بكثير من مدن المغرب الأدنى.
- أبو بكر محمّد بن محمّد بن إدريس بن مالك بن عبد الواحد القللوسي (ت707هـ) الّذي كان يتعصّبُ للكتاب.	- جلس لتدريسه بسبتة الّتي أقام بها منذ قدومه من الأندلس.
- ابن آجرّوم الّذي عكف على تدريسه وتوضيح غوامضه للطّلبة.	- درَّسه بِموطنه فاس.
- أبو عبد الله الغافقي السَّبتي (ت730هـ).	- قائم على تدريسه في سبتة.
- محمّد بن عبد المنعم الصّنهاجي السّبتي الحميري (ت750هـ) قائم على تدريس الكتاب حتّى إنَّه كان يسرده بلفظه، وقد اختبره الفاسيّون في ذلك غير ما مرّة[3].	- بحكم تنقّله بين مدن المغرب فقد درّسه بسبتة وفاس.
- عبد المهيمن بن محمّد بن عبد المهيمن السّبتي الأصل والشّهير بالحضرمي ثمَّ التّونسيّ الاشتغال (ت750هـ).	- كان مدرِّسًا للكتاب في تونس.

[1]- صالحة بنت راشد بن غنيم آل غنيم، تفسير القرآن الكريم لابن أبي الرّبيع عبيد الله بن أحمد بن عبيد الله القرشي الإشبيلي السّبتي (ت599- 688هـ)، أطروحة الدكتوراه في النّحو. المملكة العربيَّة السعوديّة: 1411هـ، جامعة أم القرى، كليّة اللّغة العربيّة، قسم الدّراسات العليا اللّغويّة، ص8 وص30.

[2]- السيوطي، بغية الوعاة، مج1، ص193.

[3]- المرجع نفسه، ص164.

- عبد الرّحمن المكّودي.	- اشتهر بِتدريسه في فاس (جامع القرويِّين) حتّى صار صاحب كرسيّ الكتاب، وقيل إنَّه آخر من درَّسه للطّلبة في مدرسة العطّارين[1].
- قرأ ابن مرزوق الحفيد الكتاب ودَرَّسه للطّلبة وشرحه لهم[2].	- دَرَّسه في تلمسان وفي غيرها من حواضر المغرب الأوسط.

الشّكل رقم (06)

والمُلاحظ ممَّا تقدَّم، أنَّ كتاب سيبويه لم يكن حكرًا على المغاربة وحسب، بل اهتمّ بدراسته وتدريسه علماء الأندلس الّذين وفدوا على المغرب. وكذلك الأمر بالنِّسبة للمقيمين بموطنهم، ممّا جعل الطَّلبة المغاربة يتنقّلون لدراسة هذا الكتاب عليهم "في ما يخصّ دراسة سيبويه، نجد التّأثير الأندلسيّ قويًّا خلال القرن السّادس، فبعضُ الطُّلاب يذهبون إلى الأندلس لدراسة علوم العربيّة، وهناك أندلسيّون من علماء العربيّة والمختصِّين في تدريس سيبويه يقصدون على الخصوص حواضر المغرب مثل فاس وسبتة، كما يقصد آخرون بجاية وقد تميّز هذا القرن بظهور نُحاة بالأندلس من درجة أصحاب مدارس، كابن مضاء وابن خروف"[3]، فقد أظهر الأندلسيّون إذًا معرفة كبيرة وبراعة فائقة في فَهْمِ مسائل (الكتاب) وتوضيحها للطلبة.

- **الجُمل للزَجَّاجي:** كانت لهذا الكتاب أهميّة كبيرة كونه أوّل مؤلَّف تعليميّ يكون في متناول صِغار الطّلبة؛ لأنّ مؤلّفات النّحو الّتي سبقته كانت في مجملها موضوعة لذوي الاختصاص لا تكمل الاستفادة منها دون الاستعانة بشيخ متمرّس، وفوق هذا استطاع الزَجَّاجي أنْ يُقدّم مادّة كتابه بنوع من التّقريب والتّنظيم والاختصار والوضوح أيضًا[4]، الأمر الّذي جعل العلماء والطّلبة يرغبون في كتاب (الجمل) بِمن فيهم المغاربة الّذين داوموا على قراءته وتدريسه، واعتنى بهذا الكتاب في المغرب الأقصى شيوخ كثيرون، منهم:

---

[1]- عبد الله كنون، النّبوغ المغربيّ في الأدب العربيّ، ج1، ص220.

[2]- شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربيّ عصر الدّول والإمارات (الجزائر- المغرب الأقصى- موريتانيا- السّودان) ص92.

[3]- إبراهيم حركات، مدخل إلى تاريخ العلوم بالمغرب المسلم حتّى القرن 9هـ/ 15م، ج1، ص156- 157.

[4]- محمّد المختار ولد أبّاه، تاريخ النّحو العربيّ في المشرق والمغرب، ص165.

أشهر مدرّسي جمل الزجّاجي	الحواضر الّتي كانوا يُدرّسونه فيها
– ابن الحسن التاهرتي وأخذه عنه القاضي عيّاض.	– كان يُدرِّسُه في بجاية.
– ابن أبي الرّبيع السّبتي وممّن قرأه عليه التّجيبي[1].	– تصدَّرَ لتدريسه في سبتة.
– أبو زكريا اليفرني[2].	– قائمٌ على تدريسه في المغرب الأدنى
– ابن عصفور الإشبيلي (ت669هـ) وله عليه ثلاثة شروح قدّمها باسم الشَّرح الكبير، الشَّرح الأوسط والشَّرح الصَّغير الّتي يُدَرِّسها أيضًا.	– دَرَّسه في تونس وسلا بالمغرب الأقصى، وقيل في بجاية ومراكش أيضًا.
– يوسف بن يخلف الجزائري.	– تصَدَّرَ لتدريسه في بجاية.

الشَّكل رقم (07)

– **الإيضاح للفارسي:** اهتمّ المغاربة والأندلسيّون الّذين وفدوا على المغرب بكتاب (الإيضاح) للفارسي كثيرًا، وبالأخصّ سبتة الّتي حظِيَ فيها بمكانة مهمّة، حيث تصدّى أكثرهم لدراسته وإقرائه وشرحه. وممّن تناول الكتاب بالتَّدريس بالمغرب في العصر الوسيط عامّة:

أشهر مدرِّسي الإيضاح	الحواضر الّتي كانوا يُدرِّسونه فيها
– ابن الحسن التاهرتي.	– درَّسه في مراكز المغرب الأوسط وأشهرها بجاية.
– أبو بكر بن طاهر الخِدَّب.	– دَرَّسَه في فاس.
– محمّد بن حكم بن أحمد بن باق الجُزاميّ السّرقسطي أبو جعفر.	– تصدّى لتدريسه في فاس.
– ابن أبي الرّبيع السّبتي الّذي أجازه لكثير من طلبته[3]، وضع عليه شرحًا بعنوان	– كان يُدرِّسُه في سبتة.

[1]– التجيبي، برنامج التجيبي، ص278.

[2]– أحمد الطويلي، في الحضارة العربيّة التونسيّة، ص34.

[3]– إسماعيل الخطيب، الحركة العلميّة في سبتة خلال القرن السّابع، ص256 وص265.

(الكافي في الإفصاح عن مسائل الإيضاح).	
– يوسف بن يخلف الجزائري.	– جلس لِتدريسه في بجاية.
– ابن عصفور الّذي وضع عليه شرحًا ولكن لم يُكملْه.	– قائم على تدريسه في تونس وفي غيرها من الحواضر الّتي مرّ عليها وأقام فيها.
– محمّد بن الحسن القلعي الّذي صرف كثيرًا من العناية إليه، ولِدقّة فهمه للكتاب وضع عليه شرحا بعنوان (نشر الخفيّ في مشكلات كتاب الإيضاح)، وأشار إلى هذا الغبريني بقوله "قرأت عليه الإيضاح من فاتحته إلى خاتمته"[1].	– وهو كذلك درَّسَه في بجاية.

الشَّكل رقم (08)

المُلاحظ ممّا تقدَّم أنَّ كثيرًا من علماء المغرب في العصر الوسيط تصّدوا لِتدريس (الإيضاح) واعتبروه من أهمّ كتب النّحو الّتي يحتاجها الطّلبة.

– **المفصّل للزّمخشري**: نال (المفصّل) من اهتمام علماء المغرب الشّيء الكثير، حيث لم يتوانوا في اعتباره من كتب النّحو المهمّة الّتي يحتاجها المبتدئون لاحتوائه المادّة التّعليميّة المُيسّرة، فقد جاء خاليًا من التّعليلات النّحويّة والتّقديرات الإعرابيّة. ومن أشهر النُّحاة الّذين دَرَّسوه:

أشهر مدرِّسي مفصّل الزّمخشري	الحواضر الّتي كانوا يُدرِّسونه فيها
– أبو موسى الجزولي.	– درَّسَه في مراكش.
– ابن عصفور الإشبيلي.	– جلس لتدريسه في تونس.
– ابن أبي الرَّبيع الإشبيليّ السّبتيّ.	– كان يُدرِّسُه في سبتة إلى جانب كتب نحويّة ولغويّة أخرى.
– محمّد بن الحسن القلعي.	– درَّسَه في بجاية.

الشَّكل رقم (09)

[1]– الغبريني، عنوان الدراية في من عُرِف من العلماء المائة السّابعة ببجاية، ص68.

ويوجد إلى جانب هذه الكتب المشرقيّة المُتداولة في المغرب، (الكامل) للمبرد وكان ابن أبي الرَّبيع من أشهر مقرئيه ومدرِّسيه في سبتة[1]، وكتاب السيرافي (ت385هـ)، ومؤلَّفات ابن هشام أشهرها (المغني) و(التَّوضيح)، وللعلم حظِيَ هذا النّحويّ بِمكانة مهمّة بين علماء المغرب الّذين سمعوا عن زَادِه النّحويِّ الثّرِيِّ، ويكفي ما قاله ابن خلدون دليلاً "ووصل إلينا بالمغرب لهذه العصور ديوانٌ من مصر منسوب إلى جمال الدِّين بن هشام من علمائها استوفى فيه أحكام الإعراب مجملة ومفصّلة. وتكلَّم عن الحروف والمفردات والجُمل وحَذَفَ ما في الصِّناعة من المُتكَرِّرِ في أكثر أبوابها وسمَّاه (المغني في الإعراب). وأشار إلى نُكت إعراب القرآن كلِّها وضَبَطها بأبواب وفصول وقواعد انتظمت سائرها فوقفنا منه على علم جمّ بِعُلوِّ قَدَرِهِ في هذه الصِّناعة ووفور بِضاعته منها"[2]. وكتاب (الكافي) لأبي جعفر النّحاس الّذي كان يُقرئه للطَّلبة ابنُ الحسن التاهرتي وكتاب (الواضح) للزّبيدي الّذي أقبلَ عليه الطَّلبة ولا سيما في مدينة سبتة (اللّمع) و(الخصائص) لابن جنّي، (أصول) ابن السرّاج، (المقتضب) و(الكامل) للمبرد و(مقدِّمة) ابن بابشاذ المصري.

كما اعتمد المغاربة من المؤلّفات اللّغويَّة عناوين ذات شهرةٍ واسعةٍ، منها كتاب (إصلاح المنطق في اللّغة) لابن السكيت، و(الكامل) للمبرّد الّذي دَرَّسَه ابن الحسن التّاهرتي وقد سَمِعَ القاضي عيّاض منه الكثير[3]. وكتاب (الأمالي) للقالي ودَرَّسَه من علماء المغرب الكثير أمثال محمّد بن الحسن القلعي. و(فصيح) ثعلب الشَّهير الّذي حظِيَ بعناية علماء المغرب أيضًا ويبدو ذلك بوضوحٍ في إقبالهم الواسع على دراسته وتعليمه وشرحه أيضًا، ومن هؤلاء ابن أبي الرَّبيع الإشبيلي السّبتي الّذي دَرَسَه عليه جماعة أمثال ابن الحاج السلمي (ت694هـ) الّذي استظهره عليه فأجازه له[4]. ومن القائمين على تدريسه أيضًا أحمد بن يوسف الفهريّ اللّبلي. وأذكر إلى جانبها عناوين بعض الكُتب اللّغويّة المغاربيَّة الّتي اهتمّ علماء المغرب بتدريسها وإقرائها، كتاب (كفاية المُتحفّظ) لابن الأجدابي الّذي دَرَّسه محمّد بن حيّان في المغرب الأدنى وكان الوادي آشي الأندلسيّ (ت610هـ) ممّن قرأه عليه[5] وهناك آخرون.

---

[1]- محمّد المنوني، ورقات عن حضارة المرينيِّين، ص318.

[2]- ابن خلدون، المقدّمة، ص485.

[3]- القاضي عيّاض، الغنية، ص60.

[4]- أحمد بن القاضي، درّة الحجال في أسماء الرّجال، تح: محمّد الأحمدي أبو النّور، ط1. تونس/القاهرة: 1971م المكتبة العتيقة ودار التّراث، ج2، ص59- 60.

[5]- محمّد الوادي آشي، برنامج الوادي آشي، تح: محمّد محفوظ، ط1. بيروت: 1980م، ص304.

– **المقرّب والمُمْتِع لابن عصفور:** اهتمّ علماء المغرب بمؤلّفات ابن عصفور النّحويّة، وكان في مقدّمتها كتاب (المقرّب في النّحو) الّذي أشاد علماء المشرق والمغرب بأهميّة موضوعاته النَّحويَّة والصَّرفيَّة، وأقبلوا عليه كمدرسِّين وشارحين، مع أنَّ هذا الكتاب تعرَّض للانتقاد من أهله الأندلسيِّين وغيرهم أمثال ابن الصّائغ والجزيري[1]. ويليه كتاب (المُمتع في التّصريف) الّذي رَدَّ فيه صاحبُه الاعتبار للتَّصريف الّذي كاد يتجاهله النُّحاة بعد سيبويه والمازني وابن جنّي وغيرهم، متناولاً فيه مُجمل موضوعات الصَّرف بِكلِّ دقَّة وتفصيل. وقد تداول الكثيرُ من المغاربة على تدريس هذين الكتابَيْن، منهم أبو الحسن علي الرّماني التّونسيّ وأبو علي الطّبلي.

– **الألفية والتّسهيل لابن مالك:** وهما كذلك من مؤلّفات النّحو المهمّة الّتي داوم علماء المغارب الثّلاثة على قراءتها وتدريسها، وبالنِّسبة لكتاب (التَّسهيل) كان يُمثِّل الآراء الأخيرة والنِّهائيّة لابن مالك الّتي أثَّرت في النَّحويِّين من بعده، حيث جعلهم يُعيدون النّظرَ في تثبيت قواعد النّحو وإعادة صلاتها مع مُقتضيات الاستعمال اللّغويّ[2]، ولا شكّ أنَّ المغاربة الّذين عكفوا على تدريس الكتاب وشرحه أيضًا هم كُثر، وسأذكر بعض الشُّروح في الفصل اللاحق.

ويحدث الأمر ذاته مع (الألفيّة) الّتي بعُدَ صداها حتَّى سمِع عنها النّاس من مختلف الأقطار، وفي طليعتها المغرب حيث لقيت إقبالاً واسعًا من علمائها وطلبتها، فكانت لكثيرهم من أهمّ الكتب الّتي يُعتمدُ عليها في دراسة النّحو وتدريسه، منهم أبو القاسم الشّريف السّبتيّ السَّابق ذكره الّذي تصدَّر لتدريس (الأَلفيّة) في سبتة، وكذلك المكُّودي الّذي كان من المداومين على تدريس هذه (الأَلفيّة) إلى جانب شرحِ المُرادي عليها.

وأمّا بالنِّسبة لكتب النَّحو المغاربيَّة الّتي كانت محور اهتمام العلماء بالمغرب طيلة فترة الدِّراسة، فقد اشتغلوا ببعضها في أواخر القرن الخامس، وبعضها الآخر في منتصف القرن السَّادس، وهي الفترة الّتي بدأ يبرزُ فيها كِبار علماء النَّحو ببلاد المغرب، مع العلم أنَّ إقبالَ علماء المغرب على كتاب سيبويه بقي مُستمرًّا طِيلة القرن السّابع ولا سيما بالمغربين الأوسط والأقصى، فقد تداولوه وتصدّوا لتدريسه في أشهر المراكز الثّقافيَّة كبجاية وتلمسان وفاس وسبتة[3]. وهناك كذلك من المُصنَّفات المغاربيَّة الّتي احتلّت مكانة خاصّة لمدَّة زمنيَّة طويلة في حلقات الدَّرس. ومن كتب النَّحو المغاربيَّة الّتي كثُر حولها الطَّلبُ للدِّراسة والتَّدريس أذكر:

---

[1]– المقري، نفح الطّيب من غصن الأندلس الرّطيب، ج4، ص148.

[2]– محمّد المُختار ولد أبّاه، تاريخ النّحو العربيّ في المشرق والمغرب، ص315.

[3]– إبراهيم حركات، مدخل إلى تاريخ العلوم بالمغرب المُسلم حتّى القرن 9/ 15م، ج1، ص156 وص158.

– **الجُزوليّة:** كانت من الكُتب الّتي لقيت رواجًا بين المغاربة والأندلسيِّين منذ ألَّفَها صاحبُها وذلك بالرّغم ممَّا قيل عن صعوبة فَهمِها على الطَّلبة وبخاصّة النّاشئة. وكان الجُزولي أوّل من دَرَّسها للطَّلبة، ثمّ تبعه نُحاة آخرون عكفوا على دراستها وتدريسها، وأذكر منهم يوسف بن يخلف، محمّد بن الحسن التميمي القلعي الّذي درَّسَها ببجاية كالغبريني لقوله "إنَّه قَرأَ عليه هذا المتن النَّحويّ"[1]، كما دَرَسَه على الأندلسيِّ ابن أندراس (ت674هـ) أثناء إقامته في هذه الحاضرة قبل أنْ يَقْصِدَ المغرب الأدنى[2]. ومن مدرِّسي هذا الكتاب أيضًا في بجاية محمَّد بن عبد الرَّحمن الخزرجيِّ إلى جانب شرحه على (الجُزوليّة) الّذي انتفع به الطَّلبة وأفادوا.

– **كتب ابن أبي الرّبيع الإشبيليّ السبتيّ:** وبِحكم استقرار هذا النَّحويِّ في سبتة فقد استطاع أنْ يُؤلِّفَ فيها كُتُبَه الّتي كان لها الحظُّ الأوفر في دراسة النَّحو وتدريسه، فقد أقدم علماءُ المغرب على قراءتها وتدريسها وشرحها للطّلبة قدر الإمكان، ويأتي في الطَّليعةِ تلاميذه الّذين اهتمّوا به ومن تلك الكُتُب (المُلَخَّص في ضبط قوانين العربيّة)، وشرحه الكبير على (الجمل) للزَجَّاجي.

– **الآجُرُّوميّة:** كانت (الآجُرُّوميَّة) موضعَ بحث ودراسة وتدريس لدى جماعة من علماء القطرين المغرب والأندلس، فقد نالت إعجابَهم واحتلّت مكانَةً خاصّة في قراءاتهم وتدريسِهم النَّحو[3]، إذْ لا يكاد يخلو مجلسٌ من مجالس العلم إلاَّ وذُكِر فيه اسمُ الكتاب وصاحبه، الأمر الّذي زاد هذه المقدِّمة قيمةً وأهميّة بين الشّيوخ والعلماء حيث رغب أكثرهم في تحفيظها للطَّلبة وشرحها لهم؛ لأنَّها سهلةُ المأخذ وبسيطة العبارة وواضحة المثل.

– **شروح المكُّودي:** حتَّى وإنْ جاء المكُّودي في مرحلةٍ متقدِّمةٍ من الفترة الّتي أُؤَرِّخُ لها إلاَّ أنَّ شروحَه نالت من اهتمام النّاسِ في عصره وما تلاه الشَّيءَ الكثير، ولا سيما شرحه الصَّغير على ألفية ابن مالك الّذي اعتنى الشّيوخُ بِتدريسه وتوضيح غامضه. وكان المكُّودي من مدرّسي هذا الشَّرح إلى جانب شرحِه على (الآجُرُّوميّة) الّذي أدركَ أهميَّته للنّاشئة في تعلّم النّحو.

خلاصة الفصل: حين بدأ علماء المغرب يشتغلون بالدَّرس النَّحويِّ كانوا يعتمِدون كُتُب المشارقة الّتي عرفوها عن طريق طلبة نُحاة المدرستين البصريّة والكوفيّة أمثال الخليل والكسائي والفرّاء وعن سِواهم ممّن قرأ عليهم الكثير من المغاربة والأندلسيِّين، وفي مقدمتها كتاب سيبويه

---

[1]– الغبريني، عنوان الدراية في من عُرِف من العلماء المائة السّابعة ببجاية، ص68 وص77.

[2]– محمّد محفوظ، تراجم المؤلِّفين التّونسيِّين، ج1، ص56.

[3]– أحمد بلشهاب، "تطوّرُ الدِّراسات النّحويّة في المغرب حتّى القرن الثّامن الهجريِّ" مقال في زهرة الآس في فضائل العبّاس، ج2، ص482.

الّذي بلغ اهتمامُهم به مستوى مُتقدِّمًا من حيث العناية والدِّراسة والتَّدريس والحفظ أيضًا، فقد كانوا إلى جانب الأندلسيِّين أكثر المُعتنين به مقارنةً بنُظرائهم المشارقة، بِدليل أنَّ أغلب النُّحاة والعلماء الّذين اشتغلوا باللّغة والنَّحو في المغرب قاموا بِدراسة الكتاب ثمّ بِتدريسه وشرحه للطَّلبة فما من نحويٍّ إلاّ وأقرأه للطّلبة أينما حَلَّ ونزل. ويوجد إلى جانبه كتُب أخرى اكتست أهميّة خاصّة في هذا القطر، منها (الجمل) و(الإيضاح) و(اللّمع) و(الخصائص). وتليها كُتُب النّحو الأندلسيَّة الّتي حظيت بِدورها بِكثير من العناية فنالت نصيبَها من الدِّراسة والتَّدريس، ومثال ذلك (ألفية) ابن مالك الّتي اعتنى علماء المغرب بتدريسها وتوضيح مقاصدها. وشيئًا فشيئًا تنوَّعت طبيعة الاشتغال بالنّحو عند هؤلاء فأتاحوا لأنفسهم فرصةَ التّصنيف، ولا سيما مع برُوز كِبار النّحاة، ولكن ليس جميعهم من صُنعِ البيئة الثّقافيَّة المغاربيَّة – كما سبق ذكره– حيث ألَّفوا كتبًا حصلت على تقدير العلماء، فأصبحت محلّ اهتمام ودراسة وشرح وتعليق وتجلّت فيها اجتهاداتهم وتوجُّهاتهم وأساليب تناولهم للقواعد. علاوة على ذلك أنَّ هناك من شيوخ النّحو القائمين على تدريس مؤلّفاتهم وإملائها في حلقات الدَّرس مثلما كان يفعَلُ ابنُ أبي الرّبيع الإشبيليّ السّبتيّ والمكُّودي وغيرهما. وتَتّضحُ في التّرسيمة الآتية طبيعةُ الدَّرس النّحويِّ في المغرب طيلة العصر الوسيط:

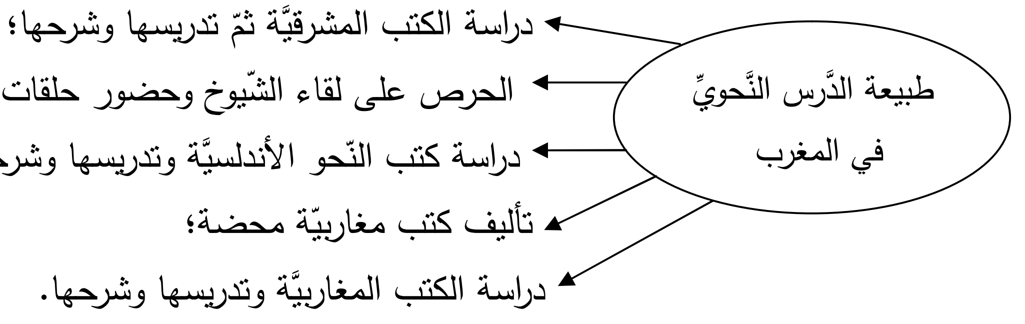

الشّكل رقم (10)

وثمّة نقطة مهمّة يجدر ذكرها وهي أنَّ الدَّرسَ النَّحويَّ بالمغرب لم يكن على وتيرة الازدهار نفسها منذ بدأ العلماء يشتغلون به إلى أواخر العصر الوسيط، مع ذلك فقد بَلَغَ أوجَّه في بعض الفترات ولا سيما عصر الموحّديّة، حيث تطَوَّرَ على يد علية الأعلام تطوُّرًا كبيرًا ممّا جعل مدن المغرب الرّئيسة قبلةً للعلماء والطّلبة الّذين قصدوها من كلِّ ناحية، وقد توزَّعت هذه المدن النّشاطَ النّحويّ، ومنها القيروان الّتي أقام بها كِبار العلماء الّذين تصدّروا لتدريسه والتّعريف بأهله، حتَّى إنَّ أبناءها كانوا من الأوائل الّذين اشتغلوا بهذا العلم وفقًا لِما ذكره الزّبيدي في كتابه (الطّبقات). ومع مرور الوقت بَرَزت سبتة الّتي عُرِف عن أهلها العناية بالنّحو

والاشتغال به إلى درجة تشبيهِها ببصرة العراق، والأمر ذاته بالنِّسبة لحاضرة بجاية الّتي احتضنت الكِبار أيضًا أمثال الجُزولي الّذي أقام بها مدَّة يُدرِّس النَّحوَ واللّغة، وكذلك تلمسان الّتي قَصَدَها النُّحاة لِنَشْرِ عِلمِهم بِمختلف مؤسَّساتها التَّعليميَّة وكانت معها طرابلس وفاس ومراكش وغيرها، وكلُّ هذا دليل على أنَّ الدّرس النَّحويّ نال حَظَّه من العناية بالمغرب. ولأنَّ النّظرةَ السّائدة عن المغاربة أنَّهم لم يُقدّموا في هذا الحقل إلاَّ الشَّيء القليل ممَّا لا يستحقّ التوقّف والاهتمام لوجود الإبداع المشرقيِّ الّذي أغناهم عنه، فقد كشفت في ما سبق عن أسماء كثيرة قلَّ ذِكْرُها أو بالأحرى نادرًا ما يُشيرُ إليها الباحثون إمَّا جهلاً بِها حيث لم يطَّلعوا على ما تضُمُّه كتب التّراجم والطّبقات، وإمّا استخفافًا بِقيمه إنتاجهم، وبالتّالي لم تنصرف إليه عنايتُهم.

والمهمّ في الأمر، أنَّ علماء المغرب اشتغلوا بِالنَّحو كثيرًا، فمنذ تَسَرَّبت مُصنّفاته إلى بلادهم رغبوا في دراسته وفهمه ثمَّ تدريسه، والبداية كانت مع كتاب الكسائي الّذي أدخله جودي بن عثمان في القرن الثَّاني إلى الأندلس ومنها وَصَلَ المغرب ثمّ مع كتاب سيبويه الّذي اعتنوا به بشكل لافت للانتباه. ومع الوقت كانت جميع كتب النّحو المشرقيّة تصل إلى المغرب إمَّا عن طريق رحلاتهم المستمرَّة والكثيفة إلى المشرق، وإمَّا عن طريق القادمين على بلادهم، بِدليل أنّه كلَّما ظَهَرَ كتابٌ نحويٌّ إلاَّ وأُتيحت لهم فرصة الاطِّلاع عليه وتدريسه.

الفصل الثّالث

عرض لأشهر النّحاة المغاربة ولآرائهم واختياراتهم

مدخل

1- أبو موسى الجُزولي.

2- ابن معط الزواوي.

3- ابن آجرُّوم الصّنهاجي.

4- عبد الرّحمن المكُّودي.

مدخل: إنْ كان هناك من كُتُب الطَّبقات واللّغة والنَّحو الّتي أشادت بجهود علماء المدرستيْن البصريّة والكوفيّة الّتي أسَّسَت الدَّرسَ النَّحويّ وأرست دعائمه، ثمّ بِجهود البغداديِّين والمصريِّين الّتي ساهمت في تنميته، فكذلك الأمر بالنِّسبة لِنُحاة المغرب في العصر الوسيط الّذين قدَّموا ما يُثري هذا الحقل إثراءً جعلهم يتميَّزون بين نُظرائهم المشارقة ويعلو شأنهم، ممَّا يُؤكِّدُ أنَّ شهرتَهم لم تَأْتِ من العدم أو من محض الصدفة، بل دَرَسُوا ودَرَّسُوا وحَلَّقُوا وصَنَّفُوا فصاروا من الأعلام الّذين لا يكتمل الكلامُ على النَّحو عامَّة دون ذِكْرِهم. وأثناء بحثي عمَّا قدَّمه هؤلاء في هذا العصر وجدتُ أنَّه ثمّة ما يجب معرفته والحديث عنه؛ لأنَّ ثمّة الكثير من كُتُب النَّحوِ واللّغة وحتَّى الدِّراسات العلميَّة والأكاديميَّة الّتي تناولَت المدارس النَّحويَّة دون الإشارة إلى اسم المدرسة المغاربيَّة وإذا ذَكَرَتْه فقد كان ذلك مع نحاة الأندلس أو المشرق. ولِكي أكون على بيِّنة للجوانب الّتي تميَّز فيها النَّحوُ المغاربيُّ مع العلم أنَّه لم يكن يُعدُّ مدرسةً مستقلَّةً مثل البصريَّة والكوفيَّة والبغداديَّة وكذلك الأندلسيَّة الّتي كانت تُمثِّلُ النِّصفَ الآخر لِما يُسمَّى بالنَّحو المغاربيِّ الأندلسيِّ، ينبغي أنْ أتعرَّض لأشهر النُّحاة الّذين بَرَزَ دورُهم في خدمة هذا الحقل ونشاطه وبالأخصّ مع مطلع القرن السَّادس الهجريِّ باعتباره الفترة الّتي بَلَغَ فيها الذِّروة وعرف نشاطًا بارزًا، وعليه وقع اختياري على أربعة نُحاة من فترة الدِّراسة كانوا ممَّن تركوا أثرًا مهمًّا في الميدان، وحتَّى لا يعيب عليَّ القارئ اختياري هذا لابدَّ أنْ أُوضِّحَ نقطة مهمّة جدًّا وهي أنَّ الدَّرس النَّحويّ لم يشتغل به أبناء المغرب وحسب، بل هناك علماء الأندلس الّذين اعتنوا بهذا الحقل كثيرًا فتركوا بصمات لامعة فيه، وعلى هذا فاقتصاري على النُّحاة ذوي الأصول المغاربيَّة في العرض السَّابق قصدتُه لغاية وهي أنّني سأتناول في الفصل اللاحق عنصرًا عن تداخل النَّحو بين المغرب والأندلس، وسأذكر في ضوء ذلك بعض الأسماء الأندلسيَّة الّتي أسهمت في ما عرفه هذا الميدان بالمغرب عامّة من نُضج وازدهار، بِدليل أنَّ هناك من الأندلسيِّين الّذين اشتغلوا به أكثر من أبناء هذا القطر.

وأتعرّض في الآتي لأربعة نحاة مغاربة مُرَتبَّين حسب وفياتهم ولاختياراتهم، حيث تابعوا علماء من المدارس النَّحويَّة الأخرى ورجّحوا آراءهم بِحسب ما تُمليه عليهم اجتهاداتهم مع ذِكْرِ بعض الآراء الّتي انفردوا بها، فحتّى وإنْ لم يُؤسِّسوا للنَّحو كما أسَّس له المشارقة الأوائل إلاَّ أنَّ لهم من الاجتهادات الّتي أَعْتَبِرُها في صميم الإنتاج الّذي أسهمَ في تنمية الدَّرس النَّحويِّ وبلوغه درجةً من التقدُّم. وكان في مقدّمتهم الجُزولي، ويليه تلميذه ابن معط ثمّ ابن آجُرُّوم، وآخرهم عبد الرّحمن المكُّودي.

1- أبو موسى الجُزولي:

1-1- مولده ونشأته وحياته العلميّة: وهو عيسى بن عبد العزيز بن يلّلْبخت بن عيسى بن يوماريلي اليزدكنتي الجُزولي الشّهير بأبي موسى الجُزولي، وُلِدَ بتاريخ 540 للهجرة في قبيلة جزولة البربريّة، الواقعة بإقليم السّوس بالمغرب الأقصى، تلقّى تعليمه الأوّل بمسقط رأسه[1]، ثمّ انطلق في الرِّحلة بحثًا عن ينابيع المعرفة، ولِتكون مصر موطنه العلميّ الثّاني الّذي عرج عليه حين قصد مكّة حاجًّا، فبعد "أنْ نشأ في قبيلته تفاعل مع تلك البيئة، ونال قسطًا من العلم بها وأَحْسَنَ من الاستخدام اللّغويِّ، ما يجعله مُهيئًا للإفادة من مجالسِ العلم بِمصر باعتبارها مبدأ حياته العلميَّة الحقيقيَّة"[2]. والتقى فيها بالنَّحويِّ ابن برّي وكان الجُزولي يُجادلُ المتمرِّسين في دقائق النَّحو بمجلس شيخه هذا ولكن لم يدمْ له المقامُ في مصر، بل قَرَّرَ الرَّحيلَ عنها بعد أنْ كَوَّنَ نفسَه علميًّا، وفي إيَّابه مَرَّ على بجاية الّتي سَكَنَها مدَّة، وسمِع من شيوخها الفقه المالكيّ الّذي أتقنه، ثمّ توجَّه إلى الأندلس فحلَّ بالمريَّة مدَّة وتصدَّر بها للإقراء، ومنها شَدَّ الرِّحال أيضًا حيث عاد إلى المغربَ فنزل مراكش الّتي كانت تعجُّ في عصره بالعلماء. ولِتكونَ آخر جولاته دراسةً وتدريسًا حيث تصدَّر للخطابة وتدريس العربيَّة حتَّى أتاه الأجل بآزمور الّتي تنقّل إليها لتسوية نزاعٍ قبليٍّ بين الصّنهاجيِّين[3]، ولكن يبدو أنَّ المؤرِّخين اختلفوا في تاريخ وفاته فبعضهم قال إنَّه توفي سنة 609هـ، وبعضهم الآخر سنة 610هـ، وآخرون سنة 608هـ وغيرهم 607هـ وهو التّاريخ الأرجح؛ لأنّ عليه أغلب من ترجم له.

وإنَّ لِتفوّق الجزولي في النّحو صلةً بِما أخذه عن شيوخ عصره وما قَرَأَه من كتب، فهو نحويٌّ بارعٌ راسخُ القَدم في النّحو واللّغة، ذاعَ صِيتُه بين جهابذة النُّحاة شرقًا وغربًا، وعُرِفت مكانته العلميّة بينهم، حتَّى إنَّه كان أوَّل مغربيٍّ عُرِفت عنه بحوث نحويّة واضحة، جعلت منه مقصدَ الطّلبة، ولِكثرتهم ضَاقَ بهم ذلك المسجد الّذي كان يُدرِّس فيه فاضطّرَ للتنقُّل إلى مسجد آخر يُدعى ابن الأبكم الكائن شمال باب أغمات الأعظم الّذي يسع لهم جميعًا، وقد كان

---

[1]- عبد الحي بن العماد الحنبلي، شذرات الذّهب في أخبار من ذهب، تح وتع: محمود الأرناؤوط، تخريج أحاديثه: عبد القادر الأرناؤوط، ط1. دمشق/ بيروت: 1991م، دار ابن الكثير للطّباعة والنّشر والتّوزيع مج7، ص49- 50.

[2]- أحمد الزواوي، أبو موسى الجزولي، عرض لحياته العلميّة، ومنهجه في البحث، وتأثيره في حقل النّحو، ثمّ نقد لِمنهجه، ص40.

[3]- محمّد حجي وآخرون، معلمة المغرب، 1998م، ج9، ص3006- 3008. وعيسى أبو موسى الجزولي، المقدّمة الجزوليّة في النّحو، تح وشرح: شعبان عبد الوهاب محمّد، مراجعة: حامد أحمد نيل وفتحي محمّد أحمد جمعة، ط1. القاهرة: 1988م، أم القرى للطّبع والنّشر، ص21.

للجُزولي بعد عودته فضلٌ كبيرٌ في تدريس النَّحو ببلده ونشره، بدليل أنّه تخرَّج على طريقته جمعٌ من النُّحاة الّذين شَاعَ ذِكرُهم. وهذا جدول لأشهر طلبة الجُزولي:

تتلمذ على أبي موسى الجُزولي:

- الشواش (ت619هـ)
- ابن معط
- الأشيري (ت643هـ)
- أبو جعفر البسائي (ت650هـ)
- أبو نصر الجزيري (ت663هـ)
- أبو بكر الأنصاري (ت627هـ)
- إبراهيم المرسي الأنصاري (ت635هـ)
- الشَّلوبين (ت645هـ)
- أبو الحجّاج الأنصاريّ الفاسي (ت653هـ)

الشَّكل رقم (11)

وإنْ تميَّز الجُزولي بالرِّيادة في تدريس النّحو واللّغة فقد تميّز اسمُه كذلك في التّأليف، إذْ له كتب أملى أكثرها على طلبته، ولكن أشهر ما تركه (الجُزوليّة). بالإضافة إلى مؤلَّفات أخرى ذكرها مترجموه، ولكن لم يحفل بها الدَّارسون كثيرًا؛ لأنّها أصبحت في عداد المؤلَّفات المفقودة والضّائعة. ومن مؤلّفاته المذكورة في الكتب[1]:

- الجُزوليّة مع شروحها؛
- شرح إيضاح الفارسيِّ، وقد قام بشرح الإيضاح جملة، وشرح شواهده مفردة؛
- الأمالي في النَّحو؛
- شرح أصول ابن السراج؛
- تنبيهات على مفصّل الزمخشري؛
- تعليقات على كتاب سيبويه؛
- مختصر الفَسْر لابن جنّي في شرح ديوان المتنبّي؛
- شرح قصيدة بانت سعاد. ويبدو ممَّا تقدَّم أنَّ الجزولي ضرب بِنصيبِ وافرٍ في التَّأليف اللُّغويِّ والنَّحويِّ في عصره، لكن لم يشتهر ممّا تركه من مؤلّفات سِوى (الجزوليّة) الّتي حظِيت من اهتمام العلماء بالشَّيء الكثير وهذا ما سأُبَيِّنه في الآتي.

[1]- السيوطي، بغية الوعاة، مج2، ص236. وابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزّمان، د ط. بيروت: 1900م ج3، ص488- 489. وخير الدّين الزركلي، الأعلام، ج5، ص104. وأبو موسى الجزولي، المقدّمة الجزوليّة في النّحو، ص34.

1-2- التّعريف بالمقدّمة الجزوليّة واهتمام العلماء بها: كان من حُسْنِ حظّ (الجزوليّة) أنْ ذاع صيتُها، حيث نالت عناية الطّلبة والعلماء لا سيما في المغرب والأندلس، ولم تحظ بذلك مؤلّفاته الأخرى الّتي ربّما لم تأتِ بجديد "فيُعتنى بها على النّحو الّذي تَمَّ بالنِّسبة للقانون ومن ثمّ بقي الانتفاع محصورًا في نطاق ضيِّق، فكان ذلك عاملا رئيسًا في إهمالها وضآلة الانتفاع بما تضمّنته، ما عدا نقولا رَوَتْها بعضُ المراجع، لكنّها لم تتأكّد صلتُها بكتاب معيّن فالّذي حكاه أبو علي الشَّلوبين، إنَّما رواه عن تلاميذ أبي موسى، ولم يربطه بمؤلَّف ما وكذلك الشَّأن بالنِّسبة لأبي إسحاق العطّار فلم يُشِرْ إلى أيِّ كتاب آخر لأبي موسى"[1]. ولكن اللافت للانتباه أنَّ هذه المقدّمة لمْ تُعرَف بتسمية واحدة، بل بتسميات كثيرة ولعلّ سبب هذا الاختلاف هو "أنَّ أبا موسى كان يُمليه من غير كتاب، فغيّر بالنّقص والزيّادة وتبديل الشَّكل اعتبارًا بالمستويات ورعيًا لِمقتضى الأحوال، فاختلفت أسماؤه لذلك عند الآخذين والمُدرِّسين والشَّارحين"[2]. وأُولَى هذه التسميّات (الجزوليّة) نسبة إلى صاحبها وهي التّسمية الشَّائعة، وثانيها تسمية (المقدّمة) الّتي ذكرها الشَّلوبين في شرحه، وربّما يذكرها بِهذه التّسمية لِصلته المُباشرة بشيخه، مع أنَّه كان ينكرُ نِسْبَتَها إليه، ثمّ هناك اسم (القانون) الّذي أطلقه الجُزولي بنفسه عليها، وابن مالك الّذي كان يذكرها كذلك في شرحه عليها، وسُميت (الكرّاسة) أيضًا بالتَّأنيث و(الكرّاس) الّذي استخدمه العطّار في شرحه، كما سُمِيَت (الإملاء) على أساس أنّ الجزولي كان يُمليها على طلبته، أضف إلى تسميات أخرى هي (المجموع) و(التَّقييد) و(التَّعليقة). وأشار محمّد المختار السّوسي إلى أنَّ للجزولي مقدِّمةً أخرى في النَّحو غير هذه المقدّمة ذات شهرة عريضة[3]، فلو لا ضياع مؤلَّفاته لَبَلَغَ شهرةً أكثر ممَّا بلغه بفضل (الجُزوليّة).

تعدُّ (الجُزوليّة) أهمّ ما خلَّفه الجزولي فكما نعلم لم يبقَ من مُصنّفاته سِواها، وهي مقدّمةٌ موجزةٌ جاءت صغيرة الحجم، مع ذلك حوت جميع أبواب النّحو ولم يُسْبَقْ إلى مثلها، قُدّمَت (الجزوليّة) بعبارة مختصرة وأسلوب موجز في غاية الإيجاز ليس بالطَّويل المُملّ "إنْ كانت صغيرةَ الحجم، فقد جمعت زبدة النّحو ومهمّاته في أقلّ ما يُمكن من الألفاظ، بأسلوب تقريريّ ولغة علميّة، عملت على تقنين النّحو، وإعادة النّظر في تنظيمه وصياغة قواعده، فدلّت على

[1]- أحمد الزواوي، أبو موسى الجزولي، عرض لحياته العلميّة، ومنهجه في البحث، وتأثيره في حقل النّحو، ثمّ نقد لِمنهجه، ص226.

[2]- محمد حجي وآخرون، معلمة المغرب، ج9، ص3007.

[3]- إبراهيم حركات، مدخل إلى تاريخ المغرب المسلم حتّى القرن 9هـ/15م، ج1، ص174.

عُمق فهم صاحبها وأصالة تفكيره"[1]. ولكن وُصِفت كذلك بالغموض، حيث اعتبرها الكثيرُ صعبةَ الفهم ليس من السَّهل على دارسيها إدراك قواعدها دون التمعّن فيها وبخاصّة على المبتدئين، علاوة على ذلك أنَّها لم تحوِ كفايةً الشَّواهد الّتي تُوضِّح القواعد والأحكام الواردة فيها، كما قلَّت الأمثلةُ فيها بِسبب الإيجاز الشَّديد الّذي تميَّزت به، الأمر الّذي أدّى إلى نفور الطّلاب منها وانصراف القلوب عنها. وقيل إنَّ الجُزولي أدرك بدوره صعوبَة مقدّمته، ممَّا جعله يُعيد صياغتها أكثر من مرّة محاولاً تبسيطها وتيسيرها للطّلبة الرّاغبين في دراسة النَّحو وفهمه، ولهذا تعدَّدت نُسخُها فاختلفت دلالة مادّتها النّحويَّة من نُسخة إلى أخرى حيث يُمكن أنْ يكونَ قد طرأ عليها أثناء النّسخ من تحريف لعباراتها، أو سَقْط فيها أو زيادة عليها للتّوضيح، ولكن يُمكن أنْ تكون تلك النُّسخ متوافقة بعضها مع بعض حتَّى قيل إنّها تُمثِّل كتبًا متعدّدة، وليس كتابًا واحدًا. ولِتأثُّر الجُزولي بالمنطق أثرٌ في أسلوب مقدّمته المُوجز، والّذي اعتبره بعضهم جافًّا وغامضًا، مع أنَّ هذا قد يكون رغبةً منه في مجاراة علماء المنطق أو في متابعته مذهب النُّحاة الّذين سبقوه كالرماني (ت384هـ) وابن الطراوة (ت528هـ)، وقد وضع نحويًّا بعض الأبواب كما لو أنَّها حدود منطقيّة صيغت بها بعض التَّعريفات، والقضايا الكليّة الّتي تنطبق عليها الأحكام الجزئيَّة ففي حديثه مثلاً عن الكلام استعمل مصطلحات متداولة في المنطق كالجنس والنّوع. بالإضافة إلى كثرة التّقسيمات والتّفريعات مع الشّرح المُبهم والمُجمل لها، ومن أمثله ذلك كلامه على الحرف، حيث ذَكَرَ له ثمانية أقسام دون الإشارة إلى شاهد يعضدها أو مثال يُوضِّحها. ولا شكَّ أنّ شدَّة اختصار (الجزوليّة) جعلت دارسيها وشارحيها يستدركون عليها أشياء، ويُسجِّلون عليها بعض المآخذ الّتي دفعت بتلميذه الشَّلوبين إلى الاعتذار عن صاحبِها في مواطن كثيرة، فقد أُعِيب عليها نُقْص التّنظيم في عرض بعض الأبواب، حيث لُوحظ تشتّت جزئيّات الباب الواحد في أكثر من موضع، ونَتَجَ عن كلّ هذا التّفريق وقلّة التّرتيب بين الأبواب الّتي ينبغي أنْ تأتيَ مُتَتَابِعة أو تكون هناك علاقة بين جزئياتها[2]. وفوق هذا، هناك من النّحاة الّذين شَكّوا في نسبتها إلى الجُزولي، كما لم تكن بالنِّسبة إليهم سِوى مؤلّف في المنطق واعتبروها مجرّد حواش لجمل الزَجّاجي، أو تقييدات وإملاءات ابن بري، كما أنَّ أسلوبَ الاختصار الّذي قُدِّمت به (الجُزوليّة)

---

[1]– خديجة ناور، تطور الدّرس النّحويّ في المغرب من العصر المرابطيّ إلى العصر السّعديّ، بحث دبلوم الدِّراسات العليا المعمّقة، ص22.

[2]– عمر أبو علي الشَّلوبين، شرح المقدّمة الجزوليّة الكبير، دراسة وتح: تركي بن سهو بن نزال العتيبي ط1. القاهرة/ الرياض: 1993م، مكتبة الخانجي للطّباعة ومكتبة الرّشد للنَّشر، ج1، 52– 54. وأبو موسى الجُزولي، المقدّمة الجزوليّة في النّحو، ص67– 68– 70.

ليس بعمل مبتكر، بل أسلوب تقليديّ قديم سَبَقَ أنْ عَمَلَ به النّحاة المشارقة كالزَجَّاجي وابن السرّاج، وهو الأسلوب الّذي جعلها تستعصي على الفهم.

وإنْ كان هناك من انتقد المقدّمة لسبب من الأسباب المذكورة، فتبقى من أروع ما ابتكر في عصر الجزولي من مؤلّفات النَّحو المُختصرة؛ لأنَّ النَّص المُوجز الّذي تشتمل عليه يسهل حفظه ودراسته وتدريسه وشرحه أيضًا، أضف إلى ذلك أنَّ سمةَ الاختصار هذه زادت المقدّمة سهولة وإفادةً للمتعلّم وتميّزًا عمّا شابهها من كتب نحويّة "ومن مظاهر الإبداع فيها ابتكار أسلوب الاختصار الفنّي، وبالرّغم ممّا يتعرّض له هذا الأسلوب من النّقد، فقد يكون من قبيل المكابرة إنكار ما له من فضل في مساعدة الحُفَّاظ على الاستحضار، وفي دَفْعِ الباحثين إلى التطلّع والشَّرح"[1]. وقال عبد الله كنون (ت1989م) إنَّه "عمد إلى طريقة بعض أوائل النّحويّين الّذين كانوا يميلون إلى تعليل بعض قواعد النّحو والنّظر إليه على أنَّه علم ذو قوانين محكمة فتوسّع فيها ومَزَجَهَا بِشيءٍ من المنطق، وكان وكْدُهُ أنْ يجمعَ أكثر ما يمكن من أحكام هذا العلم في أقلّ ما يُمكن من الألفاظ فَبَلَغَ إلى مراده من ذلك وأوفى عليه"[2]. فقد عرض الجزولي مسائلها بأسلوب مبسّط ومختصر أيضًا ليسهلَ فَهْمُها وحفظُها، ولذلك قصَدَ اختصارَها حتَّى تأتي مركّزة تركيزًا تفوق به كثيرًا من الكتب المطوّلة، ممّا جعله يُقلّل من الشّواهد والأمثلة.

كما لا ينبغي القول إنَّ (الجُزوليّة) حواشي على (الجمل)؛ لأنَّ الحاشية عبارة عن توضيح للمتنِ ومسايرة له في أبوابه ومقاصده، وأمّا (الجزوليّة) فلم تكن كذلك على أساس أنَّ ترتيبَها مخالفٌ لترتيب (الجمل) في أبواب كثيرة، حتَّى إنَّه لم يذكر (الجمل) إلاَّ مرَّة واحدة مع اختلاف في الأساليب والمادّة. ولو كانت (الجزوليّة) اختصارًا لهذا المؤلّف لكانت أوسع منه متنًا، فهي – كما سبق الذِّكر– أكثر اختصارًا منه في معظم أبوابه، أضف إلى ذلك أنَّ الحواشي تعتمد أساسًا على الكتاب الّذي تُؤلَّف من أجله وهذا لا ينطبق عليها، بحيث لم يعتمدْ صاحبُها نصوص (الجمل) إلاَّ قليلاً، ولم يُعلّق على أقواله إلاَّ قليلاً أيضًا[3]. فكلّ ما في الأمر أنَّه اطّلع على (الجمل) واستفاد من التَّبويب الّذي اعتمده الزَجَّاجي فاتّبعه في أغلب أبواب مقدّمته، ولكنّها ليست مجرّد حواش عليه، بِدليل أنَّها اختلفت عن الكتاب من حيث عرض الأبواب وشرحها، كما أنَّ الزَجَّاجي مثَّل كثيرًا كلام العرب، والجزولي لم يكن كذلك فهو قليل الحجّة، مع ذلك كان يُعرِّف المُصطلحات الّتي يذكرها مثل التّوكيد والبدل. كما لم يتّفق معه في بعض الأبواب الّتي

[1]- محمّد المختار ولد أبّاه، تاريخ النّحو العربيّ في المشرق والمغرب، ص270.

[2]- عبد الله كنون، ذكريات مشاهير رجال المغرب في العلم والأدب والسياسة، ج1، ص312.

[3]- أبو موسى الجزولي، المقدّمة الجزوليّة في النّحو، ص58- 59.

تناولها، ومن أمثلة ذلك باب حبّذا وباب الإعراب[1]. فالمهمّ أنَّ الجزولي أفاد من كتاب (الجمل) كثيرًا ولكن ليس إلى حدِّ القول إنَّ مقدّمتَه ما هي إلاَّ نسخة مطابقة له.

ورغم الصّعوبة الّتي تميّزت بها (الجُزوليّة) والنّقد الّذي تعرَّضت له، إلاَّ أنَّ ذلك لم يمنع العلماء والمُشتغلين بالنَّحو من الإقبال على مقدّمته الّتي كانت أفضل مختصرات النّحو حتّى عصرهم، علمًا أنَّ غيرها كان أفضل من حيث وضوح العبارة وبساطة القواعد وسهولتها، مع ذلك عكفوا على تدريس (الجُزوليّة) وشَرْحِها والتّعليق عليها وبالأخصّ النُّسخة الصُّغرى منها "الّتي ظلَّت متداولة في المجالس العلميَّة، وهي الّتي حظيت بنشاط بعض النُّحاة فوضعوا عليها دراسات مختلفة. وأمّا النُّسخة الكبرى، فلم يهتم بها إلاَّ صاحب المباحث، وأفاد منها كلّ من أبي علي الشَّلوبين، وأبي إسحاق العطّار... ولكنّهم لم يضعوا عليها شرحًا خاصًّا، ولا أعلم أنَّ غيرهم قد فعل ذلك. ونذكر أنَّ هذه النّسخة هي آخر ما أَلَفَّه"[2]، إذْ وجد العلماء والطّلبة في هذه المقدّمة غايتَهم رغم الصياغة المنطقيّة الّتي قُدِّمت بها من الحدود والقضايا الكليّة الّتي تنطبق على الأحكام الجزئيّة في بدايتها حين تحدَّثَ عن الكلام وأقسامه.

وبلغ عددُ الشُّروح حوالي عشرين شرحًا، ويوجد بعض منها بمكتبة القرويِّين، وكان الجزوليّ أوّل من وضع شرحًا على مقدّمته ولكن لم يُكمِلْه، حيث توقّف في باب التّوكيد، مع ذلك بقيت منه نُقُول جاءت في بعض شروح (الجزوليّة)[3]. وهذا جدول لأشهر شُرَّاح (الجزوليَّة):

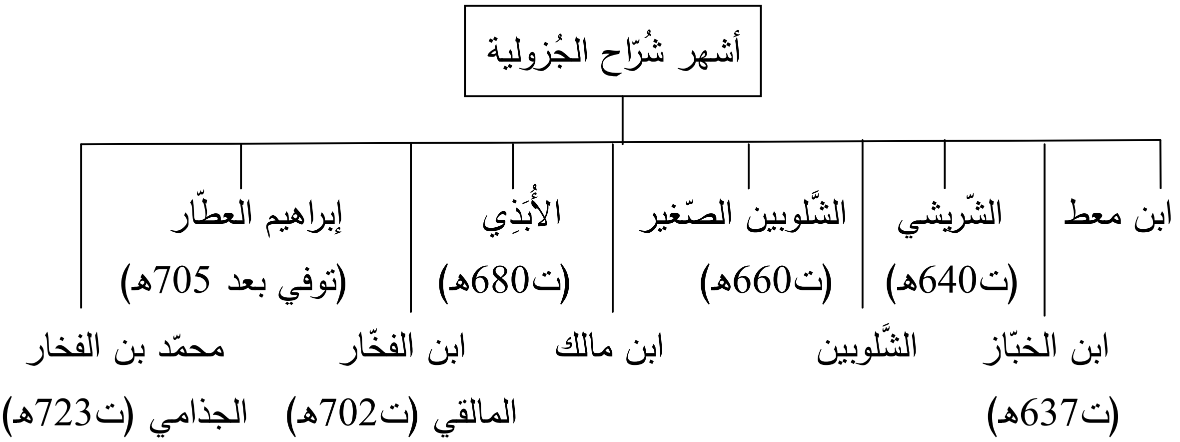

الشّكل رقم (12)

---

[1]- أبو علي الشّلوبين، شرح المقدّمة الجزوليّة الكبير، ج1، ص60- 65.

[2]- أحمد الزواوي، أبو موسى الجزولي، عرض لحياته العلميّة، ومنهجه في البحث، وتأثيره في حقل النّحو، ثمّ نقد منهجه، ص226.

[3]- محمّد حجي وآخرون، معلمة المغرب، ج9، ص3007.

كما هناك من قام باختصارها كأبي منصور الشّيعي (ت626هـ)، وبنَظْمِها كأبي عمرو بن غياث الجذامي الشريشي (ت620هـ)، بالإضافة إلى دارسيها أمثال الغبريني وسِواه مثلما سبق الذِّكر. فالمهمّ أنَّ الجُزولي كثير الفائدة للطَّلبة في حياته وبعدها، وواسع الاطّلاع قرأ مُصنّفات نحويّة كثيرة كما يبدو في مقدّمته الثريّة بالآراء الّتي استنبطها منها، مع آراء أخرى كانت نتيجةً لاجتهاده الخاصّ حتَّى صار إمام النُّحاة في علمه لا يُجارى.

اطّلعَ الجُزولي على عددٍ مهمٍّ من مؤلّفات النَّحو واللّغة، ولذلك تعدّدت مصادر مقدّمته وتنوّعت، بدءًا من المصادر المباشرة الّتي تمثّلت في ما تلقّاه مشافهةً عن شيخه ابن بري أثناء إقامته بمصر فضلاً عن مداومته على حلقات الدَّرس، وهو المصدر الشّفويّ الوحيد الّذي ذكره في آخر باب من مقدّمته، وهو باب من حروف التّصديق والإيجاب. وكان إلى جانب ابن بري أبو المحاسن البهنسي الملقّب بالمهذّب (ت572هـ)، وأبو منصور ظافر (ت597هـ). ثمّ المصادر غير المباشرة أو الكتابيّة الّتي أجدها في صنفين، صِنفٌ أخذ عنهم من خلال مصنَّفاتهم مع تصريح بأسمائهم وهم كُثُر، أمثال سيبويه الّذي نقل عنه غير مرّة، ثمّ الكسائي وتلميذه الفرّاء، ويليهما الأخفش والمبرد والزجاج وابن كيسان. والصّنف الآخر نَقَلَ من مؤلّفاتهم دون أنْ يُصرِّح بأسمائها أو بأصحابها كالفارسي والرمّاني والجرجاني والزَجّاجي والزمخشري.

ونظرًا لهذا التلقّي والاطّلاع الفيّاض على مؤلّفات هؤلاء النُّحاة المشاهير، كان الجزولي أوّلاً مهتمًّا جدًّا بتدريس هذه المؤلّفات وشرحها، وثانيًا متمكّنا من اتّباع أسلوب خاصّ في مناقشة المسائل يقوم من جهة على مساندة بعض الآراء وترجيحها وتأييدها، ومن جهة ثانية على مخالفة النّحاة في آراء أخرى، فمقدّمته انفردت بآراء جعلت من الجزولي مدرسةً نحويّة تخرّج فيها جماعة من الطّلبة النُّجباء فانتصب أكثرهم للتّدريس بعد شيخهم[1]. وإنْ أُعِيب على المقدّمة أسلوب الإيجاز الّذي اعتمده صاحبها فيكفي القول إنَّها "من بديع المختصرات الّتي نشأت في هذا العصر وعرفت تطوّرًا كبيرًا في ما بعد، وإبداع الجزولي واضح في نظمه وشدّة اختصاره وفي أسلوبه المشرب بالصّيغ المنطقيّة الدّقيقة. فجاءت وكأنّها مذكرة الحافظ تُسْعِفُ دارسَها باستظهار القواعد الأساسيّة في كلمات معدودات في كلِّ بابٍ من أبواب النَّحو"[2]، وهكذا كانت (الجزوليّة) إبداعًا لم يشهد الدَّرسُ النّحويّ مثلَه بالمغرب، ولهذا لَقِيَت من اهتمام العلماء الشَّيءَ الكثير فهي وإنْ جاءت مختصرة وموجزة، تبقى ذات فائدة وعلم وفير قد لا يكون الأمر كذلك

---

[1]– أحمد بلشهاب، "تطوّر الدّراسات النّحويّة في المغرب حتّى القرن الثّامن الهجريّ" مقال في زهرة الآس في فضائل العبّاس، ج2، ص480.

[2]– محمّد المختار ولد أبّاه، تاريخ النّحو العربيّ في المشرق والمغرب، ص266.

مع بعض الكتب المطوّلة الّتي قدَّمها أصحابها بأسلوب سهل وعبارات أكثر وضوحًا، بالإضافة إلى ما ضمَّنها الجزولي من كتب نحويّة مثل (الكتاب) و(الإيضاح) و(المفصّل) و(الفسر) لابن جني. وللعلم فإنّ الجزولي قام بوضع شروح وتعليقات على هذه الكتب الأربعة. ونظرًا لِما لهذه المقدّمة من أثرٍ عظيمٍ في تنمية الدَّرس النَّحويِّ ليس في المغرب فقط، بل في بلاد المشرق أيضًا، فقد نظّم أحد الشُّعراء هذين البيتين واصفًا إيّاها كالآتي[1]:

كُرّاسَةٌ فِي النَّحوِ لَكِنَّهَا تَحْوِي مِن العلْمِ كَرارِيسَا

صَغيرَةُ الحَجْمِ وَقَد أَسَّسَتْ قَواعِدَ الصَّنْعَة تَأْسِيسَا

فرغم صِغَرِ حَجْمِ (الجزوليّة) وإيجازها الشَّديد إلاَّ أنَّها تبقى ضمن أغنى مصادر النّحو الّتي شملت الكثير من العلم الّذي انتفع به الطّلبة، فهي كما يصفها الشّاعر كرّاسة أسَّست لِقواعد النّحو تأسيسًا لا مثيل له أدرك النّحاة من خلالها أمورًا كثيرة.

1-3- آراء الجُزولي واختياراته النَّحويَّة: انفرد الجزولي بآراء نحويّة قليلة بعضها صحيح، وبعضها الآخر قريب إلى الصَّواب، حتّى إنَّ هناك من رَدَّ عليه بالرّفض في آراء وعدم سماع ذلك. وفي آراء أخرى ساندَ فيها نُحاة من هذا المذهب وذاك، ولكنّه كان كثير الميل إلى البصريّين الّذين نقل عنهم الكثير. بالإضافة إلى متابعته للكسائي والفرّاء في بعض المواضع مع استعماله مصطلحات الكوفيّين. ومجمل القول "اتّسم موقفُه من (المذاهب النَّحويَّة) بالاستقلال التامّ، وطبعته النّزاهة العلميَّة المطلوبة، فلم يُبدِ تعصّبًا لمذهب معيَّن، عند اختياره رأيًا في إطار النَّحوِ العربيِّ واستجابة لمطالب اجتهاده، فاستند إلى سلامة معيَّنة من سيبويه، ومن أصحابه والبصريّين المتأخِّرين ووقف مواقف أخرى مُشَرِّقة من المذهبِ الكوفيِّ"[2]، ومعنى هذا أنَّه تارةً يُساند البصريِّين وثانية الكوفيِّين، وثالثة يُخالف المذهبَيْن استنادًا إلى وجهة نظره كما كان مُؤيِّدًا في بعض المسائل للبغداديِّين والأندلسيِّين وفي أخرى منفردًا بها. وفي الآتي بعض من آرائه واختياراته النَّحويَّة:

- قال الجزولي إنَّ المفعول له لا يجوز جرُّه باللام إلاَّ إذا كان مُختصًّا في مثل (جئتك لإعظامك) وليس (جئتك لإعظام لك) ولكن هذا غير جائز؛ لأنّ الشَّخص لا يقْدمُ على الفعل إلاَّ لِغرض معروف عنده، ولم يأخذ أكثر النُّحاة ما أتاه الجُزولي في جواز جرِّ المفعول له بتوفُّر ذلك الشّرط، وكان بينهم تلميذه الشّلوبين الّذي قال إنَّ الجرَّ جائزٌ ولا يعرف لشيخه سلفًا في

[1]- محمد حجي وآخرون، معلمة المغرب، ج9، ص3007.

[2]- أحمد الزواوي، أبو موسى الجُزولي عرض لحياته العلميّة، ومنهجه في البحث، وتأثيره في حقل النّحو، ثمّ نقد لمنهجه، ص248.

ذلك[1]، وأذكر ابن عقيل الّذي عَارَضَه في شرحِهِ على ألفية ابن مالك بقوله"وزَعَمَ الجزولي أنَّه لا يجوز جرُّه وهو خلاف ما صرَّح به النَّحويُّون"[2]، ورَأْيُ الجزولي هذا غير صحيح؛ لأنّه يجوزُ الجرُّ إنْ لم يكن هناك مانع يمنع منه.

– قال الجُزولي كابن عصفور وابن هشام الخضرواي (ت646هـ) وسِواهما، بامتناع إقامة المفعول الثّاني مقام المفعول الأوّل إنْ كان الفعل ينصب أكثر من مفعول به واحد، ولذلك رأى نحويُّنا وجوب تحوّل هذا الأوّل إلى نائب الفاعل فقط[3] ممّا يُجنُّبِ اللّبس وهذا مذهب سيبويه ومن تبعه، وغير هؤلاء من النُّحاة الأندلسيِّين والمغاربة ذهبوا إلى جواز إنابة غيره، والمقصود الظّرف والمصدر والمجرور مع وجود المفعول مطلقًا أمثال ابن مالك والظّاهر قول الكوفيِّين.

– اختلف النُّحاة في أيّ النّونين المحذوفة، نون الرّفع أم نون الوقاية، حيث ذهب بعضهم وعلى رأسهم سيبويه إلى القول إنَّه عند اجتماع النّونين يجب حذفُ نون الرّفع وإبقاء نون الوقاية وقد حكى ذلك في باب النّون الثّقيلة والخفيفة واختاره من الأندلسيِّين ابن مالك، في حين يرى بعضهم الآخر أنَّ النّون الثّانية هي المحذوفة وليس نون الرَّفع، والجُزولي اختار هذا الرّأي قائلاً إنَّه إذا اجتمعت نون الوقاية الّتي تلحقُ بالفعل المُضارع المرفوع بالنّون يجوز الفكّ والإدغام ومثال ذلك (يضربونني ويضربونّي) وعليه (أتحاجُونِّي) من قرأه بالتَّشديد كالكسائي في قوله عَجَلَّ: ﴿أَتُحَـٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: 80]، كما يجوز حذفُها وإبقاء نون الرّفع (أتحاجُونِي) مُشيرًا إلى أنَّ نونَ الوقاية لا تلزم إلاّ في (ليت) وإنْ حُذِفت منه فذلك لضرورة الشّعر كقول أحدهم:

كَمُنيَةِ جَابِرٍ إذْ قَالَ ليْتِي أُصَادِفُهُ وأفْقِدُ بَعْضَ مَالِي

والمُصنِّفُ مُصيبٌ في ترجيحه لِحذف نون الوقاية؛ لأنَّ النّون الأولى ضمير فاعل، وبالتّالي لا يُرجَّح حذفها، كما أنَّ الثّقل ناتجٌ عن الثّانية وليس عنها، وأخذ هذا الرّأي أكثر النُّحاة المتقدّمين كالأخفش والفارسيّ والسّيرافي وابن جنّي، وكذلك المتأخّرين مثل المُرادي[4] وغير هؤلاء كثير.

---

[1]– أبو موسى الجزولي، المقدّمة الجزوليّة في النّحو، باب التّحقيق، ص262.

[2]– عبد الله بن عقيل، شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، تح: محمد محي الدِّين عبد الحميد، د ط. القاهرة: 1980م، دار التّراث ودار مصر للطّباعة، ج2، ص187.

[3]– المرجع السّابق، ص142– 143. وجلال الدِّين السيوطي، همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، تح: أحمد شمس الدِّين، ط1. بيروت: 1998م، دار الكتب العلميّة، ج1، ص519.

[4]– أبو موسى الجزولي، المقدّمة الجزوليّة في النّحو، باب التّحقيق، ص62. وأبو علي الشّلوبين، شرح المقدّمة الجزوليّة الكبير، ج2، باب التّحقيق، ص642– 643. وعمرو بن عثمان بن قنبر سيبويه، الكتاب، تح: عبد السّلام محمّد هارون، ط3. القاهرة: 1988م، مكتبة الخانجي ج3، ص519. وبدر الدّين المرادي، توضيح المقاصد والمسالك بِشرح ألفيّة ابن مالك، تح: عبد الرّحمن علي سليمان، ط1. القاهرة: 2001م، دار الفكر العربيّ، ج1، ص379.

– قال الجُزولي إنَّ الفاعل المقرون بـ (إلاَّ) الحصر أو بـ (إنّما) الشَّبيهة بها يجب تأخيره في مثل القول (إنّما ضرب زيدًا عمرٌو)، (وما ضرب زيدًا إلاّ عمرو) والمحصور هو المفعول (زيدًا)، كما وَرَدَ هذا في التّنزيل: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: 28]. وقد سبقَه إلى هذا بعض البصريِّين الّذين منعوا تقديمَ المحصور منعًا مُطلقًا، وأمَّا الجمهور من البصريِّين وكذلك الفرّاء من نحاة المدرسة الكوفيَّة فقد منعوا تقديمَ الفاعل في حالة إذا ما حُصِرَ هو أي الفاعل وأجازوا تقديمَ المفعول المحصور لأنَّه في نيَّةِ التَّأخير، بخلاف الكسائيّ الّذي أجاز تقديم المحصور بـ (إلاَّ) فاعلاً كان أم مفعولاً في مثل (ما ضَربَ إلاّ زيدًا عمرو) لتجنّب الالتباس. أمّا ابن مالك فقد أوجب تأخير المحصور بهذه الأدوات فاعلاً كان أم مفعولاً، فإذا قَصَد حَصْرَ المفعول وجَب تأخيره، وأمّا إذا قصد حَصْرَ الفاعل فوجب تأخيره وتقديم المفعول. كما للمكُّودي رأيُه في المسألة حيث يقول إنَّ القصدَ لا يظهر إلاَّ في المحصور بـ (إلاَّ)، وأمّا المحصور بـ (إنّما) فلا يُعْلَم حصره إلاَّ بتأخيره، وللإشارة تَابَعَ الجزولي من تلاميذه الشَّلوبين. أضاف نحويًّا في باب الفاعل قوله إنَّ كلَّ فاعل لا تفصل بينه وبين المفعول قرينةٌ لا في اللّفظ ولا في المعنى وجب تقديمه في مثل (ضرب موسى عيسى)[1]، وأمّا إنْ وُجِدت القرينة فيجوز تأخيره نحو (ضربت موسى ليلى)، وهو الرأي المشهور كذلك عند جمهور نُحاة المشرق والأندلس. والصّوابُ هو جواز تقديم المفعول المحصور على الفاعل؛ لأنّه إنْ تقَدَّمَ الأوّلُ فيكون في منزلة التّأخير.

– ألغى الجُزولي عَمَلَ (إنَّ) وأخواتها في المبتدأ والخبر إذا دخلت عليها (ما)، وذلك لِقوله في المقدّمة "هذه الحروف إذا دخلت عليها (ما) كان الإلغاءُ أحسنَ، وقد تعمل، والعمل في إنَّ وأنَّ أضعف منه في أخواتها، وموضع السَّماع ليت"[2]، وقَصَدَ بقوله هذا أنَّ دخول (ما) على هذه الحروف يُبطل عملها وتليها الجملتان الاسميَّة والفعليَّة كما في قول الله ﷻ: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ﴾ [الأعراف: 33]، وقوله تعالى أيضًا: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [الكهف: 110]، وكان سيبويه ممّن منع عَمَلَ (إنَّ) في حالة اتصالها بـ (ما)، ولكن هناك من أبقى عملَ هذه الحروف رغم دخول (ما) ومنهم ابن مالك[3]، وذهب هذا الرأيَ كثيرٌ من النُّحاة وحجّتهم أنَّ (ما) أزالت

---

[1]– أبو موسى الجزولي، المقدّمة الجزوليّة في النّحو، باب التّحقيق، ص51. وعبد الرّحمن المكُّودي، شرح المكُّودي (على الألفيّة في علمي النّحو والصّرف لابن مالك ومعه حاشية العلاّمة الشّيخ أحمد بن عبد الفتّاح الملوي والأزهري) عناية ومراجعة: أحمد عوض أبو الشبَاب، د ط. الدّار البيضاء: 2011م، دار الرّشاد الحديثة ص75.

[2]– أبو موسى الجزولي، المقدّمة الجزوليّة في النّحو، باب التّحقيق، ص111.

[3]– بدر الدِّين المُرادي، الجني الدّاني في حروف المعاني، تح: فخر الدّين قباوة ومحمّد نديم فاصل، ط1. بيروت: 1992م، دار الكتب العلميّة، ص395.

اختصاصها بالأسماء وهيّأتها للدّخول على الأفعال، وهذا عكس (ليت) الّتي إنْ دخلتها (ما) تبقى على اختصاصها بالأسماء فلا يُقال (ليتما قام زيد) وهذا بالإجماع بين النُّحاة، خلافًا لابن أبي الرَّبيع الإشبيليّ السَّبتيِّ الّذي زعم أنَّه إذا اتّصلت (ليت) بـ (ما) الحرفيّة أزالتها عن اختصاصها بالأسماء، ومن ثمّ يجوز دخولُها على الأفعال نحو المثال السّابق (ليتما قام زيد) ولكن لم يكن مُصيبًا في رأيه هذا فقد رَدَّ عليه ابن هشام الأنصاريّ لقوله إنَّ (لَيْتَ) سواء أكانت وحدها أم متّصلة بـ (ما) فلا يجوز دخولها على الأفعال[1]، فالصّحيح أنَّها تبقى مختصّة بالجملة الاسميّة مع (ما) وهو المُختار عند الجزولي.

– افترض الجُزولي "أنَّ الكلام يجري على نسق منظّم مضبوط، فإنَّ لكلِّ كلمة في السّياق مرتبةً معيّنة، حُدِّدت على أساس الوظيفة اللّغويَّة الّتي تؤدِّيها فيه، في ضوء العلاقات الّتي تَرْبِطُها بما قبلها وبما بعدها. ثمّ إنَّ تلك الرُّتبة تعدّ الوسيلة الرّئيسة للفهم، وإنَّ السياقَ إذا لم يُحافظ عليها، اختلّ بناؤه العام، وانبهم فيه المعنى المراد"[2]. فهو هنا يُنادي بِضرورة مراعاة التَّرتيب في أجزاء الجملتين الفعليّة والاسميّة من حيث التّقديم والتّأخير تجنّبًا لأيِّ التباس. وقد تحدّث في هذه المسألة على سبيل الذِّكر عن امتناعه عن تَقَدُّمِ المفعول به على الفاعل في حالة حدوث الالتباس كما في المثال الشّهير (ضَرَبَ مُوسَى عِيسَى) وقد سبقت الإشارة إليه آنفًا، وتبعه في هذه المسألة من الأندلسيِّين ابن عصفور وابن مالك. وكذلك عن أحقيّة تقديم المبتدأ على الخبر لفظًا، مع أنَّ هناك من أجاز تقديم الثّاني مفردًا وجملة، وغيرهم قالوا بجواز الحالتين، والجزولي أَلَحَّ على لزوم هذا التّقديم. وظاهرٌ ممّا تقدَّم أنَّ فَهْمَ الجُزولي لِمسألة الابتداء من خلال ما تقدّم جديد، حيث لم يولِها النُّحاة قبله كلّ الاهتمام الّذي منحها إياه.

– ذهب الجُزولي مذهبَ البصريِّين وفي مقدّمتهم سيبويه إلى أنَّ رافعَ الخبر هو الابتداء قائلاً عن هذا الباب "جعل الاسم أوّل الكلام معنًى مُسندًا إليه الخبر، وبه يرتفع المبتدأ والخبر جميعًا بِشرط التعريّة من العوامل اللّفظيَّة"[3]، فالمبتدأ والخبر يُرْفَعَان بالابتداء معًا بشرط أنْ لا تسبقهما عوامل مثل كان، أضحى، إنَّ وسِواها، وخالفه في هذا الرَّأي تلميذه الشَّلوبين الّذي تابعَ قول الكوفيِّين أمثال الفرّاء في أنَّ المبتدأ والخبر مترافعان، بِمعنى إنَّ رافع المبتدأ هو الخبر

---

[1]– عبد الله بن هشام الأنصاري، مغني اللّبيب عن كتب الأعاريب، تح: محمّد محي الدّين عبد الحميد، د ط. بيروت: 1991م، ج1، المكتبة العصريّة للطّباعة والنّشر، ص315.

[2]– أحمد الزواوي، أبو موسى الجزولي عرض لحياته العلميّة، ومنهجه في البحث، وتأثيره في حقل النّحو، ثمّ نقد لمنهجه، ص125.

[3]– أبو موسى الجزولي، المقدّمة الجزوليّة في النّحو، باب التّحقيق ص93 وص96.

ورافع الخبر هو المبتدأ وهما بذلك لا يُرفعان بالابتداء؛ لأنَّ المبتدأ هو الّذي يطلب الخبرَ. وذهب قومٌ من النُّحاة إلى أنَّ الخبر مرفوعٌ بالمبتدأ والابتداء معًا[1]؛ لأنَّ كلّ واحد منهما لابدّ له من الآخر.

ولقد استطاع أحمد الزواوي تلخيصَ مُجمل النّقاط الّتي تناولها الجزولي في مسألة التَّقديم والتّأخير في الآتي[2]:

"1- كلّ تقديم أو تأخير، أوقع في اللّبس، غير مسموح به؛

2- الفاعل لا يتقدّم على الفعل، إلاّ على شرط (الابتداء)؛

3- الأفعال الّتي لا تتصرّف، لا يتقدّم عليها ما عملت فيه؛

4- ما عمل فيه الحرف، لا يتقدّم عليه؛

5- الصّلة لا تتقدّم على الموصول، وكذلك ما اتصل بها، ولا يفصل بينهما بِما هو أجنبيّ؛

6- المُضمر لا يتقدّم على الظّاهر، إلاّ على شرط التّفسير؛

7- ما له الصّدارة، لا يتقدّم عليه عامله؛

8- المضاف إليه لا يتقدّم على المُضاف، ولا يفصل بينهما، إلاّ ما استثني؛

9- التّابع لا يتقدّم على المتبوع؛

10- ما بعد أدوات الاستثناء، والحصر لا يتقدّم عليها؛

11- التّمييز لا يتقدّم على المُميّز (عامله)؛

12- لا يُفرّق بين (عامل) وبين (معموله)، بِما هو أجنبيّ؛

13- كلّ فعل متصرّف، يجوز تقديم معموله عليه نفسه، سِوى الفاعل"، وإذا منَعَ الجزولي تقديمَ التّمييز على عامله سواء أكان اسمًا كما في تمييز المفرد أم كان فعلاً كما في تمييز النّسبة وسواء أكان الفعل متصرِّفًا أم كان جامدًا- وهو مذهب سيبويه والفرّاء وأكثر البصريِّين والكوفيّين والمغاربة أيضًا- فهناك من النُّحاة الّذين أجازوا تقديمَه على العامل إذا كان العامل فعلاً متصرِّفًا واحتجّوا على ذلك أوّلاً بالسَّماع، وثانيًا بالقياس لأنَّ التَّمييز يُنصَب كالمفعول به وسائر الفضلات، كما أنَّ الفعلَ عاملٌ قويٌّ بالتصرّف، منهم ابن مالك الّذي ارتضاه في بعض مؤلّفاته حيث أجاز تقديمَ التَّمييز عليه قليلاً، وسبقه إلى هذا من النُّحاة الكسائي والمبرد والمازني

---

[1]- عبد الرّحمن أبو البركات بن الأنباري، الإنصاف في مسائل الخلاف بين البصريّين والكوفيّين، دراسة وتح: جودة مبروك محمد مبروك، مراجعة: رمضان عبد التواب، ط1. القاهرة: 2002م، مكتبة الخانجي، ص44.

[2]- أحمد الزواوي، أبو موسى الجزولي عرضٌ لحياته العلميّة، ومنهجه في البحث، وتأثيره في حقل النّحو، ثمّ نقد لمنهجه، ص126.

وغيرهم[1]. والمُلاحظ أنَّ الجزولي أَوْلى لِمسألة التَّقديم والتَّأخير اهتمامًا كبيرًا، وأَعْتَبِرُ هذا أبرز المواقف النَّحويَّةِ الّتي انفرد بها عن غيره، حيث لو يولوها كلَّ هذه العناية الّتي أولاها لها الجزولي.

– اختلف النُّحاة في (ما) المصدريّة من حيث وصلها بالجملتين الفعليّة والاسميّة، فإنْ قالوا بالإجماع إنّها تُوصل بالفعل الماضي والمُضارع فقط دون ذكرهم للأمر، ففي وَصْلِها بالجملة الاسميّة خلاف، حيث ذهَبَ جمهور البصريِّين وفي مقدّمتهم سيبويه إلى أنَّ (ما) لا تُوصَل إلاّ بالجملة الفعليّة، وأمّا الكوفيّون فقد أجازوا وصلَها بالجملة الاسميَّة مع أنَّ الفعليَّةَ عندهم أكثر، والجزولي رأى أنَّ (ما) المصدريّة تُوصَلُ بالجملة الفعليّة كثيرًا، كما قد تُوصل في غير الأكثر بالاسميّة وفقًا لِمَا حكَاهُ الكوفيّون حيث يقول "فالمصدريّة توصل بالجملة الفعليّة في الأمر العامّ"[2]، ويبدو أنّ تلميذَه الشَّلوبين رَدَّ عليه في هذا الاختيار بقوله "وإنْ أراد– الجُزولي– أنّ (ما) في الجملة أكثر ما تُوصَلُ بالجملة الفعليّة فهو غير صحيح؛ لأنّ وصلَها إذا كانت بِمعنى الّذي بالجملتين كثير في كلام العرب على السَّواء"[3]، يُفهَمُ من قوله هذا أنَّ (ما) تُوصَلُ بالجملتين الفعليَّة والاسميَّة من غير ترجيح. واستند أبو موسى في قوله إلى مصدرين، أوّلهما لأنَّ وصلَ (ما) بالجملتين الاسميَّة والفعليَّة مسموعٌ في كلام العرب، وثانيهما مساندته رأْي الفرّاء الّذي أجاز الوجهيْن لقوله (بلغني ما صنعت) و(ما أنت صانع) وهو الرَّأيُ الصَّوابُ عند جمهور النُّحاة، وخلاصة الأمر في هذه المسألة أنَّ الجزولي لم يُصِبْ في قوله إنَّ وصلَ (ما) بالجملة الاسميَّة قليلٌ.

– تفطَّن الجُزولي إلى الفرق بين أسلوب الاستفهام في القرآن الكريم، وبين مثيله في كلام البشر أثناء تناوله للأداة (أم)، فقد اعتبرها من حروف العطف، وهي بذلك تأتي في الاستفهام متّصلة ومنقطعة[4]، وسُمِيت متّصلة لأنَّ ما قبلها وما بعدها يكون كلامًا واحدًا، ومن ثمّ لا يُستغنى بواحد منهما عن الآخر وتُسمّى أيضًا بالمُعَادِلة لِمعادلتها للهمزة في إفادة التّسوية كما في قوله

[1]– محمّد بن مالك الأندلسيّ، شرح التّسهيل، تح: عبد الرّحمن السيّد ومحمّد بدوي المختون، ط1. جيزة: 1990م، هجر للطّباعة والنّشر والتّوزيع والإعلان، ج2، ص389– 391. وعبد الله بن هشام الأنصاري، أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك (ومعه كتاب عدّة السّالك إلى تحقيق أوضح المسالك تأليف محي الدّين عبد الحميد)، د ط. بيروت: د ت، ج2 منشورات المكتبة العصريّة، ص271– 272. والسيوطي، همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، ج2، ص268.

[2]– أبو موسى الجزولي، المقدّمة الجزوليّة في النّحو، باب التّحقيق، ص54– 55.

[3]– أبو علي الشَّلوبين، شرح المقدّمة الجزوليّة الكبير، ج2، باب التّحقيق، ص600.

[4]– المرجع السّابق، ص71. وأحمد الزواوي، أبو موسى الجزولي عرض لحياته العلميّة، ومنهجه في البحث، وتأثيره في حقل النّحو، ثمّ نقد لمنهجه، ص135.

تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ﴾ [البقرة: 6] والاستفهام، وأمّا المنقطعة فذلك لأنّها تقَعُ بين جملتين مستقلّتَيْن، وتكون غير مسبوقة بالهمزة لا لفظًا ولا تقديرًا، واختار هذا الرّأي كثيرٌ من النُّحاة، في حين جعلها بعضُهم للتَّعريف فقط، كما حكَى بعضُهم الآخر أنَّها زائدة، وممّن أجاز العطف بها من النُّحاة ابن مالك مع اشتراط اقترانها بهمزة التّسوية، ولكن هناك من مَنع العطفَ بها لِمعادلتها همزة الاستفهام، وعليه فالجملة الّتي تأتي بعدها تكون جملةً مُستفهمًا عنها كما يحدث بعد الهمزة أيْ تكون (أم) استفهاميّة وليست عاطفة مثل: (أزيدٌ قائم أم عمرو) والتّقدير أيّهما قائم؟ (أقائم زيد- أقائم عمرو)[1]، وهذا على أساس أنَّ السّؤالَ عن القيّام يَخصُّ الاثنين معًا.

– زَعَمَ الجزولي جوازَ حذف خبر (لا) النّافية للجنس حين يكون ظرفًا أو لا التّبرئة كما يُسمِّيها متابعةً لبعض النُّحاة، واستدلَّ على ذلك بِالقول إنَّ بني تميم لا يذكرون خبرها، ولا يلفظون به إلاَّ إذا كان ظرفًا "وخبرها مرفوعٌ ولا يلفِظ بِخبرِها بنو تميم إلاَّ أنْ يكونَ ظرفًا"[2]، ولكن اعترض على رأيه النُّحاة جميعًا؛ لأنَّهم لم يعرفوا له مستندًا في هذا الرّأي، فهذا الشَّلوبين أنكر عليه ما نسبه لبني تميم في هذه المسألة، بِدليل أنَّه لم يعلمْه عن أحد من النُّحاة وقد يكون ذلك من قيّاسه وغير منقول، مع أنَّ ما ذَكَرَه ليس موضع القياس[3]، وابن مالك أيضًا الّذي خالفه في ما ذهب إليه، حيث يقول "وَزَعَمَ قومٌ منهم الزَّمخشري والجُزولي: أنَّ بني تميم يحذِفون خبر (لا) مُطلقًا على سبيل اللّزوم. وليس بِصحيح ما قالاه، لأنَّ حذفَ خبر (لا) دليل عليه يَلْزِم منه عدم الفائدة. والعرب مُجمِعون على تَرْكِ التَكَلُّمِ بِما لا فائدة فيه"[4]، وعليه يبدو أنَّ الجُزولي لم يُصِبْ كذلك في ما قاله عن حَذْفِ خبر (لا) إنْ كان ظرفًا، ولهذا أنكر عليه جمهور النُّحاة هذا الاستثناء، فكلّ ما أجازوه هو تنكير الخبر وتأخيره لو كان ظرفًا، وأمّا حذفه فلا ينبغي أنْ يحدثَ بلا دليل يدلُّ عليه، وبالتّالي حذف بني تميم خبر (لا) يحدثُ في حالة ما إذا كان جوابًا استغناءً بوجوده في السّؤال في مثل قول (هل من رجل في الدّار؟ لا رجل).

---

[1]- ابن هشام الأنصاري، مغني اللّبيب عن كتب الأعاريب، ج1، ص51- 59.

[2]- أبو موسى الجزولي، المقدّمة الجزوليّة في النّحو، باب التّحقيق، ص220- 221.

[3]- أبو علي الشَّلوبين، شرح المقدّمة الجزوليّة الكبير، ج3، ص1006. وأحمد الزواوي، أبو موسى الجزولي عرض لحياته العلميّة، ومنهجه في البحث، وتأثيره في حقل النّحو، ثمّ نقد لمنهجه، ص253.

[4]- محمّد بن مالك الأندلسي، شرح الكافية الشافية، تح ومراجعة: عبد المنعم أحمد هريري، ط1. المملكة العربيّة السعوديّة: 1982م مكّة المكرّمة، جامعة أم القرى، كليّة الشّريعة والدّراسات الإسلاميّة، مركز البحث العلميّ وإحياء التّراث الإسلاميّ، ج1، ص537.

– انفرد الجزولي كذلك في باب النَّسب لقوله "كلُّ اسم نسبْتَ إليه فإنّه في الأمر العامّ يلحقُ آخره ياء النِّسبة ويُنقلُ الإعراب إليها ويلزم ما قبلها الكسر، ثمّ إنْ كان فيه هاء التأنيث فإنّها تُحذفُ، وإنْ كان على فَعِل أو فُعِل أو فِعِل فإنّه يُفتح وسَطه، وإنْ كان مِثل تغلِب فإنّه يجوز فتحُ ما قبل آخره، والمختار ألا يُفعل ذلك"[1]، وهو في هذا الباب يتوسَّط مذهبيْن؛ لأنَّه يجيز الفتح ويختار الكسر في الوقت نفسه، فبالنِّسبة للمبرد كان يُجيزهما معًا نحو مغرِب مغرَبِيّ أو مغرِبيّ، وأمّا سيبويه فقد اختار الكسر فقط، وللجزولي غير مذهب الأوّل والثّاني "فهذا مذهبٌ ثالثٌ للجزولي غير مذهب المبرد وسيبويه، وذلك لأنَّ المبرد يُجيز الوجهيْن، ولا يختار الكسرَ كما اختاره الجزولي، وسيبويه لا يُجيزُ فيه ما لم يُسمع فيه الفتح إلاَّ الكسر، ومذهب الجزولي إجازة الفتح واختيار الكسر وهو مذهب متوسِّط بين المذهبين لا يُعْرَف لِغيره"[2]، يُفهم من هذا أنَّ رأيَه هذا مُبتكر ولم يُنسب لغيره من النُّحاة الّذين سبقوه وعاصروه أيضًا، وربّما لم يُرجِّح هذا الرّأي حتّى النُّحاة الآتون من بعده.

– اختلف الأكثرون في حالة إعراب (ما) الّتي تأتي بعد سِيَّ (سيّما) بمعنى مثل، وقد ألحق (لا سيما) بأدوات الاستثناء الكوفيّون وجماعة من النُّحاة البصريِّين والأندلسيِّين كالأخفش وأبي حاتم والنحّاس وابن مضاء وغيرهم، ولكن أضرب عن ذكرها في باب الاستثناء المبرد وأبو حيّان الّذي لم يرَ لإلحاقها في هذا الباب وجهاً وهو الصّواب؛ لأنَّها لا تُعَدُّ كذلك والجزولي تابعَ الرَّأي الأوّل. ولكن ما يهمُّني في هذا أنَّ بعضهم جعل (ما) في (لا سيما) اسمًا موصولاً بمعنى (الّذي) وما يليها يكون خبرًا لمبتدأ محذوف، والجملة من المبتدأ والخبر صلة الموصول لا محلّ لها من الإعراب، وبعضهم الآخر اعتبرَ (ما) نكرة تامّة غير موصوفة والاسم النّكرة الّذي بعدها يأتي تمييزًا لها، وأمّا ابن خروف فقد أجاز أنْ تكونَ نكرةً موصوفة والجملة صفة والجزولي لم يأخذ أيَّ رأي من هذه الآراء، بل انفرد بالقول إنَّ (ما) حرف وبالتّالي يجوز اعتبارها زائدة[3]، وما يأتي بعدها يكون مُضافًا إليه سواء أمعرفة كان أم نكرة.

– اختلف النُّحاة في جازم جواب الشَّرط، فقد رأى أكثر البصريِّين أنّه مجزوم بالأداة وهذا الرّأي عزاه السيرافي إلى سيبويه، وغيرهم يرى أنَّ العامل هو الأداة والفعل معًا وهناك من نسبه

---

[1]- أبو موسى الجزولي، الجزولیّة في النّحو، باب التّحقيق، ص235.

[2]- المرجع نفسه، ص236.

[3]- المرجع نفسه، ص82. وأثير الدِّين أبو حيّان الأندلسيّ، تذكرة النُّحاة، تح: عفيف عبد الرّحمن، 1. سوريا: 1986م مؤسّسة الرّسالة للطِّباعة والنَّشر والتّوزيع، ص298. والسيوطي، همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، ج2، ص216-217.

إلى سيبويه أيضًا، وذهب آخرون إلى إنَّ الأداة تعمل في فعل الشَّرط الّذي يعمل بِدوره في الجواب وتَزَعَّم هذا الرّأي الأخفش واختاره ابن مالك، وأمّا الكوفيّون فقد اعتبروه مجزومًا على الجوار، وحجَّتُهم في ذلك أنَّ جوابَ الشَّرطِ مجاورٌ للفعل ولا يكاد ينفصل عنه[1]، والجزولي اتّبع الرّأيَ الأوّل على أساس أنَّ الأداة الجازمة تعمل في الشَّرط والجواب، وهي بالتّالي تقتضيهما معًا[2] وليس أحدهما فقط، وأجدُ رَأْي البصريِّين هو الأقوى والمُختار عند جمهور النّحاة؛ لأنَّ الأداةَ هي الجازمة لِجواب الشَّرط وليس غيرها وهذا ما تبنَّاه نحويُّنا الجزولي.

أكتفي بِهذه القائمة من الآراء والاختيارات النَّحويَّة الّتي اشتهر بها الجُزولي بين من سبقه وعاصره من النّحاة سواء أمن المشرق كانوا أم من المغرب، وكان بين هؤلاء جماعة من طلبته والنُّحاة المتأخِّرين الّذين ساندوه في آراء وخالفوه في أخرى، وقد لَفَتَ انتباهي في هذه الفكرة تلميذه الشَّلوبين الّذي حين شرح مقدّمتَه لم يغفل عن المواقف الّتي انفرد بها مُشيرًا في التّعليق عليها إلى معارضته أو تأييده فيها. وأهمّ ملاحظة خَرَجْتُ بها ممَّا تقدَّم عن اختيارات الجزولي وآرائه هي أنَّه لم يكن متعصِّبًا لنحويٍّ معيَّن، بل تارةً يكون مؤيِّدًا لهذا المذهب وتارةً ثانية للمذهب الآخر، مع انفراده ببعض الآراء والتّوجهات الخاصّة كما تقدَّم.

2- ابن معط الزواوي*:

2-1- مولده ونشأته: هو يحي بن معط بن عبد النّور أبو الحسين زين الدّين الزواوي المغربيّ الحنفيّ لُقّبَ بأبي الحسن زين الدِّين لقوله:

قَالُوا تَلَقَّبَ زين الدِّين فَهُوَ نَعْتٌ جَميلٌ بِه قَد زُيِّن الأمنا

واشتهر بابن معط الزَواويّ بفتح الزّاي، نسبة إلى قبيلة زواوة، وُلِد سنة 564هـ ولكن لم تذكر كتب التّراجم مكانَ ولادته[3]، ولم يُعرَفْ عن صباه سِوى القليل، والأرجح أنَّه أَخَذَ العِلْمَ عن شيوخ بلده، وبعد أنْ بَرَعَ وتَفَوَّقَ حتَّى عُدَّ من جلّة العُلماء شَدَّ رحالَه إلى المشرق فحلّ بِدمشق حيث استقبله أحد حُكَّامها العظماء وهو عيسى الأيوبي (ت624هـ) استقبال عالم لعالم، وولاّه النّظر في مصالح المساجد الّتي تصدّر فيها لتدريس الأدب واللّغة، وبعد وفاة هذا السّلطان

---

[1]- أثير الدّين أبو حيّان الأندلسيّ، ارتشاف الضّرب من لسان العرب، تح وشرح ودراسة: رجب عثمان محمّد، مراجعة: رمضان عبد التواب، ط1. القاهرة: 1998م، مكتبة الخانجي، ج4، ص1877.

[2]- أحمد الزواوي، أبو موس الجزولي، عرضٌ لحياته العلميّة، ومنهجه في البحث، وتأثيره في حقل النّحو، ثمّ نقد لمنهجه، ص251.

* يُكتب بثبوت الياء (ابن معطي) وبدونها (ابن معط)، كما هناك من يُسمّيه (عبد المُعطي).

[3]- السيوطي، بغية الوعاة، مج2، ص344. وابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزّمان، ج6، ص197.

اتّصل ابن معط بالملك الكامل سلطان الدَّولة الأيوبيّة الّذي انبهر بِعلمِه وحفظه، فسافر معه إلى مصر حيث طلب منه إقراء النّاس علوم العربيّة وكان ذلك لِمدّة زمنيّة قصيرة؛ لأنّ إقامته فيها لم تزد على أربع سنوات فقد عاجله الأجل سنة 628هـ[1]. وجدير بالإشارة إلى أنَّ الدَّارسين اختلفوا في تحديد سبب رحيل ابن معط إلى المشرق؛ لأنّ هناك من يقول إنَّ رحلته إلى هذه البلاد لم تكن للطّلب، إنَّما لطلب الرّزق لا غير، فمنذ وصوله إلى دمشق جلس لإقراء النّاس الأدب والعربيّة، علمًا أنّه في الفترة الّتي غادر فيها ابن معط بلاد المغرب كانت تتميَّز بازدهارٍ علميٍّ كبيرٍ لِكثرة العلماء المشتغلين باللّغة والنّحو ومنافستهم على التّأليف فيهما أمثال الجزولي وابن خروف وابن عصفور، فَمِثْلُ هذه البيئة إذًا لن تدفع بابن معط إلى الرَّحيل[2]؛ لأنَّ العلمَ متوفِّرٌ في موطنه وقد يكون بقدر توفّره بالمشرق، وممّا يعني أنَّ تنقّله إلى هذا القطر ليس لطلب العلم، بل رغبة في لقمة العيش. وكذلك الأمر بالنِّسبة للمشرق الّذي تميَّز بتقدُّم علميٍّ أيضًا أثناء رحلة ابن معط إليه واستقراره فيه، ممّا يدّل على أنّه عاصر "الكثيرَ من العلماء في المشرق والمغرب، لذلك فقد كانت الفترة الزمنيّة الّتي عاشها فترة علم وثقافة ونشاط، فانتشرت المدارس وكَثر الطّلابُ وتجَمَّعَ العلماءُ هنا وهناك، ينتقلون من مكان إلى آخر يُناقِشون ويتعلَّمون ويُعلِّمون"[3]، فكلّ هذه الظّروف إذًا أثَّرت في شخصيّة ابن معط حتَّى عُدَّ من أئمة العربيَّة البارزين في عصره، ومن الشُّعراء المُجيدين وحفّاظ الشِّعر واللّغة ومن جملة محفوظاته كتاب (الصّحاح) للجوهري الّذي اشتغل به كثيرًا.

وللعلم كان الدَّرسُ النّحويُّ في الفترة الّتي استقرّ فيها ابن معط بالمشرق مزدهرًا بِفضل ما قدَّمه كِبار النُّحاة ولا سيما مع التّقدير الّذي تلقّوه من حكّام الدَّولة الأيوبيّة، منهم عثمان بن عيسى البلطي (ت599هـ) وابن الرمّاح النّحويّ (ت633هـ)[4] وابن الخبّاز وابن الحاجب. علاوة على ذلك فإنَّ ابن معط كان ممَّن أتقن علومًا كثيرة على عادة أهل المغرب والمشرق، حيث جَمَعَ بين الحديث والقراءات والعلوم العربيَّة في أوسع مضمونها، وكان مع إمامته في النّحو

---

[1]- يحي بن عبد المعطي، الفصول الخمسون، تح ودراسة: محمود محمد الطناحي، د ط. د ب: 1977م، عيسى الحلبي وشركاه، ص12- 14.

[2]- عمار مصطفاوي، الجهود اللّغويّة في المغرب الأوسط من القرن السّادس إلى القرن التّاسع الهجريَّيْن، أطروحة دكتوراه في اللّغة، ص168.

[3]- عبد العزيز بن جمعة الموصلي، شرح ألفية ابن معطي، تح ودراسة: علي موسى الشوملي، ط1. الجزائر: 2007م دار البصائر للنّشر والتّوزيع، ج1، ص19.

[4]- السيوطي، بغية الوعاة، مج2، ص135- 136 وص175.

والأدب مجيزًا لكثير من الطّلبة والعلماء. ولكن بِحُكْمِ استقراره في المشرق واشتغاله به حتّى الوفاة فإنّ انتماءَه الفكريّ أثار جدلاً بين الباحثين، حيث هناك من يذكره إلى جانب نُحاة المدرسة المصريّة الشّاميّة على أساس أنَّه قضى شطرًا طويلاً من حياته في دمشق ومصر متصدرًا للتّدريس والتّصنيف، وغيرهم يُدرِجونه مع نُحاة المغرب حيث وُلِد ونشأ وأَخَذَ العلوم الّتي مَهَرَ فيها فاشتهر قبل مغادرة موطنه الأصليّ، وبالتّالي بعد أنْ شدَّ رحالَه إلى هذه البلاد صار من أعيان العلماء الّذين أدُّوا دورًا مُهمًّا في تنمية الدَّرسِ النَّحويِّ وإثرائه تدريسًا وتأليفًا.

2-2- شيوخه وتلاميذه: لا ريب في أنَّ معرفة ابن معطٍ للعلوم العربيّة والدِّينيّة كان نتيجة للقائه بالشّيوخ الّذين غرف من علمهم الكثير، وأوّلهم الجزولي الّذي أقرَأَهُ اللّغة والنّحو ببجاية. وأمّا عن الشّيوخ الّذين أخذ عنهم بالمشرق فهناك المُحدث قاسم بن عساكر (ت600هـ) صاحب (الجامع المستقصى في فضائل الأقصى)، وزيد ذي رُعَيْن الأصغر المعروف بـ التّاج الكنديّ والبغداديّ مولدًا ومنشأ ثمّ الدمشقيّ دارًا ووفاة[1] (ت613هـ)،عارفٌ بعلوم كثيرة كاللّغة والنّحو والقراءات والحديث، وَفَدَ على دمشق فَجَلَسَ لإفادة الطّلبة الّذين كثروا حوله، وكان بينهم الملك المعظّم عيسى الأيوبي الّذي قرأ عليه اللّغة والنّحو.

وفي ما يخصّ الطّلبة الّذين أخذوا عن ابن معط ولزموه، فيبدو أنّ كُتُب التّراجم لم تتمكّن من معرفة هذا العدد رغم المدَّة الطويلة الّتي انتصب بها للإقراء والتّدريس بالجامع الكبير في دمشق، ثمّ بالجامع العتيق في مصر، ربّما لأنّ الاهتمام بهذا النّحويّ لم يكن إلاَّ بعد أنْ أظهر براعتَه في التّأليف، إذْ لا شكَّ أنَّ طلبته كانوا كثيرين ولكنّهم "غير ملتزمين بالنِّظام التّعليميِّ من الالتزام مع الشَّيخ، ومرافقته في كلّ مكان يذهب إليه. وكأنّي بالشَّيخ ابن معط قد سلك أسلوبًا تربويًّا حديثًا وهو الأسلوب التّربويّ المفتوح"[2]، مع ذلك هناك من الطّلبة المذكورين في بعض الكُتُب:

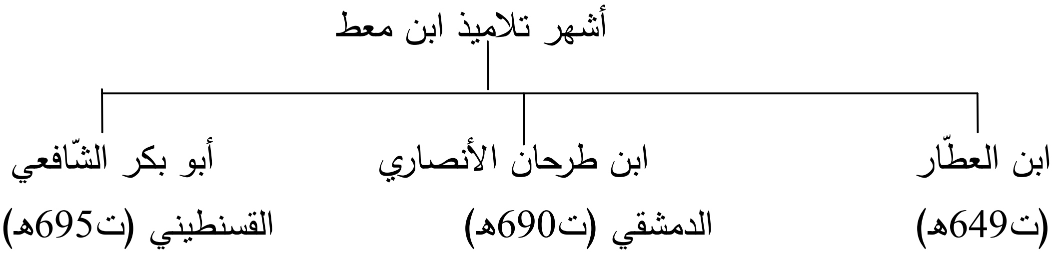

الشّكل رقم (13)

[1]- القفطي، إنباه الرّواة على أنباه النّحاة، ج2، ص10- 13.

[2]- عبد العزيز بن جمعة الموصلي، شرح ألفية ابن معطي، ج1، ص32.

2-3- **مؤلّفاته:** منذ رَحيل ابن معط إلى المشرق عكَفَ على التّدريس والتّأليف في الوقت نفسه، فهو مدرِّس متفوّقٌ ومؤلِّفٌ بارعٌ لمجموعة من الكتب في اللّغة والنَّحو والشِّعر والقراءات، ممّا يشهد له ببراعتِه وتقدُّمِه في علوم كثيرة، ومن مؤلّفاته النَّحويَّة:

- الدرّة الأَلفية في علم العربيَّة؛
- الفصول الخمسون الّذي قام بتحقيقه محمود محمّد الطناحي؛
- شرح الجزوليّة الّذي سبق ذكره بين شروح (الجزوليّة)؛
- شرح الجمل للزجَّاجي؛
- العقود والقوانين في النّحو؛
- شرح أبيات سيبويه نظمًا؛
- حواشي على أصول ابن السرّاج. ولكن المؤسف أنَّ هناك ما ضاع من المؤلّفات ولم يبقَ منها اليوم سِوى العناوين، أو لا يزال مخطوطًا في الخزائن.

2-4- عناية العلماء بمؤلّفات ابن معط النَّحويَّة: سبق القول إنَّ مؤلّفات ابن معط لم يبق منها سِوى العدد الضئيل، ولحُسن حظِّ (الدرّة الألفيّة) و(الفصول الخمسون) أنْ كتب لهما الله ﷻ البقاء فانتفع بهما النّاس كثيرًا، وظفرا بعناية الدَّارسين والعلماء. وبالنِّسبة للألفيّة فَحَريّ بي أنْ أبتدئ الحديثَ عنها بِما قاله أحدهم نظمًا[1]:

يَا طَالبَ النَّحْو ذا اجتِهَاد تَسْمُو بِهِ فِي الوَرَى فَتَحيَا
إنْ شئتَ نيْلَ المُرادِ فاقْصِدْ أرجوزةً لِلْإمامِ يَحْي

تكفي هذه الأبيات للقول إنَّ (الدرّة الألفية) كانت بِلا مُنازع أهمّ ما ألفَّه ابن معط إلى درجة أنَّ اسمَه مقترنٌ بِذِكْرِ اسمِها، والأرجح أنْ تكون أوَّلَ مُؤلَّف له في النَّحو، فقد بدأها في بلده وأتمَّها بدمشق سنة 595هـ وليس بالقاهرة مثلما يعتقد بعض الباحثين؛ لأنَّ قدومه إليها كان في أواخر حياته والآتي خيرُ دليل على صحَّة هذا القول[2]:

نَظَّمَها يَحْي بنُ مُعْطِ المغْرِبيّ تَذكِرَةً وجيـزةً للمُعْرِبِ
وَفْقَ مرادِ المُنتهَى والنَّشْأَة فِي الخَمْسِ والتِّسْعِين والخَمْسِ المِائَة

---

[1]- جمال الدِّين الحنفي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، د ط. مصر: د ت، وزارة الثّقافة والإرشاد القوميّ، دار الكتب، ج11، ص189.

[2]- يحي بن عبد المعطي، الدرّة الألفية (ألفية ابن معطي في النّحو والصّرف والخطّ والكتابة)، ضبط وتقديم: سليمان إبراهيم البلكيمي، ط1. القاهرة: 2010م، دار الفضيلة، ص73.

لم تُعرف (الأَلفية) هي أيضًا بِتسمية واحدة، ودليل ذلك صاحبها الّذي ذَكَرَها بأكثر من تسمية، فالأولى (أرجوزةٌ في النّحو) مذكورة في بداية (الألفية)، والتّسميّة الثّانية (الدرّة الألفية) في ختامها قائلاً[1]:

تَحْويهِ أشْعَارُهم المَرويَّة   هذا تمامُ الدُّرَّةِ الألفيَّة.

ثمّ جاء بعده ابنُ مالك أوّلَ المنتفعين بأَلفيته الّذي ذكرَ ألفيّة ابن معط باسم (الأَلفيّة) في مقدّمة أَلفيته حيث قال[2]:

وتَقتَضِي رِضًا بِغَيرِ سُخطٍ   فَائقةً أَلْفيَة ابنِ مُعْطي

وهذا ابن خلدون أيضًا يذكر (ألفية ابن معط) في (المقدّمة) عندما تحدَّث عن النَّظم في النَّحو، ولكن بعنوان (الأرجوزة الأَلفيّة)[3]. ولم يُعرف نظمٌ آخر بهذه التّسمية سواء في علم النّحو أم في غيره من العلوم إلاّ في وقت لاحق، وبِهذا يكون نحويًّا أوّل من استعمل لفظ (الأَلفيّة) في النَّحو ثمّ تبِعه نُحاة آخرون، وكان في طليعتهم ابنُ مالك الّذي استخدم هذا اللّفظ أيضًا، ثمّ تلاه زين الدِّين أبو التُّقى شعبان المصريّ الآثاريّ الحنفيّ (ت828هـ)، الّذي وضع بِدوره ألفيةً في النّحو وإلى غيرها من الأَلفِيات الّتي وُضِعت ليس في النَّحو فقط، بل في علوم أخرى أيضًا كالحديث والقراءات والفرائض.

جاءت (الدرّة الأَلفية) على شكل نَظْم ذي واحد وعشرين وألف بيت، وكان ضمنها المقدّمة والخاتمة الّتي ذكر فيها بأنَّه ناظم (الألفية) وتاريخ وضعها مع بيت لحمد الله والصّلاة والسّلام على النبيّ ﷺ، وأمّا المتنُ فقد تناول فيه الزواوي جميع أبواب النّحو والصّرف بطريقة مُبَسَّطة وسهلة، الأمر الّذي جعلها تحظى بعناية العلماء والطّلبة، حيث عكف الكثير منهم على دراستها وتدريسها وشرحها "يُلاحظ أنَّ مُصنِّفي هذه الشّروح مختلفو الأمصار والديّار، فمنهم المصريّ والأندلسيّ والموصليّ والدمشقيّ والجزَريّ والحلبيّ ممّا يدّل أيضًا على أنَّ (الأَلفيّة) طار صيتُها في مختلف الرّبوع والأمصار"[4]، ولكن لا تُنسى (ألفية ابن مالك) الّتي نافستها فصارت من أهمّ كتب النَّحو الّتي أقبل عليها النّاسُ إقبالاً واسعًا حتّى فاقتها شهرةً وذيوعًا، وأمّا عن (ألفية ابن معط) فقد قيل إنَّ عددَ شروحها بلغ أربعين شرحًا. وهذا جدول لبعض الشُّروح:

---

[1]- ابن معطي، الدرّة الألفية، ص73.

[2]- محمّد بن مالك الأندلسي، ألفية ابن مالك، دط. د ب: دت، دار التّعاون، ص9.

[3]- ابن خلدون، المقدّمة، ص485.

[4]- ابن معطي، الفصول الخمسون، ص53.

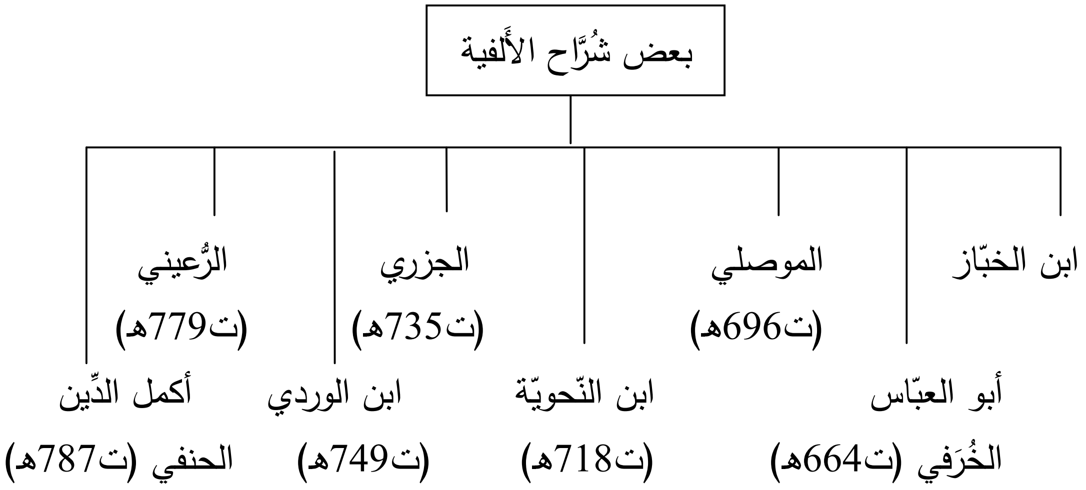

الشَّكل رقم (14)

وإنْ دَلّت هذه الشُّروح وغيرها ممّا لم يُذكَر في دراستي على شيء فإنّما تدلُّ على مدى اهتمام الدَّارسين بالألفيّة ربمّا منذ القرن السَّابع الهجريِّ إلى اليوم، ولا سيما مع ما يتجلّى فيها من جديد لم يُسبق إليه، يتمثّل في نظم (الألفيّة) من بحري الرّجز والسّريع، عكس المنظومات العلميَّة الأخرى الّتي تأتي على بحرٍ واحدٍ وقافية واحدة أو أرجوزة القوافي من بحر الرّجز وهي النَّوع الأغلب. واختيار صاحب (الألفيّة) لِهَذيْن البحريْنِ المتقاربيْن في الوزن دليلٌ على حسِّه الموسيقيّ المرهف، ولكن هناك من الدَّارسين والشّرّاح الّذين انتقدوه بسبب نَظْمِها على هذيْنِ البحريْن وفضّلوا ألفية ابن مالك وصاحبها – ابن مالك– واحد منهم[1]. وفوق هذا، أراد ابن معط معالجة المسائل النَّحويَّة والصَّرفيّة شعرًا لِتسهيل حِفْظِها وفَهْمِها على النّاشئة، وذلك في قوله[2]:

أرجُوزَةٌ وجِيزةٌ فِي النَّحْوِ　　　　عِدَّتُها أَلفٌ خَلَت مِنْ حَشْوِ

جاءت (الألفية) إذًا مُختصرة وخالية من الحشو، بِخلاف المتون النَّحويَّة المُطوّلة الّتي تناولت قواعد النَّحو والصَّرف بكيفيّة معقَّدة وصعبة، وبكثير من التَّعليل أيضًا. وفي ما يخصّ طريقة عرض ابن معط لموضوعات (الألفية)، فتبدو جديدة أيضًا لم تُعرف قبله، حيث سبق كلَّ بابٍ بلفظ القول، ويتبيّن ذلك من الأمثلة الآتية[3]:

– باب الكلام والكلم:

بِالله ربِّي في الأمورِ أعْتَصِمْ　　　　القولُ فِي حَدِّ الكَلام والكَلِمْ

---

[1]– دائرة المعارف الإسلاميّة، نقلها إلى العربيّة محمد ثابت الفندي. مصر: يونيه 1934م، مج1، ع5، ص280–281. وابن معطي، الفصول الخمسون، ص34.

[2]– ابن معطي، الدرّة الألفية، ص17.

[3]– المرجع نفسه، ص17– 19– 21.

- باب المعرّب والبناء:

القَولُ فِي الإِعرَابِ والبِنَاء   الأَصْلُ في الإعرابِ لِلأَسْماء

- باب إعراب جمع المذكّر السّالم:

القَوْلُ في جَمْعِ المُذكَّر العَلَمْ   وَالوَصفُ والوَاحِدُ فيه سَلِمْ

وكان كتاب (الفصول الخمسون) ثاني كتاب له في النّحو صنّفه بعد (الألفيّة)، ولكن لم يذكر صاحبُه ولا غيره تاريخ تأليفه، قام بتحقيقه محمود أحمد الطناحي لنيل درجة الماجستير بدار العلوم في جامعة القاهرة، ثَمَّ طبعُها ونشرها سنة 1976م، وهي الطّبعة الّتي اعتمدها في هذه الدِّراسة. ولقِيَ هذا الكتاب إقبالاً واسِعًا لدى العلماء والدَّارسين، ومن شُرّاحه:

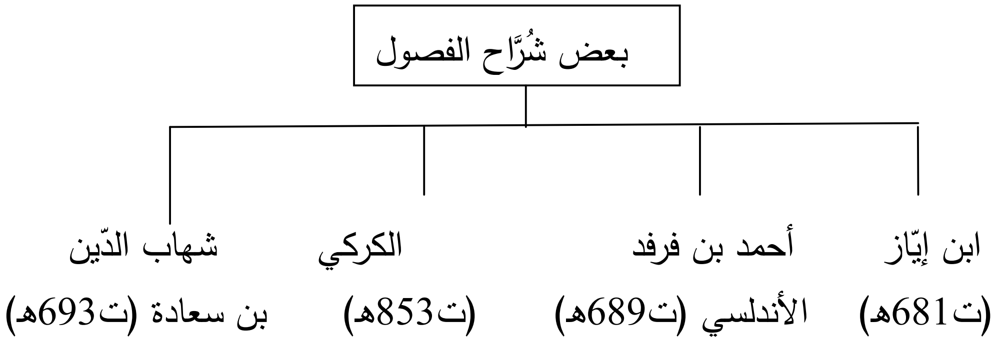

الشَّكل رقم (15)

وللإشارة لم يحملْ أيُّ كتاب نحويٍّ اسم الفصول قبله سِوى كتاب (الفصول) لابن الدهان (ت569هـ)، وكتاب (الفصول) لأحمد بن علي بن شهر آشوب (ت588هـ)، وكتاب (المفصّل) للزمخشري الّذي لم يأتِ باسم الفصول[1] إلاَّ أنَّه مقسَّمٌ إلى فصول.

وإذا كان ابن معط السبّاق في النّظم النّحويِّ من خلال ألفيته، فهو كذلك في كتاب (الفصول) الّذي اتّبع فيه منهجًا جديدًا لم يُدركْه المشارقة والمغاربة من قبل، حيث قام بتقسيم رؤوس المسائل إلى خمسة أبواب، ويحتوي كلُّ باب على عشرة فصول. وجاء أوّل فصل في الباب الأوّل بعنوان (في بيان الكلام والكلِم والكلمة والقول)، وأمّا الفصل الأخير في الباب الخامس فقد قدّمه باسم (في الإدغام وضرائر الأشعار على سبيل الاختصار)، ومن موضوعات الباب الأوّل[2]: في ما يأتلف منه الكلام (الاسم والفعل والحرف)، حدّ الاسم وعلاماته، حدّ الفعل وعلاماته، بيان ما لا يخلو أواخر الكلم عنه، وهو أحد أمرين: الإعراب والبناء، إعراب الاسم المتمكّن، وإعراب الفعل المضارع وبناؤه وإلى غير ذلك.

---

[1]- ابن معطي، الفصول الخمسون، ص87.

[2]- المرجع نفسه، ص149.

وتناوَلَ ابن معط هذه الفصول وغيرها بأسلوبٍ مختصرٍ ومنظَّم وسلس أيضًا، معتمِدًا في توضيح القواعد الكثير من الأمثلة والشّواهد، حيث يقوم بِبَسط المسائل وتبويبها ممّا يجعلها سهلة، وتكون في متناول الطّلبة المبتدئين على حدِّ قوله. وجدير بالإشارة هنا إلى أنَّ ابن معط متأثِّرٌ بِشيخه الجزولي كثيرًا، ويبدو ذلك في أسلوب كتاب (الفصول الخمسون) الّذي غلب عليه الإيجاز والتّركيز الشَّديد في تَنَاوُلِ بعض المسائل، ومن أمثلة ذلك تعريف ابن معط للمفعول به الّذي جمع خمسة شروط له في كلامٍ وجيزٍ (وهو مصدر لا من لفظ العامل فيه، مقارنًا له في الوجود، وأعمّ منه جوابًا لقائل يقول لِمَ؟)[1] فقد اختصر كلامه على المفعول به وشروطه.

ويبدو تأثّر ابن معط بشيخه في استعماله لِكثير من المصطلحات المنطقيَّة كمصطلحي الجنس والحدّ، كما في تعريفه للكلام والكلم والكلمة حيث يقول في (الفصول): "الكلام هو اللّفظ المركّب المفيد، بالوضع، كقولك: زيد أخوك، وقام زيد. والكلم جنس، واحده: كلمة، يُطلَقُ على المركّب، مفيدًا كان أو غير مفيد. والكلمة هي اللّفظ المفرد الدّال على معنًى مفرد... في حدّ الاسم وعلاماته. فحدُّه كلمة تدلّ على معنًى في نفسها، دلالة مجرّدة من زمان ذلك المعنى كرجل وعلم... في حدّ الفعل وعلاماته. فحدّه: كلمة تدلّ على معنًى في نفسها دلالةً مقترِنة بزمان ذلك المعنى، كضرب ويضرب واضرب. في حدّ الحرف وعلاماته وفائدته. فحدّه: كلمة لا تدلُّ على معنًى إلاَّ في غيرها..."[2]. كما اعتمدَ التّعريفَ ذاته عن الكلام والكلم والكلِمة في (الألفيّة). ولكن هناك من الشُرّاح الّذين قالوا العكسَ عن هذا الكتاب؛ لأنّهم وجدوه كثير المسائل وصعب التّناول والفهم، وهو بذلك لا يُلَبِّي حاجة المبتدئين بقدر ما يُلبِّيها للنّاشئة في تَعَلُّمِ النّحو ودراسته، علاوة على ذلك فإنَّه كثيرًا ما يعرض صاحبُه الآراء ويُناقشها ويُرجِّح ما بينها، ممّا يُؤكِّد لهم صعوبة الكتاب وليس العكس.

وتبدو طريقة ابن معط في ترتيبه للقضايا النَّحويَّة مخالفة في بعضها طريقة ابن مالك وشُرّاح مؤلَّفاته الّتي تَعَوَّدَ عليها الطّلبة بعد شيوعها. ومع ذلك اعتمد في المُصنَّف الأوّل العناوين ذاتها الّتي يبتدئ بها جميع النّحاة مثل الكلام والكلم والكلمة، الإعراب والبناء، والممنوع من الصّرف وغيرها. واللافت للانتباه أنَّ ابن معط لم يجعل لِبعض الأبواب عناوين مستقلّة مثل المبتدأ والخبر، الفاعل والنّائب عنه، الحال، والتّمييز، الاستثناء، المفعولات والظّروف. ويتبيَّن ذلك مثلاً في موضوع الفاعل الّذي يتناوله تحت عنوان (الفصل الثّالث في ما يتعدّى إلى مفعول واحد)، وموضوع النّائب عن الفاعل الّذي يتحدّث عنه تحت عنوان (الفصل السّادس في الفعل

---

[1]- ابن معطي، الفصول الخمسون، ص98.

[2]- المرجع نفسه، ص149- 152.

الّذي لم يُسمّ فاعله)، وتحت عنوان آخر في الفصل التّاسع (في ما يتعدّى إليه جميع الأفعال المتعدّي وغير المتعدّي)، وكذلك موضوع المبتدأ والخبر الّذي يُعالجه تحت عنوان (في العامل في المبتدأ والخبر)، ويجعله الفصل الأوّل من الباب الثّالث (في ما يعمل من غير الأفعال في الأسماء والأفعال) وغيرها. ولكن لاعتماد صاحب (الفصول) على هذه الطّريقة وجد نفسه مُضطرًّا إلى الحديث عن المسألة الواحدة في أكثر من فصل، مثال ذلك الفاعل الّذي تناوله في الفصل الثّالث من الباب الثّاني تحت عنوان (في ما يتعدّى إلى مفعول واحد)، ثمّ في الفصل العاشر من الباب ذاته تحت عنوان (في ما يرتفع بِفعل مُضمر أو ينتصب به- وفيه الكلام على التّحذير والإغراء)[1]، وكذلك الشّأن بالنّسبة لمسألة الخبر والمبتدأ ومسألة الحال.

تناول ابن معط افي كتابه (الفصول الخمسون) مسائل النّحو والصّرف معًا، وقد خصَّ الفصول الأخيرة من كتابه لقواعد الصَّرف، ومن موضوعاته[2]: أبينة الأسماء من ثلاثيّة ورباعيّة وخماسيّة وأبنية الأفعال والمصادر، التّصريف والوقف، المقصور والممدود وغيرها، كما ضمّت (الألفيّة) بِدورها الموضوعات الصّرفيّة الّتي أوردها في الأبواب الأخيرة منها جمع التّكسير، أبنية التّصغير، والتّصريف والإبدال. كما أنّ لكليهما نفس الموضوعات في أكثرها مثل الفعل الّذي لم يُسمّ فاعله، حروف الجرّ، إنَّ وأخواتها، التّوابع من نعت وتوكيد وعطف وسِواها، مبتدئًا الحديثَ فيهما عن الكلام والكلم والكلمة، واختُتِما بالإدغام والضّرورات الشِّعريَّة، مع العلم أنَّ هناك من الشُّراح الّذين اعترضوا على ابن معط تقديمه لِمُؤَلَّفَيْه في مواطن كثيرة، وبالأخصّ ابن الخبّاز الّذي كان "يُكثِرُ الاعتراضات على ابن معط لسبب أو بلا سبب وقد يحيف عليه"[3]. وكذلك ابن إيّاز والخويي اللّذان لم يستحسنا ترتيبَ المُصنِّف لبعض مسائل النَّحو والصَّرف وتعريفه لها فقد وجداه يتناول المثنّى ثمّ جمع التّكسير فالجمع السّالم مذكّرًا ومؤنّثًا، واعتبرا ذلك مخالفًا لترتيب غيره من النُّحاة الّذين يذكرون الجمع السّالم أوّلاً ثمّ المثنّى وأخيرًا جمع التّكسير[4]، وأمّا هو فاستطاع الفصلَ بين المثنّى والجمع السَّالم بجمع التّكسير. وابن معط حريصٌ على الرّبط بين

[1]- ابن معطي، الفصول الخمسون، ص94- 96.

[2]- المرجع نفسه، ص240- 269.

[3]- شمس الدِّين ابن الخبّاز، الغُرّة المخفيّةُ في شرح الدرّة الألفيّة لابن معط، تح: حامد محمّد العبدلي، د ط. بغداد: د ت، مطبعة العاني ودار الأنبار، ص36.

[4]- المرجع السّابق، ص107- 112.

الموضوعات الّتي يتناولها لتحقيق الانسجام والتسلسل الموضوعيّ، فقد كان يُشيرُ في بعض المواضع إلى أنَّ الحديثَ عن هذه المسألة سيأتي لاحقًا، ومن أمثلة ذلك هذه الأبيات[1]:

وَكُلُّ مَا لَمْ ينْصَرِفْ تفتحُهُ		جرًّا كَإسْحَاقَ ويأتِي شرحُه

القولُ في تعْدِيَةِ الأَفْعَالِ		لِسَبعةٍ تَأْتِي عَلَى التَّوَالِي

2-5- مذهب ابن معط واجتهاداته النَّحويَّة: سَارَ ابنُ معط على مَنْهَجِ المغاربة في الأخذ من مذاهب النَّحو الأخرى، أوّلها البصريّ الّذي أَيَّده في كثير من الآراء، وثانيها المذهب الكوفيّ الّذي تابعَ أصحابَه في آراء أخرى وهي قليلة مقارنة بالأولى مع تقديم الدَّليل في ما ذهب إليه، ثمّ يليهما البغداديّ فالأندلسيّ والمغاربيّ ويبدو ذلك بوضوح في موافقته مثلاً لِشيخه الجزولي في مواضع كثيرة، مع تبنِّيه آراء خاصّة كانت نتيجةً لاجتهاداته. وفي ما يأتي عرضٌ لِبعض من آرائه الواردة في (الألفيّة) و(الفصول الخمسون):

– أوّل ما أستهلّ به الحديث عن آراء ابن معط واجتهاداته، هو تأييده لآراء البصريِّين إلى حدٍّ كبير، ويجعلها حجّةً على من سِواهم، مع استعماله مصطلحات نحويّة تخصّهم مثل الجرّ بدلاً من الخفض، والتّمييز الّذي يُقابله التّفسير عند الكوفيّين، الفصل مقابل العماد، وهناك الممنوع من الصّرف والضّمير والمضمر والفعل المتعدّي واللازم، والبدل والنَّعت وغيرها. ومن الآراء الّتي تابع فيها البصريِّين، اعتباره (إمّا) من حروف العطف، وذلك بقوله[2]:

وَأَوْ وإمَّا فِيهِما مَشْهُور		الشَكُّ وَالإِبْهَامُ والتَّخيير

وتبِعه في هذا من المغاربة ابن آجُرُّوم الّذي ذكرها ضمن حروف العطف، بِخلاف أكثر النُّحاة أمثال ابن كيسان والفارسي، وحجّتهم أنّه لا يجوز الجمع بين حرفيْ عطف[3]، ومن الأندلسيِّين ابن عصفور الّذي امتنع عطفها لِملازمتها حرف العطف (الواو) "... ولأنَّ وقوعها بعد الواو مسبوقة بِمثلها، شبيهٌ بِوقوع (لا) بعد الواو مسبوقةً بِمِثلها، في مثل: لا زيد ولا عمرو فيها. و(لا) غير عاطفة بالإجماع. فلتكن (إمّا) كذلك. ونقل ابن عصفور، اتّفاق النّحويِّين على أنَّ (إمّا) ليست بِعاطفة، وإنّما أوردوها في حروف العطف، لِمُصاحبتِها لها"[4]، ففي هذه الحالة لا

---

[1]- ابن معطي، الدرّة الألفية، ص20 وص30.

[2]- المرجع نفسه، ص41.

[3]- عبد العزيز بن جمعة الموصلي، شرح ألفية ابن معطي، ج1، ص45. محمّد الصّنهاجي بن آجرّوم، الآجرّوميّة (في قواعد علم العربيّة)، تصحيح: أحمد الأمين الشّنقيطي، ط1. مصر: 1324هـ، مطبعة السّعادة، ص13. وجلال الدِّين السيوطي، الأشباه والنّظائر في النّحو، د ط. بيروت: د ت، دار الكتب العلميّة، مج1، ج1، ص394.

[4]- المُرادي، الجنى الدّاني في حروف المعاني، ص529.

يُمكن الجمع بين الحرفين؛ لأنَّ الواو تبقى حرف عطف أيضًا، وإنْ كانت (إمّا) حرف عطف عند بعض النُّحاة فكيف يدخل عليها حرف عطف آخر.

– وافق ابنُ معط البصريِّين في إعراب الأسماء الستّة، وذلك بقوله في (الألفية)[1]:

وَستّةٌ بِالوَاوِ رفعًا إنْ تُضَف   والياءُ فِي الجرِّ وَفِي النَّصْب الألِف

فيرى ابن معط أنَّ الواو والألف والياء حروف إعراب؛ لأنَّ إعرابَها مقدَّرٌ عليها لِثقله على الواو والياء، ولتعذّره على الألف، سبقه إلى هذا الرّأي جماعةٌ من البصريِّين، وتزعّمهم سيبويه وتبعه الأخفش وابن السرّاج والسيرافي وسِواهم، واحتجّوا على رأيهم أنَّ هذه الأسماء معرَّبة بحركات مُقدَّرة في تلك الحروف، حيث تَنُوبُ الواو عن الضمّة والألف عن الفتحة والياء عن الكسرة وهو الرّأي الأقوى؛ لأنَّ الأصل في الإعراب أنْ يكون بالحركات ظاهرة كانت أم مُقدّرة.

– اختلف النُّحاة في أيّهما الأصل المصدر أم الفعل؟ فهناك البصريّون الّذين قالوا إنَّ المصدر هو الأصل في اللّغة، وأمّا الفعل فهو فرعٌ مشتق منه، بحجّة أنَّ الفعلَ يدلُّ على شيْئَيْن الحدث والزمان، ولو اشتقّ منه المصدر لوُجِبَ أنْ يدلّ على ما في الفعلِ من الحدث والزمان أمّا المصدر فدالٌ على الحدث وحده. كما أنَّ المصدرَ من جنس الأسماء، والأسماء قبل الأفعال، ممّا يعني أنَّ المصدرَ قبل الفعل والبعديّ مأخوذ من القبليّ، ومن ثمّ الفعل مأخوذ من المصدر. وأمّا نُحاة المدرسة الكوفيَّة فيعتبرون الفعلَ هو الأصل، والمصدر يبقى فرعًا عنه في مثل (قام قيامًا)؛ لأنّ الفعل عامل في المصدر وبه ينتصب فحينما نقول ضربت ضربًا، فـ (ضربًا) منصوب بالفعل (ضربت)، ولذلك وجبَ تقديمُ المصدر وجعله فرعًا على الفعل الأصل. كما أنَّ المصدر يُذْكَر لتأكيد الفعل، والفعل مؤكّد، ويصحُّ بصحّة الفعل ويعتلّ بعلّته[2]. وابن معط اختار مذهب البصريِّين في هذه المسألة، ولكن قبل أنْ يُبيِّنَ ذلك أراد أنْ يَذْكُرَ أوّلاً رأيَ الكوفيِّين ثمّ الرّأي الّذي اختاره وهو الأرجح عندي، على أساس أنَّ الفعلَ يدلُّ على المصدر والزّمان معًا ممّا يُثبت فرعيّته – أي الفعل– وأصليّة المصدر.

– وافق ابن معط نُحاة المدرسة البصريّة في القول إنَّ الاسم مشتقٌّ من السِّمُوِّ وهو العلوّ في اللّغة على وزن فِعْل أو فُعْل يُقال: سما يسمو سموًّا، ثمّ حُذِفت لامه الّتي هي الواو اعتباطًا فَجُعِلت همزة الوصل عوضًا عنها لتسهيل النُّطق بالسَّاكنِ وأصبح وزنه (إفْع) بحذف اللام، كما هناك من احتجّ بالقول إنَّه مشتقٌّ من السموّ؛ وذلك لأنّ أقسام الكلام الثّلاثة الّتي هي الاسم

[1]– ابن معطي، الدرّة الألفية، ص20.

[2]– ابن الأنباري، الإنصاف في مسائل الخلاف بين النّحويّين البصريِّين والكوفيِّين، ص192.

والفعل والحرف لها ثلاث مراتب، فمنها ما يُخْبَرُ به ويُخبَرُ عنه وهو الاسم، ومنها ما يُخبرُ به ولا يُخبَرُ عنه وهو الفعل، ومنها ما لا يُخبرُ به ولا يُخْبَرُ عنه وهو الحرف، وبِما أنَّ الاسم يُخبر به ويُخبرُ عنه دون الفعل والحرف فقد عَلاَ عليهما رُتبَةً ممّا دلّ على أنَّه الأصل في الكلام وهذا مخالف للكوفيِّين الّذين قالوا باشتقاقه من السّمة بمعنى العلامة على أساس أنَّ الاسمَ علامةٌ على المُسمّى، والاسم مأخوذ من كلمة (وَسْم) فحُذِفت فاؤه الّتي هي (الواو) ثمّ عُوِّضت بالهمزة فصار وزنه (إعْلٌ). ولكن أجد الرّأيَ الّذي اختاره ابن معط ليس فيه صواب وقد عارضه النُّحاة في هذه المسألة؛ لأنّه لو اشتق الاسم من الوسْم لَقِيل في الجمع أوسام وليس أسماء ولَقِيل أيضًا توسّمتُ وليس سُميتُ[1]، وإلى غيرها من الحُجج الّتي استدلّوا بها. وكان النّحويّ في هذه المسألة يعرض الرّأيَ البصريّ الّذي يميل إليه، ثمّ الكوفيّ الّذي يُخالفه قائلاً (دليله الأسماءُ والسُّميُّ).

– وافق المُصنِّفُ بعض البصريِّين وليس جميعهم حين قال بأنّ حبذّا فعل وفاعل (حبَّ فعل وذا فاعله) وهو قول سيبويه، ولكن زعَم غيرُه من النُّحاة كابن هشام اللّخمي أنّ مذهب سيبويه جعل حبّذا مبتدأ مُخبرًا بِما بعده، وهذا بِخلاف المبرد وابن السرّاج والسّيرافي الّذين اعتبروه اسمًا واحدًا مرفوعًا بالابتداء، فهي في الأصل حبّذا الشَّيء؛ لأنّ (ذا) اسم مُبهم يقع على كلّ شيء فيُقال حبّ هذا، ثمّ جُعِلت (حبّ) و(ذا) اسمًا واحدًا فأصبح مبتدأً[2]. فبالنِّسبة لابن معط (حبّذا) مركّبٌ من (حبّ) الفعل، و(ذا) فاعلها ثمّ اعتُبِرا معًا بِمنزلة كلمة واحدة، ويبدو ذلك ممّا قاله في (الأَلفية)[3]:

وجَعَلُوا للمدْحِ أيضًا حبّذا ف (حبَّ) فعلٌ وبه يُرفَع (ذا)

واختار هذا الرّأيَ من المغاربة الجُزولي الّذي سبقه إليه وفي ذلك صواب كما يبدو.

– اختلف النّحاة في جواز العطف على المُضمر المجرور، فهناك جمهور البصريّين الّذين لم يُجيزوا العطفَ عليه إلاّ بإعادة حرف الجر في مثل: (مررتُ بِزيدٍ وبك)، وقوله ﷻ: ﴿وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ﴾ [الأحزاب:7]، واحتجّوا على رأيهم بأدلّة كثيرة، منها أنَّ الجار يكون مع المُضمر المجرور بِمنزلة شيء واحد، وبالتّالي إذا عطفت عليه فكأنّك عطفت الاسمَ على حرف الجرّ أو على جزء الكلمة وكلاهما غير جائز، كما أنّه لا يصحُّ القول (مَررتُ بزيدٍ وكَ)؛ لأنّه

---

[1]– عبد العزيز بن جمعة الموصلي، شرح ألفية ابن معطي، ج1، ص53.

[2]– ابن مالك، شرح التّسهيل، ج3، ص23. ومحمّد المبرد، المقتضب، تح: محمد عبد الخالق عضيمة، ط3. القاهرة: 1994م، ج2، مطابع الأهرام التّجاريّة، ص143.

[3]– ابن معطي، الدرّة الألفية، ص49.

لا عطف بين الظّاهر والمُضمر إلاّ بإعادة الجار (مَررت بزيدٍ وبِك). وأمّا الكوفيّون وبعض البصريِّين أمثال قطرب والأخفش فقد أجازوا العطفَ مطلقًا من غير إعادة الخافض، وحجّتهم في ذلك القياس لأنّه لمّا كان فضلةً كالمُضمر المنصوب جاز العطفُ عليه من غير إعادة العامل. والسَّماع كقوله ﷻ: ﴿ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ﴾ [النّساء: 1] على مَنْ قَرأَ (الأرحام) بالجرّ عطفًا على الضَّمير في (به)[1] وقرأه هكذا غير واحد، وقول الشَّاعر:

فَاليوْمَ قرَّبتَ تهْجُونا وتشْتِمُنا فاذْهَبْ فَمَا بِكَ والأيَّام مِنْ عَجَبِ

فالشَّاهد (والأيّام) معطوفٌ على الضَّمير المجرور دون إعادة الجار. وللعلم فإنّ نسبة هذا الرّأي إلى الكسائي والفرّاء غير صحيحة؛ لأنَّهما امتنعا عن العطف من غير إعادة لحرف الجر، وابن معط ذهب مع الرّأيِ الأوّل بقوله[2]:

وَالمُضمرُ المجْرورُ إنْ عطفْتا عَليْهِ جِيءْ بِمَا بِهِ جَرَرْتَا

فقول المُصنِّف (جيءْ بِما به جررتَا) يدلُّ على موافقته للبصريِّين وسبقه إلى هذا الرّأي الجزولي الّذي لم يُجِزْ بِدوره العطفَ على الضَّمير المجرور إلاَّ بإعادة الجارّ عليه، في حين تابعَ مذهب جواز العطف دون إعادة الحرف من نُحاة المغرب والأندلس الشَّلوبين وابن مالك وتبعه المكُّودي وقد استدلّوا على ذلك بشواهد من القرآن والشِّعر وهي كثيرة[3]، فمثلما وَرَدَ العطفُ على الضَّمير المجرور بإعادة الحرف وَرَدَ كذلك بدونه في التّنزيل وكلام العرب ولا سيما في النَّظم.

وصحيح أنَّ ابن معط مُتابعٌ ومرجِّحٌ لِكثير من الآراء البصريَّة حتَّى بدا ميلُه الواضح جدًّا للبصريِّين، ولكن ليس إلى درجة التعصّب ممّا يمنعه من استعمال مصطلحات الكوفيِّين، واتّباع بعض آرائهم على عادة نُحاة المغرب والأندلس "كان لا يتعصَّب لِأَحَد المذْهبَيْن، البصريّ والكوفيّ، بل يقول ما يراه راجحًا"[4]. وفي ما يخصّ المصطلحات الكوفيَّة الّتي استعملها في مؤلّفاته، منها الصّفة مع أنَّه استعمل أيضًا مصطلح النّعت الخاصّ بالبصريِّين. ومصطلح الجحد بدلاً من النّفي، ومصطلح ما لم يُسمّ فاعله المقابل لمصطلح المبنيّ للمجهول. ومن الآراء الكوفيّة الّتي اختارها ابن معط:

---

[1]- ابن الأنباري، الإنصاف في مسائل الخلاف بين البصريّين والكوفيّين، ص371- 373. وعبد العزيز بن جمعة الموصلي، شرح ألفية ابن معطي، ج2، ص9- 10.

[2]- ابن معطي، الدرّة الألفية، ص42.

[3]- عبد الرّحمن المكُّودي، شرح المكُّودي على ألفية ابن مالك، ج2، ص81. وأبو موسى الجزولي، المقدِّمة الجزوليّة في النّحو، باب التّحقيق، ص72.

[4]- ابن الخبّاز، الغُرّة المخفيّةُ في شرح الدرّة الألفيّة لابن معط، ص8.

– اختلف النّحاةُ في سبب امتناع صرف سكران، حيث رأى الكوفيّون أنَّ المانعَ من الصّرف هو الوصف والألف والنّون، وأمّا البصريّون فقد نصّوا على المنع بِسبب مشابهته ألفي التّأنيث وذلك لوجهين اثنين، أوّلهما لاشتراكهما في الامتناع من دخول تاء التّأنيث عليهما، فلا يصحّ القول سكرانة كما لا يُقال حمراءة، وثانيهما لأنَّ بناءَ مذكَّر كلّ منهما مخالف لبناء صفة مؤنّثة فَعْلَى كسكران وسكرى، وأحمر وحمراء، ولكن يُذكر أنَّ بني أسد يصرفون سكران ويقولون سكرانة على وزن فعلانة[1]، وهذا ضعيف لأنّ الأكثر يأتي مؤنّثه على فَعْلَى. وابن معط اختار الرّأي الأوّل بقوله[2]:

وزائِدًا الوَصْفِ كَمِثْلِ سَكْرَان مُقَابلاً سَكْرى كَذا اصْرِف عُرْيَان

وهذا الرّأي باطلٌ لِتَحَقُّقِه في ندمان وعريان على أنّهما مصروفان بالاتّفاق، وأمّا كلمة (سكران) فلا تقبل ألف التّأنيث، وممنوعة من الصّرف للوصف الأصليّ وعليه الجمهور.

– ذهب المُصنِّفُ إلى أنَّ العلمَ هو أوّل المعارف قائلاً[3]:

أمَّا المَعارفُ فخمسٌ تُذكَرُ أوَّلُها الأعْلام ثُمَّ المُضمرُ

والمُبهمُ المَخْصُوصُ وَالمُعرَّف بِاللامِ والمُضَافِ لِاسمٍ يُعرَفُ

فقد قدَّم اسمَ العَلَمِ أوّلاً باعتباره أسبق المعارف، بخلاف بعض البصريِّين وعلى رأسهم سيبويه الّذي قال إنَّ الاسم المُضمر أعرفها؛ لأنَّه لا يكون موصوفًا من قبل إلاَّ بعد معرفتك بأنَّ المحدَّثَ قد عرف المعْنِيَ أيْ لا يُضمر إلاَّ وهو معلوم عند الطّرف الآخر، وغيرهم قالوا العكس، فهذا ابن السرّاج يجعل الاسم المُبهم أعرف المعارف ويليه المُضمر فالعلم ثمّ ما فيه الألف واللام وأخيرًا ما أُضيفَ إلى أحدِ هذه المعارف. وأمّا ابن معط فقد قال العكسَ، فهو كما يبدو جعل اسم العلم في المرتبة الأولى من المعارف ثمّ وَلِيَه المُضمر فالمبهم والمعرّف باللام وأخيرًا المضاف. وممّن خالفه من الأندلسيِّين ابن مالك الّذي جعل العَلَم يأتي النَّوع الثّاني من المعارف[4] وليس الأوّل.

---

[1]– خالد الأزهري، شرح التّصريح على التّوضيح أو التّصريح بمضمون التّوضيح في النّحو، محمّد باسل عيون السُّود ط1. بيروت: 2000م، منشورات دار الكتب العلميّة، ج2، ص322– 323.

[2]– ابن معطي، الدرّة الألفية، ص27.

[3]– المرجع نفسه، ص35.

[4]– سيبويه، الكتاب، ج2، ص11. وابن الأنباري، الإنصاف في مسائل الخلاف بين النّحويّين البصريّين والكوفيّين ص569. وعبد الرّحمن المكّودي، شرح المكودي على الألفية في علمي النّحو والصّرف للإمام جمال الدّين الجياني (ومعه حاشية العلاّمة الشّيخ أحمد بن عبد الفتّاح الملوي الأزهري)، ص28.

– تابع ابن معط الكوفيِّين في جواز قول كذا درهمٍ بالإضافة "فإذا قال: كذا دِرهمٍ، فتفسيره بِعددٍ يُضاف إلى المفرد، وهو المائة والألف"[1]، وتنبّه إلى هذه المتابعة الصّريحة النّحاة المتأخِّرون أمثال ابن هشام الأنصاري والسيوطي، ولكن ذهب آخرون بالاتّفاق إلى أنَّه تمييزٌ ولذلك يجب نصبُه ولا يجوز الجرّ بـ (من) ولا بالإضافة.

وأذكر أنَّ لابن معط من الآراء الّتي وافق فيها النُّحاة البغداديِّين كالزَجَّاجي والفارسي وابن جنّي وكانوا أكثر من تبعهم، ومثال ذلك قوله في (الفصول) عن جواز تقديم خبر ليس عليها وعلى اسمها "وأمّا ليس فيجوز تقديمُ خبرها على اسمها، وعليها الأشهر"[2]، في نحو قول (قائمًا ليْس زيدٌ)، وحجّتهم في ذلك قول التّنزيل ﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾ [هود: 8] فقد تقدّم معمول خبر ليس عليها؛ لأنَّ (يوم) معمول لِمصروف وظرف متعلّق به. كما أنَّ تَقَدُّمَ (يوم) يُجِيزُ تقدّم (مصروف) على ليس، وسبق إلى هذا الرّأي نُحاة المدرسة البصريَّة المتقدِّمون وطائفة من المتأخِّرين، وزَعَمَ بعضُهم أنَّه مذهبُ سيبويه ثمّ تبِعهم من النُّحاة الأندلسيِّين الشَّلوبين وابن عصفور، وأمّا جمهور البصريِّين المتأخِّرين وجمهور الكوفيِّين فقد رفضوا التّقديمَ لِعدم تصريف ليس، ممّا يمنعها من التصرّف في المعمول بالقياس على (عسى) الّتي لا يتقدّم عليها خبرُها اتّفاقًا لِجمودها وهو المُختار عند ابن مالك، والمُرادي الّذي صرَّح بالمنع وعلَّله بِضعف ليس بِعدم تصرّفها وشبهها بـ (ما) النّافية، وللعلم هناك من نسب هذا الرّأي إلى سيبويه أيضًا لكنَّه غير صحيح[3]؛ لأنّه أجاز التّقديمَ ولم يقل العكس. وكذلك في قوله إنَّ خبرَ المبتدأ يأتي على أربعة أقسام وهي: الجملة من مبتدأ وخبر؛ الجملة من فعل وفاعل؛ شرط وجزاء؛ ظرف أو جار ومجرور، وقال في الفصول "وتارةً يكون الخبر جملةً، فيلْزَمُ فيها الضّمير. وذلك: إمّا مبتدأ وخبر، كقوله ﷻ: ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: 5]. وإمّا جملة من فعل وفاعل، ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ﴾ [النّور: 45]. وإمّا شرط، وجزاء، وظرف وما اتّصل به، أو جار ومجرور. والظّرف إنْ كان زمانيًّا أَخْبِرْ به عن الحدث، وإنْ كان مكانيًّا أخبِرْ به عن الجُثّة والحدث"[4]. فهو يُجيز الإخبارَ بالشّرط وجزائه عن المبتدأ كالإخبار عنه بالمفرد في مثل قول (زيدٌ إنْ تُكرِمْه يُكرمُك)

---

[1]– ابن معطي، الفصول الخمسون، ص244.

[2]– المرجع نفسه، ص181.

[3]– ابن الأنباري، الإنصاف في مسائل الخلاف بين البصريّين والكوفيّين، ص138. والمرادي، توضيح المقاصد والمسالك بِشرح ألفية ابن مالك، ج1، ص497.

[4]– المرجع السّابق، ص199– 200.

وكذلك بالجارّ والمجرور، وبالظّرف الزمانيّ الّذي يُخبر به عن الحدث فقط، والظّرف المكانيّ الّذي يُخبر به عن الحدث والجُثّة، فيبدو ممّا تقدّم أنَّ ما ذكره هذا النّحويّ لم يُسمع عند غيره.

وإذا كان ابن معط مُسانِدًا لآراء البصريِّين كثيرًا، ثمّ للآراء الكوفيّة والبغداديَّة، فله كذلك من الآراء الّتي اتّفقَ فيها مع النّحاة المغاربة، وعلى رأسهم شيخه الجزولي الّذي تبعه في مواطن كثيرة، فالمصنِّفُ "يدور كثيرًا في فَلَكِ شيخه الجزولي وأبي القاسم الزَجَّاجي، والصّلة بين الثّلاثة وثيقة، فابن معط تلْمَذَ للجزولي، والجزولي وَضَعَ مقدّمتَه المشهورة على جُمل الزجَّاجي، كما سبق"[1]، بالإضافة إلى تأثُّره بأسلوب شيخه المُوجز، فقد تأثّر أيضًا بطريقته في تناول بعض المسائل والتّعريف بها. ويبدو ذلك بوضوح في تعريفه النّعت الّذي جعله أسبق التّوابع بخلاف النُّحاة الأوّائل كابن السرّاج والزمخشريّ اللّذين قدَّمَا التّوكيدَ وشفعاه بالنّعت وهو القولُ الصّواب والمُصنِّفُ تَابَعَ ابن جنّي والزَجَّاجي والجُزولي في ما ذهبوا إليه. وكذلك الأمر مع أقسام التّوكيد حيث تابع شيخَه الجُزولي في قوله إنَّ التّوكيد "ينقسم إلى: توكيد تكرار، وتوكيد إحاطة. فتوكيد التّكرار: ينقسم إلى: تكرار اللّفظ وتكرار المعنى، فتكرار اللّفظ هو إعادة الشّيء بِعينه. وتوكيد المعنى: إعادة الشَّيء بالنّفس والعين، وفائدته: رفع توهُّم المجاز. وتوكيد الإحاطة: هو التّوكيد بكلّ وأجمع..."[2]، أمّا قول شيخه فجاء كالآتي "التّوكيد تكريرٌ وإحاطة فالتّكرير ضربان: تكرير لفظ وتكرير معنى، فتكرير اللّفظ أنْ تُعيدَه على نحو ما تقدّم، ويتبَعُ الاسم والفعل والحرفَ والجمل، وتكرير المعنى نفسه وعينه ويتبع الاسم المعرفة مطلقًا، والإحاطة يتبع الاسم المعرِفة المجتزئ"[3]، فكلُّ واحد منها جَعلَ التَّوكيدَ في نوعين تكرير وإحاطة، وهذا غير صحيح؛ لأنّه تَوهّم أنّ الإحاطة ليست بِتكرار ففي مثل قول (قام القوم كلّهم)، أجد أنَّ (كلّهم) بمعنى (كلّ القوم)، ممّا يدلّ على أنّ التّكرارَ واجبٌ في القسمين، وبالتّالي يكون التّقسيم متداخلاً، وعُذرهما كما يذكر ابن إيّاز القول إنَّ التّوكيدَ تارةً يكون بِتكرار من دون إحاطة، وتارةً أخرى بتكرار وإحاطة، كما وافقه في أنَّ الأفعال الّتي لا تتعدّى يجوز تعديتُها بحرف الجرّ دون ذكره للهمزة (أذهبت زيدًا)، وتضعيف العين (فرّحتُ زيدًا)، بل اقتصر على حرف الجرّ مقتديًا بشيخه مثلما صرّح بذلك ابن إيّاز وإذا قال المُصنِّفُ إنَّ (الباء) غير الزّائدة من حروف الجرّ الّتي تُفيدُ معنى الإلصاق، ولكن قد يدخلها معنى الاستعانة والتعديّة بدلاً من الهمزة[4]. في مثل قوله ﷻ: ﴿وَلَوْ

---

[1]- ابن معطي، الفصول الخمسون، ص129.

[2]- المرجع نفسه، ص235- 236.

[3]- أبو موسى الجزولي، المقدّمة الجزوليّة في النّحو، باب التّحقيق، ص73.

[4]- المرجع السابق، ص116 وص126- 127 وص213.

شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَـٰرِهِمْ ﴾ [البقرة: 20] أيْ (لأَذْهب سَمعَهم) دون الهمزة. فهو في هذا تابعٌ لِشيخه الجُزولي الّذي سبقه لمّا جعل التعديّة قسمًا آخر حيث يقول "الباء تكون للإلصاق ويدخلها معنى الاستعانة ومعنى المصاحبة ومعنى الظّرف، وتكون للتّعدية"[1]، ولكن اعترض ابن الخبّاز على قول ابن معط عندما جعل لهذه الباء معنى التعدية، حيث رأى الشَّارحُ أنَّ تعديةَ الباء فيه خلل؛ لأنّه يُؤذن أنَّ ما تُقدّمه ليس للتّعدية، ولكن ردَّ بعضُهم عليه بالقول إنَّ الإلصاقَ قد ينفكّ عن التعديّة كونه أعمّ منها، وحجّتهم قول ابن جنّي في مثل (أمسكت زيدًا) فقد احتمل أنْ تكونَ باشَرْتَه بيدك، وأنْ تكون منعته عن التصرّف من غير مباشرة، فإذا قلت (أمسكت بِزيدٍ) دَلَّ على أنَّ مباشرتك له بيدك، فالباء هنا تكون ملصقة وغير معدية، ممّا يعني أنَّ الإلصاق والتعدية مختلفان، في حين هناك من النُّحاة الّذين رأوا أنَّ (الباء) تكون للإلصاق والاستعانة فقط فبالنِّسبة للمعنى الأوّل يُقال: (مررتُ بِزيد)، وأمّا الثّاني فيكون في مثل (كتبتُ بالقلم)، ولكن يبقى الإلصاق أصلَ معانيها في نظر سيبويه ولذلك لم يذكر لها غيرَه، وللإشار ذكر لها ابن مالك عشرة معان، والمُرادي ثلاثة عشر معنى، وذهب أكثر نُحاة المغرب والأندلس إلى القول إنَّ هذه الباء لا تكون إلاَّ للإلصاق حقيقة أو مجازًا، فهي تتجرَّدُ لهذا المعنى، مع ذلك قد يدخلها معنى آخر، وباء التعدية تقوم مقام همزة النّقل في إيصال الفعل اللازم إلى المفعول به[2]. وأيّا ما كان الأمر فالباء تدلُّ على الإلصاق والاستعانة وكذلك التعدية بدلاً من الهمزة فجميعها مسموع في التّنزيل وكلام العرب، بالإضافة إلى المعاني الأخرى الّتي أشار إليها النّحاة.

وإنَّ اختيار ابن معط آراء المذاهب الأخرى ومساندته لها لم يمنعه من الانفراد بآراء لم تُنسب إلى غيره من النُّحاة. وأذكر منها:

- مَنَعَ ابنُ معط تَقَدُّمَ خبر (ما دام) على اسمها بخلاف أخواتها (كان وأمسى وأضحى وظلّ وما زال وما انفكَّ وما فتِئ وما بَرَح وغيرها)، وكذلك (ليس) الّتي وافق فيها الفارسيّ كما مَرَّ بيانُه على جواز تَقَدُّمِ خبرها، حيث يقول "وأمّا ما دام، فلا يجوزُ تقدُّمُ خبرها عليها ولا على اسمها، ولا تنفصل عنها ما بِخلاف أخواتها"[3]، فالمُصنِّفُ لم يُجِزْ تقدُّمَ الخبر على (ما دام) كما هو الأمر مع أخواتها، وعلى اسمها أيضًا؛ لأنَّ (ما) في (دام) مصدريّة، ولذلك لا يصحُّ تقديمُ ما في صلة المصدر عليه (لا أكلِّمك ما دام زيد قائمًا)، والصّحيحُ جوازه (لا أكلِّمك ما دام قائمًا

---

[1]- ابن معطي، الفصول الخمسون، ص127.

[2]- المرجع نفسه، ص213. والمُرادي، الجني الدّاني في حروف المعاني، ص36- 45. والمبرد المقتضب، ج1 ص177.

[3]- المرجع السّابق، ص181.

زيد)، ممّا يدلُّ على أنَّ رأيَ ابن معط ليس فيه صواب[1]؛ لأنَّه إذا أجاز تقديم خبر ليس على اسمها مع ضُعْفِها، فإنَّ (ما دام) أَوْلى بهذا التَّقديمِ، واقتران ما بـ (دام) منعها من التصرّف، وإذا انفصلت عنها فتُصبِحُ متصرِّفة، وأمّا ليس فلا تتصرَّف بأيٍّ وجه، واستدلَّ النُّحاةُ بقول الشَّاعر الآتي[2]:

وأحْسِبُها مَا دَامَ لِلزَيتِ عَاصِرٌ وَمَا طَافَ فوْقَ الأرْضِ حَافٍ وَنَاعِلُ

ويبدو امتناع ابن معط عن جواز تقديم الخبر على اسم (ما دام) أشهر مسألة خالف فيها النُّحاة، كما انفرَدَ بمنع توسُّط الخبر بين (ما) و(دام) نحو قول (ما قائمًا دام زيدٌ) لقوله (ولا تنفصل عنها ما بِخلاف أخواتها)، ولكنّه غير مصيب في قوله فالصَّحيح جوازه، وأمّا بالنِّسبة لمنعه تقديم الخبر على (ما دام) فثمّة اتّفاق بين جمهور النّحاة لِكَون (ما) فيها مصدريّة لا نافية، وذلك المصدر بِمعنى ظرف الزّمان والتّأويل (زمن دوام)، وللعلم حكى ابن مالك الإجماعَ على هذه المسألة تبعًا للفارسي لأنَّ الخلافَ فيها ضعيف، وقد ذكر هذا شيخُه الجُزولي لقوله إنَّ الخبر لا يتقدَّم عليها اتّفاقًا لكونها صلةً لِـ (ما) [3]، وأمَّا ما قاله ابن معط عن مَنْعِ تقديم الخبر على اسم (ما دام) فليس له متبوعٌ؛ لأنَّه مُخالِفٌ للمقيس والمسموع.

- أشار ابن معط في فصل (الفعل الّذي لمْ يُسَمَّ فاعله) إلى أنّه يُمكن للجارّ والمجرور أنْ يقوم مُقامَ الفاعل في حالة غياب المفعول به، وذلك في مثل قوله ﷻ: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: 7]، كما يقومُ المصدر مُقام الفاعل نحو قوله ﷻ أيضًا: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ [الحاقة: 13]. كما قد يقوم ظرفُ الزّمان أو المكان هذا المقام إذا كان مُختصًّا، ولكن إذا حضر المفعولُ به فَلا يقوم مُقام الفاعل سِواه[4]، وتكون هذه المفاعيل متساوية المراتب فلا تفاضل بينها إن اجتمعت في الكلام على قول جمهور النُّحاة ولكن يُمكِنُ ترجيح بعضها على بعض، والجار والمجرور قد يكون أَوْلَى بذلك لِقُربه من المفعول به، وهذا ما استخلصته من قول ابن معط

[1]- ابن معطي، الفصول الخمسون، ص55- 59. وابن مالك، شرح الكافية الشّافية، ج1، ص297.

[2]- نور الدّين الأشموني، شرح الأشموني على ألفية ابن مالك، تح: محمّد محي الدّين عبد الحميد، ط1. بيروت: 1955م، دار الكتاب العربيّ،ج1، ص112.

[3]- المُرادي، توضيح المقاصد والمسالك بِشرح ألفيّة ابن مالك، ج1، ص495. وأبو موسى الجزولي، المقدّمة الجزوليّة في النّحو، باب التّحقيق، ص106.

[4]- ابن معطي، الفصول الخمسون، ص177.

حيث قَدَّمَ الجار والمجرور، ثمّ المصدر وأخيرًا الظّرف من الزّمان والمكان، ويتجلّى ذلك أكثر في (الأَلفية) بقوله[1]:

فالأسبقُ المَجرُورُ والمصادرُ		ثمَّ الزّمَانُ والمكَانُ آخِرُ

– ذَكَرَ المُصنِّفُ في (الدرّة الأَلفية) و(الفصول) شروطًا للمفعول له حيث قال: "وهو مصدر لا مِن لفظ العامل فيه، مقارِنًا له في الوجود، أعمّ منه، جوابًا لِقائل لِمَ؟"[2]، وقوله (أعمّ منه) بِمعنى أعمّ من الفعل شرط لم يُسمع به عند غيره، وتحدَّث عن هذا ابن إيّاز قائلاً إنَّ المفعول له يكون أعمّ من الفعل ومثال ذلك كلمة (الرّغبة) في قول (قصدت زيدًا رغبةً في عطائه) الّتي يجوز أنْ تكون علّةً للقصد وغيره[3]. فالظّاهر أنَّ ابن معط منفردٌ بِذكره هذا الشَّرط الأخير، بدليل أنَّه لم يُشِرْ إليه أحدٌ من النُّحاة، وابن مالك لم يذكر في كتبه هذا الشَّرط ولا غيره.

– ذهب قومٌ من النّحاة إلى حذف حرف النِّداء (يا) مع لفظ الجلالة (الله) للتَّعويض عنها وابن معط لم يُوافقهم في هذه المسألة، فهو لم يُجِزْ حَذفَ (يا) قائلاً:

وأَحْرُفُ النِّداءِ قَد تُحذفُ		كَمِثْلِ: (رَبَّنا) وَمِثْلِ: (يُوسُف)

إلاَّ عَن اسْم الله والإشَـارةِ		فَالحَذفُ فيهما أَحْتذر اختصاره

لَوْ قُلتَ هَذا فِي النِّداء والله		وشِبْه هذا وَقَـع اشْتِباه[4]

ويحتجّ المُصنِّفُ في منعه بحذف هذا الحرف من اسم الله ﷻ حتَّى لا يلتبس في بعض صور الخبر بالنِّداء؛ لأنَّه لو قيل (اللهُ ربّي) ويُرادُ به (يا اللهُ ربّي) لأُوهِم أنَّ (الله) مبتدأ، و(ربّي) خبره، وإذا أجاز النُّحاة حذف (يا) فلابدّ أنْ تُعوَّضَ بالميم فيصبح (اللّهم). بِمعنى إنَّ تعويض ياء النّداء بالميم دليلٌ على أنَّ النُّحاة أجازوا الحذفَ، ولكن شرط أنْ يكون التعويض، أيْ لا ينبغي حذف (يا) دون تعويضها بالميم، حيث لا يصحّ القول (يا اللّهم) ولا يجوز الجمع بينهما إلاَّ عند الضَّرورة لقول الشَّاعر أبي خراش الهذلي (من الرّجز)[5]:

إنِّي إذا مَا حَدَثَ أَلَمَا		أَقُولُ يَا اللّهُم يَا اللَّهُمَّا

ويعتقد بعض النّحاة أنَّه لو كانت الميم عوضًا من (يا) لمّا اجتمعتا، وكان يُمثِّلُ هذا المذهب نُحاة المدرسة الكوفيّة الّذين أجازوا الجمعَ بينهما بناءً على رأيِهم أنَّ الميم ليست عوضًا

[1]– ابن معطي، الدرّة الألفية، ص34.

[2]– ابن معطي، الفصول الخمسون، ص192.

[3]– المرجع نفسه، ص61– 62.

[4]– ابن معطي، الدرّة الألفية، ص53.

[5]– خالد الأزهري، شرح التّصريح على التّوضيح أو التّصريح بِمضمون التّوضيح في النّحو، ج2، ص224.

من الحرف[1]، وهذا غير صحيح؛ لأنَّ العوض لا يجتمع مع المُعوّض وهو الرّأي المُختار والأصل عدم التّكرار، وأمّا اجتماعهما في الشّعر فقد كان للضّرورة وحسب.

– أجاز ابن معط في المندوب لحاقَ الألف لِما في آخره ألف وهاء لقوله في (الأَلفية)[2]:

وإنْ نَدَبت منْ تُنادي قُلتا: وازَيدُ واعَمْرو وَإنْ أَرَدْتَا

جِئْتَ بـ (يا) فَقُلْتَ: يا سَعِيدَاه وفي المُضَافِ: يَا عُبيد اللّهاه

ألحق بـ (عبيد الله) ألف النّدبة وأصبح (وا عبيد اللاهاه)، ويبدو أنَّ المغاربة اشتهروا كثيرًا برأيهم في هذه المسألة، وكان يتقدَّمهم ابن معط ودليل ذلك قول السيوطي "يقتضي جواز لحاق الألف بِما في آخره ألف وهاء، وبه صرّح بعضُ المغاربة وابن معط في ألفيته"[3]، كما يُشير بقوله هذا إلى النُّحاة الأندلسيِّين، ولكنْ لا يُنسى أنّ هناك من النُّحاة الّذين منعوا هذا الجواز لِعِلل معيّنة.

– خالف ابن معط جمهور النُّحاة في ما حكاه عن شُذوذ (زُهيْر) حيث قال في (الأَلفية)[4]:

وشَذَّ قَولُهم: زُهَيْرٌ صُغِّرا مُرَخَّمًا كَذَا عُثيْمٌ حُقِّرا

والرّأي الصَّواب هو أنّ (زُهير) تصغير التّرخيم لـ (أزهر) و(زاهر) و(مزهر)، حيث يتمُّ تجريدُه من الحروف الزّائدة، وبِما أنَّ الاسم بأصول ثلاثة فقد صُغِّرَ وجاء على وزن فُعَيْل، ولهذا السَّبب لم يتقبَّله المُصنِّفُ، واعتبر هذا التَّصغير شاذًا لا يُقاسُ عليه، وأمّا عند جمهور النّحاة فهو قياسيٌّ ولم يُقرُّوا بِشذوذِه كما دلَّ بِقوله.

– انفرد ابن معط بِما اشترطه لِقلب الواو ياءً، حيث قال إنَّ هذه الواو تأتي ساكنة وأنْ يأتي ما قبلَها كسرة لازمة نحو مِيْزان ومِيْقات، وواضحٌ أنَّه لم يُسمع بِمثل هذا عند غيره من النّحاة كما صَرَّحَ ابن إيّاز[5]، فحتَّى يكون هناك قلب لابدَّ من تَوفُّرِ شرطين، سكون الواو وكسر ما قبلها لزومًا، وأمّا ما ذهب إليه نحويُّنا فلم يُعْرَفْ له قائل، وذلك لأنَّه أضاف في القول لزوم الكسر لِما قبل الواو المقلوبة إلى ياء.

وتِلكُمُ إذًا جملة الآراء والترجيحات الّتي انتقيتها من (الألفية) و(الفصول)، وقد تبيَّنت بِجلاء بَصْرِيَّتُه في النَّحو، حيث أَيَّدَ آراء البصريِّين كثيرًا ممّا يكشِفُ عن ولائه لهم، مع عرضه

---

[1]- عبد العزيز بن جمعة الموصلي، شرح ألفية ابن معطي، ج2، ص292 –293. والسيوطي، همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، ج2، ص48.

[2]- ابن معطي، الدرّة الأَلفية، ص54.

[3]- السيوطي، همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، ج2، ص51.

[4]- المرجع السّابق، ص61.

[5]- ابن معطي، الفصول الخمسون، ص73.

للآراء الكوفيّة وموافقته لها في مواطن أخرى، كما أيّدَ بعضَ الآراء البغداديَّة والأندلسيَّة والمغاربيَّة في الوقت نفسه، ويبدو ذلك في متابعته الصَّريحة لشيخه الجُزولي الّذي تأثَّر به إلى حدٍّ كبير. وكان ابن معط في منهجه بِصفة عامَّة، يعرِضُ رأيَيْن مختلفيْن ثمّ يُرجِّح أحدهما ويُسانده بأمثلة وشواهد، ويُفنّدُ الآخر عندما يرى ضعفَ حجَّة أصحابه. كلّ هذا يدلُّ على حريَّته في الأخذ والاختيار والتّرجيح، مع مناقشته الآراء الّتي تابع فيها النّحاة الأوائل وأكثرهم سيبويه وكذلك اجتهاده في آراء أخرى انفرد بها عنهم حيث لمْ يُعرف له سلفًا في ما ذهب إليه من الأقوال الّتي ذكرتها.

3- ابن آجُرُّوم الصّنهاجيّ:

3-1- نشأته ومؤلّفاته: هو محمّد بن محمّد بن داود أبو عبد الله الصّنهاجي الفاسيّ الشَّهير بابن آجُرُّوم من قبيلة صنهاجة، وسُمِيَ كذلك نسبة إلى جدِّه داود الّذي كان أوّل من لُقِّب بهذا الاسم. و(آجُرُّوم) بفتح الهمزة وضمّ الجيم والرّاء المُشدّدة لفظٌ بربريٌّ يعني (الفقير الصُّوفي)، ولا يزال البربر ينطقون هذا المعنى بلفظ (أكُرّوم)، وذَكرَ السيوطي هذا اللّفظ في قوله "رأيت بخطّ ابن مكتوم في تذكرته، فقال: محمّد بن محمّد الصّنهاجيّ أبو عبد الله من أهل فاس يُعرفُ بأكُرّوم"[1]. فابن آجُرُّوم فاسيُّ المولد والوفاة، وُلِد سنة 672هـ وهي السّنة الّتي توفي فيها ابن مالك، وكان هذا من غرائب الصُّدف حتَّى قيل توفي نحويٌّ ووُلِد نحويٌّ آخر، وأمّا وفاته فقد كانت في شهر صفر من سنة 723هـ ودُفِنَ بباب الحيزيّين المعروف حاليًا بباب الحمراء.

أتقن ابن آجرُّوم علومًا كثيرة، فهو فقيهٌ ومتصوِّفٌ وأديبٌ، غير أنَّ الغالب عليه معرفة النَّحو والقراءات، حيث كان مع براعته في النَّحو مقرئًا متميّزًا. له رحلة كغيره من المغاربة إلى المشرق قاصدًا مكّة للحج، وعرج من خلالها على القاهرة حيث التقى بأبي حيّان فأخذ عنه العلم وأجازه، وبعد عودته إلى فاس استقرّ فيها للتّدريس بجامع الحيّ الأندلسيّ، وكان أبعد أهل عصره في الأستاذيّة صيتًا معظم حياته العمليّة[2]، ولذلك نال شهرةً واسعة فصار محلّ اهتمام العلماء على مرِّ العصور مشرقًا ومغربًا، حتَّى إنَّه لم يكن من المغرب مِمَّنْ عاصره أعرف منه في النَّحو. وقبل أنْ يبلغ ابن آجرُّوم هذه المكانة بين علماء زمانه كان طالب علم أوّلاً، فقد قرأ على جلّة مشايخ بلده والقادمين إليها، ولكن للأسف لم ينقل مترجموه الكثير عن جوانب شخصيته العلميَّة، فثمّة بعض الغموض لقلّة المعلومات في ترجمته الموجزة، وبالتّالي لم يُعرف

1- السيوطي، بغية الوُعاة، مج1، ص238. .

2- إبراهيم حركات، مدخل إلى تاريخ العلوم بالمغرب المسلم حتّى القرن 9هـ/ 12م، ج1، ص174.

عن الشُّيوخ الّذين أخذ عنهم سِوى القليل "وإنْ كُنَّا لا نعرف شيئًا عن نشأته ولا عن دراسته حتَّى شيوخه الّذين أخذ عنهم لم يذكرهم أحدٌ ما عدا أبا حيان الأندلسيِّ صاحب التَّفسير الكبير المعروف بالبحر المحيط فإنّهم ذكروا أنَّ المترجِمَ أخذ عنه بِمصر في طريقه إلى الحجّ"[1]. وممّن قرأ عليهم من المشايخ[2]، الإمام محمّد بن القصّاب الملقّب بأبي عبد الله (ت690هـ)، محمّد بن عبد الرّحيم أبو القاسم الضَّرير (ت701هـ) الّذي برع في الحفظ والإقراء، والإمام أبو حيَّان الّذي أخذ عنه علومًا كثيرة. وأمّا بالنِّسبة للطّلبة الّذين أخذوا عنه فأذكرهم في الآتي:

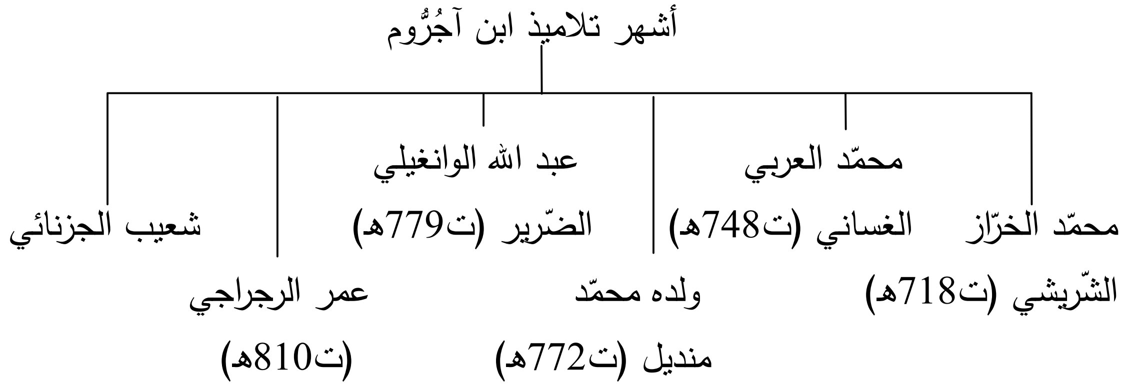

الشَّكل رقم (16)

كان ابن آجرُّوم ممّن اشتغلوا بالتّدريس والتّأليف، فقد ترك هو كذلك مُصنَّفات ذات أثر في نشاطِ الحركة العلميَّة عامّة ببلاد المغرب طيلة العصر الوسيط، وأهمُّها[3]:

– الآجرُّوميَّة وسيأتي الحديث عنها مفصّلاً؛

– ألفات الوصل وهو عبارة عن نظم رجزيّ، تناول فيه ألفات الوصل في الأسماء والأفعال ولكن لم يُعرفْ عنه شيء فلا يزال مخطوطًا، وتوجد نُسخة منه في قسم الوثائق بالخزانة العامّة بالرّباط؛

– التّبصير في نظم التّسيير وهو كذلك نظم رجزيّ، نظم فيه (التّسيير) لأبي عمرو الداني، لم يُعثرْ على هذا المؤلَّف إلى الآن؛

– فرائد المعاني في شرح حرز الأماني الّذي تناول فيه مسائل نحويّة وصرفيّة مهمّة، إذْ "لا تكاد تخلو ظاهرة من الظّواهر المُعَالَجة في الكتاب من تعليلات نحويّة، فيه المهيمِنة على جميع

---

[1]– عبد الله كنون، ذكريات مشاهير رجال المغرب في العلم والأدب والسياسة، ج1، ص223.

[2]– عبد الرّحيم بن عبد السّلام نبولسي، فرائد المعاني في شرح حرز الأماني ووجه التهاني لابن آجرُّوم دراسة وتحقيق أطروحة الدّكتوراه في النّحو والصّرف. المملكة العربيّة السعوديّة، وزارة التّعليم العالي، جامعة أم القرى، كليّة اللّغة العربيّة: 1997م، ج1، ص21- 24.

[3]– المرجع نفسه، ص44- 55.

الشّرح...إنّ أبواب الأصول عند القُرّاء يُقابلها أبواب التّصريف عند النُّحاة"[1]، كما يُعرف هذا الكتاب بـ (شرح الشّاطبيّة)، وكذلك بـ (فرائد المعاني في القراءات).

3-2- التّعريف بالآجُرُّوميّة: ألّفها ابن آجرُّوم فترة إقامته بمكّة الّتي قصدها لفريضة الحجّ "قال الكفراوي في حاشيته: حكى أنّه ألّف هذا المتن تجاه البيت الشّريف، وحكي أيضًا أنّه حين ألّفه ألقاه في البحر وقال: إن كان خالصًا لله تعالى فلا يبلّ"[2]، وكانت هذه الأخيرة أهمّ مصنّفاته في النّحو، حتّى إنَّها السّبب في الشّهرة الّتي نالها بين أقرانه العلماء. وعُرِفَ هذا المتن بأكثر من تسمية، فهناك من يُسمّيه (المقدّمة الآجُرُّوميّة)، وسُمِيَ كذلك لأنَّه يتقدَّم على غيره من المؤلَّفات المطوَّلة بحكم أنَّ نحوَه ميسَّر وموجَّهٌ للمبتدئين بالدّرجة الأولى[3]، وبعضهم يُسمّيه (مقدِّمة ابن آجُرُّوم) وبعضهم الآخر أطلقوا عليه اسمَ (متن الآجرُّوميّة) من باب النِّسبة. و(الآجرُّوميّة) عبارة عن متن منثور، لم يتجاوز عشرين صفحة تَمَيَّزَ بوضوح قواعده وحسن ترتيبها وعباراتها المختصرة بهدف تيسير النّحو. وللعلم طُبِعت (الآجرُّوميَّة) عدّة مرّات، ومنها طبعة الجزائر سنة 1846م مع ترجمتها إلى الفرنسيّة، وتوجد نُسخ من مخطوطات (الآجُرُّوميّة) بالمكتبة الوطنيّة الجزائريّة، منها مخطوط تحت رقم 141، وهو أجود نُسخه في المكتبة.

وإن اشتهرت (الجُزوليّة) بالإيجاز الشَّديد، فكذلك الأمر بالنِّسبة للمقدِّمة (الآجُرُّوميَّة) الّتي قُدِّمت بأسلوبٍ موجزٍ ومُختصر وميسَّر أيضًا إلى درجة أنَّه لم يُعرف غيرها من المؤلَّفات بِهذا الأسلوب كما عُرِفَت هي، ممّا جعلها تكون من أهمّ كتب النّحو الّتي يتلقّاها المبتدئون. ولعلّ غاية ابن آجُرّوم من تقديمها بهذا الأسلوب هي تناول مسائل النّحو ببساطة وإيجاز حتَى يسهل حفظها وإدراك معانيها دون الحاجة إلى المؤلّفات الموسّعة والمُعقّدة "إذْ هي مقدِّمةٌ مُباركةٌ من أجل ما أُلِّف في علم النّحو، وهي قريبة المرام، والتفهّم كثيرة النّفع لِمن هو مبتدئ، سهلة للحفظ والآجُروميّة الّتي تعتبر غايةً في الاختصار، وقد تضمّنت أهمّ أحكام النّحو، ويُلاحظ أنّ صاحبَها تَفَنَّنَ في الإتقان والتّأليف"[4]. وقَدَّمَ فيها ابن آجرُّوم ما رآه مهمًّا من قواعد النَّحوِ، ولذلك

[1]- عبد الرّحيم بن عبد السّلام نبولسي، فرائد المعاني في شرح حرز الأماني ووجه التهاني لابن آجرّوم دراسة وتحقيق أطروحة الدّكتوراه في النّحو والصّرف، ص73.

[2]- أحمد بن زيني دحلان، شرح الآجرُّوميّة، تح: محمّد بن جلال الدّين النّحويّ البغداديّ، د ط. أبو ظبي: د ت، مكتبة الصّفاء، ص7- 8.

[3]- عبد الله خالد بن عبد الله باحميد الأنصاري، شرح المقدّمة الآجرُّوميّة، ط1. الرّياض: 1424هـ، دار الاعتصام للنّشر، ص8.

[4]- عمار مصطفاوي، الجهود اللّغويّة في المغرب الأوسط من القرن السّادس إلى القرن التّاسع الهِجريَّيْن، أطروحة دكتوراه في اللّغة، ص135.

لم تأتِ مطوّلة، حيث اكتفى بِتناول بعض الأبواب الّتي رأى أهميَّةَ أنْ يعرفَها المبتدئون وابنه محمّد منديل كان واحدًا منهم.

جاءت (الآجُرُّوميّة) وفق ترتيب معيّن، حيث تَناول في البداية موضوعَ الكلام وأقسامه بعد فراغه من المقدّمة، ثمّ عَقَد الباب الأوّل للإعراب وأقسامه الأربعة (الرّفع، النّصب والخفض والجزم)، وقد قال عن الإعراب إنَّه تغيير لأواخر الكلم تبعًا للعوامل الدَّاخلة عليه لفظًا أو تقديرًا. والباب الثّاني لعلامات الإعراب الّذي أتبعه فصلاً يذكر فيه ما تقدَّم تمرينا لتدريب المبتدئين كعادة النّحاة القدامى، ويبدو أنَّ المُصنِّفَ وفقًا لترتيبه هذا يُدرِكُ فائدةَ معرفة الإعراب وعلاماته فقد "كان متأثِّرًا بنظرية العامل الّتي أقامها نُحاة العربيّة في القرون الأولى، فمنطلقه هو بيان علامات الإعراب. بل إنَّ الكتابَ مكرَّسٌ لتمرين الطّلاب على معرفة الإعراب"[1]. ولمّا فَرَغَ من الإعراب وعلاماته خَصَّ بابًا للأفعال والعوامل الدّاخلة عليه، ثمّ يليه باب مرفوعات الأسماء الّذي يتضمّن الفاعل والمفعول الّذي لم يسمّ فاعله، وكذلك المبتدأ والخبر وهما النّوع الثّالث والرّابع من المرفوعات، قام بجمعهما في باب واحد لأنَّهما متلازمان في الأغلب، وأَتبعَ هذه المرفوعات بِباب العوامل، وأُولاها عوامل ترفع ما بعدها (كان وأخواتها)، وثانيها عوامل تنصب ما بعدها (إنَّ وأخواتها)، وثالثها عوامل تنصب مفعولين (ظنّنت وأخواتها). وبعد ذلك شرعَ في باب ما يُعرب تبعًا لغيره، وفيه أربعة أقسام تأتي على هذا التَّرتيب: النّعت، العطف، التّوكيد والبدل. وأتبعه بباب منصوبات الأسماء، ثمّ بباب المخفوضات (المجرورات) وهو الباب الأخير. ويبدو أنَّ المُصنِّفَ موفَّقٌ إلى حدٍّ ما في ترتيبه هذا، حيث تمكَّنَ من تَنَاوُلِ الموضوعات المتداخل بعضها مع بعض، إذْ حين أنهى كلامَه مثلاً على علامات الرّفع في باب علامات الإعراب أخذ يتحدّثُ عن علامات النّصب؛ لأنَّ النّصبَ يأتي بعد الرّفع، وهو بِذلك – أي النّصب– أَوْلَى بالتّقديم من الجرّ والجزم.

وتتجلّى عناية العلماء بالآجرُّوميَّة في ذلك العدد الضّخم الّذي قدّموه لها من الشُّروح والحواشي والمنظومات والإعرابات، بدليل أنّه لم يحظَ غيرُها من المؤلّفات المُختصرة بِمِثْلِ هذا العدد، الأمر الّذي زاد من شهرتها وتبسيط قواعدها حتّى أصبحت مصدرًا نحويًّا مهمًّا لكثير من الطّلبة حيث عمّ الانتفاع بها منذ عصر مؤلِّفها إلى اليوم. هذا وقد تعاقب كثير من العلماء المغاربة والأندلسيِّين والمشارقة على شرحها نثرًا ونظمًا، شرحها ثمّ إعرابها ونظمها. وكان اهتمامهم بها في حياة المُصنِّف وما بعدها، وكان محمّد بن يعلى الحسني المعروف بالشّريف

[1]– أحمد بلشهاب، "تطوّر الدّراسات النّحويّة في المغرب حتّى القرن الثّامن الهجري" مقال في زهرة الآس في فضائل العبّاس، ج2، ص484.

(ت723هـ) من معاصري المُصنِّف أوّل من وضع شرحًا عليها بعنوان (الدرَّة النَّحويَّة في شرح معاني الآجرُّوميّة). وثمّ تتالت عليها شروح وحواشي ومنظومات كثيرة، وهذا جدول لبعض منها:

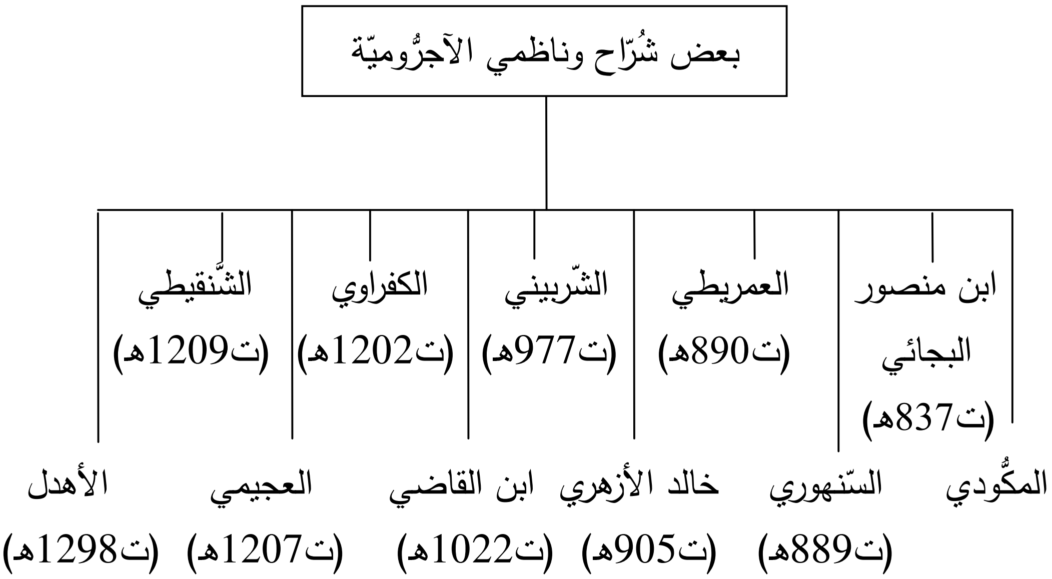

الشّكل رقم (17)

ورغم الإقبال الكبير الّذي لقيته (الآجُرُّوميّة) إلاَّ أنَّه أُخِذَت عليها بعض الاستدراكات والملاحظات، ومنها أنَّ المُصنِّفَ لم يُشِرْ إلى مباحث التَّصريف، فقد اكتفى بعرض مسائل النّحو فقط، وأسهب في توضيحها، وحتَّى بالنِّسبة لهذه المسائل اكتفى بِما رآه ضروريًّا من وجهة نظره، حيث استغنى مثلاً عن الاشتغال، الصّفة المُشبّهة باسم الفاعل والتعجّب. بالإضافة إلى تعمُّده الاختصار الّذي لم يكن مفيدًا في جميعه؛ لأنَّ هناك من المسائل الّتي تحتاجُ إلى توضيح أكثر بالأمثلة، كما فيها بعض الأغلاط الّتي انتبه إليها شُرّاح مقدّمته ودارسوها، ففي باب الفاعل مثلاً أغفل من الضّمائر فاعلاً وهو الياء نحو (قومي يا هند)، وفي باب التَّمييز لم يُمثِّل لتمييز الموزونات، وذَكر في باب البدل بدل الفعل من الفعل الّذي لم يورد له مثالاً في المتن حيث جاءت أمثلته للأسماء فقط[1]. وفي باب (المفعول الّذي لم يُسمّ فاعله) لم يذكر فيه ضمير المُثنّى الغائب مثل (ضُرِبتا) بضمّ الضاد، أشار إلى أنَّ المضمر اثنا عشر دون اعتباره لِهذا الأخير فحريٌّ به أنْ يقولَ بعد ضُرِبَا ضُرِبتا كما قال في ضُرِب ضُرِبت. وثمّة أمر لفت انتباه الشُرّاح أيضًا وهو أنَّ المُصنِّفَ تعرَّض للتّوابع في أكثر من باب، فقد تناولها مرَّة في باب المرفوعات باعتبار أنَّ تابعَ المرفوع يكون مرفوعًا، ومرّة ثانية في باب المنصوبات لأنَّ تابع المنصوب يكون منصوبًا، كما تناولها للمرّة الثّالثة في باب المخفوضات على أساس أنَّ تَابِعَ

[1]- شرح البجائي على الآجرُّوميّة ع/ عمار مصطفاوي، الجهود اللّغويّة في المغرب الأوسط من القرن السّادس إلى القرن التّاسع الهجريَّيْن، أطروحة دكتوراه في اللّغة، ص146- 148.

المخفوض يكون مخفوضًا "والتّابع للمرفوع وهو أربعة أشياء النّعت والعطف والتَّوكيد والبدل... والتَّابع للمنصوب وهو أربعة أشياء: النّعت والعطف والتّوكيد والبدل... والمخفوضات ثلاثة أقسام: مخفوض بالحرف، ومخفوض بالإضافة، وتابع للمخفوض"[1]، فمن المُستحسن لو خَصَّصَ بابًا يتناول موضوع التّوابع في النَّصب والرَّفع والجرّ أو بالأحرى الخفض مثلما ذكر.

لم يُشِر في باب (التَّوكيد) إلى التَّوكيد اللّفظي الّذي يكون بإعادة اللّفظ نفسه، كأن يكون اسمًا أو فعلاً أو حرفًا أو جملةً "التّوكيد تابع للمؤكّد... ويكون بألفاظ معلومة وهي النّفس والعين وكلّ وأجمع وتوابع أجمع وهي أكتع وأبتع وأبصع تقول قام زيدٌ نفسُه ورأيتُ القوم كلَّهم ومررتُ بالقوم أجمعين"[2]، في حين أشار غيره إلى التَّوكيد اللّفظيِّ أمثال الجزولي الّذي قال إنَّ "التّوكيد تكريرٌ وإحاطة فالتّكرير ضربان: تكرير لفظٍ وتكرير معنىً"[3]. كما لم يُشِر إلى النَّوع الخامس عشر من المنصوبات رغم أنَّه صَرَّحَ به لقوله (المنصوبات خَمسَة عَشَر)، ولهذا كثُرَت تعليلات الشُّرَّاح على ذلك، فمنهم من عَدَّه نسيانًا، ومنهم من قال إنَّه أراد به مفعولي ظننتُ فاستغنى عنه هنا بِذكره في النَّواسخ، وهناك من قال إنَّه جَعَلَ الظَّرفَ واحدًا، وخبر كان وأخواتها واسم إنَّ وأخواتها واحدًا وعدّ التّوابع أربعة[4]. هذا ولعلَّ المتتبّع للآجروميّة يُدركُ أنَّه أغفَل علامة الإسناد إليه في النَّحو ناسيًا أهميّتها في الجملة العربيَّة.

3-3- اختيارات ابن آجرُّوم ومذهبه النَّحويّ: إنْ تساءلنا عن اتّجاه ابن آجرُّوم النَّحويِّ في مقدّمته، فلا شكَّ أنَّ الأمر سيُثير كثيرًا من الجدل، بِسبب اختلاف الباحثين والدّارسين في عَدِّ هذا الأخير من أتباع المدرسة الكوفيّة، وإذا قُلْنَا كذلك فعليّ الأخذ بِرأي السيوطي حين قال إنَّه كوفيُّ المذهب لكونه "عبّر بالخفض، وهو عبارتهم. وقال: الأمر مجزوم، وهو ظاهر في أنّه معرّب وهو رَأيُهم؛ وذكر في الجوازم (كيفما)، والجزم بها رأيهم، وأنكره البصريّون"[5]، ولكن هناك من اعترض على هذا القول؛ لأنَّ استعمال ابن آجرّوم لبعض مصطلحات الكوفيِّين ليس بدليل قاطع على كوفيّته في النَّحو، فكما اتّبع هؤلاء في آرائهم يكون قد ساند البصريِّين في مسائل نحويّة كثيرة. وأثناء عرضي بعضًا من آرائه واختياراته سيتجلّى أنَّ المُصنِّفَ لم يُكن كوفيَّ

---

[1]- ابن آجرُّوم، الآجرُّوميّة، ص8- 14- 20.

[2]- المرجع نفسه، ص13.

[3]- أبو موسى الجزولي، المقدّمة الجزوليّة في النّحو، باب التّحقيق، ص73.

[4]- محمّد عبد الباري الأهدل، النَّفحة العِطريَّة على المقدّمة الآجروميّة، تح وتع: عبد الله بن محمد بن محمد بن عبده الأهدل، ط1. صنعاء: 2010م، دار النّشر للجامعات، ص204- 205.

[5]- السيوطي، بغية الوعاة، مج1، ص238.

المذهب فقط، بل رجَّحَ آراء البصريِّين والأندلسيِّين والبغداديِّين أيضًا وكان ذلك وفقًا لِاجتهاداته. بمعنى أنَّه كان كغيره من النُّحاة وبالأخصّ المغاربة الّذين لم يتعصَّبوا لمذهبٍ نحويٍّ واحد، مع أنّني أُشير بهذا القول أيضًا إلى جماعة من نُحاة الأندلس ولا سيما الّذين استقرُّوا في المغرب فاهتمُّوا بميدان تخصُّصهم اشتغالاً وتأليفًا. وسأُحاول في ما يأتي توضيح المنهج الّذي اتبعه ابن آجرُّوم في مقدّمته من خلال عرضي بعض المسائل الّتي ساند فيها الكوفيِّين وخالفهم في الوقت نفسه، حيث كان مؤيِّدًا للبصريِّين وغيرهم من نُحاة المذاهب الأخرى عامّة، ولا أنكر أنَّه رجَّحَ الكثير من آراء الكوفيِّين حتَّى اعتبروه كوفيَّ النّحو فقط، ومن أمثلة ذلك:

– جَعَلَ ابنُ آجرُّوم الأفعال في ثلاثة أنواع (الماضي والمضارع والأمر) وهو التّقسيم المشهور عند جمهور النّحاة، ولكنّه حين تناول (الفعل) قسمًا من أقسام الكلام في بداية مقدّمته قائلاً "والفعلُ يُعرفُ بقد والسّين وسوف وتاء التّأنيث السّاكنة"[1]، تبيّن أنّ العلامات الّتي ذكرها لا تتعلّق بفعل الأمر؛ لأنَّ (قد) تدخل على الماضي والمضارع معًا، (السّين وسوف) يختصّان بالمضارع، و(تاء التّأنيث السّاكنة) تدخل على الماضي فقط، والسّؤال المطروح أين هي علامة الأمر؟ والإجابة قد تكون بالقول إنَّ المُصنِّفَ اتبع طريقة الكوفيِّين في تقسيم الفعل إلى نوعين وهما الماضي والمضارع، وأمّا الأمر فهو داخلٌ في المُضارع لأنّه مقتطع منه بِدليل أنَّه يُبنى على ما يُعرب به مضارعُه بـ (قد) وهي علامة مشتركة تارةً تدخل على الماضي لإفادة تقريبه من الحال مثل (قد قامت الصّلاة) أو تحقيقه وتارةً ثانية على المضارع لإفادة التّحقيق[2]، فحتَّى وإنْ كانت له إشارةٌ إلى أنَّ الأمرَ مجزومٌ في تقسيمه للأفعال "والأمر مجزوم أبدًا"[3] إلاَّ أنَّه لم يذكر علامةَ جزمه جريًا على المذهب الكوفي.

– وافق المُصنِّفُ الكوفيِّين وقطرب من نُحاة المدرسة البصريَّة في القول إنَّ (كيفما) من أدوات الجزم، حيث ذكرها في باب الأفعال كالآتي "والجوازم ثمانية عشر وهي: لمْ ولَمَّا وأَلَمْ وأَلَمّا ولامُ الأمرِ والدّعاءِ ولا في النَّهي وإنْ وما ومنْ ومهما وإذْ ما وآيُّ ومتى وأيَّان وأين وأنَّى وحيثُما وكيفما وإذا في الشِّعر خاصّة"[4]، فهي جازمة لفعلين أوّلهما يُسمَّى فعل الشَّرط وثانيهما جواب الشَّرط، وذلك كما في قول (كيفما تكنْ أكُنْ) مع أنَّ الجزمَ عندهم لا يتقيَّد باتّصال (ما) بـ

[1]– ابن آجُرُّوم، الآجُرُّوميّة، ص4.

[2]– محمّد بن أحمد بن عبد الباري الأهدل، الكواكب الدريّة شرح متمّمة الآجُرُّوميّة (للشّيخ محمّد بن محمّد الرّعيني الشّهير بالحطاب)، د ط. بيروت: د ت، ج1، دار الكتب العلميّة، ص10.

[3]– المرجع السّابق، ص7.

[4]– المرجع نفسه، الصّفحة نفسها.

(كيف) ولكن قيل بأنَّه يجوز الجزم بها بشرط اقترانها بـ (ما)، وهذا مخالفٌ لِسيبويه والبصريِّين من أتباعه الّذين منعوا جَزْمَها مطلقًا، فهي تقع شرطًا ولكنَّها لا تجزم[1]، وهو الرَّأي الصَّواب لأنَّها لا تأتي جازمةً، بل يُجازى بها معنًى لا عملاً.

– وافقهم في القول أيضًا إنَّ الاسمَ المفردَ النّكرةَ المنفيّ بـ (لا) مُعْربٌ منصوب بالفتحة الظّاهرة في مثل (لا رجلَ في الدّار) واحتجّوا في ذلك أنَّ الاسم منصوب؛ لأنَّه اكتفى بالفتحة من الفعل وتقدير الجملة (لا أجد رجلاً في الدّار)، كما احتجّ بعضهم على هذا بالقول إنَّ (لا) تكون بِمعنى (غير) ولمّا جاءت هنا بِمعنى (ليس) نَصَبُوا بها لِيحدث الفرق بينهما، في حين رأى نُحاة المدرسة البصريَّة أنَّ اسمَ (لا) مبنيٌّ على الفتح؛ لأنَّ الأصلَ في القولِ (لا رجلَ في الدّار) (لا من رجل في الدّار) الّذي كان جوابًا للسَّائل عن: هل من رجل في الدّار[2]، وليس مثلما ذهب ابن آجرُّوم في القول وأمثاله إلى أنَّ (لا) تنصب النّكرات بِغير تنوين.

– منع الكوفيّون اعتبارَ (كي) من حروف الخفض، فهي بالنّسبة إليهم لا تكون إلاَّ حرف نصب بِحجّة أنّها ليست مختصّة بالاسم فقط بل بالفعل المُضارع أيضًا، ولذلك لا تأتي خافضة. وذهب المُصنِّف مذهبَ الكوفيِّين هذا بدليل قوله في نواصب هذا الفعل ومخفوضات الأسماء حيث وجدته يَذكُر (حتّى) مع حروف النّصب وليس الخفض "فالنَّواصبُ عَشَرَة وهي أَنْ ولَنْ وإذنْ وكَيْ ولام كي ولام الجُحُود وحتّى والجوابُ بالفاء والواو وأَوْ... فأمّا المخفوض بالحرف فهو يُخفض بمِن وإلى وعن وعلى وفي ورُبّ والباء والكاف واللاّم"[3]، فلم يذكر (كي) مع حروف الخفض وذهب قبله هذا المذهب الجُزولي، خلافًا للأخفش وجمهور البصريِّين الّذين ذهبوا إلى القول إنَّ (كي) تكون أحيانًا حرف جرّ دالاً على التّعليل، وأحيانًا أخرى حرفًا مصدريًّا ناصبًا للمضارع مذكورًا كان أم مقدّرًا وهم بِذلك لا يتقيّدون بالوجه الأوّل كما يفعل الكوفيّون، وتابعَ البصريِّين من نُحاة المغرب والأندلس ابن معط وابن مالك، ولكن ما لم يُؤيِّد فيه بعض الكوفيّين في هذا الباب هو اعتبار (رُبّ) من حروف الجرّ كما يتبيّن في قوله وهو رأيُ أكثر نُحاة المدرسة البصريّة ودليل حرفيّتها مساواتها الحروف ولذلك لا يحسُن فيها علاماتُ الأسماء ولا علاماتُ الأفعال، كما أنَّه لو كانت اسمًا لَجَاز تعديةُ الفعل بحرف جرّ مثل قول: (بِرُبّ رجلٍ عالم مررت) وسبقه إلى هذا الرّأي من المغاربة الجُزولي، وابن معط الّذي عدّ (رُبّ) من حروف الجرّ للتّقليل. وأمّا الكوفيّون فقد اعتبروها اسمًا وليس كما تقدّم، واختاره من نُحاة الأندلس

---

[1]– ابن هشام الأنصاري، مغني اللّبيب عن كتب الأعاريب، ج1، ص229– 230.

[2]– ابن الأنباري، الإنصاف في مسائل الخلاف بين البصريّين والكوفيّين، ص310.

[3]– ابن آجرّوم، الآجرُّوميّة، ص8 وص20– 21.

المتأخّرين ابن الطراوة[1]، والأكثر ما ذهب إليه البصريّون وهو الصَّحيح؛ لأنّ (رُبّ) تدلُّ على معنىً في غيرها، ممّا يُؤكّد حرفيتَها وليس العكس بِحجّة مساواتها الحروف في الدّلالة على معنى غير مفهوم جنسُه بِلفظها، ولكن هناك من الكوفيِّين الّذين اعتبروا (رُبّ) اسمًا ولم يُقرّوا بحرفيّتها واستدلّوا على اسميتها بالإخبار عنها.

– اختلف النُّحاة في جواز تقديم التّمييز على الفعل المتصرّف، فقومٌ منهم كسيبويه وأتباعه يمتنعون جملةً تقديم التّمييز على عامله سواء أكان فعلا متصرّفًا أم غير متصرّف، في حين ذهب غيرهم إلى جواز تقديمه أمثال الكسائي والمازني والمبرد قياسًا على الفضلات المنصوبة بفعل متصرّف وتبعهم من المتأخِّرين ابن مالك، وسبق أنْ أَشَرتُ إلى هذه المسألة في حديثي عن آراء الجزولي واختياراته، وكان ابن خروف الأسبق كما ذكرت في موضع آخر، وأمّا ابن آجرّوم فقد تابعَ الرّأي الأوّل قائلاً إنَّ "التّمييز لا يكون إلاَّ بعد تمام الكلام"[2]، ممّا يعني أنّه يُلزِم وجوب تأخير التّمييز في جميع الحالات وهو المذهب المشهور والرّاجح عند جمهور النّحاة واختار هذا الرّأيَ أيضًا من المغاربة الجُزولي كما تقدَّم الذِّكر.

– أجاز ابن آجرُّوم في المستثنى التامّ المنفيّ بِ (إلاَّ) وجهين قائلاً "وإنْ كان الكلامُ منفيًّا تامًّا جاز فيه البدلُ والنّصبُ على الاستِثْناءِ، فيكون بدلاً لِما قبل (إلاّ)، وإنْ جاء ما قبلها مرفوعًا أصبح مرفوعًا، وإنْ جاء منصوبًا أصبح منصوبًا، وإنْ جاء مجرورًا أصبح مجرورًا، وأمّا بالنِّسبة لوجه النّصب فيكون المُستثنى منصوبًا دائمًا، وهذا متّفق عليه بين جمهور النُّحاة، مع أنَّ في ناصبِ المُستثنى أقوالاً كثيرة[3] أشار إليها النُّحاةُ الّذين كانوا على هذا المذهب، واستدلّوا عليها بالسّماع والقياس، وعليه أقول إنَّ نحويًّنا مصيبٌ في متابعته لهذا الأخير. وقال المُصنِّفُ في هذا الباب أيضًا إنَّ نصب (غير) في الاستثناء كنصب المستثنى بـ (إلاَّ)، أمّا المستثنى بها فوُجِب جرُّه بإضافته إليها "والمستثنى بغيرُ وسِوًى وسُوًى وسَواء مجرورٌ لا غيرُ"[4]، وأخذ هذا الرّأي كثيرٌ من المغاربة والأندلسيِّين كابن عصفور وابن مالك، في حين يكون النّصب في حالة

---

[1]– أبو موسى الجزولي، المقدّمة الجزولية في النّحو، باب التّحقيق، ص122. وابن معطي، الدرّة الألفية، ص25. أبو البركات بن الأنباري، الإنصاف في مسائل الخلاف بين البصريِّين والكوفيِّين، ص319– 320. والمُرادي، الجني الدّاني في حروف المعاني، ص439.

[2]– ابن آجرُّوم، الآجرّوميّة، ص17.

[3]– المُرادي، الجني الدّاني في حروف المعاني، ص516– 517.

[4]– المرجع السّابق، ص18.

تمام الكلام وإيجابه، أمّا إذا كان الكلام تامًّا ومنفيًّا فيُرجَّح التبعيّة على المتّصل[1] وبالتّالي يكون رفعها على البدليّة ونصبها على الاستثناء، وقيل إنَّه مذهب سيبويه وهو الأصحّ.

– تناول المُصنِّفُ جميع علامات الإعراب في باب واحد سواء أبالحركات كان أم بالحروف، فقد قال في حالة الرّفع مثلاً إنَّ الضَّمة تكون في الاسم المُفرد، وجمع التّكسير وجمع المؤنّث السَّالم، والفعل المُضارع الّذي لم يتّصل بآخره شيء، والألف في المُثنّى، والواو في جمع المذكَّر السَّالم والأسماء الخمسة، وكذلك الأمر بالنِّسبة للنَّصب والخفض، فقد بَيَّنَ في كلِّ حالة على حِدة الحركات والحروف الخاصّة بها[2]، ومردّ ذلك رغبة ابن آجرّوم في اختصار مقدّمته وتيسير محتواها للمبتدئين.

– ذهب ابن آجرُّوم مذهب البصريِّين إلى أنَّ الابتداء هو عامل الرّفع في المبتدأ والخبر قائلاً "المبتدأ هو الاسم المرفوع العاري عن العوامل اللّفظيّة، والخبر هو الاسم المرفوع المُسند"[3]. واختار أكثر نُحاة المغرب والأندلس هذا الرّأي قبله وفي مقدّمتهم الجُزولي، وهذا مُخالف للكوفيِّين الّذين اعتبروا المبتدأ عامل رفع الخبر كما مرَّ بيانه.

– تابعَ البصريِّين في القول ببناء فعل الأمر في باب الأفعال "فالماضي مفتوح الآخر أبدًا، والأمر مجزوم أبدًا"[4]، ويعني بهذا أنَّ الأمر مبنيٌّ على السّكون لشبهه بالجزم، على عكس الكوفيّين الّذين ذهبوا إلى إعرابه، وبالتّالي لم يروا في بنائه الصَّوابَ.

– تابعهم في القول إنَّ (حتَّى) من حروف العطف حيث قال "حروف العطف عشرة وهي: الواو، والفاء، وثمّ، وأو، وأم، وإمّا، وبل، ولا، ولكن، وحتَّى في بعض المواضع"[5]، يعني بِقوله هذا أنَّ العطف بـ (حتَّى) قليل؛ لأنَّ الأكثر في (حتَّى) أنْ تكونَ حرف جرّ. وأذكر أنَّ لهذا الحرف عند بعض البصريِّين ثلاثة أقسام، يكون حرف جرّ، حرف ابتداء، وحرف عطف، وزاد الكوفيُّون قِسْمًا رابعًا وهو حرف نصب للفعل المضارع، أضاف بعض النّحاة قسمًا خامسًا وهو أنْ يكون الحرف بِمعنى الفاء، وحكى سيبويه وأتباعه العطف بها، ويكون ذلك متى وقع بعدها

---

[1]– ابن هشام الأنصاري، مغني اللّبيب عن كتب الأعاريب، ج1، ص183. وأحمد بن زيني دحلان، شرح الآجرّوميّة تح: محمّد بن جلال الدِّين النّحوي البغدادي، د ط. أبو ظبي: د ت، مكتبة الصفا، 104.

[2]– مجدي إبراهيم يوسف، "كتاب الآجروميّة في النّحو لابن آجرّوم ت723هـ" مجلّة علوم اللّغة. القاهرة: 2004م، كليّة الآداب، جامعة حلوان، مج7، ع4، دار غريب للطِّباعة والنّشر والتّوزيع، ص13.

[3]– ابن آجرّوم، الآجرُوميّة، ص10.

[4]– المرجع نفسه، ص7.

[5]– المرجع نفسه، ص13.

اسم مرفوع أو منصوب في مثل: (قام القومُ حتَّى زيدٌ وضربت القومَ حتّى زيدًا). بخلاف الكوفيّين الّذين أنكروه بالكليَّة وحملوا مثل: (جاء القوم حتَّى أبوك ورأيتهم حتَّى أباك ومررتُ بهم حتَّى أبيك) على أنَّ (حتَّى) فيه ابتدائيّة وما بعدها على إضمار عامل[1] وليست بعاطفة أيْ تكون حرف ابتداء وجرّ أيضًا، أمّا العطف بها فقليل عند جمهور النُّحاة.

– ذهب نحويُّنا مذهبَ البصريِّين بخصوص العوامل الدّاخلة على المبتدأ والخبر، وأوّلها قولهم إنَّ (إنَّ وأخواتها) تنصب الأوّلَ وترفع الثّاني، وأمّا الكوفيّون فقد رأوا أنَّ الخبر مرفوع؛ لأنّه باق على الأصل أي قبل أنْ تدخل عليه هذه العوامل، وثانيهما (ظننت وأخواتها) الّتي تدخل كذلك على المبتدأ والخبر فتنصبُ الأوَّلَ والثّاني على أنّهما مفعولان لها، وهذا مخالف أيضًا للكوفيِّين الّذين قالوا إنَّ الخبرَ منصوب على الحال. حتَّى في باب (كان وأخواتها) وجدته متابعًا للبصريِّين لمّا اعتبروها العامل في رَفْعِ اسمها، بخلاف الكوفيِّين الّذين قالوا إنّها تدخل على المبتدأ فترفعه رفعًا جديدًا غير الرّفع الّذي كان عند البصريِّين، باعتبار أنَّ رفعَه باقٍ على الأصل الّذي كان عليه قبل دخولها[2]، وأمّا بالنِّسبة لنصب خبر المبتدأ فذلك متّفق عليه.

– وأَجِدُ ابن آجرّوم متابعًا للبصريِّين أيضًا في المنع المُطلق لِجواز توكيد النّكرة بِغير لفظها، فقد أجمعوا على توكيدها بِلفظها فقط سواء أكانت النّكرة مؤقَّتة أم كانت غير مؤقَّتة (أي محدودة وغير محدودة) واستدلّوا على رأيهم بحجَّتَيْن، أوّلهما أنَّ النَّكرة شائعة ليس لها عين ثابتة كالمعرفة فينبغي أنْ لا تفتقر إلى توكيد، وإذا كانت النّكرة دالّة على الشّيوع والعموم، فإنّ المعرفة دالّة على التّعيين والتّخصيص، والحجّة الثّانية أنّه لا يصحُّ الجمع بين التّنكير والتّوكيد. أضف إلى ذلك أنَّ الألفاظ الّتي يُؤَكَّدُ بها معارف، فلا تتبع النّكرات توكيدًا لها، خلافًا للأخفش من البصريِّين وبعض الكوفيِّين الّذين أجازوا توكيدها جوازًا مُطلقًا إذا كانت نكرة مؤقّتة مثل شهر ويوم وشبههما لحصول الفائدة في نحو قولهم (صُمْتُ شهرًا كلَّه)، وهذا وارد في كلام العرب ولا سبيل إلى إنكاره، ولكن هذه النَّكرة تُؤَكَّدُ بكلّ وأجمع فقط، ولا تُؤَكَّد بالنّفس والعين، كما هناك من أجاز التّوكيدَ إذا أفاد ومنعه إذا لم يُفِد، وقال بالجواز المُطلق للتَّوكيد من نحاة الأندلس والمغرب ابن مالك والمكُّوديّ مُحتجِّين على ذلك بِصحَّة السّماع به. وإنْ قال المُصنِّفُ إنَّ التّوكيد يكون تابعًا للمؤكّد في الرّفعِ والنّصب والخفض والتّعريف، ويكون بألفاظ معلومة وهي النّفس والعين وكلّ، وأجمع، وتوابع أجمع، فيعني من اقتصاره على التّعريف أنَّ التَّوكيدَ لا يكون

[1]– المُرداي، الجني الدّاني في حروف المعاني، ص542– 550. وابن هشام الأنصاري، مغني اللّبيب عن كتب الأعاريب، ج1، ص147.

[2]– أبو حيّان، ارتشاف الضّرب من لسان العرب، ج3، ص1146.

نكرةً؛ لأنَّ ألفاظ التَّوكيد كلّها معارف فما كان منها مُضافًا مثل (كلّهم) كان تعريفه بالإضافة وما لم يكن مُضافًا مثل أجمع وتوابعه كان تعريفه العلميّة لأنّه علم على التّوكيد[1]، على عكس النّعت الّذي يكون تابعًا للمنعوت في إعرابه وتعريفه وتنكيره أيضًا، واختار هذا الرّأي معظم نُحاة الأندلس والمغرب، ومن بينهم الجُزولي وابن أبي الرّبيع. وقولي في هذه المسألة هو إنَّه مَنْ حَكَم بجواز توكيد النّكرات مطلقًا أو بالمنع المُطلق فغير مُصيب؛ لأنَّ هناك حالات يُفيد فيها الأوّل مثل (قمت ليلةً كُلَّها)، وفي أخرى يجوز المنعُ إنْ لم يُفِد في مثل (رَأيْتُ شَيئًا نفسَه)، ولكن رأي الكوفيِّين هو الأرجح، لأنَّ النَّكرة المحدَّدة يخفّ إبهامُها وتقرب إلى المعرفة، ممّا يؤدِّي إلى حصول الفائدة في توكيدها. وتابعهم ابن آجُرُّوم في القول إنَّ التَّمييز لا يكون إلاَّ نكرة وإنْ كان كذلك فلهم اشتراط عليه، بِخلاف الكوفيِّين الّذين أجازوا تعريف التَّمييز[2]، واختاره ابن الطراوة. وأمّا المُصنِّفُ فيقول إنَّ "التَّمييز هو الاسم المنصوب المُفَسِّرُ لِما انبَهم من الذّوات، ولا يكون إلاَّ نكرةً"[3]، وهو مُصيبٌ في اختياره هذا الرَّأي؛ لأنَّ المقصود من التّمييز هو إظهار ما أُبْهِم من الذّوات كما يبدو من كلامه، ممّا يستدعي لفظ التَّنكير وليس التَّعريف مثلما ذهب إليه بعضهم.

– تَابَعَ ابن آجرُّوم بعض نُحاة المغرب أمثال ابن معط والجُزولي، حيث اتفّق تعريف هذيْن الأخيريْن للكلام مع تعريف ابن آجُرُّوم، فإذا قال الجُزولي في هذا الباب إنَّ "الكلام هو اللّفظ المركّب المفيد بالوضع"[4]، فابن آجُرُّوم قدَّم التَّعريفَ ذاته قائلاً "الكلام هو اللّفظ المركّب المُفيد بالوضع"[5]، فتبدو متابعته للنَّحوِيَّيْنِ في هذه المسالة واضحة جدًّا، كما وافقهما في القول إنَّ النَّعتَ تابعٌ للمنعوت في التَّعريف والتَّنكير.

– لم يُصب ابن آجرُّوم في قوله إنَّ الفعل (سمع) يتعدَّى إلى مفعولين إذا كان مع ما لا يُسمع مثل (سَمِعْتُ النبيَّ ﷺ يقول) فجملة (يقول) من الفعل والفاعل تُعربُ هنا في محلّ نصب مفعول ثان، وأمَّا إذا كان مع ما يُسْمَعُ فتعدّيه يكون إلى مفعول واحد فقط في مثل (سمعتُ كلامَ زيد)، وهذا رأي ضعيف، والظّاهر كلام الفارسي حيث اعتبر (سمع) من الأفعال

[1]– ابن الأنباري، الإنصاف في مسائل الخلاف بين البصريِّين والكوفيِّين، ص362– 364. وعبد الرّحمن المكُّودي شرح على الألفيّة في علمي النّحو والصّرف لابن مالك ومعه حاشية العلاّمة الشّيخ أحمد بن عبد الفتّاح الملوي الأزهري، ص166. ومحمّد بن صالح العُثيمين ومحمّد بن أحمد الهاشمي، الدرّة النَّحويَّة في شرح الآجرّوميّة، ط1. القاهرة: 2002م، دار ابن الجوزي للنّشر والتّوزيع، ص536.

[2]– السيوطي، همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، ج2، ص269. والمبرد، المقتضب، ج3، ص34..

[3]– ابن آجرُّوم، الآجرُّوميّة، ص17.

[4]– أبو موسى الجزولي، المقدّمة الجُزوليّة في النّحو، باب التّحقيق، ص3.

[5]– المرجع السّابق، ص2.

الّتي تتعدّى إلى مفعولين، مشترطًا أنْ يكون الثّاني ممّا يُسْمَع، ولكن قال جمهور النُّحاة إنَّ جميعَ أفعال الحواس لا تتعدَّى إلاَّ إلى مفعول واحد مثل أبصرت وسمعت وذقت وشممت ولمست، والمعتمد عندهم أنَّ جملة (يقول) في موضع نصب على الحال من النبيِّ ﷺ[1]. هذا وذَكَرَ الفعلَ (سمعت) مع (ظننتُ وأخواتها) الّتي تدخل على المبتدأ والخبر فتنْصِبُهما على أنَّهما مفعولان لها، وكان من حقِّ فَصْلِ (ظنَّ وأخواتها) أنْ يردَ في المنصوبات ولكنَّه جاء في المرفوعات استطرادًا لتتميم بقيَّة النَّواسخ.

وأمَّا عن المصطلحات الّتي اعتمدها المُصنِّفُ في مقدّمته، فأجده يستعمل مصطلحات المذهبَيْنِ معًا، فمن مصطلحات الكوفيِّين مثلاً (الخفض) مقابل (الجرّ) الّذي يستعمله البصريّون و(حروف الخفض) بِمعنى (حروف الجرّ)، و(المخفوضات) المقابل لمصطلح (المجرورات) عند النّحاة البصريِّين، وأجده في اختياره هذا مُصيبًا؛ لأنَّ الخفض أقرب إلى الصَّواب ويُقابله الرَّفع. كما تابعهم في مُصطلح (المفعول الّذي لم يسمّ فاعله) أيْ (نائب الفاعل) وهو مصطلح البصريِّين وكذلك (النّعت) المقابل لـ (الصّفة) وغيرها كثير. ومن المصطلحات البصريّة الّتي استعملها (الضّمير والمضمر) مقابل (الكناية والمكنّى)، وكان الفرّاء أوّل من اشتهر باستعمالهما، ومصطلح (البدل) الّذي يُقابِله مصطلح (التّرجمة) عند الكوفيِّين، وكذلك (التّبيين) الّذي قاله الأخفش، مع أنَّ هناك من الكوفيِّين الّذين استعملوا التّكرير[2] وكان في مقدّمتهم ابن كيسان. ومصطلح (التّمييز) الّذي يُسمِّيه الكوفيُّون (التّفسير) و(المترجم)، و(ظرف الزّمان وظرف المكان) بدلاً من المفعول فيه.

وإلى هنا أُدرك أنَّ ابن آجرُّوم لم يكن كوفيَّ النَّحو فقط؛ لأنّ رغم ما يبدو عليه من ميل إلى آراء الكوفيِّين كما أشرت، إلاَّ أنَّه استدلَّ بآراء البصريِّين في مواضع متعدِّدة، مع استعماله بعض المصطلحات الّتي تخصّهم، فكما استعمل مثلاً (الخفض) وهو مصطلح عُرِفَ به الكوفيّون استعمل (التّمييز) الّذي يخصُّ البصريِّين. ولهذا السَّبب تعمَّدتُ ذِكْرَ المسائل الّتي وافقهم فيها بِعدد يفوق عدد المسائل الّتي أيَّد فيها النُّحاة الكوفيِّين. وأعني بِهذا القول أنَّ استعمالَ المُصنِّفِ المصطلحات الّتي اشتهر بها الكوفيّون لا يدلّ بالضَّرورة على كوفيَّتِه في النّحو، إذْ له كذلك من المُصطلحات والاختيارات البصريَّة الّتي دفعتني إلى القولِ إنَّه ليس كوفيّ المذهب فقط، بل بصريّ النَّحو أيضًا، وهذا مع مساندته لِنُحاة المذاهب الأخرى في آراء

---

[1]- محمّد بن أحمد عبد الباري الأهدل، النّفحة العِطريّة على المقدّمة الآجرُوميَّة، ص172- 173.

[2]- الخليل بن أحمد الفراهيدي، المنظومة النّحويّة، تح ودراسة: أحمد عفيفي، ط1. القاهرة: 1995م، دار الكتب المصريّة، ص85.

ومخالفتهم في أخرى. ولكن لا أَدَّعِي ممَّا تقدَّم أنَّ للنّحويِّ آراء انفردَ بها كغيره حتَّى استطاع أنْ يتميَّز بها ويُثري الدَّرسَ النَّحويَّ عامّة، فكلّ ما يهُمُّني من الحديثِ عن اختياراته هو معرفة توجُّهِه النَّحويِّ مع سَعْيِي لرفع مكانتِه أكثر بين نظرائه النّحاة، وإبراز مزايا مقدِمته الّتي نال بِفضلها شهرةً عالية بين العلماء والطَّلبة حيث تنافسوا في دراستها وشرحها ونظمها وإعرابها.

4- عبد الرّحمن المكُّودي:

4-1- مولده ونسبه ونشأته: هو أبو زيد عبد الرّحمن بن صالح المكُّوديّ الفاسيّ المالكي، عُرِفَ بالمَكُّودي بِفتح الميم وضمِّ الكاف مخفَّفة عند بعضهم وهو الجاري على الألسنة وبعضهم الآخر يذكرونه بتشديد الكاف وهو الملائم نسبة إلى قبيلة مكُّود أو مكُّودة إحدى قبائل هوّارة الواقعة بين فاس وتازة ولهذا يُلقِّبونه بالفاسي. ويُعرف كذلك بالمطّرزي كما حكى السيوطي[1]. وُلِد المكُّودي سنة 726هـ، نشأ في بيت علم وجاه وثروة وعدالة حيث كان لهم زقاق يُعرف بهم يُقال له عقبة المكُّودي، تلقَّى العلوم عن أسرته ثمّ عن شيوخ بلده فصار من علية العلماء، انشغل بِأكثر من علم، فهو نحويٌّ ولغويٌّ وفقيهٌ متميّزٌ اشتهر بزهده وورعه مع معرفته الجيّدة بِنظم الشّعر، ويدُلُّ على ذلك ما رواه مترجموه حيث قالوا إنَّ له ولدًا صغيرًا فوقعت بينه وبين صبيٍّ خصومةٌ والمكُّودي ينظر فكانت الغلبةُ لولده ممّا جعله يقول هذين البيتين ارتجالاً:

نحنُ بنو مَكُّود أهلُ التُّقى والجُود

نَكِرُّ في الأعَادي كَكَرَّة الأسود

وإنْ عُرِف نحويًّا بِشغفه بطلب العلم والجدِّ في تحصيله فقد قيل عنه كذلك إنَّه تصدَّر للتَّدريس والتَّصنيف، ولكن ما لحظته أنَّ مترجميه اختلفوا في تحديد تاريخ وفاته، فبعضهم يقول توفي بِفاس سنة 801هـ ومنهم بروكلمان[2]، وبعضهم الآخر سنة 807هـ وكذلك سنة 808هـ وابن العماد قال سنة 901هـ[3]، ولكن الرّأي الأرجح والّذي عليه أغلب كتب التّراجم هو سنة 807هـ ودُفِنَ بمسجده المعروف بـ (حومة الأصدع).

4-2- شيوخه وتلاميذه: كان من حُسْنِ حظّ المكُّودي أنْ ينشأ ويَتَرَعْرَع في بيت علم ومعرفة، وأنْ يستقرَّ بِفاس الّتي ازدهرت فيها الحركة العلميّة فترة حُكْمِ المرِّينيَّة، حيث برز فيها

[1]- السيوطي، بغية الوعاة، مج2، ص83. وابن القاضي، جذوة الاقتباس في ذكر من حلّ من الأعلام مدينة فاس ج2، ص403. وعبد الله كنون، النّبوغ المغربيّ في الأدب العربيِّ، ج1، ص220.

[2]- السّخاوي، الضّوء اللّامع لأهل القرن التّاسع، ج4، ص97. وبروكلمان، تاريخ الأدب العربيِّ، ج5، ص284.

[3]- ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، مج10، ص9.

عدد كبير من الشُّيوخ الّذين اشتغل معظمهم باللّغة والنّحو، ممّا جعله ينهل من مواردهم فقد كان لكلّ هذا الأثر الطيّب في تكوينه. ومن أبرز شيوخه:

- أبو محمّد عبد الله الوانغيلي الضّرير المذكور بين طلبة ابن آجُرُّوم، فهو كذلك واحدٌ من علماء فاس الكِبار، أخذ العلمَ عن شيوخ المغرب، مَهَرَ واشتهر في الإفتاء والفقه والأصول انفرد بِفهم كتابي ابن الحاجب في الفروع والأصول.

- محمّد بن حياتي الغرناطيّ (ت781هـ)[1]، وهو الفقيه النَّحويّ تصدّر للتّدريس بفاس أخذ عنه ابن قنفذ والحفيد ابن مرزوق، وكان ابن حياتي أوّل من أدخل إليها شرح المُرادي على (الألفية).

وفي ما يخصّ مكانته بِفاس بصفته مدرِّسًا فقد كان له تلاميذ متعدِّدون، حضروا حلقاته وغرفوا من معين معارفه وتأثَّروا به، وأذكر منهم في الآتي:

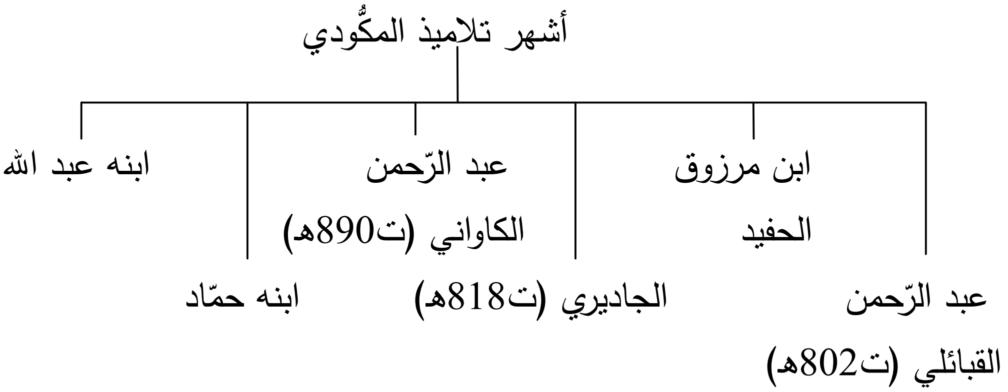

الشَّكل رقم (18)

4-3- آثاره العلميَّة: استطاع المكُّودي أنْ يشاركَ في النَّشاط العلميِّ الّذي عرفته فاس في عصره، وكان ذلك أوّلاً عن طريق التّدريس حيث انقطع لهذه المهمَّة بمدرسة العطّارين العمر كلّه ويكفيه فخرًا أنْ يكون آخر من ظلَّ يُدرِّسُ كتاب سيبويه فلم يُفارقْه دارسًا ومدرِّسًا فيها، وثانيًا التّأليف في الفقه والشّعر والعروض واللّغة والنّحو والصَّرف، حيث ترك مجموعة من الكتب تداولها النّاس ولا سيما طلبته. ومن مُصنّفاته النَّحويَّة والصَّرفيَّة[2]:

[1]- ابن القاضي، درّة الحجال في أسماء الرّجال، ج2، ص275.

[2]- أحمد بن الحاج الفاسي، حاشية العلاّمة ابن حمدون على شرح المكُّودي لألفية ابن مالك المسمّاة (الفتح الودُودي على المكُّودي)، د ط. د ب: 1955م، دار إحياء الكتب العربيّة ج1، ص6- 7. ومحمّد الكتاني، سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس، تح ووضع فهارس: الشّريف محمّد حمزة بن علي الكتاني، د ط. الرّباط: 2005م، الموسوعة الكتانية لتاريخ فاس، ص201- 203. وعبد الله كنون، النّبوغ المغربيّ في الأدب العربيّ ج1، ص220.

– شرحان على ألفية ابن مالك كبير وصغير، ولكن قيل إنّه لم يبق منهما سِوى الشّرح الصّغير الّذي تمّ طبعُه، وأمّا الكبيرُ فثمّة روايات مختلفة عنه، حيث "قيل إنَّه لم يُكملْه، وقيل بل كمله ولو بقِيَ ما التَفَتَ النّاسُ إلى غيره، لكنْ أحرقه أعداؤه حسدًا في بيت النّار من فرن حومة الشّطة، إلاَّ أوّله فهو موجودٌ في فاس"[1]. ولا شكَّ أنَّ بقاءَ هذا الشَّرح يُزيدُ من شهرة صاحبه ويُغني الطّلبة والمُشتغلين بالنّحو من الحاجة إلى كتب غيره، ولأنَّ المكُّوديّ كان موضع حسد من أعدائه بسبب إسناد كرسيِّ النّحو إليه بجامع القرويِّين فذلك لا يستبعد احتمال حَرْقِ شرحه وإتلافه حتّى لا يحتفظَ بتلك المكانة العالية الّتي حظِيَ بها بين أئمة النّحو واللّغة؛

– شرح على الآجُرُّوميَّة، وهو كذلك من الشُّروح الّتي عُرِف بها المكُّودي، طُبِع في تونس والقاهرة عدّة مرّات، ومنها طبعة مصطفى الحلبي البابي وأولاده بِمصر في حوالي خمس وعشرين صفحة، وبهامشه رسالتان للشَّيخ أحمد زيني دحلان الأولى تتعلّق بـ (جاء زيد)، وأمّا الثّانية فتتعلّق بالمبنيّات؛

– نَظْمٌ في البسط والتَّعريف في علم التّصريف، وهو عبارة عن قصيدة نظَمها على بحر الرّجز في نحو أربعمئة بيت، وحظِيت بشروح كثيرة، منها شرح الفكوك الطرابلسي (ت1073هـ)[2] وشرح الدلائي المسمّى (فتح اللّطيف في علم التّصريف) وهو أشهرها.

هذه هي إذًا مؤلَّفات المكُّودي الّتي تدلُّ على باعه الطّويل في اللّغة والنّحو وإلمامه الكبير بهما حتّى عُدَّ إمام زمانه فيهما، أفنى عمرَه في خدمة هذه العلوم دارسًا ومدرِّسًا ومؤلِّفًا، ولكن للأسف لم يسلم معظم مؤلّفاته من عوادي الدَّهر فقد ضاعت، وبالتّالي لم يُعْرَفْ عنها سِوى العناوين.

4-4- منهج المكُّودي في التّأليف من خلال شرحه على (الألفية): كان المكُّودي من علماء المغرب الّذين ألّموا باللّغة والنّحو إلمامًا كبيرًا، حيث استطاع أنْ يبرُزَ من خلال ما قدّمه فيها من مؤلّفات مفيدة أسهمت في نشاط الدَّرس النَّحويِّ بِفاس خاصّة والمغرب عامّة. وقلت في ما سبق إنَّ لِهذا النَّحويِّ شرحين على (ألفية ابن مالك) كبير وصغير، ولكن الأوّل كان في عداد كتبه المفقودة، وأمّا الثّاني الّذي أكمله سنة 799هـ فقد كان من حظِّ صاحبه أنْ يقاومَ الزّمنَ فيبقى إلى جانب كتب النّحو الّتي أَثْرَت المكتبة المغاربيَّة، وهو المُتداول بين العلماء والطّلبة، بلغ المشرقَ فاشتغل به أهلُه وانتفعوا، وقِيلَ أهداه إلى الحاجب المرِّينيِّ الوزير ولكن

[1]– محمّد الكتاني، سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس ص201– 202.

[2]– إسماعيل البغدادي، هدية العارفين أسماء المؤلّفين وآثار المصنّفين، د ط. بيروت: د ت، دار إحياء التّراث العربي مج2، ص289.

النّسخة الّتي حوت هذا الإهداء مفقودة[1]. وبِما أنَّ المكُّودي لم يضع عنوانًا لشرحه هذا فقد عُرِف باسم (شرح المكُّودي على ألفية ابن مالك)، وكذلك باسم (شرح الخلاصة الأَلفيّة لعبد الرّحمن المكُّودي)، مع أنَّ الاسمَ الأوَّل أكثر شهرةً واستعمالاً، كما أنَّ معظمَ المصادر الّتي ترجمت له ذكرته بهذا الاسم واتّفق عليه شُرّاحه. ونظرًا لأهميَّة هذا الشَّرحِ فقد انتشرت نُسخه في أغلب مكتبات العالم ومنها، نسخة مخطوطة في الخزانة الحسنية والخزانة العامّة بالرباط، نسخة مطبوعة في فاس سنة 1318هـ.

ويعدّ شرح المكُّودي من مُصنَّفات النَّحو المغاربيَّة الّتي حظِيت بكثير من العناية إلى جانب (الجزوليّة) و(الدرّة الأَلفية) و(الآجرُّوميَّة)، فقد عُرِفَ هذا الشَّرح بِوضوح العبارة وسهولتها مع تحقيق المُراد دون إخلال بالمعنى، ولهذا السَّبب حظِيَ باهتمام النّاس حيث سعى النُّحاة من معاصريه والخالفين له على دراسته وفهمه وتدريسه أيضًا، كما علَّق وحشّى عليه آخرون، ومن الشُّروح والحواشي الّتي وُضِعَت عليه[2]:

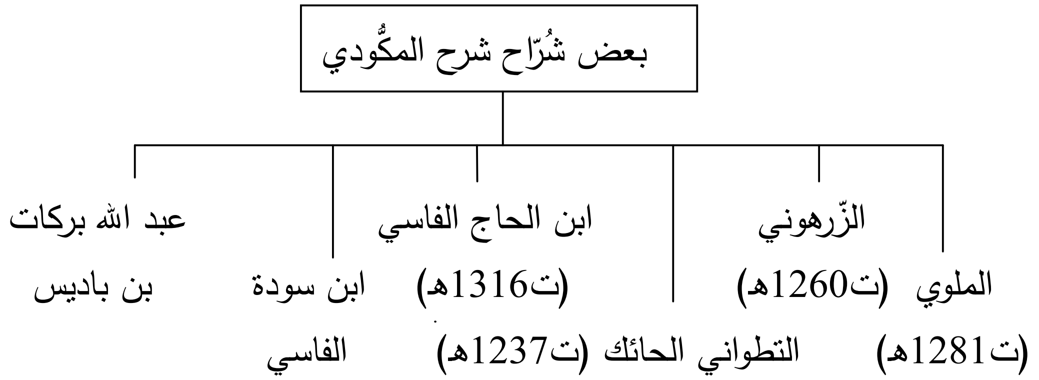

الشَّكل رقم (19)

وضَعَ المكُّودي شرحَه بِطلبٍ من بعض طلبته والرَّاغبين في حِفْظِها وفَهْمِ ألفاظها، وهذا ما صَرَّحَ به في المقدّمة "والباعث على ذلك أنَّ بعض الطّلبة، والفئة المجتهدين، من المعتنين بِحفظها، القانعين بِمعرفة لفظها، طَلَبَ منِّي أنْ أضع شرحًا على نحو ما ذكرته، وأُبَيِّن ألفاظها ومعانيها على حسب ما وصفته، فأجبته إلى ما اقترح عليّ، وأسعفته بِما أمل لدي"[3]. اجتهد المكُّودي في شرحه كثيرًا، حيث سعى إلى توضيح مقاصدها، وبيان غامضها، وأعفاها من الإسهاب، بل مَالَ إلى الاختصار الّذي امتاز بِقلّة الألفاظ ودقَّتها مع وفرة المعاني وإعراب الأبيات الواردة فيها حتَّى إنَّه اعتبر الاختصار في بعض الحالات عذرًا في عدم تفصيله بعض

---

[1]- المكُّودي، شرح المكُّودي على ألفية ابن مالك، ج1، ص44.

[2]- المرجع نفسه، ص45.

[3]- ابن الحاج، الفتح الوَدُودي على المكُّودي، ج1، ص8.

المسائل. وعلى هذا كان الشَّرحُ من أكثر الشُّروح الّتي حظِيت بها (الألفيّة) أهميّةً وإقبالاً، فهذا ابن الحاج يقول "أجلّ ما أُلِّف في علمِ النّحو خلاصة ابن مالك، وأنفع شروحها الّذي انتفع به النّاسُ شرح الإمام المكُوديِّ العاطر الأنفاس"[1]، فقد ساعد هذا الشَّرحُ الطّلبةَ على فَهْمِ ما غمض في (الأَلفية) من ألفاظ ومعان، وما خفى منها دون زيادة أو نقصان تحقيقًا لمقصود النّاظم. وعليه جاء الشَّرح كثير النّفع، وقريب المأخذ وسهل الفهم. ويُمكِنُ إجمال سِمات المنهج الّذي اتّبعه المكُوديّ في النّقاط الآتية:

– تقديم الشَّرح بأسلوبٍ سلسٍ وسهلٍ، بعيد عن التكلُّف والتّعقيد، فقد اعتمد الشَّارحُ عبارات بسيطة لأداء المعاني المقصودة دون عناء، ممّا جعله يتجنّبُ كثرة التّأويلات والتّعليلات الفلسفيّة الّتي تُضلّل الطّلبة وبالأخصّ النَّاشئة، وصحيح أنَّ فيه توضيحات ولكن لم تكن صعبة الفهم.

– الاستشهاد بِكثير من الأمثلة والشَّواهد على القواعد لتقريبها وترسيخها في الأذهان، فقد كان يستدلُّ على المسألة الواحدة بِأكثر من حجّة، ولذلك تنوّعت الشَّواهد بين آيات قرآنيّة وأحاديث نبويّة وكلام العرب، وأمثلة ذلك كثيرة في الشَّرح.

– رَبْط موضوعات الأبواب النَّحويَّة بعضها ببعض والإلمام بِجوانبها المُختلفة سيرًا على التسلسل الموضوعيِّ الّذي اعتمده ابن مالك، حتَّى تبدو مترابطة الأجزاء ومتينة البناء، ممّا يُعين القارئ على متابعة المسائل وفهمها بِسهولة، وكان يُعبِّر عن ذلك ببعض الألفاظ والعبارات مثل (كما سبق، كما تقدّم، قد تقدّم هناك، وأضاف، ثمّ وغيرها)، وأمثلة ذلك كثيرة فلا تخلو صفحةٌ من صفحات الشَّرح منها، وأقتصر على ما قاله في باب حروف الجرّ بعد ذِكْرِهِ البيت "تقدَّم أنَّ رُبَّ والكاف من الأحرف المختصّة بالظّاهر ذكر في هذا البيت أنَّهما قد يدخلان على المُضمر قليلاً ومنه قول العرب ربّه رجلا..."[2]، فهنا يُذكِّر القارئ بِما سبقَ الكلام عليه.

– شيوع الأسلوب التَّعليميِّ في الشَّرح ويبدو ذلك في عرضه للمسائل عرضًا دقيقًا، واعتمد في ذلك الطَّريقة الجدليَّة الّتي تقوم على افتراض السّؤال والجواب عنه كأن يقول (فإنْ قلت فلو...، يعني أنّك إذا قصدت... قلت...)، ومثال ذلك ما أوردَه في باب (ما ولا ولا وإن المشبّهات بليس) حيث يقول "فإنْ قلت كيف يصحُّ أنْ يعودَ على الخبر المتقدِّم وهو غيره؛ لأنَّ الخبر المتقدِّم خبر ما أو ليس والضّمير في يجرّ عائد في المعنى على خبر لا أو كان المنفيّة

---

[1]– ابن الحاج، الفتح الوَدُودي على المكُودي، ج1، ص2.

[2]– المكّودي، شرح المكُودي على الأَلفية في علمي النّحو والصّرف للإمام جمال الدّين الجياني (ومعه حاشية العلاّمة الشّيخ أحمد بن عبد الفتّاح الملوي الأزهري)، ص116.

فلم يتّحدا معنى؟ قلت هو ممّا يُفسِّره لفظًا لا معنىً كقولهم عندي درهم ونصفه"[1]، وكان يعترض أحيانًا على الجواب ويردّ على الاعتراض.

– الحِرصُ على تعريف بعض المصطلحات، وكان تارةً يذكُرُ حدّ الباب، وتارةً ثانية أنواعه وتارةً ثالثة ما يشتمل عليه من أقسام، ومثال ذلك تعريفه اسم الفاعل حيث يقول "المراد باسم الفاعل ما دلَّ على حدّ وفاعله، جاريًا مجرى الفعل في الحدوث والصلاحية للاستعمال بمعنى الماضي والحال والاستقبال"[2]، وتعريفه كذلك النَّعت بقوله "النَّعت هو التّابع لِما قبله في إعرابه الحاصل والمتجدّد"[3]، فهذا يُعطي للقارئ فكرةً عامّة عن الباب الّذي يتناوله قبل أنْ يشرَعَ في الحديث عن جزئيَّاته بالتَّفصيل.

– التّمهيد لأغلب الأبواب بِمقدِّمة تُوضِّحُ ما يلي من الأبيات، مُشيرًا إلى ما تحويه من آراء ومسائل، ومن ذلك مثلاً ما مَهَّدَ به لِباب كان وأخواتها حيث يقول "لمّا فرَغَ من المبتدأ والخبر شَرَعَ في بيان نواسخ الابتداء وسُمِيَت نواسخ الابتداء؛ لأنَّ الابتداء رفع المبتدأ، فلمّا دخلت عليه النَّواسخ نسَخَت عملَه وصار العملُ لها. وبدأ بِكان وأخواتها..."[4]، ثمّ ذكرَ البيتَ الّذي يتضمّن الحكمَ النّحوي، وكذلك الأمر في باب المعارف وباب أفعال المقاربة وسِواهما.

– الاهتمام بتوضيح كلِّ لفظة غامضة أو غريبة، ممّا يزيدُ من بساطة محتوى الشَّرح وسهولة فهمه، وذلك لأنَّه يُقدِّم شرحه للطَّلبة المُقْبلِين على تعلمّ قواعد النّحو والصّرف، ومثال ذلك توضيحه معنى كلمة (النّمط) الواردة في البيت:

"ألْ حرفُ تعريفٍ أوِ اللاّمُ فقطْ   فنمَطًا عَرّفتَ قُلْ فيه النّمطْ

والنّمط ظهارة الفراش، والنّمط جماعة من النّاس أمرُهم واحد، والنّمط (الطَّريق)"[5]. وكان الشَّارحَ كثيرًا ما يأخذ تعريفاته من المعاجم ويستعين بآراء أصحابها أمثال الزبيدي والجوهري.

– تَتَبُّع آراء النّاظم في مُصنّفاته الأخرى، حيث كان يُشير إلى رأيه في المسألة الواحدة في غير (الأَلفيَّة) كـ (شرح الكافيّة الشّافية) و(شرح التّسهيل)، ومن ذلك قوله في باب ظنَّ

[1]– المكّودي، شرح المكُّودي على الأَلفية في علمي النّحو والصّرف للإمام جمال الدّين الجياني (ومعه حاشية العلاّمة الشّيخ أحمد بن عبد الفتّاح الملوي الأزهري)، ص52.

[2]– المكُّودي، شرح المكّودي على ألفية ابن مالك، ج1، ص514.

[3]– المرجع نفسه، ج2، ص37.

[4]– المكّودي، شرح المكُّودي على الأَلفية في علمي النّحو والصّرف للإمام جمال الدّين الجياني (ومعه حاشية العلاّمة الشّيخ أحمد بن عبد الفتّاح الملوي الأزهري)، ص216.

[5]– المرجع نفسه، ص185– 186.

وأخواتها "(لا) قال في شرح التَّسهيل من أمثلة ابن السرّاج أَحْسَبُ لاَ يَقُومُ زَيْدٌ"[1]، فالشَّارحُ راغبٌ في توضيح ما يُريدُ شرحَه أكثر مستدلاً بآراء النّاظم في مؤلَّفاته الأخرى إلى جانب آراء النّحاة الآخرين الّذين كان يذكرهم من مختلف المذاهب والفترات.

– الحرص على ذِكْرِ الأبيات كاملة في أكثر المواضع، فلم يكن يكتفي بِذكر جزء منها فقط مثلما يفعل بعض شُرّاح (الألفيّة)، وكذلك على شرحها مستعملاً مثل هذه العبارات (بيَّن في هذا البيت)، (يعني)، (فُهم من قوله) أو(فُهم من ذلك)، ثمّ يختم الشَّرحَ بإعراب البيت وكان أسلوبُه في الإعراب متنوّعًا، ولم يكن المكُّودي يَغفل عن إعراب الأبيات إلاَّ نادرًا وفي تلك الحالة يقول إنَّ إعرابَ البيتِ واضحٌ أو إعراب عجز البيت مثل صدره أو إعراب البيت كإعراب البيت الّذي قبله، كما كان يقول أحيانًا إنَّ البيتَ فيه تعقيد، ثمَّ يقوم بإعرابه، بل وجدتُه يُرجِّح إعرابًا على آخر مع عنايته ببيان الأوجه الإعرابيَّة[2]. وإنْ دلَّ هذا على شيء فإنّما يدُلُّ على أنّه أوْلَى الإعراب من اهتمامه الشَّيءَ الكثير، فهو سمةٌ تميَّزَ بها شرحُه إلى جانب شرح محمّد بن جابر الأندلسيّ الهواريّ (ت780هـ) الّذي اهتمّ قبله بإعراب أبيات (الخلاصة) ممّا جعله من أهمّ كتب النَّحو الّتي انتفع بها المبتدئون[3]، على عكس المُرادي والأشموني، ممَّا زادَ شرحَ نحويِّنا يُسرًا وبساطةً. ومن الأمثلة الّتي تُوضّح الطَّريقةَ الّتي اعتمدها المكُّودي في شرح الأبيات وإعرابها، في باب أفعال المقاربة فبعد ذِكْر البيت قام بشرحه ثمّ إعرابه:

"وَالفَتْحَ والكَسْر أجِزْ في السِّينِ مِن نَحْوِ عسيْتُ وانْتِقا الفَتْح زُكِنْ

يعني أنَّ (عسى) إذا أُسْنِدَ إلى ضمير متكلِّم أو مخاطب أو غائب أو غائبات نحو: عسيْتُ وعَسيْتَ وعَسَيْتُما وعَسَيتُم وعَسَيْتُنّ. ويجوزُ في سينه الفتحُ والكسرُ، والفتح أجود وبه قرأ غير نافع، ولذلك قال: (وانتِقا الفتحِ زُكِنْ)، أي اختيار الفتح عُلِم، وفُهِمَ من قوله: (نحو عسيتُ) تعميم المُثُل المتقدِّمة فإنّها كلُّها (مثل عسيتُ) فيما ذكر، وقوله: (والفتحَ) مفعول مقدّم بأجِزْ و(الكسر) معطوف عليه، و(انتِقَا الفتحِ زُكِنْ) جملة من مبتدأ وخبر"[4]، فهو يُركِّز على إعراب الكلمات المُستهدفة في الموضوع الّذي تناوله النَّاظم. وكذلك الأمر في باب إنَّ وأخواتها وغيره فالمهمّ أنَّ إعرابَ الشَّارح الأبيات من مظاهر الأسلوب التَّعليميِّ الّذي يُفيدُ الطّلبةَ. وبعد عرضه

---

[1]- المكّودي، شرح المكُّودي على الألفية في علمي النّحو والصّرف للإمام جمال الدّين الجياني (ومعه حاشية العلاّمة الشّيخ أحمد بن عبد الفتّاح الملوي الأزهري)، ص327.

[2]- المرجع نفسه، ص96. والمكُّودي، شرح المكُّودي على ألفية ابن مالك، ج1 ص 307 - 315 - 329 - 337.

[3]- السيوطي، بغية الوعاة، مج1، ص35.

[4]- المكُّودي، شرح المكُّودي على ألفية ابن مالك، ج1، ص247- 248.

للأحكام الّتي استنبطها من الأبيات يُشير إلى أنَّ ثمّة خلافًا بين النُّحاة في تلك المسألة وكان يذكُر بعض الآراء دون إطناب ثمّ يُرجِّحُ – ولكن ليس دائمًا– ما يراه الصّوابَ في نظره مستدلاًّ عليه بالشَّواهد على اختلاف أنواعها، فقد لحِظتُ أنّه أحيانًا يكتفي بِعرض الآراء دون تأييد واعتراض، وقد أُعِيبَ عليه هذا الأسلوب؛ لأنّه لم يكن يلمَحُ من خلال حديثه إلى ترجيحه هذا الرّأي أو ذاك. ولكن لا أَدلُّ بهذا القول أنَّه كان مجرّد ناقل لآراء النّحاة، بل وجدتُه مُناقشًا لآراء أخرى ومعترضًا عليها وبالأخصّ آراء النّاظم ابن مالك والمُرادي وابن النّاظم (ت686هـ)، فقد كان يردُّ على الآراء النّحويّة الّتي لا يرى فيها الصَّواب.

وأمّا عن مصادر هذا الشّرح فيبدو أنَّ صاحبَه قليل النّقل من الكتب الأخرى، حيث اكتفي بالإشارة إلى مُصنَّفات النّاظم وشروح (الأَلفيّة) و(التّسهيل) الّتي سبقت شَرحَه، وكان أكثرها ذكرًا (شرح الكافية الشّافية)، ثمّ يليه شرحُ (التَّسهيل) الّذي تكرَّرَت الإشارة إليه عدَّة مرّات، وذكر إلى جانبهما شرح ابن النّاظم والمُرادي. بالإضافة إلى حرصه على نسبة الآراء والأقوال إلى أصحابها، ولكن أكثر ما كان يصرِّح به هو أسماء الأعلام وليس عناوين مؤلَّفاتهم، وكانت نسبة ذكرهم تختلف من نحويٍّ إلى آخر، حتَّى إنَّ هناك من ذكره مرّة واحدة فقط. ومن أمثلة ذلك سيبويه الّذي احتجّ بآرائه أكثر من خمس عشرة مرّة، ففي باب الاستثناء مثلاً أشار إلى رأيِه بالقول "قال (سيبويه)– رحمه الله– في باب ما يحتمل في الشِّعر وجعلوا ما لا يجري في الكلام إلاَّ ظرفًا بِمنزلة غيره من الأسماء"[1]، والمُرادي حوالي تسع عشرة مرّة، وابن النّاظم تجاوزت عشرة مرّات، أمَّا الكسائي فقد ذكره مرَّتين والفارسي أربع مرّات وابن عصفور مرَّتين وابن عقيل مرّة واحدة وغيرهم. وليس هذا وحسب، بل كان يُرجِّحُ في بعض المسائل آراء النُّحاة، ومن ذلك مثلاً آراء سيبويه نحو قوله في مسألة جواز تقديم التّمييز على عامله "ففي تقديم التَّمييز عليه خلاف والمشهور منع تقديمه وهو مذهب سيبويه"[2]، ولعلّ المتتبِّع لشرح المكُّودي يُدركُ إشاراته المتكرِّرة إلى آراء سيبويه.

وكان يُشيرُ أحيانًا إلى اسم الكتاب وصاحبه، وأحيانًا أخرى يذكر الآراء دون الإشارة إلى عنوان الكتاب أو اسم صاحبه فيقول[3]: (خلافًا لبعضهم)، (جائز عند بعضهم)، (وهو مخالفٌ لعبارات النّحويِّين)، (وقاسه بعضهم). ولكن حتَّى وإنْ لم يغفل المكُّودي عن نسبة الآراء إلى

[1]– المكُّودي، شرح المكُّودي على ألفية ابن مالك، ج1، ص397.

[2]– المرجع نفسه، ج2، ص438.

[3]– المكّودي، شرح المكُّودي على الألفية في علمي النّحو والصّرف للإمام جمال الدِّين الجياني (ومعه حاشية العلاّمة الشّيخ أحمد بن عبد الفتّاح الملوي الأزهري)، ص15– 19– 67– 90.

أصحابها إلاَّ أنَّ هناك من المواضع ما أخطأ في حُكْمِه عليها، ومثال ذلك قوله إنَّ المشهور عند النّحاة هو المنع في توسّط الخبر لـ (ما دام) كما أذكره في موضعه.

4-5- آراء واختيارات المكُّودي ومذهبه النَّحويّ: يقوم مذهبُ المكُّودي على الإفادة من المذهبين البصريّ والكوفيّ، فكان يأخذ آراء البصريِّين أحيانًا وآراء الكوفيِّين أحيانًا أخرى مع إبراز شخصيته من خلال اعتراضاته وردوده في غيرها من الآراء[1]. وعلى هذا وجدته يعتمد مصطلحات المذهبين معًا، فمن المصطلحات الكوفيَّة الّتي استعملها النّعت مقابل الصّفة، وذكر أنَّ نائب الفاعل يُسمّى المفعول الّذي لم يسمّ فاعله أيضًا، وقد يدُلُّ ذلك على تفضيله لمصطلح الكوفيِّين، ولكن أجده أكثر ميلاً إلى مصطلحات البصريِّين لكثرة استعماله لها، ومثال ذلك الجرّ والمجرور مقابل الخفض والمخفوض، الضّمير والمُضمَر مقابل الكناية والمكنى، والتّمييز والمُميّز الّذي يُقابله التّفسير والمفسِّر وغيرها. وفي الآتي بعض الآراء التّي ساند فيها البصريِّين وخالفهم، وكذلك الأمر مع الكوفيِّين ثمّ البغداديِّين والأندلسيِّين والمغاربة مثلما فَعَلَ النَّاظِمُ:

- وافق المكُّودي البصريِّين في قولهم إنَّ النّاصبَ للمفعول به هو الفعل المتعدّي، وذلك بقوله "يعني أنَّ الفعل المتعدّي ينصب المفعول به إذا لم يَنُبْ عن الفاعل، فإذا ناب عن الفاعل كان مرفوعًا كما تقدَّم في بابه، وفُهِم من قوله:- أي النّاظم- (فانصب به) أنَّ النّاصب للمفعول به الفعل وهو أصحّ الأقوال"[2]، فالشَّارح متّفِقٌ مع ابن مالك الّذي تابع البصريِّين لمّا قالوا إنَّ الفعلَ هو العامل في الفاعل والمفعول معًا، في حين ذهب نُحاة المدرسة الكوفيّة وعلى رأسهم الفرّاء إلى أنَّ العاملَ هو الفعل والفاعل معًا نحو (ضرب زيدٌ عمرًا). وقال خلف الأحمر (ت180هـ أو 185هـ) من الكوفيِّين إنَّ العاملَ في المفعول معنى المفعوليّة والعامل في الفاعل معنى الفاعليّة وهو قولٌ فاسدٌ كما رَدَّ عليه ابن الأنباري، وذهب بعضُهم إلى إنَّ العامل هو الفاعل وحده. والرَّأي الّذي اختاره النّحويُّ هو الصَّحيح وسبقه إليه من النّحاة ابن آجرُّوم، وكذلك المُرادي والأشموني[3]؛ لأنَّ النّاصب للمفعول هو الفعل وحده وليس الفاعل أو الفعل مع فاعله مثلما زعمَ نُحاة المذهب الآخر.

---

[1]- يُنظر: مهنّد جاسم محمّد، الدّراسات النّحويّة عند المكُّودي (ت807هـ) في كتابه شرح الألفية، أطروحة الدّكتوراة في اللّغة العربيّة وآدابها. الجامعة المستنصريّة، كليّة الآداب: 2004م.

[2]- المكُّودي، شرح المكُّودي على ألفيّة ابن مالك، ج1، ص337.

[3]- ابن الأنباري، الإنصاف في مسائل الخلاف بين البصريِّين والكوفيِّين، ص72 وص76. وابن آجرّوم، الآجرُّوميّة ص15. والمُرادي، توضيح المقاصد والمسالك بِشرح ألفيّة ابن مالك، ج2، ص621. والأُشموني، شرح الأُشمُوني على ألفية ابن مالك، ج3، ص547.

– اختلف النّحاةُ في أيِّ العاملين أَوْلَى بالعمل في المتنازع فيه، في مثل قول (ضربتُ وضرَبَني زيدٌ، ضربني وضربتُ زيدًا)، فقومٌ اختار إعمالَ العامل الثّاني وهو مذهب سيبويه والبصريِّين؛ لأنَّه أَوْلَى لِقُربِه من المعمول، علاوة على ذلك أنَّ إعمال الثّاني يَرِدُ في السّماع والقياس كثيرًا كقوله ﷻ: ﴿ءَاتُونِىٓ أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ قِطۡرٗا﴾ [الكهف: 96]، وقال الكوفيّون العكس، حيث رجَّحوا إعمالَ الأوّل على الثّاني لِسبقِه والأسبق عندهم أحقّ بالعمل مع أنّهم أجازوا إعمال الثّاني بشواهد مختلفة، فالكسائي أَجَازَ إعمالَه بِشرط حَذْف فاعل الأوّل، وأمّا الفرّاء فقد اشْتَرَطَ في ذلك تأخّرَ فاعل الأوّل وتَبِعَهُ السّهيلي (ت581هـ). وفي حين ذهب المكُّودي إلى ترجيح الرّأي الأوّل لِقوله "اختار البصريُّون إعمال الثّاني من المعمول واختار (الكوفيّون) إعمال الأوّل لِسَبْقه، والصَّحيح مذهب (البصريِّين)؛ لأنَّ إعمالَ الثّاني في كلام العرب أكثر من إعمال الأوّل وذكر ذلك (سيبويه) وصَرَّحَ النّاظمُ (بأهل البصرة) وفُهِم من قوله (غيرهم) أنّهم أهل الكوفة لِكونه أتى بِهم في مقابلة أهل البصرة"[1]، فالشّارحُ رجَّحَ إعمالَ الثّاني لكثرة استعماله في النّثر والنّظم وتضمّنه القرآن، وسبقه إلى هذا الاختيار من الأندلسيِّين والمغاربة أبو حيّان والجُزولي وتلميذه ابن معط[2]. ولكن يبدو أنَّ كلا الوجهين مقبولٌ بحجّة أنَّ إعمالَ الثّاني جائز لأنّه الأكثر سماعًا في كتاب الله وكلام العرب منثوره ومنظومه، وإعمال الأوّل جائزٌ أيضا رغم قلّته ولذلك لا وجه لِترجيح أحدهما على آخر لِصحّة السَّماع بهما مع أنَّ إعمال الثّاني لا يوجد إلاَّ في الشِّعر. فكلّ ما في الأمر أنَّ النُّحاة اتّفقوا على جواز إعمال العاملين بالإجماع وأمّا الخلاف المشهور بينهم فيكمنُ في علّة اختيار أحدهما.

ومن مسائل الخلاف النَّحويَّة الّتي أبدى المكُّودي رأيَه فيها، مسألة جواز إيلاء معمول خبر (كان) وأخواتها إنْ كان المعمول ظرفًا أو جارًّا ومجرورًا للتوسّع فيهما (أي في الظّرف والمجرور) نحو: (كان عندك زيدٌ معتكِفًا أو في المسجد زيدٌ معتكِفًا، والأصل: كان زيدٌ معتكِفًا عندك، كان زيدٌ معتكِفًا في المسجد) حيث تقدَّمَ معمول الخبر على اسمها فولِيها، وإنْ كان معمول الخبر مفعولاً وحالاً فأكثر النّحاة البصريِّين وفي مقدّمتهم سيبويه منعوا تقديمَه منعًا مطلقًا؛ لأنَّ بِذلك يتمُّ الفصل بين العامل (كان) واسمها بأجنبيّ منهما فلا يُقال (كان طعامَكَ زيدٌ آكِلاً، ولا كان طعامَكَ آكلاً زيدٌ) وهذا الحكم لا يقتصرُ على باب كان فقط، بل لا يلي عاملاً ما

[1]– المكُّودي، شرح المكُّودي على ألفية ابن مالك، ج1، ص350.

[2]– أبو موسى الجزولي، المقدّمة الجزوليّة في النّحو، باب التّحقيق، ص164. وعبد العزيز بن جمعة الموصلي، شرح ألفية ابن معطي، ج1، ص650. وأبو حيّان، ارتشاف الضّرب من لسان العرب، ج4، ص2142.

رَفَعَه أو نَصَبَه غيرُه، في حين أجازَ الكوفيّون وبعض البصريِّين كابن السرّاج أنْ يليَها غير الظَّرف جوازًا مطلقًا مُعْتَبِرِين معمول الخبر في منزلة معمول (كان) وحُجّتهم قول الفرزدق:

قنافِذُ هَدّاجُونَ حَوْلَ بُيُوتِهِم   بِمَا كَانَ إيَّاهُم عَطيّةُ عوَّدا

فَوَجْهُ الحجّة في هذا البيت أنَّ (إيّاهم) معمول (عوّد) وهو خبر كان، ولِذلك ولِيَ (كان) معمول خبرها، وأمّا (عطيّة) فجاء مبتدأ وجملة (عوّدا) في محلّ خبر المبتدأ، وإيّاهم مفعول به لـ (عوّدا) مقدّما على المبتدأ، وعلى هذا لا فصل بين كان واسمها معمول الخبر؛ لأنّ اسمها مُضمر قبل المعمول، كما هناك من أجاز أنْ تأتيَ (كان) في هذا البيت زائدة[1]، ويبدو أنَّ الشّارحَ مسانِدٌ لِلبصريِّين في هذه المسألة حيث قال بعد ذكره لِبيت النّاظم "مراده بالعامل هنا كان وأخواتها يعني أنّ معمول الخبر لا يلي كان وأخواتها فلا تقول كان طعامك زيدٌ آكِلاً فإذا كان المعمول ظرفًا أو مجرورًا جاز أنْ يليَها نحو كان عندك زيدٌ مقيمًا وكان في الدّار عمرو جالسًا... وأجاز الكوفيّون أنْ يلِيَها المعمول وهو غير ظرف ولا مجرور مستدلِّين بِقول الشّاعر– البيت المذكور آنفًا– وهو عند البصريِّين مؤوّل بِتقدير ضمير الشَّأن، وإليه أشار بِقوله:

وَمُضمَر الشَّأْن اسمًا انوِ إنْ وَقَع   مُوهِمُ مَا استبَانَ أنَّه امتنَع

فيعني أنَّه إذا وَرَدَ من كلام العرب ما يُوهِمُ معمول خبر كان على اسمها وهو غير ظرف أو مجرور يُؤَوَّل على أن ينوي في كان ضمير الشَّأن وهو اسمها والجملة بعدها في موضع خبرها ففي كان من قوله بِما كان إيَّاهم ضمير الشَّأن وهو اسمها..."[2]، فالمكُّودي متّفقٌ مع البصريِّين في إعرابه البيت ممّا يدلُّ على ترجيحه رأيهم حتّى وإنْ لم يُصرّح بِذلك.

وإنْ كان المكُّودي ممَّن وافقوا البصريِّين كغيره من المغاربة في آراء نحويَّة كثيرة، فقد وافق الكوفيِّين في آراء أخرى، وأذكر منها في الآتي:

– ذهب المكُّودي مذهب الكوفيِّين في جواز توكيد النّكرة مطلقًا إذا كانت نكرةً مؤقّتة حيث يقول "والجواز إذا كانت النّكرة مؤقّتة. نحو: شهر ويوم وشبههما، وهو اختيار المصنِّف وظاهر النّظم؛ لاشتراطه الفائدة، ولا تحصل الفائدة إلاَّ في النَّكرة المؤقَّتة نحو: صُمتُ شهرًا كلَّه"[3]، ويُفهَمُ من قوله هذا أنَّه يتّفقُ مع النّاظم في اختياره هذا الرّأي مستدلاً بِكلام العرب

[1]– ابن عقيل، شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، ج1، ص288. والسيوطي، همع الهوامع في شرح جمع الجوامع ج1، ص375– 376.

[2]– المكُّودي، شرح المكُّودي على الأَلفية في علمي النّحو والصّرف للإمام جمال الدِّين الجياني (ومعه حاشية العلاّمة الشّيخ أحمد بن عبد الفتّاح الملوي الأزهري)، ص50.

[3]– المكُّودي، شرح المكُّودي على ألفية ابن مالك، ج2، ص53.

المسموع، في حين ذَهَبَ عكس هذا المذهب من المغاربة السَّابقين ابن معط لقوله "والنَّكرات لم تُؤَكَّدْ جُمَّع"[1]، وابن آجرُّوم كما مَرَّ في موضعه، ولكن أُرجِّحُ رأيَ المكُّودي لحصول الفائدة.

– تابعهم في القول أيضًا بِجواز حذفِ حرفِ النّداء من اسم الجنس واسم الإشارة حتّى وإنْ لم يُصرّح بذلك؛ لأنَّه لم يُبدِ أيَّ اعتراض على اختيار ابن مالك، فإذا مَنعَ البصريُّون وفي مقدّمتهم سيبويه حذفَ الحرف من هذه الأسماء إذْ لم يُجيزوا حذفَه إلاَّ في شذوذ أو ضرورة الشِّعر فلا يحسن القول (هذا رجل وأنت تريد يا هذا ويا رجل)، فإنَّ الكوفيِّين ذهبوا إلى أنّه يجوز معها ذِكْرُ حرفِ النِّداء وحذفه ومحتجِّين بالقرآن والشِّعر، وهو المختار عند النّاظم حيث حَكَى أنَّ حذفَه قليلٌ في اسم الجنس والمُشار إليه ولكنَّه غير ممتنع. وتبعه المكُّودي بقوله "وفُهِمَ من البيت أنَّ في حذف النِّداء مع اسم الجنس واسم الإشارة خلافًا لقوله: ومن يمنعه، والمنع مذهب البصريِّين والجواز مذهب الكوفيِّين وهو اختيار النّاظم"[2]، فقد رَجَّحَ ابن مالك قولَ الكوفيِّين، وكذلك الشَّارِح الّذي اكتفى بِشرح البيت دون أنْ يُصرّحَ بترجيحه هذا المذهب، ولكن أجد النّحويَّيْن غير مصيبيْن في اختيارهما لرأي الكوفيِّين فالصّحيح هو المنع؛ لأنَّ الحذف فيه إبهام، علاوة على ذلك أنّ شواهد الشِّعر الّتي احتجُّوا بها يمكنُ أنْ تكون لِضرورة الوزن فقط.

– اختلف النُّحاةُ في رافعِ الفعلِ المضارع، فقد ذهب أكثر الكوفيِّين وتزعّمهم الفرّاء إلى أنَّ هذا الفعل يرتفع بتعرّيه من العوامل النّاصبة والجازمة الّتي تدخل عليه فتُغيّر من علاماته، أمّا البصريّون وعلى رأسهم سيبويه فقالوا يرتفع لقيامه مقام الاسم وذلك لِوجهيْن، أحدهما أنَّ قيّامَه هذا المقام عاملٌ معنويٌّ فأشبه الابتداء الّذي يقتضي الرّفع، والثّاني أنّ بِقيامه مقام الاسم وقع كثيرًا، ولمّا كان الأمر كذلك وجبَ أنْ يُعطَى أقوى الإعراب وهو الرّفع، كما نُسِبَ إلى الكسائي رأيٌ آخر وهو أنّ الرّفع يكون بِحروف المضارعة (الزّوائد) ولكنّه غير مُصيب[3]، فقد ذكرَ المكُّودي أنّ النّاظمَ متابعٌ لرأي الكوفيِّين ولكن دون أنْ يُصرِّحَ الشَّارحُ برأيه هو فلو خالفه في هذا الرّأي لأشار إلى أنَّ النّاظمَ لم يُصِب في اختياره، ولذلك اكتفى بالقول "ومذهب البصريِّين أنَّ رافعَه وقوعه موقع الاسم، ومذهب الكوفيِّين أنَّ رافعَه تجرّده من النّاصب والجازم وهو اختيار المُصنِّف"[4]، وتابع هذا الرّأي من النُّحاة أيضًا ابن آجرّوم وابن الخبّاز[5] وغيرهما كثيرٌ. وأجد

---

[1]– ابن معطي، الدرّة الألفيّة، ص41.

[2]– المكُّودي، شرح المكُّودي على ألفية ابن مالك، ج2، 95– 96.

[3]– ابن الأنباري، الإنصاف في مسائل الخلاف بين البصريِّين والكوفيِّين، ص437– 441. بتصرّف

[4]– المرجع السّابق، ص196– 197.

[5]– ابن آجرّوم، الآجرُّوميّة، ص7. والسيوطي، همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، ج1، ص526.

المكُّودي مُصيبًا في اختياره لسلامة رَأْيِ الكوفيِّين من النّقض بِخلاف ما ذهب إليه البصريّون حيث يتناقض مع وجود أداة التّحضيض الّتي تختصُّ بالفعل في مثل (هلا تفعل).

– ذهب الشَّارحُ مذهبَ جمهور النُّحاة في القول بِجواز الإتباع والقطع إذا اتّفق النّعت والمنعوت في المعنى والعمل، وذلك لقوله "إذا ذكرت منعوتين معمولين لعاملين متّحدين في المعنى والعمل أتبعتَ النّعتَ للمنعوت في إعرابه فتقول ذهب زيد وذهب عمرو العاقلان فإنّ العاملين متّحدان في المعنى واللّفظ وشمل المتّحدين في المعنى واللّفظ كالمثال المذكور والمتّحدين في المعنى دون اللّفظ نحو ذهب زيد وانطلق عمرو العاقلان ومعنى قوله: أتبع أجِز الإتباع لا أنَّ الإتباعَ واجب لأنَّه يجوز فيه القطع"[1]، فشرحه لبيت النَّاظم أَوْضحَ رأيَه في هذه المسألة، حيث أجاز الوجهين معًا الإتباع والقطع؛ لأنَّ المهمّ في نظره أنْ يتّفقا معنًى وعملاً. كما ذهب ابن السرّاج إلى وجوب القطع في جميع الحالات، مع أنّه فصَّل في الأولى حيث قال إنْ قدّرتَ الثّاني عاملاً فيكون القطع، أو توكيدًا والعامل هو الأوّل يجوز الإتباع[2]، وسَبَقَ الشّارح إلى هذا الرّأيِ من النُّحاة المُرادي وأبو حيّان.

– ذهبَ مذْهَبَ الجمهور في القول إنَّ جزمَ الجواب المضارع أحسن من رفعه اذا كان الشَّرط ماضيًا، وذلك لقوله "يعني أنَّ الشَّرطَ إذا كان ماضيًا جاز رفع الجواب كقول زهير:

وإنْ أتاهُ خليلٌ يومَ مسألةٍ   يَقُولُ لاَ غائبٌ مَالِي ولاَ حَرِمُ

وفُهِمَ من قوله حسن – ويقصد النّاظم– حين قال: وبعد ماضٍ رَفْعُك الجزا حَسَن– أنَّه كثير ولا يُفهم منه أنَّه أحسن من الجزم بل الجزم أحسن منه لأنَّه على الأصل"[3] وهو الرّأي الصّواب واعتمد هذا الرّأي من النّحاة ابن مالك الّذي وافقه في رأيه كما يبدو، والمُرادي[4] وغيرهما.

وافقَ المكُّودي ابنَ مالك في مواطن وخالفه في أخرى، ومن الآراء الّتي سانده فيها قول النّاظم إنَّ النّاصب للمفعول به هو الفعل المتعدّي وهو المذهب الصَّحيح، واختاره الشَّارحُ كما مَرَّ بيانُه، وقوله كذلك إنَّ جزم الجواب المضارع الواقع بعد الشّرط الماضي أحسن من رفعه لأنّه على الأصل. وأمّا بالنِّسبة للمواضع الّتي خالفه فيها والّتي تبدو كثيرة أيضًا فأذكر منها:

---

[1]– المكُّودي، شرح المكُّودي على الألفية في علمي النّحو والصّرف للإمام جمال الدِّين الجياني (ومعه حاشية العلاّمة الشّيخ أحمد بن عبد الفتّاح الملوي الأزهري)، ص163.

[2]– السيوطي، همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، ج3، ص123.

[3]– المرجع السّابق، ص209.

[4]– المُرادي، توضيح المقاصد والمسالك بِشرح ألفيّة ابن مالك، ج4، ص1279

– صَرَّح النّاظمُ ابن مالك بِتقديم الجار والمجرور (مِنه) على أفعل التّفضيل إذا لم يكن اسم استفهام؛ لأنّ الاستفهام له صدر الكلام نحو قول (ممّن أنت خيرٌ؟)، واستدلَّ على حكمه هذا بالبيت الآتي:

وَقَالَتْ لنَا أهلاً وسَهْلاً وزَوَّدَتْ جَنَى النّحْلِ بلْ مَا زوَّدتْ منهُ أَطْيبُ

وأمّا الشَّارح فلم يرَ الصَّوابَ في قول النَّاظم إنَّ تأخيرَ أفعل التّفضيل قليل (منه أطيب)، وحجّته في ذلك أنَّه لا دليل في هذا البيت لاحتمال أنْ يكون (مِنْه) متعلّقًا بِزوّدت، والتّقدير (أطيب منه) واستدلّ جمهور النّحاة على تقديم (منه) بالضَّرورة الشّعريَّة وليس كما علَّل النّاظم؛ لأنَّ التّقديم عنده قليل[1]، وعليه أجد ما ذهب إليه الشَّارح هو الأصح.

– أجاز النّاظمُ بدل بعض في إبدال الفعل من الفعل كما يُبدل الاسم من الاسم بقوله:

ويُبدَلُ الفعل من الفعلِ كَمَنْ يَصِلُ إلَينَا يَسْتعِنْ بِنَا يُعَنْ

في حين مَنَعَ المكُّودي هذا الجواز قائلاً إنَّ بدل بعض في الفعل لم يُسمع به[2]، وهو في هذا الردِّ مصيبٌ؛ لأنّه لا يُمكن تجزئةُ الفعل كتجزئة الاسم في مثل قول (كتبت البيتَ شطره) فهنا يجوز بدل بعض، وسبقه إلى هذا القول نُحاة كثُر حيث أجازوا إبدالَ الفعلِ من الفعلِ بَدَل كلّ وليس بدل بعض من كل.

– اقتصر ابن مالك في باب الإضافة على نَصْبِ الاسمين (قبل وبعد) دون الجرّ في حال قطعهما عن الإضافة لفظًا ومعنًى أيْ حين يُحذفُ المضاف إليه لِلْعِلمِ به حيث يقول:

وأَعْربُوا نَصبًا إذا مَا نُكّرا قَبْلاً ومَا منْ بَعْده قد ذُكرا

واعترضَ عليه المكُّودي بالقول "إلاَّ أنَّ قوله نصبًا يوهِمُ أنّه لا يُعربُ حال قطعه عن الإضافة إلاّ بالنّصب وليس كذلك بل يُعربُ بالنّصب إنْ كان ظرفًا كقوله:

فساغَ لي الشَّراب وكنتُ قبلاً أكادُ أغص بالماء الزلال

وبالجرّ إذا دخل عليه حرف الجرّ نحو قوله ﷻ: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾ [الروم: 4] في قراءة من جَرَّ ونَوَّنَ وكأنّه استغنى عن ذكر الجرّ لشمول المفهوم الأوّل وخَصَّ النَصب بالذِّكر لكثرته"[3]، فقول الشَّارحِ هنا يدلُّ على أنَّ النّاظمَ مقتصرٌ على النّصب بعلّة كثرة

---

[1]- المكُّودي، شرح المكّودي على ألفية ابن مالك، ج2، ص34. وشمس الدِّين ابن قيّم الجوزيّة، إرشاد السّالك إلى حلّ ألفيّة ابن مالك، تح: محمّد بن عوض بن محمّد السهلي، ط1. الرّياض: 2002م، مكتبة أضواء السّلف، ص588.

[2]- المكُّودي، شرح المكُّوديّ على الألفية في علمي النّحو والصّرف للإمام جمال الدّين الجياني (ومعه حاشية العلاّمة الشّيخ أحمد بن عبد الفتّاح الملوي الأزهري)، ص176.

[3]- المرجع نفسه، ص129.

الاستعمال وهذا غير صحيح؛ لأنَّ (قبل) قد يُجَرُّ لصحّة سماع ذلك في التّنزيل، كما لم يُسانده المرادي في ما ذهب إليه لقوله إنَّ إعراب هذه الأسماء بالنَّصب فقط ليس بِجيّد؛ لأنّها قد تأتي حال التّنكير كقراءة من قرأ (من قبلٍ ومن بعدٍ) بالجرِّ والتَّنوين، ولكن ينبغي أنْ أذكرَ بأنَّ للنّاظم في غير (الألفيّة) قولاً مُغايِرًا حيث أشار إلى النّصب والجرّ معًا[1]، وأجد الشَّارِحَيْن مُصِيبَيْن في اعتراضهما على ذِكْرِ النّاظم للنَّصب دون الجرّ في هذه المسألة، ولكن ما صرَّح به في غير (الألفية) لا يدلُّ على جهله بالرَّأي المشهور والمُختار بين جمهور النّحاة.

وإنْ كان المكُّودي من أتباع البصريِّين في مواضع والكوفيِّين في أخرى، وكذلك النّاظم الّذي حظِيَ بالنَّصيب الأوفر من الموافقة والاعتراض على آرائه، وفي غيرها ذَهَبَ مذهبَ الجمهور، فقد تفرّد ببعض الآراء الّتي أضاف فيها بعض الأحكام والتّعليقات، ومثال ذلك جعله أَلِف (متى ولدى وعلى وإلى) مجهولة الأصل في باب (كيفيّة تثنيّة المقصور والممدود وجمعهما تصحيحًا)، ولكنّه لم يُصِب في ما ذهب إليه؛ لأنّ الألف في الثّلاثة أصليّة لم تقلب عن شيء والمجهولة الأصل هي مثل (الددا)، وأشار المُرادي إلى أنَّ هناك من يُعبِّر عن الألف الأصليَّة بالمجهولة، ومعناها كلّ ألف في حرف أو شبهه ومجهولة الأصل مثل (الددا) وهو اللّهو فَأَلِفُها لا يُعرف إنْ قُلِبَت عن واو أو ياء؛ لأنَّ الألف في الثّلاثيِّ المعرب لا تكون إلاَّ منقلبة عن أحدهما[2]، فالمكُّودي يُخالف المُرادي في حُكمه أنَّ ألف (متى ولدى وعلى) مجهولة وهذا غير صحيح لأنّها أصليّة فيها. وتنبغي الإشارة بِخصوص ذكرِي للمُرادي أحد شُرّاح (الألفية) أيضًا إلى أنَّ الشَّارحَ كان يُوافقه في آراء ويُخالفه في أخرى، ولهذا كان كثير النَّقل عنه في عدَّة أبواب منها باب الكلام، أفعال المقاربة، التّنازع، الاستثناء، حروف الجر، والنّدبة والتّرخيم. ومثال ذلك قوله في باب الإضافة بعد قول النّاظم "وأَلْزموا إضافةً لَدَن فَجَرْ... وفُهِمَ من قوله: (فَجَر) أنَّها لا تُضاف إلاَّ للمفرد، وجعل (المُرادي) قوله (فَجَر) شامِلاً للجرِّ في اللَّفظ والمحلِّ؛ لتندرج الجملة. وجعل من إضافتها إلى الجملة قوله: لَدُنْ شَبَّ حَتَّى شَابَ سُودُ الذَّوَائِبِ"[3]، هذا بالإضافة إلى ذكره لأقوال ابن النَّاظم شارح (الألفية).

---

[1]- المُرادي، توضيح المقاصد والمسالك بِشرح ألفيّة ابن مالك، ج2، ص818. وابن مالك، شرح التّسهيل، ج3 ص247.

[2]- المكُّودي، شرح المكُّودي على الألفية في علمي النّحو والصّرف للإمام جمال الدِّين الجياني (ومعه حاشية العلاّمة الشّيخ أحمد بن عبد الفتّاح الملوي الأزهري)، ص227. والمُرادي، توضيح المقاصد والمسالك بِشرح ألفية ابن مالك ج5، ص1366.

[3]- المكُّودي، شرح المكُّودي على ألفية ابن مالك، ج1، ص487.

انفرد المكُّودي بقوله إنَّ الاسم المنادى الّذي يلحقه التّنوين لضرورة شعريّة حين يأتي مضمومًا فهو مبنيٌّ، وأمّا المنصوب فمُعربٌ "وينبغي أنْ يُعْتقدَ أنَّه عند من يرى الضمَّ مع التّنوين مبنيٌّ، وعند من نصبَ مُعْرَب"[1]، واختار الخليل وسيبويه الضمَّ لأنّه بِمنزلة مرفوع لا ينصرف ولذلك لَحِقَه التّنوينُ لفظًا واستدلّوا بقول الأحوص:

سَلامُ الله يَا مَطرٌ عليْها وليْس عَليكَ يا مَطرُ السّلامُ

وأبو عمرو ويونس بن حبيب والجرمي والمبرد اختاروا النّصبَ بحجّة ردّه إلى الأصل؛ لأنَّ أصل النِّداء النّصب، ومثال ذلك قول الشّاعر:

ضَرَبَت صَدْرَهَا إلَيَّ وقَالَتْ يَا عَدِيًّا لَقَدْ وَقَتْكَ الأَوَاقِي

وحكى المكُّودي عن النّاظم أنّه اختارَ الضمَّ مع العَلَم الّذي يستحقُّ البناء، والنَّصب مع النَّكرة المقصودة، واستدلَّ في (شرح الكافية الشّافية) بالقول إنَّ سببَ البناء في العَلَم أقوى منه في اسم الجنس المعيّن، كما أنَّ نصبَ العَرب العَلَم المضطَرّ الى تنوينه قليلٌ، وأمَّا نصبهم اسم الجنس المضطرّ الى تنوينه فكثيرٌ. ولكن ذهب نُحاة آخرون إلى جواز الضمّ والنّصب دون اشتراط لأنّه وَرَدَ السّماعُ بهما في كلام العرب ونصّ على هذا القول الأعلم[2] وسِواه، وأمّا ما حكاه الشَّارحُ عن بناء المضموم المنوّن اضطرارًا فذلك راجعٌ إلى بناء المنادى المفرد على ما يُرفَعُ به قبل النّداء، وعلّةُ إعرابه بالنَّصبِ رَدُّهُ إلى الأصل.

وإنْ ذَكَرَ ابن مالك ثلاثة أوجه في نصب التّرخيم (المنادى المرخَّم) وهي أنْ يكون مفعولاً له أو مصدرًا في موضع الحال أو ظرفًا على حَذْفِ مضاف، فإنَّ شرّاح ألفيته أضافوا وجْهيْن أوّلهما الوجه الرّابع الّذي أجازه المُرادي وهو أن يكون مفعولاً مطلقًا وناصبه حُذِف؛ لأنّه يلاقيه في المعنى، ولكنْ في هذا الوجه نَظَرٌ كما ذَكَرَ المكُّودي؛ لأنَّ الحذفَ أعمّ من التّرخيم ولذلك لا يُلاقيه في المعنى، وأمّا الثّاني فقد أجازه هذا الأخير لِقوله إنَّ كلامَ النّاظم يحتمل عنده وجهًا خامسًا وهو أنْ يكون مفعولاً مطلقًا لِعامل محذوف أي رخِّم ترخيمًا[3]، فيبدو أنّ الشَّارحَ لم يُؤيِّد المُرادي في الوجه الّذي أجازه ممّا جعله – أي الشّارح– يذكُر وجهًا آخر في هذه المسألة.

وللإشارة لم يكن المكُّودي مصيبًا في قوله إنَّ الرّأيَ المشهور حول توسُّط الخبر بين (ما) ودام وأخواتها (ما زال، ما فتئ، ما انفكّ وما بَرَح) هو المنع، وذلك لقوله "وفُهِم من إطلاقه أنَّ

1- المكُّودي، شرح المكُّودي على الألفية في علمي النّحو والصّرف للإمام جمال الدِّين الجياني (ومعه حاشية العلاّمة الشّيخ أحمد بن عبد الفتّاح الملوي الأزهري)، ص178.

2- ابن مالك، شرح الكافية الشافية، ج3، ص1303. والمبرد، المقتضب، ج4، ص213- 214.

3- المرجع السّابق، ص185. والمرادي، توضيح المقاصد والمسالك بِشرح ألفيّة ابن مالك ج4، ص1126.

ذلك في جميع الأفعال فشَمل نحو ما قائمًا كان زيدٌ وما مُقيمًا زال عمرو وفي هذا الأخير خلافٌ والمشهور المنع"[1]، فهذا غير صحيح، حيث اعتقد بأنَّه اعتمَدَ مذهبَ جمهور النّحاة والمشهور، ولكنّ تصريحه هذا يدلُّ على العكس. ولا أنسى في هذا المقام ذِكْرَ ابن معط الّذي سبقه إلى القول بِمنع توسّط الخبر لـ (دام) بِخلاف أخواتها الّتي في أوّلها (ما) النّافية، في حين ذهب الجزولي قبلهم إلى القول بأنَّ جواز توسّط خبر هذه الأفعال عامّ في جميعها[2]. ولكن ما لفت انتباهي هو أنَّ حُكْمَ المكُّودي شَملَ جميع هذه الأفعال حيث لم يستثنِ أَحَدَها، وأمّا أكثر النُّحاة فقد أجازوا ذلك مستدلِّين بـ (ما كان) الّتي يتوسّطها الخبر (ما قائمًا كان زيدٌ)، ولهذا ليس على الشَّارح أنْ يقول إنَّ المشهور هو المنع دون تعليل، بل الرّأي الصّحيح هو الجواز.

تكفي هذه الآراء لِلقول إنَّ المكُّودي اجتهد كثيرًا في اختياراته وأحكامه النَّحويَّة، وصحيح أنَّه ذَهب مذهبَ النُّحاة المتأخِّرين الّذين اختاروا من آراء البصريِّين والكوفيِّين الّتي أدرك فيها الصّوابَ، مع ذلك وجدتُه يُرجِّح ويُناقِشُ ويَحتَجُّ في مواطن عديدة بآراء جمهور النُّحاة، وكان في ظلِّ ذلك تارةً يُوافق النَّاظمَ، وتارةً ثانية يردُّ عليه مستدِّلاً بشواهد من القرآن والحديث وكلام العرب، وهذا مع ما انفرد به من آراء قليلة. وكلُّ هذا جَعَلَ شَرْحَه ينالُ عناية خاصّة حتَّى عُدَّ من أهمّ الشُّروح على ألفية ابن مالك حيث وَلَعَ النّاس به أيّما ولوع، فهو شرحٌ نافعٌ استوفى فيه التّوضيح والإعراب لِخدمة النّاشئة.

خلاصة الفصل: إنَّ الدَّرسَ النَّحويَّ في المغرب ثريٌّ لِثراء أصحابه العلميّ، حيث أدّوا دورًا في خدمته وتنميته عامّة، وإنْ تميّزت بداية اشتغالهم به بِطابع الأخذ والعطاء حين كانوا يتلقّونه عن الشّيوخ الّذين يقصدونهم أو عن طريق المؤلَّفات الّتي بلغت بلادهم، فالأمرُ لم يعدْ كذلك حين أرادوا مُجاراة نظرائهم المشارقة فقد أبدعوا ووضعوا مؤلَّفات كثيرة في هذا الميدان، ثمّ كانت لهم من الآراء والاجتهادات النَّحويَّة الّتي جعلتهم يتميَّزون بها عن غيرهم، بالإضافة إلى تلك الآراء الّتي أيّدوا فيها أوّلاً البصريِّين ثمّ الكوفيِّين فالبغداديِّين مع مساندتهم الآراء الّتي تخصّ نُحاة المغرب والأندلس بِحُكْمِ الصِّلة الوثيقة الّتي كانت تجمع بينهم هذا من جهة، ومن جهة ثانية كان بعضهم يختلف عن بعض، فحتَّى وإنْ تابَع ابنُ معط شيخَه الجزولي في مواضع كثيرة وتأثَّرَ بأسلوبه في تناول بعض المسائل والتّعريف بها إلاَّ أنَّه لم يتبعه في أخرى، وكذلك الأمر بالنِّسبة للشَّلوبين الّذي تابعَ شيخه الجزولي في آراء واعترض عليه كثيرًا، أذكر على

---

[1]- المكّودي، شرح المكُّودي على الأَلفية في علمي النّحو والصّرف للإمام جمال الدِّين الجياني (ومعه حاشية العلاّمة الشّيخ أحمد بن عبد الفتّاح الملوي الأزهري)، ص49.

[2]- أبو موسى الجزولي، المقدّمة الجزولية في النّحو، باب التّحقيق، ص106.

سبيل المثال أنَّه أنْكَر عليه جواز حذف خبر (لا) إذا لم يكن ظرفًا. كما هناك ابن آجرُّوم الّذي خالفَ بعض نُحاة الأندلس والمغرب في توجّهاته وتابعهم في أخرى، وأذكر منهم الجزولي وتلميذه ابن معط كما تقدَّمت في العرض، ولا يُنسى المكُّودي الّذي كان يُشير في شَرْحِه إلى آراء المُرداي فكان تارةً يُسانده في ما ذهب إليه وتارةً ثانية يعترضُ عليه.

هذا وأُشيرُ إلى أنَّه عند عرضي آراء علماء المغرب النّحويَّة لفتت انتباهي نقطة مهمَّة وهي أنَّهم وُفِّقوا في بعض الآراء والاختيارات، حيث تابعوا مذهب الجمهور الّذي كان فيه الرّأي الصّواب، كما لم يكونوا كذلك في بعض المواضع، مع انفرادهم بآراء خالفوا فيها النّحاة الأوائل مع أنَّهم لم يُصيبوا في جميعها، ومثال ذلك امتناع الجُزولي عن جَرِّ المفعول له باللام إلاَّ إذا كان مختصًّا؛ لأنَّ الشَّخصَ لا يقدُم على الفعلِ إلاَّ لغرض معروف عنده مثل (جِئْتُك لإعْظامِك) وليس (جئتك لإعظام لك)، ولكن لم يوافقه النُّحاة في رأيه هذا، وأوّلهم تلميذه الشَّلوبين فالصّواب جواز الجرّ إنْ لم يكن هناك مانع يمنع منه. وكذلك ابن معط الّذي أجمع النُّحاة من بعده على تخطئته بسبب امتناعه عن جواز تقديم الخبر على اسم (ما دام)؛ لأنَّ رأيَه مُخالِفٌ للنّصوص والقياس كسائر أخواتها. ويُضاف إليهما المكُّودي الّذي أخطأ في حُكْمِه أنَّ الرَّأيَ المشهور بين النُّحاة في مسألة تَوَسُّط الخبر بين ما دام وأخواتها هو المنع وهذا ليس فيه صواب، بل أجمعَ النّحاةُ على الجواز وليس العكس.

واستوقفني أمرٌ مهمٌّ وهو أنَّه من الصُّعوبة بِمكان تحديد اتجاهات المدرسة النَّحويَّةِ الّتي ينتمي إليها علماء المغرب، لكونهم من النُّحاة الّذين تنوَّعت اختياراتهم وترجيحاتهم، حيث أخذوا من المذاهب النَّحويَّة ما يرتضونه، فتارة كانوا مؤيِّدين للبصريِّين، وتارة أخرى للكوفيِّين، وتارة ثالثة للبغداديِّين ورابعة منفردين بآراء كانت نتيجة لاجتهاداتهم. والبداية كانت مع الجزولي الّذي أسّس للدَّرس النَّحويِّ في المغرب بعد أنْ تلقّاه عن نُحاة المشرق، وأشهرهم ابن بري الّذي لزمه مدّة فقرأ عليه العربيّة والنّحو، وكان من نتيجة احتكاكه به أنْ ألَّفَ (الجزوليَّة) الّتي خَلَّدَت اسمه كما خَلَّدَ (الكتاب) اسم سيبويه، و(الجُمل) اسم الزَجّاجي و(المُفصّل) للزّمخشري وغيرهم من النّحاة، حيث كانت هذه المقدّمة من مصادر النَّحو الّتي لا تكتمل بدونها دراسة الطَّالب ولا تدريس الشَّيخ للنَّحو وبالأخصّ في فترة الدِّراسة. ثمّ يليه ابن معط الّذي استطاع أنْ يمنحَ النَّحو المغاربيّ خاصّة والعربيّ عامّة ميزة الطَّابع التَّعليميّ بهدف توضيح المسائل النَّحويَّة والصَّرفيَّة وتقريبها إلى أذهان الطّلبة حين أدْرَكَ صعوبةَ القواعد الّتي يقرؤونها في المؤلَّفات المطوَّلة والصّعبة، أيْ بالرَّغم ممَّا أُلِفَ من كتب نحويَّة تعليميَّة ميسَّرة إلاَّ أنَّها لم تشتهر بِقدر شهرة (الدرّة الألفية) و(الفصول الخمسون) ولكن قبل أنْ يأتيَ ابن مالك بألفيةٍ مماثلةٍ فَاقَتْها شهرةً وذيوعًا.

وليس هذا وحسب، بل استطاع أنْ يبتكرَ طريقةَ النّظمِ الجديدة الّتي أثارت حفيظةَ النُّحاة في عصره وما تلاه حتّى قلَّدوه فنظموا على شاكلتها، وفي مقدّمتهم ابن مالك ومنه أَخَذَها السيوطي. وصولاً إلى ابن آجرّوم الَّذي وجدته ينالُ مكانةَ نحويٍّ عظيمٍ بفضل مقدّمته الّتي طارت شُهرتُها في الآفاق فأقبلَ عليها الطّلبة والعلماء من كلِّ فجّ لدراستها وتدريسها وشرحها ونظمها. ثمّ انتهاءً بالمكُّودي الّذي لا تقلُّ جهودُه أهميّةً عن جهود السَّابقين، فقد أدرك هو كذلك النّحو الّذي تلقّاه عن شيوخ موطنه فاس ثمّ تصدَّى لتدريسه مدَّة طويلة، وكان من نتيجة ذلك أنْ تركَ شرحًا على (الألفيّة) الّذي عكفَ طلبة فاس على دراسته وفَهْمِه فانتفعوا به كثيرًا، وعلاوة على ما ضمَّه من تعليقات وتوضيحات مهمّة عملت على تيسير قواعد (الألفية) أكثر. وفي الجدول الآتي عرضٌ لبعض الآراء الّتي اختلف فيها نُحاة المغرب عن المشارقة:

النّحاة المغاربة	المنهج الّذي اتّبعوه	بعض المسائل الّتي انفردوا بها
الجزولي	الانتقاء من مذاهب النّحو المختلفة (البصريّ- الكوفيّ- البغداديّ)، مع الاجتهاد في بعض المسائل النَّحويَّة.	- انفردَ بقوله إنَّ بني تميم يحذفون خبر (لا) النَّافية للجنس إذا كان ظرفًا، ولكن أَنْكَرَ عليه النّحاة هذا الرّأي لأنَّ ما أجازوه هو تنكير الخبر وتأخيره لو كان ظرفًا. - قال إنَّ أداة الشَّرط هي الجازمة لِفعلي الشَّرط والجواب معًا.
ابن معط	- تميَّز منهجه بالانتقاء من مختلف المذاهب، وهو إلى مذهب البصريِّين أميل مع الانفراد ببعض الآراء.	- انفرد بالقول إنَّ وزن كلمة (زهير) شاذٌّ لا يُقاس عليه، وأمّا النّحاة فقد اعتبروه قياسيًّا وليس فيه شواذ. - ألحق الألف بالمندوب لِمَا في آخره ألف وهاء.
ابن آجرّوم	- لم يكن ابن آجرّوم كوفيَّ المذهب وحسب، بل تابعَ البصريّين في آراء نحويَّة كثيرة، مع متابعته لنُحاة المغرب كالجزولي وابن معط مثلما مَرَّ	- لم تُنسَب إليه آراء كغيره من المغاربة مع ذلك أدركت أنَّه انفرد عنهم بطريقة تناوِله لمسائل النَّحو دون الصَّرف ومنها تناول جميع علامات الإعراب في باب واحد سواء أكان بالحركات أم بالحروف.

	الحديث.	
المكُّودي	- ذهب مذهبَ البصريِّين في آراء وخالفهم في أخرى متابعةً للكوفيِّين، مع مساندته لبعض الأندلسيِّين والمغاربة في آراء معيَّنة.	- انفرد بالقول إنَّ ألف (متى ولدى وعلى وإلى) مجهولةُ الأصل. - قال إنَّ النّحاة أجمعوا على توسّط الخبر بين (ما) ودام وأخواتها هو المنع وهذا غير صحيح.

الشّكل رقم (20)

أطلعني هذا الجدول على نقطة مهمّة جدًّا وهي أنَّ المغاربةَ ساروا على منهجِ الانتقاء من مذاهب النَّحو المختلفة، فمنهم من يُرجِّحُ كفَّةَ البصريِّ، ومنهم من يُرجِّحُ كفَّةَ الكوفيِّ، بالإضافة إلى بعض الآراء الّتي انفردوا بها، مع أنَّ منها ما كان موضع خلاف النُّحاة والاعتراض عليها فلم أجد نحويًّا واحدًا وافق ابن معط في قوله عن امتناع تقدُّمِ خبر (ما دام) على اسمها.

وفوق هذا كلِّه، لحِظت أنَّ الإنتاجَ المغاربيَّ في النّحو يتميَّز بعضه عن بعض من حيث كيفيَّة تقديم النُّحاة القواعد وعرضها وحتّى في إطلاقهم للأحكام النَّحويَّة، فثمّة تنوّع في الأساليب الّتي اتّبعوها، فإن اختصرَ الجُزولي كلامَه في المقدّمة حتّى جاءت موجزة في غاية الإيجاز فأجد المكُّودي عكس ذلك، حيث أكثر من الأمثلة والشّواهد لتوضيح القواعد.

ويوجد إلى جانب هؤلاء نُحاة آخرون أمثال القاضي عيّاض وعبد الدّائم القيروانيّ وغيرهما من عصور مختلفة ممّن اشتهروا في الميدان دراسةً وتدريسًا وتأليفًا، كما لهم من الاختيارات والآراء النَّحويَّة الّتي جعلت المتأخِّرين يُشيرون إليها في كتبهم وهذا ما سأتحدَّثُ عنه لاحقًا. ولعلّ ما زاد النُّحاة المغاربة قيمةً وأهميّةً أنّهم من جهة كانوا وجهةَ الطّلبة في عصرهم فقد دَرَسَ عليهم علماء المغرب والمشرق، ومن جهة ثانية تركوا من المُصنَّفات الّتي أقبلَ النّاسُ عليها إقبالاً واسعًا فانتفعوا بها كثيرًا وأكبّوا على دراستها وتدريسها وشَرْحِها.

الفصل الرّابع

خصائص النَّحو المغاربيِّ وأثره في مُصنَّفات المتأخِّرين

مدخل

1- تداخل النّحو المغاربيّ والأندلسيّ.

2- خصائص النَّحو المغاربيّ.

3- موقف المغاربة من السَّماع والقياس.

4- التّعليل في نحو المغاربة.

5- آراء العلماء في النُّحاة المغاربة وانتماءاتهم النَّحويَّة.

6- أثر نُحاة المغرب في مُصنّفات غيرهم.

مدخل: عرَفَ الدَّرسُ النَّحويُّ في المغرب طيلة العصر الوسيط حركةً علميَّةً مزدهرةً على أيدي علماء نابهين أمثال الجُزولي والقاضي عيَّاض وابن آجرُّوم والمكُّودي، إذْ بعد أنْ أَدْركَ هؤلاء وغيرهم النَّحوَ الّذي عكفوا على دراسته وتدريسه وجدوا أنفسَهم قادرين على التَّأليف فوضعوا مؤلّفات نحويّة لا تقلّ أهميَّةً عمّا قدَّمه كثيرٌ من علماء المشرق والأندلس أيضًا، ممَّا أثرى النَّحو المغاربيّ خاصَّة والعربيّ عامّة إثراءً واسعًا، فقد تَبَيَّن من خلال اطّلاعي على بعض الكتب أنَّ إنتاجَ المغاربة متنوِّعٌ لِتنوُّعِ الأساليب الّتي اعتمدوها في عرضِ القواعد وإصدار الأحكام وإثباتها، ممَّا جعله موضع عناية العلماء والدَّارسين منذ ظهوره إلى اليوم. وإذا اكتفى المغاربةُ في بداية اشتغالِهم بالنَّحو بدراسة الكُتُبِ المشرقيَّةِ وتدريسها للطَّلبة وتوضيح غامضِها من الألفاظ والمعاني في حلقات الدَّرس، فالأمر لم يعدْ كذلك مع الوقت حيث تغيَّرت نظرتُهم إلى هذه الكتب، وتَوَسَّعَ نِطاقُ اهتمامهم بهذا الحقل فكان لهم إنتاجٌ خاصٌّ يتراوح ما بين شرحٍ لِلْكُتُبِ المتداولة والتَّعليق عليها مثل الشُّروح الّتي وُضِعَت على (الكتاب) و(الجمل) و(الأصول)، وتأليف كتب مستقلَّة مثل (الدرّة الألفية) لابن معط، ولذلك لم يكن دورُ المغاربة يقتصر على الأخذ فقط، بل على العطاء والإبداع إلى حدٍّ ما. وثمّة أمرٌ لَفتَ انتباهي وهو أنَّ الحركةَ النَّحويَّة الّتي شهدها المغرب لم يُسهم فيها أبناؤها العلماء فقط، بل كان للأندلسيِّين يدٌ طولي في ما عرفته هذه الحركة من تقدُّمٍ ولا سيما في منتصف العهديْن المرابطيّ والموحّديّ الفترة الّتي انضمّت فيها الأندلس إلى المغرب حيث اشتغل المغاربة مع الأندلسيِّين بالنَّحو جنبًا إلى جنب وتصدّوا لِتدريسه بِمختلف مدن المغرب، الأمر الّذي صَعَّب على الدَّارسين عامّة وضعَ الحدود للتَّمييز بينهم بِسبب عاملِ التَّمازج الثَّقافيِّ والعلميِّ والنَّحويِّ خاصَّة. أضف إلى ذلك النُّحاة الّذين تتنازعهم مذاهب النَّحو المشرقيَّة بِحُكم انتقالهم إلى المشرق كالشَّام ومصر والعراق ثمّ التصدِّي للتَّدريس بها والتَّأليف حتَّى صاروا من الأعلام الّذين يُذكَرون في الميدان.

1- تداخل النّحو المغاربيّ والأندلسيّ: إنَّ صلةَ المغربِ بالأندلس قديمة وثيقة، تعود إلى القرون الأولى الّتي بدأ فيها الجِوارُ يلعب دورَه الفعّال في إلغاء الحدود الجغرافيَّة والسياسيَّة، وعلى هذا فإنّ أكثر كتُب التّراجم والتّاريخ كانت تتعرَّض للقطرين على أساس أنَّهما يُمثّلان قطرًا إسلاميًّا واحدًا، وبالأخصّ في الفترة الّتي كانت فيها بلاد الأندلس تحت الحُكْمِ المغاربِيِّ لِمدّة طويلة قُدِّرت بِحوالي ثلاثة قرون مع بداية عصر المرابطين إلى عصر بني مرّين، ممَّا أدَّى إلى حدوثِ نوعٍ من الالتقاء الفكريِّ الواضح في شَتَى فروع العلم والمعرفة كالعلوم الطبيَّة والرياضيَّة والعمرانيَّة واللّغويَّة وغيرها، واتّسع نطاق هذا التّبادل بِشكلٍ خاصٍّ

أيّام الموحّدين[1] فقد شهدت هذه الفترة أكبر موجة لرحلات الأندلسيّين من طلبة وعلماء إلى غاية اقتراب سقوط غرناطة. حتّى إنّ الحديثَ عن الحركة الثقافيّة في المغرب لا يستثني بلاد الأندلس الّتي يذكرها المؤرّخون إلى جانب هذا القطر؛ لأنَّ أيَّ نشاط في الأندلس يكون أثرُه الملحوظ في النَّشاط المغاربيِّ، وهذا نتيجة للتنقّل الكثير والمُستمرّ بين أبناء القطرين ولا سيما من طرف الأندلسيّين الّذين استقرّ عددٌ كبيرٌ منهم في مختلف مدن المغرب، ناشرين معارفهم وطرائق تعليمهم، وحتّى بعد سقوط الدّولة الموحديّة تواصلت رحلاتهم، حيث وفد على المغرب في عصر المرّينيّين والحفصيّة والزيانيّة عددٌ كبيرٌ كذلك من لغويي الأندلس وأدبائها ونُحّاتها وتمكّنوا من تَبوُّءِ الصّدارة على السَّاحة العلميَّة. ومهما يكن من أمر، فإنَّ للأندلسيِّين حصّةَ الأسد في بلورة الحركة الثّقافيَّة بالمغرب عامّة والنّهوض بها طيلة العصر الوسيط.

وكان ما يهمّني من هذا هو ذلك التّمازج في ميدان الدِّراسات اللُّغويَّة والنَّحويَّةِ الّذي شهد بدوره تداخلاً ملحوظًا لتداخل المشتغلين به من علماء الأندلس والمغرب معًا، وإنْ نالت هذه الدِّراسات النَّصيبَ الأوفر من اهتمام المغاربة وكذلك الأمر مع الأندلسيِّين الّذين بلغوا فيها مبلغًا عظيمًا، حيث برز بينهم علماء تركوا أبلغ الأثر في أهل المشرق والمغرب. بيد أنَّ الأندلسيِّين الأوائل كانوا ممَّن اعتمدوا كذلك على المشارقة في دراستهم النَّحو واللّغة بِدليل أنَّ أكثرهم تنقّلوا إلى المشرق، ومع الوقت تَحَقَّقَ الاكتفاءُ الذّاتيّ لهم حين برزَ "نُحاة استقلّوا عن المشرق، وأظهروا شخصيَةً للنَّحو الأندلسيِّ، لا تقلّ عن شخصيته في المشرق"[2]، فقد بدأ نَحْوُ الأندلسيِّين يَكْتَمِل ويَنْضُج حين أصبح لديهم آراء واجتهادات تساووا فيها إلى حدٍّ ما مع المشارقة، وهو الأمر الّذي جَعَلَ الطَّلبة يكتفون بالأخذ عن نُحاة بلدهم دون الحاجة إلى التنقّل إلى المشرق كأوائل الطّلبة الّذين كانت حاجتهم إلى ذلك ماسّة، حيث حفلت البلاد بِحلقات الدَّرس والمؤلَّفات الّتي وجدوا فيها غايتَهم. وكان من نتيجة ذلك أنْ برزَ بينهم كبار النّحاة الّذين أَثْروا هذا الحقل ليس في الأندلس فقط بل في المغرب أيضًا بِدليل أنَّ أكثر أبنائه عَرَفَوا النَّحوَ عن طريق الأندلسيِّين، وكان في مقدّمتهم جودي بن عثمان – كما ذكرت آنفًا– الّذي كان أوّل نُحاة الأندلس الّذين درسُوا النَّحوَ الكوفيّ واطّلعوا على كتاب الكسائي، وقد استطاع

---

[1]– إبراهيم حركات، "الثّقافة وتبليغها بالأندلس في مرحلة النّضج والإخصاب (من القرن 4 إلى 6هـ)" مجلّة التّاريخ العربي. المغرب: 1998م، ع7، ص91. بتصرّف

[2]– عبد القادر رحيم الهيثي، خصائص مذهب الأندلس النَّحويِّ خلال القرن السَّابع الهجريِّ، ط2. ليبيا: 1993م منشورات جامعة قار يونس ببنغازي، ص37.

جلبَه إلى بلده ومنه بلَغَ المغرب. ومن المُفيد أنْ أذكر هنا أنّه حتَّى كتاب (العين) للخليل الّذي درسَه المغاربة وأدركوه يكون الأندلسيُّ ثابت بن حزم قاسم بن ثابت العوفي السّرقسطي (ت302هـ) أوّل من أدخله إلى بلده مع ابنه قاسم صاحب كتاب في شرح الحديث بِعنوان (الدلائل)، ومنه وصل إلى بلاد المغرب فانتفع به خلقٌ كثيرٌ منذ ذلك العصر إلى اليوم. ففي الوقت الّذي قلّت فيه رحلات الأندلسيِّين إلى المشرق لِبلوغِ علمائه ولقائهم، كانت لهؤلاء وجهةٌ أخرى وهي المغرب الّذي قدموا إليه لِنَشْرِ عِلْمِهِم والتَّعريف بآرائهم النَّحويَّة ونشر مُصنّفاتهم. ولا نكاد نمضي في القرن الثَّالث حتَّى برز علماء أفذاذ بالأندلس عُنُوا عنايةً خاصّة بالنَّحو واللّغة إلى جانب العلوم الأخرى، منهم عبد الملك بن حبيب السُّلمي (ت238هـ) الّذي بَرَعَ في النَّحوِ والفقهِ والحديثِ، مع مشاركته الحسنة في التَّأليفِ، ومُعاصره مفرج بن مالك النَّحويِّ الّذي وضع شرحًا على كتاب الكسائي، ويليهما في الذِّكر أبو بكر بن خاطب المرادي المكفوف صاحب مُؤَلَّف مشهور في النّحو انتفع به عامّة النَّاس[1]. واشتغال الأندلسيِّين بِالنَّحوِ مستمرٌّ وكثيفٌ في عصر هؤلاء العلماء المذكورين وما تلاه، الأمر الّذي جعله يزدَهرُ في بلدهم وينمو أكثر فأكثر، حيث ظهر نُحاة آخرون تَرَدَّدَ صداهُم في الأقطار العربيّة مغربًا ومشرقًا، وهذا محمّد بن موسى بن هاشم (ت307هـ) مثلاً قصَدَ المشرقَ على عادة الأوائل وقد لقِيَ بِمصر نحويَّها جعفر بن هارون بن إبراهيم الدّينوري (ت344هـ) فأخذ عنه كتاب سيبويه روايةً، وبعد إيَّابِه من رحلته عَكَفَ على مُدارسة الكتاب للطَّلبة وشرحه بِقرطبة.

ويبرُزُ في القرن الخامس نحويٌّ آخر بَلَغَ شأوًا عظيمًا وهو يوسف بن سليمان بن عيسى الشَّنْتمري المعروف بالأعلم ويُكنى أبا الحجّاج (476هـ)، وقد مَهَرَ في الأدب واللّغة والنَّحو الّذي أخذه عن ابن الإفليلي (ت441هـ)، وضَرَبَ بِنصيبٍ وافرٍ في التّأليف والتّدريس بِقرطبة فبَرَعَ من طلبته الكثير، ومن كُتُبِه النَّحويَّة شرح على (الجمل) مع شيخه ابن الإفليلي، وشرح آخر على أبيات هذا الكتاب، وله كذلك شرحٌ على شواهد سيبويه، وكتاب آخر بِعُنوان (النّكت في تفسير كتاب سيبويه)[2]. وكان الأعلم من النُّحاة الّذين لم يكتفوا في الأحكام النَّحويَّة بالعلل الأولى، بل كان يطلب علّةً ثانية لها، وله بعض الآراء والاختيارات من مذاهب البصريِّين

---

[1]– عبد الله بن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، تح وتع وضبط: بشّار عوّاد معروف، ط1. تونس: 2008م، دار الغرب الإسلاميّ، مج1، ص148 وص263. بتصرّف

[2]– مجد الدِّين الفيروز آبادي، البُلغة في تراجم أئمة النّحو واللّغة تح: محمّد المصري، ط1. دمشق: 2000م، دار سعد الدِّين للطّباعة والنّشر والتّوزيع، ص322.

والكوفيِّين والبغداديِّين. ويأتي بعده البطليوسي الّذي جَمَعَ بين علوم كثيرة، دَرَّس النَّحوَ في قرطبة ثمّ بلنسية، عُنِيَ بِجُمل الزجَّاجي وله عليه كتاب في إصلاح الخلل في أبياته وغيره. وابن الباذش الّذي كان علمًا في العربيّة، له شروحٌ على كتب النّحو المشرقيَّة مثل (الكتاب) و(المقتضب) و(الأصول) و(الجمل) و(الإيضاح)، وقد كان يختار من آراء النُّحاة مع انفراده في بعضها. وأذكر إلى جانب هؤلاء، ابن الطراوة أحد تلامذة الشّنتمري النّجباء، وعنه أَخَذَ كتابَ سيبويه. وللعلم اختلف المؤرِّخون في أصله ونشأته، إذْ يعتبره بعضهم أندلسيًّا بِحكم مولده ونشأته، وبعضهم الآخر يجده مغربيَّ الأصلِ لأنَّه من سلا[1] بالمغرب الأقصى الّتي غادرها أهله. كان ذا فضل كبير في تَقَدُّمِ الدَّرسِ النَّحويِّ بالأندلس والمغرب، وكما ذهبَ مذهبَ جمهور النُّحاة في آراء كثيرة فلم يتردَّد في مخالفة بعض الآراء لذلك انفرد بِما قدَّمه من اجتهادات، فقد كان جريئًا في آرائه إلى درجة أنَّه غلَّط سيبويه في باب النَّعت، وفوق هذا كان "من أوائل الأندلسيِّين الّذين كتبوا في النَّحوِ كتابة متخصّصة، تقوم على فقه أسراره، وكشف غوامضه وتقوم أيضًا على تقديم الجديد المُبتكر من الآراء"[2]. ولابن الطّراوة مُشاركةٌ جيِّدةٌ في التّأليف النَّحويِّ، ومن مُصنّفاته (المقدّمات على كتاب سيبويه) وقيل إنَّ ابن خروف تعقّبه فيه كثيرًا، ومجموع في النَّحو سمَّاه (التّرشيح) وهو كتابٌ مختصرٌ، و(مقالةٌ في الاسم والمسمّى)[3]. وظهر بعد هؤلاء من أعلام النَّحوِ الأندلسيِّ، ابن الرماك الإشبيليّ (ت541هـ)، والخدبّ الّذي اشتهر بِتدريس كتاب سيبويه، وقد تتلمذ على ابن الرّماك وأخذ عنه النَّحوَ واللّغة، مع أنَّ أكثر نشاط الخدبّ كان بالمغرب. ويليهما الشَّلوبين صاحب (التوطئة في النَّحو)، وابن الضّائع (ت680هـ) وسِوى هؤلاء كثير. وأيًّا ما كان الأمر، فقد اهتمّ علماء الأندلس بالنّحو اهتمامًا فاق التصوّرات، حيث شكَّلوا لأنفسهم منهجًا جديدًا، يقوم على الاختيار من آراء البصريِّين والكوفيِّين والبغداديِّين مع الإبداع والانفراد ببعض الآراء. ولكن ما يُهمُّني في هذا الجانب هو هؤلاء النُّحاة الّذين وفدوا على المغرب فكان لهم الدَّورُ العظيم في الدِّراسات النَّحويَّة الّتي تبلورت في بلاد المغرب وبالأخصّ بعد منتصف القرن السَّادس للهجرة حيث أُقِيمَ صَرْحُ هذه

---

[1]- القفطي، إنباه الرّواة على أنباه النُّحاة، ج4، ص113- 114.

[2]- محمّد إبراهيم البنا، أبو الحسين بن الطراوة وأثره في النّحو، ط1. تونس: 1980م، دار بوسلامة للطّباعة والنّشر والتّوزيع، ص7. بتصرّف

[3]- السيوطي، بغية الوعاة، مج1، ص602.

الدِّراسات على أُسُس ثابتة[1]. وممَّا هو جدير بالذِّكر أنَّ الأندلس كانت أكثر نشاطًا من المغرب، فمنذ تَمَّ فتْحُ الأندلس لم يتمكَّن المغاربة من تبوُّأ مكانة الصّدارة والتفوّق الّتي اعتبروها من حقِّهم قبل أنْ ينالَها الأندلسيّون الّذين تفوّقوا عليهم نشاطًا حتَّى كان لهم الأثر الطيِّب في هذا الحقل وازدهاره في فترة الدِّراسة بموطنهم الأندلس ثمّ بالمغرب.

ونظرًا لالتقاء جهود المغاربة بالأندلسيِّين طُرِحت إشكاليّةُ انتماء علماء المغرب إلى المذهب الأندلسيِّ في النّحو، فكما سبق القول يَذْكُرُ أكثر الباحثين النُّحاةَ المغاربة إلى جانب الأندلسيِّين باعتبارهم يُمثِّلون مذهبًا نحويًّا واحدًا دون تمييز بدليل أنَّهم "استحدثوا مذهبًا رابعًا عُرِف بِمذهب المغاربة أو الأندلسيِّين، ظهرت مبادئه من أوائل القرن الخامس الهجريِّ الّذي يعُدُّ فجر النّهضة النّحويّة في هذه البلاد"[2]. فقد أصبح للنّحو المغاربيِّ أعلامه وميزاته، ولكن دون استبعاد فَضْل الأندلسيِّين ودورهم في إثرائه وتقدّمه كغيره من العلوم الأخرى الّتي أسهموا في ازدهارها أيضًا طيلة العصر الوسيط ولا سيما فترة المرابطين والموحّدين، وبالتّالي من الصُّعوبة الفصل بين المغاربة والأندلسيِّين حين يكون الحديث عن جهود علماء المغرب في تنمية الدَّرس النَّحويِّ في هذه الفترة.

وفوق هذا ثمّة من النُّحاة الأندلسيِّين الّذين عدُّوا من نُحاة المدرسة المغاربيّة بعد تنقّلهم إلى المغرب ونشأتهم واستقرارهم فيه إلى حين وفاتهم فيه أيضًا، فهذا ابن هشام الأنصاريّ مثلاً كان يُشيرُ إلى علماء الأندلس والمغرب باسم المغاربة دون أنْ يُفرِّقَ بين هؤلاء وأولئك[3]. يُفهم من هذا أنَّ للانتماء النّحويِّ صلةً باستقراره في القطر الّذي قدِمَ إليه، وعلى هذا كثيرًا ما يشتهر باسم يكون نسبةً للمكان الّذي نَزَلَ به فَسَكَنَ وتوفي، فإذا استقرّ في سبتة مثلاً يُلقِّبونه بـ (السّبتيّ) وإذا استوطن مراكش بـ (المراكشيّ) وتلمسان بـ (التلمسانيّ) وغرناطة يُسمّونه (الغرناطيّ) وهكذا، وخير مثال على ذلك ابن أبي الرَّبيع الّذي أثار انتماؤه تساؤلات كثيرة لارتباط اسمه بمدينتيْ إشبيلية وسبتة ومن ثمّ يُسمّونه (الإشبيليّ السّبتي)، وعلى هذا هناك من يذكره بين علماء الأندلس، وآخرون بين علماء المغرب على أساس أنّه أسهم في النَّشاط العلميِّ ولا سيما اللّغويّ والنَّحويّ علاوة على ذلك فإنَّ أكثر نشاطه كان بسبتة، ولذلك صار

[1]– خديجة ناور، تطوّر الدّرس النَّحويِّ من العصر المرابطيّ إلى العصر السّعدي، بحث دبلوم الدّراسات العليا المعمّقة، ص18.

[2]– محمّد الطّنطاوي، نشأة النّحو وتاريخ أشهر النُّحاة، ص220.

[3]– محمّد بن تاويت، "النّحو الأندلسيّ وابن هشام المصريِّ" مجلّة المناهل، ع31، 1984م، ص220. بتصرّف

يُقالُ إنَّه لو لا مجالسه العلميَّة الّتي كان يُنظِّمها للطَّلبة حين اشتهرت هذه المدينة، وتميَّزت بنشاطها اللّغويِّ والنَّحويِّ الّذي عرفته بعد استقراره فيها.

ولا شكَّ أنَّ الأندلسيِّين الّذين نشطوا في الدَّرس النَّحويِّ بسائر المغارب ليسوا بالعدد القليل، فقد تنقَّل إلى بلاد المغرب الكثير منهم وسكنوها حتّى الوفاة، وحدث ذلك بِشكلٍ كبيرٍ منذ القرنين السَّادس والسَّابع الهِجْرِيَّيْن اللَّذَيْن شهدا أكبر حركة توافد لِنُحاة الأندلس الّذين أسَّسوا مدرسةً نحويَّةً أندلسيَّةً عكست عبقريَّتَهم وميَّزت شخصيّتهم عن نظرائهم المشارقة، ثمَّ انتقلت هذه المدرسة إلى المغرب عن طريق أعلامها المشهورين[1]، وكان ذلك في الفترة الّتي اكتملت فيها معالم هذا الدَّرس ونضجت بالأندلس فأصبح لعلمائها آراء وملاحظات تُميِّزهم عن نُحاة المشرق. وقد تميَّز مذهبُ الأندلسيِّين بالأخذ عن مذاهب النَّحو الأولى، ولكن كانوا في الوقت نفسه "يُضيفون إلى ذلك اختيارات من آرائهم استدركوا بها بعض المسائل على المشارقة، وعدلوا عن بعض آرائهم وخالفوهم في منهاج تعليم وتَدْوين النَّحو"[2]. وهذا ما لحظته أيضًا في ما يتعلَّق بمنهج نُحاة المغرب؛ والّذي يقوم على الانتقاء من آراء نُحاة المذاهب الثّلاثة البصريّ والكوفيّ والبغداديّ وحتّى المصريّ مع الانفراد ببعض الآراء "وكان العمل الأوّل الّذي قام به المغاربة والأندلسيُّون هو تَقْيِيمُ عَمَل الشَّرق العربيِّ والتضلّع فيه قبل التَّطعيم والإضافة والتَّجديد"[3]، بِمعنى أنَّه لم يعدْ نُحاة القُطرين مجرّد متلقِّين للإنتاج المشرقيِّ، بل أصبحوا مُبدعين ومنتجين بَلَغ بعضُهم درجةَ الكثير من النُّحاة المشارقة.

وكان أكثر الأندلسيِّين القادمين إلى المغرب يستقرُّ بهم المقام في سبتة، الأمر الّذي جعلها تشهد حركة لغويَّة ونحويّة أعمق وأخصب منذ منتصف القرن السّابع أيْ مع انتقال نُحاة حلقة الشَّلوبين إليها بعد سقوط إشبيلية، وتذكر كُتُب التّراجم أنَّ هؤلاء الّذين استوطنوا سبتة عاودوا نشاطَهم العلميّ فيها دراسةً وتدريسًا وتأليفًا، ولا سيما أنَّهم وجدوا المدينةَ تَنْعَمُ بالاستقرار والرّخاء، ومُزدانة بِعلماء كِبار في شتى الميادين. كما أنَّ نشاطَ النُّحاة الأندلسيِّين كان يتوَزَّعُ بين اتجاهين، الأوّل اعتنى أصحابُه بِدراسة كتُب النَّحو المشرقيَّةِ وشرحها

[1]– ميلود التوري، الحركة اللّغويّة بالمغرب الأقصى: (عصر المرابطين والموحّدين)، بحث دبلوم الدّراسات العليا في اللّسانيات، ص222.

[2]– نورة المعاشي، ابن عصفور الإشبيلي وجهوده النّحويّة (597هـ– 669هـ)، بحث دبلوم الدِّراسات العليا المُعمّقة. مراكش، جامعة القرويّين، كليّة اللّغة العربيّة: 2001– 2002م، ص10.

[3]– عبد العزيز بنعبد الله، "اللّغويّون أو علماء العربيّة في المغرب" مجلّة التاريخ العربيّ. الدّار البيضاء: شتاء 1999م، مطبعة النّجاح الجديدة، ع9، ص17.

واختصارها والتّعليق عليها، والمتمثّلة في (الكتاب) و(الجمل) و(الإيضاح) فهي أكثر الكُتُب الّتي أَقْبَلَ الأندلسيّون على دراستها وتدريسها بِشكلٍ لافتٍ للانتباه وبالأخصّ كتاب سيبويه الّذي وجدوا فيه ضالّتهم النّحويّة العظيمة، وأمّا الاتّجاه الثّاني فقد حاول أصحابُه الاجتهادَ في الأصول والفروع انطلاقًا ممّا توصّلوا إليه من انتقادات في آثار القُدامى كابن الطراوة الّذي خَطَّأ الفارسيّ في مسائل نحويّة كثيرة[1]. وكذلك ابن مضاء الّذي انتقدَهم على كثرة العلل في نَحْوِهِم. وفي ما يأتي أمثلة من النُّحاة الّذين قصدوا المغربَ تأكيدًا على التّواصلِ المتينِ القائمِ بين المغاربة والأندلسيِّين والمستمرّ طيلة فترة الدِّراسة:

– الزُّبيدي من أهل إشبيلية[2]، عارفٌ بالنّحو والأصول وحافظٌ للّغة وغيرها، وَفَدَ على المغرب الأقصى فنزلَ سبتة الّتي تصدّر فيها لتدريس اللّغة والنّحو، وهو صاحب الكتاب الشّهير في التّراجم (طبقات النّحويّين واللّغويّين)، وله كذلك كتاب(أبنية سيبويه)، (الموضّح) أو الواضح كما يذكره بعضهم، وآخر (في ما يلحن فيه عوام الأندلس).

– ابن الطراوة الّذي كان من الوافدين على المغرب أيضًا، حيث جَلَسَ هو كذلك لتدريس النّحو مدّةً طويلةً فانتفع به خلق لا يُحصون بِمن فيهم الطّلبة النّبهاء.

– خلف بن يوسف بن فرتون (ت532هـ)[3]، له باعٌ طويلٌ في النّحو والأدب، قصَدَ المغرب الأقصى فنَزلَ في البداية بسبتة الّتي درَّسَ بها مدَّةً، ثمّ سار إلى فاس الّتي سكنها. كما استقرّ في فاس من معاصريه محمّد بن باق الجُزامي المارّ ذكره بين مدرسي كتاب سيبويه، ومن كتبه النّحويّة شرحٌ على (إيضاح) الفارسي، تصدّى لِتدريس النّحو الّذي تقَدَّمَ فيه كثيرًا.

– عبد الرّحمن بن محمد بن عبد الرّحمن بن عيسى أبو القاسم المعروف بابن الرّماك أخذ النّحو عن ابن الطراوة وغيره، استقرّ مدّة طويلة في فاس يُقرئ اللّغة والنّحو حتّى قيل "على يده أصبحت فاس تُضاهي سبتة في الدِّراسات النّحويّة"[4]، وتتلمذ له عددٌ من الطّلبة أمثال علي بن حسن الصّدفي الفاسي وابن خروف.

– أحمد بن عبد الجليل بن عبد الله التدميري (ت555هـ) من المرية، عارف بعلوم العربيّة من أدب ولغة ونحو، استدعاه أحد الملوك إلى مراكش لتأديب ولده، ومنها انتقل إلى فاس فاستقرَّ

---

[1]– أحمد بلشهاب، "تطوّر الدّراسات النّحويّة في المغرب حتّى القرن الثّامن الهجري" مقال في زهرة الآس في فضائل العبّاس، ج2، ص474– 476.

[2]– السيوطي، بغية الوُعاة، مج1، ص84– 85.

[3]– المرجع نفسه، ص557.

[4]– المرجع السّابق، ص481.

فيها مدرِّسًا للنَّحو واللُّغة، ومن أهمّ مؤلَّفاته (التّوطئة في العربيَّة)، شرحٌ على (الفصيح) وآخر على أبيات (الجمل) كان كبير الحجم، سمَّاه (شفاء الصّدور) ومُختصره[1]، انتفعَ بِعلمه الكثيرُ من الطّلبة المغاربة الّذين التفّوا حوله.

– أبو بكر الخِدَّب كان من نُحاة الأندلس الّذين حلُّوا بفاس ونشطوا في دَرْسِها النَّحويِّ كثيرًا بالإضافة إلى اشتغاله بالخياطة، عكف على التَّدريس فيها فَتَتَلْمَذَ له طائفةٌ من الطَّلبة النّابهين كابن خروف وأمثاله.

– محمّد بن عبد الله بن ميمون بن إدريس بن محمّد بن عبد الله العبدري (ت567هـ) من أهل قرطبة يُكنى أبا بكر، ولكنَّه خرج من بلده بسبب الفتن فنزل مراكش، كان متقدِّمًا في علوم العربيّة حتَّى عُدَّ من الأوائل الّذين أسهموا في تأسيس المدرسة النَّحويَّة ببلاد المغرب فترة الموحديّة، ومن تآليفه شروحٌ على كتب النَّحو المشرقيَّة، منها شرحٌ كبيرٌ على (الجُمل)[2]، وقيل إنَّ له شرحًا آخر على أبيات (الإيضاح) للفارسي.

– السُّهَيْلي عبد الرّحمن بن عبد الله أبو القاسم[3] ذائع الصّيت في ميدان اللّغة والنّحو، وعُرِف عنه التضلّع في التّفسير وصناعة الحديث وعلم الكلام والأصول، قرأ على ابن الطراوة وابن طاهر، نال شهرةً عريضة في مراكش الّتي استوطنها، برع من طلبته جماعة، له كتب في النّحو وغيره، منها (شرح الجمل) الّذي لم يُتِمه، (التّعريف والإعلام بِما في القرآن من الأسماء والأعلام)، (نتائج الفكر) الّذي قَدَّمَ فيه آراء خاصّة به في كثير من المسائل، ولذلك قيل عنه "اشتهر بأنَّه صاحب استنباطات دقيقة وأنَّه كان يُشغَفُ بالعلل النَّحويَّة واختراعها"[4]، كلّ هذا جعله من كِبار الشُّيوخ الّذين اجتَمَعَ حولهم الطّلبة.

– أبو العبّاس أحمد بن مضاء اللّخمي القرطبيّ صاحب الثّورة على النّحو التّقليدي، بِسبب مخالفته بعض مسائل النّحو الّتي رأى أنّها غير مُفيدة، وفد على المغرب فنَزَل مراكش الّتي تولّى قضاءها فترة الموحديّة، عارفٌ بالنَّحو وبعلوم أخرى كالطبّ والفقه والهندسة، وكان حجّةً في الفقه الظَّاهريِّ والحديث، دَرَسَ على كبار شيوخ بلده أمثال ابن الرمّاك ومنه سَمِع كتاب سيبويه[5]، ومن قُرطبة شدّ الرّحالَ إلى المغرب فانتصب للتّدريس في فاس ومراكش وبجاية، من

[1]– السيوطي، بغية الوعاة، مج1، ص321.

[2]– ابن الآبار، التكملة لِكتاب الصلة، ج2، ص39.

[3]– المرجع السّابق، مج2، ص81. والقفطي، إنباه الرّواة على أنباه النُّحاة، ج2، ص162– 163.

[4]– شوقي ضيف، المدارس النّحويّة، ص299.

[5]– المرجع نفسه، ص304.

مُصنّفاته النَّحويّة (الردّ على النُّحاة) الّذي تحدَّث فيه عن غلوّ نُحاة المشرق في تعقيد القواعد وكثرة العلل، فقد "التزموا ما لا يلزمهم، وتجاوزوا فيها القدرَ الكافي في ما أرادوه منها، فتوعّرت مسالكها، ووهنت مبانيها وانحطّت عن رتبة الإقناع حُجَجها"[1]، فهو يدعو إلى إلغاء نظرية العامل وإلغاء العلل الثّواني والثّوالث بهدف تسهيل فهم المسائل النّحويّة على الطلبة وبالأخصّ النّاشئة، وقد تأثّر في ما قاله بالمذهب الظّاهريِّ الّذي تزعّمه ابن حزم الرّافض هو كذلك للقياسَ والتَّعليل مستمدًّا أفكاره من كتابه (الإحكام في مسائل الأحكام)، وقد عُرِفَ لابن مضاء اختيارات نحويَّة كثيرة ذهب في بعضها مذهب سيبويه وأتباعه من البصريِّين، وفي بعضها الآخر تابع النّحاة الكوفيِّين والبغداديِّين، مع انفراده بِآراء لم يسبِقْ إليها غيره، ولا سيما في نظرية العامل الّتي دعا فيها إلى تَرْكِ العوامل وإلغاء القياس والتّأويل في النَّحو.

– ابن خروف وهو كذلك قَصَد المغربَ بِعلمه الغزير في النَّحو الّذي تلقّاه عن شيوخ بلده الأندلس أمثال الخدبّ، وأثناء إقامته في هذا القطر كان يتنقّل بين فاس ومراكش فانقطع فيهما لتدريس العربيّة والنّحو وظَلَّ يُفيدُ الطّلبة الّذين اجتمعوا حوله للاستزادة، واشتهر بمناظراته مع السّهيلي، ويُذكر أنَّ لابن خروف شرحًا على كتاب سيبويه أهداه إلى صاحب المغرب، وشرحًا آخر على (الجمل)[2]، كما له آراء واختيارات من مختلف المذاهب وبالأخصّ البصريّ.

– أبو عبد الله محمّد بن يحي الخزرجي الأندلسيّ الشَّهير بابن هشام الخضراويّ تلميذ ابن خروف، وبعد أن تلقَّى الخضراويّ العلمَ ببلده شَدَّ الرِّحال إلى تونس الوجهة المغربيَّة الّتي استهوته فاستقرّ فيها مدرِّسًا إلى أنْ توفيَ، وله من كتب النّحو شرحٌ على (الإيضاح) وآخر على أبياته (فصل المقال في أبنية الأفعال)، و(النّقض على المُمتِع لابن عصفور)[3]، له من الآراء الّتي ساند فيها البصريِّين والكوفيِّين ونُحاة بلده الأندلس أيضًا.

– أبو العلاء إدريس الأنصاري القرطبي (ت647هـ) من نُحاة الأندلس الّذين استقرّ بهم المقام في سبتة فتصدّر بها لتدريس كتاب سيبويه للطّلبة[4] وغيره من كتب اللّغة والنّحو.

– ابن عصفور الإشبيليّ الّذي أَخَذَ العلمَ عن الشَّلوبين والدبّاج (ت646هـ)، وبعد أنْ استكملَ دراستَه جلس لإقراء النّحو بالمرية، ثمّ تَاقَت نفسُه إلى الرّحلة فانتقل إلى المغرب الأدنى، وحلّ

---

[1]– أحمد بن مضاء القرطبي، الردّ على النّحاة، تح ودراسة: محمّد إبراهيم البنا، ط1. د ب: 1979م، دار الاعتصام ص9.

[2]– محمد الطّنطاوي، نشأة النّحو وتاريخ أشهر النُّحاة، ص232– 233.

[3]– شوقي ضيف، المدارس النّحويّة، ص303.

[4]– السيوطي، بغية الوُعاة، مج1، ص436.

ببعض مدن المغرب الأقصى للتّدريس مثل آزمور ومراكش ثمّ بتونس وبجاية الّتي سكنها بُرْهَة من الزَّمن فانتفع بعلمه الكثير من الطّلبة المغاربة، انكبّ على التَّأليف في الأدب واللّغة والنّحو فترك مُصنّفات كثيرة ذات فوائد بعضها مطبوع، وبعضها الآخر إمَّا مفقود أو لا يزال مخطوطًا[1]، وأشهرها (المقرّب)، (المُمتع)، (شروح الجمل) المارّ ذكرها و(مختصر المحتسب).

– ابن فتوح النّفزي عبيد الله بن محمّد (ت642هـ) من أهل شاطبة، قَصَدَ المغربَ كغيره من العلماء الأندلسيِّين، برع في الفقه وأصوله وعلم العربيّة والنّحو والأدب مع تَقَدُّمٍ في المنطق، له من الكتب النّحويّة (تقييدٌ على المفصل)[2]، مع تدريسه النّحو مدّة من الزّمن.

– أبو جعفر اللّبلي من كبار النحو واللّغة الّذين انتفع بهم أهل المغرب، قرأ على شيوخ بلده أمثال الشَّلوبين، قَصَدَ المغرب فنزل بجاية وجلس يُقرئ بها زمانًا، ومنها سار إلى المشرق للحجّ، وبعد ذلك قَفَلَ إلى المغرب فحلّ بتونس الّتي اتّخذها وطنًا له فانتصب للإقراء بها حتَّى توفي. وله من الكتب اللّغويّة والنّحويّة ما أثرى الميدان، شرحان على (الفصيح) الأوّل بِاسم (تُحفة المجد الصّريح في شرح كتاب الفصيح)، والثّاني شرحٌ على الجمل بعنوان (الحلل في شرح أبيات الجُمل)، كما له (البغية في اللّغة) و(مستقبلات الأفعال)، وآخر في التّصريف ضاهى به مُمتِع ابن عصفور[3] وغيرها ممّا لم تذكرْها له المصادر.

– مالك بن المرحّل (ت699هـ) الّذي وُلِد بالأندلس، ولكن تنقّل مع عائلته في سنّ صغيرة إلى المغرب فنزل سبتة الّتي استوطنها ثمّ تنقّل إلى فاس الّتي توفي فيها، عُدّ من الأدباء النّابهين وقد مرّ ذكرُه في موضع حديثي عن الأدب، أخذ عن الشَّلوبين والدبّاج، له مؤلّفات أدبيَّة مهمَّة وللأسف لا يزال أكثرها مخطوطًا، وقيل إنَّه ترك ديوان شعر ولكن لم يصلْنا منه إلاّ الشَّيء القليل، ومنها قصيدة بِعنوان (اللّؤلؤ والمرجان)، (أرجوزة في العروض)، و(نظم الثّلث من آداب الكتاب بعد ترتيبه)، بالإضافة إلى ما صنَّفه في علوم أخرى كالفقه والقراءات، وله كذلك في النَّحو واللّغة نَظْمٌ وشرح على (الفصيح) لثعلب[4]، مع نَظْمٍ آخر حول تركيب (كان ماذا).

– إبراهيم بن أحمد بن عيسى، أبو إسحاق الغافقي (ت710هـ أو 716هـ) إشبيليّ المولد وسبتيّ النّشأة والوفاة ولهذا اعتبره مترجموه من أعلام المغرب في النَّحو وهو كذلك؛ لأنَّه غادر

---

[1]– نورة المعاشي، ابن عصفور الإشبيلي وجهوده النّحويّة (597هـ– 669هـ)، بحث دبلوم الدّراسات العليا المُعمّقة ص29.

[2]– الغبريني، عنوان الدراية في من عُرِفَ من العلماء في المائة السّابعة ببجاية، ص193.

[3]– السيوطي، بغية الوعاة، مج1، ص402– 403.

[4]– ابن القاضي، جذوة الاقتباس في ذكر من حلَّ من الأعلام بمدينة فاس، ج1، ص327– 328.

موطنه في سنِّ الخامسة، دَرَسَ النَّحوَ على مشايخ سبتة أمثال ابن أبي الرّبيع الإشبيليّ السّبتي، وبعد أن اكتمل تحصيلُه العلميّ وصار شيخ النُّحاة والقُرّاء بالمدينة نفسِها تصدَّر لتدريس النَّحو كغيره من الأعلام فقصده الطّلبة من الآفاق والتفّوا حوله، كما ألّفَ كتابًا فيه[1] وهو شرحٌ على (الجمل) وقد يكون هناك غيره من الكتب.

وإنْ كان قد تنقّل إلى المغرب من النُّحاة الأندلسيِّين الكثير واستقرّ بهم المقام فيه إلى حين وفاتهم، فهناك من النَّحويِّين المغاربة الّذين رغبوا في الأندلس طلبًا للعلم ونشر علمهم أيضًا، وبِالأخصّ منذ القرن السَّابع مع أنَّ وجودَهم فيها لم يعدْ لطلب العلم، بل باتوا يقصدونها من أجل العطاء والتَّدريس والإفادة أيضًا "إنَّ القرن السّابع يفتح باب التّأثير الواسع، الّذي ينطلق هذه المرّة من المغارب، لِيصبح لهذه المناطق مُعظم الدّور خلال القرن الثّامن في تكوين الشّباب الأندلسيّ"[2]. فقد تصدّر أغلب المغاربة الوافدين على الأندلس لتدريس العربيّة والنّحو ولا سيما بِمُدنها الشّهيرة وكانت قرطبة بِحكم مركزها تستقطب أكثرهم ثمّ إشبيلية وطُلَيْطِلَة وغيرهما. وللعلم لم يكن توافد المغاربة على الأندلس بحجم توافد الأندلسيِّين، ومن المغاربة الّذين قصدوا الأندلس:

– مكيّ بن أبي طالب القيسيّ الّذي توجَّهَ إلى الأندلس وسكنها حتَّى توفي، وكان في تلك المدّة ينشط ويُؤلِّفُ في النَّحو وغيره. وأبو عبد الله محمّد بن عيسى السّبتي[3] الّذي قصَدها في القرن الخامس بعد أنْ أتمّ دراستَه بين أهله بسبتة، وقد حَلَّ بقرطبة فالتقى بِشيوخها كأبي مروان عبد الملك بن عبد الله (ت489هـ) من الأندلسيِّين[4] الّذين شاع فَضْلُهم ونبُهَ ذكرُهم.

– الجُزولي الّذي قصَدَ بِدَوره الأندلس فنزل المريّة مدّة، وانتصب بها وبِغيرها من المدن الأندلسيَّة لتدريس النَّحو والعربيّة، وقد قرأ عليه قومٌ من الطّلبة وفي مقدّمتهم الشّلوبين، وأخذوا عنه (الجُزوليَّة) وغيرها من المؤلّفات.

– ابن المناصف إبراهيم الأزدي المارّ ذكره أيضًا، عُنِيَ بالنَّحوِ أثناء استقراره في الأندلس لِمدّة زمنيّة مع توليه قضاء بلنسية، فهو أوّلاً أندلسيّ الأصل وثانيًا مهدويّ المولد وثالثًا مراكشيّ

[1]– عبد الله كنون، النّبوغ المغربيّ في الأدب العربيِّ، ج1، ص231.

[2]– إبراهيم حركات، مدخل إلى تاريخ العلوم بالمغرب المُسلم حتَّى القرن9/15م، ج1، ص101.

[3]– عيّاض بن موسى اليحصبي القاضي عيّاض، الإلماع إلى معرفة أصول الرّواية وتقييد السّماع، تح: أحمد صقر ط2. القاهرة / تونس: د ت دار التّراث والمكتبة العتيقة، ص10.

[4]– عبد الله بن الآبار، المعجم في أصحاب القاضي أبي علي الصّدفي، د ط. القاهرة: 1967م، دار الكاتب العربيّ ص287.

الوفاة إذْ حين قدم الأندلس لم يدم له مقام فقفل بالعودة إلى مراكش الّتي استقرّ فيها حتّى أدركه الأجلُ وكلّ هذا يجعله ينتمي إلى أكثر من قطر، فقد أسهمَ بِعلمه الوفير في تقدُّم الدَّرس النَّحويِّ ليس في المغرب وحسب، بل في الأندلس أيضًا الّتي أقامَ بها مدّة.

– عبد الرّحمن بن القاسم بن يوسف بن محمّد المغيلي يُعرف بابن السرّاج ويُكنى أبا القاسم (ت619هـ) فاسيّ الأَصل، سَكنَ سبتة مدَّةً زمنيّة طويلة قبل أنْ يقصدَ غرناطة الّتي استوطنها، كان من أهل العناية والطّلب والسّماع، تصدّر بها لتدريس العربيّة والأدب[1] واستمرّ في ذلك لمدّة زمنيّة، وقد كان له من الطّلبة النّبهاء في النّحو واللّغة الكثير. وفي الآتي أمثلة عن نُحاة المغرب والأندلس الّذين أخذ بعضُهم عن بعض، والهدف من ذلك هو أنْ أبيِّن أنَّ الأندلسِّيين درسوا على المغاربة والعكس حدث كذلك:

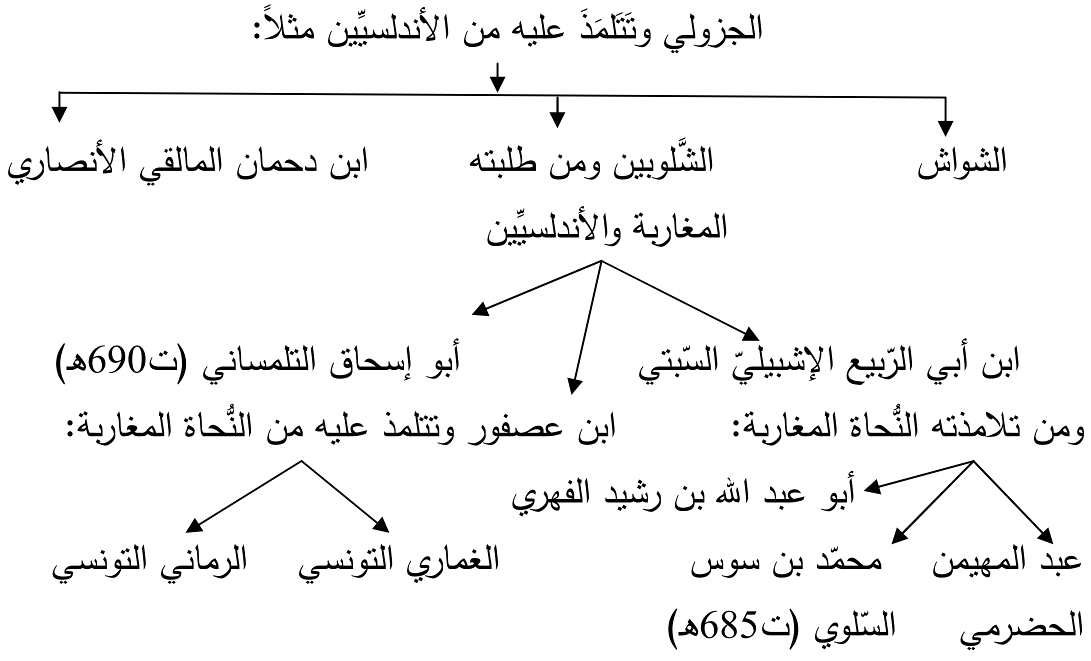

الشّكل رقم (21)

ويُمكن القول بناءً على ما تقدَّم إنَّ دراسة النَّحو وتدريسه متداخلان بين أهل المغرب والأندلس، فإذا تلقّى الشَّلوبين النَّحوَ عن الجزولي فابن أبي الرَّبيع الإشبيليّ السَّبتيِّ الّذي قرأه على الأوّل صارَ يُدرِّسه هو كذلك لطلبة مغاربة، والأمر ذاته يحدث مع ابن عصفور الّذي قَرَأَ النَّحوَ على الشَّلوبين ثمّ عكفَ هو – أي ابن عصفور– على تدريسه لأبناء المغرب وهكذا. فكما أسهم الأندلسيُّون في تنشيط الدَّرس النَّحويِّ بالمغرب كان للمغاربة صلةٌ بِما عرفه هذا الأخير من تَقَدُّمٍ في الأندلس حتّى وإنْ لم يكن ذلك بالقدر الّذي أسهم به الأندلسيُّون.

[1]– العبّاس بن إبراهيم السّملالي، الإعلام بمن حلّ مراكش وأغمات من الأعلام، ج4، ص54– 55.

إنَّ طبيعةَ التّداخل النَّحويِّ بين المغرب والأندلس لا تتعلَّق بالأخذِ والعطاء فقط بين علماء القطرين بِحكم التنقُّلِ من الأندلس إلى المغرب أو العكس يحدث، بل ثمَّة نقطة لابدَّ من ذكرها وهي أنَّ هذا التّبادل نَتَجَ عنه التأثُّر والتّأثير في الآراء النَّحويَّة الّتي تخصُّهم معًا، حيث هناك الكثير من المغاربة الّذين تابعوا الأندلسيِّين في آرائهم واختياراتهم واعترضوا عليهم في آراء أخرى، وقد تجلّى ذلك في مؤلّفاتهم كشرح المكُّودي على ألفية ابن مالك. ويوجد في الوقت نفسه نُحاة الأندلس الّذين تَأثَّروا بالمغاربة حيث ساندوهم في آرائهم واختياراتهم، ومنهم الشَّلوبين الّذي تلقَّى النَّحوَ عن الجزولي ووضعَ شرحًا على مقدّمته مُبيِّنًا موافقته له في آراء وحتَّى الانتصار له والدِّفاع عنه أحيانًا، وكذلك مخالفته في أخرى، أضف إلى ذلك أنَّ شواهد الشَّلوبين لم تكن من الوَفْرَة في شرحه كما في (الجُزوليَّة). علاوة على أسلوبه الّذي يبدو في بعض الأحيان جافًّا لِتأثُّره بشيخه الجُزولي، كما كان ينقل عنه في التَّمثيل لِبعض المواضع. ومن المسائل الّتي سانده فيها امتناعه عن تقديم المحصور بـ (إلاَّ) فاعلاً كان أم مفعولاً حملا لـ (إلاَّ) على (إنَّما)، وأمّا من المسائل الّتي خالفه فيها فأذكر امتناعَ الجُزولي عن جرِّ المفعول له إلاَّ إذا كان مُختصًّا، وقوله إنَّ التَّوكيدَ تكرار وإحاطة فأوّلاً التّوكيد لا يتحقَّق في هَذَيْنِ النَّوعَيْنِ فقط، بل يكون كذلك بـ إنَّ والقسم وبالمفعول المطلق. وثانيًا تَوَهمَ الجُزولي أنَّ الإحاطةَ ليست تكرارًا وهذا غير صحيح؛ لأنَّ الإحاطة تكرار أيضًا ففي مثل (قام القوم كلّهم) يُقَدَّر كلّهم بـ (كلّ القوم) وكلّ القوم بِمعنى (هم القوم) ممَّا يدلُّ على أنَّ الإحاطةَ تَدلُّ على التّكرار [1]. والمكُّودي متأثِّر كذلك بالأندلسيِّين، وأوّلهم ناظم (الألْفيّة) فقد تابعه في آراء كثيرة ورَدَّ عليه في أخرى. كما ذَهَبَ المكُّودي مذهبَ أبي حيَّان في التَّوكيد بأجمعين دون كلّ، فإذا قال "وكَثُر ورودُ (أجمعين) في القرآن دون (كلّ)، فهو يؤكِّدُ كما يؤكّد (بكل) وليس من باب الاستغناء به عن (كلّ) كما زَعم ابنُ مالك"[2]، فواضح أنَّه الرَّأي المعتمد عند المكُّودي خلافًا للنَّاظم لقول الأوّل "وفُهِمَ من قوله: (قد يَجِيءُ)، أنَّ ذلك قليل بالنِّسبة لِذكرها بعد (كلّ) وصَرَّحَ الشَّارحُ – ابن النَّاظم- بِقلّته وفيه نظر؛ لأنَّه جاء في القرآن التّوكيد به دون (كلّ) كثيرًا كقوله ﷻ: ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: 35]"[3]، فكلاهما اختار الرَّأيَ الصّواب.

---

[1]- أبو موسى الجزولي، المقدّمة الجزوليّة في النّحو، باب التّحقيق، ص73. وأبو علي الشّلوبين، شرح المقدّمة الجزوليّة الكبير، ج2، ص675.

[2]- أبو حيّان، ارتشاف الضَّرب من لسان العرب، ج4، ص1952.

[3]- المكُّودي، شرح المكُّودي على ألفية ابن مالك، ج2، ص 52.

وإنْ كان من مظاهر التّداخل بين القطرين تلك الشُّروح الّتي وضعها المغاربةُ على مؤلَّفات النَّحو الأندلسيَّة ولا سيما مؤلّفات ابن مالك فالعكس يحدث، حيث قام الأندلسيُّون بشرح أشهر مؤلَّفاتهم، ممَّا مكَّن بعضهم من الاطِّلاع على نَحْوِ بعض. ومن أمثلة ذلك (الجزوليَّة) الّتي شرحها من الأندلسيِّين الشَّلوبين، العلم اللّورقي (ت661هـ)، ابن مالك وابن الفخّار المالقي. وتليها (الدرّة الألفية) الّتي قام بِشرحها ابن هشام الخضراوي وابن جابر الهواريّ والشّريشي، وللعلم كان أكثر شُرَّاح (الأَلفية) أندلسيِّين ومشارقة. كما شَرَحَ (الآجُرُّوميّة) أبو عبد الله الأندلسيّ المعروف بالرّاعي (ت853هـ) وأبو الحسن البَسطي القَلَصادي (ت891هـ) نزيل باجة بالمغرب الأدنى، وكذلك الأمر بالنِّسبة للأَلفية الّتي قام بِشرحِها المكُّودي، و(التَّسهيل) الّذي شَرَحَه كثيرٌ من المغاربة وسأعمَدُ إلى ذِكرِ بعضهم في موضع حديثي عن شُرّاح مؤلّفات هذا الأندلسيِّ. ونظرًا لهذا التّداخل أيضًا تَعمَّدْتُ في الفصل السَّابق ذِكْرَ بعض الأندلسيِّين الّذين ساندوا النّحاةَ الأربعة في آراء وخالفوهم في غيرها، منهم ابن مالك الّذي كثُر ذكرُه في الفصل الثّالث. وفي الآتي ذِكرٌ لِبعض الأسماء الّتي لها صلةٌ بالنّحو في المغرب من فترات زمنيّة مختلفة:

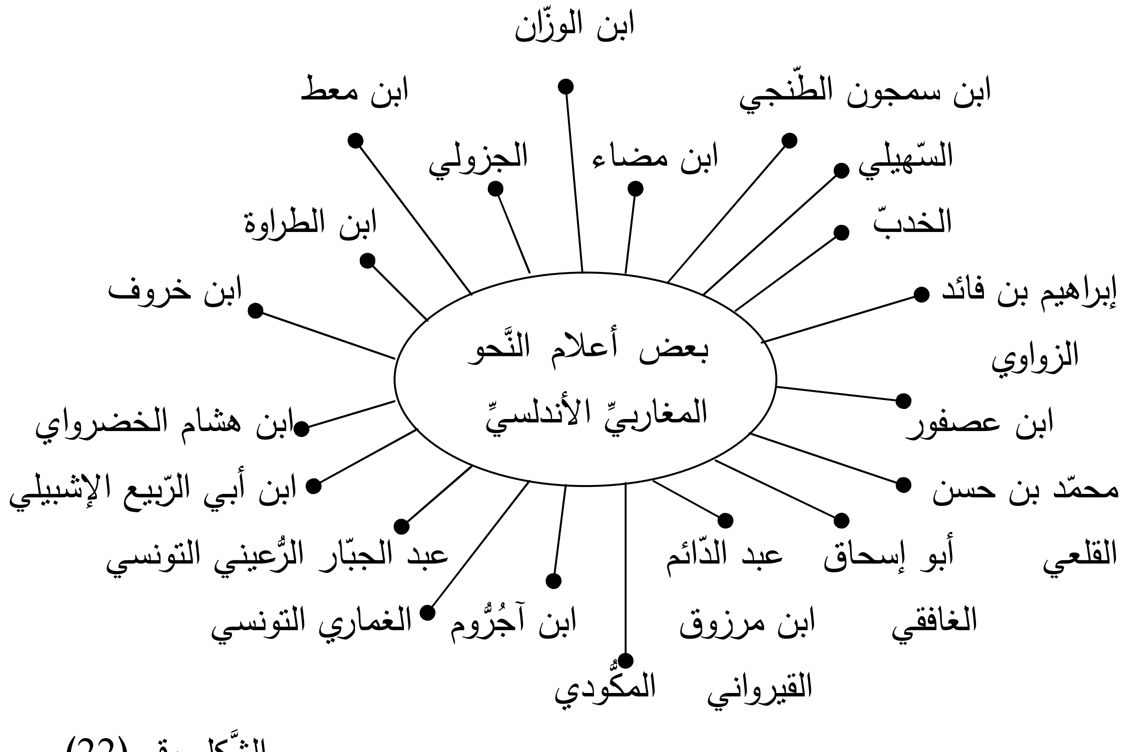

الشَّكل رقم (22)

اجتمعت جهود هؤلاء الأعلام وغيرهم ممّن لم أذكرهم في هذه التّرسيمة بعضها مع بعض فكوّنت النَّحوَ المغاربيّ الأندلسيّ الّذي لا شكَّ له ما يُميِّزه عن نَحْوِ المشارقة. وإنْ دلّت

هذه القائمة على شيء فإنّها تدلُّ على أنَّ للأندلسيِّين مشاركةً واسعةً في الدَّرس النّحويِّ الّذي عرفته بلاد المغرب.

فالمهمّ في الأمر أنَّ تنقُّلَ العلماء بين المغرب والأندلس ساعدهم على الإنتاج، وتبادل العلم في ما بينهم، حيث لا عوائق تمنع الأندلسيِّين من شدِّ الرّحال إلى المغرب لارتياد المراكز الثّقافيّة وبالأخصّ مع تَوَفُّرِ الظّروف المواتية الّتي تُتيح لهم الفرصة للتّدريس ومواصلة الدّراسة والتلقّي عن نُحاة المغرب الّذين يأخذون عنهم في المقابل والعكس يحدث كذلك، حيث هناك من المغاربة الّذين قَصَدوا الأندلس. هذا مع العلم أنَّ أكثر الأندلسيِّين قَصَدوا مراكز المغرب الأقصى منذ بدأت أهميَّة سبتة وفاس ومراكش تبرُز بشكلٍ لافتٍ، ولكن ما فهمته أنَّ مدينة فاس نالت النَّصيبَ الأوفر منهم حيث حلَّ بها الخدبُّ الّذي دَرَّسَ النَّحوَ فيها العمر كلّه، وابن خروف كذلك الّذي دَرَسَ فيها على أيدي علمائها النَّابهين ودَرَّس، ثمّ تليها مدينة سبتة الّتي حظِيَت بكثير منهم كابن أبي الرّبيع الإشبيليّ السّبتيّ وسِواه.

وفضلاً عن ذلك، كان الأندلسيّون أكثر تنقُّلاً وقدومًا إلى بلاد المغرب عامّة والمغرب الأقصى الّذي يستقرّ بهم المقام أكثر لِقُرْبِهم من بلدهم ثمّ بالمغربيْن الأوسط والأدنى. فكلُّ ما في الأمر أنَّ للأندلسيِّين الأثرَ المحمود في نشاط الدَّرس النَّحويِّ بالمغرب وازدهاره، حيث أثمر استقرارهم فيه ثماره فضلاً عن تفرّغ أكثرهم للتّدريس والتّأليف، وفي المقابل كان للمغاربة دورٌ غير خفيٍّ في تنشيط هذا الحقل بموطنهم ثمّ بالأندلس الّتي تصدّرت بعض الأسماء لتدريس النَّحو والانشغال به، ممّا مَكَّنَ علماء القطرين من التّأسيس لنحوٍ مغربيٍّ أندلسيٍّ واشتغلوا به جنبًا إلى جنب دراسةً وتدريسًا وتأليفًا، ولذلك ظلّ المغاربة يؤثِّرون في الأندلسيِّين ويتأثّرون بهم والعكس صحيح، فكما دَرَسَ الشّلوبين النَّحوَ والعربيَّة على الجُزولي وتأثّر به أَخَذَ البطليوسي ومحمّد بن الحكم السرقسطيّ عن عبد الدّائم القيرواني، وعلي بن حسن الصديني الفاسيّ عن أبي بكر الخدبّ، وابن آجرُّوم عن أبي حيّان، وعبد المهيمن الحضرميّ السّبتي (ت749هـ) عن ابن أبي الرّبيع والقائمة طويلة. هذا ولا بدَّ أنْ أُقِرَّ بأنَّ أكثر أبناء المغرب عرفوا النَّحوَ العربيِّ عامّة والكوفيِّ خاصَّة للوهلة الأولى بواسطة الأندلسيِّين الّذين تصدّوا لتدريس نَحْوِ الكسائي والفرّاء الّذي تلقّوه عن طريق جودي بن عثمان، ثمّ البصريّ الّذي عرفوه عن طريق الأُفُشينق صاحب الفضل في التّعريف بكتاب سيبويه ونَحْوِه، وهذا بغضّ النّظر عمّا ذكرته في فصل سابق عن احتمالِ أسبقيَّة أهل القيروان في معرفة النّحو ودراسته على شيوخ المشرق قبل أنْ يتلقّاه عنهم الأندلسيّون، وثمّة أمرٌ تجدر الإشارة إليه وهو أنَّ الزّبيدي

بدوره حين تناول الطَّبقات الأربع لِنُحاة القيروان ذَكَرَ بينهم أبناء الأندلس الّذين وفدوا على هذه المدينة فاستقرّوا فيها واشتغلوا بالنّحو واللّغة إلى جانب أهلها أمثال القياس الجهني المذكور بين نُحاة الطّبقة الرّابعة، قصَدَ المغرب فحلّ بالقيروان ولذلك عَدَّهُ من نُحاتها المهمِّين.

2- خصائص النَّحو المغاربيّ: تقدّم أنَّ للمغاربة عنايةً بالتّأليف النّحويِّ، وحسبي دليلاً على ذلك كثرة المُصنّفات الّتي خلّفوها في الميدان وهذا بغضّ النّظر عمّا ضاع منها مع الوقت، ممّا مكّنهم من منافسة كلّ من نُحاة المشرق والأندلس، وبالأخصِّ منذ أوائل القرن السّادس للهجرة بداية ظهور كِبار النُّحاة الّذين أسَّسوا لِهذا العلم وأشهرهم الجزولي بعد عودته من المشرق، ثمّ تبِعه تلاميذه الّذين نهجوا نَهجَه وساروا على خطواته حتّى كان لهم الدَّور الكبير في تقدُّم الدِّراسات النَّحويَّة بِالمغرب عامَّة. وللعلم حين بدأَ أهلُ المغرب يشتغلون بالنَّحوِ لم يكونوا مُبدِعين بِقدر ما كانوا متلقِّين لِكلِّ ما يأتيهم من معارف وكتب مشرقيَّة، حيث اقتصر نشاطهم على دراستها وحفظها وتدريسها فقط، وليس على التّأليف والإبداع ممّا يُمكِّنُهم من مُجاراة نُظرائهم المشارقة والتميُّز عنهم، وعلى هذا لم يشتهر علماء المغرب في النَّحو بِقدر اشتهارهم في العلوم الدِّينيَّة الأخرى. ولكن شيئًا فشيئًا تغيَّر أسلوبُ المغاربة في العناية بالنَّحو فقد اختطوا لأنفسهم طرائق جديدة تبتعدُ إلى حدٍّ ما عن غيرها بغضِّ النّظر عن التّأثير المشرقيّ، حيث لم يعودوا يكتفون بانتظار ما يُنتجه المشارقة في هذا الحقل وبِشرح مؤلّفاتهم فقط، بل هناك الإنتاج المحلّي الذي حظِيَ بالعناية عند عامّة أهل المغرب وغيرهم، ممّا يتأكَّدُ أنَّ كثيرًا من علماء هذا القطر "ما كانوا نكرات في البحوث النَّحويَّة، بل سجَّلوا إضافات نوعيَّة في المشرق والمغرب وكَوَّنوا مريدين، وتركوا سجِّلات نحويَّة تليق بمقام الآراء النَّحويَّة الّتي كان لها صدى في المشرق، إنَّه نبوغٌ مغربيٌّ متميّزٌ أثرى الفكر العربيّ واللّغة العربيّة، ولم تكن بضاعته رُدَّت إليه كما قيل"[1]، فقد أصبح للمغاربة إذًا إنتاجُهم الخاصّ الّذي يُعبّر عن اختياراتهم وجهودهم الّتي أَثْرَت الدَّرس النَّحويّ وأَغْنَتْه، فيكفيهم فخرًا أنْ يكون للآجرُّوميَّة علاقة وثيقة بمصطلح النّحو في اللّغات الأروبيّة، حتّى إنَّ الكثير يربِطُ هذا العلم باسم هذه المقدّمة، ويعتبرهما شيئًا واحدًا فيُقال حينها من يُريد أنْ يتعلَّمَ قواعد النَّحوِ فليتعلّم (الآجرُّوميّة).

إذًا اعتمد معظمُ المغاربة منهجَ الانتقاء من آراء البصريِّين والكوفيِّين والبغداديِّين، ثمّ الأندلسيِّين ولا سيما مع الصِّلة الّتي تجمعهم في هذا الحقل كما مرَّ القول، حيث وجدتهم يُرجِّحون بعض آراء هذا المذهب ويعترضون في أخرى، والعكس يحدث مع مذاهب النّحو

[1]- صالح بلعيد، في أصول النّحو، ص167.

المذكورة، فإنَّ لهم اختيارات واجتهادات خاصة جعلتهم يتميَّزون كما تميَّز غيرُهم، حيث استطاعوا "فَرْضَ أنفسهم في النَّحو؛ لأنَّ اهتمامهم به جعل منهم نُحاة من الدَّرجة الأولى فتمكّنوا من فَرْضِ آرائهم المختلفة سواء أكانت آراء اجتهاديَّة خاصَّة بكلِّ نحويٍّ أو انتقادات لآراء بعض نُحاة المشرق، فأصبح النّحو بِذلك يتميَّز عندهم بِخصائص غير الّتي تميّز بها عند غيرهم"[1]. وهكذا يُمكن الحديث عن النَّحو المغاربيِّ وعن أعلامه، ولكن لا أَدُلُّ بقولي هذا على أنَّ أهل المغرب اشتغلوا بالنَّحو لِمعارضة المشارقة فقط، بل كان المغاربة إلى جانبهم حيث اعترفوا بِفضلهم العظيم في ما عرفه النّحوُ عامّة من تقدّمٍ لا مثيل له، ومن ثمّ اكتفوا في ضوء ذلك بإبراز اجتهاداتهم مع متابعتهم الكثير من آرائهم، وبالأخصّ سيبويه وأتباعه من البصريِّين وبعض الكوفيِّين كالفرّاء والكسائي وبعض البغداديِّين أيضًا، وتارةً أخرى عدلوا عن بعض آرائهم وخالفوهم في طريقة تدوينه وتدريسه مع محاولة الاجتهاد والانفراد ببعض الآراء فاختلفوا بها عن القدامى.

2-1- التأثّر بالنَّحو المشرقيّ: لا خلاف في القول إنَّ علماء المغرب في العصر الوسيط متأثِّرون إلى حدٍّ كبير بالنّحو المشرقيِّ، الّذي تلقوه عن طريق شيوخه الّذين قرأ عليهم الكثير إمَّا بالرّحلة إليهم وإمّا بِقُدوم علماء المشرق إلى المغرب الّذين نشروا هذا العلم. ومن أمثلة النّحاة المشارقة الّذين تركوا أثرًا طيّبًا في بلاد المغرب وعكفوا على نشْرِ نحوِ أهلهم، أبو علي القالي الّذي لعبت رحلتُه الشَّهيرة إلى الأندلس دورًا بالغ الأهميَّة في تقدُّم الدِّراسات اللّغويَّة والنَّحويَّة بهذا القطر وحتّى بالمغرب أيضًا فكما نعلم مَرَّ على بجاية فانتفع بعلمه كثيرٌ من الطّلبة والعلماء. ويأتي بعده علي بن فضال المجاشعي التميمي القيروانيّ الفرزدقي (ت479هـ) نسبة إلى جدّه الفرزدق الشَّاعر، قصَدَ المغربَ فأقام بالقيروان ولِذلك سُمِيَ بالقيروانيِّ نسبةً إليها، فاجتمع حوله النّاس للانتفاع بعلمه، صاحب تآليف كثيرة ومفيدة في اللّغة والنَّحو مثل (المقدّمة في النَّحو)، (العوامل والهوامل في النَّحو)، (شرح معاني الحروف)، (شرح عنوان الإعراب) مع كتاب كبير في البسملة[2]، إلى غير ذلك ممّا ألّفه في علم التّفسير والأدب. ومحمّد بن عبد الله بن محمّد بن ظَفَر المكيّ الصّقلي حجّة الدِّين (ت565هـ)[3]؛ وُلِد بِمكّة ثمّ

---

[1]- حفيظة يحياوي، إسهامات نُحاة المغرب والأندلس في تأصيل الدّرس النّحويّ العربيّ خلال القرنين السّادس والسّابع الهجريَّيْن، د ط. الجزائر: 2011م، منشورات مخبر الممارسات اللّغويّة في الجزائر بجامعة تيزي وزو، ص154.

[2]- القفطي، إنباه الرّواة على أنباه النُّحاة، ج2، ص299. ومحمد محفوظ، تراجم المؤلّفين التّونسيّين، ج4، ص27-28.

[3]- السيوطي، بغية الوعاة، مج1، ص142.

قَصَدَ مصر في صباه ومنها رحلَ إلى المغرب الأدنى فأقام بالمهديّة مدّة من الزّمن، ممّا جعله يُشارك في نشاط الحركة النَّحويَّةِ واللّغويَّة الّتي عرفتها البلاد في زمانه، ولكن لم يستقر به المقامُ فيها اجتازَ البحرَ إلى الأندلس. وأكتفي بهذَيْن العالميْن مثالاً على أنَّ النَّحوَ المشرقيّ انتقل إلى المغرب مع العلماء الّذين توافدوا عليه.

كما بلغهم النَّحوُ المشرقيُّ عن طريق الكُتب الّتي نقلها إليهم الشُّيوخ الأوائل الّذين قصدوا المشرق لطلب العلم والحجّ، وأوّلها مختصر الكسائي ثمّ كتاب سيبويه الّذي تَعَلَّقَ به المغاربة أكثر من أيِّ كتاب آخر، إذْ كلَّما ظهر مُؤلَّف في هذه البلاد إلاَّ ودَرَسَه المغاربةُ ودَرَّسُوه واختصروه وشرحوه، وقد كانت نظرتُهم إلى المشارقة نظرة تتَّسِمُ بالاحترام والتّقدير والاعتراف بالفضل الكبير في تقدُّم الدِّراسات اللُّغويَّة والنَّحويَّة حتَّى قال المشارقة إنَّ بضاعتهم رُدَّتْ إليهم، فلم يُنقل عن المغاربة "أنّهم غَلَطُوا سيبويه أو جَرَحُوا الكسائي أو شكَّكوا في علم الزَجَّاجي"[1]، على عكس بعض الأندلسيِّين الّذين خالفوا المشارقةَ إلى درجة الطَّعن في بعض آرائهم الّتي خالفوهم فيها كابن الطراوة الّذي انتقد سيبويه وغيره، أمّا بالنِّسبة للمغاربة فقد وجدوا أنفسهم أمام الإنتاجِ المشرقيِّ الّذي أبهرهم فَأقبلوا على تداوله، ولذلك كانت المؤلَّفات المشرقيَّة مصدرًا مهمًّا لِنحوهم وآتي على ذكرِ أحدِهم الجُزولي الّذي استند كثيرًا في قواعد مقدّمته إلى هذه المؤلَّفات باعتبارها مصادر النَّحو المفضَّلة لديه، ولا سيما نحو شيخه حيث "كانت روحُ ابن بري في الجزولي ظاهرةً واضحةً، بل إنَّ المقدِّمةَ الّتي اشتهر بها هي من وحْيِ أستاذه ابن برّي"[2] وحتَّى طلبة الجزولي بالمغرب فضَّلوا منهجَه الجديد الّذي تلقّاه عن ابن برّي، فهذا خير دليل على تأثُّر المغاربة بمنهج المشارقة في تلقين النَّحو وتلقِّيه، وعلى هذا فمن الطَّبيعيِّ أنْ تكون الكُتب المشرقيَّة مثل (الكتاب) و(الجمل) و(الإيضاح) أوسع ذيوعًا في الفترة الأولى مع بداية اشتغال أبي موسى الجزولي وممَّن عاصره من المشتغلين بالنَّحو. وما لحظته كذلك هو أنَّه ما من نحويٍّ مغربيٍّ إلاَّ وله شرحٌ على مؤلَّف أو أكثر من هذه المؤلّفات، وما من نحويٍّ أيضًا إلاَّ ووجدته تابعًا أو معارضًا لمذهب من المذاهب النَّحويَّةِ فتارةً يكون مؤيّدًا للبصريِّين وتارةً ثانية للكوفيِّين، وثالثة لِنُحاة بغداد. وتكفي كذلك متابعة نُحاة المغرب آراء المشارقة لتكون

[1]– ميلود التّوري، الحركة اللّغويّة بالمغرب الأقصى: (عصر المرابطين والموحدين)، بحث دبلوم الدّراسات العليا في اللّسانيات، ص296.

[2]– عبد العال مكرم سالم، المدرسة النّحويّة في مصر والشّام في القرنين السّابع والثّامن من الهجرة، ط1. بيروت: 1980م، دار الشّروق، ص51.

دليلاً على تأثّرهم الكبير بِهم، ومن أمثلة ذلك سيبويه الّذي نقلَ المغاربة الكثير من آرائه إذْ ما من نحويٍّ منهم إلاّ وَردَّدَ اسمَه في كُتبه وأشارَ إلى آرائه ورَجَّحَها واعتمدها حجَّةً في أحكامه ولكن دون أنْ ننسى ذكرهم له في الآراء الّتي كانوا يُخالفونه فيها. وكذلك الأمر مع الكسائي والزجّاجي والفارسيّ والمبرد الّذين احتجّوا بآرائهم إمّا لتأييد ما ذهبوا إليه وإمّا للاعتراض. كما نتجَ هذا التأثّر عن تلقّي كثيرهم النَّحو عن علماء المشرق، وكان في مقدّمتهم الجزولي الّذي درَسه على ابن برّي. فكلّ ما في الأمر أنَّ المغاربة اعتدّوا بكتب الأوائل وعنوا بها عنايةً لا حدود لها، مع ولعهم الشّديد بآراء سيبويه ومن بعده من أئمة النَّحو.

وبالرَّغم من تأثُّر المغاربة بالإنتاجِ المشرقيِّ الّذي نَالَ من اهتمامهم الشَّيء الكثير، فقد كانوا في الوقت ذاته مُبدعين على طريقتهم الّتي جعلت نحوَهم يتّسم ببعض الاستقلاليّة بالنّظر إلى ما قدَّموه من طرائق جديدة في التّأليف، ممّا يعني أنَّ تعلَّقهم بِنَحْوِ المشارقة لم يمنعهم من وضع مؤلّفات واسعة الشُّهرة منذ العهود الأولى الّتي عرفوا فيها النَّحو بصفة عامّة، إذْ بعد تلقِّيهم النّحو بلغوا حدَّ الاعتماد على النَّفس تدريسًا وتأليفًا، فيكفي جودي بن عثمان الّذي كان من أوائل النُّحاة بالمغرب والأندلس أنْ يُصنِّفَ (منبه الحجارة) على نحو مستقلٍّ، فلم يأتِ شرحًا أو إعادة عرض للنَّحو المشرقيِّ؛ لأنَّ إحساس الأندلسيِّين والمغاربة عامّة بِتَفَوُّقِ المشارقة عليهم دفعهم إلى البحث عن سُبُل أخرى يتميّزون بها بِقدر تميُّز غيرهم فقد تداولوا أشهر الكتب المشرقيَّة على تَفَهُّمِها ودراستها وتدريسها من جهة، ومن جهة ثانية كانت لهم مؤلّفاتهم الّتي دَلَّت على أنَّهم لم يكتفوا بتلقِّي كُتُب غيرهم وتدريسها للطَّلبة.

أضِف إلى ذلك أنَّ تَنَقُّلَ علماء المغرب الكثيف إلى المشرق واستقرارهم الدَّائم فيه في أكثر الأحيان كان من مظاهر التأثُّر؛ لأنَّ ثمّة مغاربة كُثُر ممّن استقرّ بهم المقام هناك، وكان ذلك منذ القرن الأوّل، مع أنَّ تنقّلهم إليه مرتبطٌ في البداية بالحاجة الدِّينيّة ثمّ بطلب العلم "إذا كان القرنُ الأوّل هو عصر الفتوح والتوعيّة الدِّينيَّة، فإنَّ القرن الثّاني يفتح الباب على مِصْراعيه، للرّحلة العلميّة الّتي كانت تأكيدًا لِلهويّة الإسلاميَّة للمتعلّمين، واختراقًا لعالم أرحب من المعرفة وللإشباع الثّقافيّ"[1]، ومعنى هذا أنَّ المغاربة عامّة أدركوا العلوم العقليَّة والدِّينيَّة والأدبيَّة عن طريق المشرق الّذي استقبلهم من بابه الواسع، حيث كان وجهتهم الأولى في ظلِّ ما يعيشونه من اضطرابات سياسيَّة جرّاء سقوط دولة وقيَّام أخرى، ولذلك كانوا يشدّون الرِّحال إليه بحثًا عن الاستقرار وتوفّر الظّروف الاجتماعيَّة والاقتصاديَّة. وقد كان عدد أبناء المغرب

[1]- إبراهيم حركات، مدخل إلى العلوم بالمغرب المُسلم حتّى القرن 9هـ/15م، ج1، ص121.

القادمين إليه في تزايد مستمرّ ولا سيما علماء اللّغة والنّحو الّذين نالوا النَّصيبَ الأوفر، حيث تنقّل الكثير منهم فبعضهم استقرّ فيه وبعضهم الآخر عاد إلى موطنه لِنَشْرِ عِلْمِه بين أهله "أمّا في مجال علوم اللّغة العربيّة فقد كان للمغاربة فيه شأن البارز، خاصّة في علم النّحو والصّرف، الّذي كانوا فيه أقطابًا لا يقلّون شأنًا عن أمثالهم من علماء الحديث، ... فكما ظهر منهم حفّاظٌ ومحدثون كبار، فقد ظهر منهم نحويّون عظامٌ، كان لهم بالغ الأثر في خدمة علم النّحو والمهتمّين به. واستطاع كثيرون منهم أنْ يتصدّروا بجدارة لمهمّة تدريس هذا العلم في العديد من مدارس بلاد الشّام ومساجدها وزواياه، وعبّروا في الكثير من الأوقات عن براعتهم وأهليّتهم الكاملة في التصدّي لهذه المهمّة النّبيلة، ممّا أضفى على بعضهم سَمَةَ الخلود والبقاء، وذلك من خلال المؤلَّفات الّتي خلّفوها"[1]. وشاءت الظّروف أنْ يقصِدَ المشرق من العلماء الّذين لم يستقر بهم المقام فيه أمثال الجُزولي الّذي استهوته مصر فأقام بها مدَّة لِتَعَلُّمِ العربيّة والنَّحو، وأمّا من النُّحاة الّذين طاب لهم المقام فيها حتَّى آخر أيّامهم:

– عبد الله بن مسلم القيروانيّ قَصَدَ المشرق فاستقرّ في بغداد لتدريس اللّغة والنّحو بالنّظاميّة.

– إبراهيم بن أبي حفاظ مهديّ الإمام المكناسيّ النَّحويّ (ت666هـ)[2] تَنَقَّلَ إلى المشرق فَحَلَّ بالشَّام والعراق للدِّراسة، وبعد أنْ تكوَّن ومَهَر اشتغل بالتَّدريس حتَّى أتاه اليقين.

– أبو بكر محمّد بن قاسم المُرسي الّذي تلقّى تعليمه الأوّل ببلده واشتغل، وبعدها توجّه إلى مصر فأقام بالقاهرة مدّة من الزّمن، وبعدها قَصَدَ دمشق التي استوطنها فانقطع للدِّراسة فيها حتّى بَرع ومَهر، ثمّ تصدّر للتّدريس بالنّاصريّة حتّى وفاته، ولكنّه لم يشتهر بالتّأليف لضيق وقته فقد عكف على تكوين الطَّلبة والتَّعليم الشَّفويّ[3] دون أنْ ينشغلَ بالتّصنيف.

– محمّد بن حسن بن محمّد بن يوسف الفاسيّ الشّهير بأبي عبد الله (ت656هـ) نزيل حلب في القرن السّابع الهجريِّ، أخذ العلم عن أهله بفاس، ثمّ تنقّل إلى المشرق فحلّ للوهلة الأولى بِمصر الّتي أقام بها مدّة، وبعدها حلَّ بحلب فأخذ عن جماعة، ولأنّ هذا النَّحويّ حريصٌ على

---

[1]– علي أحمد "بلاد الشّام في نظر المغاربة والأندلسيّين منذ بداية القرن السّادس حتَّى نهاية القرن التّاسع الهجريّ" مجلّة التّاريخ العربيّ. الرّباط: 2000م، ع15، ص11-45.

[2]– السيوطي، بغية الوعاة، مج1، ص435.

[3]– علي أحمد، الأندلسيّون والمغاربة في بلاد الشّام، من نهاية القرن الخامس وحتّى نهاية القرن التّاسع الهجريّ، ط1. 1989م، دار طلاس للدّراسات والتّرجمة والنّشر، ص197. بتصرّف

طلب العلم فقد استطاعَ الجَمْعَ بين العلوم الدِّينيَّة وبعض علوم العربيَّة بتفوّق فكثُر الانتفاع به وعظُمت شهرتُه[1]، كما تولّى في المدينة مشيخةَ الإقراء والتّدريس حتَّى أدركه الأجل.

– ابن معط الّذي عَكَفَ منذ وصوله على تدريس النّحو والأدب، وكان يُتابع دراستَه في الوقت نفسه في الحديث، أقام بدمشق ومصر واشتهر بحرصه على العطاء وإفادة النّاس، ولذلك ذَاعَ اسمُهُ بِقدر ذيوع أسماء المشارقة ولا سيما بعد نَظْم (الألفية) الّتي تركَت أثرًا كبيرًا في الدّرس النّحويّ بمصر والشّام.

– عبد الرّحمن بن عبد الله ضياء الدّين الغماري الزواوي (ت644هـ) الّذي درَّسَ النّحو في زاوية المالكيّة بِدمشق فاكتسب شهرة واسعة[2]، أشاد من ترجمَ له بجهوده اللّغويّة والنّحويّة في هذا القطر مع مشاركته الجيِّدة في الفقه المالكيِّ الّذي اشتغل به كثيرًا.

– سعيد بن محمّد بن سعيد المليانيّ المالكيّ النَّحويّ من علماء القرن الثّامن في المغرب الأوسط[3]، تنقّل هو كذلك إلى القاهرة وسمع بها من جماعة، ثمّ تحوّل إلى دمشق فانتصب فيها لِتدريس العربيّة حتَّى أدركه الأجل.

– شعيب بن محمّد بن جعفر التّونسيّ المعروف بابن مدين[4] (ت770هـ) الّذي برع في علوم كثيرة مثل الفقه والنّحو واللّغة والحساب مع معرفة جيِّدة بالمنطق، بَارَحَ بلده فَمَرَّ بِمصر الّتي أقام بها مدَّة ثمّ توجَّه إلى دمشق فَنَزَلَ حماة وجلس فيها لتدريس هذه العلوم حتَّى وفاته.

تِلْكُمُ إذًا بعض الأسماء الّتي خدمت اللّغة والنّحو في المشرق تعليمًا وتصنيفًا فكان لها الأثر المحمود، ممّا أحدث التّأثير والتأثّر بين علماء القطرين إلى درجة كبيرة، وحقَّقَ تواصلاً وثيقًا بينهم مثلما حدث مع الأندلسيِّين، بدليل أنَّ أكثر علماء المغرب الّذين استقرّوا بالديَّار المشرقيَّة صاروا أعلامًا وذَاعَ صِيتُهم؛ حيث كانوا موضعَ احترام وعناية عند الحكّام وعامّة النّاس وذلك بفضل ما خلّفوه للأجيال اللاحقة من مؤلّفات نحويّة ولغويّة حسنة، وكانوا يُعامَلُون على قدم المُساواة مع نظرائهم المشارقة. وما لَفَت انتباهي هو أنّ النُّحاة الّذين عاشوا واستقرّوا في المشرق كانوا أكثر تأليفًا، من أمثلة ذلك ابن معط الّذي صنَّف كتبًا كثيرة في الأدب واللّغة والنّحو. ولكن رغم قلَّة رحلات المغاربة إلى المشرق بعد أنْ بَرَزَ بينهم العلماء الّذين أصبحوا

---

[1]– شمس الدّين بن الجزري، غاية النّهاية في طبقات القرّاء، تح: ج. برجسُتراسر، ط1. بيروت: 2006م، دار الكتب العلميّة، ج2، ص109.

[2]– عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتّى العصر الحاضر، ص161– 162.

[3]– السيوطي، بغية الوعاة، مج1، ص588.

[4]– ابن حجر العسقلاني، الدّرر الكامنة في أعيان المائة الثّامنة، ج2، ص192.

يُنتِجون في النَّحو تدريسًا وتأليفًا، إلاَّ أنَّ هذا القطر لا يزال يستهوي أفئدتهم ما دام هناك الحجّ الّذي يتنقّلون لأجله، الأمر الّذي كان يُمكِّنهم لقاء علماء الحجاز وعلماء غيرها من المدن المشرقيَّة الّتي يمرُّون عليها. ولا يُنسى في هذا المقام فضل المشارقة الّذين أسهموا بِدورهم في نشاط الدَّرس النَّحويِّ ببلاد المغرب عامّة. وباختصار، هناك خريطة ثلاثية لتنقُّل العلماء تبدأ من المشرق إلى المغرب وُصولاً إلى الأندلس، والعكس كذلك إذْ يحدث التنقُّل من الأندلس باتّجاه المغرب ثمّ المشرق وبعدها إمّا العودة أدراجهم وإمّا الاستقرار للأخذ والعطاء.

2-2- التّيسير والاختصار: وصل النَّحوُ إلى المغرب في المرحلة الّتي اكتمل فيها ونَضُج على أيدي المشارقة، وأوّلهم سيبويه الّذي استطاع أنْ يُلِمَّ بِجميع قواعد النَّحو في مؤلّفه الشَّهير (الكتاب)، وتبِعه نُحاة آخرون في تأليف كتب عُدَّت من مصادر النّحو الأساسيّة. وحين بدأ المغاربة يشتغلون بهذا العلم تنبّهوا لنقطة مهمّة وهي أنَّ أكثر الكتب النَّحويَّة الّتي دَرَسُوها ودَرَّسُوها تتّسم بالتَّعقيد وكثرة التّأويلات، الأمر الّذي دفعهم إلى البحث عن طرائق جديدة لِتبسيط النَّحو وتيسيره بهدف تقريبه إلى أذهان صغار الطّلبة الّذين يصعب عليهم إدراك مسائله الكثيرة. ولكن جدير بالإشارة إلى أنَّ فكرة التَّيسير هذه لم تكن من ابتكار المغاربة، بل سبقهم إليها نُحاة المشرق الّذين دعوا بِدورهم إلى اعتماد طرائق مُبسّطة في تناول المسائل النّحويّة وعرضها، على أساس أنَّ المبتدئين وحتَّى المتقدِّمين ليس من السَّهل عليهم إدراك القواعد لِكثرة التّأويلات والمفاهيم المعقّدة نتيجة تأثّر النُّحاة بالعلوم الفلسفيَّة والمنطقيَّة واستعمال مصطلحاتها، مع العلم أنَّ أكثرهم اشتغل بهذه العلوم أيضًا إلى جانب النّحو واللّغة ومثال ذلك الرّمانيّ الّذي كان يمزج النَّحوَ بالفلسفة في كتبه، وبالتّالي لم يكن الطّلبة يفهمون عليه شيئًا، وقال أحدُهم بخصوص هذا "كنّا نَحْضُر عند ثلاثة مشايخ من النَّحويِّين، فمنهم من لا نفهم من كلامه شيئًا، ومنهم من نفهم بعضَ كلامه دون البعض ومنهم من نفهم جميع كلامه، فأمّا من لا نفهم من كلامهم شيئًا، فأبو الحسن الرّماني، وأمّا من نفهم بعضَ كلامه دون البعض، فأبو علي الفارسي، وأمّا من نفهم جميع كلامه فأبو سعيد السّيرافي"[1]، فإذا بالغ الرّماني في تعقيد النّحو فإنَّ السّيرافي لم يكن كذلك، حيث قدَّمه بكيفيّة مُبسَّطة حتَّى فَهِمَه جميعُ الطّلبة الّذين التفّوا حوله.

[1]- عبد الرّحمن أبو البركات بن الأنباري، نزهة الألباء في طبقات الأدباء، تح: إبراهيم السّامرائي، ط3. الأردن: 1985م، مكتبة المنار، ص234.

وفوق هذا كلّه، هناك من النُّحاة الّذين بحثوا في العلّة والعلل الثّواني والثّوالث، ممّا زاد من تعقيد النّحو وصعوبته، إذْ "اشتدّ ولعُ النّحاة بالجري وراء العوامل باحثين عن العامل والمعمول وغَرَقَ الدّارسون في متاهات من أمواج التَّأويلات والتَّقديرات والتَّعليلات والأقيِسة والتّمارين الافتراضيَّة"[1]. وتلك هي الأسباب الّتي جعلت العلماء يُدركون مدى حاجتهم إلى التّيسير بِقَصْد تقريب مباحث النَّحو للنّاشئة، فهذا خلف الأحمر يستنكر التَّطويلَ الّذي كثُرَ في كتب النّحو، ولذلك وَضَعَ مُؤلَّفًا مختصرًا سمّاه (مقدّمة في النَّحو) مُشيرًا إلى سبب تأليفه هذا الكتاب حيث قال "الباعث إلى تأليف هذه المقدّمة كما يرى مصنِّفُها أنَّه رأى أصحاب العربيّة قد استعملوا التّطويل وكثرة العلل، وغفلوا ما يحتاج إليه المتعلِّم المتبلّغ في النَّحو وهو يُقرِّرُ أنَّ الغاية من تعليم النّحو إصلاح اللِّسان في كتاب يكتب أو شعر ينشد أو خطبة تلقى أو رسالة تؤلّف، فمعرفة النَّحو وسيلة وليس غاية. وبِهذا حدَّدَ المُصنِّفُ الهدفَ التَّعليميَّ الّذي يُقصد من تعليم النّحو"[2]، فهو يدعو إلى تجنُّبِ الإسراف في التّفصيل والإكثار من العلل لِغرض تخفيف النّحو على الصِّغار وليس تعقيده لهم وإثقاله بالتّعليل الّذي لا حاجة لهم به. فمنذ ظهور هذه المقدِّمة تنبّه العلماء لحاجتهم الملحّة إلى مثلها، وبالتّالي توالت المختصرات، منها (مختصر) الكسائي و(مختصر) اليزيدي (ت202هـ) و(مختصر نحو المتعلِّمين) للجرمي (ت225هـ). وازدادت العناية بوضع المختصرات أكثر في عصر الجاحظ (ت255هـ) وهو أوّل من دعا إلى التّيسير والتّبسيط في تناول مسائل النّحو والصّرف، ويبدو أنّه لقيَ استجابةَ الكثير من العلماء وأئمة النَّحو لنصيحته فوضعوا ملخصّات ومختصرات للدَّارسين وبالأخصّ النّاشئة في النّحو، منها (الجمل) للزَجَّاجي و(الأوليّات) للفارسي و(اللّمع) لابن جنّي.

وأمّا الأخفش الّذي كان من النُّحاة الّذين دعاهم الجاحظ بِصفة خاصّة إلى تبسيط طريقته في تناول النَّحوِ فلم يأخذ الفكرةَ بعين الاعتبار مع أنّه الأكثر مبالغةً في تعقيده، حيث رَدَّ عليه بالقول إنَّه تعمَّد التّعقيدَ حتَّى لا يكون علمُه في متناول أيّ كان من الطّلبة، ولا يستغني عنه في شرحه وتبسيطه[3]. ومع ظهور الكتب المُختصرة فإنَّ تأليف المطوّلات لا يزال

---

[1]– حازم سليمان الحلي، "تيسير النّحو إلى عصر ابن مضاء القرطبي" مجلّة اللّسان العربي. الرّباط: 1996م، مكتب تنسيق التّعريب، جامعة الدّول العربيّة، الهلال العربيّة للطّباعة والنّشر، ع41، ص54.

[2]– محمّد إبراهيم عبادة، النّحو التّعليميّ في التّراث العربي، د ط. الاسكندرية: د ت، دار المعارف، ص41.

[3]– حفيظة يحياوي، إسهامات نحاة المغرب والأندلس في تأصيل الدَّرسِ النَّحويِّ العربيِّ خلال القرنين السّادس والسّابع الهجريين، ص159.

مستمرًّا حتّى وجد بعض النُّحاة أنفسهم يبحثون في أمور زادت من تعقيد النَّحو وغموضه حيث أكثروا من العلل والتّطويل اللّذين يُبعِدان النّاشئة عن تعلّم النَّحو وفهمه وليس العكس.

وفي ما يخصُّ اهتمام نُحاة المغرب بالدَّعوة إلى التَّيسير فقد رأوا بِدورهم حاجةَ الدَّارسين إلى حفظ القواعد عن ظهر قلب، ممّا دفعهم إلى وضع الشُّروح والمختصرات الّتي ترمي إلى تبسيط طرائق تَعَلُّمِ النَّحو وتعليمه، فقد كان من مميِّزات التَّعليمِ في المغرب والأندلس أيضًا "الجنُوح إلى التّبسيط، ولذلك عوامل متعدِّدة أبرزها إدراك العلماء لِوظيفة النّحو الأساسيّة المتمثّلة في تصحيح استعمال العربيّة نطقًا وقراءةً وكتابةً، وهذا لا يتحقّق بالأمالي المُطوّلة والمؤلّفات الضّخمة الّتي تنوء بحملها الأذهان المبتدئة، بل يكفي اليَسيرُ منها، ممّا يسهل حفظه وتمثّله"[1]، فالمؤلّفات المختصرة تَنْشُدُ التَّيسير، بِخلاف المُؤلّفات الموسّعة الّتي بالغت في تعقيد النّحو أكثر فأكثر، ولكن تَوَجُّه النُّحاة سواء المشارقة منهم أم المغاربة مع الأندلسيِّين إلى وضع المختصرات لا يدلّ على أنّهم قلّلوا من قيمة المُطوّلات الّتي يبقى الطّالب المتقدّم في تعلّم النّحو والعالم المختصّ في حاجة إليها.

وأوَّلُ محاولة في هذا النَّوعِ من التّأليف الّتي كانت من صَنيع المغاربة فترة الدِّراسة المقدّمة (الجُزوليّة) الّتي "جاءت موجزة غاية الإيجاز ومشتملة على كثير من قواعد النَّحوِ العربيِّ، خالية في الغالب من الأمثلة الموضّحة لِقواعدها"[2]، فقد استطاع صاحبُها أنْ يتناول القضايا النَّحويَّة بكثير من الدقّة والتّركيز على ما رآه ضروريًّا من أبواب النّحو وموادِه الّتي لا يستغني عنها الطّلبة، ممّا جعل لها مقامًا خاصًّا بين كتب النَّحو، وجعل المشتغلين بهذا العلم ينظرون إليها نظرةَ إعجابٍ واندهاشٍ نظرًا لِما احتوت عليه من أمور نحويّة مهمّة وهذا بِغضّ النّظر عمّا تعرّضت إليه هذه المقدّمة من انتقادات بِسبب شدَّة اختصارها الّتي جعلت الكثير من الدَّارسين والعلماء يسعون وراء بَيَانِ المصطلحات والمفاهيم المعقّدة الّتي شملتها، ويبقى هذا السَّبب الرّئيس أيضًا الّذي دفعهم إلى شرحها وتوضيحها، وحتّى الجُزولي نفسه قام بِشرحها أكثر من مرّة كما تقدّم؛ لأنّه مدرك مدى صعوبتها على النّاشئة، وأمّا عدا ذلك فقد كانت من أروع ما أُلِّف في زمان صاحبها، ولعلّ "من مظاهر الإبداع فيها ابتكار أسلوب الاختصار الفنّي، وبالرّغم ممّا يتعرّض له هذا الأسلوب من النّقد، فقد يكون من قبيل المكابرة

---

[1]– نعمان بوقرة، "قراءات تمهيديّة في تيسير تعليم النّحو عند المغاربة والأندلسيّين ابن حزم وابن آجرّوم والمحاظر الشّنقيطيّة أنموذجًا" أعمال ندوة تيسير النّحو. الجزائر: 2001م، منشورات المجلس الأعلى للّغة العربيّة، ص164.

[2]– عبد القادر رحيم الهيتي، خصائص مذهب الأندلس النّحويّ خلال القرن السّابع الهجري، ص206.

ما له من فضل في مساعدة الحُفّاظ على الاستحضار، وفي دفع الباحثين إلى التطلّع والشَّرح"[1]، فتبقى (الجُزوليّة) من بديع المختصرات الّتي ظهرت بالمغرب في القرن السّادس الهجريّ، ولقيت القبولَ لدى الطّلبة والعلماء في مغرب العالم الإسلاميِّ ومشرقه.

وكانت (الآجُرُّوميّة) أيضًا من أهمِّ المختصرات الّتي عرفها التّراثُ النّحويُّ في المغرب فقد أُلِّفَت بأسلوب بسيطٍ ومُيسَّرٍ، بعيد عن التَّعقيدات الّتي تقتضي الاختصار، الأمر الّذي جعل صاحبها يكتفي بِذكر قواعد النَّحوِ الأساسيَّةِ دون الإطالة في عَرْضِها وشَرْحِها، مع حَذْفِ بعض الأبواب الّتي استثقلها، وتجنُّب الإكثار من الشَّواهد تسهيلاً لِتذوّقها وحفظها على الطَّلبة. فقد امتازت المقدّمة (الآجرُّوميَّة) في جميعِها بِبساطة العبارة ووضوحِ الألفاظ إلى أبعد الدقّة، مع تجنُّب المُصنِّف الخوض في آراء النُّحاة المُتباينة، فقد اكتفى بعرض المواد النَّحويّة دون أنْ يذكرَ الآراء الّتي قيلت حولها، عكس (الجُزوليَّة) الّتي رغم إيجازها وهدفها التَّعليميِّ إلاَّ أنَّها تضمّنت كثيرًا من المصطلحات المنطقيّة الّتي عقَّدت قواعدها أكثر، كما كان الجزولي يُشير في بعض المواطن إلى آراء النُّحاة مع أنَّه لم يُنسب جميعها إليهم.

ولا أنسى في هذا المقام الثَّورةَ الّتي قادها الأندلسيُّون على النّظريات التّقليديّة الّتي عقّدت النّحوَ العربيَّ، ويأتي في مقدّمتهم ابن مضاء الّذي دعا إلى إلغاء نظرية العلل الثواني والثّوالث محتفِظًا بالعلل الأولى الّتي لا يستغني عنها النّحو؛ لأنَّ بِمعرفتها "تحصل المعرفة بالنّطق بِكلام العرب المدرك بالنّظر، فهي لِخدمة النّصِ اللّغويِّ ولِمعرفة صحّة نظمه، وطريقة نُطقِه فنطق العرب واستقراء كلامهم هما أساس العلل النَّحويَّة المقبولة"[2]، وكان قد سبقه إلى هذا ابن حزم – كما أشرت آنفًا- الّذي رفض بِدوره كثرة العلل الّتي أفسدت النَّحو وعقّدته. ولكن يبدو أنّ نُحاة المغرب لم يستجيبوا لرغبة هذا النَّحويِّ الأندلسيِّ في التّيسير ودعوته إليه، بِدليل أنّهم لم يتخلّوا عن نَحو الشُّيوخ الأوائل كالخليل وتلميذه سيبويه الّذي يقوم على نظرية العوامل.

واتبع المغاربةُ طريقةً أخرى في التّيسير وهي شرح الكتب المطوّلة والمختصرات الّتي وضعها نُحاة المشرق والأندلس وحتَّى المغاربة أنفسهم، والبداية مع كتب النّحو المشرقيّة الّتي انشغلوا بِشرحها والتّعليق عليها واختصارها، ولِهذه الطّريقة أثرٌ في تنمية النّحو العربيِّ عامّة والمغربيِّ خاصّة، وعرف هذا النّوع من التّأليف انتشارًا واسِعًا في بلاد المغرب وسَهُل تداوله

---

[1]– محمّد المختار ولد أبّاه، تاريخ النّحو العربيّ في المشرق والمغرب، ص270.

[2]– محمّد عيد، أصول النّحو العربيِّ في نظر النُّحاة ورأي ابن مضاء في ضوء علم اللّغة الحديث، ط4. القاهرة: 1989م، عالم الكتب، ص135.

بين المتعلّمين والطّلبة، حيث اكتست المختصرات أهميّةً كبيرةً بين هؤلاء فرغبوا في قراءتها وحفظها لِسهولتها وبساطة مَتْنِها، على عكس الكُتُب المطوّلة الّتي وجدوا صعوبةً في فَهْمِهَا "كان الرّجوع إلى المزيد من المختصرات يعني استحالة دراسة المُطوّلات الّتي تكاثرت وشمِلت مُختلف الفنون والعلوم"[1]، ولا شكَّ أنَّ ظهور الشُّروح والمختصرات أغناهم عن العودة إلى الكتب الموسَّعة الّتي تتطلَّب منهم بذلَ كثيرٍ من الجهد لِبيانِ غوامضِها وفَهْمِ مراميها، ولأنَّ دور المؤلّفات المُختصرة الأساسيِّ هو تبسيط قواعد النَّحو وتسهيلها للطّلبة والدَّارسين فقد تتالت الشُّروح والمُختصرات منذ العقود الأولى على عدد مُعتبر من الكتب الموسّعة، ممّا يؤكِّد أنَّ صعوبةَ النَّحو ليست بالشَّيء الجديد، والبداية مع كتاب سيبويه الّذي أجمع العلماء على أنَّه أوّلُ كتاب يوضعُ عليه عددٌ لا يُحصى من الشُّروح والتّعليقات بِسبب مسائله المُعقّدة على الطَّلَبة، وحتَّى النُّحاة أنفسهم وجدوا فيها من الغموض الّذي يتطلّب التّوضيحَ والبيان.

وللعلم قَلَّ اهتمامُ المغاربة بِوضع الشُّروح للوهلة الأولى، ولكن مع أوائل القرن السّادس الهجريِّ وما تلاه من قرون بدأ يتّسع أكثر فأكثر، حيث تزايد الميلُ في القرن السّابع إلى شرح المؤلّفات المُطوّلة والمعقّدة والتّعليق عليها، فقد "ازدهر في القرن السَّابع وما بعده، ما سُمِيَ بالمتُون، وكان الهدف من ظهورها حصر العلوم والفنون، في مؤلّفات جامعة، ومنظومات مُختصرة يسهلُ حفظُها، وتكون مادّةً للتّلقين والتّدريس، وقد رافق ذلك ظهور مؤلّفات تشرح ما هو في حاجة إلى شرح، وتُبيِّن ما أجمل من مقاصدها، وتُوضّح إشارتها، وقد تعدّدت الشّروح والتّعاليق حول مؤلّف واحد"[2]. وكان من نتيجة هذا التوجُّه العلميّ تكاثر جيل الشُّراح والمعلِّقين والمختصرين مقابل تراجع جيل المنظِّرين.

بالإضافة إلى أنَّ جهود المغاربة كانت قليلة أيضًا بالمقارنة مع الأندلسيِّين الّذين وضعوا شروحًا كثيرة على الكتب المشرقيَّة، مع شرحهم أشهر الكتب الأندلسيَّة في بلادهم، فقد كانوا هم كذلك مُولعين بِتأليف المختصرات وَوَضْعِ الشُّروح، وعلى هذا كانوا "يكتفون بِتعليم أولادهم في المراحل المتوسّطة كتب النّحو البسيطة أو المختصرة، بينما يتركون كتب كِبار النّحاة إلى

[1]- إبراهيم حركات، "الثّقافة وتبليغها بالأندلس في مرحلة النّضج والإخصاب (من القرن 4 إلى 6هـ)" مجلّة التّاريخ العربيّ، ع7، 1998م، ص108.

[2]- محمّد غنضور، فتح اللّطيف للبسط والتّعريف لمحمّد بن محمّد بن أبي بكر الدلائي – دراسة وتحقيق–، بحث دبلوم الدّراسات العليا في اللّغة العربية. جامعة سيدي محمّد بن عبد الله، كلية الآداب والعلوم الإنسانيّة بفاس: 1987- 1988م، ج1، ص المقدّمة أ.

مرحلة متقدّمة"[1]، فيبدو بِوضوح أنَّ دراسةَ النَّحوِ في الأندلس كانت تتمّ بطريقة تدريجيَّة مراعاةً لِمستوى الطّلبة المبتدئين والمتقدِّمين.

ويعدُّ كتاب سيبويه أوّل كتابٍ مشرقيٍّ اعتنى المغاربة بِشرحه وتوضيح ما بدا غامضًا فيه، ومناقشة آرائه والتّعليق على الآراء الّتي ساندوه فيها أو خالفوه، مع ذكرهم آراء المذاهب النّحويّة الأخرى والآراء الّتي توصّلوا إليها بفضل اجتهاداتهم، ولكن قبل أنْ يحتكّ هؤلاء بالكتاب كان نُحاة المشرق القُدامى قد عُنُوا بشرحه وتفسيره وكَشْفِ غوامضه وإيضاح مشكله فلم يتركوا شاردةً أو واردةً منه إلاَّ تعرّضوا لها[2]، ومن هؤلاء ابن السرّاج والسيرافي والفارسي وسِواهم. والأمرُ ذاته يَحدُثُ مع مغاربة العصر الوسيط الّذين قاموا بشرح هذا الكتاب والتّعليق عليه والتّنبيه على ما ورد فيه من ألفاظ غامضة ومسائل معقّدة. ومن النُّحاة المغاربة أذكر الجزولي الّذي قدَّم تعليقات عليه، كما لابن رُشيد الرّحالة شرحٌ عليه ولمحمّد المحلى الفهري تقييدات في الكتاب أيضًا وغير هؤلاء كثير. وهكذا يكون المغاربة من المهتمّين كثيرًا بالكتاب الّذي هَيْمَنَ على النَّحو، بالرّغم من أنّهم عرفوا كتابَ الكسائي قبل معرفتهم كتاب سيبويه الّذي شَغَلَ النَّاسَ، حيث لم يشغلهم كتابٌ آخر بِهذا القدر.

وإذا اهتمَّ نُحاة المغرب بِشرح الكتب المُطوَّلة فكذلك الأمر بالنِّسبة للمختصرات، وأوّلها كتاب (الجُمل) للزَجَّاجي الّذي يعُدُّ أشهر مختصر في النَّحو المشرقيِّ، وقد أشبعوه بحثًا ودراسةً ووضعوا حوله مؤلّفات كثيرة، تنوَّعت ما بين شرحه وشرح أبياته، والتَّعليق عليه وبيان المآخذ الّتي قيلت عنه، وأشار إلى هذا أحدهم قائلاً "أخبرني بعض فضلاء المغاربة أنَّ عندهم لكتاب الجمل مائة وعشرين شرحًا"[3]، ولكن لفظ المغاربة في هذا القول يشمل نُحاة المغرب والأندلس معًا، وليس جميعهم من المغارب الثّلاثة الأقصى والأوسط والأدنى ولا سيما إذا علمنا أنَّه منقولٌ عن شيخ من القرن الرّابع الهجريِّ، ففي هذه الفترة لم يكن علماء المغرب يشتغلون كثيرًا بالنَّحو كما في القرنين السَّادس والسَّابع الهجريَّيْن الفترة الّتي بلغَ فيها ذروتَه. ولعلّ أوّل كتاب مغربيٍّ مختصر تعلّق بِكتاب (الجمل) هو (الجزوليّة)، فهي إنْ زَعَم بعضُهم أنّها حواشي عليه

---

[1]- لحسن العوكاز، الدّرس النّحويّ في الأندلس: تأصيل في المنهج والاجتهاد، بحث دبلوم الدِّراسات العليا المعمّقة. قسم اللّغة العربيّة، جامعة القرويِّين بمراكش: 2001- 2002م، ص55.

[2]- محمود سليمان ياقوت، النّحو العربيّ، تاريخه، أعلامه، نصوصه، مصادره، د ط. الإسكندرية: 1994م، دار المعرفة الجامعيّة، ص85.

[3]- عفيف الدِّين عبد الله اليافعي، مرآة الجنان وعبرة اليقظان، وضع حواشيه: خليل المنصور، ط1. بيروت: 1997م دار الكتب العلميَّة، ج2، ص249.

فبعضهم الآخر استبعد أنْ تكون تعليقات وإضافات على (الجُمل)؛ لأنّها مقتضبة من أصول ابن السرّاج[1] نظرًا للصّلة الوثيقة الّتي تجمع بينها وبين (الأصول). ومن النُّحاة المغاربة الّذين قدّموا شروحًا وتعليقات على (الجُمل) أيضًا أذكر ابن معط، ابن بزيزة التونسيّ الّذي جاء شرحه كما سبقت الإشارة إليه في هذه الدِّراسة بِعنوان (غاية الأمل في شرح كتاب الجمل) وابن مرزوق الحفيد ولا شكّ هناك آخرون ممَّن لم تتمكَّن المصادر التّاريخيَّة من معرفتهم.

ويليه كتاب (الإيضاح) للفارسيّ الّذي تداوله العلماء والطَّلبة في جميع أنحاء المغرب طيلة العصر الوسيط وانتفعوا به كثيرًا، ولأهميَّته عكف النّحاةُ المغاربة على دراسته وشرحه والتَّعليق عليه، أمثال الجزولي الّذي قامَ بشرحِه جملةً وشرح شواهده مفردة، ومحمّد بن الحسن القلعي الّذي شرحَه بِاسم (نشر الخَفِي في مشكلات أبي علي) وسِواهما.

وكتاب (الأصول) لابن السرّاج الّذي حظِيَ كذلك بِعدد لا بأس به من شروح النُّحاة المغاربة كالجزولي ومكيّ بن أبي طالب صاحب شرح بِعنوان (الوصول إلى تذكرة الأصول لابن السرّاج في النَّحو)[2] وابن معط. ويوجد إلى جانب هذه الكتب، (المفصّل) للزّمخشري الّذي وُضِعت عليه عدّة شروح وتعليقات أيضًا، منها (تنبيهات) الجزولي وشرح ابن بزيزة التّونسي.

كما لنُحاة المغرب مؤلّفات في شرح الشّواهد النَّحويَّة، وهي مؤلّفات تُعنى باستخراج الشّواهد بهدف توضيحها وشَرْحِ غوامضها من الألفاظ والمعاني، وهذا النّوع من التّأليف معروف أيضًا منذ القرون الأولى من نشأة النّحو، فقد وضع القُدامى الكثير منها لأشهر الكتب المؤلّفة فيه، مثل شرح أبيات سيبويه للسّيرافي، وشرح شواهد كتاب سيبويه للمبرّد. وفي ما يخصّ علماء المغرب فقد كانت لهم اجتهادات في هذا التّأليف أيضًا، حيث صنّفوا مؤلّفات تناولت أبيات كتاب سيبويه وجمل الزَجَّاجي وغيرهما، ومنها شرح شواهد الإيضاح جملة ولفظًا للجزولي، وشرح أبيات سيبويه لابن معط.

ونالت مؤلّفات ابن هشام الأنصاريّ حظَّها من الاهتمام والشّرح الكافيَّين عند علماء المغرب، فهذا محمّد بن عبد الرّحمن الخطاب المارّ ذكره بين اللّغويِّين، وضع حاشية على (قطر النّدى)، وأخرى على (التّوضيح)[3] وتبعه آخرون ولا سيما من النُّحاة المتأخِّرين خارج فترة الدِّراسة. ولكنّ اهتمام المغاربة بالكتب المشرقيّة المذكورة لم يكن بقدر اهتمام الأندلسيِّين

[1]- محمّد المختار ولد أبّاه، تاريخ النّحو العربيّ في المشرق والمغرب، ص269.

[2]- القفطي، إنباه الرّواة على أنباه النّحاة، ج3، ص317.

[3]- شوقي ضيف، عصر الإمارات والدّول (ليبيا- تونس- صقلية)، ص70.

فقد أولَوها عنايةً كبيرة، وأَخُصُّ بالذِّكر النُّحاة الّذين وفدوا على المغرب واستقرّوا فيه، فقد قام كثيرٌ منهم بِشرحها واختصارها والتَّعليق عليها ونَظْمِها، منهم ابن أبي الرَّبيع الإشبيليّ السَّبتيّ صاحب تقييد على كتاب سيبويه ولكنّه مفقود، وشرح على (الجمل) باسم (البسيط في شرح جمل الزَجَّاجي) الّذي وضعه للمبتدئين ولذلك أقبلوا عليه فأخذوا بِحفظِه وتفهُّمه لأنَّه كتاب بسيط وميسَّر، ابتعدَ فيه عن متاهات التَّطويل والتَّعقيد[1]، وقد انتفع به الكثير من الطّلبة المغاربة الّذي درسوا عليه. وابن هشام اللّخميّ السّبتيّ[2] صاحب (المُجمَل في شرح أبيات الجُمل) و(نُكَت على شرح أبيات سيبويه للأعلم).

واشتغل نُحاة المغرب أنفسهم بِمؤلّفاتهم شرحًا وتعليقًا وتوضيحًا، وأوّلها (الجزوليّة) الّتي حظِيَت طيلة فترة الدِّراسة وبخاصّة في القرن السَّابع الهجريِّ باهتمام الدَّارسين والعلماء، وكنت قد أَشَرْتُ في الفصل السَّابق إلى أنَّ لهذه المقدّمة شروحًا من وَضْعِ المغاربة في العصر الوسيط ، حيث أبانوا ما بدا غامضًا من أبوابها مع إبداء وجهة نظرهم فيها، إمَّا بعرض الآراء النَّحويَّة الأخرى للتّرجيح أو التّعقيب أو الإضافة أو التّصحيح أو التّعليق عليها، وكان الجُزولي أوّل من قام بِشرحها نظرًا لِمَا أدْركَه فيها من صعوبة على الطّلبة والقرّاء، وتبِعه آخرون أمثال ابن معط والشّريشي ومحمّد بن عبد الرّحمن الخزرجي (ت691هـ).

كما وَضَعَ المغاربةُ على (الآجُرُّوميّة) شروحًا وتعليقات وتقييدات نثرًا ونظمًا في عصر صاحبِها وما بعده قبل نهاية فترة الدِّراسة، وبالأخصّ في القرن الثّامن حيث حظِيت بِأشهر شروح علماء المغرب في هذه الفترة، منها (الدرّة النَّحويّة في شرح معاني الآجرُّوميّة) لمحمّد بن يعلى الحسني وهو أوّل شرح لها، (الجواهر السنيّة في شرح المقدّمة الآجرُّوميّة) لعبد الله بن أبي القاسم الثعالبي الفاسي، كما لمحمّد الصبّاغ الخزرجيّ المكناسيّ (ت750هـ) شرحٌ عجيبٌ عليها[3]، وللمكُّودي شرحٌ آخر. ويوجد إلى جانبهم يوسف بن علي الجعراني المسلاتي الطرابلسيّ العالم النَّحويّ (كان موجودًا سنة 820هـ) الّذي قدَّم بِدوره شرحًا عليها ونَظَمَها نظمًا

[1]- ابن أبي الرّبيع الإشبيليّ السّبتي، البسيط في شرح جمل الزجاجي، السّفر1، باب التّحقيق، ص157.

[2]- ابن الآبار، التّكملة لِكتاب الصّلة، ج2، ص158. والسيوطي، بغية الوعاة، مج1، ص48- 49.

[3]- عبد الرّحمن بن محمّد السّجلماسي، إتحاف أعلام النّاس بِجمال أخبار حاضرة مكناس، تح: علي عمر، ط1. القاهرة: 2008م، مكتبة الثّقافة الدِّينيَّة، ج3، ص671- 674.

بديعًا[1]، وكذلك ابن منصور البجائيّ المارّ ذكره بين شُرّاحها. فلا شكَّ أنَّ أسلوبَها المُيسَّر من أهمِّ الأسباب الّتي جعلت العلماء يهتمُّون بها كثيرًا ويتنافسون على شرحها ونَظْمِها وإعرابها.

وأذكر إلى جانب هذه الكتب، مُصنّفات ابن مالك الّتي نالت بِدورها من اهتمام نُحاة المغرب في العصر الوسيط الشَّيء الكثير، منهم ابن هانئ اللّخميّ الّذي وضع شرحًا على (التّسهيل) وانتفع به النّاس كثيرًا وتنافسوا عليه، وأبو القاسم الشّريف (ت760هـ) من أبناء المغرب الّذي قدَّم شرحًا على (التّسهيل)[2]، ولابن النقّاش الدكالي (ت763هـ) شرحان على (الألفيّة) و(التّسهيل)، وللمقري التّلمسانيّ شرحٌ كذلك على (التّسهيل).

ولا يُنسى المكُّودي الّذي وضعَ شرحًا على مقصورة ابن مالك في المقصور والممدود وشرحين على (الأَلفيَّة) في حجم كبير وصغير، ولكن لم يبق منهما سِوى الشَّرح الصّغير كما مرَّ الحديث، ولابن مرزوق الحفيد شروح أيضًا على (التّسهيل) و(الأَلفية). ويليه أحمد بن الحسن القسنطيني الّذي عرفت كذلك أنّه قام بِشرح (الأَلفية) في مؤلَّف سمّاه (آية السّالك إلى ألفية ابن مالك). ومن شُرّاح (الأَلفية) في هذه الفترة أيضًا إبراهيم بن فائد الزواوي صاحب الفضل الجليل في نشاط الدَّرس النَّحويِّ ونُضجِه دراسةً وتعليمًا، حتَّى إنَّه عُدَّ في زمانه أشهر علماء المغرب الأوسط الّذين عُنُوا بهذا الدَّرس في بجاية بعد ابن معط[3]، ولأبي عبد الله محمّد بن غازي العثماني المكناسيّ الفاسيّ (ت919هـ) من نُحاة فترة الدِّراسة (حاشية لطيفة على الألفية) نَبَّهَ فيها على مواضع من كلام المُرادي في (توضيح المقاصد والمسالك بِشرح ألفية ابن مالك)[4]. وحظِيَت كذلك من مؤلّفات ابن مالك باهتمام علماء المغرب (لامية الأفعال) الّتي أقبلوا على فهمها وشرحها وتوضيح غامضها من الألفاظ والمعاني، وأذكر منهم محمّد بن يحي الباهلي البجائي (ت744هـ) وابن العبّاس التلمسانيّ (ت871هـ)[5]. ولِشدَّة تعلّق المغاربة بحفظ متون النَّحو وبعض الشّروح بِما فيها ألفية ابن مالك فقد كان "ابن مريم يُخبِرُ عن محمّد الحاج

[1]- الطّاهر أحمد الزّاوي وناصر الدّين محمّد الشّريف، الجواهر الإكليليّة في أعيان علماء ليبيا من المالكيّة، وبه ملحق الفتاوى الزاوية على مذهب السّادة المالكيّة، ط1. الأردن: 1999م، دار البيارق للطّباعة والنّشر والتّوزيع ص138.

[2]- عبد الله كنون، النّبوغ المغربيّ في الأدب العربيّ، ج1، ص221.

[3]- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثّقافيّ من القرن العاشر إلى الرّابع عشر الهجريّ (16- 20م)، ط2 (منقّحة). الجزائر: 1985، الشّركة الوطنيّة للنّشر والتّوزيع ج1 ص79.

[4]- أحمد بابا التّنبكتي، نيل الابتهاج بِتطريز الدّيباج، ص581- 583.

[5]- عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتّى العصر الحاضر، ص77.

المناوي (ت955هـ) أنَّه كان يقول ألفية ابن مالك عندنا كخبر الجلوس، فهي عنده محفوظةٌ معروفة يتحدّثون بها في المجالس ويتنادرون"[1]. وتنبغي الإشارة إلى أنَّ نُحاة المغرب لم يكونوا يكتفون بشرح الكتب المُطوّلة منها والمُختصرة وتوضيحها، بل يُعزِّزون شروحهم بالتّعقيب عليها ونقدها.

وفي جميع الأحوال، يعود وَضْعُ المختصرات إلى العقود الأولى من نشأة النّحو وبالأخصّ مع ظهور كتاب سيبويه، حيث بَدَت فكرة التَّيسير تتجلَّى شيئًا فشيئًا إلى حين مجيء نُحاة المغرب والأندلس الّذين كان لهم دورٌ مهمٌّ وعظيمٌ في تبسيط طرائق تعليم النَّحو والصّرف. ولكن إن افتتن معظم علماء المغرب في العصر الوسيط في وضعِ الكثير من المختصرات والشُّروح، فإنَّ ابن خلدون لم يوافق عليها، حيث تنبَّه لِقلّة فائدتها في تعليم النّاشئة وتحقيق الغاية المرجوّة منها، وقد ذكر هذا في الفصل السّادس والثّلاثين من مقدّمته (في أنَّ كثرة الاختصارات المُؤلَّفة في العلوم مخلّة بالتّعليم) قائلاً "ذهب كثير من المتأخِّرين إلى اختصار الطّرق والأنحاء في العلوم يولعون بها ويدنون منها برنامجًا مختصرًا في كلّ علم يشتمل على حَصْرِ مسائله وأدلّتها باختصار في الألفاظ وحشو القليل منها بالمعاني الكثيرة من ذلك الفنّ. وصار ذلك مُخلاً بالبلاغة وعسيرًا على الفهم. وربّما عمدوا إلى الكتب الأمهّات المطوّلة في الفنون للتّفسير والبيان فاختصروها تقريبًا للحفظ كما فعله ابن الحاجب في الفقه وأصول الفقه وابن مالك في العربيّة والخونجي في المنطق وأمثالهم. وهو فساد في التَّعليم وفيه إخلال بالتَّحصيل وذلك لأنَّ فيه تخليطًا على المبتدئ... ثمّ فيه مع ذلك شُغلٌ كبيرٌ على المتعلّم بِتتبُّع ألفاظ الاختصار العويصة لِلفَهم بِتَزاحُمِ المعاني عليها وصعوبة استخراج المسائل من بينها؛ لأنَّ ألفاظ المختصرات تجدها لأجل ذلك صعبة عويصة فينقطع في فهمها حظّ صالح من الوقت"[2]، يُفهم من هذا القول أنَّ كتب المختصرات والشُّروح تُضلّل الطّلبة في تعلّمهم أكثر ممّا تُعينهم؛ لأنّ الاختصار الّذي قُدّمت به جعل مادَّتَها صعبة التّناول والفهم أحيانًا، ممّا يدفع المشتغلين بها إلى شرحها والتّعليق عليها والسَّعي لتوضيح غوامضها أكثر وغير ذلك، مع أنَّ غاية واضعيها هي التّبسيط وتحقيق الفهم، ومثال ذلك ألفيّة ابن معط الّتي بالرّغم من سهولة عباراتها ووضوح ألفاظها إلاَّ أنَّها نالت من الشُّروح ما يكفي، وكذلك الأمر

[1]- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثّقافيّ من القرن العاشر إلى الرّابع عشر الهجريّ (16- 20م)، ج2 ص164.

[2]- ابن خلدون، المقدّمة، ص471.

بالنِّسبة لألفيّة ابن مالك الّتي كثُرت عليها الشُّروح والحواشي والتَّعليقات كثرة مفرطة. ولكن نظرًا لِكثرةِ شروح علماء المغرب على كتب النَّحو هناك من قال إنَّ جهودَهم تدور في فَلَكِ التَّقليد ممّا غَيَّبَ الإبداعَ والتميُّز بجهود خاصَّة بهم. وللعلم إنَّ الشَّكوى من تَعْقِيدِ النَّحو قائمةٌ منذ المراحل الأولى من تأسيسه ونُضجه وهي مستمرَّةٌ إلى اليوم، ودليل ذلك الدَّعوة إلى التَّيسير النَّحويِّ من بعض علماء اللّغة والنّحو المعاصرين في كتبهم ودراساتهم، أمثال إبراهيم مصطفى صاحب كتاب (إحياء النَّحو)، وشوقي ضيف الّذي ألَّفَ كتابًا باسم (تجديد النَّحو) كما لرشاد دار غوث المغربيّ كتاب في التَّيسير بِعنوان (تيسير اللّغة العربيَّة)، ولعبد السّتَّار الجواري كتاب (نحو التَّيسير)، وفتحية توفيق صاحبة كتاب (التَّيسير في النَّحو والصَّرف).

وبرز من نُحاة المغرب في النّظمِ النّحويِّ، ابن معط الّذي كان أكثرهم اشتغالاً به ليس في النّحو وحسب، بل في علوم أخرى أيضًا، فقد نظم قصيدةً في القراءات والعروض، مع نَظْم (صحاح) الجوهري في اللّغة، و(الجمهرة) لابن دريد، وأمّا في النّحو فله (الأَلفية) الّتي اشتهر بِها، نَظَم فيها جميع أبواب النّحو والصّرف بِشكل شامل ومتكامل لم يسبق إليه من قبل. ولكن لا يُنسى أنَّ النَّظم في النَّحو عرفه العلماء الأوائل قبل نُحاة المغرب عامّة، إذْ تعود بداياته إلى القرن الثّاني الهجريِّ وكان للخليل أقدم قصيدة في النَّحو ذات ثلاثة وتسعين ومائتي بيت من البحر الكامل التّام، حيث ضمّت معظم أبواب النَّحو ومواده، ذكرها خلف الأحمر في مختصره (مقدّمة في النَّحو). ولكن لم تأخذ منظومةُ الخليل حَقَّها في الظّهور ولم تشتهر في السَّاحة النَّحويَّةِ شهرةَ غيرها من المنظومات الأخرى الّتي جاءت بعدها في عصور لاحقة[1]، وربّما لِهذا سببٌ وجيهٌ وهو أنَّ اهتمام العلماء بالنّظم النَّحويِّ لم يكن لافتًا للانتباه في القرون الأولى، إلى أنْ جاء العصر الّذي برز فيه كِبار النّحاة في المغرب والأندلس كابن معط وابن مالك اللّذين نَظَمَا الأَلفيتَيْن الشّهيرتَيْن، ومن حينها عرف النُّحاة المنظومات والأراجيز النَّحويَّة، وشاع الحديثُ عنها فظهرت منظومات أخرى في ما تلا ذلك من قرون. وإذا لم يعرفْ بعضُ الباحثين إنْ كان هناك منظومات بين نَظْم الخليل لِقصيدته وبُرُوز منظومات النُّحاة المتأخِّرين، فآخرون رأوا أنَّ في هذه الفترة وُضِعت منظومات وآراجيز ومنها أرجوزة أحمد بن منصور اليُشكري الّتي لم يَسمع بها إلاَّ القليل، فهذا أبو حيّان أَوْرَدَ في تذكرته نظمًا من هذه الأرجوزة الّتي احتوت على ألفين وتسعمائة وأحد عشر بيتًا، تناول فيها مسائل الخلاف في ما

[1]- الخليل، المنظومة النّحويّة، ص32.

يُقارب مائتي بيت[1]، ثمَّ هناك أرجوزة لأبي محمّد الحريري (ت516هـ) صاحب (المقامات) سمّاها (مُلحة الإعراب)، وهي أشهر المنظومات النَّحويَّة الّتي نالت إعجابَ العلماء والطَّلبة فأقبلوا على دراستها وتدريسها، ولكن حتَّى وإنْ سبق الخليل واليُشكري ابنَ معط في النَّظم المختصّ في النّحو إلاَّ أنَّ ألفيَّته تبدو مختلفة عمّا نُظِم قبلها، فقد اتّخذت شكلاً جديدًا من حيث إنّها جاءت مطوّلة وأكثر بساطةً وأقلّ حشوًا أيضًا على غِرار (مُلحة الإعراب)[2]، وهو الأمر الّذي جعل (الألفيّة) تلقى القبولَ لدى الدَّارسين والعلماء حتَّى صارت من أكثر المنظومات الّتي تناولوها بالدِّراسة والتَّدريس والشَّرح مقارنةً بِما سبقها.

ويعدُّ ابن معط إذًا الرّائد الحقيقيّ لهذا النّوع من المنظومات، حيث استطاع بِفضل ألفيته أنْ يُقدِّم قواعد النّحو والصّرف بطريقة مُيسَّرة حتَّى تأثَّر به كثير من العلماء، فعلى خطواته سار ابن الحاجب وابن مالك في النَّظم النَّحويِّ، وبالأخصّ ألفيّة هذا الأخير الّتي نالت من اهتمام العلماء ما فاق التصوُّرات، حيث أقبل النّاسُ على حفظها ومعرفة أحكامها وشرحها ووضع حواش على شروحها والتّعليق عليها وفَهْمِ مراميها وإعرابها كإقبالهم على (الكتاب) و(الجُمل) و(الإيضاح) وسِواها، ومن شرّاح ألفية ابن مالك، ابن عقيل، والأشموني (ت900هـ) وبدر الدِّين الرضي الغزي (ت1000هـ) وغير هؤلاء كُثُر، ولابن مالك (الكافية الشّافية) الّتي نظمها قبل (الألفيّة) في أقلّ من ثلاثة آلاف بيت، ولكن لم تشتهر هذه الأرجوزة كاشتهار (الألفيّة) مع أنّها عبارة عن ملخصّ لها لا أكثر. وأذكر بِخصوص شروح هذه (الألفيّة) أنَّ شرح المكُّودي أشهر شروحها، فقد جاء مختصرًا سهل التّناول والفهم، تَميَّزَ باليُسر الّذي لم يجده الطّلبة في غيره، حيث راعى الاختصارَ في عَرْضِ أبوابه النَّحويَّة والصَّرفيَّة وتوضيح الألفاظ الغامضة والمُعقّدة بكثير من المعاني الدّالة، ولقِيَ هذا الشَّرح شهرةً واسعةً، وأثنت عليه كتُب التّراجم والتّاريخ فتنافس الطّلبة والعلماء على دراسته وشرحه وشرح شواهده الشّعريَّة، حتَّى إنَّه كثيرًا ما جرى التّعريف بالمكُّودي بالقول إنّه صاحب شرح على (الألفيَّة).

وبرز إلى جانب هؤلاء نُحاة آخرون اشتغلوا بالنَّظم النَّحويِّ، أمثال المكُّودي صاحب نَظْم في المعرّب من الألفاظ، وآخر في التّصريف[3] بِعنوان (البسط والتّعريف في نظم التّصريف) وهو مؤلَّفٌ مختصرٌ في تسعة أبيات وأربعمائة، يضمّ تسعة أبواب متفرّعة إلى فصول تناولت

[1]- محمّد المختار ولد أبّاه، تاريخ النّحو العربيّ في المشرق والمغرب، ص290.

[2]- ابن معطي، الفصول الخمسون، ص32- 33.

[3]- ابن القاضي، جذوة الاقتباس في ذكر مَن حلّ من الأعلام مدينة فاس، ج2، ص403.

مجمل مسائل التّصريف مثل أبنية الأسماء وتعرّض فيها لأوزانها المجرّدة الثلاثيّة والرباعيّة والخماسيّة، والأفعال المجرّدة والمزيدة، مسألة الحروف الأصليّة والزّوائد، الإبدال والإعلال والإدغام وغيرها، وَوُضِعت على هذه الأرجوزة أيضًا شروحٌ حسنة، مثل شرح عبد الكريم الفكّون (ت1073هـ) سمّاه (فتح اللّطيف في شرح أرجوزة المكُّودي في التّصريف)، وشرح آخر لأبي بكر المرابط الدّلائي من أبرز العلماء بالمغرب في القرن الحادي عشر بِعنوان (فتح اللّطيف للبسط والتّعريف)، وهو أشهر شروح هذه الأرجوزة. وقيل إنّ لإبراهيم بن فائد المارّ ذكره أرجوزةً في النّحو بلغت مائة وخمسة أبيات[1]، قدَّمها بأسلوب مُيسّر وبسيط من أجل إفادة النّاشئة وإعانتهم على حفظ القواعد وفهمها.

2-3- **الطّابع التّعليميّ:** ثمّة ميزة أخرى للنَّحوِ المغاربيِّ بدت لي ممّا تقدَّم وهي أنَّ أكثر نحو المغاربة جاء تعليميًّا ويُقصدُ بالنَّحو التَّعليميِّ "ذلك النّحو الّذي يهتمّ بالقواعد الأساسيّة الّتي يستعملها المتكلّم، بدءًا من اللّفظة المفردة وصولاً إلى الجمل فهو لبُّ الدِّراسات الوظيفيّة"[2]، فهذا النّوع من النّحو يهتمُّ بِعَرْضِ المسائل العامّة، دون الدّخول في الجزئيّات الّتي تزيد من تعقيده. ولأهميَّة النّحو التّعليميّ اهتمّ نُحاة المغرب بالتّأليف فيه، فظهرت مؤلَّفات تعليميّة مهمَّة، مثل (الجُزوليّة) الّتي اتّسمت بهذا الطابع فقد كانت كتابًا تعليميًّا متميّزًا وجد فيه العلماء والطّلبة غايتَهم على السَّواء، بدليل أنَّ صاحبَها حريصٌ منذ ألَّفها على شرحها وتهذيبها والزيادة عليها والنّقص منها لتسهيل قواعدها على الطّلبة وبِخاصَّة النّاشئة. وكذلك ألفية ابن معط الّتي قدَّمها نظمًا لِتحقيق هدفٍ تعليميٍّ محض ولذلك قدَّمها بأسلوب بسيط، بالإضافة إلى استعماله الأسلوب التّعليميِّ الّذي اعتمده في تناول كثير من المسائل النَّحويَّة كقوله (إنْ قلت، تقول، قُلْ وغيرها)، ومن أمثلة ذلك أذكر الأبيات الآتية من باب القسم[3]:

تقولُ: واللهِ وأقسمت بِه   وقَدْ تَقولُ: اللهَ حال نـصبه

وَقُـل: هألله واللهِ وجُرَّ   إذْ نَابَ ها والهمزُ عن حرف الجرّ

ويوجد إلى جانبها كتاب (الفصول الخمسون) الّذي يُعدُّ كتابًا تعليميًّا أيضًا كما صرَّح صاحبُه في المقدّمة "فإنَّ غرضَ المبتدئ الرَّاغب في الإعراب حصرتُه في خمسين فصلاً

---

[1]- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثّقافيّ، من القرن العاشر إلى الرّابع عشر الهجري (16- 20م)، ج1 ص78.

[2]- صالح بلعيد، النّحو الوظيفيّ، د ط. الجزائر: 1994م، ديوان المطبوعات الجامعيّة، ص7.

[3]- ابن معطي، الدرّة الألفية، ص25.

يشتمل عليها خمسةُ أبواب"[1]، غير أنَّ بعض شرّاح (الفصول الخمسون) أنكروا على ابن معط هذا الهدف وتلك البساطة الّتي تحدَّث عنها؛ لأنَّ فيها من القواعد الّتي يصعب على الطَّالب المبتدئِ فهمها بِسبَب كثرة الشَّواهد والشُّروح وغير ذلك.

كما تميّزت (الآجرُوميّة) بِهذا الطَّابع التَّعليميّ، وقد دَلَّ ذلك على رغبة مُصنِّفِها في الدّعوة إلى تيسير النّحو بجَمعِ مسائله وتناوُلِها بشكلٍ يُعين المبتدئين على حفظها وفهمها، وهو الأمر الّذي دفعه إلى إلغاء بعض الأبواب والاقتصار على أبوابه الأساس الّتي اعتبرها اللّبنة الأولى لتعليم قواعد النّحو، علمًا أنّ هناك من العلماء الّذين انتقدوه بِسبب إلغائه بعض الموضوعات؛ لأنَّ التّيسير لا يعني التَّقليل من الشّواهد أو من التّعليقات الضّروريّة ولا الاستغناء عن بعض الموضوعات كالتّنازع والاشتغال، فالتّيسير عبارة عن عرض مبسّط لمباحث النَّحو، ممّا يُساعد الطّلبة على استيعابها وحفظها.

وهناك شرح المكُّودي على متن (الآجُرُّوميَّة) الّذي يبدو تعليميًّا أيضًا، فهو شرحٌ بسيطٌ مشتملٌ على القواعد الّتي حوتها (الآجرُّوميَّة) "وهي إنْ كانت سهلة المأخذ والعبارة واضحة المثل والإشارة تحتاج إلى التّنبيه على مقفلها وتنقيح إشاراتها ومثلها فوضعنا عليها شرحًا صغير الجرم كثير العلم لا يملّه النّاظر ولا يذمه المناظر"[2]، واعتمد صاحبه على أمثلة كثيرة في توضيح المسائل دون التعرّض لآراء النُّحاة ومناقشتها حتّى إنّه لم يكن يُصرِّح بآرائه وترجيحاته. كما تميّز شرحُه على (الألفية) بِطابع تعليميٍّ بارز "فشرحُ المكُّودي، مع خلوِّه من الإطناب المملّ، وتجافيه عن الاختصار المخل، امتاز بِحسنِ التّرتيب، وبديع التّصريف وصنعة التّعليم، جمع فيه بين كشف قناع المتن وإعرابه فهو للمتعلّم هدايةٌ يستفيد به من شَرَعَ في طَلَبِ علم النَّحو والصّرف، ويستحسنه من حَصَّلَ جملة من العلم، فإذا أراد أن يفهمَ مسألةً من مسائل النّحو والصّرف طَالَعه وشرب منه حتَّى يَرْتَوي"[3]. تناول المكُّوديُّ القواعد النَّحويَّة والصَّرفيَّة بأسلوبٍ موجزٍ ومبسَّطٍ يُناسب الهدفَ التّعليميَّ الّذي صرّح به، ممّا دفعه إلى الاستعانة بكثير من الأمثلة والشَّواهد عند شرحه (الألفيّة) وتوضيحها، وهو الأمر الّذي جعل شرحَه هذا سهل التّناول وسريع الفهم، فحتَّى وإنْ سبقه نُحاة آخرون إلى شَرْحِ (الألفيَّة) إلاَّ أنَّ

[1]- ابن معطي، الفصول الخمسون، ص149.

[2]- عبد الرّحمن المكّودي، شرح المكّودي على المقدّمة الآجرّوميّة في علم العربيّة (وبهامشه رسالتان لأحمد زيني دحلان)، ط2. مصر: 1936م، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ص2.

[3]- المكُّودي، شرح المكّودي على ألفيّة ابن مالك، ج1، ص57.

شرحَه هذا كان أكثرها يُسرًا في الألفاظ ووضوحًا في المعاني وحظًّا من الانتشار مقارنة بِالشَّرح الَّذي قدَّمَه على (الآجُرُّوميّة)، حيث عني الدَّارسون بالأوَّل عناية خاصّة نظرًا لِما تضمَّنه من حقائق علميَّة مهمّة لم يجدوها في غيره من الشُّروح. كما اعتمد المكُّودي في شرحه الأسلوبَ التَّعليميّ الّذي يقوم على السّؤال والجواب وتوجيه الكلام إلى القارئ.

وإلى هنا يتأكَّد دور علماء المغرب في خدمة النّحو منذ عرفوه عن طريق أوّل كتاب دخل بلادهم وهو مختصر الكِسائي ثمّ تلاه كتاب سيبويه، ومع الوقت بعد هَضْمِهِم للإنتاج النَّحويِّ القادِم من المشرق كان لهم إنتاجُهم المحليّ الّذي برعوا فيه واشتهروا، فصار هناك من المؤلّفات والجهود الّتي جعلتهم يتميّزون ويُذكرون إلى جانب أعلام النَّحو المشرقيّ. أضف إلى ذلك أنَّه بفضل نُحاة المغرب أدرك علماء كثيرون أهميَّة وضع المُتون والمختصرات الّتي تتنافى مع التَّعقيد وكثرة التَّأويلات، وتعمل على تيسير طرائق عرض أبواب النّحو والصّرف لِيسهل حفظها وفهمها على الطّلبة. وبِهذا كان للمغاربة النّصيبُ الأوفر في تنمية النَّحو التَّعليميِّ والمُيسّر بعدما أسّس له المشارقة منذ القرون الأولى من نشأة النَّحو عامّة وذلك من خلال ما ألّفوه (النّحاة المغاربة) من كُتُب مختصرة وشروح هادفة إلى تبسيط النَّحو وتيسيره. كما حدّدوا الأهداف المرجوّة من مؤلّفاتهم الّتي كانت بِمثابة الكتب التّعليميَّة الّتي تداولها الأساتذة والطّلبة ليس في المغرب فقط، بل في المشرق أيضًا، فهذا ابن معط صَرّحَ في (الألفية) عن دوافع تصنيفه لها، وكذلك الأمر بالنِّسبة لابن آجرُّوم والمكُّودي.

2-4- **تنوّع الاستشهاد اللّغويّ عند المغاربة:** لا شكَّ أنَّ الاستشهادَ عند نُحاة المغرب في العصر الوسيط لن يكون مُخالِفًا لاستشهاد المشارقة في نحوهم، حيث جعلوا من القرآن الكريم المصدرَ الأوّل للاحتجاج باعتباره كتاب الله ﷻ الّذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وقد أجاز النُّحاة الأوائل جميع قراءاته الّتي وصلتهم على عدَّة حروف، المتواترة منها والشَّاذة. ثمّ يليه في المرتبة الثّانية كلام العرب الّذي اعتبروه رافدًا مهمًّا من روافد الاحتجاج عندهم، وهو ما نطق به الفصحاء الّذي يوثق بهم ويُطمأن إليهم، وقد حدّد العلماء الاحتجاج به بِنهاية القرن الرّابع الهجريِّ بالنِّسبة للبدو، ونهاية القرن الثّاني للحضر، مع أنَّ الشّعراء الّذين يُحتجُّ بِلغتهم قُسِّموا إلى أربعة أقسام، الجاهليّون والمخضرمون والإسلاميّون والمولّدون، ولكن إنْ حصل الاتّفاق بين علماء اللّغة والنّحو على جواز الاستشهاد بالأقسام الثّلاثة الأولى، فهناك اختلاف بين بعضهم في الاحتجاج بأشعار المولّدين والمتأخِّرين.

وللإشارة تكون الشَّواهد الشِّعريَّة أحيانًا أوّلَ مصادر الاحتجاج حتّى وإنْ كانت الآيات القرآنيّة أَعْلَى المصادر مَرْتبةً.

أمّا الحديث النبويّ والمتمثِّل في أقوال محمّد ﷺ وأقوال الصّحابة ﷺ، فقد أثار موضوع الاستشهاد به جدلاً كبيرًا بين علماء اللّغة والنّحو، مع أنَّ الرَّأيَ السَّائد هو أنَّ أئمة النّحو المتقدِّمين في البصرة والكوفة ما كانوا يحتجّون بالحديث البتّة، وهذا استنادًا إلى قول أبي حيّان في كتابه (شرح التّسهيل) ومتابعة له، مُصرّحًا أنَّ النُّحاة الأوّلين استبعدوا الاحتجاج به كأبي عمرو بن العلاء وعيسى بن عمر والخليل وسيبويه من البصريِّين والكسائي والفرّاء من الكوفيِّين، ثمّ تبِعَهم على هذا النهج المتأخِّرون من نُحاة البصرة والكوفة وبغداد وسِواهم. ولكن قوله ذلك وهمٌ منه؛ لأنَّه هو بِنفسه استشهد بالحديث في مواضع كثيرة في تفسيره (البحر المحيط)[1]، وكذلك الأمر مع ابن الضّائع الّذي ذَكَرَ في (شرح الجمل) أنَّ النُّحاة لم يستندوا إلى الحديث في إثبات صحَّة القواعد. فما بَالُنا بالنُّحاة الأوائل الّذين ذكرهم فلا شكّ أنّهم استشهدوا بِكلام النبيّ ﷺ وحتَّى بأقوال الصّحابة ﷺ؛ لأنّ محتوى مؤلّفاتهم يُبيِّنُ العكس تمامًا حتَّى وإنْ كانت بِنسبة قليلة مقارنةً بكلام العرب، حيث قيل عن سيبويه إنَّه استشهد بِتسعة أحاديث في كتابه وهناك من يقول سبعة وآخرون ثمانية. ولكن اللافت للانتباه أنَّه لم يكن يرفعها إلى الرَّسول ﷺ ولا مرّة واحدة، بل احتجّ بها على أساس أنّها من كلام العرب، والفرّاء الّذي بلغت مواضع استشهاده بالحديث في كتابه (معاني القرآن) ثمانية وستين موضعًا تُمثِّل خمسة وثلاثين منها أحاديث الرّسول ﷺ القوليّة وثلاثة وثلاثين من الأحاديث الفعليّة، وابن السرّاج استشهد بستّة أحاديث في الأصول، والزجَّاجي بأربعة أحاديث في (اللامات) وبحديثيْن في (الجُمل)، ولا يُنسى المبرد الّذي صرَّحَ بالأحاديث الّتي استدلّ بها في (المقتضب)[2]، وهناك آخرون احتجّوا به أيضًا لا يسع المقام لِذِكرهم.

وإذا افترض أكثر الباحثين أنَّ القدامى لم يحتجُّوا بِشيءٍ من الحديث لسبب ما فلابدّ من القول إنَّ هناك من قال العكس بالنّظر لِما سَبَق وأكّده آخرون في دراساتهم، فثمّة نُحاة كُثُر ممّن استشهدوا بالحديث، ولكن لِقلّة احتجاجهم به ظنّ المتأخِّرون أنّهم لم يُجيزوا الاحتجاجَ به

---

[1]- خديجة الحديثي، أبو حيّان النَّحويّ، أطروحة الدّكتوراه، ط1. بغداد: 1966م، مطبعة دار التضامن ص436.

[2]- محمود فجال، الحديث النبويّ في النّحو العربيّ، ط2. الرّياض: 1997م، أضواء السّلف، ص109- 110. وحاتم صالح الضامن، الاستشهاد بالحديث في اللّغة والنّحو، د ط. دبي: 2002م، مركز جمعة الماجد للثّقافة والتّراث ص2-7.

بحجّة ما وقع في أكثر الحديث من الرّواية بالمعنى لا باللّفظ، علاوة على ذلك أنَّ طائفة كبيرة من الرُّواة لم يكونوا عربًا ممَّن يوثق بلغتهم، الأمر الّذي جعل بعض النّحاة اللاحقين إذًا يتحاشون الاستشهاد بالحديث. وللعلم إنَّ تعدُّدَ روايات الحديث الواحد أحيانًا لا يدلّ بالضَّرورة على أنّه مرويٌّ بالمعنى، فيجوز أنْ يكون ذلك من صُنعِ الرّسول ﷺ لِتكرار قوله مرّات متعدّدة بِهدف الاستفسار وتمكين المتلقّي من سماعه، كما قد يكون مردّ هذا التعدّد تبديل الرّاوي بعض الألفاظ بِسبب النّسيان أو السّهو وغير ذلك، وعلى هذا كيف لا يَحتَجُّ النُّحاةُ بالحديث وهو أصحّ سندًا ممّا ينقلونه من أشعار العرب الّتي ذكروا أكثرها بعِلّة الضَّرورات الشِّعريَّةِ، وإذا كان النبيّ ﷺ أفصح العرب لسانًا وأقواهم بيانًا وأحسنهم بلاغةً فكيف لا يُحتجُّ بأقواله ويُحتجُّ بالشِّعر؟ ولكن إذا لم يستشهد بعض النّحاة بالحديث على أنّه كلامُ النبيّ ﷺ فلا يعني أنّهم امتنعوا عن ذلك، بل قد يعني عدم تمكّنهم من رواية الحديث، أضف إلى ذلك أنّهم لم يُصرِّحوا برفض الاحتجاج به، وعلى هذا يبقى كلُّ ما قيل في الأمر مجرّد استنتاجات خاطئة.

وفي ما يخصّ منهج النّحاة المغاربة في الاحتجاج اللّغويِّ، وجدتهم يحتجّون بِكثير من كلام الله ﷻ في الاستدلال على القواعد الّتي يُناقشونها، فما مِنْ نحويٍّ بينهم إلاّ واستشهد بالقرآن، ثمّ يليه كلام العرب الّذي استشهدوا به كثيرًا أيضًا، مع أنَّ الاحتجاج بالشِّعر أفشى وأشيع من الاستدلال بالنّثر، وتبدو طريقتهم في الاحتجاج بالأبيات الشِّعريَّةِ كطريقة غيرهم من النّحاة المشارقة والأندلسيِّين، حيث كانوا يُورِدُون البيت تامًّا أو شطرًا منه أحيانًا، وقد يوردون كلمةً أو كلمتين موضعَ الشّاهد دون ذِكْر الباقي من البيت كما يتبيَّنُ ذلك في موضعه.

وأمّا بالنِّسبة للاحتجاج بالحديث فثمّة ما أقوله في هذا الشّأن، صحيح أنّهم أخذوا من الأحاديث ولكن كان ذلك بِنسبة قليلة لا بل نادرًا جدًّا عند بعضهم مقارنة بِنظرائهم الأندلسيِّين الّذين أكثروا منها، حتَّى زَعَمَ بعضُهم أنَّ الاحتجاجَ بالحديث مذهبٌ أندلسيٌّ لكثرته، بِحجّة أنَّ فترة الاستشهاد بِكلام العرب المنثور والمنظوم تمَّ تحديدُها بِنهاية القرن الرّابع الهجريِّ بالنِّسبة للبدو، وبنهاية القرن الثّاني للحضر، وبالتّالي لم يكن أمام النُّحاة المتأخِّرين أيّ مجال لمُشافهة الأعراب المعاصرين لهم والرِّواية عنهم، بِخلاف المشارقة الّذين استطاعوا لقاءَهم كما أنَّ في عصر تقعيد النّحو لم يتم بعد تحديد فترة الاستشهاد بِكلام العرب[1]. أضف إلى ذلك انتشار المذهب المالكيِّ الّذي ظَلَّ "سيّدًا في المغرب والأندلس على الرّغم من مزاحمة بقيّة المذاهب له، إذْ ظلّ المغاربة مالكيِّين لا تُؤثِّر فيهم المذاهب المُستجدّة الوافدة، إلاّ في القليل الّذي لا

[1]– عبد القادر رحيم الهيتي، خصائص مذهب الأندلس النّحويِّ خلال القرن السّابع الهجريّ، ص176-177.

يعتدُّ به"[1]، فيبدو أنَّ لاهتمام المغاربة والأندلسيِّين بِمذهب الإمام مالك الّذي اعتمد الحديثَ كثيرًا إلى جانب القرآن وكلام العرب أثرًا في دراساتهم النَّحويَّة واللّغويَّة مع معرفتهم للمذاهب الفِقهيَّة الأخرى الّتي دخلت بلادهم، ولا سيما المذهب الظّاهريّ الّذي حاول الموحّدون فَرْضَهُ على الأهالي باللّين والقوّة.

وإنْ تحدَّث الباحثون بِالإجمال عن كثرة استشهاد نُحاة المغرب والأندلس بالحديث النبويِّ فذلك على أساس أنَّهم يتناولون نَحْوَ علماء القطرين باسم المدرسة الأندلسيَّة أو المدرسة المغاربيَّة الأندلسيَّة، وأودُّ هنا التّفصيلَ في القول، حيث وجَدْتُ أنَّ الأندلسيِّين كانوا أكثر اعتمادًا على هذا المصدر مقارنةً بِنُحاة المغرب، بل هناك من لم يستشهد به على الإطلاق أمثال الجزولي الّذي لم يكن قليل الاحتجاج بالحديث وحسب، وإنّما بالقرآن وكلام العرب أيضًا؛ لأنَّه لم يرغب – كما يبدو– في حَشْو مقدّمته بكثير من الشّواهد والأمثلة، فقد احتوت على حوالي عشرة شواهد قرآنيَّة في أبواب مختلفة، وعلى ستَّة من أقوال العرب وثمانيّة من شواهد الشِّعر، وأمَّا الحديث فلم يُعثر فيها على أيِّ شاهدٍ من لغة الحديث إلاَّ على شيءٍ من كلام عمر بن الخطّاب ﷺ. وفي ما يتعلَّق بالآيات القرآنيَّة فقد احتجّ بها في بعض المواضع، منها أوجه الإعراب، إلحاق علامة التّأنيث بالفعل وعدمها، الفرق بين (أم) المتّصلة والمنفصلة ومنها ما احتجَّ به في باب الحكاية بقوله "وينتصِبُ المفرد النّائب عن الجملة عند قومٍ كالسَّلام بعد القول من ضيف إبراهيم"[2]، فهذا مأخوذٌ من قوله ﷻ: ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴾ [الذاريات: 24– 25]. كما وجدته يحتجُّ بالقراءات ومثال ذلك ما ذكره عن قراءة عاصم لـ (فأطّلَعَ) بالنَّصب في رواية حفص؛ لأنَّه جواب لـ (لعلَّ) وذلك بِقوله "وقد جرّوا لعلَّ مُنبهَة عَلى الأصْلِ، وأشْرَبها معنى لَيْتَ من قَرَأَ "فأطَّلَعَ" نصبًا"[3]، فيُشير بِهذا الشّاهد إلى قول الله ﷻ: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ ﴾ [غافر: 36–37]، وأمّا قراءة الجمهور فكانت بالرّفع بحجّة أنَّ الفعلَ معطوفٌ بالفاء على (أبلغ).

---

[1]– عبد الكريم بكري، أصول النّحو العربيّ في ضوء مذهب ابن مضاء القرطبي، ط1. الجزائر: 1999م، دار الكتاب الحديث، ص38.

[2]– أبو موسى الجزولي، المقدّمة الجزوليّة في النّحو، باب التّحقيق، ص264.

[3]– المرجع نفسه، ص120.

وبخصوص شواهد الشّعر الّتي احتجَّ بها فكانت تخصُّ شِعْرَ طرفة والأخطل وابن الأطنابة، وابن قيس الرقيات، وذي الرمّة والعجّاج وعبّاس بن مرداس وأبي النَّجم، ولكن لم يَنسب أكثر ما احتجّ به إلى أصحابه. وليس هذا وحسب، بل كان يستشهدُ بِشطْرِ البيت دون شطره الآخر، كما كان يكتفي في بعض المواضع بِذكر موطن الشَّاهد فقط، ومثال ذلك ما احتجّ به من الشّعر عن حرف النّداء (يا) الّذي لا يدخل على اسم فيه الألف واللام إلاَّ لفظ الجلالة (الله)؛ لأنَّه لا يُجمَع بينهما قائلاً:

- "ولمّا لزمَت الألف واللام في اسم الله تعالى قالوا في الأكثر اللَّهم، فعوّضوا في الآخر، وقد جاء في الشّعر: ... ... يا اللّهُمَّا"[1]، فهنا أوّلاً لم يذكر البيتَ كلّه وثانيًا لم يُصرِّح بقائله. وهذا بالإضافة إلى ما تضمَّنته المقدّمة من أمثال العرب الّتي كانت أكثر شيوعًا.

واضح ممّا تقدّم أنَّ الجزولي غير مهتمّ بالاستشهاد في عرضه مُجمل القضايا النَّحويَّة نظرًا لِقلَّة شواهده واختصاره الواضح في التّأليف، وإذا احتجَّ في تلك الحالات الضَّئيلة تجده مختصرًا التَّحليل والشَّرح، علاوة على ذلك أنَّه كان نادرًا جدًّا ما يتعرّض لآراء أصحاب المذاهب النَّحويَّة وخلافاتهم، وإنْ ذَكَر أحدَها فلن يُطيل الحديث عنه.

أمّا بالنِّسبة لابن معط فوجدته كثير الاحتجاج بالآيات القرآنيَّة في ألفيته مقارنة بِشيخه الجُزولي، ومن أمثلة ذلك ما احتجّ به في باب تعدّي الفعل إلى المفعول الثّاني بحرف جرّ لِقوله في (الأَلفية)[2]:

يكون ساقطًا ومستبينَا كَاختَارَ مُوسَى قَومَه سَبعِينَا

فالشَّطر الثَّاني من البيت مقتبسٌ من قوله ﷻ: ﴿ وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ سَبۡعِينَ ﴾[الأعراف: 155].
كما كان يحتجُّ بالقراءات القرآنيّة ومثال ذلك قوله في باب الجموع[3]:

وَمِثْلُ: خُطْوةٍ وسِدْرَةٍ أَتَتْ فِي جمْعِهَا لُغًا ثلاثٌ رُوِيَتْ

فما يقصده هنا أنَّ جمعَ خُطوة بضمّ الفاء جاء بلغات ثلاث، خُطُوات بِضمّ العين لتناسب حركة الفاء وهي قراءة ابن عامر وحفص وقنبل، وقرأها آخرون خُطْوات بِإسكان العين على أنّه الأصل، وخُطَوَات بالفتح قصد التّخفيف؛ لأنَّ الفتح قريب من السّكون.

[1]- أبو موسى الجزولي، المقدّمة الجزوليّة في النّحو، باب التّحقيق، ص190.

[2]- ابن معطي، الدرّة الألفية، ص29.

[3]- المرجع نفسه، ص22.

وكذلك بالشَّواهد الشّعريَّةِ الّتي أورد الكثير منها في (الألفية)، ومثال ذلك قوله في باب حروف الجرّ[1]:

وَرُبَّ إنْ كُفَّت بِمَا كَرُبَّمَا صَارَت كَمِثْلِ إنَّمَا وقلَّما

فيَقَعُ الفِعْلُ والاِسمُ بعْدَها وأضْمَروا فِي الشّعرِ رُبَّ وَحْدهَا

وحيثُمَا لهَا دليلٌ باقِي كقَولِهِ: وقَاتِمِ الأعماقِ

فالشَّاهد (وقاتم الأعماق) من رجز لرؤبة بن العجاج، وهو:

وقَاتِمِ الأعماق خاوِي المُخترَقْ مُشتبِه الأعْلاَم لمّاعِ الخَفَقْ

واحتجّ بِهذا البيت أيضًا الأشموني وابن عقيل في شرحيهما على (الألفية)[2] وسواهما.

ثمّ بالحديث النبويِّ الّذي لم يمتنع عن الأخذ به، فهو رغم قلّته إلاّ أنَّ استشهاده به في الألفية دليل على أنّه تابعَ مذهب المجيزين، ومن تضمين الحديث قوله في باب الإعراب والبناء:

وَالجَزْمُ مِنْ ألقَابِه كلَم يَرُمْ وَليْسَ مِن الأَسْمَاء شَيءٌ يَنْجَزِم

فالشَّاهد (لم يَرُمْ) مأخوذٌ من حديث الرّسول ﷺ إلى هرقل وهو في الصَّحيح[3]، واكتفى المُصنِّف في هذا الموضع بِذِكْرِ الشَّاهد فقط كما هو الأمر مع شيخه الجزولي.

هذا وضمّنَ كتابَه (الفصول) عددًا معتبرًا من الآيات القرآنيّة، إذْ لا يخلو باب من أبوابه دون أنْ يستشهدَ بآية قرآنيّة، وكان يستدلّ ببعضها للتَّدليل على رأيِه في معارضة آراء الآخرين. كما استشهد بمن قرأ قراءةً شاذَّة اسم العلم المنادى المرخَّم (مالك) وذلك بحذف آخره لأنّه اسم علم يزيد على ثلاثة أحرف (يا مَالِ) ولم يكن مضافًا أو مركَّبًا[4] في التّنزيل: ﴿ يَٰمَٰلِكُ لِيَقۡضِ عَلَيۡنَا رَبُّكَ ﴾ [الزّخرف: 77]. ثمّ يحتجّ بالشّعر الّذي بلغت شواهده اثنين وستين شاهدًا في كتاب (الفصول) بين شعر ورجز، ولكن لم يكن ذلك بِقدر ذكره الشّواهد القرآنيّة، علاوة على أنّه لم يُنسِب تلك الأبيات الشِّعريَّة سِوى أربعة شواهد. ويأتي الاحتجاجُ بالحديث في المرتبة الثّالثة في هذا الكتاب فقد استشهد به مرّة واحدة فقط، وذلك عند حديثه عن موضوع أفعل

1- ابن معطي، الدرّة الألفية، ص25.

2- ابن عقيل، شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، ج3، ص36. والأشموني، شرح الأشموني على ألفية ابن مالك ج1، ص12.

3- المرجع السّابق، ص19. وحسن محمّد عبد الرّحمن أحمد شرح ألفية ابن معط لأبي جعفر أحمد بن يوسف بن مالك الرُّعيني(779هـ) السّفر1، تحقيق ودراسة" أطروحة الدكتوراه في اللّغة العربيّة. المملكة العربيّة السّعوديّة: 1994م، جامعة أم القرى، كليّة اللّغة العربيّة، قسم الدّراسات العليا العربيّة، مج1، ص62.

4- ابن معطي، الفصول الخمسون، ص211.

التّفضيل[1]. فالمُلاحظ أنّ درجةَ استشهاد ابن معط بِكلام العرب ليست بِدرجة استشهاده بالآيات القرآنيّة، ولكنّها فاقت درجة استشهاده بالحديث الّذي كان بِنسبة ضئيلة جدًّا، ولكن المهمّ في الأمر أنّه أقرّ بأهميّته في الاحتجاج ومَهّدَ السَّبيلَ للنُّحاة الآتين من بعده وأذكر بِشكل خاصّ ابن مالك الّذي أكثر من الأحاديث كما يبدو في مؤلَّفاته حتّى انتقده أبو حيّان على مبالغته في الاحتجاج بها.

وكذلك الأمر بالنِّسبة للمكُّودي الّذي تنوّعت شواهد شرحه على ألفية ابن مالك، حيث ضمّنه كثيرًا من شواهد النَّحوِ قرآنًا وحديثًا نبويًّا وشعرًا ونثرًا، فبالنِّسبة للآيات القرآنيّة فقد تجاوزت مِائَة وخمسين آية، ومن ذلك ذِكْرُه لقول الله ﷻ: ﴿وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ﴾ [البقرة: 93] على المضاف إليه الّذي يقوم مقامَ المضاف المحذوف في الإعراب وتقدير القول (حب العجل)، والملاحظ أنّه أَوْرَدَ شاهدًا آخر على هذه المسألة لإثبات صحَّة رأيِ النَّاظم[2] لقوله ﷻ: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: 82]، علاوة على ذلك أنّه كثيرًا ما يحتجُّ بالآيات الّتي امتنع عنها النُّحاة في بعض المسائل مع استشهاده بالقراءات القرآنيَّة مُصرِّحًا بأصحابها أحيانًا كقراءة نافع الّتي ذكرها لمساندة رأيِ الكوفيِّين وابن مالك في تلك المسألة[3]، وأحيانًا أخرى يستعمل عبارة (قراءة بعضهم). وفي ما يخصّ موقفه من الحديث فيبدو واضحًا من خلال ما أورده من أقوال للرّسول ﷺ والصّحابة رضي الله عنهم، ومن أمثلة ذلك ذكره قول النبيّ ﷺ: "احفظُوا عنِّي ولَوْ آيَةً" في مسألة حذف كان وبقاء خبرها بعد (لو) أيْ (لو كان المحفوظُ آية)، ثمّ أتبعه شاهدًا شعريًّا، ولكن جاء نصُّ الحديث في صحيح البخاري "بلِّغوا عنِّي ولو آية"[4]. يبدو من هذا أنَّ نحويَّنا تنبّه لأهميَّة الاحتجاج بالحديث، ممَّا جعله يسْبقُ به قبل الشِّعر في هذه المسألة. بالإضافة إلى ما احتجّ به من الكلام العربيِّ ولا سيما الشِّعر الّذي تفوق أبياته المائتين لإثبات صحّة آراء صاحب (الألفيّة) وتأكيد بعض الوجوه أو رفضها، وسبق ذِكْرُ بعض الأبيات في سياق حديثي عن آراء المكُّودي واختياراته النَّحويَّة.

---

[1]- ابن معطي، الفصول الخمسون، ص130.

[2]- المكُّودي، شرح المكُّودي على ألفية ابن مالك، ج1، ص495.

[3]- المرجع نفسه، ص481.

[4]- المرجع نفسه، ص227. ومحمّد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، تح: محمّد زهير بن ناصر الناصر ط1. د ب: 1422هـ، دار طوق النّجاة، ج4، رقم الحديث 3461، ص170.

ولم يكن ابن آجُرُّوم ممّن اعتمد الحجج في مؤلّفاتهم، فقد اكتفى في مقدّمته بِعرض المسائل النَّحويَّة معتمدًا بعض الأمثلة فقط دون الإشارة إلى آراء النُّحاة فيها، ولا الاحتجاج بالشِّعر فقد اكتفى بالقول في موضع واحد إنَّ (إذا) من الجوازم وبخاصّة في الشِّعر[1]، ولا بآيات القرآن وقراءاته والحديث النبويّ والأثر أيضًا.

وأخلص ممّا تقدَّم إلى القول إنَّ أسلوبَ المغاربة في الاستشهاد متنوِّعٌ فكما اعتمدوا القرآن بِقراءاته وكلام العرب شعره ونثره شاهدًا على إثبات الأحكام النَّحويَّة ونَقْدِها فإنّهم لم يمتنعوا عن الاستشهاد بالحديث والأثر رغم قلَّتهما في مؤلّفاتهم، حتَّى إنَّ لهم فضلَ المبادرة إلى إتاحة الفرصة للنُّحاة المُتأخِّرين للاستدلال به في إثبات الأحكام، ولا سيما لِنُحاة الأندلس بِسبب التّداخل الّذي تحدَّثت عنه سابقًا، منهم ابن خروف الّذي احتجَّ بكثير من أقوال الرّسول ﷺ حيث جعله رافِدًا من روافد الاحتجاج المهمّة في مناقشة المسائل النَّحويَّة؛ لأنّه يبقى من أفصح كلام العرب، وبحكم استقرار ابن خروف في المغرب وتدريس النَّحو فيه قد يكون لموقفه المُسَانِدِ للاستشهاد بِالحديث أثرٌ في الطّلبة المغاربة الّذين قرأوا عليه.

وابن مالك أيضًا الّذي له في الاحتجاج بالحديث موقفٌ جديرٌ بالذِّكر، فهو من النُّحاة الّذين احتجّوا به كثيرًا فصار يُمثّل مذهب الاستشهاد بالحديث، حتَّى قال عنه أبو حيَّان إنَّه بَالغَ في الاستدلال على قواعد النّحو بِما ورد في الحديث من أجل إثباتها. ومهما يكن، فقد وجدت أنَّ كتب نُحاة المغرب بصفة عامّة مملوءة بالشَّواهد من لغة التّنزيل، وبالأمثال وأقوال العرب وكلامهم من الشِّعر والرّجز بغضّ النّظر عن (الآجرُّوميّة) وحتَّى (الجُزوليّة) الّتي قَلَّتْ شواهدها كما تقدّم، أمّا في ما يخصّ الشَّواهد المُقتبسة من قول النبيّ ﷺ فتأتي ثالثَ المصادر الّتي توثّقوا بها، وما قدّموه من اجتهادات وآراء فرديَّة فاحتجاجهم بالحديث واردٌ وإن كان بِنِسبة أقلّ مقارنةً بالأندلسيِّين الّذين أكثروا منه للأسباب المُشار إليها ولا سيما الّذين استقرّوا في المغرب أمثال ابن خروف، فلا شكّ أنَّ له الأثرَ العظيم في الطّلبة الّذين درسُوا عليه. ولكن قولي هذا ليس بالمطلق؛ لأنّه يمكن أنْ يكون المغاربة الّذين تعرّضت لهم وغيرهم ممّن لم أذكرْهم في هذه الدِّراسة قد استدلّوا بكثير من الأحاديث في مؤلّفاتهم أمثال القاضي عيّاض الّذي احتجّ بكثير منها في كتابه (بغية الرّائد) وهناك آخرون. علاوة على أنّه رغم قلّة استشهادهم بالحديث مقارنة بالقرآن والكلام العربيِّ إلاّ أنّهم أَوْلوه مكانة خاصّة، ومثال ذلك المكُّوديّ الّذي كان يحتجُّ به أوّلاً في بعض المواضع ثمّ يُتبِعُه الشِّعر.

[1]– ابن آجرُّوم، الآجرُّوميَّة، ص7.

2-5- **المُناظرات النَّحويَّة:** من الميزات الّتي اتّسم بها نحوُ المغاربة المناظرات الّتي لعبت دورًا مهمًّا في تنميته وبلوغه قمّةً عالية من النّشاط والتقدّم والارتقاء بِمستواه، وقد كانت تلك المناظرات تدور إمّا بين الطّلبة وشيوخهم وإمّا بين النُّحاة ونظرائهم في المغرب وخارجه وهي كثيرة الحدوث مقارنة بالمُناظرات الّتي تجري بين الطّالب وشيخه، وحين تكون هناك مناظرة يستعين كلُّ طرف فيها بِأدلَّة دقيقة واحتجاج قويٍّ لإثبات الآراء الّتي يُناقشونها وتكون محلَّ جدال بينهم. وكان نُحاة المغرب ممّن اشتهروا في التّناظر ومناقشة الآراء النَّحويَّة "المراسلات والمُناظرات النَّحويَّة الّتي يتردَّدُ صيتُها في كُتُب التراجم والطّبقات مُنْبِئة باهتمام المغاربة المُنقطِع النّظير بالدِّراسات النَّحويَّة"[1]، وكثيرًا ما تدفعهم المُناظرات والمحاورات إلى التّأليف في ميدان النّحو، وأذكر منها المناظرة الّتي جرت بين ابن هانئ اللّخمي والخِدب حول بعض المسائل المتعلِّقة بِكتاب سيبويه. ومناظرة الجزولي مع تلميذه الشَّلوبين بِمراكش، وهي من أشهر المُناظرات الّتي تحدّثت عنها كثير من كتب التّراجم والنَّحو حيث تناظرا في مسائل نحويَّة مهمّة، وبالأخصّ في ما يتعلّق بتلك المباحث الّتي أوردها الجُزولي في مقدّمته، وقد أبرزت هذه المناظرة مستوى معرفته بالنَّحو والإلمام بدقائقه. كما لعبد الرّحيم بن عيسى ابن الملجوم مناظرةٌ مع الخدبّ في نحو الثُّلث من كتاب سيبويه. وأذكر إلى جانبها تلك المُناظرة الشَّهيرة الّتي جمعت بين ابن أبي الرَّبيع الإشبيليّ السّبتيّ وابن المرحّل حول تركيب (كان ماذا) بسبتة، حيث أنكر عليه الأوّلُ هذه الصّياغة وقال الصّواب "(ماذا كان) فبِسبب الخلاف الّذي جرى بينهما أَلَّف كلٌّ منهما في المسألة مُسانِدًا لِرأيه الخاصّ، وكان نتيجة ذلك أنْ أسهمت هذه المناظرة وغيرها في تنمية الدَّرس النَّحويِّ طيلة العصر الوسيط. ولكن ثمّة ما يجب معرفته وهو أنَّ لمناظرات الأندلسيِّين بالمغرب أثرًا بارزًا في ازدهار هذا الحقل، ولهذا السَّبب أيضًا من غير الممكن أنْ أتحدّثَ عن جهود علماء المغرب النّحويَّة دون الإشارة إلى فَضْلِ الأندلسيِّين في ما عرفه الدَّرسُ النّحويُّ في هذا القطر عامّة من تقدُّم. فالمهمّ في الأمر أنَّه كلَّما تَنَاظَرَ النُّحاة في ما بينهم كلَّما دفعهم ذلك إلى التّأليف، ولا سيما في الموضوعات الّتي يتناظرون فيها.

ويُمكن أنْ أُجمل ممّا تقدَّم خصائص النَّحو المغاربيِّ في النِّقاط الآتيّة:

---

[1]- ميلود التوري، الحركة اللّغويّة بالمغرب الأقصى: (عصر المرابطين والموحّدين)، بحث دبلوم الدّراسات العليا في اللّسانيات، ص224.

– تأثُّر علماء المغرب الكبير بِنحو المشارقة منذ الوهلة الأولى الّتي عرفوا فيها النّحو العربيّ عامّة إمّا عن طريق الرّحلات بالنِّسبة للّذين تنقّلوا للأخذ عن المشايخ، وإمّا بواسطة الكتب الّتي دخلت بلادهم مثل (الكتاب) و(الجمل) و(الإيضاح) و(الأصول) وغيرها، حيث استطاع كثيرٌ منهم الاطّلاعَ على ما تحتويه هذه الكتب دون الحاجة إلى التَنَقُّلِ كغيرهم.

– شيوع ميزة التّيسير والاختصار في مؤلّفات نُحاة المغرب، حيث تجنّبوا في معظمها التّعقيدات والتّعليلات غير الضَّروريَّة، بِغضّ النّظر عن (الجُزوليّة) الّتي قيل إنَّها تميّزت بكثير من التَّعليل والفكر المنطقي، ولذلك أكثروا من الشُّروح والمختصرات لِتوضيح مباحثها النَّحويَّة وبيان الغرض منها حتَّى يكون أمر الاستفادة منها ميسورًا وليس عسيرًا.

– أهميّة المُناظرات والمراسلات بين النُّحاة من شيوخ وطلبة ودورها الجليل في تنمية الدَّرس النَّحويِّ ببلاد المغرب وازدهاره طيلة فترة الدِّراسة، ومثال ذلك المناظرة الّتي جرت بين الشَّلوبين وشيخه الجزولي.

– الاستشهاد بلغة القرآن وقراءاته وكلام العرب أوّلاً ووجدت المغاربة عامّة ممّن يحتجُّ كثيرًا بالقراءات فلم ينكروا قراءةً ولم يلحنوا قارئًا، ولذلك لا أستبعد عنايتَهم بها واتخاذها حجَّةً لتأييد أحكامهم، فتبقى القراءات الصَّحيحة منها والشَّاذة شواهد نحويَّة فصيحة أقوى حجّةً من الشَّواهد الشِّعريَّة الّتي يقوم أكثرها على الضَّرورة، وكان بينهم المكُّودي الّذي أَكْثَرَ من الاستشهاد بالقرآن وقراءاته، وبِمنهجه هذا يتابع الكوفيِّين الّذين اعتنوا بالقراءات واعتبروها مصدرًا مهمًّا في وضع القواعد وإثباتها، على عكس البصريِّين الّذين أجازوا الأخذ بها والقياس عليها شرط أنْ توافق أصلاً من أصولهم ولو بالتّأويل. ثمّ الاحتجاج بالحديث النّبويِّ حتَّى وإنْ كان قليلاً مقارنة بالنُّحاة الأندلسيِّين أمثال ابن خروف وابن مالك، فالمهمّ في الأمر أنَّ نُحاة المغرب احتجّوا بالأحاديث في مؤلّفاتهم وصرَّحوا به.

– التّداخل الكبير بين نَحْوِ المغاربة والأندلسيِّين في الأخذ والعطاء، ممّا صعّب على الباحثين والعلماء قديمًا وحديثًا التَّمييز بين علماء القطرين، فَهُم – بلا شكّ– يُمثِّلون درسًا نحويًّا واحدًا بِحكم الصّلة الوثيقة الّتي تجمع بينهم وبالأخصّ عصر المرابطين والموحّدين. هذا ووجدت بعضهم يؤيِّدُ بعضًا في آراء ويختلفون في أخرى وفقًا لوجهات نظر خاصّة. وكيفما كان الأمر، فإنَّ صلةَ علماء المغرب بالنَّحو العربيِّ ليست قائمة على الأخذ والتلقّي فقط، إنّما على العطاء والإبداع أيضًا، فقد أسهموا بِدورهم الكبير في الإنتاجِ النَّحويِّ حتَّى كان لهم مريدون وأتباع، ممّا يُفنِّد قول الباحثين في أنَّ جهود المغاربة ليست واضحة المعالم أوّلاً بِسبب

المنهج الاختياريِّ الذي تغلَّب على اجتهاداتهم النَّحويَّة، وثانيًا استقرارهم خارج بلاد المغرب حتَّى صاروا يُذكرون في مدارس النَّحو الأخرى.

3- **موقف المغاربة من السَّماع والقياس:** إنَّ المتتبّعَ لمؤلّفات المغاربة يجدها تحتكم إلى مختلف أصول النّحو العربيِّ، وأوّلها السَّماع الّذي بَنَى عليه النُّحاة قواعدهم، فقد أدركوا أهميّتَه من حيث إنَّه الأصلُ الّذي يُعتمَدُ عليه في حالة تعارضه مع الأصول الأخرى. وإنْ كان السّماعُ على حدِّ قول السيوطي "ما ثَبتَ في كلام مَنْ يُوثَقُ بفصاحته، فَشَمَلَ كلامَ الله تعالى، وهو القرآن، وكلام نبيّه ﷺ، وكلامَ العرب، قبل بعثته وفي زمنه وبعده الى أَنْ فَسُدَت الأَلسنةُ بكثرة المولّدين نظمًا ونثرًا"[1]، فما تقدّمت به عن مصادر الاستشهاد اللّغويِّ عند المغاربة يكفي ليكونَ دليلاً على موقفهم الواضح من السّماع، فيبدو أنّهم أولوه اهتمامًا كبيرًا وذلك بِمصادره المختلفة من قرآن وحديث نبويٍّ وكلام عربيٍّ منثورًا ومنظومًا. وإنَّ لابن الأنباري تعريفًا لمصطلح النّقل الّذي قصَدَ به السَّماع لقوله "النّقل هو الكلامُ العربيُّ (الفصيح المنقول بالنّقل الصَّحيح) الخارج عن حدِّ القلَّة إلى حدِّ الكثرة. فخرَجَ عنه إذًا ما جاء في كلام غير العرب من المولّدين، وما شذَّ من كلامهم؛ كالجزم بـ (لن) والنّصب بـ (لم)"[2]، فتعريفه للنّقل يتّفق مع تعريف السيوطي للسماع حين قال إنَّه يُمثِّل الكلام العربيّ الفصيح في العصر الجاهليّ ثمّ عصر النبيّ ﷺ وما تلاه إلى أنْ فَسُدَت الألسنة بكثرة المولّدين.

وثانيها القياس الّذي جعله النُّحاة الأساس الّذي تُبنى عليه القواعد، وتصحُّ به كثير من المسائل النّحويّة، فهو حَمْلُ فَرعٍ على أصلٍ بِعلّة، وإجراءُ حكم الأصل على الفرع، وبالتّالي لا مجال لإنكاره على حدِّ قول ابن الأنباري لأنَّ النّحو كلّه قياس، ومن أنكره فقد أنكرَ النَّحوَ[3]. يقوم مذهب البصريِّين على القياس، ولكنّهم لم يكونوا يتقيَّدون بشاهدٍ واحدٍ لوضع القاعدة، بل اشترطوا كثرةَ الشَّواهد المُقاس عليها مع جريانِها على ألسنة العرب الفصحاء أيْ إنَّهم لا يقيسون إلاَّ على الكثير المسموع. أمّا الكوفيّون فيقوم مذهبهم على السَّماع معتمدين الأشعار والأقوال الشَّاذة الّتي سمعوها عن العرب الموثوق بفصاحتهم وقاسوا عليها، ولهذا السّبب قال

---

[1]- جلال الدّين السيّوطي، الاقتراح في علم أصول النّحو، قراءة وتع: محمود سليمان ياقوت، د ط. جامعة طنطا: 2006م، دار المعرفة الجامعيّة، ص74.

[2]- عبد الرّحمن أبو البركات بن الأنباري، الإغراب في جدل الإعراب ولُمَعُ الأدلّة في أصول النّحو، تقديم وتح: سعيد الأفغاني، د ط. د ب: 1957م، مطبعة الجامعة السّوريّة، ص81- 82.

[3]- المرجع السّابق، ص93- 95.

أحد البصريّين "إنّما أخذنا اللّغة من حرشة الضّباب وأكلة اليرابيع، وهؤلاء أخذوا اللّغةَ من أهل السواد أَكَلَة الكواميخ والشواريز"[1]. وموقف المغاربة من السَّماعِ مختلفٌ من نحويٍّ إلى آخر فكما سبق أنْ ذكرت لم يكونوا على نفس وتيرة الاستشهاد بالمصادر الثّلاثة، مع ذلك يُمكن القول إنَّهم قلَّلوا من الشَّواهد غير القياسيَّة، وقعَّدوا للعامّ مع تفسيرهم للشَّاذ[2]، أضف إلى ذلك أنَّه في حالة تعارضِ القياس مع السّماع كانوا يُقدِّمون الأوّل. والبداية مع الجُزولي الّذي قَلَّ السّماعُ عنده؛ لأنَّه قليلُ التَّمثيل بالشَّواهد على الأحكام النَّحويَّة الّتي أَوْرَدَهَا في مقدّمته، الأمر الّذي جعله يفتَحُ المجالَ أكثر للقياس التَّعليليِّ الّذي أولاه عنايةً خاصَّة، وعند اجتماع السَّماع مع القياس كان يُرجِّحُ الأوّلَ بدليل أنَّه وافق الأوائل في الأصول الّتي طبّقوها عليه، ولكنّه كان في الوقت نفسه "إذا لم يصح كلام عن العرب، ولم ينقل عنهم ما يصلح أنْ يكونَ مصدرًا في التَّقعيد يلجأ إلى القياس"[3]، علاوة على ذلك أنّه يقتصر في استشهاده على العصور المعروفة مستبعدًا لغة المولِّدين، كما هناك من شواهد الشِّعر في مقدّمته ما لا يُعرف قائله.

ثمّ مع تلميذه ابن معط الّذي تنوَّع أسلوبُ اعتماده على السَّماع والقياس، فالأوّلُ يتجلّى في تلك المواضع الّتي استشهد فيها بالقرآن والحديث والأثر وكلام العرب من شِعْرٍ ونَثْرٍ، مع ذكره للفظ السَّماع وما يدلّ عليه في بعض المواضع. كما للثَّاني وهو القياس حصَّة الأسد في مؤلَّفات هذا النَّحويِّ ويبدو ذلك في تركيزه على الشَّواهد القياسيَّة، فهو لم يكن يُرجِّح المسموع غير القياسيّ أيْ إنَّه لا يعتدّ بالسَّماع النَّادر والشَّاذ، فهو لا يقيسُ إلاَّ على ما كثُرَ فيه السَّماع، وإذا اجتمَعَ السَّماع والقياس رَجَّحَ الأوّلَ على الثّاني. ومن أمثلة ذلك قوله في باب أبنية التَّصغير[4]:

وشَذَّ قولُهمْ: زُهيْرٌ صُغِّرَا   مُرَخَّمًا كَذَا عُثَيْمٌ حُقِّرَا

فتصغيرُ (زُهير) شاذٌ بالنِّسبة إليه لِما فيه من كثرة الحذف والالتباس، وهو بِذلك ليس بتصغير قياسِيٍّ كما اعتبره النُّحاة، وإنّما تصغير مقصور على السَّماع. ويبدو أنَّ ابن معط لا يتوسّع

1- ابن النديم، الفهرست، ص86.

2- صالح بلعيد، "الحركة اللّغويّة بالمغرب الإسلاميّ الوسيط" حوليّة المجمع. طرابلس: 2009م، مجمع اللّغة العربيّة دار المنار للطّباعة والنّشر، ع7، ص114.

3- أحمد الزواوي، أبو موسى الجزولي، عرض لحياته العلميّة، ومنهجه في البحث، وتأثيره في حقل النّحو، ثمّ نقد لِمنهجه، ص129.

4- ابن معطي، الدرّة الألفية، ص61- 62.

في مقاييس نَحْوِه سيرًا على نهج البصريِّين الّذي يشترط شُيُوعَ الشّواهد لإثبات القواعد ولا يقبل بالمسموع القليل.

وأمّا ابن آجرُّوم فلا نحسُّ بالسَّماع عنده، بل اعتدَّ بالقياس في الأمثلة القليلة الّتي ذكرها والمتداولة في كتب النُّحاة، ومثال ذلك قوله:

- في باب البدل حيث مثَّل لأقسام البدل: "قامَ زيْدٌ أَخُوك وأكَلتُ الرّغيفَ ثُلُثَه ونفعني زيدٌ علمَه وَرأَيتُ زيدًا الفرسَ"[1]، فقد قدَّم لِكلِّ قسمٍ من أقسام البدل مثالاً (بدل الشَّيء من الشَّيء، بدل البعض من الكلّ، بدل الاشتمال وبدل الغَلَط).

- وفي باب التّمييز "تصبَّبَ زيدٌ عرقًا وتفَقَّأَ بكرٌ شحمًا"[2]، وأجد هذه الأمثلة أكثر ما يستدلّ به غيره من النُّحاة في مؤلّفاتهم.

ويبدو أنَّ موقفَ المكُوديّ من السَّماعِ والقياس لم يكن كموقف ابن آجرُّوم، فقد استطاعَ تضمينَ شرحِه بِكثير من الشّواهد الّتي تُمثِّلُ السَّماعَ في المصادر الثّلاثة المذكورة، ثمّ يليه القياس الّذي عُنِيَ به في مناقشة آراء ابن مالك والنُّحاة والردّ عليها وكما نعلم كان النّاظم ممّن تساهلوا في الاحتجاج بالقياس والشَّاذ سيرًا على مذهب الكوفيّين. علاوة على ذلك فإنّه كثيرًا ما كان يُفاضل بين الأقيسة ونقد أقيسة النُّحاة، ونحو ذلك ذكره للفظ (أقيس) في مسألة بناء فعل الأمر والماضي: "ويجوز في قوله- أي النَّاظم-: ومُضِيٍّ الرّفع والجرّ، والرّفع أقيس؛ لأنَّ التّقدير: وفعل أمر وفعل مضى. فَحُذِف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه"[3] وإلى غير ذلك.

وأقدّم في الآتي أمثلة عن مواضع السّماع والقياس الّتي أشار إليها هؤلاء النّحاة باللّفظ وبِما يدلُّ عليهما باستثناء ابن آجُرُّوم:

النّحاة	مواضع السّماع	مواضع القياس
الجزولي[4]	- قال إنَّ جواز رفع ظرف الزّمان ونصبه متوقّف على السّماع: "يجوز رفعُه في موضعٍ يجوز فيه نصبُه	- قسّم العلمَ الشَّخصيّ إلى منقول ومرتجل، وقال عن الثّاني: "والمُرتَجَلُ مَا ليسَ لَه أَصْلٌ في النّكرات وهو

[1]- ابن آجرّوم، الآجرّوميّة، ص14.

[2]- المرجع نفسه، ص17.

[3]- المكّودي، شرح المكودي على ألفية ابن مالك، ج1، ص106.

[4]- أبو موسى الجزولي، المقدّمة الجزوليّة في النّحو، باب التّحقيق، ص64- 86- 104-291- 292.

	ومَأخذُه السَّماعُ"؛ – استثنى الجُزولي (ليت) من الحروف الأخرى كـ إنَّ وأخواتها الّتي إذا لحقت بها (ما) فذلك يُبطل عملَها لأنّها تزيل اختصاصها بالأسماء ومن ثمّ تهيئتها للدّخول على الفعل، بِخلاف (ليت) الّتي تبقى مع (ما) على اختصاصها بالأسماء وهو مسموعٌ من العرب "موضع السّماع ليت".	مقيسٌ وغير مقيس فالمقيسُ منه ما له وزنٌ في النّكرات..."؛ يقصد بقوله هذا أنّه ما يخرج على حكم نظيره من النّكرات تكون العلميّة سبب شذوذها لكثرة الاستعمال الّذي يتماشى مع الأصول المطَّردة من إظهار وإضمار وتصحيح وإعلال وغيرها. – استعمل لفظ القياس في باب جمع الاسم الثّلاثِيِّ غير الصّفة مرّات كثيرة منها "فَعَلٌ في القلَّةِ على أفعالٍ قيّاسًا... وفُعُلٌ في القِلَّةِ على أفعالٍ قيّاسًا... فعلَةٌ في القلَّة بالألف والتّاء قيّاسًا"، وكان يُشير في الوقت نفسه إلى الأوزان الّتي تأتي عليها سماعًا.
ابن معط[1]	– أشار إلى أنَّ الأصلَ في معمول الصّفة المُشبّهة باسم الفاعل أنْ يرتفعَ بها، ومُضيفًا إلى أنّ المعمولَ قد يُجرّ أيْ يجوز بعد الرّفع جرّه بإضافتها إلى فاعلها، وأمّا وجه النَّصب فمسموعٌ في الشِّعر وذلك بِقوله: – والأصلُ فِي معمولِها أنْ يَرتفِع وقد يُجرُّ وانتصابُه سُمِعْ – حكى أنَّ السَّماعَ في الممدود والمقصور متوقّف على النَّقل وهو كثير لتشعّبه، ويمكن مدّ الكلمة تارةً وقصرها تارةً أخرى بقوله:	– قال إنْ جاءت (ظنّ) فعلاً يُرفعُ بها الفاعل فقط بقوله: كَمِثلِ: أمْسَيْنا وبِتْنا نَقتَبِس فَارفَع بِهَا الفاعِلَ لاَ غَيْرَ وَقِس – حكى أنَّ جمعَ الرّباعيّ مع الخماسيّ يأتي على وزن فَعَالِل بفتح أوّله وإلحاق ألف التَّكسير ثالثة وهو قيّاسه المطَّرد بقوله: وفِي الرُّباعيّ مَعَ الخُماسِيّ يأتي فَعَالِلُ عَلَى القياس

[1]– ابن معطي، الدرّة الألفية، ص51–45– 66– 59.

	أمّا السَّماعُ فيهِما فَيكْثُرُ وقد يُمدُّ وتَارةً ما يُقصَرْ	
المكُّودي[1]	– أشار إلى لفظ السَّماع أثناء شرحه لرأي النّاظم في مسألة حذف حرف الجرّ بقوله "يعني حرف الجرّ إذا حُذِف انتصب المجرور بالفعل وذلك على نوعين: موقوف على السّماع، ومطّرد، وقد أشار إلى الأوّل– أي النّاظم– بقوله (نقلاً) أيْ سماعًا؛ – قال إنَّ تثنية المصدر النّوعيّ وجمعه رَأيٌ مسموع "وأمّا النّوعيّ فقد سُمِع من العرب تثنيته وجمعه".	– حكى عن جواز كسر (إذا أنَّه) في قول الشَّاعر على القياس: وكنت أرى زيدًا كما قيل سيّدًا إذا أنَّه عبد القفا واللّهام "يُروى بِكسر (إنَّ) على القياس؛ لأنّ إذا الفجائيّة لا يليها إلاّ جملة اسميّة"؛ – أشار إلى خلاف النُّحاة في القياس على تثنية المصدر النَّوعيِّ وجمعه بقوله "واختلف في القياس عليه– أي المصدر النّوعيّ–، ومذهب سيبويه أنّه لا يُقاس عليه قال وليس كلّ جمع يُجمع كما لا يُجمع كلّ مصدر كالحلوم والأشغال وقاسه بعضهم وهو اختيار النّاظم".

الشَّكل رقم (23)

وتكفي هذه الأمثلة دليلاً على موقف المغاربة إزاء السَّماع والقياس، ولكن المتتبّع لمؤلّفاتهم يجد أنَّهم كثيرًا ما يستعملون السماع والقياس بالنَّفي أيضًا (لا يُقاس عليه، ليس بقياس، لم يُسمع وغير مسموع وغيرها).

هذا وقد دَلَّتْ كثير من مواقف المغاربة على عدم تعلّقِهم بالشَّاذ واعتدادهم به، ومن أمثلة ذلك قول الجزولي إنَّ بعض الصّيَغ في جمع التَّكسير كصيغة (فِعَال) بكسر الفاء وصيغة (فَعِيل) لا تُجمعَان في القلَّة على صيغة (أَفْعُلٍ) إلاَّ شاذًّا "جاء فِعَالٌ شاذًّا على أَفْعُلٍ... جاء فعيلٌ في القلّة شاذًّا على أَفْعُلٍ"[2] وإلى غير ذلك.

[1]– المكُّودي، شرح المكُّوي على ألفية ابن مالك، ج1، 255– 340 – 358– 359.

[2]– أبو موسى الجزولي، المقدّمة الجزوليّة في النّحو، باب التّحقيق، ص297.

وكان ابن معط يُنبّه على الشّاذ في مواضع عدَّة، والأمثلة على ذلك كثيرة[1]، ومنها قوله في باب العطف:

والمُضْمَرُ المَجْرُور إنْ عَطَفتَا عَلَيْهِ جِيءَ بِمَا بِهِ جرَرْتَا

نحو: مَضَى بِه وبالغُلامِ وَشَذَّ منه بِكَ والأيَّامِ

فالشَّاهد (بِكَ وَالأيَّام) استدلَّ به من الشِّعر على سبيل الشُّذوذ الّذي لا يُقاس عليه، ومن ثمّ لم يعتبرْه أصلاً يُقاسُ عليه. وذهَبَ في هذه المسألة مذهبَ البصريِّين الّذين أجازوا العطفَ على الضّمير المجرور بإعادة الجار والشَّاهد الشِّعريِّ الّذي ذكره المُصنِّفُ (بِكَ والأيَّام) حملوه على الضَّرورة، وليس كما علّل الكوفيّون الّذين أجازوا العطف دون إعادة الحرف. وقوله كذلك في باب أبنية التّصغير:

كمِثل: مَا شذَّ مُغيرِبَانِ فِي مَغربِ كَذَا عُشيشِيَانُ

مثلُ: شُذوذِ قولهم هاذَيَّا تَصْغِيرُ هذَا وَكَذَا اللّتَيَا

ذَكَرَ في البيت الثّاني إلى أنَّ الأسماء المبهمة (الموصولة والإشارة) شذَّت عن قياس التّصغير مثل شذوذ مغيربان وعُشيْشيَان. وهذا دليلٌ على أنّه لا يأخذ بالشَّاذ من المسموع كالبصريِّين.

وأجد المكُّوديّ ممّن يشيرون إلى الحالات الشَّاذة الّتي يعتدُّ بها بعضُ النّحاة، ومنها ذِكْرُه القراءة الشَّاذة عند حديثه عن الفعل الّذي يأتي بعد فِعْلِ الجزاء ودخلت عليه الفاء أو الواو قائلاً "قُرِئَ في السّبع بالجزم والرّفع وقُرِئَ في الشَّاذ بالنَّصب"[2]، فهنا يذكر بأنَّ هذا الفعل تجوز فيه ثلاثة أوجه الرّفع والجرّ والنَّصب ولكن يجد ذلك شاذًّا يُحفظ فلا يُقاس عليه.

وجدير بالذِّكر أنَّ هناك من النّحاة المغاربة الّذين يستدلّون بالشّعر على آرائهم وحتّى على آراء غيرهم أو الردّ عليها من باب الضَّرورات الشِّعريَّة، حيث يضعون ما يذكرونه ضمن هذا الباب في قائمة الشَّواذ الّتي تُحفظ لسماعها ولكن لا يُقاسُ عليها. وكان الجُزولي واحدًا منهم، حيث صرَّح ببعض الظَّواهر النَّحويَّة الّتي لا تقع إلاَّ في الشِّعر، ومثال ذلك[3]:

- قال في مسألة حذف نون الوقاية من (ليت) إنَّ هذه النّون "لا تلزم إلاَّ في ليت، فإنّها لا تُطرَحُ مِنْها مَعَه إلاَّ في ضرورة الشّعر"، ف (ليت) ترِدُ في الشِّعر محذوفة النّون للضَّرورة الشِّعريَّة فقط.

1- ابن معطي، الدرّة الألفية، ص42- 61- 62.

2- المكُّودي، شرح المكُّودي على ألفية ابن مالك، ج2، ص226.

3- أبو موسى الجزولي، المقدّمة الجُزوليّة في النّحو، باب التّحقيق، ص62 وص223- 224.

– لم يُجز إثبات التّنوين في الكلمات الثّماني (من الثّلاثة إلى العشرة وفي تثنية المائة والألف) ولا النّون في المائة والألف إلاّ لضرورةٍ شعريَّةٍ وذلك بقوله: "وقد التزموا حذفَ ما به التّمام إلاّ في ضرورة الشِّعر في ثمانِي كلمات من العدد ونون التّثنية منه فيها في كلّ كلمتين".

واحتكمَ المكُّوديُّ بِدوره في كثير من الآراء إلى باب الضَّرورات، وهذه الأمثلة تُؤَيِّدُ ذلك[1]:

– قال إنَّ حذف نون الوقاية مع (ليس) في النّظم كان لضرورة "يعني أنَّ نونَ الوقاية حُذِفَت مع (ليس) في النّظم لضرورة الوزن"، فنون الوقاية الّتي تقترن بـ (ليس) لا تُحذف في غير الشِّعر.

– احتجّ على جواز إضافة (أيّ) المكرّرة إل المفرد المعرفة بالضَّرورة لقوله: "يعني أنّك إذا كَرَّرْتَ (أيًّا)، جاز أنْ تُضيفَها إلى المفرد المعرفة نحو: أيّ زيد، وأيُّ عمرو عندك، بِمعنى أيّ الرّجلين، قيل: ولا يأتي إلاّ في الشِّعر"، فإضافة (أيّ) تحدث في الشِّعر فقط.

أمّا بالنِّسبة لموقف ابن معط من الضّرائر الشِّعريَّة فيُمكن القول إنَّ الضَّرورةَ الشِّعريّة عند النّحاة تُعدُّ شاذةً عنده في أغلب الأحيان، والشّاذ مخالفٌ للقاعدة وبالتّالي يُحفظُ ولا يُقاسُ عليه، ودليل ذلك أنَّه كان يُشيرُ في مواضع كثيرة إلى شواذ الشَّاهد الّذي يذكره، وهو بِهذا الموقف تابعٌ للبصريِّين، ومثال ذلك قوله إنَّ البيتَ الشِّعريَّ الّذي احتجّ به الكوفيُّون في جواز العطف على المُضمر المجرور بغير إعادة حرف الجرّ شاذٌّ[2]:

وَالمُضْمَر المَجْرُور إنْ عَطَفتا عَلَيْهِ جيءَ بِمَا بِه جَرَرْتَا
نَحْوَ: مَضَى بِهِ وَبِالغُلاَمِ وَشَذَّ مِنْه بِكَ والأيَّام

ولم يكن ابن آجُرُّوم من النّحاة الّذين بيَّنوا موقفَهم اتجه هذا المنزع، حيث لم يُشِر في مقدّمته إلى ما يدخل في باب الضَّرورات الشعريَّة إلاّ في موضع حديثه عن جوازم الأفعال بقوله "وإذا في الشِّعر خاصَّة"[3]، فقد خصَّ البصريّون وفي مقدّمتهم سيبويه هذا الرّأي بالضَّرورة وابن آجرّوم واحد منهم واستدلَّ كثيرهم بقول الشاعر[4]:

واستَغْنِ مَا أَغنَاكَ رَبُّكَ بالغِنَى وَإذَا تُصِبْكَ خَصَاصَة فتجمَّلِ*

[1]– المكُّودي، شرح المكُّودي على ألفية ابن مالك، ج1، ص144 وص483.

[2]– ابن معطي، الدرّة الألفية، ص42.

[3]– ابن آجُرُّوم، الآجُرُّوميّة، ص8.

[4]– استشهد ابنُ هشام الأنصاري بهذا البيت في مغني اللّبيب عن كتب الأعاريب في ثلاثة مواضع: ج1، ص108 وص112 وج2، ص805.

* تُروى كلمة (فتحَمَّلِ) بالجيم والحاء المهملة.

وإنْ كان نُحاة المغرب ممّن احتجّوا بكلام العرب المنثور والمنظوم فذلك يدلُّ على اعتنائهم أيضًا بلغات العرب، وبالأخصّ تلك اللّغات الّتي حدّدها العلماء؛ لأنَّ هناك من القبائل الّتي لا يوثق بلغاتها وهي كثيرة منها قُضَاعَة، لَخَم، جُذَام، خزاعة ثقيف وتغلب وذلك بِسبب مجاورة الأهالي للنّصارى والقبط والفرس والهند والحبشة وغيرهم ومخالطتهم ممَّا أفسدَ ألسِنتهم، وأمَّا القبائل الموثوق بها فتتمثَّل في قيس وتميم وأسد وعنها أكثر ما أُخِذَ ومعظمُه وعليها اعْتُمِدَ في الغريب والإعراب والتّصريف، ثمّ هذيل، وبعض كِنانة وبعض الطائيِّين؛ لأنَّ لغاتها فصيحة لسلامة ألسنة ناطقيها. وممَّا لا شكَّ فيه أنَّ موقفَ المغاربةِ من هذه اللّغات يختلفُ من نحويٍّ إلى آخر، ومع ذلك يُمكن القول إنَّهم عنوا عنايةً كبيرةً بلغة القبائل النَّجديَّة والحجازيَّة، وأخُصُّ بالذِّكر لغة بني تميم وطيء وأسد ثمّ هُذَيْل الّتي شاعَ ذكرُها فجعلوها لهم حجَّةً في إصدار الأحكام النّحويّة وإثباتها. ولكن ما لفَتَ انتباهي أنَّهم كثيرًا ما كانوا يُشيرون إلى لغة أهل الحجاز الّتي تُمثِّلُ في مُجملها أفصح لُغات القبائل المذكورة، باستثناء حاضرة الحجاز الّتي كانت موضع اجتماع النّاس الّذين يقصدونها من كلِّ ناحية للحجّ، واختلاط اللّغات وفساد الألسنة، ولهذا السّبب لا يعتدّون باللّغة المنقولة عن أهل هذه الحاضرة ومن وَفَدَ عليها. وفي الآتي أمثلةٌ من اللّغات الّتي استدلّ بها النّحاة المغاربة:

النّحاة	نماذج من اللّغات المستشهد بها
الجُزولي[1]	– احتجَّ بِلغة الحجاز في باب فَعَالِ بقوله إنَّ كلَّ ما يأتي من المصادر والصِّفات وأسماء الأفعال على وزن فَعَال مبنيٌّ على الكسر عند الحجازيّين؛ – وبلغة تميم في حديثه عن (لا) التّبرئة قائلاً إنَّ خبرها مرفوعٌ ولا يلفِظُ بخبرها بَنُو تمِيمٍ إذا كان ظرفًا؛
ابن معط[2]	– احتجّ بلغة طيء في باب الأسماء الموصولة مُشيرًا إلى أنَّ (ذي) الطّائيّة من الأسماء المتفقّ على اسميّتها، فهي تُستعمل موصولة وتكون مساوية للّذي والّتي وتثنيتهما وجمعهما، وذلك بقوله: نَحْو: الّذي قَامَ ومثلُهُ الّتِي وَمَن وَمَا وَالجَمْعُ وَالتَّثْنِيَة

[1] – أبو موسى الجزولي، المقدّمة الجزوليّة في النّحو، باب التّحقيق، ص214 وص306.

[2]– ابن معطي، الدرّة الألفية، ص37 وص46.

	نَحْو: اللّذَيْن والّذين والأُلَى والّلاءِ واللاّئي وَذُو قَد نُقِلا عَن طَيِّء في ذُو حفرتُ شاهدْ كذا الأُولَى في الشّعرِ أيضًا وارِدْ - وبلغة الحجاز في باب الحروف العاملة عمل ليس، حيث أشار إلى الحجازيِّين الّذين أجروا (ما) مجرى (ليس) في العمل لِشبهها بها في نفي الحال، خلافًا لبني تميم الّذين أهملوا عَمَلَها على الأصل، وذلك بِقوله: وَمِنْ عَدا أهلُ الحِجازَ رفعُوا خبرَ مَا إلاّ الّذين سَمِعُوا
ابن آجرُّوم	لم يُشِر في المقدّمة إلى أيّة لغة من اللّغات المذكورة أعلاه (سواء الموثوق بها أو غير الموثوق بها)
المكُّودي[1]	- ذكره للغة هُذيل وتميم في باب الموصول بالقول إنَّ هناك من العرب من يُجري الّذي مَجْرَى جمع المذكَّر السَّالم فيرفعه بالواو، ويَجُرُّه ويَنصبه بالياء فيقول "نُصر الَّذُونَ آمَنُوا على الّذين كفروا" وهي لغة هذيل وقيل لغة تميم؛ - وللغة ربيعة في باب الاستثناء بقوله "ووقف عليه بالسُّكون على لغة ربيعة".

الشَّكل رقم (24)

وهذا بِغضِّ النَّظرِ عن المواضع الّتي لم يكن هؤلاء النُّحاة يُصرِّحون فيها بأسماء اللّغات الّتي يحتجّون بها، حيث يكتفون بالإشارة إليها بمثل هذه العبارات: لغة العرب المشهورة، اللّغة المشهورة، لغة بعضهم، لغة ضعيفة، اللّغة الفصيحة، الأفصح، أفصح اللّغتين وسِواها، ولكن ما عدا ابن آجُرُّوم الّذي لم يُشِر إلى أيَّة لغة من لغات القبائل المذكورة كما يبدو. ومن الأمثلة على ما تقدَّم، إشارة ابن معط في باب النَّواسخ إلى لغة الحجازيِّين في إعمال الحرف (ما) عمل (ليس) لِشَبَهِها بها فترفع الاسم وتَنصِب الخبر، ولغة بني تميم في تركه وكلٌّ منهما مقبول في القياس، ولكنّه لم يُصرِّح بهما لقوله[2]:

القَوْلُ فيما يَرفَعُ الأَسْمَاءَ ويَنْصِبُ الأَخْبَارَ حيْثُ جاءَ
مِن ذَاك أفعالٌ ومنه حرفُ والحرفُ في اللّغاتِ فيه الخُلْفُ

كما وجدت من النُّحاة الّذين يُشيرُون أحيانًا إلى ما في اللّفظة من لغات للعرب ومثال ذلك، قول الجزولي في باب معرفة علامات الإعراب "وفوك إذا عُوِّض من واوه ميمٌ ففيهِ أربعُ

[1]- المكُّودي، شرح المكُّودي على ألفية ابن مالك، ج1، ص166- 167- 393.
[2]- ابن معطي، الدرّة الألفية، ص45.

لغات: فَمٌ وفِمٌ وفُمٌّ وفُم بالإتباع"[1]، فقد أشار إلى اللّغات الأربع للفظ (فوك) بعد تعويض واوه بالميم. وقول المكُّودي عن (حاشا) الاستثنائيَّة شارحًا بيت ابن مالك "ولمّا كان في (حاشا) ثلاث لغات نَبَّهَ على ذلك بقوله (وقيل: حاشى، وحشا فاحفظهما)"[2]، يُفهم من هذا أنَّه قُرِئَ باللّغات الثّلاث ولكن أقلّها (حشا) وأكثرها (حاشا).

ولاحظت بخصوص ذِكْرِهم بعض اللّغات أنَّ هناك من النّحاة الّذين انفردوا بالاستدلال بها في بعض المسائل، ومنهم الجزولي الّذي انتُقِدَ بسبب ما قاله عن بني تميم في موضع حديثه عن (لا) التّبرئة مُشيرًا إلى أنَّ خبرها مرفوعٌ ولا يلفِظُ التميميّون به إنْ كان ظرفًا. فكلّ ما في الأمر أنَّ هؤلاء النّحاة لم يتساهلوا كالكوفيِّين في الاحتجاج باللّغات، حيث لم يحتجّوا باللّغات الّتي امتنعَ البصريّون عنها، حتَّى المكُّودي لم يسلك أسلوبَ ابن مالك الّذي اشتهر بموقفه المتساهل في الاستشهاد بلغات القبائل غير الموثوق بها، وللعلم فإنّ كثرةَ اللّهجات هي السَّبب في ظهور القراءات القرآنيَّة واختلافها إلى أنْ أصبحت علمًا قائمًا بِذاته.

4- التّعليل في نحو المغاربة: العلَّةُ هي دعامة القياس الأساسيَّة، ظهرت مع ظهور القياس الّذي اعتمد عليه النُّحاة في أغلب أحكامهم النَّحويَّة، حتَّى إنَّ القواعد الّتي وضعها الخليل وسيبويه اعتمدت كلَّ الاعتماد على التَّعليل، ويُعدُّ كتاب سيبويه أوّل بحث جامع للعلل النَّحويَّة، فقد حاول فيه إيجادَ العلل لكلِّ ما يراه من أحكام وقواعد. ومع الوقت توسَّعَ اهتمام النّحاة بالعلّة ولا سيما مع تَفَرُّعِ القواعد وتَنَوُّعِ العلل فصار هناك كتب خاصّة تناولت العلّة والتّعليل كموضوع مستقلّ، ومنها (العلل في النَّحوِ لقطرب) و(الإيضاح في علل النَّحوِ) للزَجَّاجي وسِواهما، وكان ابن جنّي أكثرهم تحمُّسًا بالعلّة وقد عُرِفَ بِدفاعه عن العلل فهو من قام بِتصنيفها إلى أنواع مختلفة، ولذلك حاول إخضاعَ جميع القواعد النّحويّة إلى هذه العلل الّتي أدركها ودَقَّقَ فيها وكتابه (الخصائص) سِجِلٌّ حافلٌ بتلك العلل[3]. والعلل النَّحويَّة في ثلاثة أنواع هي: العلل التَّعليميَّة، العلل القياسيَّة، والعلل الجدليَّة النّظريَّة، مع العلم أنَّ النَّحاة تعرضّوا للانتقادات من قبل ابن مضاء الّذي حاول تخليصَ النّحو من كثرة العلل.

والنَّاظِرُ في كتب المغاربة يجد فيها ما يدلُّ على اهتمام أصحابها بالعلَّة والتّعليل مع اختلاف درجة اهتمام بعضهم عن بعض. وفي ما يخصُّ موقف الجُزولي من العلَّة فأقول إنَّه

---

[1]- أبو موسى الجزولي، المقدّمة الجُزولية في النّحو، باب التّحقيق، ص20.

[2]- المكُّودي، شرح المكُّودي على ألفية ابن مالك، ج1، ص402.

[3]- عبد العال سالم مكرم، المدرسة النّحويّة في مصر والشّام في القرنين السَّابع والثَّامن من الهجرة، ص262- 265.

قليل العلل على الموضوعات النَّحويَّة الّتي تناولها لصِغر حجم مقدّمته، بالإضافة إلى قلَّة الأمثلة والشَّواهد الّتي كان يستدلّ بها على آرائه وآراء غيره، ولكن هذا لم يمنعه من اعتماد العلَّة في بعض المواضع. وكذلك الأمر بالنِّسبة لابن معط الّذي قصَر التَّعليلَ على بعض المسائل النَّحويَّة الّتي تناولها، ولأنَّه راغبٌ في تبسيط القواعد فقد جاءت تعليلاته الّتي قلَّت في مؤلَّفاته كما يبدو بِأسلوب بسيط وواضح أبعده عن التكلُّف إلى حدٍّ ما. ويليه ابن أَجُرُّوم الّذي كان نادرًا جدًّا ما يُعلِّلُ المسائل الّتي تناولها. وأمّا المكُّودي فأجده أكثرهم اعتمادًا على التَّعليل حيث كان يُعلِّل كلّ قضيَّة عرض لها، وكلّ مسألة شَرَحَها بأسلوبٍ سلسٍ وبسيطٍ ممّا جعل التّعليل من أهمّ سمات شرحه؛ لأنَّ ذلك كان من أهدافه حين قال إنَّه يسعى إلى توضيح كلّ ما تضمنّته (الأَلفية) من أبواب نحويَّة وألفاظ عويصة ومعانٍ غامضة على صغار الطّلبة. وفي الآتي نماذج من العلل الّتي اعتمدها بعض النّحاة:

النّحاة	أمثلة من العلل النَّحويَّة
الجزولي[1]	- حكى عن المُضمر الّذي لا يُنعت بأكثر من علّة بقوله: "والمضمر: لا يُنعتُ؛ لأنّ ما يُفسِّره يُغني عن نعته ولا يُنعتُ به، لأنّه ليس مُشتقًّا ولا في حكمه"، فهو يمنعُ نعت المُضمر لعدّة أسباب منها أنّه يُؤتى بالنّعت للتّفرقة بين المشتركين في الاسم في الأصل والضّمير لا يشترك فيه لكونه بمنزلة وضع اليد على من يُشير إليه، كما أنَّ الّذي يُفسّره يقوم مقام نعته به وإلى غير ذلك؛ - لم يُجِز الإخبار عن مبتدأ الأفعال النَّاقصة بالماضي لِمَا فيه من المناقضة معلّلاً بقوله: "ولا يدخلُ علَى المبتدأِ المُخْبَرِ عنْه بالماضي إلاَّ ما يُناقِضُ معنَاه المضِيّ مِنْهَا"، ويقصد هنا ما زال وأخواتها الّتي لا يقع خبرها ماضيًا؛ لأنّه مع الأفعال الأخرى يجوز أنْ يأتي الخبر كذلك في حالة اقترانه بِقد أو بِدونها وأكثر ما يكون ذلك مع (كان) وأمّا أصبح وأمسى وأضحى وبات وظلّ فقليل ما تليها الجملة الفعليّة الماضويّة.
ابن معط[2]	- علَّل لنعت أسماء الإشارة باسم جامد معرَّف باللام للجنس لكون الصِّفة فيه

[1]- أبو موسى الجزولي، المقدّمة الجزوليَّة في النّحو، باب التّحقيق، ص66 وص108.

[2]- ابن معطي، الدرّة الألفية، ص40 وص70.

	مقصودة دون الموصوف؛ لأنَّ (هذا) الّذي مثَّل به في البيت مجهول الجنس فبيَّنَ جنسَه باسم الرّجل، وذلك بقوله: بِكُلِّ مَا بقيَ من المَعَارِف أَمَّا الإشَارات فنَعتُهَا خَـفِيّ لأنَّهَا اسم جَامد كَالرَّجُل مُعَرَّف بِاللاّم كَالمُمَثَّلِ – كما علَّل لِحذف الواو في المضارع إذا وقعت فاء بين ياء مفتوحة وكسرة لازمة ظاهرة أو مقدَّرة بالاطِّراد قائلاً: والواو بين الكسرِ والياءِ حُذِفْ مُطَّردًا كَيَعِدُ الحُكْمُ عُرِفْ
ابن آجُرُّوم[1]	– عَلَّلَ لتغيير أواخر الكلم بالقول "الإعراب هو تغيير أواخر الكلم لاختلاف العوامل الدَّاخلة عليه"؛ – كما علَّلَ عن علامات الجزم ومواضعها في باب معرفة علامات الإعراب بالحذف بقوله: "وأمَّا الحذف فيكون علامةً للجزم في الفعل المُضارع المعتلّ الآخر وفي الأفعال الخمسةِ الّتي رفعُها بِثبات النُّون".
المكُّودي[2]	– عَلَّلَ لحذف نون الفعل المضارع (يكون) حين يدخل عليه جازم بقوله: "إذا دخل الجازمُ على مضارع كان وهو يكون سُكِّنَت نونُه وحُذِفَت الواو لالتقاء السّاكِنَيْن فنقول: لم يَكُنْ، ويجوز بعد ذلك أنْ تُحْذَفَ نونه لِشبهها بحرف اللّين ولكثرة الاستعمال فتقول: لم يَكُ زيدٌ قائمًا"؛ – علَّل لِعمل (لا) النَّافية للجنس عمل (إنَّ) بالقول بعد ذِكره لقول ابن مالك: "وإنَّما عملت عمل إنَّ؛ لأنَّها في النّفي نظيرة إنَّ في الإيجاب إذْ إنَّ توكيد للإيجاب. ولا توكيد للنّفي، ولمّا كان عملها بالحمل على إنَّ ضعُفَت فلم تعمل إلاَّ في نكرة ولذلك قال – أي النّاظم– في نكره".

الشَّكل رقم (25)

تكفي هذه الأمثلة دليلاً على أنَّ للمغاربة اهتمامًا بالعلل إلى حدٍّ ما، حيث علّلوا كثيرًا من المسائل النَّحويَّة وفقًا لِمَا هو مطَّرد في كلام العرب. هذا وتميّزت عللهم بالتنوّع، فقد جاءت في أكثرها تعليميّة وقياسيَّة، تتوزَّع بين علّة كثرة الاستعمال، وعلّة تضاد، علّة اختلاف عامل، علّة حمل شيء على شيء وعلّة مشابهة وسِواها.

---

[1]– ابن آجُرُّوم، الآجُرُّوميّة، ص3 وص5.

[2]– المكُّودي، شرح المكُّودي على ألفية ابن مالك، ج1، ص228 وص272.

5- آراء العلماء في النُّحاة المغاربة وانتماءاتهم النّحويّة: إنَّ إجماعَ العلماء الّذين ترجموا لِنُحاة المغرب على الثّناء عليهم والإشادة بِجهودهم في معظمها دليلٌ على علوّ رُتْبَتِهم العلميّة، فقد ذاعت أسماؤهم في الآفاق وذُكِرت مؤلّفاتُهم بالقول الحسن ونالت من اهتمام الدّارسين والعلماء الشّيء الكثير. والبداية كانت مع الجُزولي الّذي اشتهر أمرُه بمراكش فَقَصَدَه الطّلبة من كلّ ناحية. ونظرًا لعلوّ مكانته بين اللّغويّين والنّحاة فقد اتّفقت أكثر الرِّوايات التّاريخيّة على القول إنَّه إمامُ النُّحاة في زمانه وشيخهم في المغرب والأندلس، ومعلوم أنّه لم يتتلمذ عليه الطّلبة المغاربة فقط، بل دَرَسَ عليه الأندلسيّون أيضًا وانتفعوا به، فكما قال ابن خلكان عنه "كان إمامًا في علم العربيّة، كثير الاطّلاع على دقائقه وغريبه وشاذه"[1]، وكذلك السيوطي الّذي قال "كَانَ إِمَامًا فِيهَا لَا يُشقُّ غبارُه؛ مَعَ جودة التّفهيم وَحسن الْعبارَة"[2]. وتكفي هذه الشّهادات للقول إنَّ الجُزولي شخصية علميّة لامعة في زمانه.

ولا يُنسى لِما له من فَضْلٍ كبيرٍ في التَّأسيس للدَّرس النَّحويِّ في المغرب عامّة، فهو ذلك "النَّحويّ المُمتاز بِجودة الفكر وحُسْن التَّعليل فيكون إحدى دعائم النَّهضة الّتي شملت كلَّ ميدان من ميادين النَّشاط العقليّ في البلاد"[3]، إذْ بعد عودته من المشرق واعتماده منهجَ شيخه ابن برّي في تلقين هذا العلم استطاع أنْ يُؤسِّسَ المدرسة المغاربيَّة في النَّحوِ الّتي تخرَّج فيها الكثير من طلبة المغرب والأندلس، وذَاعَ صيتُها في عصره وما تلاه، ومن حينها بدأ بالفعل التَّأثيرُ المغاربيّ في هذا الحقل على نطاق واسعٍ ولِزمنٍ طويلٍ فصار هناك إشارة إلى أنَّ بالمغرب شيخًا متمرِّسًا في النَّحو صاحب المقدّمة الشَّهيرة الّتي انشغَلَ بها النّاس واشتغلوا.

وإنْ كان للجزولي من الاجتهادات الّتي تميَّزَ بها وانفرد فلابدَّ أنْ أذكرَ ضمن ذلك معنى (الإفادة) الّذي أضافه في تعريفه للكلام قائلاً إنَّ "الكلام هو اللّفظ المركّب المفيد بالوضع"، ولم يُعرَفْ هذا عن غيره من النّحاة وبالأخصّ المشارقة الأوائل الّذين قعّدوا للنّحو. واختار قولَه هذا من المغاربة ابن معط الّذي اعتمد مصطلح (الإفادة) في (الدرّة الألفية) و(الفصول) قائلاً "الكلامُ هو اللّفظُ المركّب المفيد بالوضع". وكذلك ابن آجرُّوم الّذي قَدَّمَ التّعريفَ ذاته للكلام

[1]- ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج3، ص488- 489

[2]- السيوطي، بغية الوعاة، مج2، ص236.

[3]- عبد الله كنون، ذكريات مشاهير رجال المغرب في العلم والأدب والسياسة، ج1، ص311.

قائلاً "الكلام هو اللّفظ المركّب المفيد بالوضع"، وقد مَرَّ ذِكْرُ هذا في ضوء حديثي عن تأثُّرهما بنحو الجزولي. بالإضافة إلى النّتائج الّتي توصَّل إليها في بعض المسائل، منها[1]:

– كَشْف فروق جديدة تُميِّز الاسم عن غيره من أقسام الجملة؛

– استخدام القيم الخلافيّة في المقارنة بين أقسام الكلم من جهات دراسيَّة متعدِّدة؛

– التّقسيم المفصّل للجمع وحصر مسائله؛

– دراسة الزّمان في الفعل وهي أهمّ ما توصّل إليه، وتتلخّص في استخدام قرائن السيَّاق للكشف عن الزّمان في الفعل، فقد أدركَ أهميّة هذه القرائن في تحديد معنى الزّمان؛

– تحديد جهة إعراب الفعل المضارع الّتي تتمثّل في بيان معنى الزّمان فيه وإزالة الإبهام عن المعنى بتخصيصه إلى الحال أو الاستقبال. وتناول في إطار ذلك الأدوات الّتي تدخل ضمن مباحث الإعراب مع قرائن السيّاق الأخرى الّتي تحدّد معنى الزّمان.

ويليه ابن معط الّذي أشاد العلماء بجهوده القيِّمة كثيرًا ولا سيما ببراعته في النَّظم النَّحويِّ. وحين ترجم السيوطي له أثنى على فضله في تقَدُّمِ الدَّرس النّحويِّ وازدهاره في عصره حتَّى عَدَّه من أئمة علوم العربيَّة "كان إمامًا مبرزًا في العربيَّة، شاعرًا محسِنًا"[2]، فهو نحويٌّ ماهرٌ وأديب بارعٌ وشاعرٌ مميّزٌ. وابن خلكان الّذي اعترف بتفوّق ابن معط لقوله "كان أحد أئمة عصره في اللّغة والنَّحو"[3]. وقيل كذلك إنَّ (الدرّة الألفيّة) دليل على تقدّمه في النَّحو والأدب "شاهدة لناظمها بإصابة الصّواب، والتفنّن في الأدب حتَّى كأنَّ سيبويه ذا الإعراب قالَ له يا يحي خُذ الكتابَ"[4]. فتكفي هذه الأقوال لِأُدرِكَ أنَّ لابن معط مكانةً مرموقةً بين النّحاة بِدليل أنّه تركَ ما يدعو إلى الإشادة والثّناء.

ويأتي بعدهما ابنُ آجُرُّوم من نُحاة المغرب الّذين ذُكِروا بالقول الحسن أيضًا، حتّى وإنْ لم يُؤلِّف الكثيرَ إلاَّ أنَّ (الآجرُّوميّة) جعلته ينالُ تقديرَ العلماء والدَّارسين لها، وقد وصفه شُرّاح مقدّمته أمثال المكُّودي والراعي وغيرهما "بالإمامة في النَّحو والبركة والصّلاح، ويشهدُ بِصلاحه عمومُ نفع المبتدئين بمقدّمته"[5]. وهذا ابن مكتوم (ت749هـ) يقول: "نحويٌّ، مقرئٌ وله

[1]– أبو موسى الجزولي، المقدّمة الجزوليّة في النّحو، باب التّحقيق. وأحمد الزواوي، أبو موسى الجزولي، عرض لحياته العلميَّة، ومنهجه في البحث، وتأثيره في حقل النّحو، ثمّ نقد لِمنهجه، ص249– 250.

[2]– السيوطي، بغية الوعاة، مج2، ص344.

[3]– ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج6، ص197.

[4]– عمر بن الوردي، تاريخ ابن الوردي، ط1. بيروت: 1996م، ج2، دار الكتب العلميّة، ص154.

[5]– السيوطي، بغية الوُعاة، مج1، ص238.

معلومات من فرائض وحساب وأدب بارع وله مُصنّفات وأراجيز"[1]، فكلّ هذا يكفي دليلاً على مكانة ابن آجُرُّوم العلميَّة.

وكان من خيرة نحاة العصر المرّينيّ مثلما أسلفت في القول، المكُّودي الّذي ذاع اسمُه بين نُحاة المغرب والمشرق، فقد عُدَّ هو كذلك إمام النَّحو في زمانه، حيث تصدّر لتدريسه ببلده، والتّأليف فيه حتّى إنَّه عُدَّ من أشهر شُرَّاح ألفيّة ابن مالك، فهو "أحدُ أعلام الأساتيذ والنّحاة بِفاس، له شرحٌ على أَلفية ابن مالك وأجاد فيه غاية الإجادة"[2]، مع اشتهاره بِوضع الأراجيز والمنظومات في التَّصريف.

وفي ما يخصّ الآراء الّتي قيلت عن انتماء علماء المغرب النَّحويِّ فثمّة ما يجب الحديث عنه، إذْ يبدو أنّ العلماء والدَّارسين اختلفوا في تحديد موقع المغاربة من مذاهب النَّحو المشرقيَّة وبالأخصّ البصريَّة والكوفيَّة، فالبعض يرى أنَّ نُحاة المغرب ذهبوا مذهب الكوفيِّين إلى حدّ كبير ممّا يُلغي متابعتَهم للآراء البصريَّة "المدرسة الجديدة للنّحو في الأندلس والمغرب قامت في مهد كوفيّ وضدًّا على البصريِّ الّذي كان المغاربة يعنون بِدراسة كتبه الكبرى ولا سيما سيبويه وإنْ لم يقولوا بالكثير من آرائه"[3]، يُفهم من هذا أنّ نُحاة المغرب والأندلس اشتغلوا كثيرًا بالنَّحوِ الكوفيِّ، وكان ذلك لأسباب معيّنة وأهمّها أنّهم عرفوا نحو الكوفيِّين عن طريق كتاب الكسائي، كما أنَّ أصحاب هذا المذهب كانوا أكثر احتجاجًا بقول الرّسول ﷺ، وأوافقهم في هذا الرَّأي بحجّة أنَّ أكثر المغاربة تابعوا الكوفيِّين في مصطلحاتهم وآرائهم، وقد صرَّح بهذا السيوطي حين قال عن ابن آجرّوم إنَّه كوفيُّ المذهب وهذا بِغضّ النَّظر عن أَخْذِه الكثير من مصطلحات النُّحاة البصريِّين وآرائهم أيضًا، ولكن سبق أنْ ذكرت أنَّه لم يتقيَّد بمذهب الكوفيِّين فقط، بل ساندَ المذهبين معًا، مع الميلِ إلى الرَّأي الصَّواب. أمّا غيره فيقولون إنّ كثيرًا من نُحاة المغرب وافقوا البصريِّين إلى درجة التعصّب لهم، حتّى ساد المذهب البصريّ بينهم واعتمدوا آراء أصحابه حجّةً لهم للاستدلال في مسائل الخلاف، بِدليل أنَّ كتابَه الّذي اطّلعوا عليه لاحقًا حَلَّ مكان كتاب الكسائي الّذي كان أوّل ما اطّلع عليه أهل المغرب من الكتب النَّحويَّة. كما أوافق على هذا الرَّأي بِحُكْمِ أنَّ النُّحاة المغاربة ساندوا البصريِّين كثيرًا وفي مقدّمتهم سيبويه فقد تناولوا كتابَه بالدِّراسة والشَّرح أكثر من أيِّ كتاب نحويّ آخر، علاوة على

[1] – ابن العماد الحنبلي، شذرات الذّهب في أخبار من ذهب، مج8، ص112.

[2] – ابن القاضي، جذوة الاقتباس في ذكر من حلّ من الأعلام مدينة فاس، ج2، ص403.

[3] – علال الفاسي، "سيبويه والمدرسة الأندلسيّة المغربيّة في النّحو"، مجلّة اللسّان العربيّ، مج12، ج1، ص81.

ذلك فإنّني لم أَعثُرْ ضمن كتب المغاربة على شروح تخصُّ مثلاً كتاب الكسائيّ أو الفرّاء وهذا رغم اطّلاعهم المُبَكِّر على كتابيهما قبل كتاب سيبويه. وعلى هذا رأى بعضُ الباحثين أنَّ أكثر المغاربة ساروا على خطوات البصريِّين في اتّجاههم النّحويِّ. فبالنِّسبة للجزولي وجدتُ أنَّ مذهبَه قائمٌ على مبدأ الاختيار من المذاهب الأخرى، ولكنّه كان كثير المَيْلِ إلى البصريِّين بِدليل أنّه تابعهم في كثير من آرائهم واعتمد مصطلحاتهم. وكذلك الأمر مع ابن معط الّذي تابع البصريِّين في آراء والكوفيِّين في أخرى، غير أنّه كان بصريًّا في أكثر مواقفه، فكما يقول محقّق (الفصول) "ولئن تابع ابن معطي آراء الكوفيِّين، فإنّ هذا لم يمنعه من مناقشتهم في بعض ما ذهبوا إليه، ممّا يكشف عن ولائه للبصريِّين"[1]، أي أنّه كان أكثر متابعةً للمذهب البصريِّ لأنَّ معظم اختياراته تخصّ البصريِّين. وأمّا ابن آجُرُّوم فحتَّى وإنْ صرَّح السيوطي بكوفيَّته إلاَّ أنَّني وجدته متابعًا للبصريِّين في مواضع كثيرة، وهو بِذلك كما وافق الكوفيِّين في آراء خالفهم في أخرى والعكس يحدث مع المذهب البصريِّ وحتَّى البغداديّ والمغاربيّ الأندلسيِّ الّذي تابع بعض أعلامه كالجُزولي وابن معط. والمكُّودي الّذي لم يكن بدوره ممّن يميلون إلى مذهبٍ نحويٍّ دون آخر، فقد اعتمد مذهبَ المتأخِّرين الّذي يقوم على مبدأ الاختيار، فتارةً يساند البصريِّين وتارةً أخرى الكوفيِّين، وتبدو متابعته لهؤلاء في استشهاده بالقرءات القرآنيَّة الّتي توسَّعوا فيها.

وكلّ ما في الأمر، أنَّ نحاة المغرب اعتمدوا منهج المتأخِّرين في الاختيار من الآراء البصريّة الّتي لا أنكر ميلَ بعضهم إليها ومساندتها أكثر، مع آراء الكوفيِّين الّتي تابعوها في مسائل كثيرة أيضًا، ثمّ متابعتهم للبغداديِّين وبخاصّة الفارسيّ والزجَّاجي وابن جنّي. كما تابع المغاربةُ والأندلسيُّون بعضهم بعضًا كابن معط الّذي ساندَ شيخه الجُزولي كثيرًا، وابن آجُرُّوم الّذي تابع بِدوره هذيْن النحويَّيْن وأيَّدهما في اختياراتهما، والأمر ذاته مع ابن مالك الّذي تابَعَ الجُزولي وابن معط في مواضع عدّة، ولا أنسى المكُّودي الّذي تأثَّر بابن مالك وأبي حيّان.

سبق القول إنَّ أكثر العلماء والباحثين يُدرج نُحاة المغرب مع الأندلسيِّين، فإمّا يذكرونهم في إطار ما يُعرف باسم المذهب الأندلسيّ المغاربيّ، وإمّا المذهب الأندلسيّ وحده دون الإشارة إلى لفظ (المغاربيّ)، فهذا شوقي ضيف يذكُرُ الجُزولي مع الأندلسيِّين الّذين كانوا أوّلاً أكثر اشتغالاً بالنّحو، وثانيًّا صلة المغاربة بالنّحو كان بواسطتهم، أضف إلى ذلك أنَّ مدن المغرب لم تكن لِتعرفَ النّشاطَ النّحويَّ لو لا جهود الأندلسيِّين في التّدريس والتّأليف، وكان ابن

[1]- ابن معطي، الفصول الخمسون، ص86.

أبي الرّبيع الإشبيليّ السّبتي خيرَ مثال على ذلك التّمازج بين القطرين فلو لا هو لمّا ازدهر هذا الحقل بسبتة، وحتّى فاس تقدَّم فيها النّحوُ ونَشَطَ بِفضل جهود الخدبّ وابن خروف وسِواهما. وللعلم فإنّ بعض كتب التّراث الّتي تعرَّضت لطبقات النّحاة حصرت النّحو في المدرستين البصريّة والكوفيّة فقط، وأمّا الكتب الحديثة فقد اختلف أصحابُها في الرَّأيِ؛ لأنَّ بعضهم تابعَ القدامى في تقسيمهم الثّنائي وبعضهم الآخر أضاف إلى المدرستيْن مدارس أخرى[1]، وهذا مع اختلافهم طبعًا في عدد المدارس الّتي تكوّنت بعدهما.

ومهما يكن من أمر، فإنَّه من الصّعوبة رَبْط اسم النَّحو في المغرب بعلماء يكونون مغاربة من حيث المولد والنّشأة والتّدريس والتّأليف ببلدهم حتّى الوفاة، ونادرًا جدًّا ما يكتفي النّحويُّ بالأخذ عن شيوخ بلده والتّدريس فيه دون أنْ يضطرَّ للمغادرة لسبب من الأسباب إلى المشرق أو الأندلس، والعكس صحيح بالنِّسبة للأندلسيِّين الّذين كثُرت تنقُّلاتهم إلى المغرب واستقرارهم فيه، والنّتيجة أنّهم أسهموا في نشاط الحركة الثّقافيّة وازدهارها عامّة.

6- أثر نُحاة المغرب في مصنّفات غيرهم: إذا تأثَّر المغاربةُ بنُحاة المشرق والأندلس فالعكس يحدثُ معهم أيضًا، حيث كان لهم أثرٌ كبيرٌ في غيرهم من العلماء القدامى والمُحدثين، فمنذ بدأت صلةُ المغاربة مع النَّحوِ تَبرُزُ وتتطوّر شيئًا فشيئًا إلى أنْ تجلَّت معالمُها بوضوح في القرنِ السَّادسِ الهجريِّ، فإنَّ لهم في الذِّكر الحظَّ الوفير، حيث لهم من المُصنّفات والمتون الّتي حظِيت بإعجاب العلماء والدَّارسين على اختلاف مستوياتهم ومواطن نشاطهم العلميِّ منذ تأليفها إلى اليوم، فقد أصبحت تلك المُصنَّفات تتنقّل بين الحواضر في سائر الأقطار العربيّة مشرقًا ومغربًا، ممَّا جعلها تتبوّأ مكانةً مهمّة بين كتب النَّحو الأخرى حيث ظلَّت تُدرَّسُ إلى جانب (الكتاب) و(الجمل) و(الإيضاح) و(الخصائص) وغيرها، كما اتّخذها كثيرٌ من العلماء مصدرًا مهمًّا من مصادر النَّحو العربيِّ الّتي يعودون إليها للاستدلال بآراء نُحاة المغرب وتوجُّهاتهم، وكان ذلك إمّا لِغرض الموافقة على ما ذهبوا إليه اجتهادًا وترجيحًا وإمّا للاعتراض، كما كانوا يُشيرون إليها بهدف التّصويب والشَّرح.

أ- **الجُزولي في كتب النّحاة:** شَاعَ اسمُ الجزولي في كتب نحويَّة كثيرة منذ عرف النّاسُ كتاب (الجُزوليّة) الّذي طارت شهرته في الآفاق، حتّى إنَّه كان أكثر ذكرًا من المؤلّفات الأندلسيّة، فقد ظلَّ "متداولاً جنبًا إلى جنب، مع (الإيضاح) و(الكتاب) و(المفصّل) و(الجمل)

---

[1]- محمّد مختار جميل بريون، "المدارس النّحويّة (مقارنات بين وجهات نظر فيها)" حوليّة المجمع. طرابلس: 2010م، مجلّة مجمع اللّغة العربيّة، ع8، مكتب النّشر بالمجمع، ص241- 242.

وغيرها، وربّما فَاقَ بعضَها من حيث الأهميّة، إذْ إنَّ الدِّراسات الّتي وُضِعت عليه كثيرة، وأنَّ تلك الدِّراسات وضعها كِبارُ النّحاة في القرن السّابع، فابن مالك، وأبو علي الشَّلوبين وابن عصفور، وابن معطي، وعلم الدّين، وابن الخبّاز، والأُبَّذي، وابن أم قاسم، من أنبه النُّحاة بعد عصر أبي موسى. بل نرى أنَّ المقارنةَ بين (القانون) وبين مؤلَّفات الأندلسيِّين ليست بِمقبولة لأنَّ مؤلَّفًا واحدًا منها لم يُقارب مكانته، ما عدا ألفية ابن مالك"[1]، فتَدَاوُلُ (الجزوليّة) بين النُّحاة وكثرة الشُّروح عليها خَيْرُ شاهد على أهميّة صنيعِ الجُزولي فيها، ومدى تأثيره على معاصريه ومَن تبِعه، ومن النُّحاة الّذين ذكروا الجُزولي في مؤلّفاتهم وأفادوا وتأثّروا به:

– **ابن عصفور**: كان كثيرُ الاستفادة من حدود (الجزوليّة) وتعريفاتها، ولوحِظ ذلك في صياغة بحوث كتابه (المُقرّب)[2]. والنّاظر لهذا الكتاب يُدركُ العلاقةَ بينه وبين (الجُزوليّة)، حيث اعتمد ابن عصفور على بعض الحدود والتّعريفات الّتي ذكرها الجُزولي.

– **ابن الحاجب**: اعتمد ابن الحاجب على منهج الجُزولي عند مناقشته جُملةً من المباحث النّحويّة، ممّا دلَّ على الصِّلة الّتي تجمع بين (كافية) ابن الحاجب و(الجُزوليّة)، حيث ذكره في مواضع عدَّة، وكان تارةً يُسانده في موقفه وتارةً أخرى العكس، والعبارات الآتية دليلٌ على مواقفه من آراء الجزولي واختياراته: (قال الجزولي ونِعْمَ ما قال، منع الجزولي، قول الجزولي أقرب، ذهب الجزولي وتَبِعَهُ مَنْ شَرَحَ كلامَه وغيرها)[3]، وكثيرًا ما كان يذكر آراء المُصنِّف وتأييده آراء الجزولي بالقول (قول الجزولي وتبعه المُصنِّفُ أو الأندلسيّ)، كما يُصرِّح في مواضع أخرى بمخالفته له، ومثال ذلك مساندة رأي الجزولي في (لكنْ) المخفَّفة الّتي اختلف النُّحاة في جواز العطف بها أو الامتناع عنه "إذا ولِيَها مجرورٌ بلا جار نحو: ما مررتُ بزيد لكنْ عمرو، فالأَولى كما قال الجُزولي: إنَّها في المفرد عاطفة إنْ تجرَّدَت من الواو، وأمّا مع الواو فالعاطفة هي الواو، ولكن لمجرَّد الاستدراك"[4]، كما كان يَنْكُرُ عليه بعض الآراء الّتي ذهب إليها ولا سيما في ما حكاه عن جواز حَذْفِ خبر ليس النّافية للجنس إذا كان ظرفًا.

---

[1]– أحمد الزواوي، أبو موسى الجزولي، عرض لحياته العلميّة، ومنهجه في البحث، وتأثيره في حقل النّحو، ثمّ نقد لِمنهجه، ص245.

[2]– المرجع نفسه، ص238.

[3]– رضي الدّين الإستراباذي، شرح الرضي لكافية ابن الحاجب، دراسة وتحقيق: يحي بشير المصري، المملكة العربيّة السعوديّة: 1997م، وزارة التّعليم العالي، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلاميّة، سلسلة نشر الرّسائل العلميّة 15 القسم2، مج1، ص867- 962- 1053- 1117.

[4]– المرجع نفسه، مج1، ص1355- 1356.

- **ابن مالك الأدلسيّ:** يعُدُّ ابن مالك من نُحاة الأندلس المتأثِّرين بِنحو الجُزولي، بِدليل أنّه استند في (الأَلفية) و(التّسهيل) إلى آرائه في مسائل خلافيّة كثيرة، ولا سيما (التّسهيل) حتّى قيل إنَّ ثمّة صلة وثيقة بين (التّسهيل) و(الجُزوليّة)[1]. كما اقتبس ابن مالك من هذه الأخيرة بعض التّعريفات مثل تعريفه الكلام حيث ذَكَرَ فيه لفظ (الإفادة) الّذي سبق إليه الجزولي قبل غيره من النُّحاة، فإذا قال الجُزولي إنَّ الكلمَ يتمثَّلُ في الاسم، والفعل، والحرف، فإنَّ لابن مالك القولَ ذاته، فقد أشار في مؤلّفاته إلى هذا الموضوع بالقول: اسم وفعل، ثمّ حرف الكلم[2]. ولكن كما نَقلَ عنه ابن مالك آراء واتّفقَ معه رَدَّ عليه في آراء أخرى، فقد أنكَر عليه مثلاً قوله إنَّ بني تميم لا يلفظون بخبر (لا) حين يكون ظرفًا وهو الرّأي الّذي انفردَ به كما تحدَّثْتُ في موضعه، وصَرَّحَ ابنُ مالك برأيِه هذا في شَرْحِ (الكافية الشَّافية) قائلاً "وزَعَم قومٌ منهم الزّمخشري والجُزولي: أنَّ بني تميم يحذِفون خَبَرَ لا مطلقًا على سبيل اللّزوم. وليس بِصحيح ما قالاه؛ لأنَّ حذفَ خبرٍ لا دليلَ عليه يلزَمُ منه عدم الفائدة. والعربُ مُجْمِعُون على تَرْكِ التكلّم بما لا فائدة فيه"[3]، وإلى غير ذلك من المواضع.

- **ابن عقيل:** أشار ابن عقيل إلى الجُزولي في شرحه، حيث أنكر عليه ما قاله عن عدم جواز جرّ المفعول له باللام إلاّ إذا كان مختصًّا، وعبارة ابن عقيل "ويجوز جرُّه فتقول ضربت ابني لتأديب، وزَعَم الجُزولي أنّه لا يجوز جرُّه وهو خلاف ما صَرَّحَ به النّحويُّون"[4]، والصّواب بالنِّسبة إليه هو العكس إذا لم يكن هناك مانع يمنع منه وهو رأيُ جمهور النُّحاة.

- **ابن هشام الأنصاري:** كان من النُّحاة الّذين تأثّروا بآراء الجزولي، ويتجلّى ذلك مثلاً في كتابه (أوضح المسالك)، و(مغني اللّبيب) الّذي استعان فيه بها عدّة مرّات، وبالأخصّ في ما يتعلّق بموضوع الأدوات مثل (لا سيما) و(ما)، وتبدو متابعته للجُزولي مثلاً في ما ذكرَه عن أقسام (ما) ومعانيها[5]، ولكن ما لحِظته هو أنَّ ابن هشام لم يذكر الجُزولي في هذا الكتاب إلاّ مرّة واحدة أيْ لم يكن يُصرِّح باسمِه في هذا الكتاب، عكس كتاب (أوضح المسالك) الّذي أشار إليه أكثر من مرّة في باب الفاعل، ونحو ذلك قوله "أنْ يُحصرَ المفعول بِإنّما، نحو، إنّما

---

[1]- أحمد الزواوي، أبو موسى الجزولي، عرض لحياته العلميّة، ومنهجه في البحث، وتأثيره في حقل النّحو، ثمّ نقد لِمنهجه، ص238.

[2]- ابن مالك، ألفية ابن مالك، ص9.

[3]- ابن مالك، شرح الكافية الشافية، ج1، ص537.

[4]- ابن عقيل، شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، ج2، ص187.

[5]- ابن هشام الأنصاري، مغني اللّبيب عن كتب الأعاريب، ج1، ص326- 348.

ضربَ زيدٌ عمرًا وكذا الحصر بإلاَّ عند الجزولي وجماعة"[1]. وإنْ كان ابن هشام ممَّن ردَّد أسماء نُحاة المغرب في مؤلّفاتهم، فقد كان من المتأثّرين أيضًا بالأندلسيِّين حيث استدلَّ بآرائهم في معظم كتبه وبخاصّة في (المغني)، وكان بينهم الشَّلوبين وابن الطراوة وابن عصفور وابن الضّائع وسِواهم، مع أنَّه كان يُشير إلى نُحاة القطرين باسم (المغاربة) وهذا ما لحظته كذلك في (همع الهوامع) حيث رَدَّدَ هذا اللّفظ عدَّة مرّات، ومن ذلك مثلاً ذِكْرُه رأْي المغاربة في باب الاستثناء بـ (إلاّ) والوصف بها بالقول "وجَوَّزَ بعضُ المغاربة أنْ يُوصَفَ بها كلُّ ظاهر ومضمر ونكرة ومعرفة"[2]، ولكن نُحاة الأندلس كانوا أكثر ذكرًا مقارنةً بنُحاة المغرب الّذين اكتفى بِذكر منهم الجُزولي وابن معط.

- **ابن أبي الرَّبيع السَّبتي:** اطّلعَ على نَحْوِ (الجُزوليّة) وقد يكون ذلك عن طريق شيخه الشَّلوبين، ممّا جعله يستدلُّ بآرائه في بعض المواضع، ومثال ذلك قوله "وقال صاحبُ الكرّاسة: لإعادة الضَّمير على الشَّيء مزية"[3]، وللعلم كان يُشيرُ إليه باسم (صاحب الكرّاسة).

- **أبو إسحاق الغافقي:** وهو كذلك كان كثير الذّكر الجُزولي في شرحه على (الجمل)، حتَّى قيل إنَّ هذا الشَّرح ما هو إلاَّ نسخة مكرَّرة لبعض نُسخ (الجُزوليّة)، فقد نَقَلَ عبارات كاملة منها ما كان نقلاً حرفيًّا دون أنْ يُشير إلى صاحبها[4]، وقيل بخصوص هذا الشَّرح إنَّه عبارة عن ملخّص لِشرح شيخه ابن أبي الرّبيع الإشبيليّ السّبتي (البسيط في شرح جُمل الزَجَّاجي) وكان تارةً يؤيِّده وتارةً أخرى يخالفه.

- **أبو حيّان:** رَدَّدَ اسمَ الجزولي في كتابه (الارتشاف) عدّة مرّات، حيث استدلّ بآرائه إلى جانب المشارقة والأندلسيِّين الّذين أشار إليهم، وكان تارةً يتّفق مع ما ذهب إليه الجُزولي وتارة ثانية يُخالفه وذلك باستعماله مثلاً عبارة (زَعَمَ الجُزولي)، وتارةً أخرى يُشير إلى رأيِه وحسب للاستدلال به إلى جانب آراء النُّحاة الآخرين. ومثال ذلك ذِكْر رأي الجُزولي في أنَّ حذف نون الوقاية إنْ كانت ياء المتكلّم في موضع جرّ بـ (منْ وعنْ) لا يجري في الضّرورة فقط، بل يجوز في الكلام أيضًا، ورأيه كذلك حين قال بعدم جواز جرّ المفعول له إنْ كان نكرةً نحو

---

[1]- ابن هشام الأنصاري، أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك (ومعه عُدّة السّالك، إلى تحقيق أوضح المسالك، من تأليف: محمّد محي الدّين عبد الحميد)، ج2، ص120.

[2]- السيوطي، همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، ج2، ص202.

[3]- ابن أبي الرّبيع الإشبيليّ السّبتي، البسيط في شرح جُمل الزجَّاجي، السّفر1، ص185.

[4]- أحمد الزواوي، أبو موسى الجزولي، عرض لحياته العلميّة، ومنهجه في البحث، وتأثيره في حقل النّحو، ثمّ نقد لِمنهجه، ص239.

(قمتُ لإعظامٍ لك)[1]، وكنت قد أَشَرْتُ إلى هذا في ما تقدَّم، ولكن لم يُوافقه أبو حيّان؛ لأنَّ القول الصَّحيحَ في المسألة هو الجواز وليس المنع.

- **المُرادي:** حين تصفّحت بعضًا من مؤلّفات المُرادي وجدتُ أنَّه حكى من آراء الجُزولي في مؤلَّفاته ولا سيما الّتي انفردَ بها، ومن أمثلة ذلك قوله في ترجيح حرفيَّة كاف التّشبيه "قلت: وفي كلام الجزولي، وابن مالك وغيرهما، ما يدلُّ على جواز الأمرين في ذلك، مع ترجيح الحرفيّة. قال الجزولي: والأحسن الأجود ألاّ تكون كاف التّشبيه في صلة الموصول إلاّ حرفًا. وقال ابن مالك: وإنْ وقعت صلةً فالحرفيّة راجحة"[2]، وهو هنا يؤيِّدُ رأيَ الجُزولي والنّاظم يستحسنه. كما ذكرَ رأيَه الّذي انفردَ به في باب المفعول له حيث قال بعد قول ابن مالك "يعني: أنَّ المجرّدَ من أل والإضافة يترجَّح نصبُه، وقلَّ أنْ يصْحَبَ الحرف فقوله: (ضربته تأديبًا) أرجح من قولك: (ضربته لتأديب) ومنَع الجُزولي جرَّ المجرَّد. قيل: ولم يقل به غيره"[3] وواضح أنَّ المُرادي لم يوافقه في هذا الرّأي الّذي خالفَ فيه جمهور النّحاة.

- **الأَشْمُونِي:** أشار هو كذلك إلى اختيارات الجُزولي وآرائه في شرحه على ألفية ابن مالك أكثر من مرّة، وذلك في مثل حديثه عن (أي) الّتي اعتبرها موصولة، مُشيرًا إلى الجُزولي الّذي قال بأنّه إذا أُريدَ بها المؤنّث لحقتها التاء. وفي باب التّحذير والإغراء ذكر الأشموني كذلك رأيه قائلاً "أجاز بعضُهم إظهار العامل مع المُكَرَّر، وقال الجزولي: يقبح ولا يمتنع"[4]. وقول الجُزولي في هذا الباب "وممّا يُقبَحُ فيه الإظهارُ عند قومٍ ولا يمتنِعُ، ويمتنِعُ عند قوم: الأسدَ الأسدَ، والجدارَ الجدارَ، والصبيَّ الصبيَّ"[5]، وإلى غير ذلك من المواضع.

- **خالد الأزهري:** اقتبس من (الجُزوليّة) في مواضع كثيرة، ومنها ما اقتبسَه عن همزة الاستفهام الّتي تدخل على (لا) النّافية للجنس، وجاء قوله في هذه المسألة كالآتي: "وإذا دخلت همزة الاستفهام على (لا) النّافية للجنس (لم يتغيّر الحكمُ)، بل يكون حكمُها مع الهمزة كحكمها بدونها من عمل في اللّفظ"[6]، فقد تابعه الأزهري له حين قال إنَّ دخولَ هذه الهمزة لا يُغيِّر من

---

[1]- أبو حيّان، ارتشاف الضّرب من لسان العرب، ج2 وج3، ص924 وص1386.

[2]- المرادي، الجنى الدّاني في حروف المعاني، ص81.

[3]- المرادي، توضيح المقاصد والمسالك بِشرح ألفية ابن مالك، ج2، ص655.

[4]- الأشموني، شرح الأشموني على ألفية ابن مالك، ج2، ص481.

[5]- أبو موسى الجزولي، المقدّمة الجزوليّة في النّحو، باب التّحقيق، ص272.

[6]- خالد الأزهري، شرح التصّريح على التّوضيح أو التّصريح بمضمون التّوضيح في النّحو، ط1. بيروت: 2000م دار الكتب العلميّة، ج1، ص353.

حُكْمِ (لا)، بل يكون حكمُها مع الهمزة كحُكمِها بدونها، وذلك بقول الجزولي إنَّ (لا) "إذا لحِقَتها همزة الاستفهام لِمُجرَّدِه أو للعرض أو للتمنّي فحكمها حكمها عاريةٌ منها"[1]، ولكن ما لفَتَ الانتباه هنا أنَّ الأزهري اصطلح عليها باسم (لا) النّافية للجنس وأمّا نحويُّنا فقد ذَكَرَها باسم (لا) التّبرئة. وكان يُشير إلى آرائه واختياراته ويستدلّ بها وذلك في مثل (باب المفعول الّذي لم يسمّ فاعله). ولكن كما تابعَ الأزهري نحويَّنا في آراء عارضه في أخرى ومثال ذلك الردّ عليه في باب كيفية التّثنية "وزعَم الأخفش وتبعه أبو موسى الجُزولي: أنّ الأرجح في هذا الباب أيضًا التّصحيح على الإعلال"[2]، فهو هنا لم يرَ الصّوابَ في ما اختاره الجزولي.

– **السيوطي:** استعانَ بآراء الجُزولي واختياراته في مؤلّفاته كثيرًا، ومنها (الهمع) و(اللّمحة البدريّة) و(الأشباه والنّظائر) الّذي أوردَ له فيه أربعة عشر رأيًا، ففي (الأشباه والنّظائر) استدلّ برأيه مثلاً في باب النّداء "قال الجُزولي: إذا رفعت الأوّلَ من نحو يا زيد وعمرو فتنصب الثّاني من أربعة أوجه، وزاد بعضُهم وجهًا خامسًا، وهي البدل وعطف البيان والنّعت على تَأْوِيلِ الاشتقاق والنِّداء المستأنَف وإضمار أعني، وأضعفها النَّعت وهو الّذي أسقطه؛ لأنَّ العلم لا يُنعَتُ به"[3]. وفي كتابه (الاقتراح) أشار إلى قوله في أقسام القياس "وفي الجزولية: قد يُحمل الشَّيءُ على مقابله، وعلى مقابل مقابله، وعلى مقابل مقابل مقابله..."[4]، وَوَجَدْتُ السيوطي تارةً تارةً مؤيِّدًا لآراء الجزولي وتارةً ثانية معارضًا في آراء أخرى.

ب– ابن معط في كتب النّحاة: كان ابن معط من النّحاة الّذين أثّروا في الخالفين له ولا سيما في ما يتعلّقُ بالنّظم النَّحويّ الّذي طوّره وأبدع فيه كثيرًا، فالفضل يعود إليه في شهرة ابن مالك بألفيته، حتّى ابن مالك نفسه لم ينكرْ أسبقيّةَ ابن معط في عَرض القواعد نظمًا، ولكنَّه أَقَرَّ في الوقت ذاته بِتفوّق ألفيته الّتي كانت من بديعِ المنظومات، حيث لم يضع مثلَها غيرُه من النُّحاة، وقد أشار إلى هذا في مقدِّمة (الأَلفية)[5]:

وتَقتَضي رِضًا بِغير سُخْط فَائقةً أَلْفيَّة ابنِ مُعْط
وَهوَ بِسبقٍ حائزٌ تَفْضِيلا مُسْتوْجِبٌ ثَنَائِي الجَميلاَ

1– أبو موسى الجزولي، المقدّمة الجزولية في النّحو، باب التّحقيق، ص219.

2– المرجع السّابق، ج2، ص510.

3– السيوطي، الأشباه والنّظائر في النّحو، مج1، ج2، ص131.

4– السيوطي، الاقتراح في علم أصول النَّحو، ص236.

5– المكُودي، شرح المكُودي على ألفيّة ابن مالك، ج1، ص91.

وابنُ مالك هنا يعترف بِفضل السَّبق لابن معط في نَظْمِ (الأَلفيَّة)، مع ذلك لم ينل ابن معط تلك الشّهرة الّتي نَالَها هو، وهذا بالرّغم من أنَّ ألفيتَه لم تخلُ من الألغاز الّتي وَجَدَ الطّلبة والدّارسون صعوبةً في فكِّها وفَهْمِها، فقد كانت في الوقت نفسه أكثر انسجامًا من حيث التّرتيب للموضوعات الّتي تناولها، وأفضل من ألفيّة ابن معط الّتي فاقتها من حيث العذوبة والسّلاسة "واعلم أنَّ (الأَلفيّة) مختصرة الكافية كما تقدَّم، وكثير من أبياتها فيها بلفظها ومتبوعة فيها ابن معطي، ونظمه أجمع وأَوْعب، ونَظْمُ ابن معطي أسلس وأعذب"[1]، أيْ حتّى وإنْ كانت ألفيّة ابن مالك أكثر حظًّا من ألفيّة ابن معط في الشّهرة، إلاَّ أنَّ ذلك لا يُقلِّل من قيمة صَنِيعِه. ومن المفيد أنْ أذكرَ أنَّ ابن مالك مقلِّدٌ لابن معط ليس في الشَّكل والمضمون فقط، بل سَلَكَ منهجَه في نَظْمِ كثير من الأبيات، واقتبس منها الأفكار والألفاظ والعبارات عدّة مرّات. وإذا ادّعى ابن مالك التفوُّقَ على ابن معط مع أنّه (ابن مالك) هو من اقتبس منه منهجَ النَّظم فكذلك الأمر بالنِّسبة للسّيوطي الّذي صَرَّحَ بِتفوُّقِ أَلفيته (الفريدة) على ألفية ابن مالك قائلاً:

فَائِقةٌ ألفيّة ابن مالك ... لِكَونِها واضِحَة المَسَالِك

ويتجلّى أَثَرُ ابن معط في ألفية ابن مالك في النّماذج الآتية[2]:

- يقول ابن معط في باب الكلام وما يتألَّفُ منه:

اللّفظ إنْ يُفِد هُو الكَلامُ ... نَحْوَ معْنى القوْم وهُم كِرامُ

تأليفه مِن كَلِمٍ واحِدها ... كَلِمَةٌ أقسامُها أَحَدُهَا

وهْيَ ثلاثٌ لَيْسَ فيها خَلف ... الاسْمُ ثمَّ الفِعلُ ثمَّ الحَرْف

ويقول ابن مالك في الباب ذاته:

كَلامُنا لفظٌ مفيدٌ كاسْتَقِم ... واسمٌ وفِعلٌ ثمّ حَرفٌ الكلمْ

واحِدُه كلِمةٌ والقولُ عَمّ ... وَكِلْمَة بِها كَلامٌ قَد يُؤَمّ

- يقول ابنُ معط في باب التّوابع:

القول في تَوابِع الكَلِم الأوّل ... نَعتٌ وتوكيدٌ وعَطفٌ وبدلْ

وفي مثل هذه المسألة يقول ابن مالك:

يُتبَعُ فِي الإعْرابِ الأَسْماءَ الأوَّل ... نَعْتٌ وتوكيدٌ وعطفٌ وبَدَل

[1]- المقري، نفح الطّيب من غصن الأندلس الرّطيب، ج2، ص232.

[2]- يُنظر في الموضوع: ابن معطي، الدّرة الألفية. وابن مالك، ألفية ابن مالك.

ونظرًا للشّبه الكبير بين الألْفِيَتَيْن لا نكاد نُميِّز بين أبياتهما، فيبدو أنَّ ابن مالك قلَّده في صياغة الأفكار والألفاظ، حتَّى إنَّه كثيرًا ما يأخذ البيتَ والفكرة معًا دون أنْ يُعيدَ صياغتَه كما في باب العطف، وتكرّر ذلك إلى درجة اعتقاد بعضهم أنَّه سابقٌ لابن معط في النّظم، فلو لا اختلاف الفترة الّتي عاش فيها كلُّ واحد منهما لصار الاعتقادُ حقيقةً يُؤمنُ بها الكثير.

ورغم كلّ ما قيل في هذا الموضوع، يبقى ابن معط صاحب ابتكار في الشّعر التَّعليميّ المختصّ في النَّحو، وعنه أَخَذَ ابنُ مالك وقلَّده في نَظْمِ (الخلاصة)، ممّا يعني أنَّ الأولَّ منتِجٌ ومُبدِعٌ، حيث استطاع أنْ يُنشِئَ ألفيتَه من العدم بغضِّ النَّظر عن المنظومات الأولى الّتي عرفها النَّحو، وأمّا الثّاني فكان مُقلِّدًا ومُضيفًا ومبدِعًا أيضًا حيث جعل الكثير من ألفاظ (الألفيّة) وأبياتها وأفكارها الجاهزة نقطة انطلاق لِنَظْمِ أَلفيته. وكلُّ هذا يدلُّ على أنَّ لابن معط فضلَ الريَّادة في هذا اللَّون المُيَسَّر المُنَظَّم من التّأليف، وعلى وَقْعِ خطواته سَارَ ابن الحاجب وابن مالك اللّذان أخملا ذكره[1] حتَّى اعتقد أكثر الدَّارسين أنّهما الأسبق إلى هذا النّوع من التّأليف وليس ابن معط. وإذا ما أُخِذَت عن ألفيته ملاحظات واستدراكات فذلك لن يُنقِص من قيمتها؛ لأنّه حين شرع في نَظْمِها كان في سِنّ الصّبا، ومن ثمّ اشتغاله بالنَّحو لا يزال حديثًا بخلاف ابن مالك الّذي نَظَمها في الوقت الّذي اكتَمَلَ فيه علمُه ونضج.

وتأثَّرَ من النّحاة أيضًا بمنهج ابنِ معط في النَّظم، زين الدّين أبو التُّقي شعبان بن محمّد بن داود بن علي المصريّ الآثاري (ت828هـ) الّذي وضع منظومةً بِعنوان (كفاية الغلام في إعراب الكلام)[2]، وعبد العزيز بن عبد العزيز اللّمطي المكناسي الميمُوني (ت880هـ) من أهل فاس، صاحب ألفيّة في النَّحو[3]. كما هناك السيوطي الّذي تأثَّر بهذا المنهج كثيرًا، ودليل ذلك (الأَلفيّة) الّتي جمع فيها بين أَلفية ابن معط وأَلفية ابن مالك. وهذا بالإضافة إلى المنظومات الأخرى الّتي أَلَّفها في الحديث والقراءات والبلاغة وغيرها.

وإنْ كان السيوطي ممّن ساروا على منوال ابن معط في النَّظم النَّحويِّ، فهو كذلك من النُّحاة الّذين اقتبسوا من مؤلّفاته، واستندوا إلى آرائه وبخاصّة في مناقشة مسائل الخلاف، فقد رَدَّدَ اسمَه كثيرًا ونقل عنه مِرارًا، وكان ذلك إمَّا لمساندة آرائه وإمّا لمخالفتها. فَمِنْ تأييده له في (الهمع) مثلاً ما قاله في باب النّدبة "إنَّ إطلاق النُّحاة يقتضي جواز لَحَاقِ الألِفِ لِما في آخره

[1]- ابن معطي، الفصول الخمسون، ص8.

[2]- السّخاوي، الضّوء اللامع لأهل القرن التّاسع، ج3، ص303.

[3]- الزركلي، الأعلام، ج4، ص21.

ألف وهاء، وبه صرَّح بعضُ المغاربة، وابن معط في ألفيّته"[1]. كما ذكره في (الأشباه والنّظائر) أكثر من مرّة، فقد استدّل بِرأيه مثلاً في باب النّداء قائلاً "وفي تذكرة ابن الصائغ: يجوز حذفُ حرف (النّداء) من الاسم الأعظم، نَصَّ على منعه ابن معط في (درّته) وعَلَّلَ مَنْعَ ذلك في (الدّرة) أيضًا بالاشتباه"[2] ويبدو أنّه لم يُوافق نحويًّا في ما ذهب إليه.

ومن النّحاة الّذين ردَّدوا كذلك اسمَ ابن معط في مؤلّفاتهم، أبو حيّان الأندلسيّ الّذي أشار إليه في (الارتشاف) مستدلاً بآرائه الّتي يوافقه فيها تارةً ويخالفه تارةً أخرى، ومن الأمثلة على ذلك قوله في باب التّنازع "وقال أبو زكريا يحي بن معط: (إنْ أعْمَلتَ الأوّلَ قُلْتَ: وأنبأتهُما إيَّاهُما منطلقين الزيدين العمَرين منطلقين ليس لك إلاَّ ذلك، لاستغراق الضّمير حالتي الاتصال والانفصال، فلم يبقَ للثّالث إلاَّ إعادته...)"[3]، كما أبدى الأندلسيُّ اعتراضَه على ما ذكره عن جواز التّنازع في الحال قائلاً (زَعَمَ ابن معط)، وامتناعه عن توسّط خبر ما دام، فقد اعتبَرَ ما ذهبَ إليه وهمًا لم يُشِر إليه غيرُه.

والمُرادي الّذي يتعرَّض لألفيته فيُقارن بين ألفاظها وألفاظ ألفية ابن مالك في أبواب كثيرة منها باب الكلام وما يتألّف منه، باب كان وأخواتها، باب أعلم وأرى. ومن أمثلة ذلك قوله في جواز التحاق الألف والهاء بآخر المندوب "قلت: إطلاقه هنا موافق لإطلاق النَّحويِّين، وصَرَّح بعض المغاربة بِجوازه وفي أَلفية ابن معطي"[4]، وقد يشمل قولُه هذا نُحاة المغرب والأندلس.

وهذا الأشموني كذلك يُشير في شرحه على (الألفيّة) إلى آراء ابن معط واختياراته في بعض المسائل، فقد ذكره مثلاً في باب الكلام وما يتألّف منه بعد شرحه لبيت النّاظم بالقول إنَّ ابن معط أنّثه في ألفيته فقال: (واحدها كلمة)، وذكره النَّاظمُ بالقول: (وَاحِدُهُ كَلِمَةٌ). وفي باب التّنازع الّذي خالفه في ما ذهب إليه قائلاً إنَّه لا يتأتّى التّنازع في التّمييز وكذا الحال، خِلافًا لابن معط. كما ذكره في باب كان وأخواتها حيث أشار إلى أنَّ رأيَ نحويّنا في مَنْعِ توسّط خبر (ما دام) وَهَمٌ لم يَقُلْ به غيره[5]، فهو لم يوافقه في هذا الرَّأي الّذي انفرَدَ به. والملاحظ أنّ أكثر شُرّاح ألفية ابن مالك كانوا يُشيرون إلى ألفية ابن معط للمقارنة بينهما.

---

[1]- السيوطي، همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، ج2، ص51. .

[2]- ابن هشام الأنصاري، الأشباه والنّظائر في النّحو، مج1، ج2، ص132.

[3]- أبو حيّان، ارتشاف الضّرب من لسان العرب، ج4، ص2147- 2148.

[4]- المُرادي، توضيح المقاصد والمسالك بِشرح ألفية ابن مالك، ج3، ص1123.

[5]- الأشموني، شرح الأشموني على ألفية ابن مالك، ج1، ص10 وص113 وص208.

وعبر خالد الأزهري عن رأيه هذا أيضًا في شرح (التّصريح على التّوضيح) بقوله بعد ذكره للبيت الشّعريِّ الّذي احتجّ به "فـ (منغصة) خبر (دام) مقدّم، (ولذاته) اسمها مؤخّر، فقد توسّط خبر (دام) بينها وبين اسمها، وهو خلاف ما منعه ابن معط"[1] وللعلم كان النّحاة في جميعهم تارةً يُوافقونه على آرائه وتارةً أخرى يكون العكس.

ج- **ابن آجُرُّوم في كتب النّحاة:** لم يكن يُذكر ابن آجُرُّوم كغيره من النّحاة المذكورين أعلاه في كتب النُّحاة الآتين من بعده، فكلّ ما يذكرونه أنَّه كان على مذهبِ الكوفيِّين لا أكثر. ولكن بالرّغم من ذلك إلاَّ أنَّ مقدّمته نالت إعجاب الدَّارسين في جميع الأقطار، وكان من نتيجة ذلك أنَّها حظِيت بِما لا يُحصى من الشُّروح والحواشي عند القدامى والمحدثين مقارنةً بغيرها من الكتب المغربيّة، ويكفيه فخرًا أنْ تكون هذه المقدّمة ضمن مؤلّفات النّحو الّتي كانت تُدَرَّسُ للنّاشئة في بلاد السّودان وشنقيط حيث كانت المصدر الأساس الّذي تشكَّلَ من خلاله الدّرس النَّحويّ في هذه البلاد، فقد "ظلّت نقطة انطلاق لتعليم النَّحو بالنِّسبة للصّغار إذْ وضع لها الشّناقطة نحوا من أربعة عشر شرحًا، ونُظِمت عدّة مرّات"[2]. كما أشاد ابن الحاج بفائدة هذه المقدّمة قائلاً "صار غالب النَّاس ما يقرأ بعد القرآن العظيم هذه المقدّمة فحصل به النَّفعُ في أقرب مدّة"[3]. فغير خافٍ إذًا على أحد مِنَّا مدى شهرة (الآجرُّوميّة) وأهميّتها في تدريس النَّحو للنّاشئة. ولعلّ بساطة الأسلوب ووضوح العبارة واختصار المعاني هي من الميزات الرّئيسة الّتي جعلت دارسي وعلماء هذا القطر يولونها عنايةً خاصّة فقاموا بشرحها ونظمها وإعرابها، ومن شرّاحها أحمد بن أحمد السّوداني قاضي تمبكتو، وأحمد بن أندغ محمّد بن أحمد (ت922هـ) إمام النُّحاة في عصره، له شرحٌ مفيدٌ على (الآجُرُّوميَّة) سمّاه (الفتوح القيوميّة) تضمّن حقائق نحويّة مهمة فانتفع به خلقٌ كثير. ولا يُخفى كذلك أنَّها كانت على مدى قرون من الزّمن أوّل مؤلَّف نحويٍّ يُقدَّم للمبتدئين في جامعِ القرويِّين والزيتونة والأزهر ثمّ تليها المؤلّفات الأخرى في مراحل التَّعليم اللاحقة مثل (قطر النّدى وبلّ الصّدى) لابن هشام (التّسهيل) و(الألفية) لابن مالك وشروحها وسِواها. فقد كانت (الآجُرُّوميَّة) أكثرها

[1]- خالد الأزهري، شرح التصّريح على التّوضيح أو التّصريح بمضمون التّوضيح في النّحو، ج1، ص242- 243.

[2]- نعمان بوقرة، "قراءات تمهيديّة في تيسير تعليم النّحو عند المغاربة والأندلسيِّين ابن حزم وابن آجرُّوم والمحاظر الشّنقيطيّة أنموذجًا" أعمال ندوة تيسير النّحو، ص162.

[3]- عبد الحكيم بن محمّد الجغدال، جلب الأذهان الفتيّة في تبسيط وشرح نظم نثر المقدّمة الأجرّوميّة، ط1. د ب: 2007م، منشورات مكتبة سلمى الثّقافيّة ومطبعة الخليج العربيّ، ص7.

انتشارًا بين الطّلبة منذ عصر صاحبها وبعده، وبقيَ الأمر كذلك إلى اليوم وانتفعوا بها فضلاً عن بساطة أسلوبها وإيجازه، وعمّا تضمّنته من قواعد النّحو الّتي لا يستغني عنها المبتدئون.

د- المكُّودي في كتب النّحاة: لم يكن المكُّودي ممّن أثَّر في العلماء الخالفين بِقدر تأثير الجزولي وتلميذه ابن معط، ولكن وجدتُ أنَّ هناك من النّحاة الّذين ذكرُوا آراءه واستدلّوا بها للتأييد أو الاعتراض والتّعليق عليها، وحتّى وإنْ لم يكن ممّن انفرد بالآراء الّتي يشتهر بها كابن معط الّذي عُرِفَ بامتناعه عن تَوَسُّطِ الخبر بين دام واسمها، إلاَّ أنَّ ذلك لا يمنع المتأخِّرين من ذكْرِ بعضٍ من اختياراته. أذكر منهم الأشموني الّذي ذَكَرَه في باب الإضافة بقوله "وقال المكُّودي: في موضع نَصْب على إسقاط التَّعليل، والتّقدير: وجود أل في الوصف كافٍ لِوقوعه مثنًى أو مجموعًا على حدّه"[1]، وأمّا قول المكُّودي فجاء كالآتي: "يعني أنَّ وجود أل في الوصف المضاف إنْ كان مثنى أو مجموعَا على حدِّه وهو الّذي اتّبع سبيلَ المثنّى في كون الإعراب بحرف بعده نون واحترز به من جمع التّكسير فإنّه يكفي عن وجودها في المضاف إليه"[2]. وخالد الأزهري الّذي استدلّ بِرأيه في باب الإضافة أيضًا بقوله "ونقل المكُّودي في باب الإضافة عن بعض النُّحاة أنه أجاز حَذْفَ (إنْ) الشَّرطيّة وأنّها حُذِفَت فارتفع المضارعُ"[3]. وكذلك الصبّان الّذي رَدَّدَ اسمَه في حاشيته على شرح الأشموني، حيث استدلّ ببعض من آرائه وإعراباته للمقارنة بينها وبين إعرابات الأشموني، ومن ذلك قوله "(كمد حنطة غذا) مد مبتدأ وغذا خبر. هذا ما قاله المكُّودي وهو أقرب من جعل غذا بدلاً أو حالاً والخبر محذوف أيْ عندي وقول الشَّارح وشبر أرض برفع شبر كما يرشد إليه، ومنوا تمر والظَّاهر على إعراب المكُّودي أنّه مبتدأ عطف عليه ما بعد والخبر محذوف أي كالمدّ في جواز الجرّ بالإضافة ويجوز تقديرُه عندي. وأمّا على الإعراب الثّاني فهو معطوفٌ على مدّ"[4]، وهذا بغضِّ النّظر عن إقبال كثيرهم على شرح المكُّودي لتدريس النَّحو في عصره وما تلاه، حيث اعتبروه من أهمّ كتب النّحو إلى جانب (الكتاب) و(الجمل) وسِواهما.

ويحدث الأمر ذاته بالنِّسبة لنُحاة المغرب الّذين مَرَّ ذِكْرُهم ولم أتعرّض لآرائهم في هذه الدِّراسة كعبد الدّائم بن مروزق القيروانيِّ الّذي أكثرَ أبو حيَّان النقّلَ عنه واستدلَّ بآرائه، ومن

1- الأشموني، شرح الأشموني على ألفية ابن مالك، ج2، ص310.

2- المكُّودي، شرح المكُّودي على ألفية ابن مالك، ج1، ص469- 470.

3- خالد الأزهري، شرح التّصريح على التّوضيح أو التّصريح بمضمون التّوضيح في النَّحو، ج2، ص163.

4- محمّد الصبّان، حاشية الصبّان على شرح الأشموني لألفية ابن مالك، ط1. بيروت: 1994م، دار الكتب العلميّة ج2، ص372.

المواضع الّتي ذكره فيها همزة القطع، فصل الفعل المتصرّف والجامد، المصدر وسِواها، ومن الأمثلة على ذلك قوله "وزَعَمَ عبد الدّائم بن مرزوق القيروانيّ: أنَّ سَوَاء مبنيَّة على الفتح فأمّا (سِوَى) من قوله: ﴿مَكَانًا سُوًى﴾ [طه: 58] قُرِئَ بكسر السِّين، وضمِّها، وسواء من قوله ﷻ: ﴿فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: 55] أَيْ في وسطه، ومن قولهم: درهم سواءٌ (أي تام)"[1]، فيبدو هنا أنَّ أبا حيَّان معترضٌ على رَأْيِ القيروانيِّ بقوله (زَعَمَ)، كما استشهد بالسَّماع خلافًا لِمَا ذهبَ إليه. ومحمّد بن عبد الجبّار الرُّعيني التّونسيّ الّذي ذَكرَه هذا الأندلسيّ أيضًا في (الارتشاف) عن (كم) الخبريّة بِقوله "وزَعَم ابنُ هشام – الخضرواي-: أنَّها تكون مفعولاً له نحو: لِكَمْ إكرامٍ لكَ وصلتَ، وقال: لابدّ من حرفِ العلّة لأنَّه لا يُحذف إلاَّ لفظ المصدر وتوقَّف أبو عبد الله محمّد بن عبد الجبّار بن محمّد الرّعيني التّونسيّ من نُحاة تونس في إجازة ذلك"[2]، وحتَّى السيوطي استدلَّ بِرأيه هذا في (همع الهوامع) في موضع حديثه عن المسألة ذاتها[3]، كما نَقلَ العلماء من القزّاز القيروانيّ والقاضي عيّاض وغيرهما من المغاربة.

وفوق هذا كلِّه، ينبغي أنْ أذكرَ أنَّ نُحاة المغرب في العصر الوسيط كانوا ممّن تأثَّر بعضهم بآراء بعض، وقد تحدَّثتُ في العَرْضِ السَّابق عن مدى تَأثُّرِ ابن معط بشيخه الجُزولي، حيث وافقه في (الألفيّة) و(الفصول) على آراء نحويَّة عدّة، واعتمد من تعريفاته الكثير أيضًا. وابن آجُرُّوم الّذي تابع ابن معط في باب الكلام وأقسامه كما مرَّ الذِّكْر، وكذلك في باب حروف العطف، فقد أشار بِدوره إلى جميع الحروف العاطفة الّتي ذكرها ابن معط (الواو والفاء وثمّ وأو وأم وإمّا وبل ولكنْ وحتَّى) وإلى غير ذلك من الأبواب الّتي تابعه فيها. كما حظِيَ ابن معط بالذِّكر في شرح المكُّودي في باب الكلام وما يتألّف منه بقوله "واحدُ الكلم كلمة والكلم اسم جنس ممّا يُفرِّقُ بينه وبين مفرده بِسقوط التّاء وهذا النّوع يجوزُ تذكيره وتأنيثه؛ فلذلك قال – النّاظم- واحده، وقال ابن معط واحدها"[4]، ويُفهم من هذا أنَّه يجوز تأنيثُ مفرد الكلم كما ذهب ابن معط.

وإلى هنا أُدرِكُ تمامًا أنَّ للمغاربة مكانةً بين النُّحاة المشارقة والأندلسيِّين، حيث كان لهم أتباعٌ ومساندون لِما ذهبوا إليه من آراء واختيارات، وبالتّالي أجدُ ذِكْرَ أسمائهم ومؤلَّفاتهم خير

[1]- أبو حيّان، ارتشاف الضّرب من لسان العرب، ج3، ص1548.
[2]- المرجع نفسه، ج2، ص786.
[3]- السيوطي، همع الهوامع في جمع الجوامع، ج2، ص502.
[4]- المكُّودي، شرح المكُّودي على ألفية ابن مالك، ج1، ص96.

شاهد على ما قدَّموه، بالإضافة إلى المواضع الّتي يذكرونهم فيها للرّد على بعض اختياراتهم وآرائهم، ومثال ذلك ابن معط الّذي اعترَضَ على رأيِه في الامتناع عن توسّط خبر ما دام.

خلاصة الفصل: إنَّ الحديثَ عن جهود المغاربة في الدَّرس النّحويِّ لا يستثني علماء الأندلس الّذين اجتهدوا وقدَّموا الكثيرَ فيه، فقد كان لأكثر الوافدين على بلاد المغرب الأثر الكبير في تَقَدُّمِ هذا الحقل ولا سيما في الفترة الّتي تَوَحَّد فيها القطران، ولذلك لم يكن هناك ما يمنع العلماء من التنقّل بين الحواضر والاستقرار في المكان الّذي طاب له المقام فيه. بالإضافة إلى التّشجيع الّذي كانوا يتلقّونه من الحكّام بِمن فيهم النّحاة للقدوم إلى المغرب ونَشْرِ عِلْمِهِم والتصدّي للتّدريس فيه. الأمر الّذي جعل المغاربة يستئنِسون بِوجود الأندلسيِّين فكانوا يشتغلون بالنّحو جنبًا إلى جنب ممّا زاد من نشاطِه وحقَّق التّداخلَ بين النَّحو المغاربيِّ والأندلسيِّ إلى درجة أنَّه من غير المُمكن الفصل بينهما، حتَّى إنَّ أكثر العلماء يُشيرون إلى نُحاة المغرب والأندلس باسم (المغاربة).

وبِحُكْمِ تداخل نحو المغرب والأندلس فقد وجدت أنَّ جهود العلماء يلتقي بعضها مع بعض في خصائص كثيرة، فإذا عُنِيَ الأندلسيّون بتبسيط النَّحو وتيسيره، حيث عكفوا على وضع المختصرات وشَرْحِ المطوّلات فكذلك الأمر بالنّسبة لنُحاة المغرب الّذين اهتمُّوا بِشرح كثير من الكتب وتوضيحها. وبالإضافة إلى تأثُّرهم الكبير بِنَحْوِ المشارقة إذْ ما من نحويٍّ مغربيٍّ إلاَّ وتَأَثَّرَ بآرائهم وتابَعَهُم فيها، ولهذا السّبب هناك من قَلَّلَ من قيمة جهودهم بحجّة أنَّها إعادة عرض للإنتاج المشرقيِّ بغضّ النّظر عن الكتب الّتي أبدعوا فيها. علاوة على ذلك فإنَّه لو لا قيمة تلك الكتب لمّا تعدَّدت شروحُها وتَدَاولَها العلماءُ بالدِّراسة والتَّدريس، وطبيعيٌّ أنْ تتعرَّض للانتقاد ويكون للعلماء الآتين من بعدهم موقفُ المناصرين أحيانًا والمعترضين أحيانًا أخرى ولكن هذا لا يُقلِّل من قيمتها، ومثال ذلك (الجُزوليّة) الّتي زَعَم بعضُهم أنّها مؤلَّفٌ في المنطق وليس في النَّحو وَرَدَّ على صاحبها في مواضع كثيرة، ولكن هذا غير صحيح لأنّه حتّى وإن احتوت على مفاهيم فلسفيّة في بدايتها في حديثه عن الكلام وأقسامه ولكن ليس إلى حَدِّ القول إنَّ لا علاقة لها بالنَّحوِ عامّة. و(الآجُرُّوميّة) الّتي رغم ما قيل عن شدَّة اختصارها حتّى تخلَّص صاحبُها من موضوعات كثيرة إلاَّ أنَّ لها من الأهميَّة الّتي تؤكِّدُ عُلوَّ قيمتها. ويكفي أنَّ النَّحوَ مرتبطٌ بها ويُدَرَّسُ من خلالها كما لو أنَّها النَّحو بِعينه، وهذا ما لم تحظَ به كتب النَّحو الأخرى ذات الشّهرة العريضة في ميدان التَّعليم لصعوبتها وكثرة التّأويل فيها فكأنّ النَّحوَ انتظرَ (الآجرُّوميَّة) حتَّى يشتهر باسمها. وليس هذا وحسب، بل تُعتمد مدخلاً لتدريس

النَّحوِ في مراحل التّعليم الأولى، ثمّ تليها المُؤلَّفات الأخرى. وقد أدُلُّ بِقولي على أنَّ كتب المغاربة سدّت إلى حدٍّ ما الحاجة المحليّة إلى جانب الكتب المشرقيَّة والأندلسيَّة الّتي تداولوها والعكس يحدث، حيث أُدخِلت كتب المغاربة بِدورها إلى المشرق والأندلس، فرغب الطّلبة في حفظها ودراستها وفهمها، وتتابعت هِمَمُ العلماء في شَرْحِها وتدريسِها، وظلّت محلّ الاهتمام في عصرهم وبعده زمنًا طويلاً.

ومهما يكن من أمر، فإنّ لكتب المغاربة الّتي تناولتُها بعضَ الخصائص، ممَّا جعلها تتميّز حتّى برَزَت كما بَرَزَ غيرها من الكتب المشرقيَّة والأندلسيَّة بغضِّ النّظر عن الملاحظات الّتي أُخِذت عليها؛ لأنَّ هذا حال أيّ مؤلَّف يحظى بالعناية والشَّرح، ولو لا أسلوب (الجُزوليّة) الّذي جاء موجزًا غاية الإيجاز لمّا اهتمّ بها العلماء كلّ ذلك الاهتمام فنالت من الشُّروح العددَ الكثير، والأمر كذلك بالنِّسبة لـ (ألفية) ابن معط الّتي سَحَرَ نظمُها العلماءَ فرغبوا في شرحها واختصارها، و(الآجرُّوميَّة) الّتي أثَارَ أسلوبُها السَّهل والمُيسَّر فضولَ الدَّارسين والعلماء حتّى رغبوا رغبة كبيرة في شرحها واختصارها وإعرابها ونَظْمِها. ولا ننسى شرحَ المكُّودي الّذي له كذلك من الميزات الّتي جعلت النَّاسَ يُقبِلون عليه دراسةً وتعليمًا وشرحًا كغيره من المؤلّفات.

وإنْ كان هناك من الدَّارسين والباحثين الّذين رأوا في جهود نُحاة المغرب سِوى التَّقليد والاكتفاء بِوضع شروح ومُختصرات على أشهر الكتب النَّحويّة كما سبقَ أنْ ذَكَرْتُ، فقد استطعتُ في هذا العَرْضِ أنْ أُبيِّنَ أهميّةَ إنتاجهم في تيسير مادّة تلك الكتب الّتي شرحوها وعلّقوا عليها. وليس هذا وحسب، بل اهتمامهم بالشَّرح أَعْتَبِرُهُ خيرَ دليل على رغبتهم الجامحة في تبسيط القواعد وتسهيلها للطّلبة ولا سيما للناشئة.

وإنْ كان كذلك من نُحاة المغرب الّذين تأثّروا إلى حدٍّ كبير بالمشارقة وولعوا بإنتاجهم فالعكس يحدث، حيث هناك من الأندلسيِّين والمشارقة الّذين انتهجوا أسلوبَ المغاربة في النّظم النّحويّ، وخيرُ شاهد على ذلك ابن مالك الّذي تأثَّر بمنهجِ ابن معط في نَظْمِ (الألفية). كما استدلّ كثيرهم بآراء المغاربة ورجّحوا اختياراتهم، حتَّى إنَّ هناك من النُّحاة الّذين أخذوا تعريفاتهم واعتمدوا طريقتَهم في عرض أبواب النّحو والصّرف ومناقشتها وإلى غير ذلك.

الخاتمة

الخاتمة: إنَّ البحثَ في الدِّراسات النَّحويَّة بالمغرب طيلة العصر الوسيط ليس بِالأمرِ الهيِّن، فهو لا شكَّ عملٌ شائك لا بل شاقٌ أيضًا يُرْهِق العقلَ ويُضْنِي النَّفسَ لِقلَّة المادَّة الخامّ الّتي يغترفُ منها الباحثُ مُدوّنَتَه حتَّى يتمكّن هو كذلك من الوصول إلى نتائج أخرى لم يسبِقْه أحدٌ فيها، الأمر الّذي جعلني أتردَّد في خَوض هذا الباب والانطلاق في جَمْعِ المعلومات الّتي أنا في حاجة إليها. فكما تبيَّن لي هناك من يرى أنَّ البحثَ في مِثْلِ هذه الموضوعات لن يعرف النُّورَ لاعتقادهم بأنّ المغرب لم يكن على صلةٍ بَيِّنَة بالنَّحوِ العربيِّ كما هو الأمر مع بلاد المشرق والأندلس الّتي كان لأبنائها قدمٌ راسخة فيه، وأمّا المغاربة فقد اكتفوا بدراسته وشَرْحِ الكتب الّتي أَلَّفَها غيرهم. ولكن بالرّغم ممّا قيل بخصوص هذه النّقطة إلاَّ أنّني بذَلْتُ كلَّ الجهود المُمْكِنة فاستَطَعْتُ – بعون الله ﷻ- بُلُوغَ مجموعة من النّتائج الّتي لطالما كانت الحلقة المفقودة في هذا النَّوع من الدِّراسات، حيث حاولتُ الكشفَ عن أسماء الأعلام الّتي غفَلَ عن ذِكرِها الكثير كلَّما تناولوا جزءًا لِما له صلةٌ بِالموضوع، ممّا تطلَّبَ منّي الالتفاتة حتَّى أبيِّنَ للقارئِ وللسَّائلِ أيضًا أنَّ لعلماء المغرب صلةً وثيقةً بالنَّحو العربيِّ تَعودُ إلى فترة الفتوحات الإسلاميِّة، ولكن لم تتبيَّن بِشكلٍ واضحٍ إلاَّ في أوائل القرن الثَّالث عن طريق شيخ النُّحاة جودي بن عثمان الّذي قَدِم إلى المشرق فَأَخَذَ عن أهلِه النّحوَ الّذي بلغ الأندلسيِّين والمغاربة.

ورغم الظّروف الاجتماعيَّة والأحداث الجِسام الّتي شهدها المغرب من وقت إلى آخر طيلة العصر الوسيط، إلاَّ أنَّ ذلك لم يمنعْ من بُروزِ حركةٍ علميّةٍ واسعةٍ امتدّت من عصر الأغالبة إلى غاية القرن التّاسع الهجريِّ، حيث ازدانت البلاد بِظهور أعلام كان لهم أثرٌ عظيمٌ في بلورة هذه الحركة، وقد ساعد على ذلك قوّة الدَّولة وبخاصّة بعد جَمْعِ شَمْلِ المغرب الّذي أصبح يضمُّ المغارب الثّلاثة والأندلس، فنشَطت مختلف العلوم بدءًا بالدِّينيَّة الّتي كانت أسبق العلوم ظهورًا في هذه البلاد وأكثرها سيادةً على المجتمع المغربيّ طيلة العصر الوسيط، ثمّ باللّغويَّة والنَّحويَّة الّتي نالت – مع الوقت- من اهتمام المغاربة الشَّيء الكثير أيضًا، حيث حرصوا على تعلّم العربيّة وحفظها والاشتغال بِمباحثها، مع أنَّ السَّبب المُباشر الّذي أدّى إلى ظهور هذه الدِّراسات هو ارتباطها بالعلوم الدِّينيَّة حيث رَاحَ العلماءُ يُؤلِّفون في غريب القرآن والحديث، وعلى هذا ارتَأَيْتُ ذِكْرَ بعض الأسماء غير مرَّة، وذلك لأنَّهم اشتغلوا بأكثر من علم. وانطلاقًا ممّا تَقدَّمَ توصَّلْتُ في دراستي إلى النّتائج الآتية:

– أَثَر رحلات أبناء المغرب في الحركة العلميَّة الّتي عرفتها بلادهم عامّة ثمّ اللّغويّة خاصّة فالنّحويّة بشكل أخص، حيث استطاعوا بعد لقاء الشيوخ في المشرق أنْ ينشطوا في علوم

كثيرة ولا سيما الدِّينيَّة الّتي تقدّموا فيها بِقدر تقدُّم المشارقة فتباروا في حلْبَتِها وألّفوا من الكتب الّتي طارت شهرتُها في الآفاق، كما انتصبوا للتّدريس والإقراء في المغرب فأقبل عليهم الطَّلبة من كلِّ حدب وصوب. ولكن اللافت للانتباه أنَّ النّشاطَ العلميّ في سائر المغارب لم يكن متساويًا من فترة إلى أخرى ومن قطر إلى آخر، فبالنِّسبة للمغرب الأوسط مثلاً لم يعرفْ نشاطًا فكريًّا مزدهرًا إلاَّ بعد فترة من قيام الدَّولة الحماديَّة، حتَّى هذا النّشاط كان محدود الأثر مقارنةً بالنَّشاط العلميِّ في المغربيْن الأقصى والأدنى اللّذين ازدهرت فيهما العلوم وتقدّمت أكثر.

– اهتمام المغاربة الكبير باللّغة العربيَّة، وكان ذلك أوّلاً لِهدف دينيٍّ محض فهم القرآن الكريم والحديث النبويّ، وثانيًا لِهدفٍ علميٍّ فمن جهة انشغلوا بها لخدمتها هي، ومن جهة أخرى اتخذّوها وسيلةً لِدراسة مختلف العلوم وتدريسها والتّأليف بها مثل الطبّ والتّنجيم والفلسفة، فقد أصبحت هذه اللّغة وسيلة تواصل وعِلم أيضًا إلى جانب لغتهم البربريَّة.

– دور علماء المغرب الفعّال في تأصيل الدَّرس النَّحويِّ وتنميته، من جهة لم يتخلّوا عن الإنتاجِ المشرقيِّ الّذي كان منطلقهم في الاشتغال بِهذا الحقل، حيث جعلوا من الكُتب المشرقيَّة مثل (الكتاب) و(الجمل) و(الإيضاح) المصدرَ الأساسَ في دراسة النَّحو وتدريسه، وأقبلوا عليها شارحين ومعلِّقين ومختصرين. ومن جهة ثانية كانت لهم مُصنّفات مستقلّة قيِّمة، ومسائل نحويّة اجتهد فيها نُبهاؤهم وآراء انفردوا بها أحيانًا. ولكن ما تبيّن لي أنَّ أسماء علماء اللّغة والنّحو منثورة في مؤلَّفات تنتمي إلى مجالات معرفيَّة مختلفة تتنازعهم كتب اللّغة والنّحو والطّبقات والتّراجم والتّاريخ والفقه وغيرها مع ضياع الكثير ممّا ألّفوه.

– تَنَوُّعُ انتماءات علماء المغرب النّحويّة، فقد تبيَّن من خلال عرضي أهمّ آرائهم واختياراتهم أنّهم لم يكتفوا بالأخذ من المذهب الكوفيِّ وحسب، إنّما تابعوا نُحاة المدرسة البصريَّة والبغداديَّة والأندلسيَّة أيضًا، مع مَيْلِ أكثرهم إلى آراء البصريِّين، لا بل لهم اجتهادات لم يخرج الكثيرُ منها عن إطار النَّحوِ البصريِّ، أيْ رغم اطّلاعهم على النَّحو الكوفيِّ أوّلاً من خلال كتاب الكسائي الّذي حمله شيخُ النُّحاة الأوائل جودي بن عثمان، إلاَّ أنَّ توجُّهَهم كان نحو المذهب البصريِّ أكثر. وعليه يجدر القول إنَّ منهجَ نُحاة المغرب في مُجمل المُصنّفات الّتي تناولتُها وربّما في غيرها أيضًا يقوم على مبدأ الانتقاء من مذاهب النّحو المختلفة، ولكن دون أنْ يغيبَ الإبداع والتفرّد ببعض الآراء والتوجّهات.

– اعتبار نُحاة المغرب الحديث النبويّ الشّريف مصدرًا من مصادر الاحتجاج المهمة في قواعد النَّحو والصّرف، فحتّى وإنْ كانت نسبة استشهادهم به قليلةً مقارنة بالأندلسيِّين أمثال ابن

مالك وابن خروف إلاَّ أنَّ المغاربة صرَّحوا بنسبته إلى النبيّ ﷺ والصّحابة ﷺ. وهذا إلى جانب استشهادهم بالقرآن الكريم الّذي أولوه عنايةً كبيرة حيث احتلّت أعلى مراتب السَّماع عندهم، بل كان بينهم من دافَعَ عن بعض القراءات بِحجَّة أنَّه لا فرق بين قراءة متواترة وشاذَّة. ثمّ يليها كلام العرب الّذي نال حصَّةَ الأسد في كتبهم أيضًا، ولا سيما الأشعار بِدليل أنّهم اعتنوا كثيرًا بشرح الأبيات الواردة في كتب النّحو والتّعليق عليها مثل أبيات (الكتاب) و(الجمل). كما أنّ استخدامهم للشَّواهد متنوّع فتارةً يستدلُّون بها لترجيح أحكام نحويّة على أخرى، وتارةً ثانية لتوثيق القواعد وتارةً ثالثة لتوضيح الخلافات النّحويَّة، مع حِرْصِهِم بِصفة عامَّة على الاستدلال بالشَّواهد المطّردة والاحتكام إلى القياس.

– دور علماء الأندلس في نشاط الدَّرس النَّحويِّ بالمغرب في العصر الوسيط فقد شاركوا في تنميته دراسةً وتدريسًا وتأليفًا وبخاصّة في الفترة الّتي كان فيها المغرب والأندلس يُكوِّنان أمّةً واحدةً، ولذلك من الصّعوبة الفصل بين جهود النّحاة الأندلسيِّين والمغاربة، حتّى إنَّه لو لا جهود الأندلسيِّين المستقرّين في المغرب ما كان هذا الحقل ليزدهر، فقد اشتغلوا مع المغاربة جنبًا إلى جنب فصاروا يُمثِّلون بالنِّسبة للكثير مذهبًا نحويًّا واحدًا باسم (المذهب الأندلسيّ المغاربيّ). وكلّ هذا دليل على أنَّ الحركةَ النَّحويَّة الّتي عرفها المغربُ كانت امتدادًا للتّي في الأندلس ولا سيما بعد توافدهم واستقرارهم فيه. ومن مظاهر التّداخل بين أبناء القطرين أيضًا تلقِّي بعضهم اللّغة والنّحو عن بعض، فالشَّلوبين دَرَسَ على الجُزولي، وابن آجرُّوم على أبي حيَّان، وهناك آخرون كابن مضاء والخدبّ وابن عصفور. كما كانت حلقات الدَّرس وجهًا من وجوه الالتقاء المَتِينِ بين نُحاة القطرين وطلبتهما، ودليل ذلك أنَّ المغاربة كانوا يتنافسون على حضور مجالس الأندلسيِّين، حتَّى إنَّ وجودَهم بالمغرب أسهم في ظهور شخصيّات نحويّة كانت في مستوى كِبار الأساتذة، والعكس يحدث فقد كان لِعلماء المغرب حظوةٌ عند الأندلسيِّين. وعليه فإنّ العلاقة بين المغرب والأندلس علاقةٌ وطيدةٌ قديمة يُمثِّلها هؤلاء النّحاة الّذين لا يُمكن القول إنَّهم أندلسيّون دون نِسبتهم إلى القيروان ومراكش وفاس وبجاية وتلمسان، وابن أبي الرّبيع الإشبيليّ السّبتيّ مِثالٌ نَموذَجِيٌّ للوحدة العلميَّة عامّة والنَّحويَّة خاصّة بين القطرين. وعلاوة على ذلك فإنّ المغاربة يتنازعهم أكثر من قطر بِحكم تنقّلاتهم واستقرارهم خارج موطنهم، فهناك أعلام من أصول مغربيَّة اشتغلوا بالنَّحوِ فنالوا مكانةً علميّةً مهمّة فيه، ومع ذلك لم يكونوا يُذكرون على أساس أنَّهم من أعلام النّحو المغاربيِّ، بل كانوا يعدّون نُحاة مشارقة وأندلسيِّين.

- بروز كبار النّحاة المغاربة الّذين شاع ذكرُهم مغربًا ومشرقًا، والبداية كانت مع الجُزولي الّذي له دورٌ عظيمٌ في تأصيل الدّرس النّحويّ تاركًا وراءه (الجُزوليّة). ثمّ مع ابن معط الّذي دلَّ صنيعُه في (الأَلفية) على رغبته القويَّة في تيسير القواعد للطّلبة، وصحيح أنَّ هذا النَّوع من التّأليف تنبّه له الخليل إلاَّ أنَّه لم يبرُز إلاَّ مع ابن معط، ولكن الشّهرة كانت من نصيب الأندلسيِّين الّذين سَارُوا على خطواته حتَّى خملوا ذكرَه كابن مالك الّذي فاقت شهرة أَلفيته على شهرة الأولى. فكما نعلم حظوظ الكتب كحظوظ النّاس يُصيبُهم من شيوع وشهرة فيُسمعُ بِهم في موطنهم وخارجه أو خُمول وإهمال فتقلُّ شهرتُهم رغم أسبقيَّتهم. كما هناك ابن آجُرُّوم صاحب المقدّمة الشّهيرة، وشارح مقدّمته المكُّودي الّذي تصدّى بِدوره للتّدريس والتّأليف فصار من علية النّحاة في زمانه. وهذا بِغضّ النّظر عن جهود النّحاة الأوائل كإبراهيم بن قطن المهري وخلف الأطرابلسي وابن الوزّان الّتي وضعت اللَّبنة الأولى للدَّراسات النَّحويَّة في المغرب عامّة.

- كثرة شروح المغاربة على مؤلّفات النّحو إذْ ما من نحويٍّ في المغرب إلاَّ وله شرحٌ فأكثر، وكان من حُسنِ حظِّ المؤلَّفات المشرقيّة أنْ تكونَ موضعَ اهتمامهم، حيث خدموها بالشَّرحِ وشرح شواهدها وأبياتها واختصارها ونَظْمِها والتّعليق عليها، وكان في مقدّمتها كتاب سيبويه الّذي فاقت شروحه التصوّرات، ثمّ (الجمل) و(الأصول) و(المفصّل) وغيرها. والأمر كذلك بالنِّسبة للمؤلَّفات الأندلسيَّة الّتي حظِيَت بعناية المغاربة دراسةً وتعليمًا وشرحًا، كما شُرِحَ أكثر مؤلّفات المغاربة أيضًا مثل (الجُزوليّة) و(الأَلفيّة) و(الآجرُّوميّة). وإنْ كان هناك من اعتبر الشُّروح تضليلاً للدِّارسين ومخلّة بِتَعلُّمِ النَّحو وفهمِه فلا بدَّ من القولِ إنَّ بقاءَ بعض الكتب كان نتيجةً لِعناية العلماء بِشرحها ونَظْمِها واختصارها والتَّعليق عليها.

- تَغَلُّب الطَّابع التَّعليميِّ على أكثر مؤلّفات المغاربة، وكان ذلك رغبة منهم في تسهيل القواعد على النّاشئة وتذليل صعوبتها. ويكفي أنْ تنال (الآجُرُّوميَّة) حظَّها من الذُّيوع والشّهرة رغم صغر حجمها، ويكون لها الأثر الطيِّب في نفوس النَّاس بفضل أسلوبها التّعليميِّ والمُيسّر الّذي جعلهم يرغبون في حفظها وفهمها.

- اعتماد نُحاة المغرب منهج المشارقة في تناول قواعد النّحو والصّرف من حيث التّرتيب، فقد لاحَظْتُ أنَّ جميع النُّحاة الّذين تعرَّضْتُ لهم ابتدأوا مؤلّفاتهم بأبواب النَّحو ثمّ الصّرف، مع العلم أنَّ ابن عصفور انتقد هذا التّرتيب معتبِرًا مسائل الصّرف أَولى بالتّقديم. فهذا الجُزولي مثلاً يتناول أبواب النّحو أوّلاً ثمّ الصَّرف، في حين خَصَّ ابن آجُرُّوم مقدّمته للنّحو فقط، وأمّا المكُّوديّ فقد تابعَ التّسلسلَ الموضوعيَّ الّذي اعتمدَه النّاظم ابن مالك، وكان موضوعُ الإدغامِ آخر الموضوعات كما هو الأمر مع المؤلَّفات المشرقيَّة المتداولة.

- إقبال العلماء على كتب النّحو المغاربيّة كان كبيرًا، حيث قاموا بدراستها وتدريسها وشرحها واختصارها ونَظْمِها منذ عصر أصحابها إلى اليوم، وقد أدّت الشّروح والمختصرات الّتي وضعوها دورًا فعالاً حيث شغلت العلماء بها طيلة فترة الدّراسة وما تلاها، وتَعرَّفَ الدَّارسون أكثر على الإنتاجِ النَّحويِّ في المغرب وأعلامه. ومعنى هذا أنّه بعد أن انتفع المغاربة بالكتب المشرقيّة ردّوا الجميلَ للمشارقة فقد شاع أفضل ما ألّفه المغاربة في بلادهم وكان مصدر علمٍ ثريٍّ لهم، وكما اهتم المغاربة بكتاب (الجمل) اهتم المشارقة بدورهم بـ (الآجُرُّوميّة).

المهمّ في الأمر، أنَّ علماء المغرب تركوا بصمات طيِّبة في التّراث النَّحويِّ سواء أكان ذلك في موطنهم المغرب أم كان في بلاد المشرق والأندلس الّتي تنقّلوا إليها واستقّروا فيها، وهذا بالمشاركة مع الأندلسيِّين الّذين وفدوا بِدورهم على المغرب فكان لهم دورٌ بارزٌ في إغناء الدَّرس النَّحويِّ وتَطَوُّره فضلاً عمّا قدَّموه دراسةً وتعليمًا وتأليفًا. وعليه آمل أنْ تفتحَ دراستي البابَ على مصراعيه للبحث في جهودهم اللّغويّة والنَّحويَّة خاصّة، وأنْ تنالَ القبول وتقع موضع الرِّضا فكما تقدّمت في القول قلَّت الأبحاث الأكاديميَّة الّتي تتناولُ النَّحوَ المغاربيَّ وأعلامه، عكس جهود الأندلسيِّين النّحويّة الّتي نالت حظًّا عظيمًا من العناية والدِّراسة. وعليه يسرُّني أنْ سلَّطتُ بهذه الدِّراسة بعض الضَّوء على الموضوع بعد أنْ جَمَعْتُ فيها شتات المعلومات المُبعثرة في هذه الكتب وتلك، ولكن لا أَدَّعِي أنَّها بلَغَت حدَّ الكمال والتّمام فما هي إلاَّ قطرة أضفتها إلى ماء البحر، بل حاولت التّعريف ببعض الأسماء وبجهودها قدر الإمكان ثمّ بِميزات النَّحو المغاربيِّ عامّة والعوامل الّتي أسهمت في تَقَدُّمِه طيلة فترة الدِّراسة، ولم أتغاضَ في ذلك عن جهود الأندلسيِّين الّتي لها أثَرٌ في ما عرفه هذا العلم، حتَّى إنَّهم نالوا شرفَ تنميتها لمّا تصدَّى كثيرهم للتّدريس وتأليف الكتب الّتي اهتمّوا بتدريسها وشرحها، وعلى هذا يبدو أنَّ إطلاقَ اسم المدرسة على الجهود النَّحويَّة بالمغرب فيه مبالغةٌ في التَّعبير، وذلك لأنَّ هذه الأخيرة لم تكن مغربيَّة محضة فقد ساهم فيها علماء أجانب، ممّا جعل أشهر المراكز الثّقافيّة الّتي أشرت إليها قبلةً للطَّلبة الرّاغبين في دراسة النَّحو وفهمه. وفوق هذا، أدركت أنَّ تشكيلَ أيَّة مدرسة نحويَّة يقتضي توحيد الغايات والأصول واعتماد منهجٍ خاصٍّ ومستقلٍّ عن مدارس النَّحو الأخرى، والنَّتيجة العامَّة هي أنَّ الدَّرسَ النّحويّ بالمغرب لا يحتكم إلى هذه الأمور حتَّى ينطوي تحت اسم (المدرسة المغاربيّة في النّحو)، وصحيح أنَّ هناك من الأعلام الّذين اشتغلوا بالنَّحوِ حيث دَرَسُوه ودَرَّسُوه وأَلَّفُوا فيه ولكن يبقى هذا في حدود اختياراتهم وتوجُّهاتهم بالإضافة إلى ما انفردوا به من آراء، مع العلم أنَّ منها ما أَنَكَرَه عليهم النُّحاة ممَّن عاصروهم وجاءوا بعدهم. علاوة على ذلك أنَّ الحديثَ عن جهود المغاربة في هذا الحقل لا يستثني الأندلسيِّين الّذين لعبوا دورًا مهمًّا في

ازدهاره حتَّى بَلَغَ الذَّروةَ في فترة ما، أوّلاً لأنَّ صلةَ بعض المغاربة الأوائل بالنَّحو كانت عن طريق الأندلسيِّين الّذين درسوا كتابَ الكسائي على شيخهم جودي بن عثمان، ثمّ كتاب سيبويه على الأفُشنيق، وثانيًا تصدَّى أكثر الوافدين على المغرب لتدريس النَّحو والتَّأليف فيه، ولهذا السَّبب لم يكن الباحثون يَفْصِلون الحديثَ في النَّحو المغاربيِّ والأندلسي.

وثمَّة فكرة مهمّة لابدّ من ذكرها وهي أنَّ القسمَ الأكبر من مؤلَّفات النّحو المغاربيّة ضائعٌ هنا وهناك، أو لا يزال حبيس رفوف الخزائن المغاربيَّة والمشرقيَّة والعالميَّة أيضًا في إسبانيا وفرنسا وتركيا وغيرها، ولهذا السَّبب نَجهلُ الكثيرَ عمّا قدَّمه المغاربةُ في النّحو فكلُّ ما تحصّلنا عليه من كتب محقَّقة يُعَدُّ بالأصابع، وبالتّالي تبقى مُتَابَعَة هذه الفترة بِنَشر تراثها ودراسته والبحث فيه ممّا يُفيد المُشتَغلين أمرًا في غاية الأهميّة؛ لأنَّ إزاحةَ السِّتار عن ذلك الإرث النّحويّ الثريّ الّذي لا شكَّ سيُثري المكتبةَ المغاربيّةّ خاصّة والعربيّة الإسلاميّة عامّة.

وفي الختام؛ أرجو أنْ تُحَفِّزَ دراستي الهِمَمَ إلى بحث هذا الحقل البِكر، فما قَدَّمْتُه فيها مجرّد خطوة تحتاج إلى خطوات كثيرة، وتمهيد يقتضي التَّفصيل والتّكملة والتّقويم.

تمّ بحمد الله وتوفيقه

قائمة المصادر والمراجع

❖ **القرآن الكريم** (رواية حفص)

❖ **المعاجم:**

- إميل بديع يعقوب، المعجم المُفصَّل في اللّغويِّين العرب، ط1. بيروت: 1997م، دار الكتب العلميَّة.
- خير الدِّين الزركلي، الأعلام، قاموس الأعلام لأشهر الرِّجال والنِّساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، ط15. بيروت: 2002م، دار العلم للملايين.
- رجب عبد الجواد إبراهيم، معجم علماء اللّغة والنَّحو في الأندلس من الفتح إلى سقوط الخلافة، ط1. القاهرة: 2004م، دار الآفاق العربيَّة.
- عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتَّى العصر الحاضر، ط2. بيروت: 1980م، مؤسّسة نويهض للتّأليف والتّرجمة والنّشر.
- عبد الله بن الآبار، المعجم في أصحاب القاضي أبي علي الصّدفي، د ط. القاهرة: 1967م دار الكاتب العرب.
- محمّد حجّي وآخرون، مَعْلَمَةُ المغرب، قاموس مرتّب على حروف الهجاء يُحيط بالمعارف المُتعلِّقة بِمُختلف الجوانب التّاريخيّة والجغرافيَّة والبشريَّة والحضاريَّة للمغرب الأقصى، د ط. المغرب الأقصى: 1997م- 1998م، إنتاج الجمعيّة المغربيّة للتَّأليف والتَّرجمة والنَّشر ونشر مطابع سلا.
- ياقوت الحموي، معجم الأدباء، تح: إحسان عباس، ط1. بيروت: 1993م، دار الغرب الإسلامي.
- ـــــــــ، معجم البلدان، ط2. بيروت: 1995م، دار صادر.

❖ **المصادر والمراجع العربيّة:**

- إبراهيم الإصطخري، المسالك والممالك، د ط. القاهرة: د ت، الهيئة العامّة لقصور الثّقافة.
- إبراهيم بن الأجدابيّ، كفاية المتحفّظ في اللّغة، تح وتع: السائح علي حسين، د ط. طرابلس: 1989م، جمعيّة الدّعوة الإسلاميَّة العالميَّة.
- إبراهيم بن مَراد، دراسات في المعجم العربيِّ، ط1. بيروت: 1987م، دار الغرب الإسلاميّ.
- إبراهيم حركات، مدخل إلى تاريخ العلوم بالمغرب المسلم حتَّى القرن 9/15م، ط1. الدّار البيضاء: 2000م، دار الرّشاد.

- ـــــــــ ، المغرب عبر التّاريخ، عرض لأحداث المغرب وتطوّراته في الميادين السياسيَّة والدِّينيَّة والاجتماعيَّة والعمرانيَّة والفكريَّة منذ ما قبل الإسلام إلى العصر الحاضر (ق14هـ و20م) ط1. الدّار البيضاء: د ت، دار السلمى للتّأليف والتّرجمة والنّشر والطِّباعة والتّوزيع.
- أثير الدِّين أبو حيَّان الأندلسيّ، تذكرة النُّحاة، تح: عفيف عبد الرَّحمن، ط1. سوريا: 1986م مؤسّسة الرِّسالة للطّباعة والنّشر والتّوزيع.
- ـــــــــ ، ارتشاف الضَّرب من لسان العرب، تح وشرح ودراسة: رجب عثمان محمّد مراجعة: رمضان عبد التواب، ط1. القاهرة: 1998م، مكتبة الخانجي.
- أحمد أمين، فجر الإسلام، د ط. القاهرة: 2012م، مؤسَّسة هنداوي للتّعليم والثّقافة.
- ـــــــــ ، ظُهر الإسلام، ط1. القاهرة: 2009م، شركة نوابغ الفكر.
- أحمد بابا التنبكتي، نيل الابتهاج بِتطريز الدّيباج، إشراف وتقديم: عبد الحميد عبد الله الهرامة، ط1. طرابلس: 1989م، منشورات كلية الدّعوة الإسلاميَّة.
- أحمد بن الحاج الفاسي، حاشية العلاّمة ابن حمدون على شرح المكُودي لألفية ابن مالك المسمّاة (الفتح الودُوديّ على المكُّودي)، د ط. د ب: 1955م، دار إحياء الكتب العربيَّة.
- أحمد بن حجر العسقلاني، الدّرر الكامنة في أعيان المائة الثّامنة، د ط. بيروت: 1993م دار الجيل.
- أحمد بن زيني دحلان، شرح الآجرُّوميَّة، تح: محمّد بن جلال الدِّين النّحويّ البغدادي، د ط. أبو ظبي: د ت، مكتبة الصّفاء.
- أحمد بن القاضي، جذوة الاقتباس في ذِكْرِ مَنْ حلَّ مِن الأعلام مدينة فاس، د ط. الرّباط: 1973م، دار المنصور للطِّباعة والورّاقة.
- ـــــــــ ، درّة الحجال في أسماء الرّجال، تح: محمّد الأحمدي أبو النّور، ط1. تونس/القاهرة: 1971م، المكتبة العتيقة ودار التّراث.
- أحمد بن مُضاء القرطبي، الردّ على النّحاة، تح ودراسة: محمّد إبراهيم البنا، ط1. د ب: 1979م، دار الاعتصام.
- أحمد التيجاني، رحلة التيجاني، تقديم: حسن حُسني عبد الوهاب، د ط. ليبيا/ تونس: 1981م، الدّار العربيّة للكتاب.
- أحمد الزواوي، أبو موسى الجُزولي، عرض لحياته العلميّة ومنهجه في البحث، وتأثيره في حقل النّحو، ثمّ نقد لمنهجه، د ط. المحمديّة: 1984م، مطبعة ماناستير.
- أحمد شلبي، تاريخ التّربية الإسلاميَّة، د ط. القاهرة: 1954م، دار الكشّاف.

- أحمد شوقي، من المصادر الأدبيَّة واللّغويَّة، د ط. بيروت: 1990م، دار العلوم العربيَّة للطِّباعة والنّشر.
- أحمد الطويلي، في الحضارة العربيَّة التونسيَّة، ط1. تونس: 1988م، دار المعارف للطِّباعة والنّشر.
- أحمد الغبريني، عنوان الدراية في من عُرِف من العلماء في المائة السّابعة ببجاية، تح وتع: عادل نويهض، ط2. بيروت: 1979م، منشورات دار الآفاق الجديدة.
- أحمد مختار العبادي، دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، د ط. الإسكندرية: د ت مؤسَّسة شباب الجامعة للطِّباعة والنّشر والتّوزيع.
- أحمد مختار عمر، البحث اللّغويّ عند العرب، ط6. القاهرة: 1988م، عالم الكتب.
- أحمد المنجور، فهرس أحمد المنجور، تح: محمّد حجي، د ط. الرّباط: 1976م، دار المغرب للتّأليف والتَّرجمة والنَّشر.
- إسماعيل البغداديّ، هديّة العارفين أسماء المؤلِّفين وآثار المصنِّفين، د ط. بيروت: د ت دار إحياء التّراث العربي.
- إسماعيل الخطيب، الحركة العلميَّة في سبتة خلال القرن السّابع، ط1. تطوان: 1986م منشورات جمعيّة البعث الإسلاميّ، مطبعة النّور.
- بدر الدِّين المُرادي، الجني الدّاني في حروف المعاني، تح: فخر الدِّين قباوة ومحمّد نديم فاصل، ط1. بيروت: 1992م، دار الكتب العلميَّة.
- ———، توضيح المقاصد والمسالك بِشرح ألفيّة ابن مالك، تح: عبد الرّحمن علي سليمان ط1. القاهرة: 2001م، دار الفكر العربيّ.
- البشير علي حمَد الترابي، القاضي عيّاض وجهوده في عِلْمَي الحديث رِوَايَة ووَرَاية، ط1. بيروت: 1997م، دار ابن حزم.
- تقي الدِّين إبراهيم النيلي، الصّفوة الصفيَّة في شرح الدرّة الألْفيّة، تح: محسن بن سالم العميري، ط1. المملكة العربيّة السعوديّة: 1419هـ، وزارة التّعليم العالي، جامعة أم القرى، معهد البحوث العلميَّة، مركز إحياء التّراث، مطبوعات جامعة أم القرى.
- التواتي بن التواتي، المدارس النَّحويَّة، ط2. الجزائر: 2008م، دار الوعي.
- جلال الدِّين السيوطي، همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، تح: أحمد شمس الدِّين، ط1. بيروت: 1998م، دار الكتب العلميَّة.

- ـــــــــ، بغية الوُعاة في طبقات اللّغويِّين والنّحاة، تح: محمّد أبو الفضل إبراهيم، د ط. صيدا: د ت، المكتبة العصريّة.

- ـــــــــ، الأشباه والنّظائر في النّحو، د ط. بيروت: د ت، دار الكتب العلميَّة.

- ـــــــــ، الاقتراح في علم أصول النّحو، قراءة وتع: محمود سليمان ياقوت، د ط. جامعة طنطا: 2006م، دار المعرفة الجامعيَّة.

- جمال أحمد طه، مدينة فاس في عصري المرابطين والموحّدين 448هـ/ 1056م إلى 668هـ/ 1269م دراسة سياسيّة وحضاريّة، د ط. الإسكندرية: 2001م، دار الوفاء لدنيا الطِّباعة والنَّشر.

- جمال الدِّين الحنفي، النّجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، د ط. مصر: د ت، وزارة الثّقافة والإرشاد القوميّ، دار الكتب.

- جمال الدِّين القفطي، إنباه الرّواة على أنباه النّحاة، تح: محمّد أبو الفضل إبراهيم، ط1. القاهرة/ بيروت: 1986م، دار الفكر العربيِّ ومؤسَّسة الكتب الثّقافيّة.

- حاتم صالح الضامن، الاستشهاد بالحديث في اللّغة والنَّحو، د ط. دبي: 2002م، مركز جمعة الماجد للثّقافة والتّراث.

- حسن أحمد محمود، قيام دولة المرابطين صفحة مشرقة من تاريخ المغرب في العصور الوُسطى، د ط. القاهرة: د ت، دار الفكر العربيّ.

- حسن حسني عبد الوهاب، ورقات عن الحضارة العربيَّة بإفريقية التّونسيّة، د ط. تونس: 1972م، منشورات مكتبة المنار.

-ـــــــــ، كتاب العمر في المُصنَّفات والمؤلِّفين التونسيِّين، مراجعة وإكمال: محمّد العروسي المطوي وبشير البكُوش، ط1. بيروت/ تونس: 1990م، طُبِعَ بالاشتراك بين دار الغرب الإسلاميِّ وبيت الحكمة.

- الحسن الوزّان الفاسي، وصف إفريقيا، ط2. بيروت: 1983م، دار الغرب الإسلامي.

- حسين مؤنس، معالم تاريخ المغرب والأندلس، د ط. د ب: 2004م، دار الرّشاد.

- ـــــــــ، فتح العرب للمغرب، د ط. الإسكندرية: د ت، مكتبة الثّقافة الدِّينيَّة.

- حسين الوراكلي، شيوخ العلم وكتب الدَّرس في سبتة، ط1. تطوان: 1984م، مطبعة النّور ومنشورات جمعية البعث الإسلاميّ.

- حفيظة يحياوي، إسهامات نُحاة المغرب والأندلس في تأصيل الدَّرس النَّحويِّ العربيِّ خلال القرنين السّادس والسّابع الهجريَّيْن، د ط. الجزائر: 2011م، منشورات مخبر الممارسات اللّغويَّة بجامعة مولود معمري تيزي وزو.
- حمدي عبد المُنعم محمّد حسين، مدينة سلا في العصر الإسلاميِّ دراسة في التَّاريخ السياسيِّ والحضاريِّ، الإسكندرية: 1993م، مؤسّسة شباب الجامعة.
- خالد الأزهري، شرح التّصريح على التّوضيح أو التّصريح بمضمون التَّوضيح في النّحو، تح: محمّد باسل عيون السُّود، ط1. بيروت: 2000م، منشورات دار الكتب العلميَّة.
- خديجة حديثي، المدارس النّحويَّة، ط3. الأردن: 2002م، دار الأمل للنّشر والتّوزيع.
- الخليل بن أحمد الفراهيدي، المنظومة النّحويَّة، تح ودراسة: أحمد عفيفي، ط1. القاهرة: 1995م، دار الكتب المصريّة.
- رابح بونار، المغرب العربيّ تاريخه وثقافته، ط2. الجزائر: 1981م، الشَّركة الوطنيّة للنّشر والتّوزيع.
- رضي الدِّين الإستراباذي، شرح الرضي لكافية ابن الحاجب، دراسة وتح: يحي بشير المصري، المملكة العربيّة السعوديّة: 1997م، وزارة التّعليم العالي، جامعة الإمام محمّد بن سعود الإسلاميّة، سلسلة نشر الرّسائل العلميّة 15.
- سعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثّقافيِّ من القرن العاشر إلى الرَّابع عشر الهجريّ (16-20م)، ط2. الجزائر: 1985، الشَّركة الوطنيَّة للنَّشر والتَّوزيع.
- الشّاذلي بويحي، الحياة الأدبيَّة بإفريقية في عهد بني زيري الدّولة الصّنهاجيَّة (362-555/ 972- 1160م)، نقله إلى العربيَّة: محمّد العربي عبد الرزّاق، د ط. تونس: 1999م المجمع التّونسي لعلوم الآداب والفنون بيت الحكمة.
- شمس الدِّين بن الجزري، غاية النِّهاية في طبقات القرّاء، تح: ج. برجسُتراسر، ط1. بيروت: 2006م، دار الكتب العلميَّة.
- شمس الدِّين بن الخبّاز، الغُرّة المخفيَّةُ في شرح الدرّة الألْفيّة لابن معط، تح: حامد محمّد العبدلي، د ط. بغداد: د ت، مطبعة العاني ودار الأنبار.
- شمس الدِّين بن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزّمان، تح: إحسان عبّاس، د ط. بيروت: 1900م، دار صادر.
- شمس الدِّين بن قيِّم الجوزيَّة، إرشاد السّالك إلى حلّ ألفيّة ابن مالك، تح: محمّد بن عوض بن محمّد السّهلي، ط1. د ب: 2002م، مكتبة أضواء السّلف.

- شمس الدِّين السّخاوي، الضّوء اللاّمع لأهل القرن التّاسع، د ط. بيروت: د ت، دار الجيل.
- شمس الدِّين محمّد الدّاوودي، طبقات المفسِّرين، مراجعة وضبط الأعلام: لجنة من العلماء بإشراف النَّاشر، ط1. بيروت: 1983م، دار الكتب العلميَّة.
- شهاب الدِّين المقري، نفح الطّيب من غصن الأندلس الرّطيب، تح: إحسان عباس، د ط. بيروت: 1968م، دار صادر.
- شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربيّ عصر الدّول والإمارات (الجزائر- المغرب الأقصى- موريتانيا- السّودان)، ط1. القاهرة: 1995م، دار المعارف.
- ــــــــ، عصر الدول والإمارات (ليبيا- تونس- صقلية)، د ط. القاهرة: 1992م، تاريخ الأدب العربيِّ9، دار المعارف.
- ــــــــ، المدارس النَّحويَّة، ط11. القاهرة: 2008م، دار المعارف.
- صالح بلعيد، النّحو الوظيفيّ، د ط. الجزائر: 1994م، ديوان المطبوعات الجامعيّة.
- ــــــــ، في أصول النّحو، د ط. الجزائر: 2005م، دار هومه للطِّباعة والنَّشر والتَّوزيع.
- ــــــــ، مقالات لغوية، د ط. الجزائر: 2009م، دار هومه للطِّباعة والنّشر والتّوزيع.
- الطّاهر أحمد الزّاوي وناصر الدِّين محمّد الشّريف، الجواهر الإكليليَّة في أعيان علماء ليبيا من المالكيّة، وبه ملحق الفتاوى الزاوية على مذهب السّادة المالكيّة، ط1. الأردن: 1999م، دار البيارق للطِّباعة والنَّشر والتَّوزيع.
- الطّاهر أحمد الزّاوي، أعلام ليبيا، ط3. ليبيا: 2004م، دار المدار الإسلامي.
- العبّاس بن إبراهيم السّملالي، الإعلام بمن حلَّ مراكش وأغمات من الأعلام، مراجعة: عبد الوهاب بن منصور، ط2. الرّباط: 1998م، المطبعة الملكيّة.
- عبد الحكيم بن محمّد الجغدال، جلب الأذهان الفتيّة في تبسيط وشرح نظم نثر المقدّمة الأجرُّوميَّة، ط1. د ب: 2007م، منشورات مكتبة سلمى الثّقافيَّة ومطبعة الخليج العربي.
- عبد الحليم عويس، دولة بني حمّاد صفحة رائعة من التّاريخ الجزائريّ، ط2. القاهرة: 1991م، دار الصّحوة للنَّشر والتَّوزيع.
- عبد الحي بن العماد الحنبلي، شذرات الذّهب في أخبار من ذهب، تح وتع: محمود الأرناؤوط، خرّج أحاديثه: عبد القادر الأرناؤوط، ط1. دمشق/ بيروت: 1991م، دار ابن الكثير للطِّباعة والنَّشر والتّوزيع.
- عبد الرّحمن أبو البركات بن الأنباري، نزهة الألباء في طبقات الأدباء، تح: إبراهيم السّامرائي، ط3. الأردن: 1985م، مكتبة المنار.

- ـــــــــ ، الإنصاف في مسائل الخلاف بين البصريِّين والكوفيِّين، دراسة وتح: جودة مبروك محمد مبروك، مراجعة: رمضان عبد التواب، ط1. القاهرة: 2002م، مكتبة الخانجي.

- عبد الرّحمن بشير، اليهود في المغرب العربيّ 22هـ- 462هـ/ 642م- 1070م، ط1. جامعة الزقازيق: 2001م، كليّة الآداب، عين الدِّراسات والبحوث الإنسانيّة والاجتماعيّة.

- عبد الرّحمن بن خلدون، المقدّمة، ط1. القاهرة: 2005م، دار ابن الهيثم.

- عبد الرّحمن بن محمّد السّجلماسي، إتحاف أعلام النّاس بِجمال أخبار حاضرة مكناس تح: علي عمر، ط1. القاهرة: 2008م، مكتبة الثّقافة الدِّينيّة.

- عبد الرّحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ط4. بيروت: 1980م، دار الثقافة.

- عبد الرّحمن المكّودي، شرح المكُّودي على المقدّمة الآجُرُّوميَّة في علم العربيَّة (وبهامشه رسالتان لأحمد زيني دحلان)، ط2. مصر: 1936م، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده.

- ـــــــــ ، شرح المكُّودي على ألفيّة ابن مالك، تح وتع: فاطمة راشد الراجحي، د ط. القاهرة: 2004م، الدّار المصريّة السعوديّة.

- ـــــــــ ، شرح المكُّودي (على الألفيّة في علمي النّحو والصّرف لابن مالك ومعه حاشية العلاّمة الشَّيخ أحمد بن عبد الفتّاح الملوي والأزهري)، عناية ومراجعة: أحمد عوض أبو الشبَاب، د ط. الدّار البيضاء: 2011م، دار الرّشاد الحديثة.

- عبد العال مكرم سالم، المدرسة النَّحويَّة في مصر والشّام في القرنيْن السّابع والثّامن من الهجرة، ط1. بيروت: 1980م، دار الشّروق.

- عبد العزيز بن جمعة الموصلي، شرح ألفية ابن معطي، تح ودراسة: علي موسى الشوملي ط1. الجزائر: 2007م، دار البصائر للنَّشر والتَّوزيع.

- عبد العزيز فيلالي، تلمسان في العهد الزيانيّ، د ط. الجزائر: 2002م، موفم للنَّشر والتَّوزيع.

- عبد العلي الودغيري، المعجم في المغرب العربيِّ إلى بداية القرن الرّابع عشر الهجريِّ، ط1. المغرب: 2008م، مطبعة النّجاح الجديدة بالدّار البيضاء.

- عبد القادر رحيم الهيثي، خصائص مذهب الأندلس النَّحويِّ خلال القرن السّابع الهجريّ ط2. ليبيا: 1993م، منشورات جامعة قار يونس ببنغازي.

- عبد الكريم بكري، أصول النّحوِ العربيِّ في ضوء مذهب ابن مضاء القرطبي، ط1. الجزائر: 1999م، دار الكتاب الحديث.

- عبد الله بن الآبار، التكملة لكتاب الصِّلة، تح: عبد السَّلام الهرّاس، د ط. بيروت: 1995م إشراف مكتب البحوث والدِّراسات، دار الفكر للطِّباعة والنَّشر والتَّوزيع.

- عبد الله بن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، تح وتع وضبط: بشار عوّاد معروف، ط1. تونس: 2008م، دار الغرب الإسلامي.

- عبد الله بن عقيل، شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، تح: محمد محي الدِّين عبد الحميد د ط. القاهرة: 1980م، دار التّراث ودار مصر للطِّباعة.

- عبد الله بن هشام الأنصاري، أوضح المسالك إلى أَلفية ابن مالك (ومعه كتاب عدّة السّالك إلى تحقيق أوضح المسالك تأليف محي الدّين عبد الحميد)، د ط. بيروت: د ت منشورات المكتبة العصريّة.

- ———، مغني اللّبيب عن كتب الأعاريب، تح: محمَّد محي الدِّين عبد الحميد، د ط. بيروت: 1991م، المكتبة العصريَّة للطِّباعة والنَّشر.

- عبد الله خالد الأنصاري، شرح المقدّمة الآجرُّوميّة، ط1. الرّياض: 1424هـ، دار الاعتصام للنّشر.

- عبد الله شريط، تاريخ الثّقافة والأدب في المشرق والمغرب، ط3. الجزائر: 1983م المؤسَّسة الوطنيَّة للكتاب.

- عبد الله كنون، النّبوغ المغربيّ في الأدب العربيِّ، ط3. بيروت: 1975م، مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللّبناني.

- ———، ذكريات مشاهير رجال المغرب في العلم والأدب والسياسة، ط1. بيروت/ الدّار البيضاء: 2010م، دار ابن حزم ومركز التّراث الثّقافيّ المغربي.

- عبد الله المالكي، رياض النّفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية وَزهادهم ونسّاكهم وسِيَرٌ من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم، تح: بشير البكّوش، مراجعة: محمّد العروسي المطوي ط2. بيروت: 1994م، دار الغرب الإسلامي.

- عبد الهادي الفضلي، مراكز الدِّراسات النَّحويَّة، ط1. الأردن: 1986م، مكتبة المنار.

- عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب من لدن فتح الأندلس إلى آخر عصر الموحدين تح: صلاح الدِّين الهواري، ط. صيدا: 2006م، المكتبة العصريّة.

- عبد الوهاب بن منصور، أعلام المغرب العربيِّ، د ط. الرّباط: 1979م، المطبعة الملكيّة.

- عبيد الله بن أبي الرّبيع الإشبيليّ السّبتي، البسيط في شرح جمل الزَجّاجي، تح ودراسة: عياد بن عيد الثبيتي، ط1. بيروت: 1986م، دار الغرب الإسلامي.

- عثمان الكعّاك، محاضرات في مراكز الثّقافة في المغرب (من القرن السّادس عشر إلى القرن التّاسع عشر)، د ط. القاهرة: 1954م، المطبعة الكمالية.

- عفيف الدِّين عبد الله اليافعي، مِرآة الجنان وعبرة اليقظان، وضع الحواشي: خليل المنصور ط1. بيروت: 1997م، دار الكتب العلميَّة.
- علي أحمد، الأندلسيّون والمغاربة في بلاد الشّام، من نهاية القرن الخامس وحتّى نهاية القرن التّاسع الهجريّ، ط1. 1989م، دار طلاس للدِّراسات والتَّرجمة والنَّشر.
- علي بن أبي زرع الفاسي، الأنيس المطرب بروض القرطاس أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، تصحيح ومراجعة وترجمة: كارل يوحن تورنْبِرْغ. مدينة أبسالة: 1823م، دار الطِّباعة المدرسيّة.
- عمر بن الوردي، تاريخ ابن الوردي، ط1. لبنان: 1996م، ج2، دار الكتب العلميَّة.
- عمر أبو علي الشَّلوبين، شرح المقدِّمة الجزوليَّة الكبير، دراسة وتح: تركي بن سهو بن نزال العتيبي، ط1. القاهرة/ الرِّياض: 1993م، مكتبة الخانجي للطِّباعة ومكتبة الرشد للنّشر.
- عمرو بن عثمان بن قنبر سيبويه، الكتاب، تح: عبد السّلام محمّد هارون، ط3. القاهرة: 1988م، مكتبة الخانجي.
- عيّاض بن موسى اليحصبي القاضي عيّاض، ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، ضبط وتصحيح: محمّد سالم هاشم، ط1. بيروت: 1998م، دار الكتب العلميَّة.
- ــــــــ، الغنية فهرست شيوخ القاضي عيّاض، تح: ماهر زهير جرار، ط1. بيروت: 1982م دار الغرب الإسلامي.
- ــــــــ، بغية الرّائد لِما تضمَّنه حديث أم زرع من الفوائد، تح: صلاح الدِّين بن أحمد الإدلبي وآخرون. المملكة المغربيَّة: 1975م، وزارة الأوقاف والشّؤون الإسلاميّة.
- ــــــــ، الإلماع إلى معرفة أصول الرِّواية وتقييد السَّماع، تح: أحمد صقر، ط2. القاهرة / تونس: د ت، دار التّراث والمكتبة العتيقة.
- عيسى أبو موسى الجُزولي، المقدّمة الجُزوليَّة في النّحو، تح وشرح: شعبان عبد الوهاب محمّد، مراجعة: حامد أحمد نيل وفتحي محمّد أحمد جمعة، ط1. القاهرة: 1988م، أم القرى للطّبع والنّشر.
- القاسم التجيبي، برنامج التجيبي، تح وإعداد: عبد الحفيظ منصور، د ط. ليبيا/ تونس: 1981م، الدَّار العربيَّة للكتاب.
- كارل بروكلمان، تاريخ الأدب العربيِّ، نقله إلى العربيَّة: رمضان عبد التواب، ط2. القاهرة: د ت، دار المعارف.

– كريم حسين الخالدي، أصالة النَّحو العربيِّ، ط1. عمّان: 2005م، دار صفاء للنَّشر والتَّوزيع.

– مبارك بن محمّد الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، تقديم وتصحيح: محمّد الميلي، د ط. بيروت: د ت، دار الغرب الإسلامي.

– مجد الدِّين الفيروز آبادي، البُلغة في تراجم أئمة النّحو واللّغة، تح: محمّد المصري، ط1. دمشق: 2000م، دار سعد الدِّين للطِّباعة والنّشر والتّوزيع.

– محمّد إبراهيم البنا، أبو الحسين بن الطراوة وأثره في النَّحو، ط1. تونس: 1980م، دار بوسلامة للطِّباعة والنَّشر والتَّوزيع.

– محمّد إبراهيم عبادة، النّحوُ التَّعليميّ في التّراث العربيِّ، د ط. الإسكندرية: د ت، دار المعارف.

– محمّد بن أبي دينار، المؤنس في أخبار إفريقيا وتونس، ط1، تونس: 1286، مطبعة الدَّولة التونسيَّة.

– محمّد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، تح: محمّد زهير بن ناصر الناصر، ط1. د ب: 1422هـ، دار طوق النّجاة.

– محمّد بن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، تح وتقديم: محمّد عبد الله عنان، ط1. القاهرة: 1974م، مكتبة الخانجي.

– محمّد بن شقرون، مظاهر الثّقافة المغربيّة دراسة في الأدب المغربيِّ في العصر المرّينيِّ، د ط. الدّار البيضاء: 1985م، دار الثّقافة.

– محمّد بن صالح العُثيمين ومحمّد بن أحمد الهاشمي، الدرّة النَّحويَّة في شرح الآجرُوميَّة، ط1. القاهرة: 2002م، دار ابن الجوزي للنَّشر والتَّوزيع.

– محمّد بن عمرو الطمّار، تلمسان عبر العصور، دورها في سياسة وحضارة الجزائر، د ط. الجزائر: 1984م، المؤسَّسة الوطنيَّة للكتاب.

– محمّد بن القاسم الأنصاري السّبتي، اختصار الأخبار عمّا كان بثغر سبتة من سني الآثار تح: عبد الوهاب بن منصور مؤرِّخ المملكة، ط2. الرّباط: 1983م.

– محمّد بن مالك الأندلسيّ، ألفية ابن مالك، دط. د ب: دت، دار التّعاون.

– ـــــــ ، شرح الكافية الشّافية، تح ومراجعة: عبد المنعم أحمد هريري، ط1. المملكة العربيّة السعوديّة: 1982م، مكّة المكرّمة، جامعة أم القرى، كليّة الشّريعة والدِّراسات الإسلاميَّة مركز البحث العلميِّ وإحياء التّراث الإسلامي.

- ـــــــــ ، شرح التّسهيل، تح: عبد الرّحمن السيّد ومحمّد بدوي المختون، ط1. جيزة: 1990م هجر للطِّباعة والنَّشر والتَّوزيع والإعلان.
- محمّد بن مريم التلمساني، البستان في ذِكْرِ الأولياء والعلماء بِتلمسان، مراجعة: محمّد بن أبي شنب. الجزائر: 1908م، المطبعة الثعالبيّة.
- محمّد بن النّديم، الفهرست، د ط. بيروت: د ت، دار المعرفة.
- محمّد الحفناوي، تعريف الخلف برجال السَّلف، د ط. الجزائر: 1906م، مطبعة بيير فونتانة الشّرقيّة.
- محمّد الصبّان، حاشية الصبّان على شرح الأشموني لأَلفية ابن مالك، ط1. بيروت: 1994م، دار الكتب العلميّة.
- محمّد الصّنهاجي بن آجرّوم، الآجرُّوميّة (في قواعد علم العربيّة)، تصحيح: أحمد الأمين الشّنقيطي، ط1. مصر: 1324هـ، مطبعة السّعادة.
- محمّد الطّنطاوي، نشأة النَّحو وتاريخ أشهر النُّحاة، ط2. القاهرة: 1995م، دار المعارف.
- محمّد عادل عبد العزيز، التَّربية الإسلاميَّة في المغرب أصولها المشرقيَّة وتأثيراتها الأندلسيَّة د ط. مصر: 1987م، الهيئة المصريَّة العامّة للكتاب.
- محمّد عبد الباري الأهدل، النّفحة العِطريَّة على المقدّمة الآجرّوميَّة، تح وتع: عبد الله بن محمّد بن محمّد بن عبده الأهدل، ط1. صنعاء: 2010م، دار النّشر للجامعات.
- ـــــــــ ، الكواكب الدريّة شرح على متمِّمة الآجرُّوميَّة (للشَّيخ محمّد بن محمّد الرّعيني الشَّهير بالحطاب)، د ط. بيروت: د ت، دار الكتب العلميَّة.
- محمّد عبد الله عنان، عصر المرابطين والموحّدين في المغرب والأندلس، ط1. القاهرة: 1964م، مطبعة لجنة التّأليف والتَّرجمة والنَّشر.
- محمّد عبد المنعم الشّرقاوي ومحمّد محمود الصّياد، ملامح المغرب العربيِّ، ط1. الإسكندريّة: 1959، منشأة المعارف .
- محمّد عيد، أصول النَّحو العربيِّ في نظر النُّحاة ورأي ابن مضاء في ضوء علم اللّغة الحديث، ط4. القاهرة: 1989م، عالم الكتب.
- محمّد عيسى الحريري، تاريخ المغرب الإسلاميِّ والأندلس في العصر المرِّينيِّ (610هـ/1213م- 869هـ/1465م)، ط2. الكويت: 1987م، دار القلم للنَّشر والتَّوزيع.

- محمّد الكتاني، سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس، تح ووضع فهارس: الشّريف محمّد حمزة بن علي الكتاني، د ط. الرّباط: 2005م، الموسوعة الكتانية لتاريخ فاس.
- محمّد المبرد، المقتضب، تح: محمد عبد الخالق عضيمة، ط3. القاهرة: 1994م، ج2 مطابع الأهرام التِّجاريَّة.
- محمّد المختار ولد أباه، تاريخ النَّحو العربيِّ في المشرق والمغرب، ط2. بيروت: 2008م دار الكتب العلميَّة.
- محمّد محفوظ، تراجم المؤلِّفين التونسيِّين، ط1. بيروت: 1985م، دار الغرب الإسلاميّ.
- محمّد محمّد زيتون، القيروان ودورها في الحضارة الإسلاميَّة، ط1. القاهرة : 1988م دار المنار للطَّبع والنَّشر والتَّوزيع.
- محمّد المنوني، العلوم والآداب والفنون على عهد الموحّدين، ط2. الرِّباط: 1977م، دار المغرب للتّأليف والتّرجمة والنّشر.
- ———، ورقات عن حضارة المرِّينيِّين، ط3. الرِّباط: 2000م، منشورات كليّة الآداب والعلوم الإنسانيَّة بالرِّباط، سلسلة بحوث ودراسات رقم20، مطبعة النّجاح الجديدة للطِّباعة.
- محمّد الوادي آشي، برنامج الوادي آشي، تح: محمد محفوظ، ط1. بيروت: 1980م.
- محمود حسين كوردي، الحياة العلميَّة في جبل نفوسة وتأثيراتها على بلاد السُّودان الغربيِّ (خلال القرون 2-8 حتّى 8- 14م)، د ط. طرابلس: مؤسّسة توالت للثّقافة، 2008م.
- محمود سليمان ياقوت، النَّحو العربيّ، تاريخه، أعلامه، نصوصه، مصادره، د ط. الإسكندرية: 1994م دار المعرفة الجامعيَّة.
- محمود فجال، الحديث النّبويّ في النَّحو العربيِّ، ط2. الرّياض: 1997م، أضواء السّلف.
- محمود محمود الحاج قاسم، الموجز لِما أضافه العربُ في الطبِّ والعلوم المتعلِّقة به، د ط. بغداد: 1974م، مطبعة الإرشاد.
- مرمول محمّد الصّالح، السياسة الدّاخليّة للخلافة الفاطميَّة في بلاد المغرب الإسلاميِّ، د ط. الجزائر: 1983م، ديوان المطبوعات الجامعيَّة.
- مفتاح خلفات، قبيلة زواوة بالمغرب الأوسط ما بين القرنَيْن (6هـ- 9هـ/12م- 15م) دراسة في دورها السياسيِّ والحضاريِّ، د ط. تيزي وزو: 2011م، دار الأمل للطِّباعة والنَّشر والتَّوزيع.
- نور الدِّين الأشموني، شرح الأشموني على ألفية ابن مالك، تح: محمّد محي الدِّين عبد الحميد، ط1. بيروت: 1955م، دار الكتاب العربيّ.

- يحي بن عبد المعطي (ابن معط)، الفصول الخمسون، تح ودراسة: محمود محمّد الطناحي د ط. د ب: 1977م، عيسى الحلبي وشركاه.
- ــــــــ، الدرّة الألفية (ألفية ابن معطي في النّحو والصّرف والخطّ والكتابة)، ضبط وتقديم: سليمان إبراهيم البلكيمي، ط1. القاهرة: 2010م، دار الفضيلة.
- يحي بوعزيز، أعلام الفكر والثّقافة في الجزائر المحروسة، ط1. بيروت: 1995م، دار الغرب الإسلامي.
- يوسف بن أحمد حواله، الحياة العلميَّة في إفريقية (المغرب الأدنى) منذ إتمام الفتح وحتَّى منتصف القرن الخامس الهجريّ (90/ 450هـ)، ط1. جامعة أم القرى، مكّة المُكرّمة: 2000م سلسلة بحوث الدِّراسات الإسلاميَّة.

❖ المراجع باللّغة الأجنبيّة:

- Françis Dechassey, La Mauritanie 1975 - 1990, L'étrier, La houe et le livre ED. Paris, Antropos.
- Gautier E.F, Le passé de l'Afrique du nord, Paris : 1952, les éditions de Paris.

❖ الأطاريح والأبحاث الجامعيَّة:

- إبراهيم حركات، الاتجاهات الثّقافيّة في بلاد المغرب خلال القرن الرّابع الهجريّ/ العاشر الميلاديّ، أطروحة الدّكتوراه. الرّباط: 1997- 1998م، جامعة محمّد الخامس، كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة.
- حسن محمّد عبد الرّحمن أحمد، شرح ألفية ابن معط لأبي جعفر أحمد بن يوسف بن مالك الرُّعيني (779هـ) السّفر1، تحقيق ودراسة، أطروحة الدّكتوراه. المملكة العربيّة السّعوديّة: 1994م، جامعة أم القرى، كليّة اللّغة العربيَّة، قسم الدِّراسات العليا العربيَّة.
- خديجة الحديثي، أبو حيّان النَّحويّ، أطروحة الدّكتوراه، ط1. بغداد: 1966م، مطبعة دار التضامن.
- خديجة ناور، تطوّر الدَّرس النَّحويّ في المغرب من العصر المرابطيّ إلى العصر السّعديّ بحث دبلوم الدِّراسات المُعمَّقة. مراكش: 2002- 2003م، جامعة القرويِّين، كليّة اللّغة العربيّة.
- عبد الرّحيم بن عبد السّلام نبولسي، فرائد المعاني في شرح حرز الأماني ووجه التهاني لابن آجرُّوم دراسة وتحقيق، أطروحة الدّكتوراه في النَّحو والصَّرف. المملكة العربيَّة السعوديّة وزارة التّعليم العالي، جامعة أم القرى، كليّة اللّغة العربيّة: 1997م.

- عبد العزيز بن هنية، المدرسة المغربيّة في النَّحو العربيِّ – متن الآجرُّوميَّة عيّنة–، بحث الماجستير. الجزائر: 2009م، جامعة قاصدي مرباح ورقلة، كلية الآداب والعلوم الإنسانيَّة، قسم اللّغة العربيّة وآدابها.

- علي بن الحسن أيت علي، ابن العربي ومنهجه في (القيس) مع تحقيق قسم العبادات أطروحة دكتوراه الدَّولة في العلوم الإسلاميَّة والحديث. المملكة المغربيَّة: 2000- 2001م جامعة القرويِّين، دار الحديث الحسنيّة.

- عمّار مصطفاوي، الجهود اللّغويّة في المغرب الأوسط من القرن السّادس إلى القرن التّاسع الهجريَّين، أطروحة دكتوراه في اللّغة. الجزائر: 2007م، جامعة تلمسان، قسم الأدب العربي.

- محمّد صالح الجوه، أثر الأندلسيِّين في الأدب المغربيِّ على عهد الموحّدين، أطروحة دكتوراه الدّولة. جامعة الجزائر، معهد اللّغة والأدب العربيّ: 1987م.

- محمّد غنضور، فتح اللّطيف للبسط والتَّعريف لمحمّد بن محمّد بن أبي بكر الدلائي دراسة وتحقيق، بحث دبلوم الدِّراسات العليا في اللّغة العربيَّة. جامعة سيدي محمّد بن عبد الله، كلية الآداب والعلوم الإنسانيّة بفاس: 1987- 1988م.

- مهنّد جاسم محمّد، الدِّراسات النّحويَّة عند المكُّودي (ت807هـ) في كتابه شرح الألفية أطروحة الدّكتوراه في اللّغة العربيّة وآدابها. الجامعة المستنصريّة، كليّة الآداب: 2004م.

- ميلود التوري، الحركة اللّغويّة بالمغرب الأقصى: عصر المرابطين والموحّدين، بحث دبلوم الدِّراسات العليا في اللِّسانيّات. الرِّباط: 1992- 1993، جامعة محمّد الخامس، كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة.

- نورة المعاشي، ابن عصفور الإشبيليّ وجهوده النَّحويَّة (597هـ- 669هـ)، بحث دبلوم الدِّراسات العليا المُعمّقة. مراكش، جامعة القرويِّين، كليّة اللّغة العربيّة: 2001- 2002م.

- نور الدِّين دنياجي، الحركة اللّغويَّة ووضع العربيَّة في المغرب الأقصى خلال العصر المرّينيّ، أطروحة الدّكتوراه. الدّار البيضاء: 1999- 2000م، كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة بنمسيك، جامعة الحسن الثّاني.

- لحسن العوكاز، الدَّرس النّحويّ في الأندلس: تأصيل في المنهج والاجتهاد، بحث دبلوم الدِّراسات العليا المعمّقة. قسم اللّغة العربيَّة، جامعة القرويِّين بمراكش: 2001- 2002م.

❖ **المجلات:**

- أعمال ندوة تيسير النَّحو، منشورات المجلس الأعلى للّغة العربيّة، الجزائر: 2001م.

- حوليّة المجمع، طرابلس: 2009م، مجمع اللّغة العربيَّة، دار المنار للطِّباعة والنَّشر، ع7.
- حوليّة المجمع، طرابلس: 2010م، مجمع اللّغة العربيَّة، مكتب النَّشر بالمجمع، ع8.
- زهرة الآس في فضائل العبّاس، الرِّباط: 1977م، دار المناهل، ج2.
- دائرة المعارف الإسلاميَّة، نقلها إلى العربيّة: محمّد ثابت الفندي. مصر: يونيه 1934م مج1، ع5.
- سبتة ودورها في إثراء الفكر الإسلاميِّ، محاضرات المهرجان الثّقافيِّ الثّالث 26- 27- 28 أبريل 1979م من تنظيم جمعية الثّقافة الإسلاميَّة. المغرب: 1984م، مطابع الشويخ.
- سلسة القوافل العلميَّة، بجاية/ تيزي وزو: 2011م، منشورات وزارة الشّؤون الدِّينيَّة والأوقاف الجزائر، دار الأمل للطِّباعة والنَّشر والتَّوزيع.
- سلسلة بحوث ودراسات رقم24، منشورات كليّة الآداب والعلوم الإنسانيَّة، ط1. الرّباط: 1999م، مطبعةُ النَّجاح الجديدة بالدَّار البيضاء.
- مجلّة التّاريخ العربيّ، المغرب: 1998م، ع7/ 1999م، ع9/ 2000م، ع15.
- مجلّة اللّسان العربيِّ، الرِّباط: د ت، مكتب تنسيق التّعريب، مطبعة الدَّار البيضاء، مج12 ج1.
- مجلّة اللِّسان العربيِّ، الرّباط: 1996م، مكتب تنسيق التَّعريب، جامعة الدّول العربيَّة الهلال العربيّة للطِّباعة والنَّشر، ع41.
- مجلّة المجمع الجزائريِّ للّغة العربيَّة، الجزائر: المؤسَّسة الوطنيَّة للفنون المطبعيَّة، جوان 2006م، ع3.
- مجلّة علوم اللّغة، القاهرة: 2004م، كليّة الآداب، جامعة حلوان، مج7، ع4، دار غريب للطِّباعة والنَّشر والتَّوزيع.
- مجلّة المناهل، الرِّباط: 1984م، وزارة الشّؤون الثّقافيَّة، ع31.
- بحوث معجميّة 1، طرابلس: 2010م، منشورات مجمع اللّغة العربيَّة الليبيّ، دار المنار للطِّباعة والنَّشر، ع1.

فهرس الموضوعات

الموضوع **الصّفحة**

إهـداء

شكر وعرفان

مقدّمة ص01

مدخل

وضع المغرب في العصر الوسيط: السياسيّ والاقتصاديّ والاجتماعيّ........... ص08

الفصل الأوّل

الحركة العلميَّة في المغرب طيلة العصر الوسيط وعوامل ازدهارها

مدخل ص25

1- واقع النَّشاط الفكريِّ في المغرب طيلة العصر الوسيط.............. ص25

2- عوامل ازدهار النَّشاط الفكريِّ في المغرب.............................. ص48

2-1- شيوع المراكز الثّقافيَّة.. ص48

2-2- الرَّحلات العلميَّة.. ص57

2-3- توافد الطّلبة والعلماء على بلاد المغرب.............................. ص63

2-4- تشجيع الأمراء على العلم.. ص65

3- وسائط الثَّقافة في المغرب.. ص70

خلاصة الفصل.. ص80

الفصل الثّاني

بواكير الحركة اللّغويّة والنَّحويَّة في المغرب طيلة العصر الوسيط وتطوّرها

مدخل ص83

1- نشر اللّغة العربيَّة والإسلام في المغرب.............................. ص83

2- الدِّراسات اللّغويَّة بدايات وتطوّر.................................... ص90

3- الدِّراسات النَّحويَّة في المغرب.................................... ص111
3-1- نشأة النَّحو العربيِّ عامّة وتطوّره.................................... ص111
3-2- التَّأسيس للدَّرس النَّحويِّ في المغرب.................................... ص116
3-3- أوائل النُّحاة في المغرب.................................... ص118
3-4- تطوّر الدِّراسات النَّحويَّة في المغرب.................................... ص121
4- أشهر الكتب اللّغويَّة والنَّحويَّة المتداولة في المغرب طيلة العصر الوسيط ص135
خلاصة الفصل.................................... ص144

الفصل الثّالث

عرض لأشهر النّحاة المغاربة ولآرائهم واختياراتهم

مدخل.................................... ص148
1-أبو موسى الجُزولي.................................... ص149
1-1- مولده ونشأته وحياته العلميَّة.................................... ص149
1-2- التَّعريف بالمقدّمة الجُزوليَّة واهتمام العلماء بها.................................... ص151
1-3- آراء الجُزولي واختياراته النَّحويَّة.................................... ص156
2- ابن معط الزواويّ.................................... ص164
2-1- مولده ونشأته.................................... ص164
2-2- شيوخه وتلاميذه.................................... ص166
2-3- مؤلّفاته.................................... ص167
2-4- عناية العلماء بمؤلّفات ابن معط النَّحويَّة.................................... ص167
2-5- مذهب ابن معط واجتهاداته النَّحويَّة.................................... ص173
3- ابن آجُرُّوم الصّنهاجيّ.................................... ص184
3-1- نشأته ومؤلّفاته.................................... ص184
3-2- التَّعريف بالآجُرُّوميَّة.................................... ص186
3-3- اختيارات ابن آجُرُّوم ومذهبه النَّحويّ.................................... ص189
4- عبد الرّحمن المكُّودي.................................... ص197
4-1- مولده ونسبه ونشأته.................................... ص197

4-2- شيوخه وتلاميذه.. ص197
4-3- آثاره العلميَّة.. ص198
4-4- منهج المكُّوديّ في التّأليف من خلال شرحه على الأَلفيَّة................ ص199
4-5- آراء واختيارات المكُّوديّ ومذهبه النَّحويّ.................................. ص205
خلاصة الفصل.. ص213

الفصل الرّابع

خصائص النَّحو المغاربيِّ وأثره في مُصنَّفات المتأخِّرين

مدخل.. ص218
1- تداخل النَّحو المغاربيِّ والأندلسيِّ... ص218
2-خصائص النَّحوِ المغاربيِّ.. ص233
2-1- التأثُّر بالنَّحو المشرقيِّ.. ص234
2-2- التَّيسير والاختصار.. ص239
2-3- الطَّابع التَّعليميّ.. ص251
2-4- تَنَوُّعُ الاستشهاد اللّغويِّ عند المغاربة.................................... ص253
2-5- المناظرات النَّحويَّة... ص261
3- موقفُ المغاربة من السَّماع والقياس... ص263
4- التَّعليلُ في نَحْوِ المغاربة... ص272
5- آراء العلماء في النُّحاة المغاربة وانتماءاتهم النَّحويَّة....................... ص275
6- أثر نُحاة المغرب في مُصنّفات غيرهم....................................... ص279
خلاصة الفصل.. ص291
الخاتمة... ص294
قائمة المصادر والمراجع.. ص301
فهرس الموضوعات... ص316

عنوان الأطروحة: إسهامات علماء المغرب الوسيط في تنمية الدّرس النّحويّ

ملخّص الأطروحة باللّغة العربيّة: إنَّ البحثَ في جهود نُحاة المغرب طيلة العصر الوسيط ليس بالأمر السَّهل؛ لأنَّه يبقى من الموضوعات الّتي لا تزال في حاجة إلى نفض الغُبار لِقِلَّة الدِّراسات حولها والسّبب الرّئيس في ذلك يعود إلى اعتقاد الكثير أنَّ المغاربة لم يشتغلوا بالنَّحو العربيِّ كما فَعَلَ علماء المشرق والأندلس، حتَّى إنَّ ذِكْرَ بعض الأسماء المغربيَّة الّتي اهتمّت بهذا الحقل كان إلى جانب نُحاة المذهب الأندلسيِّ.

واستطعتُ في هذه الأطروحة أنْ أُوَضِّحَ دَورَ المغاربة في تنمية الدَّرس النَّحويِّ بفضل ما قدَّموه فيه دراسةً وتدريسًا وتأليفًا، حيث تعرَّضتُ في ضوء ذلك لأشهر النُّحاة الّذين كان لهم الأثرُ المحمود في ما بلغه هذا الدَّرس من نُضْجٍ وتَقَدُّمٍ طيلة فترة الدِّراسة. والبداية كانت مع **أبي موسى الجزولي** صاحب المقدِّمة الشّهيرة (الجُزوليَّة)، ثمّ مع تلميذه **ابن معط الزواويّ** الّذي أَبْدَعَ في النَّظمِ النَّحويِّ أيمّا إبداع فترك مؤلَّفًا ذاع صيتُه باسم (الدرّة الألفية)، ويليه **ابن آجرّوم الصّنهاجيّ** الّذي ارتبط اسم مقدِّمته بالنّحو في اللّغات الأوربيّة، وأخيرًا **عبد الرّحمن المكُّودي** الّذي انشغل بِدوره بالنّحو العربيِّ تعليمًا وتأليفًا.

Thesis Title: The Maghrebians' contributions of the Middle Age in Developing Arabic Grammar lesson.

Abstract in English: The Research in the Maghrebian Grammar Lesson is not an easy task, studies about it are scarce because it is used to think that the maghrebians didn’t work on Grammar as Orientalists and Andalousians did, it is worthy to mention that most maghrebians names who dealt with this issue are cited among the Andalusian doctrine.

In my thesis, I tried to highlight the Maghrebians role in enriching the Grammar Lesson thanks to the studies, teachings, books they have fulfilled. I have dealt with the most known of Maghrebian researchers **Abu moussa El Djozouli** ; the writer of the famous Moquadima named ” *El-Djouzoulia*”, then with his disciple **Ibn Mouati Zwawi** who wrote a very beautiful creation in grammatical composing called “*Al-Darra Al-Alfia*”, then comes **Ibn Adjerroum Asanhaji** whose Moquadima name is linked to European Languages, At last with **Abd rahman El-Makkoudi** who worked on teaching and writing.

Intitulé de la thèse: Contributions des Maghrébins du moyen- Age dans le développement de la grammaire arabe.

Résumé en Français: Etudier les efforts des Grammairiens Maghrébins du Moyen-Age n'est pas chose facile étant donné le peu d'études effectuées dans ce domaine. A cet effet la plupart croient que les Maghrébins, contrairement aux Orientaux et Andalous, ne se sont pas adonnés à l'étude de la grammaire; et les quelques noms Maghrébins se sont intéressés à ce domaine font partie de l'école des grammairiens Andalous.

La présente thèse tente de mettre en exergue le rôle des Maghrébins dans l'enrichissement de l'étude de la grammaire à travers lescontributions de ceux- là: études, enseignements, rédactions.

A la lumière de cette étude, nous avons exposé une panoplie des plus célèbres grammairiens Maghrébins, à commencer par **Abu moussa El-Djozouli**, pionnier de la grammaire maghrébine et auteur de la célèbre Mouquadima *«El-Djouzoulia»* ; passant ensuite à son disciple **Ibn Mouati Zwawi**, qui a innové dans le système grammairien, laissant derrière lui un ouvrage intitulé : *«Al-Darra Al-Alfia»*, ainsi qu'**Ibn Adjerroum Asanhaji**, qui a relié l'intitulé de sa Moquadima est liée à la grammaire dans les langues européennes. Pour parvenir, **Abd Rahman El-Makoudi** qui s'est consacré à l'enseignement et à la rédaction.

Agzul ntmaziyt: Ma neârev ad nger tamawt $er wazal n leqdicat i xedmen imusnawen n tjerrumt n Tefriqt n ugafa di tallit talemmast, ad d-naf ur yelli ara d ayen isehlen ad t-neslev acku drus n yinadiyen i yettwaxedmen deg wannar-agi n tjerrumt $ef tallit-nni ; tagnit-agi tettwafrev acku aîas n yemnadiyen d yesdawanen i iêsben d akken imusnawen n Tefriqt n ugafa ur fkan ara azal i as-iwulmen i tmusni n tjerrumt am wid n tmura n ccerq ne$ wid n Landalus, u kra-nni n yismawen i d-yufraren deg wannar-agi, yefka-ten-id u$erbaz n Landalus.

Deg unadi-agi nne$, neârev ad d-nbeyyen amkan n imusnawen n tjerrumt n Tefriqt n ugafa di tallit talemmast i yevwan, ama s t$uri, ama s uselmed, ama s tira, tamusni n tjerrumt.

D anadi da$en andi d-nejmeâ imusnawen i d-yufraren d wid yettwassnen di tallit-agi talemmast am Ljazuli, yiwen seg wudmawen imeqqranen n tjerrumt n tefriqt n ugafa i yuran Lmuqaddima i $er icudd yisem-is, tin yettwassnen s wezwel n «Ljazuliyya » ; am da$en anevfar-ines Ibn Muâaîi i d-yesnulfan aîas di nnivam n tjerrumt, yeooa-d yiwen n wedlis deg wannar-a, iwumi isemma « Durra al al fiyya », rnu $ur-sen Ibn Aooerrum i icudden azwel n Lmuqaddima-yines $er tjerrumt n tmura n Lurup, i wakken ad d-nawev $er Lmakudi i yesêarsen $ef uselmed d tira.